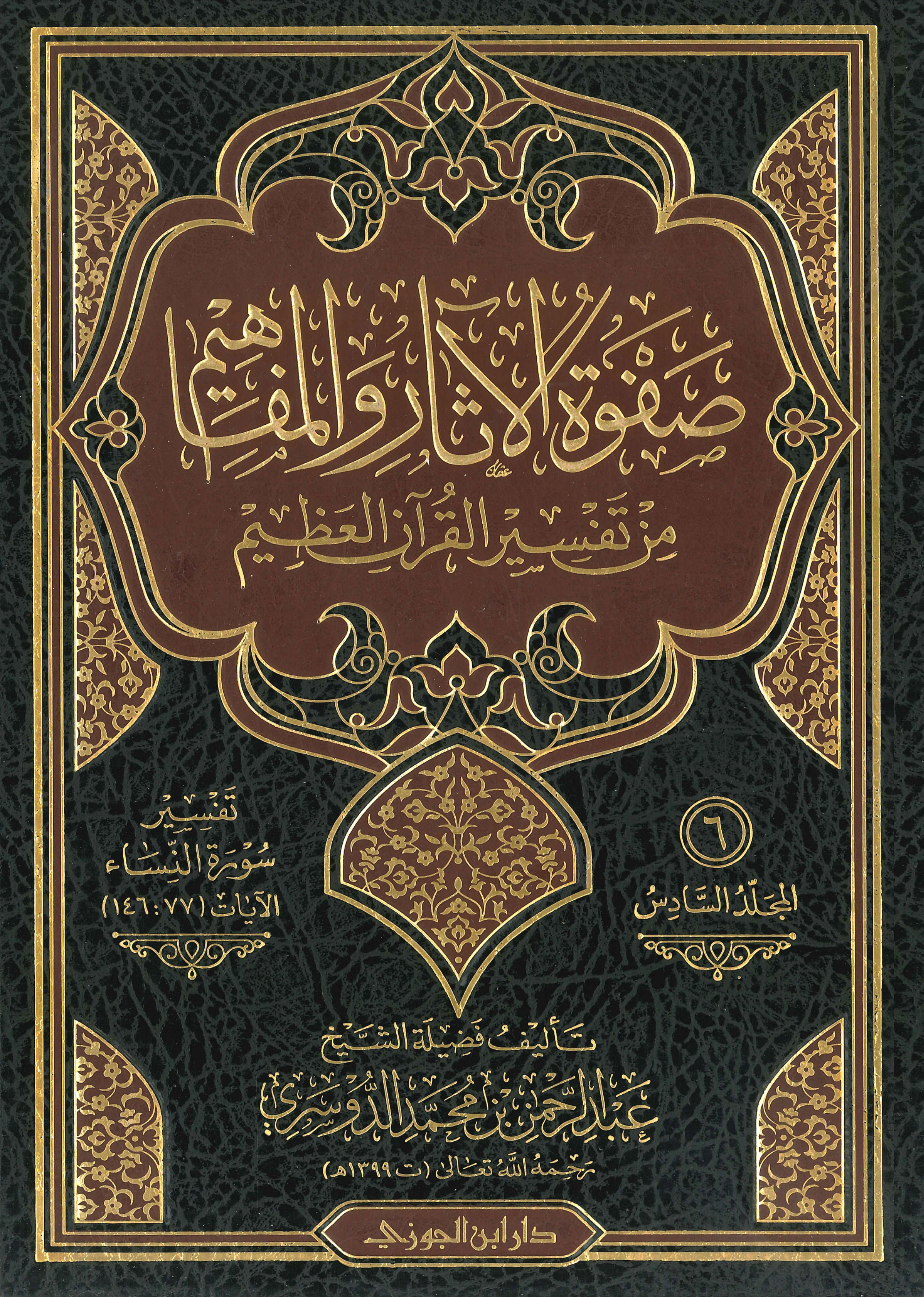
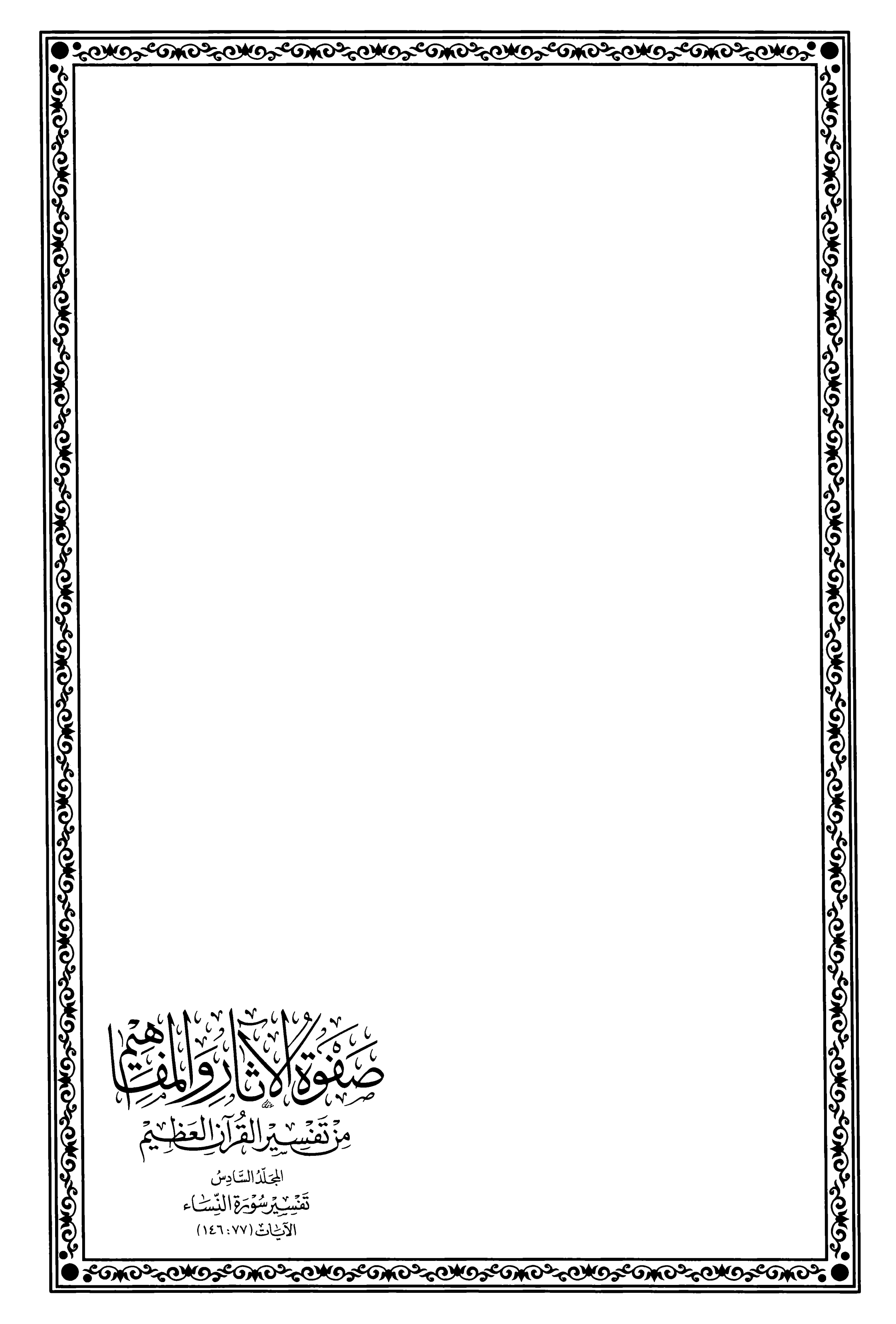

صفوة الآثار والمفاهيم
من تفسير القرآن العظيم
تفسير
سورة النساء
الآيات (٧٧ : ١٤٦)
٦
المجلد السادس
تأليف فضيلة الشيخ
عبد الرحمن بن محمد الدوسري
رحمه الله تعالى (ت ١٣٩٩هـ)
دار ابن الجوزي



صفوة الآثار والمفاهيم

من تفسير القرآن العظيم

المجلد السادس

تفسير سورة النساء

الآيات (٧٧ : ١٤٦)

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٩ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدوسري ، عبد الرحمن محمد
صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم . / عبد الرحمن محمد الدوسري - ط ١ . - الدمام ، ١٤٣٩ هـ
٥٢٣٢ ص ؛ .. سم
ردمك : ٥ - ٣٥ - ٨٢٢٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - التفسير بالمأثور أ . العنوان
ديوي ٣٢ , ٢٢٧ ٩٣٠ / ١٤٣٩

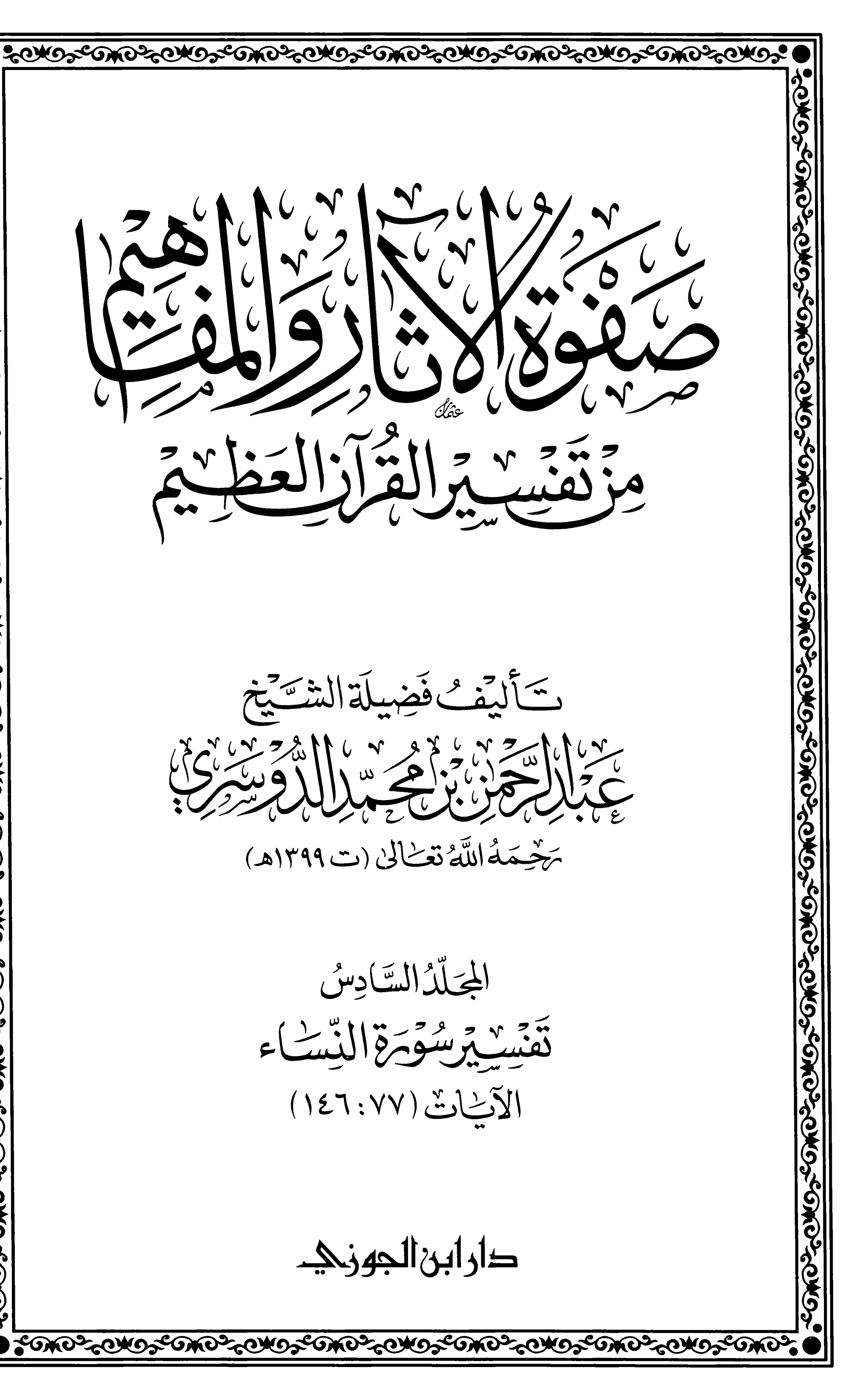
رقم الإيداع : ١٤٣٩/٩٣٠
ردمك : ٥-٣٥-٨٢٢٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة
(١٤٣٩هـ)



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية : الدمام - طريق الملك فهد - ت : ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣ ، ص ب : ٢٩٥٧
الرمز البريدي : ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي : ٨٤٠٦ - فاكس : ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس : ٢١٠٧٢٢٨
جوال : ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت : ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت : ٠١٢٦٨١٤٥١٩ - بيروت
هاتف : ٨٦٩٦٠٠/٠٣ - فاكس : ٦٤١٨٠١/٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول : ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨
تلفاكس : ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني :
aljawzi@hotmail.com-www.aljawzi.com

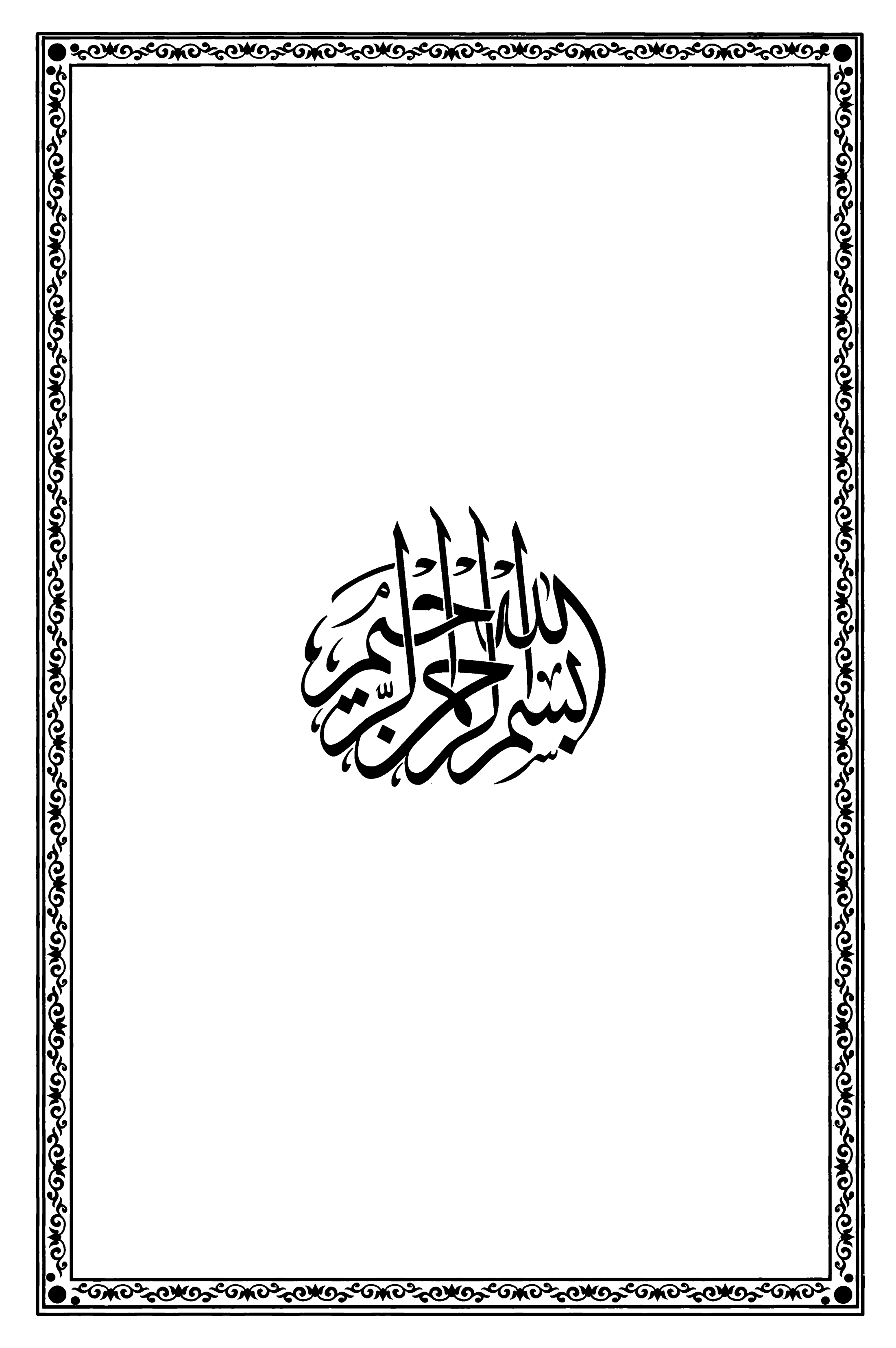


صفوة الآثار والمفاهيم
من تفسير القرآن العظيم

تأليف فضيلة الشيخ
عبد الرحمن بن محمد الدوسري
رحمه الله تعالى (ت ١٣٩٩هـ)

المجلد السادس
تفسير سورة النساء
الآيات (٧٧ : ١٤٦)

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وقوله سبحانه في الآية (٧٧): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾:

والآية (٧٨): ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾.

وجه مناسبة هذه الآيات لما قبلها ظاهرة واضحة؛ لأنه سبحانه لما فرض القتال علىٰ عباده بعدما طلبوه، وجب عليهم الامتثال، فلما تريث بعضهم وكف عنه، قال لنبيه ﷺ: ألا تعجب يا محمد من ناس طلبوا القتال فأُمروا بالموادعة، فلما كتب عليهم خافوا وجزعوا وتساءلوا عن عدم تأخير الوجوب، تساؤل الذي اعتاد الذلة، فاختار أن يموت في مربضه كالحيوان.

وقد نقل المولعون بذكر أسباب النزول روايات لا يجوز تصديقها ولا هضمها، ممن يعترف بفضل السابقين الأولين من أخصاء صحابة رسول اللّه ﷺ عما رموا به مهما كان سنده، خصوصًا وهو لم يروه إلا من كان معروفًا بالتساهل، كما أن ابن عباس ممن ابتلي بالكذب عليه كثيرًا، وقد روىٰ ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدة روايات ولم يعلق عليها بشيء، ومن أمثلها وأقربها إلىٰ الصواب الأثر المرقم (٩٩٥٤)، إنهم قوم أسلموا قبل أن يفرض عليهم القتال، ولم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فيجوز أنهم ممن أسلم حديثًا، وممن يريد إظهار نفسه بمظهر الشجاعة.

وهذا النوع هم الذين يسرع إليهم الخوف إذا جد الجد، ويجوز أن

يكونوا ممن دخلهم النفاق، أو تأثروا بدعايات المنافقين وتخذيلهم، فأما السابقون من المهاجرين والأنصار فحاشا وكلَّا أن يقفوا هذا الموقف المزري من ذروة سنام الدين.

ويدل علىٰ بطلان الروايات المنسوبة عن عكرمة عن ابن عباس وعن قتادة أنها تنص علىٰ أن الذين طلبوا القتال فقيل لهم: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة أنهم أناس من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وهم يومئذ بمكة، والزكاة لم تفرض بمكة، وإنما فرضت في المدينة بعد الهجرة، ولا يقول هذا القول إلا حديث عهد بالإسلام ممن لم ترسخ في الإيمان قدمه، فإنه هو الذي يضيق ذرعًا بما يؤمر به من مكروهات النفس ومشقاتها كالجهاد. وأما الصحابة الأوائل فمعاذ اللَّه أن يصدر هذا القول منهم، وهم يستيقنون أن الآجال محدودة والأرزاق مقسومة، وأنه لن تموت نفس حتىٰ تستكمل رزقها وأجلها، وأن السلاح مهما غلب لا يقتل إلا من انتهىٰ أجله، بل كانوا علىٰ غاية كبرىٰ من الانقياد لأوامر اللَّه مهما عظم خطرها لقوة تفضيلهم الحياة الآخرة علىٰ الحياة الدنيا، وهم علىٰ حد قول الشاعر مما هو مشهور من سيرتهم رضوان اللَّه عليهم:

فلو كان يرضي اللَّهَ نحرُ لجادوا بها طوعًا وللأمر سلَّموا
كما بذلوا عند الجهاد نحورهم لأعدائه حتىٰ جرىٰ منهم الدمُ

ولا يصح ـ أيضًا ـ دعوىٰ نزولها في اليهود كما هو مروي عن بعضهم؛ لأن التعجيب في هذه الآية صادر في المؤمنين بكل وضوح، ويدخل فيهم ضعيف الإيمان، وحديث العهد بالإسلام والمنافقون، لأنهم يظهرون الرغبة في الجهاد تلبيسًا علىٰ المؤمنين.

ومما يدل علىٰ بطلان القول في سبب نزولها بكبار الصحابة أنه يستحيل منهم أن يخشوا الناس كخشية اللَّه أو أشد خشية؛ لأن هذا من سمات المنافقين، ولأن اللَّه ذكر بعد هذه الآية أنهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ ولا شك أن هذا

من صفات المنافقين، كما أن من صفاتهم الاعتراض على الله بقولهم: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧]، فإن هذا وهذا من سماتهم، لا من سمات المؤمنين بتاتًا، وكذلك خشيتهم من الناس أشد من خشيتهم من الله، فإن هذا من صفات المنافقين قطعًا.

ومما يدل على أن هذه الآية في المنافقين ما قاله الله سبحانه في الآية: (٢٠) من سورة محمد ﷺ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [محمد].

ومما يدل على براءة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار مما وصموا به موقفهم العظيم المشرف رضي الله عنهم حين استشارة الرسول ﷺ لهم في غزوة بدر، وتشجيعهم له أعظم تشجيع، حتى التفت إلى الأنصار فقال المقداد: «امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه»، ثم قال سعد بن معاذ: «امض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء». فالذين هذا منطقهم يستحيل نزول هذه الآية فيهم، وإنما هي في المنافقين، وقد أزال الله الالتباس بقوله بعد آيات: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [النساء: ٨٨]، وهذا كتبرئه منه سبحانه لأصفياء نبيه من ذلك، الذين هم خيار الصحابة المشهور لهم بالجنة، وما استحقوها إلا بقوة الإيمان والإذعان، وصلاح الأعمال، والمسابقة في التضحية وبذل النفوس والأموال في سبيل الله، وقاء لروح نبيهم العزيزة، ودفاعًا عما جاء به من النور والهدى، وما قلته من أقل الواجب

في الدفاع عنهم.

وفي قوله سبحانه علىٰ طريق التعجيب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ إشعار بأن هؤلاء الضعفاء الإيمان أو المنافقين، طلبوا القتال أو أبدوا الرغبة فيه مسابقة للحوادث، أو جريًا علىٰ عادتهم في شن الغارات للقتال وأخذ الثأر حمية وكسبًا، فأمرهم اللَّه بكف أيديهم لتخمد في نفوسهم العوائد الجاهلية وتتلاشىٰ، ويحل محلها أشرف العواطف الدينية المصلحة للإنسانية، فأمرهم اللَّه بالصلاة المكسبة للخشوع والعبودية للَّه وتمكين الإيمان في قلوبهم، وبإتيان الزكاة التي تفيدهم ـ مع تمكين الإيمان ـ شد أواصر التراحم، وناهيك بما في الصلاة والزكاة من الرحمة والعطف وقوة التربية علىٰ رباطة الجأش والتضحية. فلما فرض اللَّه عليهم الجهاد صاروا إلىٰ فريقين:

أحدهما: كبار الصحابة وخيارهم من أهل العزم واليقين، فهؤلاء أطاعوا وباعوا أنفسهم للَّه، فكان الفرق بين قتالهم في الجاهلية والإسلام فرقًا عظيمًا. وأما المنافقون ومرضىٰ القلوب فكانوا قد أنسوا وسكنوا إلىٰ ما قيل لهم بادئ الأمر من كف الأيدي، فأخذ منهم الجبن مأخذه، وأحبوا الحياة الدنيا، وكرهوا الموت لأجلها، وليس هذا من شأن أهل الإيمان الراسخ، ولا أهل العقل الراجح، فظهر عليهم أثر الخوف والخشية من الأعداء حتىٰ رجحوها علىٰ خشيتهم من اللَّه، وسهلت عليهم مخالفته بالقعود عن القتال واستنكارهم فريضته، واستحبابهم تأخرها طمعًا بالحياة وعدم المخاطرة بها.

ولهذا صدر منهم التساؤل الذي لا يجوز صدوره، لكونه اعتراضًا واستنكارًا حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، وهذا القول لا يصدر ممن ثبت الإيمان في قلبه، وخالط الإخلاص شرايينه، وإنما يصدر من ضعيف الإيمان الذي تزاحمه الشكوك، أو منافق مخادع، لأن اللَّه سبحانه إذا أمر بشيء فلا يسأل عن علته من هو خالص الإيمان، ولهذا وقع منهم الاقتراح علىٰ اللَّه بقولهم: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هذا من

سوء الأدب الذي لا يصدر من مؤمن خالص.

وحرف «لولا» يكون حرف امتناع لوجود؛ كقول القائل: «لولا زيد لأكرمنك»، ويكون للتحضيض بمعنىٰ «هلَّا» وإن استعماله لهذا المعنىٰ كثير في القرآن، وحرف «لما» حرف وجوب لوجوب علىٰ الصحيح من مذاهب النحاة، وحرف «إذا» الفجائية ظرف مكان علىٰ ما اختاروه.

وقولهم: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هو استزادة منهم في الكف عن القتال واستمهال في مدة تأخيره، وهذا القول ناشئ من عدم وثوقهم من أنفسهم بمقابلة عدوهم، فضلًا عن الثبات أمامه، وذلك من ضعف الإيمان واليقين، أو ناشئ من تصميمهم علىٰ عدم البروز للعدو، وهذا نفاق إذ عدم التصميم لا يصدر من المؤمنين قطعًا، وأكثر المفسرين قالوا: إنهم يقصدون بأجل الموت كي يموتوا علىٰ فراشهم موتة يستعيبها أكثر العرب، فضلًا عن المؤمنين الذين هم خالصو الإيمان.

وبعضهم فسروا الأجل القريب باستمهال مبهم، وقد أعلم اللَّه نبيه أن يرد عليهم الردَّ الشافي للمؤمنين والرادع لهم ولأمثالهم من المنافقين فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد إن ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ لا يفيدكم الركون إليها، ولا الرغبة فيها؛ لأن نعمها مهما كثرت وتضخمت فهي قليلة بالنسبة إلىٰ نعيم الآخرة، والتي نقطة منها خير من الدنيا وأضعافها، ومنديل من مناديل أهلها لا تعدله الدنيا قيمة.

وأيضًا فإن نعم الدنيا منقطعة بخلاف نعم الآخرة فهي مؤبدة ما دامت السموات والأرض، ثم إن نعم الدنيا مشوبة بالمنغصات المختلفة المورثة للهموم والغموم والأحزان والمكاره، ومع هذا فإن نعم الدنيا مشكوك في بقائها علىٰ ما فيها من العيوب، فإن أعظم الناس ملكًا ونعيمًا لا يدري عن عاقبته حتىٰ في الغد القريب، بخلاف نعم الآخرة فإنها لا مقطوعة ولا ممنوعة أبدًا، وما أحسن قول الشاعر:

فــإنْ تُعجِــبِ الدنــيا رجــالًا ... فإنها متاعٌ قليلٌ والزوالُ قريبُ

ولهذا قال اللَّه سبحانه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ وذلك لخلود أهلها وكثرة نعيمهم وعدم انقطاعه، وسلامته من جميع المنغصات والمكدرات. وإنما قال سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ تنبيها علىٰ أهليتها والعارفين بفضلها وأفضليتها، وحقيقة الطريق الموصل إليها، وأنها لا تنال إلا بالتقوىٰ المقتضية للجهاد النفسي باتقاء المخالفات، والإخلال بموجب التكليف، والجهاد الخارجي بقتال أعداء اللَّه المخالفين لدينه، والنابذين لوحيه، والصادين عن سبيله، فإن أعلىٰ منازل الجنة هي منازل الشهداء، وإن التقوىٰ التي تنال بها المنازل الطيبة في الآخرة هي العاصمة من معارضة أوامر اللَّه والاقتراح علىٰ اللَّه، أو خشية غيره المانعة من امتثال أوامره في الجهاد الذي هو من ضروريات العقيدة وإقامة الدين، فالخيرية الصحيحة مرتبطة بالتقوىٰ في الدنيا والآخرة، وصاحبها رابح في الدنيا، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي لا تظلمون من ثواب أعمالكم، ولا بالزيادة من عقوبات سيئاتكم ولا بالنقص من أعماركم قدر الفتيل الذي هو في شق نواة التمرة، فكيف تحجمون عن القتال؟!.

ملاحظة مهمة:

ادعىٰ بعضهم أن قوله سبحانه: ﴿أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ﴾ أنه يوهم الشك، وهذا محال علىٰ اللَّه علام الغيوب، قد أتوا بوجوه من التأويل أصحها ما يؤيده القرآن من أن «أو» هنا بمعنىٰ «بل» كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ أي بل يزيدون، أو هم في عين من يبصرهم يزيدون كما قاله البعض، فتكون هنا خشيتهم من الناس كخشية اللَّه بل أشد خشية، أو أنه أشد خشية عند من يبصر حالهم وما هم عليه من الرعب والخور والقلق وعدم الوثوق بما هم عليه.

وملاحظة ثانية مهمة ـ أيضًا ـ:

وهي أن قوله سبحانه: ﴿أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ﴾ يفهم منه أن الواجب علىٰ المسلمين المؤمنين هو انحصار خشيتهم للَّه، وخوفهم من اللَّه فقط، وأنه

لا يجوز لهم أن يخشوا أناسًا مثلهم نواصيهم بيد اللَّه، كما قال النبي هود في تحديه السافر لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود] وكما قال اللَّه سبحانه فيما أسلفنا تفسيره: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران] وفي ذلك من تقرير التوحيد ما يجعل المؤمن طودًا شامخًا، وليثًا صائلًا لحماية عقيدته، غير هياب ولا وجل من أحد أبدًا، لأن جميع خلق اللَّه لا يقدرون علىٰ إنزال ضرر بأحد أو دفعه بتاتًا، إلا بإذن اللَّه ومشيئته، فهو المالك لنواصيهم، والمسير لها.

فالسعيد الرابح هو من عامل اللَّه فيهم ولم يعاملهم في اللَّه، أي علىٰ حساب اللَّه، وخاف اللَّه فيهم ولم يخفهم في اللَّه، وأرضىٰ اللَّه بسخطهم ولم يرضهم بسخط اللَّه، وراقب اللَّه فيهم ولم يراقبهم فيه، وآثر اللَّه عليهم ولم يؤثرهم علىٰ اللَّه، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه، وأحيا حب اللَّه وخوفه ورجاءه فيه، فهذا هو الذي تكون معاملته كلها ربحًا - كما قاله ابن القيم - فالإنسان مهما كان غير عالم بمصالحه علمًا حقيقيًا، ولا قادر علىٰ تحصيلها قدرة استغلالية فهو عن منفعة غيره أعجز وأعجز، فما أحمق من يرجو أو يخاف إنسانًا من دون اللَّه! ولكن بفقد كثير من المسلمين لهذه الحقائق العقائدية صاروا جبناء وبخلاء أمام غزو أعدائهم، حتىٰ صار بعضهم خادمًا للأعداء بالتجسس وإصدار الفتاوىٰ المضرة بالمسلمين، وبعضهم ينخرط في سلك التجنيد للكفار أو أفراخهم ليقاتل المسلمين ويرهبهم، ويخضعون لأعداء اللَّه وأعدائهم طمعًا في مادتهم أو خوفًا من سلطتهم دون مبالاة بعلام السرائر، والمهيمن علىٰ النواصي جميعها، بحيث لا يقدر أقوىٰ الأقوياء علىٰ نفع أحد أو ضرره بغير إذنه ومشيئته.

وهذا العمل يعتبر منهم نقصًا في دينهم أو خروجًا عنه بالكلية، ويزداد عدوهم بذلك تسلطًا عليهم واحتقارًا لهم، كما هو مجرب ومشاهد في كل وقت وحين، فلابد للمسلمين من صقل ضمائرهم من جديد،

وحشو قلوبهم بالعقيدة الإسلامية الصافية من جديد، وأن يجددوا الكفر بالطواغيت، ويزدادوا معرفة بأصنافهم، حتىٰ لا يخدم بعضهم طاغوتا من حيث لا يشعرون، فإن مصيبة المسلمين لم تستمر بعد رحيل الكافر المحتل إلا بسبب جهلهم بحقيقه المخادعين بعده، وذلك لما تراكم علىٰ قلوبهم من ظلمات الغزو الفكري، وأنواع الدجل والتضليل الأخرىٰ مما لا يزيله إلا فهم العقيدة الصحيحة وانحشاء القلوب بها، ومحاربة الخرافات والتضليلات الطاغوتية المتنوعة. ﷻ

وقوله ﷻ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ وهذا تبكيت لهم علىٰ موقفهم الخليع من فريضة الجهاد والقتال، وإظهارهم الهلع والخشية واقتراحهم الإمهال في وجوبه، فاللَّه سبحانه يخبرهم بأن هذا التأخير الذي طلبوه لا فائدة فيه، وليس منجيًا من الموت، ففي هذه الآية الكريمة ذهاب بأعذارهم، ونفخ لروح الشجاعة والإقدام في المؤمنين الذين سلمت صدورهم للَّه.

فهذه الآية كغيرها تقرر أن الموت حتم لا مفر منه ولا مهرب، وإنكم أيها الجبناء الرعاديد الذين تكرهون الموت، وتحبون الحياة لفرط جهلكم بالحقيقة، وبموجبات العقيدة، وأنتم أيها المنافقون الكارهون للموت، المفضلون للحياة ليس لكم حيلة ولا مدفع تدفعون به الموت، أو تؤخرون نزوله بكم فإنه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ في أي مكان فلابد أن ﴿يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ﴾ تحصنتم عن وقوعه ﴿فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ وهي القصور العالية والحصون المنيعة التي يسكنها زعماء القوم وولاتهم، يحتمون بها من أعدائهم ويعتزون بها علىٰ أقرانهم، وتعتصم بها جنودهم.

وقوله ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ هي المحكمة البناء بالقوة، ومناعة الحصون هذا بضم الميم وتشديد الياء، وأما المشيد بفتح الميم وكسر الشين وتخفيف الياء المكسورة[1] فهو: المرخم أو المبيض بالشيد وهو الجص كما

---

(١) قلت الياء في «المشيد» ساكنة وليست مكسورة.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، وقيل: إنها بروج السماء، والأقوىٰ كونها البيوت فوق الحصون لارتفاعها ومناعتها، وفي مثل معنىٰ ما قالوه في البروج قول زهير:

ومَن هاب أسباب المنايا يَنَلْنَهُ ... ولو رامَ أسبابَ السماءِ بسُلَّمِ

وقال الطغرائي:

حُبُّ السلامة يَثني عَزمَ صاحبِه ... عن المعالي ويُغري المرءَ بالكسلِ

فإنْ جنحتَ إليه فاتخِذْ نفقًا ... في الأرض أو سُلمًا في الجو فاعتزِلِ

ومعنىٰ الآية أنه لا خلاص لكم من الموت قطعًا، ولو تحصنتم عنه في بروج مشيدة بالغة في الحصانة، ونظير هذه الآية قوله في الآية (١٦) من سورة الأحزاب: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٦﴾ [الأحزاب]، والآية (١٧): ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ وإذا كان هذا واقعكم المحتم من الموت، فموتكم في الجهاد المنكي لأعدائكم، والرافع لعقيدتكم أشرف وأحسن عاقبة وذكرًا لكم في الدنيا، زيادة علىٰ تحصيلكم السعادة الأبدية المحققة في الآخرة، فما هو عذركم أيها القاعدون المبطئون، وطعم الموت واحد، وعاقبته متفاوتة تفاوتًا عظيمًا لا يقاس بمقياس؟

إن الإقدام علىٰ القتال هو أقوىٰ أسباب النجاة من الموت، بل من الميتتين الحسية والمعنوية، فإن الموت كل الموت في الذلة والهرب من الموت، فالاستعداد للقتال ومجالدة العدو حتىٰ يدفع ثمنًا غاليًا لعدواته إما بانحنائه في القتل، أو هزيمته المخزية المذهبة لغيظه خير من الخوف والإحجام عنه؛ لأن في الخطة الأولىٰ دحرًا للباطل وأهله، ونصرًا للحق وأهله، ونيلًا للسعادتين الدنيوية والأخروية ونشرًا للعقيدة وتحكيمًا للشريعة التي يحصل بها إعلاء كلمة اللَّه الجالب للفلاح في الدارين.

فالقتال في هذا السبيل هو السبب الوحيد للحياتين الحسية والمعنوية كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وأما التخاذل أو الجبن عن هذا ففيه الميتتان: ميتة من أجل الموت الذي لا راحم له، وهو الموت المعنوي الذي يكون صاحبه مقهورًا من أعدائه، وموت من أجل الحياة شهيدًا تحيا عقيدته وأمته بعده، وإن عاش فاز بالظفر علىٰ أعدائه، والنجاح في حمل رسالته، وكان لحياته قيمة ومعنىٰ بين الأمم.

هذا وإن العرب من قديم الزمان تمدح الشجاعة، وتستهجن الموت علىٰ الفراش قبل أن تكون لهم عقيدة ورسالة سماوية، ولهذا يقول السَّمَوْأل:

وما مات منَّا سيدٌ حتفَ أنفه ... ولا طَلَّ منَّا حيث كان قتيلُ
تَسيلُ علىٰ حد الظُّباةِ نفوسُنا ... وليست علىٰ غيرِ الظباة تسيلُ

فكيف بأهل العقيدة وحملة الرسالة؟ إنه يجب عليهم أن لا يكونوا أقل من الجاهلين رغبة في الإقدام وتفضيلًا للموت علىٰ حياة الذل.

إن اللَّه ﷻ يوحي بِهذه التعاليم المباركة في هذه الآيات الكريمات؛ لينضج الإيمان في صدور الذين لم ينضج إيمانهم ويبادروا بالتسليم للأوامر دون سؤال عن علتها أو حكمتها، فيعلموا أن الإيمان لا يكمل إلا بالتسليم المطلق للأوامر الإلهيَّة، وذلك لأن وجود مثل هذه الطائفة في صفوف المسلمين يحدث بلبلة، كما يحدث خلخلة ناشئة من عدم التوازن في التصورات والقوة المعنوية، إذ فريق منهم يحمل قلوبًا مطمئنة ثابتة، تستقبل تكاليف الجهاد، وشدة هول القتال برباطة جأش وصدق عزيمة، وتنافس علىٰ الشهادة، والفريق الآخر علىٰ خلاف هذه الصفات تمامًا.

لهذا جاء وحي اللَّه لتصحيح تصورات هذا الفرق نحو الحياة والموت، وأن الشجاعة والاستبسال في القتال ليس من موجبات الموت،

وأن التأخر عنه أو التقهقر ليس من موجبات الحياة، وأن المتاع الذي يحصلون عليه في تأخير الموت يعتبر شيئًا تافهًا بالنسبة لما عند اللَّه للمجاهدين في الدار الآخرة، زيادة علىٰ حياة الذل والقهر من الأعداء للجبناء وإذن فما قيمة الحياة الذليلة التي وراءها غير محمود الوقوع ولا محمود العاقبة؟

إن الدنيا ليست نهاية المطاف حتىٰ يتمنىٰ إمهال الحياة فيها أهل العقيدة والرسالة، بل هي متاع قليل، ومتاع غرور، ولا يتمنىٰ البقاء فيها أهل العقيدة علىٰ حساب دينهم وعقيدتهم، بل لا يتمنىٰ الإمهال فيها رجال النخوة والشهامة الذين يريدون الانتقام وأخذ الثأر من عدوهم، حتىٰ ولو كانوا دهريين ولا دين لهم ولا عقيدة، فكيف بأهل العقيدة والرسالة السماوية؟

وههنا فوائد:

أحدها: أنه ليس المراد مما أوضحناه من معاني الآيتين أن يلقي المؤمنون بأنفسهم إلىٰ العدو مغامرين بغير سلاح، فإن التفريط بالأسلحة معصية يعاقب اللَّه عليها، لأنه أوجب علىٰ المؤمنين أن يعدوا لأعدائهم بكل المستطاع من قوة علىٰ اختلاف أنواعها وتطورها، وإذا عجزوا عن شيء من القوة المادية، فليجبروه بالقوة الروحية التي لا يغلبها غالب بإذن اللَّه، فالقرآن يلفت أنظار المؤمنين إلىٰ أن النصر معقود بالقوتين: قوة الروح المعنوية في الأمة، وإعداد القوة المادية وتنظيمها، ليتحقق لهم النصر. وقد مضىٰ بيان تقوية الروح المعنوية في تفسير الآيات السابقة من (٧٤ حتىٰ هذه الآية) ويأتي له مزيد من الآيات المقبلة في هذه السورة وفي غيرها، خصوصًا في سورة الأنفال والتوبة.

وأما القوة المادية فقد قال اللَّه فيها: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ فأبان العلة من إعداد القوة المادية الظاهرة، وهي إرهاب العدو حتىٰ لا يطمع في المسلمين

باستغلال جانب من نواحي الضعف، وقد أشاد اللَّه بمنافع الحديد الذي امتن علىٰ الناس بإنزاله وأن فيه البأس الشديد علىٰ الإطلاق، وسنتكلم عليه وعلىٰ رباط الخيل في سورة الأنفال إن شاء اللَّه.

فمدلول الآيات التي نحن في تفسيرها ليس فيها ما يشعر بترك القوة المادية ولا التساهل في أمرها، وقد مضي قبلها الأمر بأخذ الحذر وسيأتي بعدها الأمر الاحتياطي بصلاة الخوف، لكن هذا كله شيء، والنهي عن الجبن في القتال أو التثاقل عنه خوفًا من الموت شيء آخر، وكل منهما له معناه، وبتحقيق امتثال الأمر بِهذا والانزجار عن هذا يحصل التوازن والاعتدال في السياسة الحربية للمسلمين فتبارك اللَّه الحليم الحكيم.

ثانيها: اختلفوا في حكمة اللَّه سبحانه بعدم الإذن للمسلمين أن يقاتلوا أعداءهم المؤذين لهم غاية الإيذاء في مكة، وليس عندهم سوىٰ اجتهادات احتمالية يرونها، وللَّه الأمر من قبل ومن بعد، وحسن الأدب مع اللَّه يوجب علينا عدم الجزم بشيء منها، وإن كان قريبًا من الأذهان ومن أحسنها عدة أمور:

أحدها: أن محمدًا ﷺ و أصحابه القليلين في الفترة المكية كانوا في حالة تربية وإعداد نفسي، يتعودون فيه علىٰ تحمل الأذىٰ والصبر علىٰ ما لا يصبر عليه في العادة من الضيم؛ ليتمرنوا علىٰ ضبط أعصابهم، فلا يهيجوا لأول مهيج كما هي عادتهم في الجاهلية، وليتجردوا من حظوظ أنفسهم، فلا يكون غضبهم إلا لدينهم فقط، ويحتفظوا بحق الدفاع عنه في المواقع التي يهيئها اللَّه صالحة للدفاع، كما أجراه اللَّه لهم في المهجر.

والثاني: أن في إيجاب القتال بمكة نشوء مجزرة في كل بيت، فتصيب معرة القتال من لم يرض بالأذىٰ علىٰ المسلمين، أو من هو مسلم في الخفاء، وتكون النتيجة استئصال المسلمين لأول وهلة، خصوصًا إذا حملت الحمية من بجوار مكة علىٰ معاونة مشركي قريش، وذلك

لقلة عدد المسلمين وانحصارهم في مكة، فيسهل القضاء عليهم وإفناؤهم حتىٰ ولو قتلوا أضعافهم.

والثالث: هو ما يعلمه اللَّه من أن كثيرًا من المشركين المؤذين للمسلمين الأوائل والفاتنين لهم عن دينهم بالتعذيب والتنكيل سيكونون من جند الإسلام وقادة الفتح، ولهذا قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران].

والرابع: أنه لوجود هذه الاعتبارات وغيرها مما لم نذكره اختصارًا أو خفاء علينا لم يكن هناك ضرورة للأمر بالقتال ومدافعة الأذىٰ، وانتشار الدعاية السيئة يصد المسلمين عن عموم الهرب خارج مكة، خصوصًا وقد كانت الدعوة قائمة متحققة، وأساسها متين بوجود محمد ﷺ بين بني هاشم الذين يحمونه، والذي تخشىٰ منهم جميع القبائل، فلا تجرؤ قريش علىٰ إخراسه، ولا تفرض عليه كلامًا معينًا يتجنب فيه تنقيض آلهتهم، أو تسفيه أحلامهم، ولا أن تفرض عليه نوعًا من المداهنة كما قال تعالىٰ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

وكان ﷺ قادرًا علىٰ إبلاغ دعوته وإعلانها في منتدياتهم حول الكعبة، وعلىٰ جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامة، فلم يقدر أحد منهم علىٰ قتله أو خطفه، فكان للدعوة وجودها الكامل بوجود شخصه وسلامته، مما لا يحتاج إلىٰ إفناء المسلمين بنقمة حربية، والمشركون لم يضروهم إلا أذىٰ، وهذا الأذىٰ يزيد من قوتهم، ويغلغل الإيمان في قلوبهم وشرايينهم، ويساور الغضب جميع قلوبهم علىٰ المشركين، وتتمكن العداوة من نفوسهم تمكنًا يؤهلهم للانتقام لدينهم بعدما يفتح اللَّه لهم مهجرًا ينطلقون منه.

ثالثها: يستفاد مما تقدم أنه لا ينبغي للأقلية المسلمة وسط الكفار أن تشادهم، أو تثير غضبهم؛ لأن ذلك موجب للنكاية الجماعية بهم، واستئصال شأفتهم من الوجود، أما إذا حصل التحدي لهم من مجاوريهم

الكفار فليصبروا ويضبطوا أعصابهم كما اختار اللَّه لأسلافهم من أوائل المسلمين في مكة، وفي هذه الحالة لا يجوز لهم التحيز بأمكنة خاصة؛ لأنهم يتعرضون فيها للإبادة، بل يسكنون وسط الأحياء، ويتغلغلون في جوارهم، ويحسنون مجاورتهم غاية الإمكان، ويحرصون علىٰ مهاداتهم لكسب قلوبهم، وعلىٰ تفريح أولادهم بإعطائهم ما يناسبهم، وعلىٰ دعوتهم الرقيقة إلىٰ الإسلام.

وخير دعوة للإسلام أن يكونوا قدوة صالحة في سيرتهم وأعمالهم، وصدقهم ونصحهم في معاملاتهم، فإن هذه المميزات خير دافع لاحترامهم والاقتداء بهم، واعتناق دينهم، إذا كانوا مثلًا أعلىٰ في أخلاقهم وسلوكهم، وينبغي لهم أن يخططوا لما ينفعهم ويرتفع بمستواهم في مجالات الحياة بحيث لا يكونون عالة علىٰ غيرهم، فتكون جناياتهم مددًا للعدو بعناصر القوة والنماء اقتصاديًّا وسياسيًّا، فإن ذلك مضر بمستقبلهم دينيًّا، وإهمالهم تثقيف أولادهم أضر من ذلك. وسيأتي موضوع اختيار المنطلق للجهاد في آيات الهجرة إن شاء اللَّه.

رابعها: مما قاله الزمخشري في تفسير هذه الآية وارتباطها ببعض ما قبلها أنه يجوز أن يتصل ـ يعني: أينما تكونوا ـ بقوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي لا تنقصون شيئًا مما كتب من آجالكم أينما تكونوا في ملاحم وحروب أو غيرها، ثم ابتدأ بقوله: ﴿يُدْرِكْكُمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ والوقف علىٰ هذا الوجه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟﴾. انتهىٰ.

وقد فند قوله أبو حيان في «البحر» حيث قال: وهذا تخريج ليس بمستقيم، لا من حيث المعنىٰ ولا من حيث الصناعة النحوية، أما من حيث المعنىٰ فلأنه لا يناسب أن يكون متصلًا بقوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، لأن ظاهر انتفاء الظلم إنما هو في الآخرة لقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، وأما من حيث الصناعة النحوية فإنه علىٰ ظاهر كلامه يدل علىٰ أن ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، وما فسره من قوله: «أي لا تنقصون شيئًا مما كتب من آجالكم أينما تكونوا في ملاحم

الحرب أو غيرها»، وهذا لا يجوز لأن «أينما» اسم شرط لا يتقدم عليه عامله، فلا يمكن أن يعمل فيه ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بل إذا جاء نحو «اضرب زيدًا متىٰ جاء» لا يجوز أن يكون الناصب لـ«متىٰ» اضرب.

فإن قال: يقدر له جواب محذوف يدل عليه ما قبله، وهو «ولا تظلمون» كما يقدر في اضرب زيدًا متىٰ جاء، فالتقدير: أينما تكونوا فلا تظلمون فتيلًا، أي فلا ينقص شيء من آجالكم، وحذفه لدلالة ما قبله عليه، قيل: لا يحذف الجواب إلا إذا كان فعل الشرط بصيغة الماضي وفعل الشرط هنا مضارع، تقول العرب: أنت ظالم إن فعلت، ولا تقول: أنت ظالم إن تفعل. انتهىٰ رده.

وقد رد عليه قبل هذا في ترجيحه رفع «يدرككم» حسب قراءة طلحة ابن سليمان بضم الكافين وتخريجه علىٰ مثل «ولا ناعب» قائلًا: إن تخريج هذه القراءة علىٰ هذا يأباه كون فعل الشرط مضارعًا، وحمله علىٰ «ولا ناعب» عطف علىٰ التوهم، والعطف علىٰ التوهم لا ينقاس. اهـ. والتفصيل قبل هذا في «البحر».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ هذا إخبار آخر من اللَّه عن بعض صفات المنافقين، ومن ينخدع بهم من ضعفاء الإيمان ممن أسلم حديثًا، ولم يباشر الإيمان حشاشتهم، أخبرنا اللَّه في الآية السابقة عن تثاقلهم عن القتال، وخشيتهم من الناس خوفًا من الموت، وهذا موقف لا يليق بالمؤمنين الصادقين الثابتي الإيمان ثباتًا كما أسلفناه، وإنما هو طبيعة المنافقين.

ثم إن اللَّه أخبرنا في هذه الآية عن خصلة شنيعة لهم، هي أشنع من الأولىٰ، وهي أنهم لفرط جهلهم وعدم إنصافهم، لا يعترفون بنعمة اللَّه الكبرىٰ عليهم بإرسال محمد ﷺ وما يأتيهم بسببها من الفتح والغزو والبركات، بل شأنهم الجحود من جهة، والرمي بالباطل من

جهة أخرىٰ. وذلك أنهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي خير من خيرات الدنيا، من مطر وخصب أو نماء زروع أو ثمار أو انتصار ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، غير معترفين بأن رسوله ﷺ هو الواسطة الذي جاءهم هذا الخير ببركة وجوده بينهم بإذن اللَّه، ودعائه لهم واستنصاره ربه أن ينصرهم ويرزقهم الفتح والغنيمة، أو السلامة والأمان، فهم لا يعتبرون ذلك بسبب بركة اتباع الرسول والإيمان به، لما في قلوبهم من المرض الموجب لهذا الجحود. ﴿و﴾ علىٰ العكس ﴿إِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من هزيمة أو إرهاق أو أي نوع من أنواع المصائب والبلايا ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي يضيفونها إلىٰ الرسول ﷺ زاعمين أنها بسببه، وسوء تدبيره وعدم تقديره للأمور، ونحو ذلك من الأراجيف التي لا تصدر من مؤمن به يحمل في قلبه أي حب أو تقدير لمن يجب أن يكون أحب وأغلىٰ علىٰ المؤمنين من أنفسهم وأولادهم وأموالهم وكل محبوب لهم، بل هم سلكوا ما سلكه أعداء موسىٰ وأعداء الرسل من قبله ومن بعده، كما قال ﷻ عن أعداء موسىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقال عن قوم صالح إنهم: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ وعن أصحاب القرية في سورة «يس» أنهم قالوا للرسل الثلاثه: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾.

فهؤلاء المنافقون وأشكالهم تطيروا بمحمد ﷺ كما تطير أعداء الرسل من قبلهم، وقد قال جماعة من المفسرين إن اليهود والمنافقين قالوا بعد مقدم الرسول إلىٰ المدينة. ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه، مع أن هؤلاء ممن لم يطيعوه في عدم تأبير النخل، فأما المؤمنون الذين أطاعوه فلم يقولوا شيئًا وحاشاهم من ذلك، بل إنهم استسلموا، وإشارته ﷺ بعدم التأبير كان خوفًا من اعتقاد التأثير ـ يحسبه من العوائد الوثنية المترسبة فيهم ـ فلما عرف أنه سبب من الأسباب التي يجب الأخذ بها قال

لهم: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»(١)، ولم يذكر عنهم ﷺ تشاؤمًا كما صدر من هؤلاء المنافقين، فأمر اللَّه نبيه أن يرد زعمهم الباطل، ويرشدهم إلىٰ الحق ويلقمهم حجرًا بإسناد الكل إلىٰ اللَّه ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فهو الخالق المحدث لكل شيء، وهو النافع الضار، وتصدر عن إرادته جميع الحوادث والكائنات لا عن سواه.

وقوله سبحانه في الآية (٧٩): ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾:

هذا فيه بيان حقيقة الأمر للخير والشر بطريق التنويع للإيضاح لما أجله اللَّه في الآية السابقة، والخطاب هنا لجميع الأمة ليس خاصًا بالنبي ﷺ بل هو لكل فرد من أفراد الأمة بطريق الأولىٰ، كمادة خطاب الشارع للمكلفين، وفي إجراء الخطاب أولًا علىٰ لسان النبي ﷺ، وسوق البيان من جهته تعالىٰ ثانيًا بطريق تلوين الخطاب والالتفات إيذان بمزيد الاعتناء والاهتمام برد اعتقادهم الباطل، وزعمهم الفاسد، والإشعار بأن مضمونه مبني علىٰ حكمة دقيقة حرية، بأن يتولىٰ بيانها رب العالمين، ليشفي صدور أهل التوحيد والإخلاص، ويدفع شبهات المشركين والمنافقين، فأخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية علىٰ سبيل الاستئناف والقطع أن الحسنة منه سبحانه بفضله، وأن السيئة من الإنسان بذنوبه، وإن كان الخلق للجميع من اللَّه سبحانه.

وفي مصحف ابن مسعود «من نفسك وإنما قضيتها عليك» وقرأ بها ابن عباس، وحكىٰ أبو عمرو أنها في مصحف ابن مسعود «وأنا كتبتها»، وروي أن ابن مسعود وأبيا كانا يقرآن دومًا «وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا قدرتها عليك»، ويؤيد ذلك ما ورد من الآيات الأخرىٰ والأحاديث أن ما يصيب الإنسان من المصائب فهو عقوبة علىٰ ذنوبه قطعًا.

وفي إخبار اللَّه للعبد فوائد عظيمة منها أن العبد لا يطمئن إلىٰ

(١) رواه مسلم (٢٣٦٣).

نفسه، بل يحذر كمائنها ويجاهدها غاية الإمكان، و منها أنه لا يطمع في السعادة التامة مع ما فيه من الشر، ومنها أن لا يشتغل بملام الناس وذمهم وذكر عيوبهم، بل يشتغل بمحاسبة نفسه وإصلاح عيوبها، ومنها أنه إن علم أن الشر من نفسه وطَّنها علىٰ الخضوع للحق والانقياد له مع من قاله، وسرعة الرجوع عن الباطل الذي قاله مخطئًا، وأن لا يعجب بنفسه وعلمه، أو تكون الزعامة مانعة له من قبول الحق، ومنها أن العبد إذا علم أن الحسنات من عند اللَّه ومن فضله شكر اللَّه عليها فزاده من فضله نعمًا يفيضها عليه، ووفقه لأعمال صالحة تزداد بها درجاته، وإذا علم أن الشر لا يجري عليه إلا بسبب نفسه المذنبة استغفر وتاب، فزالت عنه أسباب الشر، فيكون علىٰ الدوام شاكرًا مستغفرًا، فلا يزال يتضاعف له وينهمر عليه، والشر يندفع عنه، كما كان ﷺ يقول في خطبته: «**الحمد للَّه**» فيشكر اللَّه ثم يقول: «**نستعينه ونستغفره**»، أي نستعينه علىٰ الطاعة، ونستغفره عن المعصية، ثم يقول: «**ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**»(١) فيستعيذ به من الشر الذي في النفس ومن عقوبة عمله، فليس الشر إلا من نفسه بسبب أعمالها السيئة.

فعلم العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن اللَّه، وما أصابه من سيئة فمن نفسه يوجب له هذا وهذا، فاللَّه سبحانه فرق بينهما في هذه الآية، بعد أن جمع بينهما فيما قبلهما بقوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فأجمل فيها أن الحسنات والسيئات والنعم والمصائب، والطاعات والمعاصي كلها من عنده سبحانه، ثم أوضح الفرق الذي ينتفعون به، هو أن هذا الخير من نعمة اللَّه فاشكروه يزدكم منها، وهذا الشر من ذنوبكم فاستغفروه وتوبوا إليه يدفعه عنكم، فيستغفرونه مما مضىٰ ويستعيذون

---

(١) رواه أبو داود (٢١١٨)، والتِّرمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢).

به مما يستقبل، وهذا معنىٰ تعليمه إياهم بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

وهذه حكمة التفريق بين الخير والشر، ومصدرها من الحسنات والسيئات، ولو اقتصر علىٰ الإجمال الذي في الآية السابقة، ولم يوضح الفرق لحصل إعراض العاصي عن ذم نفسه والتوبة من ذنبه، والاستعاذة من شره، وقام بقلبه دعوىٰ إبليس: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ فزادته طردًا حيث لم يقل: «بما غويت»، كما زادت المشركين ضلالًا حين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ كأن لهم علمًا بالمشيئة وغايتها، واللَّه سبحانه لا يرضىٰ من عباده التعلق بالمشيئة، والاعتذار بها، ولا الرضىٰ بجميع أقدار اللَّه، بل يوجب عليهم الرضىٰ بالمصائب فقط بعد معالجتها بأقدار اللَّه الأخرىٰ، والتوبة من الذنوب والمصائب والاستعاذة منها، فالمعتذر بالمشيئة عقيدته سطحية أو إبليسية كما أسلفنا وكما سنزيد تفصيلًا إن شاء اللَّه.

قال الشيخ ابن تيمية: كون الحسنات من اللَّه والسيئات من النفس له وجوه:

الأول: أن النعم نفع بلا كسب.

والثانى: أن عمل الحسنات من إحسان اللَّه إلىٰ عبده، فهو الذي خلق الحياة وأرسل الرسل وحبب إليهم الإيمان، وإذا تدبرت هذا شكرت اللَّه فزادك، وإذا علمت أن الشر لا يحصل إلا من نفسك تبت فزال.

الثالث: أن الحسنة تضاعف.

الرابع: أن الحسنة يحبها ويرضاها فيحب أن ينعم، ويحب أن يطاع، ولهذا تأدب العارفون فأضافوا النعم إليه والشر إلىٰ محله، كما قال إمام الحنفاء: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

الخامس: أن الحسنة مضافة إليه، لأنه أحسن بها بكل اعتبار، وأما

السيئة فما قدرها إلا لحكمة.

السادس: أن الحسنات أمور وجودية متعلقة بالرحمة والحكمة؛ لأنها إما فعل مأمور أو ترك محظور، والترك أمر وجودي فتركه لما عرف أنه ذنب، وكراهته له، ومنع نفسه منه أمور وجودية، وإنما يثاب علىٰ الترك علىٰ هذا الوجه، وقد جعل النبي ﷺ البغض في اللَّه من أوثق عرىٰ الإيمان، وهو أصل الترك، وجعل المنع للَّه من كمال الإيمان، وهو أصل الترك.

وكذلك براءة الخليل من قومه المشركين ومعبوديهم ليست تركًا محضًا، بل صادر عن بغض وعداوة، وأما السيئات فمنشؤها من الظلم والجهل، وفي الحقيقة كلها ترجع إلىٰ الجهل، وإلا فلو تم العلم بها لم يفعلها، فإن هذا خاصة العقل، وقد يغفل عن هذا كله بقوة وارد الشهوة والغفلة، والشهوة أصل الشر كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

قلت: وأكثر ما يحصل الاندفاع إلىٰ المعصية بالأماني التي تمركزها شياطين الجن والإنس في القلوب وبتحسين قرناء السوء، وبالمعتقدات الفاسدة، من دعوىٰ حب العترة دون الاقتداء بهم في طاعة اللَّه، والتعلق بالأولياء ونحوهم.

السابع: أن ابتلاءه له بالذنوب عقوبة له علىٰ عدم فعل ما خلق لا وفطر عليه.

الثامن: أن ما يصيبه من الخير والنعم لا تنحصر أسبابه من إنعام اللَّه عليه، فيرجع في ذلك إلىٰ اللَّه ولا يرجو إلا هو، فهو يستحق الشكر التام الذي لا يستحقه غيره وإنما يستحق الشكر جزاء علىٰ ما يسره اللَّه علىٰ يديه، ولكن لا يبلغ أن يشكر بمعصية اللَّه، فإنه المنعم بما لا يقدر عليه المخلوق ونعم المخلوق منه ـ أيضًا ـ، وجزاؤه علىٰ الشكر والكفر لا يقدر أحد علىٰ مثله، فإذا عرف أن ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ

مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ صار توكله ورجاؤه علىٰ اللَّه وحده، وإذا عرف ما يستحقه من الشكر الذي يستحقه صار له شاكرًا، والشر انحصر سببه في النفس، فعلم من حيث يؤتىٰ، فتاب واستعان باللَّه، كما قال بعض السلف: «لا يرجو عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه».

وقد تقدم قول السلف ـ ابن عباس وغيره ـ إن ما أصابهم يوم «أحد» مطلقًا بذنوبهم لم يستثن أحدًا، وهذا من فوائد تخصيص الخطاب.

التاسع: إذا كانت السيئة من النفس والسيئة خبيثة كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ الآية. قال جمهور السلف: الكلمات الخبيثات للخبيثين. وقال ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ والأقوال والأفعال صفات للقائل الفاعل، فإذا اتصفت النفس بالخبث، فمحلها ما يناسبها، فمن أراد أن يجعل الحيات يُعَاشِرْن الناس كالسنانير لم يصلح، بل إذا كان في النفس خبث طهرت حتىٰ تصلح للجنة كما في حديث أبي سعيد الذي في الصحيح، وفيه «**حتىٰ إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة**»، وقال بعضهم: ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون؛ وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف نفسه والناس، وسمع أخبارهم رأىٰ الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته، وإن كان عالمًا أو شيخًا أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره. وربما أبغض نظيره وأتباعه حسدًا وبغيًا؛ كما فعلت اليهود لما بعث اللَّه من يدعو إلىٰ مثل ما دعا إليه موسىٰ، ولهذا أخبر عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة أخرىٰ في قوله سبحانه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ وبعض ما تضمنته من الحكم العظيمة: هذه الآية ذكرها اللَّه في سياق الأمر بالجهاد، وذم الناكثين عنه، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ الآيات إلىٰ أن ذكر صلاة الخوف، وقد ذكر قبلها طاعة اللَّه وطاعة

الرسول والتحاكم إلىٰ اللَّه وإلىٰ الرسول، ورد ما تنازع به الناس إلىٰ اللَّه والرسول، وذم الذين يتحاكمون إلىٰ غير اللَّه والرسول. فكانت تلك الآيات تبيينًا للإيمان باللَّه والرسول ولهذا قال فيها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

وهذا جهاد عما جاء به الرسول، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذكر الآيات [١٩ ـ ٢٤] من سورة التوبة، والآيات الخمس الأخيرة من سورة الصف، وذكر بعد آيات الجهاد إنزال الكتاب علىٰ رسوله محمد ﷺ ليحكم بين الناس بما أراد اللَّه، ونَهيه عن ضد ذلك، وفضل اللَّه عليه ورحمته في حفظه وعصمته من إضلال الناس له، وتعليمه ما لم يعلم، وذم من شاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين، وتعظيم أمر الشرك وتشديد خطره، وأن اللَّه لا يغفره، ولكن يغفر ما دونه لمن يشاء، إلىٰ أن بين أن أحسن الأديان من يعبد اللَّه وحده لا يشرك به شيئًا، بشرط أن تكون عبادته بفعل الحسنات التي شرعها، لا بالبدع والأهواء وهم أهل ملة إبراهيم الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا، ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

فكان في الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها اتباع التوحيد وملة إبراهيم، وهو إخلاص الدين للَّه، وأن يعبد اللَّه بما أمر به علىٰ ألسن رسله من الحسنات.

وقد ذكر تعالىٰ في ضمن آيات الجهاد ذم من يخاف العدو، ويطلب الحياة، وبيّن أن ترك الجهاد لا يدفع عنهم الموت، بل أينما كانوا أدركهم الموت، ولو كانوا في بروج مشيدة، فلا ينالون بترك الجهاد منفعة، بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة، وهؤلاء قيل: إنهم منافقون، وقيل: نافقوا لما كتب عليهم القتال، وقيل بل حصل منهم جبن وفشل، فكان في قلوبهم مرض كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والمعنىٰ متناول لهؤلاء وهؤلاء، لكن تناوله لمن أظهر

الإسلام أولىٰ، وإذا تناول الذم هؤلاء فهو للكفار الذين لا يظهرون الإسلام أولىٰ وأحرىٰ.

قلت: بل المنافق أولىٰ؛ لأنه خطر فظيع في صفوف المسلمين، بخلاف الكافر المتضح، فإنه في معزل عنهم.

والذي عليه عامة المفسرين أن الحسنة والسيئة يراد بهما، النعم والمصائب، وليس المراد مجرد ما يفعله الإنسان باختياره، باعتباره من الحسنات والسيئات، وقال أبو العالية: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ قال: هذه في السراء، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ قال: وهذه في الضراء. وقال ابن قتيبة: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ قال: الحسنة: النعمة، والسيئة: البلية.

قال الشيخ: ولا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه، مع أن الجميع مقدر كما تقدم، والمعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولىٰ، فتكون من سيئات الجزاء، مع أنها من سيئات العمل كما ثبت في الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلىٰ البر، والبر يهدي إلىٰ الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرىٰ الصدق حتىٰ يكتب عند اللَّه صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، والفجور يهدي إلىٰ النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرىٰ الكذب حتىٰ يكتب عند اللَّه كذبًا**»(١).

وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولىٰ، وكذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولىٰ. قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وقال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

قال أبو عثمان النيسابوري: «من أمَّر السنة علىٰ نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمر الهوىٰ علىٰ نفسه نطق بالبدعة، لأن اللَّه تعالىٰ يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾».

قلت: وقد قال في آخر سورة النور: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وإذا كانت السيئات التي يعملها الإنسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت، وهي مضرة، جاز أن يقال هي مما أصابه من السيئات، وهي بذنوب تقدمت. فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ وتوليتهم الأدبار ليس مما نُهوا عنه، ولكن هو جزاء أعمالهم، هذا باب واسع.

وعلىٰ كل تقدير فالذنوب التي يعملها هي من نفسه وإن كانت مقدرة عليه، فإنه إذا كان الجزاء الذي هو مسبب من نفسه، فعمله الذي هو ذلك الجزاء من نفسه بطريق الأولىٰ.

وكان النبي ﷺ يقول في خطبته: «**نعوذ باللَّهِ من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**»، أي ومن عقوباتها، ثم قال: «**من يهد اللَّه فلا مضل له.. إلخ**»[(١)] شهادة بأنه المتصرف في خلقه، ففيه إثبات القضاء الذي هو نظام التوحيد، هذا كله مقدمة بين يدي الشهادتين، فإنهما تتحققان بحمد اللَّه وإعانته بسبب استغفاره واللجوء إليه والإيمان بأقداره، فهذه الخطبة عقد نظام الإسلام والإيمان.

وقال أبو بكر رضي الله عنه للرسول ﷺ: علمني دعاء فقال: «**قل: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد**

---

(١) تقدم تخريجه.

أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أجره إلى مسلم، قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك»(١)، وهذا يتناول العقوبات على الأعمال.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: وليس للقدرية أن يحتجوا بهذه الآية لوجوه.

منها: أنهم يقولون: فعل العبد سواء كان حسنة أو سيئة هو منه لا من اللَّه، وأن اللَّه وإن أعطى كل واحد من الاستطاعة على ما يفعل، لكن المحسن أحدث إرادة فعل بها الحسنات، والآخر أحدث إرادة فعل بها السيئات، وليس واحدًا منهما من إحداث اللَّه عندهم، وهذا مخالف للتوحيد من أساسه، فالقرآن قد فرق بين الحسنات والسيئات، وهم لا يفرقون بينهما إلا من جهة الأمر فقط، لا من جهة خلق اللَّه للأفعال.

الثاني: أن اللَّه قال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فجعل الحسنات والسيئات من عند اللَّه وهم لا يقولون بذلك في الأعمال، بل في الجزاء فقط، وقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، مثل قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وسيأتي بحث عدم الإشكال.

الثالث: أن الآية أريد بها النعم والمصائب كما تقدم، وليس للقدرية المجبرة أن تحتج بِهذه الآية على نفي أعمالهم التي استحقوا بها العقاب، فاحتجاجهم مخالف لمعتقدهم الذي أسلفنا أولًا، وقوله سبحانه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ حجة عليهم ببيان أن الإنسان هو فاعل السيئات، وأنه يستحق عليها العقاب، واللَّه ينعم عليه بالحسنات عملها وجزائها، فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهي من اللَّه فالنعم من اللَّه، سواء كانت ابتداء أو جزاء، وإذا كانت جزاء وهي من اللَّه، فالعمل الصالح الذي كان سببها هو - أيضًا - من اللَّه، أنعم بهما على العبد، وإلا فلو كان من نفسه كما كانت

---

(١) رواه التِّرمذي (٣٥٢٩).

السيئات من نفسه، لكان كل ذلك من نفسه.

والله تعالىٰ قد فرق بين النوعين في الكتاب والسنه، كما في الحديث الصحيح القدسي: «**ياعبادیٰ إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»(١)، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، وقال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾، وقال: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾ والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

الرابع: أن الحسنة يضاعفها الله وينميها، ويثيب علىٰ الهم بها، والسيئة لا يضاعفها ولا يؤاخذ علىٰ الهم بها، فيعطي صاحب الحسنة من الحسنات فوق ما عمل، وصاحب السيئة لا يجزيه إلا بقدر عمله، قال ﷻ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾.

الخامس: أن الحسنة مضافة إليه؛ لأنه أحسن بها من كل وجه كما تقدم، فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه، وأما السيئة فهو إنما يخلقها بحكمة وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب لا يفعل سيئة قط، بل فعله كله حسن وحسنات، وفعله كله خير، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «**والخير بيديك، والشر ليس إليك**»(٢)، فإنه لا يخلق شرًّا محضًا، بل كل ما يخلقه ففيه حكمة، هو باعتبارها خيرًا، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس، وهو شر جزئي إضافي: فأما شر كلي، أو شر مطلق، فالرب منزه عنه، وهذا هو الشر الذي ليس إليه، وأما الشر الجزئي الإضافي فهو خير باعتبار حكمته، ولهذا لا يضاف الشر إليه مفردًا قط.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه مسلم (٧٧١).

بل أولًا: إما أن يدخل في عموم المخلوقات كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

ثانيًا: وإما أن يضاف إلى السبب كقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾.

ثالثًا: وإما أن يحذف فاعله كقول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾، فالسيئة لا تضاف إلى اللَّه مفردة.

وهذا الموضع ضل فيه فريقان من الخائضين في القدر بالباطل: فرقة كذبت بهذا وقالت: إنه لا يخلق أفعال العباد ولا يشاء كل ما يكون، لأن الذنوب قبيحة وهو لا يفعل القبيح ولا يريده.

وفرقة لما رأت أنه خالق هذا كله، ولم تؤمن أنه خلقه لحكمة، بل قالت: إذا كان يخلق هذا، فيجوز أن يخلق كل شر، ولا يخلق شيئًا لحكمة، ولا يتنزه عن أي فعل ما دام ممكنًا، وجوزوا على قاعدتهم الخبيثة أن يأمر بكل كفر ومعصية، وأن يعذب الأنبياء، وينعم الطواغيت وأتباعهم، ولم يفرقوا بين فعل ومفعول، وهذا منكر من القول وزور كالذي قبله وتأباه قداسة اللَّه ورحمته وحكمته، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾، وقال في الآية (٢٨) من سور «ص»: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾، ونحو ذلك مما ينص أنه يفرق بين الحسنات والسيئات، وبين المحسن والمسيء.

وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان أو الإنسان لا يكون فيه حكمة، بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على كثير منا، ولا يقدر قدره إلَّا اللَّه، وكذلك إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة، لا يكون شرًّا كليًّا عامًّا، ولكن هذا مما اضطرب فيه أهل الكلام، فاستدلت القدرية النفاة والمجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصًا جاز أن يضل كل الناس، وإذا جاز أن يعذب حيوانًا بلا ذنب ولا عوض جاز أن يعذب كل حي، و إذا جاز عليه ألَّا يعين واحدًا ممن أمره على طاعة أمره، جاز ألَّا يعين كل الخلق، فلم يفرق الطائفتان بين الشر

العام والخاص، ولا بين الشر الإضافي والشر المطلق، ولم يجعلوا في الشر الإضافي حكمة تجعله يصير بها من قسم الخير.

قلت: ولم يفرقوا بين الجواز الجدلي والافتراض، والوقوع الحقيقي الذي تأباه رحمته وحكمته، ولا يليق بالعاقل من خلقه أن يفعله، واضطرابهم في هذا الباب ممزوج نريح قراءنا من ذكره.

السادس: أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يفعلها كلها أمور وجودية، أنعم اللَّه بها عليه، وحصلت بمشيئة اللَّه ورحمته وحكمته وقدرته وخلقه، وليس في الحسنات أمر عدمي غير مضاف إلىٰ اللَّه، بل كلها أمر وجودي، وكل موجود وحادث فاللَّه هو الذي يحدثه، وذلك أن الحسنات إما فعل مأمور به، أو ترك منهي عنه، والترك أمر وجودي بالنسبة لمجاهدة النفس ومنعها عن هواها، ولهذا إنما يثاب الإنسان علىٰ الحسنات إذا فعلها محبًّا لها، بنية ابتغاء وجه اللَّه فيما يحبه، وطاعته له ولرسوله ﷺ، ويثاب علىٰ ترك السيئات إذا تركها للَّه الذي يبغض فعلها ويحب الامتناع عنها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا للَّهِ، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يلقىٰ في النار**»(١)، وقد شرحت هذا الحديث وافيًا في كتابي: «من كنوز السنة».

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أوثق عرىٰ الإيمان الحب في اللَّه والبغض في اللَّه**»(٢).

هذا، ولْيُعْلَم أن كاف الخطاب في قوله سبحانه للنبي ﷺ، ولكنه

---

(١) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).
(٢) رواه الطيالسي (٧٤٧).

يشمل كل فرد من أفراد أمته إلىٰ يوم القيامة، وإنما خوطب بِهذا هو وغيره؛ لأنه سيد ولد آدم، وإذا كان هذا حكمه، كان حكم غيره بطريق الأولىٰ والأحرىٰ، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾، ومعاذ اللَّه أن يكون في شك، ولكن الخطاب لأمته، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

فقوله هذا الخطاب الموجه له يدخل فيه جميع الأمة بالعموم وبطريق الأولىٰ، بخلاف قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ فإن هذا له خاصة، ولكن من يبلِّغ عنه يدخل في معنىٰ الخطاب، كما قال ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**»(١)، وقال: «**نضر اللَّه امرأ سمع مني حديثًا فَبَلَّغه إلىٰ من يسمعه**»(٢)، وقال: «**ليبلغ الشاهد منكم الغائب**»(٣) وغير ذلك من الأحاديث.

والمقصود أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس سببًا لشيء من المصائب ولا تكون طاعة اللَّه ورسوله قط سببًا لمصيبة، بل طاعتهما لا تقتضي إلا الجزاء بخيري الدنيا والآخرة، ولكن قد تصيب المؤمنين مصائب بسبب ذنوبهم، ولا بما أطاعوا فيه اللَّه والرسول كما لحقهم يوم «أحد»، وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال يوم الأحزاب ونحوه ليس بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم، ولكن امتحنوا به ليتخلصوا مما فيهم من الشر والنفاق كما يفتن الذهب بالنار ليخرج خبثه.

فإن النفوس فيها شر، والامتحان يمحصه. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولهذا كانت المصائب تكفر سيئاتهم، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم، وأما ما يلحقهم من الجوع والتعب، فذلك يكتب لهم به عمل صالح. كما قال تعالىٰ في الآية: (١٢٠) من سورة التوبة: ﴿ذَٰلِكَ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦١).
(٢) رواه التِّرمذي (٣٦٦٠)، وابن ماجه (٢٣٠).
(٣) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٩٧).

بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فما يصيب الإنسان إن كان يَسُره فهو نعمه ظاهرة، وإن كان يسوءه فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه، ويثاب بالصبر عليه، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

قال نفاة القدر: إنما قال في الحسنة هي: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وفي السيئة: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾؛ لأنه يأمر بِهذا، وينهىٰ عن هذا بالاتفاق. قالوا: ونحن نقول المشيئة ملازمة للأمر فما أمر به فقد شاءه، وما لم يأمر به لم يشأه.

قيل لهم: أما الآية فقد تبين أن الذين قالوا: الحسنة من عند اللَّه، والسيئة من عندك أرادوا من عندك يا محمد، أي بسبب دينك، فجعلوا رسالة الرسول هي سبب المصائب، و هذا غير مسألة القدر، وإذا كان قد أريد أن الطاعة والمعصية مما قد قيل، كان قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ حجة عليكم كما تقدم، وقوله بعد هذا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ لا ينافي ذلك، بل الحسنة أنعم اللَّه بها وبثوابها، والسيئة هي من نفس الإنسان ناشئة، وإن كانت بقضاء اللَّه وقدره، كما قال سبحانه: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، فمن المخلوقات ما له شر، وإن كان بقضائه وقدره.

وأنتم تقولون: الطاعة والمعصية هما إحداث الإنسان بدون أن يجعل اللَّه هذا فاعلًا، وبدون أن يخص اللَّه المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها، وهذا مخالف للقرآن.

فإذا قيل: إن كانت الطاعات والمعاصي مقدرة، والنعم والمصائب مقدرة، فما الفرق بين الحسنات التي هي النعم، والسيئات التي هي المصائب، فجعل هذه من اللَّه وهذه من نفس الإنسان؟ قيل: لفروق بينهما:

الفرق الأول: أن نعم اللَّه وإحسانه إلىٰ عباده يقع ابتداء بلا سبب فهم أصلان، فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر وغير ذلك علىٰ من لم يعمل خيرًا قط، وينشئ للجنة خلقًا يسكنهم فضولها بلا عمل، ويدخل أطفال المسلمين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل، وأما العقاب فلا يعاقب أحدًا إلا بعمله.

الفرق الثاني: أن الذي يفعل الحسنات إذا عملها فنفس عمله لها من إحسان اللَّه وبفضله عليه بالهداية والإيمان كما قال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وكما في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد اللَّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»[(١)]، فنفس خلق اللَّه لهم أحياء، وإمدادهم بالسمع والأبصار والأفئدة هو من نعمته، ونفس إرسال الرسول إليهم، وتبليغه لهم ما اهتدوا به هو من نعمته، وإلهامهم الإيمان، وهدايتهم إليه وتخصيصهم بمزيد نعمه حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين هو من نعمته.

كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ وذلك فضل من اللَّه ونعمة، فجميع ما يتقلب فيه من خيري الدنيا والآخرة فهو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقًّا، ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به، وهو خالق نفوسهم، وخالق أعمالها الصالحة، وخالق الجزاء. فقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ حق من كل وجه ظاهرًا وباطنًا علىٰ مذهب أهل السنة. وأما السيئة فلا تكون إلا بذنب العبد، وذنبه من نفسه، وهو لم يقل إني لم أقدر ذلك ولم أخلقه، بل ذكر سبحانه للناس ما ينفعهم، فإنه بعد بيانه أن الكل من عنده، وأوضح الفرق الذي ينتفعون به، وهو أن الخير من نعمة اللَّه فاشكروه يزدكم، وهذا الشر من ذنوبكم فاستغفروه يدفعه

---

(١) تقدم تخريجه.

عنكم. والمذنب إذا استغفر من ذنبه فقد اقتدىٰ بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين، وإذا أصر واحتج بالقدر فقد اقتدىٰ بالأشقياء كإبليس ومن اتبعه من الغاوين.

والمقصود هنا أن الحسنة مضافة إليه سبحانه من كل وجه، والسيئة مضافة إليه، لأنه خلقها كما خلق الحسنة، فلهذا قال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثم إنه إنما خلقها لحكمة، ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة، بل تضاف إلىٰ النفس التي تفعل الشر بها لا لحكمه، فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها، فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيرًا يكون فعله لأجله أرجح، بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات، ولهذا كان فعل اللَّه حسنًا، لا يفعل قبيحًا ولا سيئًا قط.

وقد ظن بعضهم أن في الآية إشكالًا أو تناقضًا في الظاهر، حيث قال سبحانه: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثم فرق بين الحسنات والسيئات، فقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ وهذا من قلة فهمهم، وعدم تدبرهم الآية، وليس فيها تناقض لا في لفظها ولا معناها، فإنه سبحانه ذكر عن المنافقين والذين في قلوبهم مرض الناكصين عن الجهاد ما ذكره بقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ هذا يقولونه لرسول اللَّه ﷺ أي بسبب ما أمرتنا به من دينك، والرجوع عما نحن عليه أصابتنا هذه السيئات؛ لأنك أمرتنا بما أوجبها، فالسيئات هي المصائب، والأعمال التي ظنوا أنها سبب المصائب هو أمرهم بها.

وقولهم: ﴿مِنْ عِندِكَ﴾ تتناول مصائب الجهاد الحاصلة بالهزيمة؛ لأنه أمرهم بالجهاد، وتتناول ـ أيضًا ـ مصائب الرزق علىٰ جهة التشاؤم والتطير كما أسلفنا، ولم يقولوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ يقصدون أنه أحدثها، فإنهم يعلمون أن الرسول ﷺ لم يحدث شيئًا من ذلك، ومن فهم هذا تبين له أن قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ لا

يناقض قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بل هو محقق له؛ لأنهم هم ومن أشبههم إلىٰ يوم القيامة يجعلون ما جاء به الرسول والعمل به سببًا لما قد يصيبهم من مصائب، وكانوا تارة يقدحون فيما جاء به ويقولون: ليس هذا مما أمر اللَّه به، ولو كان منه لما جرىٰ هذا البلاء علىٰ أهله، وتارة لا يقدحون في الأصل، لكن يقدحون في القضية المعينة، فيقولون: هذا بسوء تدبير الرسول، كما قاله ابن أبي بن سلول طاغوت المنافقين.

فكل حال قولهم: ﴿مِّنْ عِندِ﴾ هو طعن فيما أمر اللَّه به ورسوله من الإيمان والجهاد، وجعل ذلك هو الموجب للمصائب التي تصيب المؤمنين كما أصابتهم يوم «أحد»، وتارة تصيب عدوهم فيقول الكافرون: هذا بشؤم هؤلاء، ففي هذا رد علىٰ من أعرض عن طاعة الرسول ﷺ لئلا تصيبه المصائب، وعلىٰ من انتسب إلىٰ الإيمان بالرسول ونسبها إلىٰ فعل ما جاء به الرسول، وعلىٰ من أصابته من كفره بالرسول ونسبها إلىٰ ما جاء به، فليس بين الآيتين تعارض ولا إشكال؛ لأن قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي بسبب أعمال نفسك الأمارة بالسوء كما قدمنا ذلك وكررناه، وقد قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.

وهذه الآيات الكريمات كغيرها من وحي اللَّه الذي يتسلح بها المؤمنون، لدفع شبهات القدرية والجبرية حول قضية القضاء والقدر، فأوضح سبحانه أن له الخلق والأمر بدون شريك، وأنه يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة، فهو الخالق الأول وحده، وهو الفاعل الأول وحده لكل ما يقع في الكون جميعًا وعلىٰ الناس وما يقع منهم، وقد أمدهم بالجوارح والقوىٰ والأحاسيس، وجعل لهم الاختيار في سلوك ما يشاءون، وأوضح لهم طريق الخير والشر، فنسبتهم الشر إلىٰ اللَّه، أو المشيئة للرسول نسبة خاطئة موجبة لسوء العقيدة كما أوضحنا، والإنسان مهما اتجه إلىٰ فعل الخير أو الشر، وحاول تحقيقه بالوسائل التي أرشده إليها، وأقدره عليها، لا يتم له مراده إلا

بقضاء اللَّه وقدره، إذ ليس هناك قدرة غير قدرة اللَّه، ولهذا قال الإمام أحمد: «القدر قدرة اللَّه»، واستحسن ذلك منه محققو أصحابه، فهذا مدلول قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

وأما الآية الأخرىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فإنها ليست داخلة في الأولىٰ كما أسلفنا، وإنما تقرر أن الإنسان إذا سعىٰ في طاعة اللَّه علىٰ وفق أمره ومتابعة رسوله طلبًا لمرضاته، فاللَّه يوفقه للخير، ويثيبه عليه في الدنيا والآخرة، وأما إذا هو خالف أمر اللَّه، وسلك ما يغضبه، واجتنب نَهجه، فإنه لا يبالي به في أي واد هلك، فيكون فريسة للشيطان والهوىٰ، فيصيبه الشر من نفسه، فارتباط الخلق بقدرة اللَّه التامة يقتضي أن لا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته بهم، وتقدمه عليهم، وارتباطهم بحكمته يقتضي وقوع الخليقة علىٰ أكمل الوجوه وأحسنها، واشتمال الخلق علىٰ الغاية المحمودة المطلوبة للرب سبحانه.

وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته، فهو عليم بخلقه وأمره، حكيم في خلقه وأمره، فإن أهل السنة والجماعة لم يفرطوا كالقدرية، ولم يفرطوا كالجبرية، بل وفقهم اللَّه لسلوك صراطه المستقيم، فأثبتوا للعبد أفعالًا اختيارية، ومن الضروري عند جميع العقلاء أن الحركة الارتعاشية التي تزعمها الجبرية بقولها الساقط ليست كالحركة الاختيارية. وأثبت أهل السنة بجانب هذا أن اللَّه خالق كل شيء، فهو خالق العبد، وخالق قدرته وإرادته، وتأثير قدرة العبد لا يكون إلا بمشيئة اللَّه سبحانه.

فالعبد وجميع أفعاله بمشيئة اللَّه، مع أنه يفعل اختيارًا بالقدرة والإرادة اللتين خلقهما اللَّه فيه فعلًا اختياريًّا يثاب عليه ويعاقب، إذ جميع الأسباب التي أعطاها للمهتدين أعطاها ـ أيضًا ـ لأهل الضلال، فأصبح كل منهم مثابًا ومعاقبًا علىٰ ما اختاره لنفسه من فعل الخير والشر.

وأما التوفيق الذي هو ملكه المحض فهذا لا يجوز البحث فيه، ولا التساؤل عنه؛ لأنه إن أعطاه أحدًا أو مجموعة من الناس، فتكرُّم وفضل منه، وإن منعه من أحد أو مجموعة من الناس فعدل منه، وحكمته اقتضت هذا وهذا، وهو أعلم بالمحل القابل، وليس كل من منع فضله يعد ظالمًا، لا سيما إذا منعه عمن لا يستحقه ولا يليق به، وهو سبحانه عليم بالمحل الذي يصلح لهذا الفضل، ويليق به، ويثمر به ويزكو به، وقد أشار سبحانه إلىٰ ذلك المعنىٰ بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام].

والشاكر هو من عرف النعمة وعرف المنعم بها، وخضع له وأحبه، ورضي به ربًّا، وبدينه ورسالته وشريعته وحكمه وقضائه وقدره، واستعمل نعمته في طاعته وجميع مراضيه، وأوجب ما يحبه من كل شخص وعمل، وأبغض ما يبغضه، والمخالف لشريعته ولو كان أقرب قريب، فهذا هو الشاكر الحقيقي للَّه، إذ لابد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وما عدا المتصف بِهذه الأوصاف فليس بشاكر مهما نطق بالشكر أو قرأ الأوراد، أو عمل ببعض وحي اللَّه دون بعض، كحال أكثر المسلمين في هذا الزمان، حتىٰ يعامل اللَّه معاملة المحب الصادق لحبيبه الصادق، واللَّه أعلىٰ وأجل.

وقد تكلمت علىٰ المحبة في تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وتفسير ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ بما أغنىٰ عن إعادته، وسنتكلم علىٰ ما تركناه من مسائل القضاء والقدر هنا في تفسير الآية [١٤٨] من سورة الأنعام إن شاء اللَّه.

ولما تناظر أبو إسحاق الإسفرائيني مع عبد الجبار المعتزلي، فقال عبد الجبار: سبحان من تنزه عن الفحشاء ـ يقصد أنه لا يقدر المعاصي كالزنىٰ والسرقة ـ، قال له أبو إسحاق: هذه كلمة حق يراد بها باطل، ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، فقال عبد الجبار: أتراه يخلقه ويعاقبني عليه؟ فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبرًا عليه؟ أأنت الرب وهو العبد؟ فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني

إلىٰ الهدىٰ وقضىٰ علي بالردىٰ، أتراه أحسن إليّ أم أساء؟ ـ وهذا السؤال في غاية الوقاحة والجراءة علىٰ اللَّه ـ فقال أبو إسحاق له: إن كان الذي منعك منه ملكًا لك فقد أساء، وإن كان له فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل، فبهت عبد الجبار. وقال الحاضرون: واللَّه ما لهذا جواب.

وفيما قدمناه من تفسير الآية إبطال لقول الجهمية المجبرة ونحوهم، ممن يزعم أن اللَّه قد يعذب العباد بلا ذنب، وقد يأمرهم بما يضرهم ولا ينفعهم، فإن فعلوه تضرروا، وإن لم يفعلوه عاقبهم، ويعللون هذا بأنه يفعل ما يشاء، والقرآن يرد عليهم كما رد علىٰ القدرية مما قد أوضحناه.

هذا وإن في هذه الآية الكريمة ردًّا ودحضًا للمعتزلة ومن علىٰ شاكلتهم من مقلدي الجهمية تلاميذ اليهودي حفيد ابن الأعصم الذي سحر النبي ﷺ فإنهم قالوا: إن العبد هو الذي أوجد الإيمان بنفسه، ولا مدخل لقدرة اللَّه فيه ولا إعانته عليه، فالإيمان عندهم منقطع عن اللَّه من كل وجه، وهو في غاية الفساد والتناقض، وقد سلح اللَّه المؤمنين بحجج القرآن ليجاهدوا به الزائغين جهادًا كبيرًا، فهذه الآية الكريمة تنص علىٰ أن الحسنة من اللَّه، والإيمان أصل الحسنات ومصدرها، فهم محجوجون بِهذه الآية ونحوها من الحجج النقلية، ثم هم محجوجون بالقواعد العقلية التي ننقل منها قول الرازي فإنه قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ثم إذا أردنا أن نبين أن الكفر أيضًا من اللَّه قلنا فيه وجوه:

الأول: أن كل من قال: الإيمان من اللَّه، قال: الكفر من اللَّه، فالقول بأن أحدهما من اللَّه دون الآخر مخالف لإجماع الأمة.

الثاني: أن العبد إذا قدر علىٰ تحصيل الكفر فالقدرة الصالحة لإيجاد الكفر إما أن تكون صالحة لإيجاد الإيمان أو لا تكون، فإن كانت صالحة لإيجاد الإيمان فحينئذ يعود القول في أن إيمان العبد منه، وإن لم تكن صالحة لإيجاد الإيمان فحينئذ يكون القادر علىٰ الشيء غير قادر علىٰ

ضده وذلك عندهم محال، ولأن علىٰ هذا التقدير تكون القدرة موجبة للمقدور، وذلك يمنع من كونه قادرًا عليه، فثبت أنه لما لم يكن الإيمان منه وجب أن لا يكون الكفر منه.

الثالث: أنه لما لم يكن العبد موجدًا للإيمان، فبأن لا يكون موجدًا للكفر أولىٰ، وذلك لأن المتقبل لإيجاد الشيء هو الذي يمكنه تحصيل مراده، ولا نرىٰ في الدنيا عاقلًا إلا ويريد أن يكون الحاصل في قلبه هو الإيمان والمعرفة والحق، وأن أحدًا من العقلاء لا يريد أن يكون الحاصل في قلبه هو الجهل والضلال والاعتقاد الخطأ، إلىٰ أن قال: والحاصل أن الشبهة في أن الإيمان واقعة بقدرة العبد أشد من الشبهة في وقوع الكفر بقدرته، فلما بين تعالىٰ في الإيمان أنه من اللَّه ترك ذكر الكفر للوجه الذي ذكرناه، فهذا جملة الكلام في بيان دلالة هذه الآية علىٰ مذهب إمامنا. انتهىٰ كلامه مع حذف قليل.

ومما يدل دلالة ظاهرة علىٰ أن المراد من هذه الآيات الكريمات إسناد جميع الأمور إلىٰ اللَّه سبحانه دون ما سواه، ختامه إياها بقوله سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ يعني للهداية والتبليغ، لا للتصرف في نظام الكون وتحويل سنن الاجتماع أو تبديلها في إنزال الأضرار والمصائب أو رفعها، فإن هذه سنة اللَّه الكونية: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

فمزاعم الجاهلين والمبطلين أن السيئة تصيبهم من عندك أو بسببك، أما ما تخيلوه من الشؤم والتطير بك لا حجة لهم عليه من الشرع ولا من العقل، وإنما هي جهالة ووقاحة موروثة من كل جاحد لرسالات اللَّه قديمًا، وأنت رسوله قد خلت من قبلك الرسل، فما عليك إلا البلاغ المبين، وليس لك من الأمر شيء، فإن الحسنات والسيئات وأسبابها من اللَّه خلقًا وتقديرًا، فهو خالق السبب والمسبب، ولهذا جعل للإنسان كسبًا في تحصيلها، ومسؤولية عليها، واللَّه يشهد لرسوله ﷺ بالرسالة فيما أظهره علىٰ يديه من الآيات والمعجزات، وما دام اللَّه

شاهدًا له فكفىٰ به شهيدًا. فلا يضره جحد هؤلاء لرسالته بما ذكروه من الشبهات التي هي عليهم وليست لهم، وذلك بزعمهم أن سيئاتهم وعقوباتهم عليها حجة علىٰ إبطال رسالته، واللَّه قد شهد له أنه أرسله للناس رسولًا، فكان ختم الآية بهذا إبطالًا لقولهم: إن المصائب من عند الرسول، وتصحيحًا لقواعد الإسلام، فناسب أن يقول سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وقال صاحب «المنار» في تفسيره: فإن قيل: إن جميع الأشياء حسنها وسيئها تسند إلىٰ اللَّه ﷻ، ويقال: إنها من عنده بمعنىٰ الخالق لموادها، والواضع لسنن الأسباب والمسببات، ويسند إلىٰ الإنسان منها كل ما فيه كسب وعمل اختياري، وقد مضىٰ بذلك عرف الناس وأيدته النصوص بمثل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فلماذا جعل هنا إصابة الحسنة من فضل اللَّه مطلقًا وإصابة السيئة من نفس الإنسان مطلقًا؟.

فالجواب عن هذا: أن ما ذكر في السؤال حق، وما في الآية حق، ولكل مقام مقال، والمقام الذي سيقت الآية له هو بيان أمرين:

أحدهما: نفي الشؤم والتطير وإبطالهما، ليعلم الناس أن ما يصيبهم من السيئات لا يصيبهم بشؤم أحد يكون فيهم، وكانوا يتشاءمون ويتطيرون في الجاهلية، ولا يزال هذا فاشيًا في الجاهلين من جميع الشعوب، وهو من الخرافات التي يردها العقل، وقد أبطلها دين الفطرة بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فجعل التطير من الجهل وفقد العلم بالحقائق.

ثانيهما: أنه ينبغي لمن أصابته سيئة أن يبحث عن سببها من نفسه، ولا يكتفي بعدم إسنادها إلىٰ شؤم غيره، ممن ليس له فيها عمل ولا كسب؛ لأن السيئة تصيب الإنسان بما تقدم شرحه آنفًا من تقصيره وخروجه بجهله أو هواه عن سنة اللَّه في التماس المنفعة من أبوابها، واتقاء المضار باتقاء أسبابها؛ لأن الأصل في نظام الفطرة البشرية هو

ما يجده الإنسان في نفسه من ترجيح الخير لها على الشر، والنفع على الضرر، وكون كل قوة من قواه نافعة له إذا أحسن استعمالها، وليس في أصل الفطرة سيئة قط.

وإنما الإنسان يقع في الضرر غالبًا بسوء الاستعمال، وطلب ما لا تقتضيه الفطرة لولا جنايته عليها، كالإفراط في اللذات والتعب مما تنفر منه الفطرة، فيحتال عليها، ويحملها ما لا تحمله بطبعها، وظلمه لها باستعماله الأدوية لإثارة شهوة الطعام والوقاع، وعدم وقوفه فيهما عند حد الداعية الطبيعي، كأن لا يأكل إلا إذا جاع من نفسه، ولا يملأ بطنه من الطعام بما يحمله على ذلك من الأدوية المقوية والتوابل المحرضة، فمصائب الإنسان من ظلمه وكسبه، ولب الحقيقة التي علمنا اللّٰه إياها، وربانا بها، هو أن سنته تعالى في فطرة الإنسان كسنته في سائر الحيوان والنبات: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ كلها مصادر للحسنات، ليس فيها شيء شر بطبعه، ولكن الإنسان فضل على غيره بما أوتي من الاستعداد للعلم ومن الإرادة والاختيار في العمل، فإذا أحكم العلم وأحسن الاختيار مهتديًا بسنن الفطرة وأحكام الشريعة ـ وهي كلها من عند اللّٰه ومن محض فضله ورحمته ـ كان مغمورًا في الحسنات والخيرات، وإذا قصر في العلم وأساء في استعمال قواه وأعضائه في غير ما يقتضيه نظام الفطرة وحاجة الطبيعة، وتجاوز حدود اللّٰه في شرعه، وقع في الأمور التي تسوءه، فيجب عليه أن يرجع إلى نفسه بالمحاسبة والمعاتبة كلما أصابته سيئة، ليعتبر بها ويزداد علمًا وكمالًا.

فهذه الآية أصل من أصول علم الاجتماع وعلم النفس، فيها شفاء للناس من أوهام الوثنية وتثبيت في مقام الإنسانية.

ثم قال كان بعض القوم بَطِرًا جاهلًا، وإذا أصابه خير ونعمة يقول: إن اللّٰه قد أكرمه بما أعطاه من ذلك، وأصدره من لدنه، وساقه إليه من خزائن فضله، عناية منه به لعلو منزلته، وإذا وصل إليه شر ـ وهو

المراد من السيئة ـ يزعم أن منبع هذا الشر هو النبي ﷺ وأن شؤم وجوده هو ينبوع هذه السيئات والشرور، فهؤلاء الجاهلون الذين كانوا يرون الخير والشر والحسنة والسيئة بتناوباتهم قبل ظهور النبي وبعده، كانوا يفرقون بينهما في السبب الأول لكل منهما، فينسبون الحسنة أو الخير إلىٰ اللَّه تعالىٰ، علىٰ أنه مصدرها الأول ومعطيها الحقيقي، يشيرون بذلك إلىٰ أنه لا يد للنبي ﷺ فيه، وينسبون الشر أو السيئة إلىٰ النبي ﷺ علىٰ أنه مصدرها الأول، ومنبعها الحقيقي كذلك، وأن شؤمه هو الذي رماهم بها، وهذا هو معنىٰ قوله: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ﴿مِنْ عِندِكَ﴾ فرد اللَّه عليهم هذه المزاعم بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي أن السبب الأول، وواضع أسباب الخير والشر، المنعم بالنعم والراجم بالنقم إنما هو اللَّه وحده، وليس لِيُمْنٍ ولا شؤم مدخل في ذلك، فهو بيان للفاعل الأول الذي يرد إليه الفعلُ فيما لا تناله قدرة البشر، ولا يقع عليه كسبهم، وهو الذي كان يَعْنِيْهِ أولئك المشاقون عندما يقولون: الحسنة من اللَّه والسيئة من محمد، أي لا دخل لاختيارهم في الأولىٰ من عناية اللَّه بهم، والثانية من شؤم محمد عليهم، فجاءت الآية ترميهم بالجهل فيما زعموا، ولو عقلوا لعلموا أن ليس لأحد فيما وراء الأسباب المعروفة فعل ـ الخير والشر في ذلك سواء ـ.

هذا فيما يتعلق بمن بيده الأمر الأعلىٰ في الخير والشر، والنعم والنقم، أما ما يتعلق بسنة اللَّه في طريق كسب الخير، والتوقي من الشر، والتمسك بأسباب ذلك فالأمر علىٰ خلاف ما يزعمون كذلك، فإن اللَّه ﷻ قد وهبنا من العقل والقوىٰ ما يكفينا في أسباب سعادتنا، والبعد عن مساقط الشقاء، فإذا نحن استعملنا تلك المواهب فيما وهبت لأجله، وصرفنا حواسنا وعقولنا في الوجوه التي تنال منها الخير، وذلك إنما يكون بتصحيح الفكر، وإخضاع جميع قوانا لأحكامه، وفهم شرائع اللَّه حق الفهم، والتزام ما حدث فيها، فلا ريب في أننا ننال الخير والسعادة، ونبعد عن الشقاء والتعاسة.

وهذه النعم إنما يكون مصدرها تلك المواهب الإلهية، فهي من اللَّه تعالىٰ، فما أصابك من حسنة فمن اللَّه، لأن قواك التي كسبت بها الخير، واستغزرت بها الحسنات، بل واستعمالك لتلك القوىٰ إنما هو من اللَّه؛ لأنك لم تأت بشيء سوىٰ استعمال ما وهب اللَّه، فاتصال الحسنة باللَّه ظاهر، ولا يفصلها عنه فاصل، لا ظاهر ولا باطن؛ وأما إذا أسأنا التصرف في أعمالنا، وفرطنا في النظر في شؤوننا، وأهملنا العقل وانصرفنا عن سر ما أودع في شريعته، وغفلنا عن فهمه، فاتبعنا الهوىٰ في أفعالنا، وجلبنا بذلك الشر علىٰ أنفسنا كان ما أصابنا من ذلك صادرًا عن سوء اختيارنا، وإن كان اللَّه تعالىٰ هو الذي يسوقه إلينا جزاء علىٰ ما فرطنا، لا يجوز لنا أن ننسب ذلك إلىٰ شؤم أحد أو تصرفه، ونسبة الشر والسيئات إلينا في هذه الحالة ظاهرة الصحة.

فأما المواهب الإلهية بطبيعتها، فهي متصلة بالخير والحسنات، وإنما يبطل أثرها إهمالها أو سوء استعمالها، وعن كلا الأمرين يساق إلىٰ أهله، وهما من كسب المهملين وسيئي الاستعمال، فحق أن ينسب إليهم ما أصيبوا به، وهم الكاسبون لسببه، فقد حالوا بكسبهم بين القوىٰ التي غرزها اللَّه فيهم لتؤدي إلىٰ الخير والسعادة، وبين ما حقها أن تؤدي إليه من ذلك، وبعدوا بها عن حكمة اللَّه فيها، وساروا بها إلىٰ ضد ما خلقت لأجله، فكل ما يحدث بسبب هذا الكسب الجديد فأجدر به أن لا ينسب إلا إلىٰ كاسبه.

وحاصل الكلام في المقامين أنه إذا نظر إلىٰ السبب الأول الذي يعطي ويمنع ويمنح ويسلب، وينعم وينتقم، فذلك هو اللَّه وحده، ولا يجوز أن يقال إن سواه يقدر علىٰ ذلك، ومن زعم غير هذا فهو لا يكاد يفقه كلامًا؛ لأن نسبة الخير إلىٰ اللَّه ونسبة الشر إلىٰ شخص من الأشخاص بِهذا المعنىٰ، ما لا يكاد يعقل.

فإن الذي يأتي بالخير ويقدر علىٰ سوقه هو الذي يأتي بالشر ويقدر عليه، فالتفريق ضرب من الخلل في العقل، وإذا نظرنا إلىٰ الأسباب

المسنونة التي دعا اللَّه الخلق إلىٰ استعمالها ليكونوا سعداء، ولا يكونوا أشقياء، فمن أصابته نعمه بحسن استعماله لما وهب اللَّه فذلك من فضل اللَّه؛ لأنه أحسن استعمال الآلات التي منّ اللَّه عليه بها، فعليه أن يحمد اللَّه ويشكره علىٰ ما آتاه، ومن فرط أو أفرط في استعمال شيء من ذلك، فلا يلومن إلا نفسه، فهو الذي أساء إليها بسوء استعماله ما لديه من المواهب، وليس بسائغ له أن ينسب شيئًا من ذلك إلىٰ النبي ﷺ ولا إلىٰ غيره، فإن النبي ﷺ أو سواه لم يغلبه علىٰ اختياره، ولم يقهره علىٰ إتيان ما كان سببًا في الانتقام منه.

فلو عقل هؤلاء القوم لحمدوا اللَّه وقدروك يا محمد علىٰ ما ينالون من خير، فإن اللَّه هو مانحهم ما وصلوا به إلىٰ الخير، وأنت داعيهم لالتزام شرائع اللَّه، وفي التزامها سعادتهم. إذا أصابهم شرٌّ كان عليهم أن يرجعوا باللائمة علىٰ أنفسهم لتقصيرهم في أعمالهم أو خروجهم عن حدود اللَّه، فعند ذلك يعلمون أن اللَّه قد انتقم منهم للتقصير أو العصيان، فيؤدبون أنفسهم، ليخرجوا من نقمته إلىٰ نعمته؛ لأن الكل من عنده سبحانه، وإنما ينعم علىٰ من أحسن الاختيار، ويسلب نعمته عمن أساءه، وقد تضافرت الآثار علىٰ أن طاعة اللَّه من أسباب النعم، وأن عصيانه من مجالب النقم، وطاعة اللَّه إنما تكون باتباع سننه، وصرف ما وجب من الوسائل فيما وهبها لأجله.

ولهذا النوع من التعبير نظائر في عرف التخاطب، فإنك لو كنت فقيرًا وأعطاك والدك مالًا فاشتغلت بتنميته والاستفادة منه مع حسن التصرف، وقصد في الإنفاق، وصرت بذلك غنيًّا، فإنه يحق لك أن تقول: إن غناك إنما كان من ذلك الذي أعطاك رأس المال، وأعدك به للغنىٰ، أما لو أسأت التصرف فيه، وأخذت تنفق منه فيما لا يرضاه المعطي، واطلع علىٰ ذلك منك، فاسترد ما بقي منه، وحرمك نعمة التمتع به، فلا ريب أن يقال: إن سبب ذلك هو نفسك وسوء اختيارها، مع أن المعطي والمسترد في الحالتين هو والدك، غير أن الأمر ينسب

إلىٰ مصدره الأول إذا انتهىٰ علىٰ حسب ما يريد، وينسب إلىٰ السبب القريب إذا جاء علىٰ غير ما يحب، لأن تحويل الوسائل علىٰ الطريق التي كان ينبغي أن تجري فيها إلىٰ مقاصدها؛ إنما ينسب إلىٰ من حولها وعدل بها عما كان يجب أن تسير إليه.

وهناك للآية معنىٰ أدق، يشعر به وجدان أرق مما يجده الغافلون من سائر الخلق، وهو أن ما وجدت من فرح ومسرة، وما تمتعت به من لذة حسية أو عقلية فهو الخير الذي ساقه اللَّه إليك، واختاره لك، وما خلقت إلا لتكون سعيدًا بما وهبك، أما ما تجده من حزن وكدر فهو من نفسك، ولو نفذت بصيرتك إلىٰ سر الحكمة فيما سيق إليك لفرحت بالحزن فرحك بالسارة، وإنما أنت بقصر نظرك تحب أن تختار ما لم يختره اللَّه العليم بك، المدبر لشأنك.

ولو نظرت إلىٰ العالم نظرة من يعرفه حق المعرفة، وأخذته لما هو وعلىٰ ما هو عليه لكانت المصائب لديك بمنزلة التوابل المرية الحريفة، يضيفها طاهيك علىٰ ما يهيأ لك من طعام لتزيده حسن طعم، وتشحذ منك الاشتهاء لاستيفاء اللذة، استحسنت بذلك جميع ما اختاره اللَّه لك، ولا يمنعك ذلك من التزام حدوده، والتعرض لأسباب نعمته، والابتعاد عن أسباب نقمته، فإن اللذة التىٰ تجدها في النقمة إنما هي لذة التأديب، ومتاع التعليم والتهذيب، وهو متاع تجني فائدته، ولا تلتزم طريقته.

فكما يسر طالب الأدب أن يتحمل المشقة في تحصيله، وأن يتلذذ بما يلاقيه من تعب فيه، يسره كذلك أن يرتقي فوق ذلك المقام إلىٰ مستوىٰ يجد نفسه فيه متمتعًا بما حصل، بالغًا ما أمل، وفي ذلك كفاية لمن يريد أن يكتفي انتهىٰ بتصرف قليل اضطراري.

وذكر ابن القيم قاعدة جليلة في المصائب، وهي أن اللَّه إذا ابتلىٰ عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن، فإن رده ذلك إلىٰ ربه وجمعه عليه، وطرحه ببابه فهو علامة سعادته، وإرادة الخير به، فإن الشدة بتراء

لا دوام لها وإن طالت، فتقلع بعد يقظة قلبه بأحسن عاقبة، وهي رجوعه إلىٰ اللَّه وإقباله علىٰ محبته، فتكون عين النعمة. وإن لم يرده ذلك البلاء والمصيبة إلىٰ اللَّه، بل شرد قلبه عنه، وتعلق بغيره، ونسي ذكره والضراعة إليه، ولم يتب من ذنوبه، فهو علامة شقاوته، وعدم إيقاظ قلبه بعد إقلاع المصيبة عنه، فإن تربية اللَّه لم تزد قلبه إلا قسوة وضراوة علىٰ الهوىٰ، ففيه شبه من اليهود والعياذ باللَّه.

وقوله سبحانه في الآية (٨٠): ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾:

مناسبة هذه الآية الكريمة لما قبلها أن محمد ﷺ رسول اللَّه، مبلغ عنه أوامره ونواهيه وتشريعاته، فوظيفتة الرسالة، واجبة التبليغ، أما أمته علىٰ العموم فواجبها الطاعة، و﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ لأن الأوامر والتشريعات ليست منه، وإنما هي من اللَّه، فمن أجل ذلك كانت طاعته طاعة للَّه، ومحبته ناشئة من حب اللَّه الذي عرفوه حق المعرفة بواسطته.

واللَّه سبحانه لا يأمر الناس وينهاهم إلا بواسطة رسل منهم، يفهمونهم ما يجب عليهم من عبادته التي يرضاها، وما له من حقوق المحبة ومقتضياتها ومستلزماتها.

فهذه الآية الكريمة تدل بكل وضوح علىٰ أن اللَّه ﷻ هو الذي يطاع لذاته؛ لأنه رب الناس، ملك الناس، إله الناس، وهم عبيده المغمورون بنعمائه المتوالية، وأن الرسول إنما تجب طاعته من حيث إنه الواسطة المبلغ عن اللَّه، واسطة التبليغ فقط، وليس له أي أثر استغلالي في إيصال النفع والضرر والمسرات والأحزان، فطاعته طاعة للَّه، وآثار منافعها العاجلة والآجلة حاصلة من اللَّه، لا تطلب أو ترجىٰ من سواه قطعًا.

وكذلك معصية الرسول ﷺ فيما يبلغ به عن اللَّه معصية للَّه، وجراءة علىٰ اللَّه، واستخفاف بجنابه الكريم، وآثارها وعقوبتها الشرعية والكونية

والقدرية الحسية والمعنوية كلها من اللَّه وحده، لا يجوز إضافة شيء منها إلىٰ أحد سواه من نبي أو ولي سواء كان حيًّا أو مقبورًا، فهذا معنىٰ ارتباط هذه الآية بما قبلها مما ينفي حصول السيئة أي المصيبة من غير اللَّه.

فيها تركيز حقيقة التوحيد في أمة الإسلام، بحيث لا يخاف المسلم إلا اللَّه الذي يعاقبه بذنوبه، ولا يرجو إلا اللَّه الذي يحبه ويثيبه علىٰ طاعته وصدقه في القوة بطاعته، وبحسب إخلاصه له في المقاصد، ولا يرجو إلا هو، ولا يخضع لغيره، ولا يخشىٰ سطوة من سواه، كائنًا من كان، ويتفرع من هذه العقيدة عدم التطير من أحد، أو التشاؤم بشيء أبدًا علىٰ الإطلاق.

وكان الصحابة ﵃ بعد إبداء الرسول ﷺ رأيه في تأبير النخل متخوفًا أن في عملهم هذا اعتقاد تأثير مترسب من الجاهلية، ورجوعه عن ذلك بعد اتضاح السببية الإلهية، وتصريحه لهم بأنه قال ذلك القول عن رأيه، وليس بوحي، وأنهم أعلم بأمور دنياهم، وأنهم ليسوا ملزمين إلا بما قاله عن اللَّه.

أقول: إنهم بعد هذه الحادثة كانوا يسألونه إذا شكوا في الأمر، هل هو من اللَّه أو من رأيه ﷺ وكان لهم رأي يخالفه: هل ما عمله عن اللَّه، أو من رأيه؟ فإن أجابهم بأنه من اللَّه أطاعوا وانقادوا، وإن قال: لهم إنه من رأيه قابلوه بالرأي الذي يرونه ملائمًا، كما في قصة منزله قرب واقعة «بدر» ورجوعه عن رأيه إلىٰ رأي الخبراء في الحرب ونحو ذلك.

وهذا من تعليم اللَّه لولاة المسلمين قواعد يسيرون عليها، ومن تربية اللَّه للمسلمين علىٰ النقد في الأمور الدنيوية، وإلا فاللَّه قادر علىٰ تعليم نبيه بالمواضع الحساسة في الحروب، كما سلكه في طريقه إلىٰ «أحد» وغيره من الغزوات التي يورِّي بغيرها إعماء للأعداء.

والحاصل أن الطاعة منحصرة للَّه وحده لا شريك له، وأن طاعة

الرسول ﷺ طاعة للَّه، لأنه المبلغ الوحيد عن اللَّه، فطاعته إنما تعتبر طاعة للَّه.

✍ **وههنا فوائد:**

إحداها: إن في هذه الآية وما قبلها دلالة علىٰ عموم رسالته ﷺ إلىٰ جميع الناس، عربهم وعجمهم، وأبيضهم وأسودهم، وأحمرهم وأصفرهم، وشرقيهم وغربيهم وما بين ذلك، وأنه ليس نبيًّا للعرب فقط كما يزعمه اليهود وأفراخهم، بل هو نبي لعموم الناس علىٰ اختلاف أجناسهم وأوطانهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾، وقال في الآية (٢٨) من سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وغيرها من الآيات الدالة علىٰ عموم رسالته، وعلىٰ هذا فمن لم يتبع ما جاء به فهو كافر، يجب علىٰ كل مسلم أن يعامله معاملة الكفر من العداوة والبراءة والمنابذة، مهما كان وصفه أو قربه، وأن يصمم علىٰ قتال من استوجب القتال.

فقد ورد في الصحيحين وغيرهما بسنده إلىٰ رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم علىٰ اللَّه**»[1].

فهذا الحديث الصحيح من جملة الدلائل علىٰ عموم رسالته ﷺ وأن الإيمان قصد وقول وعمل، فلا يكفي مجرد النطق بالشهادتين دون إقامة الصلاة ودفع الزكاة وتوفية الشهادتين حقهما مما يستوجبه مدلولهما، وأن من لم ينطق بهما وجب قتاله حتىٰ يخضع لحكم الإسلام ويدفع الجزية ويلتزم الصغار، أو يدخل في الإسلام علىٰ الحقيقة، وأن من نطق بهما ولم يقم الصلاة ويؤد الزكاة ويلتزم بما لها من الحقوق يجب قتاله، ولا يصان دمه وماله، فهذا ما نص عليه الرسول ﷺ، وعمل

---

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

به، وسار عليه خلفاؤه وأصحابه والتابعون لهم بإحسان ممن هم القدوة دون سواهم، ممن وصفهم ﷺ بأنهم يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، وأوصىٰ بجهادهم في حديثه المشهور الذي حصر فيه الإيمان بجهادهم بقوله: «**فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن**»... إلخ[١].

ثانيها: تدل هذه الآيات أقوىٰ دلالة علىٰ عصمة الرسول ﷺ عن الخطأ في جميع ما يبلغ به من الأوامر والنواهي والتشريعات، وما يقضي به ويحكم، وما يفعله من كافة الأفعال، لاسيما الذي يداوم عليه من الأفعال؛ لأن كون طاعته طاعة للَّه يقضي بعصمته، إذ لو أخطأ في شيء من ذلك، لم تكن طاعته طاعة للَّه، فأصبح الخطأ الذي لا يصرفه اللَّه عنه محالًا قطعًا.

وكذلك الدلالة علىٰ عصمته في أفعاله وقضاياه الحكيمة؛ لأن اللَّه سبحانه أمرنا بمتابعته بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ والمتابعة هي الإتيان بمثل ما فعل تمامًا، فإن المتابع له مطيع للَّه، ويستحيل أن يأمر اللَّه بمتابعة من ليس معصومًا، ومتابعة الرسول ﷺ من ضروريات الدين، إذ لا دين بغير الإخلاص للَّه ومتابعة رسوله، وقد تقدم أن كمال العصمة بأن اللَّه لا يقره علىٰ الخطأ، والشواهد علىٰ ذلك موجودة في القرآن الكريم.

ثالثها: قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الرسالة» في باب فرض الطاعة للرسول: إن قوله سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ يدل علىٰ أن كل تكليف كلف اللَّه به عباده في باب الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر الأبواب في القرآن، ولم يكن ذلك التكليف مُبَيَّنًا في القرآن فحينئذ لا سبيل لنا إلىٰ القيام بتلك التكاليف إلا ببيان الرسول، وإذا كان الأمر كذلك لزم القول بأن طاعة الرسول عين طاعة اللَّه.

قال الرازي: هذا معنىٰ كلام الشافعي، قلت: وما أشار إليه الإمام الشافعي هو ما يقتضيه قوله ﷺ: «**ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه**»[٢]،

---

(١) رواه مسلم (٥٠). (٢) رواه أحمد (٤/ ١٣٠).

وأنه مبين في سنته لما أجمله القرآن، وموضح له، ومقيد لما أطلقه القرآن، ومخصص لما عممه كما هو معروف عند ذوي البضاعة، وفي هذا المعنىٰ قالوا: السنة قاضية علىٰ الكتاب.

رابعها: في هذه الآية رد عظيم، وتفنيد لقول الزاعمين بعدم الأخذ والعمل بغير القرآن من المغرضين والزائفين، فإن أهدافهم أهداف خبيثة يقصدون بها إبطال أكثر نصوص الشريعة عن الحجية والعمل، ولكن العليم الخبير بخبايا نفوسهم أمدّ عباده المؤمنين بأسلحة قامعة من القرآن، تدفع شبهاتهم وتلبيساتهم كهذه الآية: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ فإنها حجة في النزاع وقامعة لأهل الابتداع، حيث تقتضي طاعة الرسول ﷺ في جميع ما أمر به أو نهىٰ عنه، كما تقتضي متابعته في جميع أقواله وقضاياه، إلا ما ورد النص بأنها من خصوصياته، وتستلزم عصمته كما أوضحنا ذلك.

وطاعته التي هي طاعة للّه عامة شاملة لجميع الأوامر والنواهي والأقضية، وكثير منها لم يرد به القرآن، ولكن القرآن أوجب علىٰ الأمة طاعته ومتابعته علىٰ العموم في كل شيء، كما قال سبحانه في هذه الآية الكريمة الواضحة، وقال قبلها في سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وقال في سورة الحشر: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وهذه الآية الكريمة عارض بها العلماء حديث العرض الذي وضعته الزنادقة، وهو: «ما أتاكم عني فاعرضوه علىٰ القرآن، فإن وافقه فأنا قلته وإلا فلا»، قالوا: وقد عرضناه علىٰ كتاب اللّه فخالفه، لأنه يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ فهذه الآية المباركة أظهرت زيف هذا الحديث، وأنه باطل مكذوب، بل إن الذين زوروا هذا الحديث الباطل يكذبون القرآن نفسه انتصارًا لمذهبهم الباطل الذي هو الاقتصار علىٰ القرآن في العمل؛ لأن في القرآن آيات سوىٰ هذه الآية، وبعضها يقول:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فهؤلاء يكذبون القرآن والرسول بمزاعمهم الفاسدة، كأن اللَّه يبعث من اصطفاه لحمل رسالته وكلماته دون بيانها للناس، وكأن الذي يتقن اللغة العربية قادر علىٰ معرفة أحكام الشريعة من مجملات القرآن، وعلىٰ الإحاطة بجميع التفصيلات التشريعية التي لا يمكن معرفتها إلا بواسطة الرسول ﷺ ويتعللون بقوله تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ دون النظر إلىٰ المعنىٰ الذي جاءت له هذه الجملة من الآية التي بتروها ليجعلوا معناها علىٰ وفق أهوائهم، وهي الآية (٣٨) من سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ فهذه بخصوص الحكم الكوني لجميع المخلوقات من الدواب والطيور، وأنه لم يفرط شيئًا من تقدير أحوالهم في حياتهم وآجالهم في كتابه العمومي الذي هو اللوح المحفوظ، وليس فيها ما يدل علىٰ حكمه الشرعي الذي هو ليس من شأن الدواب والطيور، وإنما هو من شأن العقلاء.

ومن المؤسف أن لهؤلاء ورثة في كل زمان، ولهم أشباه يستدلون بها علىٰ رفض أصول الفقهاء، وهو في غنىٰ عن الاستدلال بها، إذ ليست دليلًا لهؤلاء ولا لهؤلاء، ويا عجب هل في هذه الآية أو غيرها من آيات عدد الصلوات المفروضة وأركانها وواجباتها ومندوباتها وأوقاتها المقدرة؟ وهل فيها أحكام المياه وطهارة الطاهر ونجاسة النجس؟ وهل فيها تفصيل المحرمات من الملابس والأواني والمطعومات والمشروبات؟ وهل فيها تفصيل أنصبة الزكاة، وما تجب فيه من أنواع الأموال والمواشي والخارج من الأرض؟ وهل فيها توضيح الكفارة في الصيام وأنواع مفسداته؟ وهل فيها تفصيل أحكام الحج وصيغة الإحرام وكيفيته ومحظوراته وجزائه؟.

وهل فيها تفصيل أحكام البيع والربا والقرض والرهن والصلح، وأحكام الكفالة والضمان والمزارعة والصلح، والإجارة والجعالة،

وإحياء الأرض الموات، والوقف والوصية وأحكام المريض، وتفاصيل إرث العصبات بعد إرث ذوي الفروض المقدرة في القرآن؟ وهل فيها أحكام العتق والنكاح والطلاق ومعاشرة النساء وأحكام الرضاع ونحوها، مما لم يفصله إلا السنة؟ وهل فيها شروط إقامة الحدود والقصاص ونحوها؟ إلىٰ غير ذلك مما يطول ذكره، ويتضح منه فساد رأيهم، وبطلان استدلالهم، وأنه ليس عندهم حجة، وليس عندهم سوىٰ شبهات ظاهرة النقض والبطلان لاقتضائها تكذيب اللَّه ورسوله.

ولا يشك مسلم يخشىٰ اللَّه ويرجوه في أن سنة النبي ﷺ حجة يجب العمل بها، وأن لزومها من ضروريات الدين لمعرفة أحكام الشريعة، ولا يستغني عنها مسلم في معرفة دينه وواجبه أمام اللَّه ورسوله، ولا عجب في ذلك ولا جدال ولا مراء، فإن النبي ﷺ لم يكن بأحاديثه - أفعاله وقضاياه، وإقراراته لما يراه - إلا مصلحًا للمؤمنين، ومبينًا لهم كتاب ربهم، وهو الذي يقول عن الصلاة: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1]، ويقول في الحج: «**خذوا عني مناسككم**»[2] ومن المعلوم أن ما فعله في الصلاة والحج لم يرد في القرآن، وقد قال سبحانه عن الاقتداء العام بسنته جميعها في الأصول والفروع: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

ثم إن محبة اللَّه قيدها اللَّه بمتابعة رسوله علىٰ الإطلاق في الآية (٣١) من سورة آل عمران، وقال عن الاقتداء بجده إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من الآية الرابعة من سورة الممتحنة، وهذا الاقتداء هو في أصل العقيدة التي أضاعها كثير من المسلمين.

وما أغوىٰ هذه الفرقة الضالة التي تزعم الاقتصار علىٰ الأخذ بالقرآن إلا دسائس اليهود الخفية المحبذة للأوهام الوثنية الإغريقية

---

(١) رواه البخاري (٦٣١).
(٢) رواه مسلم (١٢٤٧).

لإبطال أكثر المصادر الدينية، وعملهم هذا يعتبر تكذيبًا للقرآن واتهامًا لما جاء به ﷺ في بيانه له من سنته المطهرة التي لا ينطق فيها عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ، واللَّه سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ وكذلك تتضمن مزاعمهم تكذيب خيار خلق اللَّه من صحابة المصطفىٰ ﷺ.

وكما أن القرآن يكذبهم في مزاعمهم تكذيبًا واضحًا كما أسلفنا ذكره، فهناك أحاديث صريحة في تكذيبهم، فقد روىٰ الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي كلهم بالسند الصحيح عن أبي رافع رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا ألفين أحدكم متكئًا علىٰ أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري ما في كتاب اللَّه اتبعناه**»(١).

وروىٰ أبو داود في الأطعمة بسند صحيح عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان علىٰ أريكته يقول: عليكم بِهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول اللَّه كما حرم اللَّه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه**»(٢).

ومعنىٰ «يقروه» أن يضيفوه، ومعنىٰ يعقبهم أن يتبعهم ويجازيهم، قال في «النهاية» أي يأخذ منهم عوضًا عما حرموه من القرىٰ، وهذا في المضطر الذي لا يجد طعامًا، ويخشىٰ علىٰ نفسه التلف.

قال الألباني: وحمله علىٰ المضطر خالف ظاهر الحديث، والأحاديث

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٥)، والتِّرمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه (١٣).
(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٤).

الأخرىٰ المصرحة بأن قرىٰ الضيف ثلاثة حق له، دون تفريق بين المضطر وغيره، وقد روىٰ الدارمي نحو هذا الحديث وكذا ابن ماجه إلىٰ قوله: «**ما حرم اللَّه**». رواه في السنة بسند صحيح، ورواه الترمذي في كتاب العلم من طريق أخرىٰ عن المقدام ﵁، وقال: حديث حسن(١).

وروىٰ أبو داود عن العرباض بن سارية ﵁ قال: قام رسول اللَّه ﷺ فقال: «**أيحسَبُ أحدكم متكئًا علىٰ أريكته يظن أن اللَّه لم يحرم شيئًا إلا ما في هذا القرآن، ألا وإني ـ واللَّه ـ قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر، وإن اللَّه لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم**». وفي إسناده رجل فيه لين(٢).

وروىٰ الإمام الشافعي ـ أيضًا ـ حديث أبي رافع المتقدم.

خامسها: دلت الآية علىٰ انحصار الطاعة للَّه وحده، حيث نص فيها علىٰ أن طاعة الرسول طاعة للَّه كما أوضحنا السبب من كونه المبلغ عن اللَّه، وكونه معصومًا، فيجب طاعته حتىٰ في اجتهاده؛ لأن اللَّه لا يقره علىٰ الخطأ، وهذه القاعدة في الطاعة هي مقام التوحيد الأعلىٰ وأساسه المتين الذي لا يصح دين اللَّه إلا بتحقيقه.

وأما طاعة أولي الأمر فهي منوطة بطاعة اللَّه ورسوله علىٰ الاختلاف الماضي في مسمىٰ أولي الأمر، هل هم العلماء العاملون، أو أولو الحل والعقد ممن لهم حق النصب والعزل، أو الأمراء المرشحون من أولي الحل والعقد، سواء كانوا في البلاد أم في الأجناد، وكونهم من المسلمين المؤمنين شرط في طاعتهم، لقوله سبحانه: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، لأن المؤمنين المتقيدين بطاعة اللَّه وتحكيم شريعته لا يأمرون المسلمين بما يسخط اللَّه، ولا يخططون لهم ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أبو داود (٣٠٥٠).

وقد مضىٰ في تفسير آية الطاعة، أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ لأن الطاعة في هذه الحال منافية للتوحيد، وطاعة أولي الأمر يجب أن لا تخرج عن معاني التوحيد؛ لأن المؤمن الموحد لا يجوز له الذل والخضوع لأحد من البشر فيما يخالف حكم اللَّه، فليس لأحد من البشر طاعة لذاته وإنما الطاعة للَّه، «**وإنما الطاعة بالمعروف**»[1] كما قال النبي ﷺ.

وأما الذين أبرزتهم الأحابيل الماسونية والثقافة الاستعمارية ممن يعملون ضد الإسلام والمسلمين، ويحتقرون التعاليم والتشريعات الإسلامية، أو يصرحون بالطعن في أمانة الرسول ﷺ بزعمهم أن القرآن من تلفيقه حسب أوضاعه المكية والمدنية من القوة واللين، وأنه كان يتجول في البادية واستقىٰ منها الأقاصيص، كعصا موسىٰ وقصة أصحاب الكهف ونحو ذلك، فهؤلاء مرتدون يزيد كفرهم علىٰ اليهود والنصارىٰ والمجوس، والحكم عليهم أغلظ منهم، ويحرم انتخابهم لأي ولاية من قضايا المسلمين، فضلًا عن رئاسة الحكم والعياذ باللَّه، ولا تجوز طاعتهم خارج حدود الشريعة؛ لأن كفرهم كفر بواح، ليس فيه أي شبهة، بل فيه من اللَّه برهان.

سادسها: يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن المؤمن الموحد السائر علىٰ مدلولها في حصر الطاعة للَّه يكون أعز الناس نفسًا، وأعظمهم كرامة، وأن المؤمنين الذين يربيهم القرآن، علىٰ هذا المنوال لا يقبلون استبداد غاشم، ولا استعباد ظالم، وأنه لم يكن للظلم والاستعباد مجال إلا حين ضعفت العقيدة وتزعزع الإيمان، وحل محله الخوف والرعب في النفوس مما هو مخالف للتوحيد وهادم لأصوله، فإن التوحيد هو الذي يبعث في نفوس أهله العزة والكمال، ويحوطها برباطة الجأش والقوة المعنوية المكتسبة من العقيدة، المركزة في قلب المؤمن أن لا

---

(١) رواه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠).

يصيبه إلا ما كتب اللَّه عليه، وأن جميع الإنس والجن لو اجتمعوا علىٰ أن يضروه لن يضروه أبدًا إلا بما قدره اللَّه، وأن نواصي المخلوقات كلها بيده: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾.

فكل شيء مسخر بإذن اللَّه سبحانه، لا يخرج عن مشيئته وإرادته وعلمه شيء في الأرض ولا في السماء، وبهذه العقيدة الصحيحة السلمية برز العرب المؤمنون بالإسلام ظاهرين علىٰ جميع الناس ومحررين لهم من رق الطواغيت والدجاجلة، ومصححين لأفكارهم وتصوراتهم التي أفسدها أولئك بالأوهام والدجل، ومساوين بين طبقاتهم في الحقوق والأحكام، ولم يفضلوا العربي الغازي المنتصر علىٰ الأعجمي المغلول؛ لأن هدفهم من الغزو فتح القلوب للَّه بالهداية، لا استعباد الشعوب، ولا استغلال الأموال، ولا الاستعلاء في الأرض.

وما أروع كلمة الأمير المؤمن عمر بن عبد العزيز: «إن اللَّه بعث محمدًا داعيًا لا جابيًا»، أي إنهم يسيرون علىٰ نَهج نبيهم الرباني في الهداية إلىٰ اللَّه، ينشرون الإسلام والفضيلة في الأرض، وليسوا جباة مال يلتهمونه من أي ناحية.

فهذه هي العروبة المصطفوية التي بعثها المصطفىٰ ﷺ بوحي اللَّه من ركام الجاهلية، فأنارت العلم بهدايتها وصلاحها وحضارتها، وأنقذته بعدالتها ورحمتها، خلافًا للحضارات الفرعونية وما علىٰ شاكلتها من حضارات الكفر والفسوق، والظلم والإرهاب القاسي التي تجعل من تحتقره من البشر قطعانًا مسخرة، تلهب صدورها بالسياط لحمل الأثقال، وبناء الأهرامات والبروج، وحمل الأعمدة الحجرية التي لا يحملها سوىٰ الرافعات الحديثة في هذا الزمان، هذه الحضارة التي ينوه بها أعداء الإسلام ورجاله متجاهلين فضلهم من اللَّه علىٰ الناس أجمعين، ومعجبين بحضارة الظلم والوحشية والعنصرية الهمجية.

فإن العروبة الماسونية التي بعثها «زويمر» بوحي شياطين الإنس من

اليهود وأذيالهم، يسمون شيطنة الطواغيت وفسوقها وجبروتها حضارة، ويحتقرون الحضارة الصحيحة، حضارة العروبة المصطفوية، ويزعمون أنها عول علىٰ ذلك الرجس ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

سابعها: إذا كان وجوب طاعة الرسول ﷺ ليست لذاته، بل لأنه مبلغ عمن أرسله وهو اللَّه سبحانه، فكيف يجوز للمسلم أن يطيع أمر من دونه لذاته ويعمل به من غير ارتكازه علىٰ نص من اللَّه؟ وكيف يدعي غلاة الصوفية لأنفسهم أو لمعلميهم قداسة الشخصية، ووجوب الطاعة، أو تفضيل الحج إلىٰ قبورهم علىٰ بيت اللَّه ونحو ذلك من المفتريات؟

إن هذه الآية التي نصت علىٰ أن طاعة الرسول طاعة للَّه من حيث كونه رسوله، وليست طاعة ذاتية للرسول تبطل مزاعم المقدسين لمشايخهم وأئمة مذاهبهم، والمقدمين لأقوال هؤلاء وهؤلاء مع معارضتها الصريحة لما صح من الحديث، أو علم من الدين بالضرورة، ما تبطل عقائد القبوريين المستغيثين بالأموات والمجذوبين ونحوهم، فلا يجوز لأحد صرف الطاعة لغير اللَّه ورسوله المبلغ عنه، ولا الخضوع لغير اللَّه.

وقوله سبحانه في ختام الآية: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ فيه تعليم منه لنبيه ﷺ عن مهمته أنها مقصورة علىٰ ظواهر الناس دون بواطنهم، وأن من تولىٰ منهم بقلبه فلا يعبأ به ولا يحزن عليه؛ لأنه كان يضيق بتكلف من المغرضين عن الامتثال، فبين اللَّه له أنه ليس حفيظًا عليهم، حارسًا لأعمالهم، يحفظهم عن المخالفات.

ففي هذا تسلية له عن الحزن، وتربية للأمة علىٰ عمارة الضمير، وأن يكون وازعهم من أنفسهم دون إكراه وقمع خارجي عنها، بل يكون عندهم من تقوىٰ اللَّه رقيب باطني يراقبهم في كل حركاتهم وسكناتهم. وقد نفىٰ اللَّه عن نبيه كونه حفيظًا، وهي المبالغة في الحفظ الذي يكون به مهيمنًا عليهم، بحفظ أعمالهم ويحاسبهم عليها، ولم ينف كونه حافظًا علىٰ الإطلاق؛ لأن الرسالة لا تنفك عن الحفظ، إذ تبليغها نوع

حفظ عن الشرك والمخالفات. وفي معنىٰ ذلك قوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم علىٰ اللَّه»**(١)، ففي قوله: **«وحسابهم علىٰ اللَّه»** بيان لمعنىٰ هذه الآية، وأنه حافظ لا حفيظ مسيطر، وأن حساب الضمائر بيد اللَّه.

وليست هذه الجملة من الآية منسوخة بآيات الجهاد كما زعمه بعضهم، بل المقصود منها ـ واللَّه أعلم ـ عدم الإكراه القلبي علىٰ عدم التولي بالكلية، وأما الجهاد لإقامة حكم اللَّه، وقمع الفتنة التي تقف في وجوه الدعاة، ورفع الظلم وأنواع الإيذاء عن الأقليات المسلمة، فهذا من أوجب الواجب كما مضىٰ بعض بيانه، وكما سيأتي له مزيد إن شاء اللَّه، ولعل ما قالوه من نسخها بآيات الجهاد وجهًا من الوجوه، ولولا أن سورة النساء مدنية احتوت علىٰ بيان ما حصل بعد الهجرة من الأحوال و المشاكل وتقلبات المنافقين، كما أن هذه الآيات بالذات فيها إيضاح لخططهم وفضيحة لأحوالهم، مما يدل علىٰ أنها نازلة بعد فريضة الجهاد والقيام به. وفي هذه الآية دليل علىٰ جدوىٰ التربية الروحية المصلحة للضمائر، والزارعة فيها وازعًا رادعًا عن اقتراف ما يسخط اللَّه، ودافعًا قويًا إلىٰ التوبة والإنابة إليه بالترغيب والترهيب الديني، بخلاف تربية القسوة والكبت التي زاولها رجال الكهنوت، أو الذي يزاوله جلادو الأمم من الطواغيت المرهبين الفاتكين، فإن كلًّا من هذا وهذا ينقض من بأس الشعوب، ويزرع فيهم الهلع والجبن، حتىٰ لا يكادوا يدفعوا عن أنفسهم عادية.

وأما التربية الروحية، فإنها تبعث في النفوس شجاعة معنوية منقطعة النظير، ويظهر الفرق عند المقابلة بين البادية المرفوعة الرأس وبين الحاضرة المذللة بالفتك والإرهاب، ونحيل الباحث إلىٰ ابن خلدون

---

(١) تقدم تخريجه.

في الفصل الثاني من الكتاب الأول من مقدمته، حيث لا أقدر علىٰ نقل ما قاله ولا علىٰ اختصاره.

وفي هذه الآية - أيضًا - دليل علىٰ سخافة عقول الذين يزعمون التوحيد، وينفون عن أنفسهم الإشراك، وهم يستغيثون بأهل القبور والمجذوبين لدفع الأذىٰ عنهم، وطلب الخير منهم أو بواسطتهم كما يزعمونه جدلًا، وإلا فصيغة الدعاء واضحة في الطلب منهم، مع أن جعلهم وسائط شرك صريح؛ لأنهم يدعون من دون اللَّه ما لا يضرهم ولا ينفعهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وهو لم يجعل الرسول المبلغ عنه حفيظًا عليهم، ولا وكيلًا ولا مسيطرًا ولا جبارًا ولا شبحًا مخيفًا، لا في حياته ولا بعد مماته، بل قال قبل هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وجعله مبلغًا وهاديًا، وجعل الوازع الديني في قرارة النفس لا من خارجها.

فما أرقىٰ دين الإسلام الذي لم يجعل بين صاحبه وبين اللَّه واسطة! وما أسمىٰ تعاليمه! وما أجهل الذين يخيفهم مقبور ينذرون له ويخشون سطوته، أو يقدسون مخلوقًا مثلهم باسم الولاية أو العترة أو المجذوبية ونحوها! فما هو إلا كاتخاذ من دون اللَّه أنداد، ويخضعون لهم أعظم مما يخضعون للَّه، ويراقبون رضوانهم أعظم مما يرجون رضوان اللَّه، ويخشونهم أشد من اللَّه، ويحبونهم كذلك، وهؤلاء منظرهم ضرر علىٰ الإسلام.

وبالجملة فهذه الآية فيها بيان حقيقة مهمة الرسول، وتقصرها علىٰ ما أمره اللَّه به من التبليغ والجهاد الكبير وأنه لا يخلق ولا ينشئ ولا يشارك اللَّه في أي شيء من خصائص الألوهية، وإنما هو رحمة للناس، يرشدهم ويدعو اللَّه لهم، وليس له من الأمر شيء، فلا يملك هداية المعرضين المولين، ولا حفظهم من الضلال بعد إبلاغهم، ولا يملك

الشفاعة إلا لمن أذن اللَّه له فيها، كما نصت عليه أحاديث الشفاعة الصحيحة في الحمد الذي يوجده اللَّه له، وما على الأمة إلا طاعته ومتابعته، واعتبارها طاعة للَّه، وأن لا يقول أحد منهم، إنه بشر مثلنا، يريد الامتياز علينا.

كما في هذه الآية تكذيبًا لفلاسفة هذا العصر الذين يلحقونه برجال الكهنوت، حاشا ثم حاشاه، بل هو الصادق المصدوق ﷺ وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه عليه جميع الناس يوم القيامة.

📖 **وقوله سبحانه في الآية** (٨١): ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾:

التبييت هو كل أمر يقضىٰ بليل، ويعبر به عن التبديل والتغيير والتفكير في الأمر، ودهم العدو في الليل يسمىٰ بياتًا، ومنه قول عبيدة ابن همام:

أَتَوني فلم أرضَ ما بيَّتُوا وكانوا أتوني بشيءٍ نُكُرْ

واشتقاقه من البيتوتة؛ لأن أصلح الأوقات للفكر والتأمل أن يجلس الإنسان في بيته بالليل، فهناك تكون الخواطر خالية جدًّا، والشواغل قليلة. فلذلك سمي الفكر المستقصىٰ مبيتًا.

والمعنىٰ: إن المنافقين الذين لما كتب اللَّه القتال خشوا الناس كخشية اللَّه أو أشد خشية، كما جزم به ابن جرير، إذا أمرهم الرسول ﷺ بأمر من الأمور: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي أمرك مطاع، فيظهرون بحضوره كمال الطاعة، زاعمين منتهىٰ الانقياد له، ولكنهم يضمرون خلاف ما يظهرون.

واللَّه سبحانه فضح خطتهم لنبيه ﷺ بقوله: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ أي خرجوا وكانوا في مبرز عنك ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ أي

دبرت وزورت في اختفائها ومبيتها قولًا مخالفًا لقولك الذي أصدرت به الأمر، مجانبًا لمعاني الطاعة التي قابلوك بها وقت الأمر حضوريًا، وهذا بيان من اللَّه لتعاقبهم، وأنهم كاذبون فيما أظهروا لنبيه، وعاصون له في حقيقة أمرهم لسوء بواطنهم.

ثم إنه سبحانه أخبر عن إحاطته بمكرهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يعني يحصيه في صحائف أعمالهم حسب ما تكتبه الملائكة الحفظة، ليجازيهم علىٰ سوء صنيعهم. وقال الزجاج: يكتبه في كتابه إليك، أي ينزله في القرآن، ويعلم به نبيه، ويطلعه علىٰ سرهم.

وفي هذا وأمثاله قمع لانتشار النفاق بفضيحة أهله، وتربية للمؤمنين بذلك، كما فيها تهديد للمنافقين، بأن اللَّه الذي أظهر خزيهم في الدنيا بما يعلمه من سوء ما يبطنون، سيعاقبهم في الدار الآخرة زيادة علىٰ ما يحصل لهم قبلها من العقوبات الحسية والمعنوية، وأن إخفاءهم لخططهم الدينية لا يخفىٰ علىٰ اللَّه شيء منها، فإن هؤلاء جريمتهم كبيرة، وعذابهم علىٰ قدرها في العاجل والآجل.

ولكن اللَّه سبحانه رسم لنبيه خطة الإعراض وعدم الإكتراث والمبالاة بهم وقال: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي لا تقابلهم بسوء، ولا تخبر بأسمائهم فيجاهروك بالعداوة بعد المجاملة في القول، وليس في هذا نَهْي له عن دعوتهم ولكنه نَهْي عن حسن مقابلتهم، وعن المسارعة في عقوبتهم، حتىٰ يتضح أمرهم للمؤمنين وللأعداء، وليس هذا المرسوم منسوخًا بآيات الجهاد ولا بقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، لأن الأمر بالصفح مطلق غير مقيد، ولأن النفاق لم يظهر إلا بعد الأمر بالجهاد وحصول القتال، ولكن الأمر بالإعراض لحكمة أو عدة حكم، وهي: أن لا يشاع أن محمدًا يقتل أصحابه، وأن لا يضري عليه فتنة من الداخل، وهو بحاجة إلىٰ الأمن الداخلي بادئ الأمر، ليستريح مما وراءه إذا زحف علىٰ عدوه الذي في الأمام، ولأنهم مشتبكون مع بعض الأنصار بنسب أو محالفات ومودة سابقة زادها الإسلام توثيقًا، فيغضب لغضبهم

أناس من المؤمنين لا يعرفون حقيقة أمرهم.

فسياسة الإسلام التي رسمها اللَّه العليم الحكيم تقتضي الإعراض والصفح المؤقت، حتىٰ تتضح الحقائق للجمهور، ويغضب عليهم من كان يسندهم بالأمر، وتقوىٰ الشوكة وتزول المحاذير واللَّه أعلم.

و قوله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي اعتمد علىٰ اللَّه وفوض أمرك إلىٰ اللَّه الرحيم اللطيف بك، والعليم بأحوالك وما يصلحك، وثق به كمال الثقة، واستسلم لقضائه بعد أخذ الحذر والحيطة، وعمل ما يجب عمله من مدافعة القدر الذي أرشدك اللَّه إليه في مواقفك الأخرىٰ.

وأما هنا فقد اقتضت حكمته بالإعراض عنهم كما سبق بيان بعض الحكمة وما خفي علينا أكثر، فإنه سبحانه المسدد لخطاك، والمسهل لجميع نوائبك يا محمد فهو الذي يكفيك شرهم وينتقم لك منهم وللمؤمنين، فلا تَهتم بهم، ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم، فتوكل علىٰ ربك تمام التوكل: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي أن الاكتفاء باللَّه غاية المؤمنين وغنيتهم، وأن وكالته التي هي ولايته وحفظه كافية للمؤمنين أكبر كفاية وأعظمها.

فلهذا أتىٰ بصيغة المبالغة بقوله: «وكفىٰ» وليست اسم فعل، بل هي فعل علىٰ الصحيح، وفاعلها اسم اللَّه، وقيل إن الفاعل مضمر والتقدير: كفىٰ الاكتفاء، والباء ليست زائدة وإعرابها معروف، و«كفىٰ» هنا متعدية إلىٰ واحد وتتعدىٰ بغير هذا المعنىٰ، إلىٰ اثنين فأكثر كقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾. وإنما وصف اللَّه نفسه العلية بالوكيل؛ لأن الوكيل في كلام العرب هو المسند إليه القيام بأمر من أسند إليه القيام بأمره، فلما كان الرسول ﷺ والمؤمنون مأمورين بإسناد أمورهم إلىٰ اللَّه، وتفويضها إليه، والوثوق الكامل به عبر بِهذا الاسم واصفًا به ذاته العلية بصيغة المبالغة في المدح الذي هو أهل له سبحانه بكامل الاستحقاق؛ لأنه المتولي لشئون الخليقة أجمعين، والمخصص لرسله

وللمؤمنين بمزيد العناية والتوفيق، فكفىٰ وكيلًا يتكفل بالنصرة والدولة لرسوله ولأتباع رسوله إلىٰ يوم القيامة.

وليس الأمر بالتوكيل يعني إهمال التدبير والأخذ بالأسباب، فقد تقدم أكثر من مرة ما ينص علىٰ الأخذ بالأسباب ووسائل الحيطة، وتكلمنا عليه في مواضعه مرارًا والحمد للَّه. ولو كان التوكل منافيًا للأخذ بذلك لما كان للأمر بالقتال فائدة، ولا بمشاورة المؤمنين فائدة، ولا للأمر بأخذ الحذر والاستعداد بالقوة المستطاعة فائدة، ولا بالأمر بصلاة الخوف فائدة، ولا بغير ذلك من وسائل الحزم.

وقد قدمنا مرارًا وتكرارًا أنه لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها اللَّه مقتضيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوىٰ في التوكل، فإن تركها ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب علىٰ اللَّه في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره فيهما، فلابد مع هذا الاعتماد علىٰ اللَّه، والتفويض إليه مع مباشرة الأسباب، وإلا كان العبد معطلًا لشرع اللَّه وحكمته، ولا يجوز أن يجعل عجزه وتواكله توكلًا، إذ ما أبعد الفرق بين التوكل والتواكل، كما لا يجوز أن يجعل، فقد كررت ذلك لأهميته.

وههنا فوائد:

إحداهما: أنه لا يكتفي بدعوىٰ الإيمان، ولا بمجرد التصريح بلفظ الطاعة دون تحقيقها بقوة العمل والانقياد، فإن اللَّه سبحانه لم يحقق لهؤلاء المشار إليهم في هذه الآية طاعة، ولا حكم لهم بصحتها مع إعلانهم إياها؛ لأنهم لم يوجدوها، ولم يقوموا بمقتضاها من العمل والتنفيذ، فأصبحت طاعتهم لفظية لا تتجاوز حناجرهم، فلا يعتد بها، ولم تغن عنهم فتيلًا.

ثانيها: معاني الطاعة والإيمان متلازمان، فكما أن الإيمان ليس

بالتحلي ولا بالتمني، فكذلك الطاعة ليست بالتحلي ولا بالتمني، وكل منهما لا يكون له وجود حقيقي صحيح بمجرد النطق والدعوىٰ، فلابد للإيمان من عقيدة صحيحة عميقة، تنبثق منها التصورات والأقوال، وتنبعث منها الأعمال، ويصدر عنها البذل والتضحية.

ومن هنا تنشأ حقيقة الطاعة التي لا ينفع منها دعوىٰ القول المجردة؛ لأن من لم يعتقد الطاعة ليس بمطيع حقيقة؛ لأنه ـ وإن نطق بها ـ لا يعمل بمدلولها، ولهذا نجد اللَّه لم يحقق طاعة المنافقين فيما أظهروه من زعمهم الطاعة، فلو كانت الطاعة بلا وجود حقيقة العمل تصح لحكم اللَّه لهم بها، ولكن الطاعة من موجبات الإيمان ومستلزماته، فحيث لم يوجد عندهم من الإيمان إلا الإيمان اللفظي، لم يوجد عندهم من الطاعة إلا الوجود اللفظي فقط، فالطاعة لا تسمىٰ طاعة إلا بوجود الأعمال الناشئة عن الاعتقاد، كما أن الإيمان لا يكون له وجود بدون ذلك.

ثالثها: أن اللَّه سبحانه خص طائفة من جملة المنافقين بتبييت ما لا يرضىٰ من القول المخالف للطاعة، وفي هذا التخصيص للعلماء وجهان:

أحدهما: أنه تعالىٰ ذكر من علم بسابق علمه أنه يبقىٰ علىٰ كفره ونفاقه، فأما من علم أنه يرجع عن ذلك فإنه لم يذكرهم، ولهذا جرىٰ تخصيصه بذكر طائفة فقط.

وثانيهما: أن هذه الطائفة قد سهرت ليلها بالتبييت الذي هو التدبير السيئ بالليل، وأما غيرهم فإنهم سمعوا وسكتوا ولم يشاركوهم في تدبيرهم، فلهذا لم يذكروا، واللَّه أعلم.

رابعها: تكرار اللَّه أمره لنبيه وللمؤمنين بالتوكل الذي هو الاعتماد علىٰ اللَّه، وتفويض الأمور إليه إنما هو لتخليص عقائد المسلمين من التماس شيء من عند غير اللَّه وتخليص تصوراتهم من ذلك، وأن تتصل قلوبهم بالقوة الفاعلة الخفية في هذا الكون، فتقوىٰ عزائمهم قوة لا يملكها غيرهم ولا يتصل بها لانبتار صلته من اللَّه، فهم يرجون الرجاء

العظيم الذي لا يرجوه عدوهم ولا يتصوره كما سيأتي.

قال المرحوم سيد قطب: إنه التوازن العجيب الذي لا يعرفه القلب البشري إلا في الإسلام.

خامسها: تذكير اللَّه للتبييت دون تأنيثه في قوله: ﴿بَيَّتَ طَآيِفَةٌ﴾ ولم يقل: «بيتت طائفة»، لأن تأنيث الطائفة غير حقيقي، ولأنها في معنىٰ الفريق والفوج، ولأن جميع المعاني ترجع إلىٰ التذكير، فهم بعض من المنافقين الذين يبطنون رفض الأوامر خلافًا لما يظهرونه من قبولها، فيجتمعون بالليل لتقرير الإصرار علىٰ الرفض، لاستمرارهم علىٰ النفاق.

سادسها: في قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ تهديد لهم علىٰ إصرارهم وتماديهم في عدم الانقياد، ومخادعتهم بإظهار الطاعة. فهذه الآية شبيهة بما في سورة النور: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ إلا أن هذه تسجل عليهم نفي الإيمان، والآية التي نفسرها تصور نفاقهم وتتضمن تهديدهم.

سابعها: ارتفاع ﴿طَاعَةٌ﴾ بالمتروك الذي دل عليه الظاهر من القول، وهو أمرك طاعة أو منا طاعة، وأما قوله: ﴿بَيَّتَ طَآيِفَةٌ﴾ فإن التاء يحركها بالفتح عامة قراء المدينة والعراق وسائر القراء؛ لأنها لام «فعل»، وبعض العراقيين يسكنها ثم يدغمها في الطاء لمقاربتها في المخرج؛ كما حكاه الفراء في «معاني القرآن»، ورجح ابن جرير عدم الإدغام؛ لأنه أفصح، ولأنها من حرفين مختلفين، وتزيد الطاء علىٰ التاء بصفة وهي الإطباق، بل تزيد بصفة أخرىٰ وهي القلقلة.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٨٢)**: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾:

هذا تساؤل إلهي عظيم، بسبب المنافقين والمنخدعين بهم، يحمل التعجب والحض علىٰ التعمق في فهم القرآن، بل إن أكثر معانيه تحمل

العيب لهم على الإعراض عن فهمه. والتدبر هو التأمل وإمعان الفكر في الأمر، وإدبار الأمور: عواقبها، وتدبر الكلام هو إمعان النظر والتفكير في معانيه وغاياته ومقاصده التي يرمي اليها، وعاقبة العامل به والمخالف له. قالوا: والدبر هو المال الكثير سمي بذلك لأنه يبقىٰ للأعقاب والأدبار.

وهذا العيب الذي عابهم اللَّه به على الإعراض عن القرآن سببه الشك فيه؛ لأن الذي يتلوه عليهم محمد ﷺ هو الذي نشأ منه موقفهم السيئ في ترك الطاعة والانقياد، وإظهارهم خلاف ما يبطنون، لهذا السبب فهم لا يتصورونه من غير محمد، وهذا من جهلهم وسلوكهم سلوك المعاندين المغرضين، وهم ليس لهم غرض؛ فإن المعاندين استكبروا عن قبول الحق لغايات وأغراض يقصدونها، وزعموا لأجل تضليل الناس وإعماء المقاصد أن اللَّه لا يرسل بشرًا مثلنا يأكل الطعام ـ يقصدون ما يجري من عاقبة أكله ـ ففند اللَّه مزاعمهم كما سيأتي ذلك في سورة الأنعام إن شاء اللَّه.

وبما أن هؤلاء ليسوا كأولئك، فإن اللَّه سبحانه يندبهم إلى تحقيق شخصيتهم الإنسانية، والارتفاع بها عن المستوى البهيمي، وذلك بأن يستعملوا عقولهم نحو هذا القرآن، ليعرفوا أنه ليس من قول البشر، وأن محمدًا ﷺ لم يأتهم بشيء من عنده، ولم يكن مفتريًا، خصوصًا وأنه الملقب بالأمين، والذي لا يكذب على الناس لا يكذب على اللَّه، كما قال ملك الروم في حديثه المشهور مع أبي سفيان.

وهذه الآية الكريمة فيها أقصى غايات الإكرام لبني الإنسان واحترام عقولهم، وأن اللَّه سبحانه لا يخاطبهم بالقسر والتهديد المجرد من مراعاة الشعور، بل إنه من رحمته بهم، وحكمته في هدايتهم يخاطب عقولهم ومشاعرهم تعريفًا لهم بالحقيقة التي إذا أمعنوا بها اتضحت لهم غاية الاتضاح.

وبِهذا يستيقن القارئ والسامع صحة ما جاء به النبي ﷺ من دين

اللَّه الإسلام الذي يصل بالإنسانية إلىٰ منتهىٰ الإكرام، ويحترم عقولها غاية الاحترام فيما للعقل مجاله الذي يعرف به أقصىٰ حدود المادة والطبيعة في الاستكناه الذهني، ولا يحجر عليه تفكيره كما تحجره الأديان الأخرىٰ المكذوبة علىٰ اللَّه.

وفي هذه الآية دليل واضح قاطع علىٰ أنه باستعمال العقل الفطري، وشحذ الذهن يحصل الإدراك لحقيقة هذا القرآن أنه من عند اللَّه بكل القوانين، لا من عند سواه قطعًا، لما أرشدنا اللَّه فيها بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ فإن بتوجيه اللَّه في هذه الآية خطابًا عامًّا يهتدي به كل متأمل بفكر صحيح غير مختلط، منذ نزولها إلىٰ قيام الساعة.

فكل من لم يسلم عقله للطواغيت، ولم يسمح للطواغيت بمصادرته، بل احتفظ به عن كل شائبة فإنه لا يحتاج في الهداية إلىٰ معجزة خارجة عن القرآن، بل يهديه التدبر الصحيح لمعانيه، فإن تدبر حقائق معاني القرآن يهدي المتفكر المتدبر للتأكد من صحة الربوبية والألوهية، لما كرره اللَّه وأعاد فيه من أنواع الكونيات في العوالم العلوية والسفلية، وما أودعه من عجائب مخلوقاته، وأنه لا يمكن استقامة تدبير هذا العالم من خالقين أو بإلهين؛ لأنه لابد أن يذهب كل إله بما خلقه ويستقل به، وهنالك يحصل التناقض والتنازع والخراب والفساد. إذ لابد مع هذا أن يعلو بعضهم علىٰ بعض علىٰ حساب العوالم، فيحل الدمار. كما قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء] وقال في الآية (٩١ ـ ٩٢) من سورة المؤمنون: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

ومن صحة الرسالة ووجوب طاعة المرسلين بما ذكره من العاقبة الحسنىٰ للمؤمنين بهم، ومن الهلاك وسوء العاقبة للمكذبين بما قصه

اللَّه في القرآن من أخبارهم مجملًا ومفصلًا نكتفي منه بقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الروم] الآية، وقال في الآية (٢٦) من سورة آلم السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝٢٦﴾، وقال في الآيات (١٣٧، ١٣٨) من سورة الصافات: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾ وغير ذلك من الآيات المثبتة للتوحيد والرسالات بتقرير القوة القاهرة الغالبة، الخالقة المبدعة العالمة، المحيطة المسيطرة المهيمنة، الرازقة المنعمة الراحمة، بحيث لو لم يرد من القرآن إلا سورة «يس والصافات»، لكفتا عبرة يستيقن بهما كل من قرأهما أنهما من عند اللَّه لا من عند سواه، إذا كان يحمل ضميرًا وعقلًا استقلاليًّا. فكيف بمجموع القرآن الكريم؟ ولهذا قال سبحانه في سورة يس: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٧٠﴾ [يس].

بل لو تدبروه حق التدبر في الماضي والحاضر لعلموا أنه يهدي إلىٰ الحق، ويأمر بالخير والرشد، وأن عاقبة ذلك لا تكون إلا الفوز والفلاح والصلاح والإصلاح، فإذا كانوا لاستحواذ الباطل والغي عليهم لا يدركون كنه هداية القرآن في ذاتها، أفلم يأن لهم أن يدركوا من خصائصه ومزاياه أنه لا يمكن أن يكون إلا من عند اللَّه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، أي لو كان من عند الرسول محمد أو غيره ـ كما زعم بعضهم أنه يعلمه بشر ـ، ولم يكن من عند اللَّه الذي أرسله؛ لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا لعدم استطاعته واستطاعة أي مخلوق أن يأتي بمثل هذا القرآن في تصوير الحق بصورته كما هي، لا يختلف ولا يتفاوت في شيء منها، لا في حكايته عن الماضي الذي لم يشاهده محمد ﷺ ولم يقف علىٰ تاريخه، ولا في إخباره عن المستقبل في

مسائل كثيرة وقعت كما أنبأ بها، ولا في بيانه لخفايا الحاضر حتىٰ حديث الأنفس ومخبآت الضمائر، مما لا يعلمه إلا علام الغيوب، كبيان ما تبيته هذه الطائفة سرًّا من مخالفة ما تظهره علنًا في حضرة الرسول ﷺ، ولعدم استطاعته واستطاعة غيره أن يأتي بمثل هذا القرآن فيما جاء به من فنون القول وألوان العبر في أنواع المخلوقات في الأرض والسماوات، وفيها الكلام علىٰ الخلق والتكوين ووصف الكائنات بأنواعها، كالكواكب وبروجها ونظامها واختلاف الرياح والنبات والحيوان والجمادات، و ما في ذلك من الحكم والآيات، والبحار وضرب الأمثال بأمواجها وسواد مياهها في اللجة وظلام الليل كما ذكره في الآية الأربعين من سورة النور، والتي لا يقدر محمد ﷺ علىٰ وصفه الدقيق، وهو لم يركب البحر، علىٰ أن بعض من يركب البحر لا يصادف هذا النوع الذي مثل به القرآن.

فإن هذه الآية تكفي شاهدًا لصدق محمد ﷺ بكون القرآن من وحي رب العالمين، وقد اعتبر بها بعض المعتبرين من الكفار فأسلموا، وكذلك لا يستطيع محمد ولا غيره أن يأتي بمثله في بيان أصول العقائد وقواعد الشرائع، وفلسفة الآداب والأخلاق، وسياسة الشعوب والأقوام مع إتقان جميع الأصول وعدم الاختلاف والتفاوت في شيء من الفروع.

وكذلك لا يقدر محمد ﷺ أن يأتي بمثله في بيان سنن الاجتماع، ونواميس العمران، وطبائع الملل والأقوام، وإيراد الشواهد، وضرب الأمثال وتكرار القصة الواحدة بالعبارات المتشابهة البليغة تنويعًا للعبرة وتلوينًا للموعظة، مع تجاوب المتكرر علىٰ الحق وتواطئه علىٰ الصدق، وبراءته من الاختلاف والتناقض، واستعلائه عن التفاوت والتباين.

وكلامه سبحانه في ذلك كله يؤيد بعضه بعضًا، ولا شبهة فيه، ولا تعارض بين معانيه، ومع هذا ففيه من العلم الإلهي والإخبار عن بعض الغيب، والدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء الوفاق علىٰ الأعمال،

وكون ذلك موافقًا لفطرة الإنسان، وجاريًا علىٰ سنة اللَّه في تأثير الأعمال الاختيارية، فإن الاتفاق والالتئام بين الآيات الكثيرة في هذا الباب هو غاية الغايات المخرس لمنكري الحق والمعجزات.

ولقد كان ﷺ ينزل عليه القرآن منجمًا بحسب الأحوال والوقائع، فيأمر عند نزول الآية أو الطائفة من الآيات أن توضع في محلها من سورة كذا وكذا، وهو لا يقرأ ما كتب في المصحف أولًا ولا ما كتب آخرًا، ولم تخنه ذاكرته علىٰ طول المدة بين نزول الآيات أن يتذكر ويستحضر، ليجعل الآخر في موضع مناسب للأول، وملائم لموضوعه، خصوصًا وأن بعضه ينزل في أيام حرب وشدة أزمات، وهذا مصداق قوله تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلىٰ].

وكان أصحابه يحفظون عنه ما يتلوه عليهم، ويكتبونه في مصاحفهم، فلم يكن هناك مجال للتنقيح والتحرير، وأعجب من هذا أن تمر السنون والأحقاب والقرون والأجيال، وتتغير أحوال العمران، والقرآن باق لم يتغير ولم تنقص منه كلمة، وهذا من فضل اللَّه القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، بل العجب العجاب أن معانيه تتجدد علىٰ مرور السنين والحوادث، فتجد معانيه وأحكامه جديدة عند كل نازلة وعند تجدد أزمات المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فلا يتدبر المتفكر آياته إلا ويجدها جديدة بحسب حالات زمانه؛ لأنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت]، بخلاف مؤلفات البشر، فإنها تتعرض للاختلاف وموجبات التغيير في حياة مؤلفها.

وبما أن الإسلام دين العقل الصريح، والقرآن يخاطب العقول مخاطبة سليمة بناءة، فقد أوجب اللَّه علىٰ أهله استعمال عقولهم جيدًا في تدبر القرآن، ليعلموا حقيقته، وقد خص أهل الشكوك بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، يعني أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب اللَّه، فيعلموا حجته عليهم في طاعتك، واتباع أمرك،

وأن الذي أتيتهم به من القرآن هو من عند ربهم، وذلك لاتساق معانيه وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير اللَّه لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، كما هي ضرورة قول الناس بخلاف كلام اللَّه، فإنه لا يختلف، وكله حق ليس فيه باطل.

فأما ما يجهله الناس من معانيه، أو يتصوره بعضهم متناقضًا، فهو إما من جهالتهم وتقصير أفكارهم، وإما من فساد في تصوراتهم أو زندقة في معتقداتهم، أو كبرياء فتعمىٰ بصائرهم، أو انهدام لضمائرهم التي باعوها بالطمع والشهوة لأعداء اللَّه وأعدائهم، لا يعدو ذلك هذه الأحوال أبدًا، ويكفي أهل العقل والإنصاف أن لجميع أحكام القرآن عللًا ثابتة مطردة علىٰ مر الأزمان، وأنه يربط الحكم بالوصف المعنوي، لا بمجرد الاسم، كما ربط تحريم الخمر بوصف الإسكار لا بأحد أسمائه المختلفة، وكما ضبط النفاق بأوصاف لابد من وجودها في أهله إلىٰ يوم القيامة لا بالأشخاص، وهكذا.

قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ في كلامه علىٰ هذه الآية: ذكروا في تفسير سلامته عن الاختلاف ثلاثة أوجه:

الأول: قال أبو بكر الأصم: معناه أن هؤلاء المنافقين كانوا يتواطئون في السر علىٰ أنوع كثيرة من المكر والكيد، واللَّه تعالىٰ كان يطلع الرسول ﷺ علىٰ تلك الأحوال حالًا فحالًا، ويخبره عنها علىٰ سبيل التفصيل، وما كانوا يجدون في كل ذلك إلا الصدق، فقيل لهم: إن ذلك لو لم يحصل بإخبار اللَّه تعالىٰ لما اطرد الصدق فيه، ولظهر في قول محمد أنواع الاختلاف والتفاوت، فلما لم يظهر ذلك علمنا أن ذلك ليس إلا بإعلام اللَّه تعالىٰ.

الثاني: وهو الذي ذهب إليه أكثر المتكلمين أن المراد منه أن القرآن كتاب كبير، وهو مشتمل علىٰ أنواع كثيرة من العلوم، فلو كان ذلك

من عند غير اللَّه لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة؛ لأن الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك، ولما لم يوجد فيه ذلك علمنا أنه ليس من عند غير اللَّه، ثم ذكر سؤالات للملاحدة أحال علىٰ جوابها ولم يذكرها هنا، وسنوردها نحن مع غيرها بأجوبتها قريبًا إن شاء اللَّه، ثم قال:

الوجه الثالث: في تفسير قولنا: «القرآن سليم عن الاختلاف»: ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني وهو أن المراد منه الاختلاف في رتبة الفصاحة، حتىٰ لا يكون في جملته ما يعد في الكلام الركيك، بل بقيت فصاحته فيه من أوله إلىٰ آخره علىٰ نهج واحد.

قلت: وقد أسلفنا أمثال هذا التفسير فلا نطيل بتكراره.

ونقل صاحب «المنار» عن الإمام الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن» وجه إعجازه بإخباره عن المغيبات، وباشتماله علىٰ العلوم والأخبار التي لا تعرف إلا بالتلقي والتعليم، مع كون من جاء به أميًّا.

ثم قال: إنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه إلىٰ الحد الذي يعلم به عجز الخلق عنه، والذي أطلقه العلماء هو علىٰ هذه الجملة، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التي أطلقوها، فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه:

منها: ما يرجع إلىٰ الجملة، وذلك أن نظم القرآن علىٰ تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه، خارج عن المعهود من جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه أساليب الكلام المعدل المسجع، ثم إلىٰ معدل موزون غير مسجع، ثم إلىٰ ما يرسل إرسالًا متطلبًا فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة علىٰ وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلًا في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له، وقد علمنا أن القرآن مخالف لهذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق، ويبقىٰ

علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع، ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس من قبيل الشعر؛ لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع، ومنهم من يدعي أن فيه شعرًا كثيرًا، والكلام يذكر بعد هذا الموضع.

فهذا إذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة، وأنه معجزة، وهذه خصوصية ترجع إلىٰ جملة القرآن و تميز حاصل في جميعه.

ومنها: أنه ليس للعرب كلام مشتمل علىٰ هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة علىٰ هذا الطول وعلىٰ هذا القدر - أي ليس لهم كتاب بِهذه المشابهة - وإنما تنسب إلىٰ حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلىٰ شاعرهم قصائد محصورة، يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويقع فيها ما نبديه من التعمل والتكلف، والتجوز والتعسف.

وقد كان القرآن علىٰ طوله وكثرته متناسبًا في الفصاحة علىٰ ما وصفه اللَّه تعالىٰ به، فقال عز من قائل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ فأخبر أن كلام الآدمي إذا امتد كثر فيه التفاوت، وبان عليه الاختلاف، وهذا المعنىٰ هو غير المعنىٰ الأول الذي بدأنا بذكره فتأمله تعرف الفضل.

وفي ذلك معنىٰ ثالث: هو أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه، لا يتفاوت ولا يتباين علىٰ ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ، واحتجاج وحكم، وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم، وأخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع يختلف علىٰ

حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود بالمدح دون الهجاء، ومنهم من يبرز في الهجاء دون المدح، ومنهم يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ، ومنهم من يقرب في وصف الإبل أو الخيل، أو سير الليل، أو وصف الحرب، أو وصف الروض، أو الخمر أو الغزل أو غير ذلك، مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام.

ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل أجناس الكلام، ومتىٰ تأملت شعر الشاعر البليغ، رأيت في شعره علىٰ حسب الأحوال التىٰ يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنىٰ، فإذا جاء إلىٰ غيره قصر عنه ووقف دونه، وبان الاختلاف علىٰ شعره. ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم من الشعراء، لأنه لا خلاف في تقدمهم في صناعة الشعر، ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم، فإذا كان الاختلال بينًا في شعرهم لاختلاف ما يتصرف فيه، استغنينا عن ذكر من هو دونهم، وكذلك عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها.

ثم تجد في الشعراء من يجود في الرجز، ولا يمكنه نظم القصيد أصلًا، ومنهم من ينظم القصيد، ولكن يقصر فيه مهما تكلفه وتعمله، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل فإذا أتىٰ بالموزون قصر ونقص نقصانًا عجيبًا، ومنهم من يوجد بضد ذلك.

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها علىٰ حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والوصف، لا تفاوت ولا انحطاط من المنزلة العليا، ولا إسفال فيه إلىٰ الرتبة الدنيا.

وكذلك قد تأملنا ما تنصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها علىٰ حد واحد لا يختلف، وكذلك

قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة، فرأينا القرآن غير مختلف ولا متفاوت، بل هو علىٰ نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر؛ لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار، وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب التي يتضمنها.

ومعنىٰ رابع وهو: أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتًا بينًا في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، هو يتصرف فيه القول عند الضم والجمع. ألا ترىٰ أن كثيرًا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنىٰ إلىٰ غيره، والخروج من باب إلىٰ سواه، حتىٰ أن أهل الصنعة قد اتفقوا علىٰ تقصير البحتري ـ مع جودة نظمه وحسن وصفه ـ في الخروج من النسيب إلىٰ المديح، وأطبقوا علىٰ أنه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء، وإنما اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضىٰ، وتنقل يستحسن، وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلىٰ شيء، والتحويل من باب إلىٰ باب، ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة، ونبين أن القرآن علىٰ اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة، بجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، وهذا أمر عجيب، تتبين فيه الفصاحة، وتظهر فيه البلاغة، ويخرج به الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف.

وذكر هنا معنىٰ خامسًا: هو أن نظم القرآن وقع موقعًا في البلاغة يخرج عن عادة الإنس والجن، فهم يعجزون عن مثله، وذكر أن المراد بكلام الجن ما كانت تعتقده العرب وتحكيه من سماع كلام الجن وزجلها وزعيقها، وليس هذا مما نحن فيه من نفي الخلاف والتفاوت. قلت: لا ريب في كلام الجن فقد أثبته اللَّه وحكىٰ منه عجبًا.

ثم قال:

ومعنىٰ سادس: هو أن الذي ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجوز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم موجود في القرآن، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة، وقد ضمنا بيان ذلك بعد؛ لأن الوجه هنا ذكر المقدمات دون البسط والتفصيل.

ومعنىٰ سابع وهو: أن المعاني التي تتضمن في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والرد علىٰ الملحدين، علىٰ تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة مما يتعذر علىٰ البشر، ويمنع ذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مستحدثة، فلو أبرع اللفظ في المعنىٰ البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنىٰ المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور، ثم إن انضاف إلىٰ ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدئ تأسيسه ويراد تحقيقه بأن التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنىٰ، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدها علىٰ الآخر، فالبراعة أظهر، والفصاحة أتم.

حاصل هذا الوجه: أن كلام الفصحاء في المعاني المألوفة المبتذلة لا يخلو من الاختلاف والتفاوت، فانتقاء الاختلاف من القرآن ألبتة علىٰ تصرفه في ضروب المعاني العلمية العالية التي لم يسبق للعرب التصرف فيها أبلغ في الإعجاز، وأظهر في الدلالة علىٰ كونه من عند اللَّه ﷻ.

ثم ذكر معنىٰ ثامنًا: بين فيه وقوع الكلمة من القرآن، في كلام البلغاء من شعر أو نثر موضع التميمة من واسطة العقد، فتأخذه لأجلها الأسماع، وتتشوق إليه النفوس، وأجاد في هذا كل الإجادة،

وليس من موضوع نفي الاختلاف الذي نحن فيه.

وكذلك المعنىٰ التاسع: فقد بين فيه أسرار الحروف المقطعة في أوائل بعض السور.

وأما المعنىٰ العاشر: فهو علىٰ ما يتضمنه من نفي الاختلاف والتباين يفيدنا إيضاح وجوب تدبر القرآن، وكونه مما يسره اللَّه لكل عارف بِهذه اللغة.

ومعنىٰ حادي عشر: هو أن اللَّه سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريبًا إلىٰ الأفهام يبادر معناه لفظه إلىٰ القلب، ويسابق المغزىٰ من عبارته إلىٰ النفس، وهو ممتنع المطلب، عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به. فأما الانحطاط عن هذه المرتبة إلىٰ رتبة الكلام المبتذل، والقول المسفسف، فليس يصح أن يقع فيه فصاحة أو بلاغة، فيطلب فيه التمنع، أو يوضع فيه الإعجاز، ولكن لو وضع في وحشي مستكره، أو غُمر بوجوه الصنعة وأطبق بأبواب التعسف والتكلف؛ لكان لقائل أن يقول فيه، ويعتذر ويعيب ويقرع، ولكنه أوضح مناره، وقرب منهاجه، وسهل سبيله، وجعله في ذلك متشابهات، وبين مع ذلك إعجازهم فيه.

وقد علمت أن كلام فصحائهم وشعر بلغائهم لا ينفك من تصرف غريب مستنكر، أو وحشي مستكره، ومعان مستبعدة، ثم عدولهم إلىٰ كلام مبتذل وضيع لا يوجد دونه في الرتبة، ثم تحولهم إلىٰ كلام معتدل بين الأمرين، متصرف بين المنزلتين فمن شاء أن يتحقق من هذا نظر في قصيدة امرئ القيس (قفا نبك من ذكرىٰ حبيب ومنزل)، ونحن نذكر بعد هذا التفصيل ما تنصرف إليه هذه القصيدة ونظائرها ومنزلتها من البلاغة، ونذكر وجه قوة نظم القرآن محلها علىٰ وجه يؤخذ بالكلية، ويتناول عن كثب، ويتصور في النفس كتصور الأشكال

ليبين ما ادعينا من الفصاحة العجيبة للقرآن. «اهـ بتصرف قليل».

وحاصل معنىٰ الآية الكريمة أن تدبر القرآن، وتأمل ما يهدي إليه بأسلوبه الذي امتاز به هو طريق الهداية القويم، و صراط الحق المستقيم، فإنه يهدي صاحبه إلىٰ كونه من عند اللَّه، وإلىٰ وجوب الاهتداء به، لكونه من عند اللَّه الرحيم بعباده، العليم بما يصلح به أمرهم، مع كون ما يهدي إليه معقولًا في نفسه لموافقته للفطرة، وملائمته للمصلحة.

وههنا فوائد مهمة:

إحداها: يؤخذ من هذه الآية الكريمة وجوب تدبر القرآن، وعدم جواز ترك التدبر؛ لأن فيه تعطيلًا للعقل والمواهب، وهذا جناية من الإنسان علىٰ فطرته، وعلىٰ حقيقة شخصيته بِهذا التفريط الذي سيكون فيه عرضة للدجل وخطر الإلحاد، ويكون فريسة لأنواع الغزو الفكري، خصوصًا الذي تفاقم شره في هذه الأزمان، وما حصلت فتنة الدجاجلة، والغرور بالطواغيت إلا بسبب عدم تدبر القرآن، وعدم الشعور بالجوعة الكاملة إلىٰ فهمه، فلذلك انطلىٰ عليهم الدجل من كل خبيث، وصاروا كسبًا رخيصًا لشياطين الإنس وطواغيتها من جلادي البشرية ومضلليها؛ لعدم استنارة قلوبهم بوحي اللَّه الذي هجر أكثرهم قراءته، وترك أكثرهم تدبره، غفلة أو غرورًا، فينبغي لهم تغيير موقفهم من اللَّه.

ثانيها: دلت هذه الآية الكريمة علىٰ فساد التقليد، وعدم جدواه في أصول الدين والعقيدة، مما يطلب فيه الحزم، ولا يجوز فيه الاعتماد علىٰ الظن، كالتفريعات التي هي محل خلاف منذ عهد الصحابة، أما الأصول فيجب إمعان النظر فيها، والاستدلال الذي تنص عليه هذه الآية إذا كان تدبر القرآن يهدي صاحبه إلىٰ الاحتجاج بنبوة محمد ﷺ واستيقانها، فكيف بمعرفة جناب اللَّه العظيم وصفاته وأسمائه الحسنىٰ؟

ثالثها: دلت الآية علىٰ أن القرآن مفهوم المعنىٰ، ومعلوم لكل من

تدبره من المسلمين، خلافًا لمن يزعم أنه لا يعرف معانيه إلا النبي أو الإمام المعصوم؛ لأنه لو كان كذلك لم تنتفع به الأمة إلا من اتصل منها بالنبي، أو بمن يزعم له العصمة مما لم يرد بها نص على الإطلاق، ولأن القرآن لو كان غير معلوم المعنى لما تَهيأ للمنافقين معرفته بالتدبر، ولما جاز أن يأمرهم اللَّه به، وأن يجعل القرآن حجة على صحة نبوة رسوله ﷺ ولا أن يجعل عجز الكافرين عن الإتيان بمثله حجة عليهم، كما لا يجوز الاحتجاج على كفار الزنوج ونحوهم بذلك.

وأيضًا ففي هذه الآية دليل على كذب القائلين بأنه معقد يصعب فهمه، بل إن فهمه ميسر لمن أراد تدبره، وقد نص اللَّه على إنزاله بلسان عربي مبين وأنه ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] وأنه أنزله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

رابعها: تشبث بعض الزنادقة وأشباههم ـ ممن تأثروا بالدعايات الاستشراقية الفاجرة ـ ببعض آيات زعموا فيها ما يوهم الإشكال والتعارض، وهذا من فساد الضمائر، أو من الجهل المركب، وسنذكر أكبر ما تشبثوا به وننقض مزاعمهم نقلًا عن الامام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره واقتباسًا مما فهمناه، مع مراعاة الاختصار.

فمنها: زعمهم الإشكال في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة]، مع قوله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤].

والجواب: إن الآية الأولى من العام المخصوص؛ لأنها تنص على حال الأشقياء المصرين على الكفر، ممن سبقت لهم الشقاوة في علم اللَّه، كما أشار إليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس] فهم لا يؤمنون ما دام مختومًا على قلوبهم بالغشاوة لعنادهم، فإذا زال الكبر والعناد حصلت الهداية.

ثم إنهم قد زعموا أن في قوله سبحانه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، ما يدل علىٰ أنهم مجبورون؛ لأن من ختم علىٰ قلبه، وجعلت الغشاوة علىٰ سمعه وبصره كان مسلوب القدرة علىٰ الإيمان.

والجواب: أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، لقوة بيانه ووضوحه، فقد وردت آيات تدل علىٰ أن كفرهم واقع بمشيئتهم وإرادتهم، كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وكقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [البقرة: ١٧٥]، وكقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وكقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، [الأنفال: ٢١] وأمثالها كثيرة.

والحقيقة أن الختم والطبع والغشاوة المجعولة علىٰ أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم هو عقاب من اللَّه لهم علىٰ مبادرتهم بالكفر، وتكذيب المرسلين باختيارهم ومشيئتهم، فعاقبهم اللَّه بعدم التوفيق جزاء وفاقًا، كما أوضحه اللَّه بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وبقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، وبقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وغير ذلك من الآيات النافية لعقيدة الجبر، والموضحة لعدم وقوع الإشكال والتعارض في هذا الكتاب المبارك.

و أما الذي زعموه من الإشكال في قوله سبحانه: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨، ١٧١]؛ لدلالتها علىٰ نفي سمعهم وبصرهم وكلامهم، ومع ورود آيات مثبتة لذلك، كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، وكقوله: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم، وقوله: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وغيرها من الآيات. فهذا ليس فيه ما يوهم التعارض؛ لأن وجه الجمع ظاهر، وهو أنهم بكم عن النطق بالحق وإن تكلموا بغيره، وهم صم عن سماع الحق وإن سمعوا غيره، وعمي عن رؤية الحق، وإن رأوا غيره.

وقد أوضح اللَّه سبحانه ذلك الجمع بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن

مَكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف]، وما لا يغني عنهم شيئًا فهو كالمعدوم، والعرب تطلق الصمم أحيانًا علىٰ السماع الذي لا أثر له.

وقولهم عن الآية (٥٦) من سورة النساء: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ زاعمين أن اللَّه بِهذا التبديل يعذب جلودًا لم تذنب بعد نضج الجلود المذنبة واحتراقها، وقولهم هذا مناقض للعقل وشاهد علىٰ عدم فهمهم؛ لأن التبديل معناه التجديد كما أوضحناه في موضعه، وأنه من معجزات القرآن، وأن المتدبر للقرآن من حذاق الأطباء في هذا العصر أسلم لما رأىٰ القرآن يقرر إنضاج النار للجلود، وأن العذاب ينفذ إلىٰ الأبد من طريقها، فليراجعه المستزيد في موضعه في التفسير.

وقولهم عن الآية في سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، وزعمهم إشكال آية النازعات عليها: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾، إذ الآية الأولىٰ تدل علىٰ أسبقية خلق الأرض، والآية الثانية بالعكس.

والجواب: أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، فهو يدل علىٰ أن خلق الأرض قبل السماء، في غير هذه الآية.

ففي سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت] وأما الذي في سورة النازعات فهذا يفيد أن خلق الأرض قبل السماء، ثم بعد خلقه للسماء دحا الأرض بجبالها وأشجارها؛ ولهذا لم يقل: «خلق الأرض»، بل قال: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ فأصل خلق الأرض قبل السماء ودحوها بجبالها وأشجارها بعد ذلك.

وقد فسر الدَّحْوَ بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ فلا إشكال بحمد

اللَّه، ولا تعارض بين الآيتين، فمفهوم القرآن ظاهر واضح كما فسره ابن عباس وغيره، فإن اللَّه سبحانه لما خلق الأرض غير مدحوة وهي أصل لكل ما فيها، كان كل ما فيها كأنه مخلوق بالفعل، لوجود أصله فعلًا.

ولهذا شاهد من القرآن في خلق آدم عليه السلام، فإنه لما كان أصلًا للبشرية كلها قال اللَّه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١] فجاء التعبير باسم الجميع والمقصود والدهم الذي هو الأصل.

وفيه تفسير آخر وهو أن المراد بالخلق الثاني للأرض هو الخلق اللغوي الذي هو التقدير؛ لقوله سبحانه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ والحقيقة أن التفسيرين كليهما مدلول للآية وبعضها موضح بعضًا.

وأما زعمهم عن قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] مع قوله: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦] أنه فيه إشكال، فهذا من جهلهم باللغة العربية ومقاصدها، فالعرب تطلق الظن بمعنىٰ اليقين ومعنىٰ الشك، وإتيان الظن بمعنىٰ اليقين كثير في القرآن غير هذه الآية كقوله سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] أي أيقنوا، وقوله عن المؤمن: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة] أي أيقنت، والشواهد من كلام العرب كثيرة فاضحة لجهل هؤلاء.

وأما قولهم عن نص اللَّه عن سوء تعذيب فرعون لبني إسرائيل: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، فجعل ترك النساء تعذيبًا، وقد اعتبر النساء في آية الشورىٰ هبة من اللَّه بقوله سبحانه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ [الشورىٰ: ٤٩] لمن أعطاهن له، فكيف جعل إبقاء فرعون لهم نوعًا من العذاب؟ وهذا من جهلهم أو تجاهلهم وعنادهم، فإن الإناث وإن كن من اللَّه إلا أن استبقاء العدو لهن ليفعل بهن الفاحشة، ويستخدمهن في الأعمال الشاقة والأعمال القذرة فيه عذاب يزيد عن القتل، بل في

القتل راحة لهن، وقد يفضله آباؤهن، صيانة للعرض والشرف، فما اعتراض الزنادقة علىٰ القرآن بذلك إلا حماقة أو تحامل بغيض.

وأما زعمهم أن في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات] مناقضة لإخباره عن بني إسرائيل بقتل بعض أنبيائهم، وزعمهم هذا ناشئ من جهلهم بمعاني النصر وأساليبه، أو من مجرد شرقتهم بوحي اللَّه وانتقاصهم له. وهذا النصر المنصوص عليه له عدة معان.

أحدها: أنه النصر بالحجة الدامغة التي لا يقدر أعداؤهم علىٰ مقابلتها إلَّا بالانتقام الذي يعاقبهم اللَّه عليه ببعض عقوباته القدرية المتنوعة التي لا تحيط بها العقول، ويجعل في قتلهم زيادة ظهور لحجتهم، وانتشارًا لدعوتهم، ورفعة لشخصياتهم، وتخليدًا لذكرهم.

وهكذا يعمل اللَّه مع المؤمنين أتباع المرسلين كما حصل للمرحوم السيد قطب فإنه زادت رفعته وعلا ذكره، وانتشرت كتبه حتىٰ دخلت أغلب بيوت المؤمنين، ويجدد طبعها، بل ترجمت لعدة لغات، وشاع صيته في الآفاق حتىٰ ملأ الأسماع، ولو لم يقتله العدو لما عرفه ولا انتفع بكتبه إلا الخواص من الصالحين الأقلين، ولكن اللَّه غالب علىٰ أمره، فقضىٰ بأن نصره المعنوي العظيم يكون بإهلاكه الحسي، وإن كثيرًا ممن يفوقونه في المادة العلمية ولم يجاهدوا بها في سبيل اللَّه سيبقون طيلة حياتهم مطمورين، وبعد مماتهم يطويهم النسيان، وما أعظم قول اللَّه سبحانه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠]! وقد جازىٰ اللَّه اليهود بعقوبات متنوعة كما مضىٰ ذكرها في السور السابقة.

ثانيها: أن الأنبياء المأمورين بالقتال ينصرهم اللَّه وأتباعهم من المؤمنين المخلصين علىٰ أعدائهم في قتالهم كما هو مشهور معروف، بحيث لم يقتل نبي تحت راية جهاد، وأما الأنبياء الذين لم يؤمروا

بالجهاد فهم الذين يقتلون، وتكون العاقبة خيرًا لهم في الدنيا والآخرة، وعقوبة لأعدائهم مدىٰ الدهر، ولو أن الزنادقة فقهوا معنىٰ اللغة لعرفوا أن النصر الحسي فيه الدلالة بالالتزام علىٰ حصول الجهاد والمقاتلة، ولكنهم عمي البصائر حتىٰ عن فهم اللغة، ويجادلون بالباطل الذي يفتضح به جهلهم.

وأما تشبثهم بقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤]، زاعمين أن قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة]، يشكل علىٰ تلك الآية، وهذا من عدم تدبرهم لآيات اللَّه، وتصور معرفتهم بأحوال الكفر، واختلاف شؤمه، وعدم فهمهم لتخصيص كل موضع بمعنىٰ صلته، والتخصيص بسبق كل أحد إلىٰ نوع جريمته، وجهلهم بنفي المساواة، وذلك أنه في باب منع الحريات من الجهر بعبادة اللَّه لا أحد أظلم ممن منع مساجد اللَّه أن يذكر فيها اسمه، وسعىٰ في خرابها حسيًّا ومعنويًّا وفي باب فتنة الناس عن دين اللَّه لا أحد أظلم ممن افترىٰ علىٰ اللَّه كذبًا لإضلال الناس كدعاة البلشفية وذيولها.

وفي باب الإعراض عن التصحيح والهداية لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها.

وهكذا لكل مقام مقال، ولكن اعتراض الملاحدة علىٰ وحي اللَّه ناشئ من قصور عقولهم التي يفتخرون بها من فرط جهلهم، وقد أوضح أبو حيان عدم الإشكال في هذه الآيات بما حاصله أن نفي التفضيل لا يستلزم نفي المساواة، فلم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد علىٰ الآخر؛ لأنهم يتساوون في الأظلمية فيصير المعنىٰ: لا أحد أظلم ممن منع مساجد اللَّه، ومن افترىٰ علىٰ اللَّه كذبًا أو كذَّب بآياته، وما قلناه توضيح لذلك فالحمد للَّه رب العالمين.

وأما قولهم عن الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]: إن فيها إشكالًا ومعارضة مع الآيات الأخرىٰ ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن] فهذا مما ينادي علىٰ جهلهم حتىٰ في الكونيات البديهية، وأن الهوىٰ أعمىٰ بصائرهم؛ وإلا فقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ يريد به جنس المشرق والمغرب علىٰ اختلاف مطالعه ومغاربه، فهو صادق علىٰ جميع مشارق الشمس ومغاربها التي يزيد كل منها علىٰ ثلاثمائة وخمسين مشرقًا ومغربًا، كما قال ابن عباس وغيره، وعلىٰ هذا بقوله سبحانه: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ﴾ يقصد به ذلك، وهكذا قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ يعني مشرق الشتاء ومشرق الصيف ومغربهما.

وقيل مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها، والأول هو المشهور والواضح قصده من ظاهر اللفظ.

وقد قال ابن جرير عليه الرحمة في تفسير هذه الآية ما نصه: وإنما معنىٰ ذلك: ولله المشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم، والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم، فتأويله إذا كان معناه: ولله ما بين قطري المشرق، وقطري المغرب، إذا كان شروق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود لشروقها منه إلىٰ الحول الذي بعده، وكذلك غروبها. انتهىٰ بلفظه.

وهذا معنىٰ ما قاله ابن عباس وغيره من أن مشارق الشمس ومغاربها بعدد أيام السنة، والله أعلم.

وأما زعمهم الإشكال في قوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٧] ونحو هذا مما يوهم أنه لم يكن قبل ذلك، مع أنه عالم بكل شيء قبل وقوعه كما دلت عليه آيات كثيرة كقوله سبحانه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم]، وكقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ

ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر]، فزعموا التعارض بين تلك الآيات، وهذا من وهمهم.

والجواب: إن المقصود هو إظهار علمه الخفي جليًّا بين عباده، وإنه ليعلم علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب، وهذا لا ينافي كونه عالمًا به قبل وقوعه، وقد أشار سبحانه إلىٰ أنه لا يستفيد بالاختبار علمًا جديدًا؛ لأنه علم بما سيكون، وذلك في قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ دليل علىٰ أنه لا يفيده الاختبار علمًا جديدًا ﷻ عن ذلك.

وأما زعمهم التناقض بين قوله سبحانه عن الكفار: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، بصيغة النكرة الدالة علىٰ العموم، وبين إثباته لهم العقول في قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] فهذا من غباوتهم، وإلا فالجمع بين النصوص أنهم يعقلون أمور الدنيا دون الآخرة، كما أوضح ذلك في الآية السابعة من سورة الروم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم]، فنصوص وحي اللَّه يوضح بعضها عن كل إشكال.

وأما زعمهم الإشكال بين قوله عن المبطلين: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وبين إثبات كلامه لهم بقوله: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فهذا من أباطيلهم؛ لأن الكلام الذي نفاه اللَّه هو الكلام الذي فيه خير، وأما التوبيخ والتقريع والتيئيس، فليس ملغيًّا؛ لأن في ذلك الكلام زيادة في إهانتهم وعذابهم، وقيل: إنه لا يكلمهم أصلًا، وإنما تكلمهم الزبانية بإذنه، وعلىٰ كل حال فليس بين الآيتين تعارض.

وأما زعمهم التعارض بين قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، مع قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

ﵟالدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚﵞ [الأنفال: ٣٩]، ﵟفَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚﵞ [التوبة: ٥]، وقوله: ﵟتُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖﵞ [الفتح: ١٦]، والحقيقة واضحة يفسر بعضها بعضًا، وليس فيها تناقض أبدًا، فالمسلمون مأمورون بقتال الكفار المقاتلين من الرجال الآقوياء الذين يتعاونون ضدهم، فأما النساء والأطفال والشيوخ العاجزون فلا يجوز قتالهم.

وأيضًا فإن التعبير بقوله: ﵟٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡﵞ يراد به تَهييج المسلمين وإلهاب حماسهم وتحريضهم علىٰ قتال الكفار الذين هم أعداء لهم في الدين عداوة عميقة ضارية لا تخمد ولا تفتر، بحيث لو تركوهم لا يتركونهم، لما في قلوبهم من الغيظ الذي لا يزيله إلا إثخانهم في القتال كما أسلفناه في موضعه من التفسير، وسنكمل باقي توضيحه في سورة الأنفال إن شاء اللَّه.

وهنا قول آخر وجيه، وهو أن آية البقرة المشعرة بِهذا القيد منسوخة بما بعدها من الآيات التي في سورة النساء والأنفال والتوبة وغيرها؛ لأن القتال لما كان شاقًّا علىٰ النفوس، ومكروهًا إليها لم يجعله محتمًا أول وهلة، فقيده بقتالهم حتىٰ يتمرنوا ويستمرئوه، ثم أوجبه علىٰ الإطلاق، ولكن التفسير الأول هو الذي تؤيده النصوص والواقع من سيرة النبي ﷺ من خروجه لصبر قريش بلا سابق اعتداء وقتال، حتىٰ استفزهم للخروج بشأنه، وغير ذلك من الغزوات التي افترض لها المضبوعون بدعايات الأجانب أسبابًا لو لم يكن قتاله ﷺ للكفار إلا من أجلها لكان فيها مطعن عليه في عقله وتدبيره.

ولكن قتاله لأجل العقيدة والدفع بالرسالة إلىٰ الأمام، والعمل علىٰ رهبة الكيان الإسلامي الذي لا يحصل إلا بالجهاد.

ومما يؤيد أن الآية محكمة، وأن معناها ما قدمناه قوله سبحانه: ﵟوَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚﵞ [التوبة: ٣٦]، وقوله: ﵟوَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚﵞ [البقرة: ٢١٧]، وبالجملة

فليس بين هذه الآية وما بعدها تعارض، وليس فيها حجة للمنهزمين هزيمة عقلية ممن يزعم أن الجهاد للدفاع هروبًا من مطاعن طواغيت الأوربيين ولا حجة لهم بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]؛ لأن الاعتداء هنا هو مجاوزة الحد المطلوب في القتال، كقتل النساء والشيوخ العاجزين والمقعدين والأطفال كما أسلفنا، وكذلك رهبان الصوامع ونحوهم ممن أعطىٰ إليكم السلم من الذين ليس من شأنهم القتال، وليسوا من أصحاب الرأي فيه، ولا الحض عليه.

فأما الذي له رأي في الحرب أو يحض عليه من كبار السن والرهبان كدريد بن الصمة فإنه يقتل، هكذا أفاده ابن جرير، وأوضح أن الآية محكمة، وأنها تقتضي العموم كغيرها من الآيات، وهو قول عمر بن عبد العزيز والحسن البصري.

وكذلك تشبث الملاحدة بالآيات التي فيها الحث علىٰ الانتقام ومقابلة العدوان بمثله، والآيات التي فيها الأمر بالصبر والعفو زاعمين أن بها التعارض، وهذا من جهلهم بسير الأمور، ولهذا جوابان:

أحدهما: أن الآيات المكية تأمر بالصفح والعفو؛ لأن السياسة تقتضي ذلك لضعف المسلمين، كما أوضحنا بعض الحكم في ذلك في تفسير الآية (٧٤ ـ ٧٥)، وأما الآيات المدنية ففيها الأمر بالقتال والانتقام، وكلها محكمة، ففي حالة الضعف يعمل بالآيات المكية، وفي حالة القوة يعمل بالآيات المدنية كما أوضح ذلك الشيخ ابن تيمية وغيره من المحققين، ـ وأيضًا ـ فإن الأمر بالعفو والصبر يفيد الأفضلية علىٰ الانتقام في بعض الأحوال والظروف، كما يفيد تلافي الشر الذي هو أخطر مما حصل.

ولهذا نجد اللَّه سبحانه قيده لغاية مقبلة حيث قال: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩] أي بالجهاد والانتصار للمظلمة،

وقمع الفاتنين عن الإسلام، وليس بين هذه الآيات إشكال، إذ للقوة أحوال وللضعف أحوال أخرىٰ.

ثانيها: أن الانتقام له مواضع يحسن فيها، والصبر له ـ أيضًا ـ مواضع، فما كان فيه شبهة الانتصار للنفس فالصبر والعفو أفضل فيه بخلاف ما يكون فيه انتهاك لحرمات اللَّه واستهانة بجانبه العظيم، فإنه يجب الانتقام فيه مع القدرة وحيث الموضعان متشابهان، فإني أورد تنبيها علىٰ الموضوع الأول وهو أن زاعمي القتال للدفاع يستدلون بختم اللَّه لآيات القتال في سورة البقرة بقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وهذا الختام يحتل من البراعة مكانًا عظيمًا، وليس لهم فيه دليل قطعًا، إذ المراد تحديد الغاية للقتال بانعدام الفتنة عن الدين، وذلك باتحاد وسائل الاتجاه إلىٰ اللَّه، والانقياد له بصدق وإخلاص علىٰ حسب ما شرعه في وحيه المبارك علىٰ لسان خاتم النبيين ﷺ، وهجر ما سواه إلىٰ غير رجعة، أو الاستسلام لحكم اللَّه وشريعته، وعدم الجهر بما يخالف ذلك، ليكون الدين كله للَّه، فلا يظهر شيء سواه يفتن الناس بالتلبيس علىٰ عقولهم، فإذا حصل ذلك إما بالإسلام أو الاستسلام الكامل مع دفع الجزية والتزام الصغار وجب الكف عن القتال كما هو الواضح من منطوق الآية ومفهومها ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة]، ومن تأولها علىٰ غير هذا التأويل فقد جنىٰ علىٰ وحي اللَّه بإخضاعه للأهواء.

وزعموا أن في قوله سبحانه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ إشكالًا ومعارضة مع الآيات التي فيها الأمر بالقتال علىٰ العموم أو الإسلام، وقد أسلفنا الكلام علىٰ هذه الآية في موضعها، وأوضحنا النواحي المذكورة في شأنها علىٰ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها منسوخة بآيات السيف والأمر بالقتال.

وثانيها: أنها خاصة بمن لهم كتاب معروف بخلاف الوثنيين من العرب وغيرهم، فإنه لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وأما أهل الكتاب فإنهم إذا دفعوا الجزية وخضعوا لحكم الإسلام تركوا علىٰ دينهم، وذلك أن الذي هو مرتكز علىٰ دين وكتاب يصعب إكراهه علىٰ العقيدة التي هي في الضمير، وبالإكراه يكون منافقًا عظيم الخطر والشرور.

وفيه وجه ثالث ذكره المحققون: وهو أن اللَّه أقام الحجة، وأنار السبيل بما أوضح في وحيه المبارك من دلائل توحيد الألوهية والربوبية بالسنن الكونية والنفسية والآفاقية، مما تبين به الرشد الذي هو توحيد اللَّه وتحقيق طاعته، وإقامة حدوده من الغي الذي هو الكفر والضلال، فلم يبق بعد ذلك إلا العناد والمكابرة والمنافسة علىٰ الباطل، والاستكبار عن الحق، واستحباب العمىٰ علىٰ الهدىٰ، فأصبح الجهاد ليس للإكراه علىٰ الدين، ولكن لردع أهل الباطل وقمعهم عن الافتراء علىٰ اللَّه، بسلوك غير صراطه، وإباحة ما حرمه، والتسلط علىٰ خلقه بالإرهاب والتضليل.

وبما أنه تبين الرشد من الغي، فقد أصبح قتالهم علىٰ الدين ليس إكراهًا لهم علىٰ الدخول فيه، وإنما هو إكرام لهم ورحمة بهم، وقد ثبت في الحديث الصحيح: «**عجب ربك من قوم يقادون إلىٰ الجنة بالسلاسل**»[(١)]، وقد تقدم أن في إذهاب غيظ قلوبهم بالقتال فتحًا لها إلىٰ منافذ الرشد الذي يحصلون به علىٰ التوبة والمغفرة من اللَّه، وترك العناد الذي لا يترك في الغالب إلا بعد الإثخان في القتال، وحصول العقوبة المبصرة لهم، ففي القتال ردع للمعاندين، وقد تشبث الملاحدة بقول اللَّه عن عيسىٰ: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وقوله: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، وأن هذا يتعارض مع الآيات الدالة علىٰ أن اللَّه خالق كل شيء، وأنه الخالق البارئ؛ لأن قول عيسىٰ

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٧٧).

يوهم أن بعض المخلوقين ربما خلق بعضهم، وهذا الوهم ناشئ من مماراتهم بالباطل؛ وإلا فقول عيسىٰ مقيد بإذن اللَّه وتأييده، ولا يعدو أن عيسىٰ يتصرف بالطين علىٰ هيئة الطير، وينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن اللَّه وكلماته التامة التي إذا قال بها للشيء: ﴿كُن﴾ فلابد أن يكون حسب ما يريده ﷻ.

وأما قوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ فمعناه تكذبون، لأنهم يعبدون ما ينحتون ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يمشي ولا يبطش ولا يعقل، فأصبحوا من أشنع الأفاكين، وقد أسلفنا أن البشر مهما حذقوا ومهروا بالصنعة، فصنعوا البواخر والطائرات الكبيرة ومركبات الفضاء وغيرها، فإنهم لا يعتبرون خالقين ولا مبدعين؛ لأنهم لم يخلقوا أصغر مادة ويفطروها من العدم قطعًا، حتىٰ لو قدر السمسمة، وإنما هم يتصرفون في أنواع المواد التي خلقها اللَّه وسخرها لهم، وطبعها بطبائع شتىٰ، ليستفيدوا من ضم بعضها إلىٰ بعض، ومن قوة بعضها علىٰ بعض، وإفناء بعضها ببعض.

فليس عندهم غير ما وهبهم اللَّه من أنواع الحيوانات والمادة، ومن الحذق في العلم الذي أقدرهم به علىٰ التصرف فيها، ولذا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات]، فليسوا بخالقين ولن يقدروا علىٰ خلق ذرة أو أصغر منها مما له روح، ولا أن يخلقوا من العدم حبة سمسم فأصغر مما ليس له روح حتىٰ يبذروه ويسقوه، فيزرعه اللَّه أو يصنعوا من أي نوع من المواد جنسًا من المأكولات، فلا يعدو فعلهم التصرف فيما سخره اللَّه لهم.

ومما تقدم يتضح أن الآية ليس فيها ما يوهم قدرة المخلوق علىٰ خلق مخلوق مثله، بل هذا من أقبح السخافة؛ لأن الذي لا يقدر علىٰ خلق أصغر حبة من العدم أعجز من أن يخلق ما فوقها.

وأما تشبث الملاحدة بقول زكريا: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]

زاعمين شكه في اللَّه، فهذا من سوء ظنهم بأنبياء اللَّه، وانتقاصهم لوحيه، وقد قرر المفسرون أن سؤال زكريا استعلام واستخبار عن كيفية حصول الولد، هل هو من زوجته العجوز، أو يأمره اللَّه بالتزوج بغيرها، أو أنه سؤال استعظام وتعجب من قدرة اللَّه علىٰ هبته الولد في هذه الحالة.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة والسدي أن زكريا لما نادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب لم يستيقن حقيقة النداء، هل هو من شيطان يلعب بعقله، أو من ملائكة الرحمن، فلهذا راجع ربه استعلامًا واستخبارًا، وطلب منه آية لتندفع الوساوس عنه وعن قومه، وليس في تعجبه واستعلامه أو خوفه من إلقاء الشيطان ما يوجب الطعن فيه برميه في الشك في قدرة اللَّه كما زعمه المبطلون.

وأما تشكيكهم بقول اللَّه عن عيسىٰ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [ال عمران: ٥٥] لزعمهم التعارض مع الآيات الدالة علىٰ حياته، فهذا من سوء عقيدتهم بالقرآن، وليس في هذا إشكال، من عدة وجوه:

أحدها: أنه ليس في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] ما يدل علىٰ تعيين الوقت، ولا أنه مضىٰ، وهو سبحانه سيتوفاه قطعًا، لكن لا دليل علىٰ أن وفاته قد مضت، وأما عطفه الرفع علىٰ الوفاة بقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فلا دليل علىٰ الوفاة بتاتًا، وذلك لاتفاق جمهور أهل اللسان علىٰ أن الواو ليست للترتيب ولا الجمع، وإنما تقتضي التشريك، وقد أنكر المحققون نسبة الترتيب إلىٰ بعض الأئمة إنكارًا قاطعًا، وحتىٰ لو كانت الواو للترتيب علىٰ سبيل الافتراض، فليس في ذلك دليل علىٰ حصول الوفاة قبل نزوله من السماء.

وثانيها: أن معنىٰ الوفاة النوم كما هو مشهور مقرر.

وثالثها: أن معناه الاستبقاء وأني قابضك منهم لإنفاذ حياتك من أعدائك، إذ لو كان معنىٰ الوفاة ميتة حقيقية عاجلة لما كان له ميزة

الرفع؛ لأن رفع الروح ليس خاصًّا به، بل هو عام لجميع المؤمنين، فضلًا عن المرسلين، كما سنعطي المقام حقه في تفسير الآية (١٥٧ ـ ١٥٨) من هذه السورة إن شاء اللَّه.

وأما زعم التوفي ساعات فمن روايات إسرائيلية لا يجوز التعويل عليها، وبالجملة فليس في الآية معارضة مع غيرها إلا عند ذوي القلوب المريضة.

وأما تشكيكهم في الآيات الواردة عن إبراهيم في الكواكب، فسنوضح بطلانه في موضعه من سورة الأنعام إن شاء اللَّه.

وأما تشكيكهم في عدد الملائكة الذين وعد اللَّه المؤمنين بإمدادهم يوم «بدر» فقد مضىٰ توضيحه، ودفع إبهام الإشكال والتعارض بين ما في سورة آل عمران والأنفال بمواصلة اللَّه للإمداد إلىٰ خمسة آلاف، وأن آية الأنفال تقتضي ذلك لختامها بقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] بفتح الدال علىٰ صيغة اسم المفعول، أي متبوعين بغيرهم، وأما علىٰ قول من زعم أن ثلاثة الآلاف أو الخمسة في غزوة «أحد» فإنه لم ينزل فيها ملائكة؛ لأن نزولهم مقيد بالصبر والتقوىٰ كما قال: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، ولعدم حصول هذا القيد ارتفع المدد بالملائكة، ولطف اللَّه برسوله والصادقين معه آخر الوقت.

وأما تشكيكهم في قول سبحانه: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢] زاعمين معارضته في الآية (٢٣) من سورة الأنعام: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾، وقوله عنهم في سورة النحل: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ [النحل: ٢٨]، وغيرها مما يثبت إنكارهم وكتمانهم، والجواب أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وينفىٰ عنه التعارض لو كان الملاحدة يتدبرون وذلك أن ألسنتهم تحاول كتمان شركهم وكفرهم، ولكن جوارحهم تشهد عليهم بما كانوا يعملون، بل تشهد عليهم جلودهم ـ أيضًا ـ، فإذا كتمت ألسنتهم لباطلهم أنطق اللَّه غيرها ليقيم عليهم حجته، كما قال سبحانه في الآية (٢١/٢٠) من سورة فصلت: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت]، وقال في الآية (٦٥) من سورة يس: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

وبهذا لا يتمكنون من الكتمان مهما حاولوه، ففضيحتهم حاصلة، وليس عند الملاحدة إلا المشاغبة.

وأما تشكيكهم بالقرآن لما جاء فيه من اختلاف أوصاف التراب الذي خلق منه آدم، فتارة يقول: من طين لازب، وتارة من صلصال كالفخار، وتارة من صلصال من حمأ مسنون، فقد أوضحنا في تفسير الآية (٥٩) من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وأنه جعل الطين على ست حالات حتى خلقه منه، وننقل هنا كلام الإمام أحمد ورده على الزنادقة بهذا الخصوص فقد قال: هذا بدء خلق آدم خلقه اللَّه أول بدئه من تراب، ثم من طينة حمراء وسوداء وبيضاء، من طينة طيبة وسبخة، فكذلك ذريته طيب وخبيث وأسود وأحمر وأبيض، ثم بُلَّ ذلك الترابُ فصار طينًا، فذلك قوله: ﴿مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، [ص: ٧٦] فلما انطبق الطين بعضه على بعض صار لينًا لازبًا لاصقًا، ثم قال: ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، يقول مثل الطين إذا عصر فلَّ من بين الأصابع ثم نتن فصار حمأ مسنونًا، فلما جف صار صلصالًا كالفخار، يقول: صار كصلصلة الفخار، له دوي كدوي الفخار، فهذا بيان خلق آدم.

وأما قوله: ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨] بدأ خلق ذريته من سلالة، يعني النطفة إذا انسلت من الرجل فذلك قوله: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ يعني النطفة، ﴿مَّهِينٍ﴾ يعني ضعيف، فهذا ما شكت فيه الزنادقة. اهـ.

وقد زعم الملاحدة أن في قوله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة] إشكالًا لتعارضها مع الآية الأخرى الناصة على شهادتهم على أممهم كقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾

[النحل: ٨٩]، وغيرها في النصوص.

والحقيقة أن لا إشكال ولا تعارض بين هذه الآية وغيرها إلا في أذهان الزنادقة الفاسدة، وقد أجاب المفسرون عن ذلك بثلاثة وجوه:

الأول: وهو اختيار ابن جرير، وحسنه ابن كثير أن المعنىٰ: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، فلا علم لنا بالنسبة إلىٰ علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن عرفنا من أجابنا فإنما نعرف الظواهر، ولا علم لنا بالبواطن، وأنت المطلع علىٰ السرائر، وما تخفي الضمائر، فعلمنا بالنسبة إلىٰ علمك ك«لا علم».

والثاني: قال به مجاهد والسدي والحسن البصري أنهم قالوا: لا علم لنا لما اعتراهم من شدة الهول، ثم زال ذلك عنهم فشهدوا علىٰ أممهم.

الثالث: أن معنىٰ قوله: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾ ماذا عملوا بعدكم وما أحدثوا؟ قالوا: لا علم لنا، وقد ذكر هذا القول بعض المفسرين وهو ضعيف بعيد عن ظاهر القرآن ويتقوىٰ إذا قرن مع القول الأول، لو قيل: إن المقصود سؤالهم عن ثبات قومهم علىٰ الإجابة، وعلىٰ كل حال فاستشكال الزنادقة لمعناها بعيد عن الصواب، ولا يعبأ به أهل العقول الفطرية.

وأما استشكالهم لقوله عن الكافرين في سورة الأنعام: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وفي سورة يونس: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [يونس: ٣٠] مع أن اللَّه قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد] فهذا ليس فيه إشكال؛ لأن قوله: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ أي مالكهم المتصرف فيهم بما شاء حسب ربوبيته وألوهيته العظيمة، وأما نفي ولايته عنهم وإثباتها للمؤمنين، فتلك ولاية المحبة والتوفيق والنصر، فإن الكفار محرومون منها بالكلية، ولذا قال سبحان في غير هذه الآية: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢﴾ [الفتح].

وأما تشكيكهم بعموم رسالة المصطفىٰ ﷺ قاصرين استدلالهم علىٰ قوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورىٰ: ٧] ومتعامين عن الآيات والنصوص الدالة بكل صراحة علىٰ عموم رسالته لجميع الناس، بل للجن والإنس كقوله سبحانه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، إلىٰ غير ذلك من النصوص في الكتاب والسنة الموضحة عموم رسالته رغمًا عن أنوف الزنادقة قديمًا وحديثًا ممن يزعمون أن رسالته ﷺ خاصة بالعرب، وهي لعموم الناس إلىٰ يوم القيامة، وأيضًا فإن قوله سبحانه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ شامل لجميع الأرض كما قاله ابن جرير وغيره عن ابن عباس، فكما أن قوله سبحانه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] لا يخص رسالته بأقاربه، فكذلك لا يختص بعض الأرض دون بعض، لا سيما مع النصوص الواردة بعموم الرسالة، ولكن الزنادقة الكافرين برسالته كفرًا عمليًّا يحاولون فتنة الناس.

هذا وقد زعموا أن قوله سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٣٠] مناقض لقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة] ونحوها من الآيات الدالة علىٰ رؤية اللّٰه يوم القيامة، وأنه لا يحجب من رؤيته إلا الكفار، والواجب أن نفي الإدراك لا يستلزم نفي النظر؛ لأن الإدراك معناه الإحاطة بالكنه، والعرب تقول: رأيت الشيء وما أدركته، فمعنىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا تحيط به، وليس المعنىٰ لا تنظره الأبصار، بل أثبتت النصوص أن المؤمنين ينظرون ربهم في الجنة يوم المزيد، وأن الكفار عن ربهم لمحجوبون، وقد صحت الأحاديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته**»(١)، وأما في الدنيا فرؤيته مستحيلة حتىٰ علىٰ المرسلين، لقوله لموسىٰ: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولم ينكر رؤية اللّٰه سوىٰ المعتزلة وأكثر فروع

---

(١) رواه البخاري (٥٤٤)، ومسلم (٦٣٣).

الجهمية تلاميذ اليهودي «طالوت حفيد ابن الأعصم» الذي سحر النبي ﷺ، وكذا الزنادقة الذين سيحجبهم اللَّه عن رؤيته.

وقد شنع الزمخشري علىٰ أهل السنة، وأقذع من شتمهم عند كلامه علىٰ آية بسورة الأعراف: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ معمِّمًا نفي الرؤية في الدنيا والآخرة، ضاربًا بباقي النصوص عرض الحائط، أو محرفًا لها كتحريف اليهود بالتأويل الفاسد.

وإن أهل السنة الصحاح يثبتون رؤية اللَّه في الآخرة وينفونها في الدنيا، لظاهر هذه الآية التي يأست موسىٰ من رؤيته في الدنيا، ولقوله ﷺ: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**»(١)، وبصره محيط بالجميع، فلهذا احتجب عنهم حتىٰ لا يحترقوا من نوره ﷻ، وقد روىٰ الإمام مسلم وابن خزيمة مرفوعًا: «**إنكم لن تروا ربكم حتىٰ تموتوا**»(٢)، والنصوص متوافرة في هذا المعنىٰ فليس عند الزنادقة سوىٰ المشاغبة بالباطل.

وأما تشكيكهم بتفنيد اللَّه الشبهات المشركين في قوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] الآية، وكلامهم موافق لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ونحو ذلك من الآيات.

قالوا: فكيف كذبهم اللَّه وهم موافقون لقوله في مشيئته؟

والجواب: إن اللَّه كذبهم علىٰ هذا القول مرارًا في سورة الأنعام والنحل وفي سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف]، والسبب في تكذيب اللَّه لهم واضح، وذلك أنهم قالوا كلمة حق يريدون بها باطلًا تلبيسًا علىٰ الجهال، واعتذارًا لأنفسهم عن رفضهم الحق، وايضاحه أن مرادهم الفاسد هو أنه لما

---

(١) رواه مسلم (١٧٩).

(٢) رواه ابن خزيمة في «التوحيد» (٢/٤٥٩). ورواه ابن ماجه (٤٠٧٧).

كان كفرهم وعصيانهم بمشيئة اللَّه، وأنه لو شاء لمنعهم من ذلك، فعدم منعه لهم دليل علىٰ رضاه عنهم بفعلهم، ويقصدون بِهذه الشبهة تبرير تكذيبهم للرسول، وتشكيك أتباعه كأحلافهم من المشركين المكذبين للرسل قديمًا، فأبطل اللَّه شبهتهم مبينًا أنه لا يرضىٰ بكفرهم كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] وموضحًا للفرق بين إرادته الكونية والشرعية، وأنه يقضي بإرادته الكونية ما لا يرضاه، بدليل قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] مع أنه لا يرضىٰ الكفر ولا المعاصي، وأن الذي يلازم رضاه هنا دائم هو إرادته الشرعية التي هي إرادة الأمر، لا إرادة القضاء.

وقد كذبهم اللَّه بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، أي هل عندكم من علم بأن اللَّه قد قضىٰ عليكم فعل السوء وارتكاب الكفر؟ إنهم ليس عندهم علم بذلك، ولكنهم يخرصون ويتبعون الظنون، وإن ما هم عليه من الضلال لا يعطيهم علمًا كاملًا بقضاء اللَّه الكوني؛ لأن قضاءه الشرعي يوجب عليهم التوبة من الكفر والعصيان، ولعل اللَّه يتوب عليهم، فتكون نهاية قضائه الكوني موافقة لقضائه الشرعي، هذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ فتعليلهم باطل فاسد، لا يطردونه علىٰ أنفسهم؛ لأنه لو اعتدي عليهم أحد أو نال من كرامتهم واعتذر بمشيئة اللَّه وقضائه ما قبلوا اعتذاره ولا تعليله، بل سعوا بإنزال العقوبة الرادعة به، فكيف لا يقبلون من خصمهم الاعتذار بمشيئة اللَّه، وهم يبارزون اللَّه بالكفر والعصيان، ويعتذرون لأنفسهم بمشيئة اللَّه وقضائه؟ أمن جانبهم يصح اعتذارهم بالمشيئة، ومن جانب المعتدي عليهم لا يصح الاعتذار بها؟! فهل حقهم أعظم من حق اللَّه وأوكد؟ لا جرم أنهم يكيلون بمكيالين، مكيال التطفيف للَّه، ومكيال الحق الوافي لأنفسهم، وبِهذا ازدادوا كفرًا علىٰ كفرهم، فاستحقوا بأس اللَّه خلافًا لمزاعم الزنادقة الذين يثبت عليهم تشكيكهم النقص في تفكيرهم.

ومن تلبيس الزنادقة تشكيكهم الناس بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص] ونحوها من الآيات المثبتة للسؤال بدعوىٰ معارضتها للآيات الأخرىٰ النافية له، كقوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرحمن] وهذا التشكيك ناشئ من فساد ضمائرهم وسوء عقيدتهم وجوابه من ثلاثة وجوه.

أحدها ـ وهو أقواها لدلالة القرآن عليه ـ: أن السؤال قسمان سؤال توبيخ وتقريع وأداته «لم»، وسؤال استخبار واستعلام وأداته غالبًا «هل»، فالمثبت في الآيات هو سؤال التوبيخ والتقريع، أما المنفي فهو سؤال الاستخبار والاستعلام، ووجه دلالة القرآن علىٰ هذا أن سؤال اللَّه لهم المنصوص عليه كان توبيخًا وتقريعًا، كقوله سبحانه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥﴾ [المؤمنون]، ونحو ذلك من الآيات التوبيخية، وكذلك سؤال اللَّه للرسل ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، هو لتوبيخ أقوامهم المكذبين كسؤاله الموؤودة بأي ذنب قتلت لتوبيخ قاتلها.

ثانيها: أن في القيامة مواقف متعددة، ففي بعضها يسألون، وفي بعضها لا يسألون.

ثالثها: ما ذكره الحليمي وهو أن إثبات السؤال محمول علىٰ السؤال عن التوحيد وأصول الدين، وأما تشكيك الزنادقة بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] زاعمين معارضتها لقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] وليس بينهما تعارض إلا في أذهان الضالين الذين لا يفرقون بين الأمر الكوني القدري والأمر الشرعي، وقد أجابهم المحققون بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن اللَّه أمرهم بتصديق رسله والتزام شريعته، ففسقوا بالتكذيب والمخالفة، وعلىٰ هذا القول فلا إشكال أصلًا.

الثاني: أن الأمر في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أمر كوني قدري، أي قدرنا عليهم الفسق بمشيئتنا، وهذا كقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل]، وأما الأمر الذي نفاه اللَّه عن ذاته العلية ـ الذي هو الأمر بالفحشاء ـ فالمقصود به الأمر الشرعي، فاتضح بِهذا البيان أن الأمر المنفي في آية الأعراف غير الأمر المثبت في سورة الإسراء، والحمد للَّه رب العالمين.

الثالث: أن الأمر يقصد به التكثير الموجب للغلبة بحيث يبطرون بسبب كثرتهم وتغلبهم علىٰ غيرهم، وفي هذا المعنىٰ قراءة معروفة «أمرنا» بتشديد الميم، وفي الحديث «**خير مال المؤمن مهرة مأمورة**»(١) أي كثيرة النسل، وهذا شاهد لغوي.

وقد شككوا في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢] زاعمين معارضتها للآية [٧١ من سورة التوبة] ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وليس بينهما تعارض قطعًا؛ لأن آية الأنفال خاصة بالتوارث، أي مالكم من شيء من ميراثهم حتىٰ يهاجروا؛ لأن اللَّه حكم علىٰ المؤمنين بعد الهجرة إلىٰ المدينة أن لا يتوارثوا إلا بالهجرة، وذلك للمؤاخاة التي عقدها النبي بين الأنصار والمهاجرين بوحي اللَّه، فمن مات من المهاجرين ورثه أخوه الأنصاري في الدين ولم يرثه أخوه المؤمن الذي لم يهاجر ولو كان شقيقًا، حتىٰ نسخ اللَّه ذلك بالإرث في القرابة بقوله سبحانه: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] نقل هذا ابن جرير وأبو حيان عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وأما الولاية المذكورة في سورة التوبة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

---

(١) رواه أحمد (٤٦٨/٣).

بَعۡضٖ﴾ فالمراد بها ولاية النصر والمؤازرة والتعاون والمساندة؛ لأن المسلمين كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وكالجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالحمىٰ والسهر كما وصفهم النبي ﷺ بذلك.

وهذه الولاية هي التي لم تقصد بالنفي بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾، وإنما المقصود ولاية الميراث بدليل تصريحه سبحانه بعدها بقوله: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ [الأنفال: ٧٢]، فإثباته لولاية النصر بينهم بعد قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ دليل واضح علىٰ أن الولاية المنفية غير ولاية الميراث فلا إشكال بين الآيتين، وسيأتي الكلام علىٰ باقي أحكامها في محلها إن شاء اللَّه.

ثانيها: هو ما اقتصر عليه ابن كثير: مستندًا إلىٰ ما رواه الإمام أحمد ومسلم من أن المعنىٰ لا نصيب لكم في المغانم ولا في خمسها حتىٰ تحضروا القتال، قال الشنقيطي: ولا مانع من تناول الآية للجميع.

قلت: وهو الحق إن شاء اللَّه، ولو أن الزنادقة ربطوا النصوص بعضها ببعض لما استشكلوا المعنىٰ، ولكنهم يفككون عبارات الكتاب لمقاصدهم الخبيثة.

وأما تشكيكهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] زاعمين معارضته لقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ [الجن] فهذا من جهلهم باللغة العربية، فضلًا عن مقاصد الوحي، وإلا فقوله سبحانه: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾ أي اعدلوا فيما بينكم وبين الناس، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ العادلين في حكمهم علىٰ القريب والبعيد، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ يعني بهم العادلين باللَّه، الجاعلين له عدلًا من خلقه، يعبدونهم معه.

كما قال في أول سورة الأنعام: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال في الآية (٦٠) من سورة النمل: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ أيْ يعدلون مع اللَّه غيره فيساوون غير اللَّه باللَّه.

وقد ذكر اللَّه في سورة الشعراء عنهم عندما أدخلوا النار مع جنود إبليس أجمعين أنهم: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء] ولكن لارتكاس الزنادقة في الضلال لم يفرقوا بين المقسطين والقاسطين، وإلا فالقاسط من القسط بفتح القاف، هو من جار في حكمه فسوّىٰ بين المختلفين وجمع بين النقيضين، كحال الكفار والمشركين الذين ساووا بين الناس وخلقه، وميزوا بعض خلقه عليه، ومثلهم القوميون الذين يساوون الأوطان والأقوام بالدين، أو يفضلونها عليه وفق المخطط الماسوني اليهودي، وأما القِسط بكسر القاف فهو العدل في الحكم ولزوم الصواب فما أبعد الزنادقة عن ذلك.

وأما تشكيكهم بقوله سبحانه لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، [الحجر: ٤٢]، زاعمين المعارضة مع قول موسىٰ عند قتله للنفس: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥]، وليس بين الآيتين تعارض إلا في تصوراتهم الفاسدة، لأن معنىٰ الآية الأولىٰ أن اللَّه عصم عباده المخلصين عن إضلال الشيطان لهم بسلوك الشرك ورفض التوحيد الذي هو غاية مراده بخلاف المعاصي التي يزينها لهم، ويوقعهم فيها؛ لأنها لا تضرهم مع بقاء الإخلاص للَّه الذي يعرفون به حقه، ويتقون مكر الشيطان كما قال موسىٰ.

ولقد غلب الشيطان الأبوين آدم وحواء بمعصية الشهوة، وغلب موسىٰ بمعصية الانتقام، والكل منهم عرف ذنبه وتاب منه إلىٰ اللَّه، فقبل توبتهم؛ لأن الإخلاص ثابت في قلوبهم، وقد اعترف إبليس نفسه بذلك، حيث قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، ولكن الزنادقة عموا عن الفرق بين تحقيق التوحيد والذنوب التي ندم عليها أصحابها، فإن سبب الندم ناشئ من الإخلاص.

وأما تشكيكهم بما أخبر اللَّه به عن موسىٰ وعن السحرة من أولية الإيمان، وما أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يقوله، وذلك في قوله عن موسىٰ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وعن السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا

خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء]، وقول نبينا ﷺ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، زاعمين أنه كيف جاز له أن يزعم الأولية في الإسلام، وقد كان قبله مسلمون كثيرون من نوح عليه السلام إلىٰ الحواريين فقالوا: إنه متناقض، وهذا من تحاملهم ضد الحق، وإلا فليس في ذلك أي تناقض، وذلك لأن موسىٰ حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فقال له اللَّه سبحانه: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] يعني لا يراني أحد في الدنيا، إلا مات: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني أول المصدقين بأنه لا يراك أحد في الدنيا إلا مات، فهذا ما يقصده بقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأما قول السحرة: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم يعنون أنهم أول المصدقين بموسىٰ من أهل مصر وأقباطها.

وأما قول محمد ﷺ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فمقصوده أنه السابق من قومه، فسحرة فرعون هم أول مؤمني قومهم في زمانهم، ونبينا ﷺ أول مسلم من قومه في زمانه، فليس في هذه الآيات تناقض، وهي شبيهة بقوله لبني إسرائيل: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] أي أهل زمانهم وقرونهم الخاصة بهم.

وأما تشكيكهم بقوله سبحانه مهددًا أصحاب المائدة: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، زاعمين التناقض بينها وبين قوله: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، فالجواب أن الآية الأولىٰ عن تفوق عذاب طالبي المائدة علىٰ العالمين أنه فاق زمانهم، أو أن لهم عذابًا في الدنيا لا يحصل علىٰ غيرهم، وأما شدة عذاب عاقو آل فرعون فليس فيه ما يدل علىٰ أنهم أشد عذابًا من المنافقين ولا عكسه، وإنما فيه التصريح بشدة العذاب مهما كانوا في دركات النار، ومما أجاب به الإمام أحمد علىٰ ذلك أن آل فرعون يدخلون أشد عذاب في الباب الذين هم فيه، وأن جهنم لها سبعة أبواب:

جهنم، ولظىٰ، والحطمة، وسقر، والسعير، والجحيم، والهاوية، أعاذنا اللَّه منها جميعًا.

وأما تشكيكهم بقوله عن أهل النار: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ [الغاشية] زاعمين معارضته لقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدخان]، فجوابه: إن النار دركات، فبعض أهلها ليس لهم طعام إلا من ضريع، وهو نوع من النبات عديم النفع بتاتًا، والعرب تعرفه، وبعضهم يأكلون الزقوم، وبعضهم يشربون الصديد، وبعضهم يشرب الحميم الذي يشوي الوجوه، وهكذا فليس بين نصوص الوحي تناقض إلا في أدمغة الزنادقة.

وأما تشكيكهم بقوله سبحانه عن الكفار: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] مع قوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣﴾ [طـه]، وقوله: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طـه: ١٠٤]، وقوله: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المؤمنون: ١١٤] زاعمين التعارض بين هذه الآيات، والجواب أن الكفار إذا خرجوا من قبورهم بغتة وعاينوا ما كانوا به يكذبون من أمر البعث، قال بعضهم لبعض: إن لبثتم في القبور إلا عشرًا واستكثروا العشر، فقالوا: إن لبثتم إلا يومًا، ثم استكثروا اليوم فقالوا: ما لبثتم إلا ساعة من النهار، وما لبثتم إلا قليلًا، وهذا لفرط ذهولهم وعدم ضبطهم حينما باغتهم أمر اللَّه فاندهشوا وصاروا في أمر مختلف، وهذا لا يعتبر تناقضًا بين النصوص، فنحن نشاهد في الدنيا من نام أيامًا نومة عميقة إذا صحا من نومه يتصور أنه لم ينم إلا ساعة ونحوها، وقد أوضح اللَّه حالة أهل القبور بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

وأما شكهم في القرآن بسبب قوله سبحانه عن أهل النار: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]، مع قوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وهذا من جهلهم بمعاني اللغة العربية ومدلول القرآن، فإن معنىٰ «ننساكم» نترككم في النار، «كما نسيتم» كما

تركتم العمل للقاء يومكم هذا، نترككم في العذاب محرومين من كل خير وكل ذكر، والعرب تستعمل النسيان بمعنىٰ الترك، فلا تناقض بين هذه الآية وبين إحاطة علم اللَّه.

وأما تشكيكهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه]، زاعمين معارضتها لقوله: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] فلا تعارض بينهما قطعًا؛ لأن معنىٰ قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ عماية معنوية عن حجته، عماية بصيرة قاطعة له عن حجته، فيتساءل: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ عن حجتي ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ بها مخاصمًا لها؟

ولهذا تفسير في القرآن وهو قوله في الآية (٦٦) من سورة القصص: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني الحجج، وليس المعنىٰ عمىٰ البصر، بل علىٰ العكس فإن الكافر إذا خرج من قبره شخص بصره، ولا يطرقه حتىٰ يعاين جميع ما كان يكذب به من أمر البعث، فذلك قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ يقول: كشفنا عنك غطاء الآخرة للغافل عنه في الدنيا، فأصبحت حديد النظر فيه، ولكن الزنادقة علىٰ عكس الكفار، فهم حديدو البصر الحسي في الدنيا، عمي البصائر المعنوية التي يعرفون بها الحقائق.

وأما تشكيكهم بقوله سبحانه لموسىٰ وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] زاعمين التناقض مع قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]، فهذا من جهلهم باللغة العربية ومجازاتها كما قاله الإمام أحمد: إنه في مجاز اللغة يقول الرجل للرجل: إننا سنجري عليك رزقك، إنا سنفعل بك كذا، ومعيته سبحانه معية العلم والتأييد والتثبيت، وشل حركة الأعداء وإحباط مكرهم كما عمل مع قوم نوح وهود، إذ تحديا قومهما أن يكيدوا لهما بالإجماع وبدون إمهال، فشلَّ اللَّه حركتهم. وكما عمل مع قوم إبراهيم حيث أفسد مفعول النار المحرقة قائلًا: ﴿يَـٰنَارُ

كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، ونحو ذلك من أنواع معية النصرة والمعونة، وليس بها معية الذات والحلول كما توهمته الجهمية وفروعها من المبتدعة، وإنما هو سبحانه مع خلقه بعلمه حيثما كانوا، ومع المتقين والمحسنين والأنبياء والمرسلين بعلمه وسمعه وبصره وتأييده ونصره.

وأما تشكيكهم في قوله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة]، لمعارضته قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج]، وليس بينهما تعارض، فقد قال الإمام أحمد: إن جبريل كان ينزل علىٰ محمد ﷺ ويصعد إلىٰ السماء في يوم كان مقداره ألف سنة، وذلك أنه من السماء إلىٰ الأرض مسيرة خمسمائة عام للهبوط وخمسمائة عام للصعود، وأما قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فهذا يوم القيامة كما ذكره المحققون، وأن معنىٰ ذلك هو الإخبار بعظمة ذلك اليوم وطوله العظيم، وأنه يظهر للخلائق فيه من عظمة الرب وعظمة ملكه، وكمال تدبيره، وأن أمور الملك وتدابيره تعرج الملائكة بها إليه وتنزل فيها منه، فالسياق الذي في سورة المعارج يدل علىٰ أن اليوم المقدر بخمسين ألف سنة هو يوم القيامة، وأما آية السجدة التي فيها اليوم بألف سنة فهو من الدنيا، لأن السياق ـ أيضًا ـ يدل عليه ليعرفوا عظمة اللّٰه وكبرياءه وسعة ملكه ونفوذ تدبيره.

وقيل: إنهما يعودان إلىٰ يوم واحد، وهو تقدير مسافة العالم العلوي والسفلي من المركز الأسفل إلىٰ أعلىٰ العرش بخمسين ألف سنة، ومن جهة الأرض إلىٰ سماء الدنيا ألف سنة، ثم من كل سماء إلىٰ الأخرىٰ كذلك، ويؤيده ما ورد في هذا التقدير من الآثار، وبهذه البيان يتضح عدم التعارض الذي زعمته الزنادقة والحمد للّٰه رب العالمين.

وأما تشكيكهم بقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات]، لمعارضته الآية الأخرىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ

تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر]، زاعمين أنه كلام متناقض غير محكم، فهذا من عدم تدبرهم للقرآن، وعدم خضوعهم لعظمة منزله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلا فنفي النطق له حالة في أول نشرهم لفرط ذهولهم من دهشة الساعة وزلزلتها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ١، ٢]، ثم بعد الاستقرار وذهاب الذهول ومعاينتهم الواقع الذي كانوا يكذبون به يلجئون إلىٰ التلاوم والخصام.

قال الإمام أحمد: هذا أول ما تبعث الخلائق علىٰ مقدار ستين سنة لا ينطقون ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون، فذلك قوله سبحانه في الآية (١٢) من سورة السجدة: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، فإذا أذن لهم في الكلام تكلموا واختصموا، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ عند الحساب وإعطاء المظالم، ثم يقول لهم بعد ذلك: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٨] أي عندي ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨] أي في الدنيا، فإن العذاب مع هذا القول كائن اهـ.

وأما تشكيكهم في قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] لمعارضتها لقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] قائلين: كيف ينادي بعضهم بعضًا وهم صم بكم؟ وقد أجابهم الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن تفسير قول اللَّه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أنهم أول ما يدخلون النار ويتكلمون، يكلم بعضهم بعضًا وينادون ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، فهم يتكلمون حتىٰ يقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فصاروا فيها عُميًا وبكمًا وصمًا، فينقطع الكلام ويبقىٰ الزفير والشهيق، فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة في كلام اللَّه. اهـ.

قلت: وقد أسلفنا أن معنىٰ إعمائهم هو عن الحجة، وأن اللَّه يعمي

بصائرهم فيسد أفهامهم عن النطق بما ينفعهم جزاء لهم علىٰ تكذيبهم ومشاقتهم للَّه ورسله، وبذلك يكونون عميًا بكمًا بخلاف المؤمنين الذين يثبتهم اللَّه بالقول الثابت في الدنيا والآخرة واللَّه أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وأما تشكيك الزنادقة بقوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] زاعمين معارضتها لقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الصافات]، وقد أجاب الإمام أحمد علىٰ ذلك بأن عدم التساؤل هو عند النفخة الثانية في الصور إذا قاموا من القبور، لا يتساءلون ولا ينطقون في ذلك الموطن، فإذا حوسبوا ودخلوا الجنة والنار، أقبل بعضهم علىٰ بعض يتساءلون.

وبِهذا يزول ما استشكله الزنادقة الذين ينظرون إلىٰ وحي اللَّه بقلوب معكوسة، وأفكار منكوسة، وإلا فلا يخفىٰ أن المراد بنفي الأنساب انقطاع فوائدها وآثارها التي كانت مترتبة عليها في الدنيا من العواطف والرحمة والإيثار والمنفعة والصلات والتفاخر بالآباء وكثرة الأولاد، فليس المراد نفي حقيقة الأنساب، ولكن المراد نفي منفعتها بالكلية، ويشهد لهذا المعنىٰ قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس] فلا يحصل أدنىٰ انتفاع بأقرب قريب وأحب حبيب.

وأما نفي السؤال فذلك عند الصعق والانشغال بالمحاسبة، والعبور علىٰ الصراط، ثم بعد ذلك يحصل التساؤل، فنفي السؤال له مقام أو مقامات وإثباته له مقام أو مقامات، وقد يكون السؤال المنفي سؤالًا خاصًّا، وهو سؤال بعضهم بعضًا للعفو عما بينهم من الحقوق، وذلك لقنوطهم من الإعطاء والإجابة، ويجوز أن يكون هذا من أنواع السؤال المنفي.

وأما تشكيكهم بقوله تعالىٰ حكاية عن المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر]، وقال في آية أخرىٰ: ﴿فَوَيْلٌ

لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ [الماعون]، قالوا فذم قومًا لأنهم كانوا يصلون، وقد قال في قوم: إنهم دخلوا النار؛ لأنهم لم يكونوا يصلون، وهذا تناقض.

والجواب: أن اللَّه سبحانه لم يذم المصلين علىٰ العموم حتىٰ يتشبث بذلك الملاحدة الذين قلوبهم مقفرة من تقوىٰ اللَّه، وإنما ذم المنافقين الذين هم عن صلاتهم ساهون، والذين هم يراؤون فلا يصلون إلا إذا رأوا الناس صلوا، وإذا لم يروهم لم يصلوا، فكتب عليهم الويل الذي هو شدة العذاب وقضىٰ به عليهم.

وأما قوله عن المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر] فالمعنىٰ لم نكن من الموحدين المؤمنين القائمين بشعائر الإسلام، من صلاة وزكاة وحفظ لسان وتصديق بالبعث والنشور، بل كنا علىٰ خلاف ذلك، فكان مصيرنا سقر التي هي إحدىٰ دركات النار، فليس بين الآيتين مناقضة إلا في أدمغة الملاحدة الفجرة الذين يفككون النصوص بعضها عن بعض.

وهذه الآيات عن المجرمين مما يثبت أن اللَّه يعاقب الكفار علىٰ رفض أصول الدين من التوحيد ومقتضياته والإيمان بالحشر للدار الآخرة، وعلىٰ رفضهم فروع الدين من الصلاة والزكاة وغيرها، وقد ابتدأ بالنص علىٰ الصلاة لعظيم أهميتها وكونها من أعظم روافد العقيدة.

وما أسفه من يحتج بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ علىٰ رفضه الصلاة، وهي حجة عليه قاصمة لظهره، وذلك أنه إذا كان اللَّه قد توعد المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون بأشد الوعيد؛ لكونهم لا يبالون بتأخيرها ولا إقامتها، ولأنهم يراؤون الناس بفعلها، فكيف تكون عقوبة الذي لا يصلي بالكلية، أو يتهكم بالمصلين ويفتري علىٰ اللَّه، زاعمًا وعيده عليهم، ووعيده علىٰ الذين هم عن صلاتهم ساهون؟ لا شك أن عقوبته شديدة.

هـذا وقـد تكلـم المحققـون عـن كـل شـبهة مـوهمة للإشكال ومـن أقربهم الشنقيطي في كتابه «دفع إيهام الاضطراب».

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٨٣):** ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾:

معنىٰ الإذاعة: إظهار الشيء وإفشاؤه، يقال: ذاع ويذيع وأذاع ويتعدىٰ بنفسه وبالباء قال أبو الأسود:

أذاع بـه الـنـاسَ حتـىٰ كأنـه   بعلـيـاءَ نـارٌ أُوقـدت بـثُقُوبِ

وأما الاستنباط فهو الاستخراج، والنَّبط الماء يخرج من البئر أول ما تحفر، والاستنباط استخراجه كما قيل:

نعم صادقًا والفاعلُ القائلُ الذي   إذا قال قولًا أنْبَط الماءَ في الثَّرىٰ

والنَّبط هم الذين يستخرجون المياه والنبات من الأرض، واستعير ذلك لمن يفوض فهمه في النصوص فيستنبط الأحكام الفقهية، أو يفكر في الأمور فيستنبط خفاياها.

وقد ذم اللَّه المنافقين المنخدعين بهم من المتسرعين في بث الأخبار ونشرها؛ لأن العدو ينتفع منها سواء كانت في أحوال الأمن أو الخوف لما يحصل بها من الإرجافات الداخلية بالتشويش والاضطراب، وإيقاع الحيرة في الأمر، والتشكيك بالمسئولين، ودخول المبالغات، والكذب في الأخبار مما يحصل به تخبيط أذهان الضعفاء والمنافقين ومن وراءهم بأساليب متنوعة في بث ما ضرره أكثر من نفعه، حتىٰ في حال النصر والغلبة؛ لأن الأخبار الحربية يجب أن لا يتناولها إلا ذو الشأن والاختصاص، وذلك حتىٰ لا ينتفع العدو بشيء في أي حال من الأحوال.

وهؤلاء المنافقون المنخدعون بهم إذا بلغهم خبر من أخبار سرية

غازية فأتت على الأعداء أو غلبتهم فحصلت على الأرض، أو خيف عليها منهم بأي وسيلة، فإنهم يبادرون بإذاعة ما سمعوه عنها ولو قبل ثبوته، وكذلك ما يشاع من أمر المركز والسلطة، يذيعونه فيكون مشتهرًا بين الناس ولو لم يكن حقيقة، وهذا طبع لا يرتضى لضرره في السياسة الداخلية والخارجية على المسلمين، فإن هذا من الطيش والخفة التي يحصل بها الاستفزاز والتسابق إلى الشر.

ففي هذه الآية الكريمة تعليم عسكري وسياسي لأمة الإسلام على التكتم في تسيير الأمور، والتحفظ بالأسرار، وأن لا يذيعوا شيئًا من الأحوال السياسية والعمليات العسكرية قبل نضوجه وانتهاء مفعوله، ولا يستعجلوا بإصدار بلاغات حتى تنتهي النتائج على التمام؛ لئلا ينتفع العدو باطلاعه على الخطط قبل انتهاء مفعولها فيعمل على إحباطها بما يقابلها أو يزيد عليها.

حتى في حالة الأمن والهدنة ينبغي التحفظ من تسرب الأخبار إليه عن التحصن والأعمال الوقائية، والتزود بأنواع القوة الرادعة والفاتكة صنعًا أو استيرادًا، حتى لا يحسب العدو لها حسابها، وحتى يباغتوه بما لا يعلمه، وأن يضربوا بيد حديدية لطي الأخبار عن السرية العسكرية المحاكمة في حال الخفاء، عكس ما يشيعه تلاميذ الشيوعية والإفرنج من التبجح بما عملوه وما يعملونه في المجالين مما انتفعت به دولة اليهود عن شعور منهم أو غير شعور، فإنه ليس في المصلحة قطعًا إشاعة الأخبار عما يشترى من الأسلحة أو يصنع من أنواعها، فضلًا عن تشخيص عددها والإشادة بما عندهم من القوة؛ لأن ذلك يجلب الضرر، ويخدم العدو، كما أنه لا يجوز أن يفسح المجال للمهرجين الذين يسابقون الحوادث بالتخرص والتكهنات التي تجعل أغلب أفراد الأمة ينشغل بما لا يعنيه، ويتخبط دماغه بمضطربات الأخبار. وقد جاء في الحديث: «**كفى بالمرء إثمًا أن يحدث بكل ما سمع**»[1]، وجاء ـ أيضًا ـ:

---

(١) رواه مسلم (٥)، بلفظ: «**كذبًا**» بدلًا من «**إثمًا**».

«بئس مطيةُ الرجل: (زَعَمُوا)»[(١)].

وكذلك لا يجوز أن تخوض العامة في السياسة، فإن ذلك يضرها بانشغالها عن مصالحها الخاصة، وانحرافها عن الاتجاه النافع لها، كما أن فيه ضررًا ـ أيضًا ـ علىٰ الأمة والدولة بما يفسد عليها من أمر المصلحة العامة، بل ينبغي لكل من الطبقات أن لا يتجاوز اختصاصه، وأن يردوا مسائل السلم والحرب إلىٰ ولاة أمورهم الذين يتحملون عبأها، ويعرفون ملابساتها ليفكروا فيما هو أجدىٰ سبيلًا.

ولهذا ختم اللَّه سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ باستخراج المخبآت المستترة علىٰ الأبصار، والمستعصية علىٰ كثير من الأذهان، فيا لها من آية فيها التوجيه النافع للأمة، والدفع بشرور غوغائية الدهماء الذين كثيرًا ما تلعب بهم دعايات أعدائهم.

وما كثرة بث الأخبار والأفكار والدعايات المختلفة المغرضة إلا لإشغال الناس وإفساد ضمائرهم، ومصادرة العقول بمدح من لا يستحق المدح، أو المبالغة في مدحه، وتقديس من يستحق اللعن من أفراخ اليهودية وتلاميذها المبرقعين بشتىٰ الأقنعة، وقد يكون هذا من مخططات اليهود لينتفعوا به، وينتفع أعوانهم.

وما أكثر ما أنفقه المسلمون المنخدعون من التبرعات في سبيل من أسبغ عليهم أثواب القداسة، ثم انكشفت أحوالهم فأصبحوا مبغوضين مشتومين.

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ أي: الذين يستخرجون تدبيره بفطنتهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكائدها، وقيل: كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئًا من الخبر عن السرايا مظنونًا غير معلوم الصحة فيذيعونه ويعود وبالًا علىٰ المؤمنين، ولو

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٧٢).

ردوه إلىٰ الرسول وإلىٰ أولي الأمر منهم، وقالوا: نسكت حتىٰ نسمعه منهم، ونعلم أنه مما يذاع أو مما لا يذاع، ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ لعلم صحته، وهل هو مما يذيع هؤلاء أي يبلغونه منهم، ويستخرجون علمه من جهتهم، اهـ باختصار.

وفي هذه الآية الكريمة فوائد غير ما ذكرناه فمنها:

أولاً: ما ذكره أبو بكر الرازي أن في هذه الآية دلالة علىٰ وجوب الأخذ بالقياس، واجتهاد الرأي في أحكام الحوادث؛ لأن اللَّه سبحانه أمر بردها إلىٰ رسوله في حياته إذ كانوا بحضرته ﷺ وإلىٰ العلماء بعد وفاته والغيبة عن حضرته، وأن المنصوص عليه لا يحتاج إلىٰ استنباطه، فثبت بذلك أن من الأحكام ما هو مودع بالنص.

وقد كلف الوصول إلىٰ علمه بالاستدلال والاستنباط، قد طول الرازي الكلام في هذه المسألة، وأجاب عن الاعتراض الذي افترضه، واستقرأ من الآية أحكامًا فليرجع إليه من أراد المزيد، فإني اكتفيت بالإشارة خشية التطويل.

ثانيًا: أن في هذه الآية وأشباهها إبطالًا للقول بالإمامة المزعوم النص عليها عند المبتدعين؛ لأنه لو كان كل شيء من الأحكام منصوصًا عليه يعرفه الإمام لزال موضع الاستنباط وسقط الرد إلىٰ أولي الأمر، بل كان الواجب الرد إلىٰ الإمام الذي يعرف صحة ذلك من باطله من جهة النص، هكذا أفاد الرازي رحمه الله.

ثالثًا: لما أمر اللَّه سبحانه المكلف برد الواقعة إلىٰ من يستنبط الحكم فيها علمنا أن الاستنباط حجة، إذ لو لم يكن حجة لما أمر اللَّه المكلف بالرجوع إلىٰ المستنبط، ولما كان الاستنباط حجة ثابتة فالقياس إما استنباط أو داخل فيه، فوجب أن يكون حجة.

قال الفخر الرازي: فإذا ثبت هذا فنقول: الآية دالة علىٰ أمور:

أحدها: أن في أحكام الحوادث ما لا يعرف بالنص بل بالاستنباط.

ثانيها: أن الاستنباط حجة.

ثالثها: أن العامي يجب عليه تقليد العلماء في أحكام الحوادث.

رابعها: أن النبي ﷺ كان مكلفًا باستنباط الأحكام، لأن اللَّه تعالىٰ أمر المسلمين بالرد إلىٰ الرسول وإلىٰ أولي الأمر. اهـ.

رابعًا: أن مدلول هذه الآية ليس منحصرًا ولا مختصًّا بأمر الحروب؛ لأن الأمن والخوف حاصل في كل ما يتعلق بباب التكليف، لاسيما وقد قرر الأصوليون أن ذكر بعض أفراد العام لا يدل علىٰ التخصيص.

ولما كان ظاهر الآية ذم المشرعين بإذاعة الأخبار المتعلقة بالمسائل العسكرية والسياسية دون مراعاة ولاة الأمور من ذوي الاختصاص والعلماء، وكان فيها الأمر للناس بالرد إلىٰ الرسول وإلىٰ أولي الأمر اقتضىٰ هذا حصول العموم، خصوصًا لما نصت الآية علىٰ أن النتيجة تكون بالاستنباط الذي يجب التمسك به في سائر الوقائع، فالتعامل بالتعريف لا حجة عنده ولا يلتفت إليه، كما لا يلتفت إلىٰ من قال: إن القياس يجوز في البيع لا في غيره، واللَّه الموفق للصواب.

خامسًا: قول المنازعين إن الاستنباط إنما يجوز عند حصول العلم، وأن القياس الشرعي لا يفيد العلم أجابهم العلماء في أغلب كتب الأصول وأقتصر هنا علىٰ ما قاله الفخر الرازي: إن القياس الشرعي عندنا يفيد العلم، وذلك لأنه بعد ما ثبت أن القياس حجة، نقطع بأنه مهما غلب علىٰ الظن أن حكم اللَّه في الأصل معلل بكذا، ثم غلب علىٰ الظن أن ذلك المعنىٰ قائم في الفرع، فههنا يتبين أن حكم اللَّه في الفرع مساو لحكمه في الأصل.

قال الشيخ ابن تيمية: إن القياس الصحيح هو من الميزان الذي أمر اللَّه بإقامته، والمراد بالقياس الصحيح إلحاق الفرع بالأصل لعلة رابطة بينهما، بحيث يقطع فيه بنفي الفارق بينهما، فأما مع حصول الفارق أو الفوارق يصبح القياس غير صحيح، وللأصوليين ضوابط

فيه وشروط في العلة، وقوادح معروفة مدونة عندهم، يعرف بها صحة القياس من فساده، وقوته من ضعفه علىٰ حسب ذلك.

فليس القياس سهل المنال كما تصوره المشاغبون للفقهاء، وكذلك ليس مقابلًا للنصوص كما يتوهمه أو يوهمون الناس، بل أجمع من يعتد به من الفقهاء علىٰ أنه لا يجوز القياس في مقابلة النص، بل هو قياس فاسد، وهم يخلطون بين الرأي المذموم والقياس الفاسد، ويجدون لبعض العلماء كلامًا في ذم القياس بالرأي، فيعممونه علىٰ القياس علىٰ النصوص، خلطًا بين القياس الصحيح والفاسد، واللَّه أعلم بما يبدون وما يكتمون.

سادسًا: توهم بعضهم الإشكال في قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ قائلين إذا كان أصل إذاعة الأخبار من المنافقين، فكيف جعل أولي الأمر منهم.

والجواب: أنه جعل أولي الأمر منهم علىٰ حسب الظاهر؛ لأن المنافقين يظهرون الإسلام ويؤكدون إيمانهم للمؤمنين، فأصبحت ولاية أمور المؤمنين شاملة لهم فلا إشكال في ذلك.

سابعًا: قال الشيخ جمال الدين أبو عبداللَّه محمد بن سليمان النقيب في كتابه «التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير» ما نصه: وقد لاح لي في هذه الآية أن في الكلام حذفًا وتقديمًا وتأخيرًا، وأن هذا الكلام متعلق بالذي قبله ومردود إليه ويكون التقدير ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، ولو تدبروه لعلموا أنه من كلام اللَّه، والمشكل عليهم من متشابه لو ردوه إلىٰ الرسول وإلىٰ أولي الأمر منهم ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾، يعني لعلم ذلك المتشابه الذين يستنبطونه منهم من أهل العلم بالكتاب إلا قليلًا، وهو ما أشار اللَّه به من علم كتابه ولمكنون خطابه، ثم قال: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ والذي حسن ذلك وزيَّنه الشيطان، ثم التفت إلىٰ المؤمنين فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ

ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية.

وقد أشار إلىٰ شيء من ذلك أبو طالب المكي في كتابه المعروف «بقوت القلوب» وقال: إن قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ متصل بقوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ وعلىٰ هذا يكون الاستنباط استخراجًا من معنىٰ اللفظ المتشابه بنوع من النظر والاجتهاد والتفكير. انتهىٰ كلامه.

وفيه مخالفة لنظم القرآن، بل جناية عليه، وكأنه ممن يرىٰ أن علمي البيان والنحو حجة علىٰ القرآن يجب تسليطهما عليه، وهذا رأي فاسد وظلم للتعبير القرآني، فالجواب أن يكون القرآن حجة علىٰ علم البيان والنحو وجميع علوم الآلة، وما قَدَر اللَّه حق قدره من عكس هذه الحقيقة، وقد قال أبو حيان بشأن كلام هذا الرجل: وهو كما ترىٰ تركيب ونظم غير تركيب القرآن ونظمه، وكثيرًا ما يذكر هذا الرجل في القرآن تقديمًا وتأخيرًا، وأغرب من ذلك أن يجعله من أنواع علم البيان، وأصحابنا وحذاق النحويين يجعلونه من باب ضرائر الأشعار وشتان ما بين القولين اهـ.

أقول: والحقيقة أنه لا يليق بحكمة اللَّه أن ينزل كتابه الذي هو هداية للناس علىٰ هذا النحو الذي يحتاجون في فهمه إلىٰ تفكيك عبارته بالتقديم والتأخير الذي لا يهتدي إليه غالب العلماء، بل يحتكر فهمه المغرضون الذين يتصرفون في الكتاب كتصرف رجال الكهنوت، مما يفضي إلىٰ التضارب والافتراء علىٰ اللَّه في تحريف الكلم عن مواضعه، وهذا ـ أيضًا ـ شيء مخالف لما وصف اللَّه به القرآن من الهداية والبيان والتيسير، بل مخالف لما تكفل اللَّه به من حفظه، فيجب أن لا يلتفت إلىٰ مثل تأويل النقيب، وإنما ذكرته علىٰ سبيل الإعلام والتحذير من قِبَل مسلكه الذي هو في غاية الشذوذ والجناية علىٰ الوحي، وفتح هذا الباب يؤيد الباطنية وكل مبتدع وزنديق أثيم.

ثامنًا: قال الناصر في كتاب «الانتصاف»: «في هذه الآية الردع والتأديب لكل من يحدث بكل ما يسمع، وكفىٰ به كذبًا، وخصوصًا عن مثل السرايا والمناصبين للأعداء، والمقيمين في نحر العدو؛ وما أعظم المفسدة في لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبار خير أو غيره! اهـ.

وهذا مجمل لما فصلناه، وقد جاء في هذا المعنىٰ أحاديث صحيحة ذكرناها، وأنه يجب كتم ما يضر بالمسلمين إظهاره، فإن إذاعته قبيحة.

تاسعًا: دلت هذه الآية علىٰ تحريم الإرجاف بين المسلمين، وقد أسلفنا هذا المعنىٰ في تفسير ما بعد السبعين آية، وهنا ازداد تأكيد منعه حتىٰ في حالة الأمن، لما يحصل في المبالغة التي تورث الشبهة والاضطراب علىٰ ضعفاء المسلمين، وينتفع بها عدوهم كما أسلفنا، ويحصل فيها التشكيك بالمسئولين إذا اتضح كذبها.

وفي حالة الخوف تكون أنكىٰ ضررًا، وأيضًا فإنها توجب استقصاء البحث فيظهر المكتوم، وأيضًا فإن الأمن للمسلمين يحصل فيه الخوف لعدوهم فيعمل علىٰ الكيد بهم، والاستعداد لهم، وذلك لأن العداوة بين المسلمين والكافرين لا تنقطع في حالة الأمن، بل يتربصون الدوائر، ويتحسسون الأخبار فينتفعون بما يذاع مهما كان.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا خطاب من اللَّه سبحانه للمؤمنين باتفاق المفسرين - كما قاله ابن عطية - ومعناه لولا هداية اللَّه لكم وإرشاده بواسطة رسوله ﷺ لاتبعتم الشيطان في بقائكم علىٰ الكفر أو عدم استقامتكم علىٰ الإسلام والإيمان، وفسروا فضل اللَّه بإرسال رسوله بالإسلام، وإنزاله الوحي عليه، وفسر الرحمة باللطف والنعمة والتوفيق، وبعضهم فسر الرحمة بالنصر والتأييد الذي يحصل به تثبيت القلوب.

قال الضحاك: هدىٰ الكل منهم للإيمان، فمنهم من تمكن فيه حق

لم يخطر له قطعًا خاطر شك، ولا عنت له شبهة ارتياب، وذلك هو القليل، وسائر من أسلم من العرب لم يخل من الخواطر، ولولا فضل اللَّه بتجريد الهداية لهم لضلوا واتبعوا الشيطان، ويكون الفضل معنيًّا، أي رسالة محمد ﷺ والقرآن؛ لأن الكل إنما هدي بفضل اللَّه علىٰ الإطلاق.

وقال أبو مسلم: إن المراد بفضل اللَّه ورحمته هذا النصر والظفر والمعونة التىٰ أشار إليها بقوله في الآيات السابقة من هذا السياق: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ٧٣]، أي لولا النصر والظفر المتتابع لاتبعتم الشيطان، وتركتم الدين إلا القليل منكم، وهم أصحاب البصائر النافذة والنيات القوية، والعزائم المتمكنة من أفاضل المؤمنين الذين يعلمون أنه ليس من شرط كونه حقًّا حصول الدولة في الدنيا، فلا تواتر الفتح والظفر يدل علىٰ أنه حق، ولا تواتر الانهزام يدل علىٰ أنه باطل، بل الأمر في كونه حقًّا أو باطلًا هو الدليل. انتهىٰ باختصار.

وهذا القول وإن كان أقرب من غيره إلىٰ التحقيق، فإنه لا يسلم له عدم التلازم بين كونه حقًّا أو باطلًا من النصر أو ضده علىٰ الإطلاق، وإنما يسلم بالنسبة إلىٰ بعض الواقع؛ لأنه العاقبة للمتقين، فتوالي النصر عليهم يدل علىٰ حسن إخلاصهم للَّه، وقوة صدقهم مع اللَّه ببذلهم غاية المجهود في طاعته، والجهاد في سبيله فقط لا في غير ذلك.

وحصول الهزيمة فيه دليل علىٰ حصول المخالفة، كما أن تتابعها فيه دليل علىٰ فظاعة المخالفة والإصرار عليها، لا علىٰ أحقية الغالب لقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وأما الاستثناء في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فقال قوم: إنما هو من الاتباع، وقدره الزمخشري: إلا اتباعًا قليلًا، فجعله مستثنىٰ من المصدر، والدال عليه الفعل وهو لاتبعتم.

وقال ابن عطية في تقدير: أن يكون استثناءً من الاتباع قال: أي لاتبعتم الشيطان كلكم إلا قليلًا من الأمور كنتم لا تتبعونه فيها، ففسره علىٰ الاستثناء بالمتبع فيه، فيكون استثناء من المتبع فيه المحذوف، لا من الاتباع، ويكون استثناؤه مفرَّغًا.

والتقدير لاتبعتم الشيطان في كل شيء إلا قليلًا من الأشياء فلا تتبعونه فيه، قال أبو حيان: فإن كان ابن عطية شرح من حيث المعنىٰ فهو صحيح؛ لأنه يلزم من الاستثناء الاتباع القليل أن يكون المتبع فيه قليلًا، وإن كان شرح من حيث الصناعة النحوية فليس بجيد؛ لأن قوله: إلا اتباعًا قليلًا لا يرادف قوله: «إلا قليلًا من الأمور كنتم تتبعونه فيها».

عاشرًا: قال بعضهم إن الاستثناء في هذه الآية بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ عبارة عن العدم يريد «لاتبعتم الشيطان كلكم»، قال ابن عطية: وهذا قول قلق لا يشبه ما حُكي عن سيبويه من قولهم: «أرض قلما نبتت كذا، بمعنىٰ لا تنبت»؛ لأن اقتران القلة بالاستثناء يقتضي حصولها. وقول ابن عطية صحيح وإن كان قد خالفه عند تفسير قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

ولم يقل هناك إنه قلق، بل جزم بأن القلة في الاستثناء تعطي معنىٰ العدم، ورأىٰ الزمخشري مثله مستدلًا بقول الشاعر:

قليل التشكي للهموم تصيبه

أي عدم التشكي، ورد عليهما أبو حيان بقوله: وهذا الذي ذكره الزمخشري وابن عطية من أن التقليل يراد به العدم هو صحيح في نفسه، ولكن ليس هذا التركيب الاستثنائي من تراكيبه، فإذا قلت: «لا أقوم إلا قليلًا لم يوضع هذا لانتفاء القيام ألبتة، بل هذا يدل علىٰ انتفاء القيام منك إلا قليلًا فيوجد منك، وإذا قلت: «قلما يقوم أحد إلا زيد»، و«أقل رجل يقول ذلك» احتمل هذا أن يراد به التقليل

المقابل للتكثير، واحتمل أن يراد به النفي المحض، وكأنك قلت: ما يقوم أحد إلا زيد، وما رجل يقول ذلك، أما أن تنفي ثم توجب ـ أي تثبت ـ ويصير الإيجاب بعد النفي يدل علىٰ النفي فلا يصير؛ لأنه لو دل علىٰ النفي كان «إلَّا» الذي هو حرف استثناء جئ به لغوًا لا فائدة فيه، إذ الانتقاء قد فهم من قولك: لا أقوم، فأي فائدة في استثناء مثبت يراد به الانتفاء المفهوم من الجملة السابقة؟.

وأيضًا فإنه يؤدي إلىٰ أن يكون ما بعد «إلَّا» موافقًا لما قبلها في المعنىٰ، وهذا مخالف للمقصود من الاستثناء ومدلوله، فباب الاستثناء لا يكون فيه ما بعد «إلَّا» موافقًا لما قبلها قطعًا بل يكون مخالفًا؛ لأنه لولا ذلك لما لجأ المتكلم إلىٰ الاستثناء، فأصبح من الضروري إثبات المستثنىٰ عن المستثنىٰ منه ليكون الكلام صحيحًا، فما قول القائلين بالنفي إلا من باب الأغاليط. انتهىٰ بتصرف تفصيلي للإيضاح وإزالة التعقيد الذي لا يراه في عرفه تعقيدًا.

حادي عشر: زعم بعضهم بأن المقصود بقوله سبحانه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من قوله: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ وبعضهم زعم أنه استثناء من قوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ وهذه المزاعم بعيدة عن الحق كل البعد ولو أيدها بعض المشهورين بأن الاستثناء إذا جعل من الجملة الأخيرة فقد سلب تأثير فضل اللَّه في إقناع الأتباع عن البعض المستثنىٰ، وهذا تعليل منه في غاية البطلان، فقد أطنبوا وسلكوا مسلك التهويل الذي يظهر فساده للمتأمل، ولا يخفىٰ أن صرف الاستثناء إلىٰ ما يليه ويتصل به لتبادره فيه أولىٰ من صرفه إلىٰ الشيء البعيد عنه، واللازم ممنوع، وكل تعليل يخالف هذا فهو خطأ.

وينبغي عدم الالتفات إلىٰ من صرف الاستثناء للشيء البعيد قائلًا: غير جائز أن يكون الاستثناء من قوله: ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ زاعمًا أن من تفضل اللَّه عليه بفضله ورحمته غير جائز أن يكون من أتباع الشيطان، وللَّه العجب كيف انقلب فكره إلىٰ هذا الحد مع وفرة علمه وجلالة

قدره، وهذا الاستثناء يفهم منه فهمًا جليًّا أن القليل المستثنىٰ من أتباع الشيطان لهم الذين تفضل عليهم بفضله ورحمته فعصم من أتباعه حيث تفضل عليهم بعقل صائب ورحمهم بتثبيت قلوبهم، فاهتدوا بفضله ورحمته إلىٰ الحق والصواب.

وهم الذين يأس اللَّه منهم بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] وقد اعترف إبليس أنهم لا من جنده ولا أتباعه بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، [الحجر: ٤٠]، فعصمتهم من اتباع الشيطان هي بفضل اللَّه ورحمته، وهذا الاستثناء لا ينافيها كما توهموا، بل يؤكدها؛ لأنه يفيد في الحقيقة أنهم يتبعون الشيطان؛ لولا فضل اللَّه عليهم ورحمته بعصمة القليل منهم، ولا شك أن أتباع إبليس من الغواة هم الأكثرون من البشرية، وأن عصمة اللَّه تحصل حتىٰ قبل نبوة محمد ﷺ لمن تفضل اللَّه عليه بمعرفة ملة إبراهيم، أمثال قُسّ ابن ساعدة، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نُفيل وأضرابهم الذين حفظ لنا التاريخ عشرة من أسمائهم وما فات المؤرخون أكثر.

فتفسير الآية واضح لا يحتاج إلىٰ تكلفات التأويل، وهو أن أتباع الشيطان هم المحرومون من فضل اللَّه ورحمته، ففقدوا عصمة اللَّه لعنادهم وركوبهم أهواءهم وإيثارهم رغبات أنفسهم علىٰ فطامها عما حرم اللَّه، وجعلهم الخيرة لأنفسهم في سلوك مراداتهم من السبل دون سبيل اللَّه، كما يصرح به المتفرنجون والمتأمركون والمتمركسون في هذا الزمان من أفراخ الماسونية اليهودية التي تولت رئاسة الجندية للشيطان، والأوائل قد لعبت عليهم جنود الشيطان من أنواع أخرىٰ بأساليب أخرىٰ.

أما القليل الرافضون لهمزات الشياطين علىٰ اختلاف أنواعها، والمتقبلون هدايه اللَّه، والمؤثرون لمرضاته وسلوك سبيله علىٰ مرادات أنفسهم وشهواتها، فهم الحائزون علىٰ فضل اللَّه بعصمتهم من الشيطان أي شيطان، وكونهم ليسوا من أتباعه بل من عباده المخلصين، فلا

يستغلق قلبك عن هذا وتهوي في الجدل.

ثاني عشر: إن من الجدل المردي ما زعمه بعضهم من أن القول برجوع الاستثناء للجملة الأخيرة يلزم منه جواز انتقال الإنسان من الكفر إلىٰ الإيمان، ومن اتباع الشيطان إلىٰ عصيانه، مستبدًا بنفسه دون تفضل اللَّه عليه بالهداية، وهذا اللازم باطل ممنوع، وهو من اللازم الذي ما ليس بلازم، وقد نقضه الفخر الرازي.

وقال الألوسي باستحالة ورود هذا اللازم ثم قال: «ومعاذ اللَّه أن يعتقد هذا مسلم موحد سنيًّا كان أو معتزليًّا، وذلك أن حرف «لولا» حرف امتناع لوجود، وقد أنبأت أن امتناع اتباع المؤمنين للشيطان في الكفر وغيره إنما كان بوجود فضل اللَّه عليهم، فالفضل هو السبب المانع من اتباع الشيطان الذي اتبعه كثير من الناس المحرومين من هذا الفضل بفعل أنفسهم كما سبق، ونجا منه القليل الذين استثناهم اللَّه في هذه الآية بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وفي غيرها من النصوص، وليس هذا الاستثناء سالبًا تأثير فضل اللَّه كما توهموه، بل هو مؤكد له.

وعلىٰ فرض ما قالوه فإن عدم الاتباع إذا لم يكن بِهذا الفضل المخصوص لا ينافي أن يكون بفضل آخر، ودفع الإشكال بأن عدم الفضل والرحمة علىٰ الجميع لا يلزم منه العدم علىٰ البعض، لما فيه من التكلف انتهىٰ بتصرف يشرح الإجمال ويوضحه.

وقد ورد من النصوص المفيدة لأكثرية جند الشيطان ما ورد في الحديث الصحيح أن اللَّه يقول لآدم: «**أخرج من ذريتك بعث النار، فيخرج من المائة تسع وتسعون...**»[١] إلىٰ آخر الحديث.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٨٤)**: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾:

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢).

مناسبة هذه الآية وارتباطها بما قبلها هي أن اللَّه سبحانه لما ذكر الآيات قبلها التي فيها تثبيط المنافقين عن القتال، واستطرد من ذلك إلىٰ أن الموت يدرك كل أحد مهما اعتصم منه بالحصون العظيمة، فلا فائدة لأي معتصم في الهرب منه، وأن البروز للجهاد لا يقدم الأجل ولا يجلب الموت، كما لا يؤخره الجبن والاختباء، ثم أتبع ذلك بالإخبار عن سوء خطاب المنافقين للرسول ﷺ، وفعلهم المتناقض من إظهار الطاعة له بالقول وخلافها بالفعل، ثم تبكيته لهم بعدم تأملهم وتدبرهم لما جاء به الرسول من القرآن الذي كتب عليهم فيه القتال، وأنهم لو تدبروه جزموا بأنه من عند اللَّه لصحته وسلامته من الاختلاف ثم أعاد الأمر بحتمية القتال.

وهكذا عادة العرب في كلامهم يكونون في شيء من المواضيع، ثم يستطردون منه إلىٰ شيء آخر به مناسبة وتعلق، ثم يعودون إلىٰ صلب الموضوع، والفاء هنا عاطفة جملة كلام علىٰ جملة كلام يليه، ومن زعم أن وجه العطف بالفاء هو أن يكون متصلًا بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ [النساء: ٧٥] أو بقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤] وهو محمول علىٰ المعنىٰ علىٰ تقدير شرط: أي إن أردت الفوز فقاتل، أو زعم أنها معطوفة علىٰ قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النساء: ٧٦] فقد أبعد النجعة.

وظاهر الأمر أنه خطاب للنبي ﷺ فيه تلوين للخطاب، وتوجيه إليه وحده علىٰ سبيل الالتفات، يؤكده قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ وهو جواب شرط محذوف ينساق إليه النظم القرآني الكريم، أي إذا كان الأمر كذلك من عدم طاعة المنافقين وكيدهم؛ فقاتل أنت وحدك غير مكترث بما فعلوا، فإنهم إن أفردوك وتركوك وحدك: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ وحدها أن تقدمها للجهاد، فإن اللَّه ﷻ هو ناصرك، لا الجنود الذين ينفرون معك قلوا أو كثروا، فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك مع الجنود سواء بسواء.

فاللَّه القوي العزيز الذي نصر نبيه وحيدًا بين أعدائه المتكالبين

عليه في مكة، والمؤذين لأصحابه، فعصمه من سوء شرهم، ثم عصمه عن مكرهم، وأخرجه من بين أيديهم، وجعله يحثو علىٰ رؤوسهم التراب، ثم عصمه وحماه حالة اختفائه في الغار، وكان معه بإنزال السكينة وإعماء قريش عنه، ونصره عليهم بإحباط مساعيهم بإساخة فرس مبعوثهم سراقة بن مالك بالتراب، ثم نصره يوم بدر وغيره، وأنزل سكينته ونصره عليه وعلىٰ المؤمنين وأمدهم بالريح وبجنود لم يروها، والحكمة في أمر اللَّه له بالجهاد وإن قاتل وحده هي حث المؤمنين علىٰ القتال، وتحريك هممهم وتنشيط عزائمهم، وإلهاب الحماس في صدورهم حتىٰ لا يعاملوه معاملة الإسرائيليين لموسىٰ بقولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

نقول: ولقد حملهم هذا الأمر القاطع علىٰ مخالفتهم لبني إسرائيل قولًا وعملًا فقالوا له: «واللَّه لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ، ولكن نقاتل معك عن يمينك وعن شمالك وأمامك ومن خلفك، ولو عرضت بنا هذا البحر لخضناه معك»، وقد أسلفنا تفصيل ذلك مرارًا.

وفي معنىٰ الوحدوية قوله ﷺ: «**لأقاتلنهم حتىٰ تنفرد سالفتي**»(١)، وقول أبي بكر وقت الردة: أقاتلهم وحدي، ولو خانتني يميني لقاتلتهم بشمالي.

وفي هذا الأمر الوحدوي من الأحكام والفوائد غير ما ذكرناه:

إحداها: اختصاص تكليفه ﷺ بفعل نفسه من موجبات مباشرته ﷺ للقتال وحده، وفيه دلالة علىٰ أن ما فعلوه من التثبيط والتقاعس لا يضره ولا يؤاخذ به، بل إن اللَّه وليه ونصيره والمؤمنون معه.

ثانيها: دلت هذه الآية علىٰ أن رسول اللَّه ﷺ كان أشجع الناس وأعرفهم بفنون الحرب وكيفية القتال؛ لأن اللَّه ﷻ ما كان يأمره بذلك

(١) رواه البخاري (٢٧٣١).

إلَّا لاتصافه بِهذه الصفات، وقد اقتدىٰ به خليفته من بعده حين عزم علىٰ قتال أهل الردة، ولا غرو في ذلك فإن من علم أن الأمور بيد اللَّه، وأنه لا يحصل شيء منها إلا بقضاء اللَّه وقدره سهل عليه ذلك، خصوصًا من استيقن أنه ما من دابة إلا واللَّه آخذ بناصيتها وأنه علىٰ صراط مستقيم، كما أسلفنا هذه المعاني وكررناها وللَّه الحمد والفضل والمنة.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق: سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقىٰ المائة من العدو فيقاتل أيكون من قال اللَّه فيه: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ فقال: قد قال اللَّه لنبيه ﷺ: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي فليس هذا من التهلكة.

ثالثها: دلت هذه الآية الكريمة علىٰ أن محمدًا ﷺ لا يجوز له التخلف عن الجهاد ولو لم يساعده أحد علىٰ القتال ألبتة، إذ معناها أنك يا محمد لا تؤاخذ إلا بفعلك دون فعل غيرك، فإذا أديت المفروض عليك لا تؤاخذ بما هو مفروض علىٰ غيرك بعد التبليغ والتحريض.

كما دلت علىٰ أن الجهاد عليه فرض عين دون ما سواه إلا في أحوال الضرورة، فإن الجهاد في حق غيره فرض كفاية إلا في حال الاستنفار أو حال الهجوم والحصار، فإنه يتحتم وجوبه لدفع الخطر والضرر عن بيضة الإسلام والمسلمين بخلاف الرسول ﷺ، فإنه علىٰ ثقة تامة من النصر والظفر؛ لأن اللَّه يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وحرف «عسىٰ» من اللَّه للجزم لا المقاربة، فيلزمه الجهاد وإن كان وحده؛ وكذلك المؤمنون موعودون من اللَّه بالنصر العزيز والفتح المبين بسائر أنواع المدد الإلهي من السماء والأرض، لكنه مشروط بتحقيق تقوىٰ اللَّه والصبر والثبات، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران] فالمؤمنون مطالبون بالصبر والثبات، وقد حرم اللَّه عليهم الفرار من العدو الكافر إلا بشروطه،

وجعله من كبائر الذنوب المحبطة للأعمال، والموجبة للغضب ودخول جهنم وبئس المصير كما نصت عليه الآية (١٦) من سورة الأنفال.

وقال الفخر الرازي: دلت الآية علىٰ أن اللَّه أمر نبيه بالجهاد ولو وحده، قبل دعاء الناس في «بدر الصغرىٰ» إلىٰ الخروج، وكان أبو سفيان واعد الرسول ﷺ اللقاء فيها، فكره الناس أن يخرجوا، فنزلت هذه الآية فخرج وما معه إلا سبعون رجلًا، ولم يلتفت إلىٰ أحد ولو لم يتبعوه لخرج وحده. اهـ.

رابعها: يجب علىٰ المسلم الفرد أو الأفراد أن لا يستسلموا للعدو ويكونوا غنيمة باردة يصيبهم بما يشاء من أنواع التنكيل والفتك، بل يقاتلون غاية جهدهم ولو أعدموا جميعًا؛ ليأخذوا ثمنهم غاليًا من عدوهم ويستنصروا اللَّه عسىٰ أن ينصرهم أو يفتح لهم باب فرج، وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء بن عازب: الرجل يحمل علىٰ المشركين أهو ممن ألقىٰ بيده إلىٰ التهلكة؟ قال: إن اللَّه بعث رسوله ﷺ فقال له: ﴿**فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ**﴾ إنما ذلك في النفقة، وقد أسلفنا في تفسير آية التهلكة أنها في عدم الإنفاق، وإن الشح عن الإنفاق في الجهاد في سبيل اللَّه مفض إلىٰ الهلاك الحسي أو المعنوي، كما أننا كررنا شرح قوله ﷺ: «**شر ما أوتي العبد شح هالع أو جبن خالع**»[١].

وروىٰ البخاري في كتاب الجهاد من صحيحه حديثًا رقمه (١٣٣٥) جاء في آخره أن: «**في الجنة مائة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم اللَّه فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلىٰ الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة**»[٢] ولا ينبغي سؤال هذا الموقع الرفيع إلا للمجاهدين

---

(١) رواه أبو داود (٢٥١١).

(٢) رواه البخاري (٢٧٩٠).

لاختصاصه بهم.

خامسها: أن تكليف اللَّه سبحانه لرسوله ﷺ بِهذا التكليف الشاق العظيم المخصص عليه سواء وجد المستحب أو لم يجد يعطينا دليلًا علىٰ عمق الآثار السيئة للتعويق والتثبيط عن الجهاد والتبطئة فيه، وأن الصراحة في هذا الأمر يحصل بها استجاشة صدور المؤمنين، واستنهاض عزائمهم، وإثارة غضبهم لعقيدتهم، كما أن في هذه الآية تقريرًا للقاعدة الأساسية في الإسلام، وهي أن كل فرد من المؤمنين لا يكلف إلا نفسه إذا قام بواجب الدعوة والتبليغ والجهاد والحض عليه وعلىٰ طاعة اللَّه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، فهناك ينجو من غائلة غيره، وما عليه إلا نفسه ولا يضره خلاف غيره كما جاء في الآية (١٠٥) من سورة المائدة التي سنوضحها في موضعها إن شاء اللَّه.

وقوله سبحانه: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حث المؤمنين وحضهم عليه بسياط المواعظ من الترغيب فيه، وبيان فضله وعظيم ثوابه، ورفعة مقام أهله في الدنيا، ومنازلهم في الآخرة، ومن الترهيب عن النكوص عنه أو التبطئة به، وعدم الثبات عليه بذكر النتائج السيئة لذلك في الدنيا من الإلقاء بالنفس في التهلكه، ونيل عار الخنوع وعيشة الذلة والمهانة والاستعباد، وما في الآخرة من العذاب الأليم علىٰ ترك الجهاد وخذلان المسلمين، وعدم الانتصار لدين اللَّه، فإنه بِهذا الوعظ والترغيب والترهيب من التحريض، فإذا أتىٰ الرسول بالجهاد الواجب وتحريض المؤمنين عليه، فقد خرج منه عهدة التكليف بالجهاد ولا شيء عليه من حساب التاركين للأمر الذين لم يبالوا بالتحريض.

وكذلك كل مؤمن وارث له مطالب بما طولب به حسب ما فصلناه من درجات الوجوب، ولا يتحمل شيئًا من ذنوب غيره، وقد جعل اللَّه الغاية من إيجاب القتال ـ ولو علىٰ الأفراد ـ والحض عليه كف شرور

الكافرين وكسر بأسهم، وتنكيلهم بصيغة الرجاء الحتمي، فقال ﷻ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ فأوضح سبحانه أنه يتولىٰ قمع الكفار، وكف بأسهم وكسر شوكتهم وتنكيلهم بعونه وحوله وقوته التي لا يغلبها غالب، وذلك علىٰ أيدي المجاهدين المخلصين، الصادقين يجعلهم ستارًا لقدرته وبطشه، ووسيلة فعالة لتنكيل أعدائه بقوته وما يمدهم به من روحه للصمود الفاتك الذي يثبت به أقدام عباده، ويزلزل أقداء أعدائه، ويقطع قلوبهم، ويهدم كيانهم المعنوي ويجعلهم نكالًا لغيرهم من أمثالهم القريبين والبعيدين، فهو القادر عليهم في الدنيا والآخرة، وهو القاهر لبأسهم، والمفسد المحبط لجميع ما يقومون به ضد أهل دينه وطاعته.

وليس معنىٰ «عسىٰ» هنا للترجي أو المقاربة، فإن هذا محال علىٰ اللَّه سبحانه، وإنما حرف «عسىٰ» عِدَةٌ محققة الإنجاز؛ لقمع بأس الكفار وكسر شوكتهم، فهي من اللَّه موجبة مقررة للوقوع من جهته ﷻ ، فهي من أطماعه للمؤمنين، وإطماع الكريم إيجاب منه سبحانه، فهو الجبار صاحب الجود والكرم والعزة والانتقام والبطش الشديد، ليجبر ذلة عبده المؤمن بعزة وقوة لا تحصل من سواه.

هذا وإن تحريض النبي ﷺ للمؤمنين علىٰ القتال هو الذي يحملهم بباعث الإيمان والإذعان النفسي علىٰ الاستعداد له، وتوطين النفس عليه، ويكسبهم رباطة الجأش وقوة الإقدام بالدوافع الروحية، لا بالقسر والإلزام كما هو مخطط الدول المعاصرة في التجنيد الإجباري علىٰ حسب أفراد الأسرة أو بالقرعة، بل الأمر الحكيم من الرب العليم الحكيم هو الذي يكون أجدىٰ من غيره في تربية النفوس.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ تقوية لقلوب المؤمنين وتركيز العزة في نفوسهم، ورفع لمعنويتهم إلىٰ أقصىٰ الغايات؛ لأنه لا يعتريهم الشك في هذا التذكير والتقرير في أن بأس اللَّه أشد من بأس الكفار، وأن عقوبته في غاية الشدة والتنكيل.

ويحصل في هذا شدة ارتباط المقاتلين بالله، وقوة الطمأنينة إلىٰ وعده بالفرج والتمكين والنصر، وشدة الاستعانة به والثقة بقوته واستيقان تحقيقه لوعده لهم، وهذا من أقوىٰ أساليب التربية العسكرية التي لا يقابلها شيء، ولا يوجد شيء أجدىٰ منها في هذا الميدان، بل هي القمة فيه؛ لأنها تربية وتعاليم من الخالق البارئ للنفوس البشرية، وهو أعلم كيف تتربىٰ وكيف تتقوىٰ وكيف تستنهض وتستجاش، وكيف يكون فيها قابلية الاستجابة والصمود.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾ فوائد:

إحداها: أنه لا يخيفنكم أيها المؤمنون بأس هؤلاء الكافرين وشدتهم، ولا يهولنكم كثرتهم، ولا يصدنكم عن طاعة الرسول والعمل بتحريضه، مذعنين له مختارين لأمره علىٰ سواه، فإن الله الذي وعدكم بالنصر والتأييد أشد منهم بأسًا وأشد تنكيلًا لهم مما يحاولون أن ينكلوكم به، فإن سنته سبقت بأن تكون العاقبة للمتقين إذا استقاموا علىٰ التقوىٰ في امتثال جميع الأوامر السياسية والثقافية والاقتصادية والعسكرية، واجتنبوا أسباب الخذلان بالإصرار علىٰ معصية أو تبديد الطاقات في غير المنافع الحربية واستعدوا بالمستطاع من وسائل الدفاع والهجوم مع الصبر والثبات. فإنه سبحانه لا ينصرهم مع قعودهم ونكولهم عن الجهاد، ولا مع تقصيرهم في الأخذ بوسائله مع القدرة، ومخالفة سنته الكونية والشرعية، فإن هذه أحوال يتخلف فيها النصر ويتسلط بها الأعداء.

ثانيها: قوله سبحانه: ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾ فيه دلالة علىٰ أن عذاب الله وتنكيله أشد من عذاب غيره وتنكيله حتىٰ في الدنيا، وإن كان الغالب من عذاب الدنيا أنه يجعله علىٰ يد غيره، وأمثل الوجوه في هذا التفاوت هو:

أولًا: أن عذاب الله يكون دائمًا في الآخرة، وعذاب غيره ليس بدائم.

ثانيًا: أن عذاب غير اللَّه قد يتخلص الإنسان منه بإذن اللَّه، وعذاب اللَّه ليس منه خلاص ولا مناص أبدًا فلا ينجي منه سواه.

ثالثًا: أن عذاب غير اللَّه لا يكون إلا من وجه واحد، وأما عذاب اللَّه فمن جميع الوجوه، وقد يصل إلىٰ جميع الأجزاء والأبعاد والروح والجسد.

ومما قدمناه من توضيح معنىٰ «عسىٰ» وأن دعوىٰ الإشكال فيها دعوىٰ باطلة، لأن إعطاءها معنىٰ المقاربة والترجي إذا كانت من المخلوق، فأما إضافتها إلىٰ الخالق سبحانه وكونها وعدًا منه لعباده، وإطماعًا لهم فهي متحققة الوقوع وعدًا ورجاء وإطماعًا ولن يخلف اللَّه وعده.

وقوله سبحانه في الآية (٨٥): ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾:

الشفاعة في اللغة مأخوذة من الشفع: وهو قرن الواحد الذي هو وتر بواحد آخر؛ ليكونا بذلك شفعًا لا وترًا. فاستعيرت لسعي الإنسان بمصلحة غيره لدفع ضرر، أو جلب نفع، فصارت شفاعة له، والساعي بذلك شفيع أو شافع لانضمامه مع الآخر علىٰ تحصيل مصلحته، ومعناها عام في كل وساطة لتحصيل نفع ودفع شر، ولهذا جعلها اللَّه متخللة لآيات الجهاد والقتال؛ لأن أعظم فوائد الشفع فيه لنفع المؤمنين بجلب الخير أو دفع الضرر، فأعظم الشافعين وأكبرهم قدرًا وأرفعهم شأنًا وأكثرهم أجرًا وأعلاهم درجات من يكون شفيعًا لوتر محمد ﷺ أو وتر أصحابه، أو أحد أتباعه ومناصريه منذ حياته إلىٰ يوم الدين، وكذلك من شفع فردًا من حملة سنته أو الداعين بدعوته أو المنافحين عن رسالته وما جاء به من الحق. ولهذا صحت النصوص عنه ﷺ أن لكل واحد من الغرباء العاملين بسنته عند فساد الزمان وللصالحين المصلحين لما أفسده الناس أجر خمسين من

الصحابة الكرام، وأن درجة المستقيم علىٰ طاعة اللَّه وقت الفتنة كدرجة المهاجر إلىٰ رسول اللَّه ﷺ في حياته.

فمن تفسير هذه الآية الكريمة أن من يكن شفيعًا لو ترك أو وتر أصحابك يا محمد في الجهاد فيسعفهم في جهاد عدوهم يكن له نصيب من الجهاد، أو من يشفع وتر الإسلام بالمعونة للمسلمين فتلك حسنة وله نصيب منها، فإن مساعدة المسلمين علىٰ حرب الكفار أعظم أنواع الشفاعة، وهذه الشفاعة الخاصة بالجهاد لدعم المؤمنين وإسنادهم، وكذلك التحريض علىٰ الجهاد بالأساليب النافعة يجري مجرىٰ الشفاعة، ويحصل كل من الشفعاء في هذا المجال علىٰ نصيب مما يناله المجاهدون في الدنيا من النصر والعز والفوز والشرف والغنيمة في الدنيا، وبما يكون في الآخرة من الثواب ورفعة المنازل في الفردوس، ومعنىٰ النصيب أو الحظ المنصوب أي المعين.

«و» علىٰ ضد ذلك ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ بأن ينضم إلىٰ عدو لمحمد ﷺ في حياته أو إلىٰ عدو سنته ورسالته بعد وفاته، أو إلىٰ عدو أي مسلم مخلص من أتباعه إلىٰ يوم القيامة، أو يخذل أي مؤمن عن الجهاد ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي من هذه الجريمة العظيمة، فيتحمل ما يستحقه في الدنيا من الخزي والعار والذلة وسائر العقوبات الإلهية القدرية المتنوعة، وينال في الآخرة من العذاب نصيبًا بقدر آثار خذلانه للمؤمن أو معونته لأعدائه، فالكفل هو النصيب المكفول للشافع؛ لأنه من آثار عمله، وأكثر ما يستعمل لفظ الكفل في الشر، وإن كان يستعمل في الخير.

ومن أنواع الشفاعة الحسنة في هذا الباب أن يشفع المؤمن لأخيه المؤمن عند بعض المؤمنين ليعينه علىٰ مركبه، أو تكاليف رحلته إلىٰ الجهاد أو يعطيه سلاحًا أو آلة نافعة للجهاد، أو يكفيه مئونة أهله، أو القيام بحفظهم بعده، فإن هذه الشفاعة يكسب الشافع بها نصيبًا من الأجر لا يقل عن نصيب المشفوع عنده المتقبل شفاعته، كما قال

ﷺ: **«الدال علىٰ الخير كفاعله والدال علىٰ الشر كفاعله»**(١)، ونقل الواحدي عن ابن عباس ما معناه: أن الشفاعة الحسنة هي أن يشفع العبد إيمانه بقتال الكفار، والشفاعة السيئة أن يشفع كفره بمعاونة الكافرين علىٰ المسلمين، أو محبة الكافرين وعدم إيذائهم، وهذا القول إجمال لما فصلناه.

وأما المعنىٰ العام للشفاعة فهو يعم القيام بجميع مصالح المسلمين في حوائجهم ومصائبهم وملماتهم، وبما أن الشفع ضم واحد إلىٰ واحد، والشفعة ضم ملك الشريك إلىٰ الشريك الآخر، فالشفاعة إذن في ضم غيرك أيها المسلم إلىٰ جاهك ووسيلتك، ففيها علىٰ التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع وإيصال المنفعة إلىٰ المشفوع له.

فالشفاعة الحسنة العامة هي ما كانت في البر والطاعة، مرتكزة علىٰ فعل الإحسان وإيصال النفع إلىٰ المسلمين، ودفع الضرر عنهم بجميع الوسائل، علىٰ وجه يتقرب به إلىٰ اللَّه، فكل شيء يراعي فيه الشافع حقوق المؤمنين من جلب المنافع ودرء الشرور؛ مبتغيًا فيه وجه اللَّه، لم يأخذ رشوة ولا مكافأة فهو شفاعة حسنة، لفاعلها نصيب من الأجر علىٰ حسب حصول المنفعة، وعلىٰ حسب ما يتكلفه الشافع، ولن يضيع اللَّه من مساعي المحسنين مثقال ذرة، وهذا إذا لم تكن شفاعته ضد تنفيذ حد من حدود اللَّه؛ لأن وزره حينئذ يكون ثقيلًا.

ومن أنواع الشفاعة الحسنة الصلح بين المتشاجرين، والدعاء للمؤمن بظهر الغيب، فقد قال النبي ﷺ: **«من دعا لأخيه بظهر الغيب استجيب له، وقال له الملك: ولك مثل ذلك النصيب»**(٢).

وأما الشفاعة السيئة فهي السعي في كل ما فيه إثم وعدوان، كالوشاية والتجسس علىٰ المسلمين، وكالإعانة والدلالة علىٰ الفواحش،

---

(١) رواه التِّرمذي (٢٦٧٠).

(٢) رواه مسلم (٢٧٣٢).

وشفع وتر الظالم بإعانته علىٰ المظلوم أو تشجيعه علىٰ بعض أنواع الظلم؛ وكمساعدة صاحب الباطل علىٰ تزمته وعناده وإضراره، والتوكل بالنيابة عنه في الخصومات، والقيام بإفساد ذات البين وإغراء العداوة بين المتشاجرين، وكذلك الغيبة والنميمة التي تحصل بها العداوة وتزداد.

ومن أشنعها الشفاعة لبراءة الظالم من العقوبة، أو لإسقاط حد من حدود اللَّه، فإن هذه جريمة عظيمة، وقد ورد فيها الوعيد الشديد لمن حالت شفاعته دون حد من حدود اللَّه، كما في الحديث (رقم ٦١١) من الجزء الثاني من «مشكاة المصابيح»، وحديث أسامة مشهور في شفاعته للمخزومية وغضب رسول اللَّه ﷺ.

وكل ما لا تجوز فيه الشفاعة شرعًا فهي سيئة، ومن أفظع أنواعها وأشنعه وأقبحه وأعظمه جريمة من يشفع وحدة الكفار في محبته لهم، أو موالاته لهم، أو معونته لهم، بل هذا يكون ردة عن الإسلام إذا جرىٰ في حال حربهم مع المسلمين.

وهاهنا فوائد:

إحداها: قال السيوطي في «الإكليل» إن في هذه الآية مدحًا للشفاعة وذمًّا للسعاية، وهي الشفاعة السيئة وذكر الناس عند السلطان بالسوء، وهي معدودة من الكبائر.

ثانيها: ورد في فضل الشفاعة أحاديث كثيرة منها ما أخرجه البخاري في كتاب الزكاة رقم (٧٦٥) عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا جاءه سائل أو طلبت إليه حاجة قال: «**اشفعوا تؤجروا ويقضي اللَّه علىٰ لسان نبيه ﷺ ما شاء**»[(١)]، وأخرج البخاري ـ أيضًا ـ في كتاب المظالم حديثًا رقمه (١٢٠٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان اللَّه في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج اللَّه عنه كربة من كرب**

(١) رواه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧).

يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره اللَّه يوم القيامة»(١).

وروىٰ الطبراني بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من عبد أنعم اللَّه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرم، فقد عرض تلك النعمة للزوال»**(٢) وروي نحوه عن عائشة وابن عمر وعبد اللَّه ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهم.

وروىٰ الطبراني وابن حبان في صحيحه عن عائشة قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من كان وصله لأخيه المسلم إلىٰ ذي سلطان في مبلغ بر أو تيسير عسير أعانه اللَّه علىٰ إجازة الصراط المستقيم يوم القيامة عند دحض الأقدام»**(٣)، وفي رواية للطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «**رفعه اللَّه في الدرجات العلا من الجنة»**(٤).

وروي ـ أيضًا ـ عن الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «**إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور علىٰ أخيك المسلم»**(٥)، ورواه عن عمر مرفوعًا بلفظ: «**أفضل الأعمال إدخال السرور علىٰ المؤمن»**(٦)، ورواه بنحو ذلك ـ أيضًا ـ عن ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم، كما أثبتها المنذري في «الترغيب والترهيب».

ثالثها: نكتة اختيار لفظة «النصيب» في الحسنة و«الكفل» في السيئة هي ما أشرنا إليه سابقًا من أن أكثر استعمال النصيب في الخير لا في الشر، بخلاف الكفل فإنه يستعمل في الجميع وهو مأخوذ من كفل البعير الذي يفرش بين ظهره وبين ما يجدع عليه من القتب للحمل والركوب، حتىٰ لا يتأذىٰ به إذا كان مباشرًا لظهره، فاستعير

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).
(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٧٥٢٩).
(٣) رواه ابن حِبَّان (٥٣٠).
(٤) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٣٧٧).
(٥) رواه الطبراني في «الكبير» (٣/ ٨٥).
(٦) رواه الطبراني في «الكبير» (١٣/ ٤٣٥).

لمعنىٰ النصيب دون التعبير بالنصيب؛ لأنه ليس ذخيرة خير، وإنما هو للشر خصوصًا هنا فهو كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، فإن البشارة ليست علىٰ معناها الحقيقي، وأحسن ما قيل في التفريق بينهما أن النصيب تلحقه الزيادة في مضاعفة الحسنات، وأما الكفل فأصله المركب الصعب، ثم استعير للمثل المساوي، فلهذا حصل التعبير من اللَّه به إشارة إلىٰ لطفه بعباده إذ لم يضاعف السيئات كالحسنات، وأيضًا فإن التعبير بالكفل بعد النصيب يعتبر في البلاغة من نوع التطرية والهرب عن التكرار.

رابعها: زعم بعضهم قصر معنىٰ الشفاعة علىٰ الدعاء ونحوه، مما فيه نفع المسلمين، وأجاب المحققون من العلماء بأن أعظم نفع للمؤمنين هو ما كان شفعًا في نصرتهم وشد أزرهم ومعونتهم علىٰ عدوهم معونة ينقمع بها عن طمعه بهم وإيذائه لهم، فهذا من أحسن الشفاعات كما أن من أسوئها ضد ذلك من مناصرة الكفار، أو خذلان المؤمنين وتركهم موتورين لا يشفع لهم وينصرهم.

وقالوا - أيضًا -: هذه الشفاعة لابد من أن يكون لها تعلق بالجهاد، وإلا صارت الآية منقطعة عما قبلها، وذلك التعلق لا ينفي عمومها في باقي الأنواع، بل هي عامة في الجميع، وإخراج الشفاعة عن مدلولها الأكبر ومنفعتها العظمىٰ يسلبها أكبر مدلولها وأشرف منافعها، ويجعل الآية أجنبية عما قبلها، وفاصلة لآيات الجهاد فصلًا لا يليق بالنظم القرآني واتساقه، فتدبر أيها القارئ.

وقول سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾، المقيت: له معنيان علىٰ المشهور.

أحدهما: أنه القادر المقتدر علىٰ كل شيء، وهذا تفسير المقيت بلغة قريش التي ينبغي تفضيلها عند التأويل علىٰ غيرها، قال الزبير ابن عبد المطلب أحد أعمام النبي ﷺ:

وذي ضِغنٍ كففتُ النفسَ عنه   وكنتُ علىٰ إساءته مُقيتًا

والثاني: أنه الحفيظ.

قال القفال: وأي المعنيين كان فالتأويل صحيح، وهو أنه تعالىٰ قادر علىٰ إيصال النصيب والكفل من الجزاء للشافع، مثل ما يوصله إلىٰ المشفوع فيه إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فلا ينقص من جزاء المشفوع شيئًا.

و علىٰ الوجه الثاني أنه سبحانه حافظ الأشياء شاهد عليها، لا يخفىٰ عليه شيء من أحوالنا، فهو عالم ببواعث الشفاعة من خير وشر، يجازي علىٰ ذلك، وختم اللَّه ـ سبحانه ـ لآية الشفاعة بِهذه الصفة العظيمة فيه إنذار وتهديد للشافعين أن يتقوا اللَّه، ويراقبوه علىٰ شفاعتهم فلا يشفعوا وتر الكافرين ولا ما فيه أي ضرر علىٰ المسلمين المؤمنين ولا شفاعة عائقة لحدود اللَّه، أو فيها عون للظالمين المفسدين، كالذين يشجعون التبرج والاختلاط، وإشاعة المراقص والملاهي وغير ذلك من الإغراء علىٰ الفواحش وهتك حرمات اللَّه، مما هو من أقبح أنواع الشفاعة السيئة، فإن اللَّه مطلع علىٰ ضمائرهم ومقاصدهم من كل شفعة فليحذروه، ولهذا أعقب ذلك.

📖 **بقوله في الآية (٨٦)**: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾:

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٨٧)**: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾:

هذا أمر من اللَّه للمسلمين أن يتبادلوا التحيات فيما بينهم، وأن يردوا علىٰ من حياهم بمثل تحيته علىٰ الأقل، وإلا فالمشروع أن يزيدوا علىٰ تحيته بما يطيب نفسه ويثلج صدره، وفي هذه الآية الكريمة تربية إلهية للمسلمين علىٰ توثيق علاقات المودة والقربىٰ بين أفرادهم

لاستجلاب المودة وتعميمها بإفشاء السلام، والرد علىٰ بادئه بأحسن منه، وهذا من خير الوسائل لذلك، وقد صح عنه ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: **«لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا، ألا أدلكم علىٰ شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**(١).

وروىٰ البخاري في باب «حق إباحة الوليمة والدعوة» حديثًا برقم (٦٦٢) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع، أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإبرار المقسم، ونصر المظلوم، وإفشاء السلام، وإجابة الداعي، ونَهَىٰ عن خواتيم الذهب، وعن آنية الفضة، وعن المياثر النفيسة، والإستبرق، والديباج.

وأخرج الترمذي في كتاب القيامة عن محمد بن بشار عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه وقيل: قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: **«أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»**(٢) حديث صحيح.

وقال الراغب: أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها، ثم استعملت في كل دعاء، وكانت العرب إذا لقي بعضهم بعضًا يقول: حياك الله، ثم استعملها الشرع في السلام، وهي تحية الإسلام قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠]، وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

قالوا: في السلام مزية علىٰ «حياك الله»، كما أنه دعاء بالسلامة عن الآفات الدينية والدنيوية، وهي مستلزمة لطول الحياة، وليس في الدعاء بطول الحياة ذلك، ولأن السلام من أسماء الله الحسنىٰ، فالبداءة

---

(١) رواه مسلم (٥٤).

(٢) رواه التِّرمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤).

بذكره مما لا ريب في فضله ومزيته، وخصوصًا بِهذا الاسم العظيم الدال علىٰ أنه سبحانه يريد إبقاء السلامة علىٰ عباده. وروي عن عمر وابن عباس وغيرهما أن غاية السلام إلىٰ البركة.

وعموم الآية يدل علىٰ وجوب رد السلام لكل بادئ بالتحية من مسلم وكافر، فأما المسلم فيحيا بأحسن من تحيته، وأما الكافر فيقال له: «عليكم» لاحتمال غشه بالسلام، كما أرشد النبي إلىٰ ذلك لما فهم غش اليهود، ولكن صحت الأحاديث بالمنع عن تحية الكفار، فعلىٰ هذا يكون معنىٰ الآية: وإذا حياكم المسلمون بتحية فحيوهم بأحسن منها ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ أي ردوا عليهم مثل تحيتهم.

✍ **ثم إن هاهنا فوائد:**

أحدها: أن اللَّه سبحانه اختار للمسلمين تحية منه مباركة طيبة، وجعلها لهم سمة منفردة يمتازون بها عمن عداهم، فميزتهم بِهذه التحية كسائر المميزات الاستقلالية التي ينفردون بها، ولا يشاركون غيرهم في تقاليدهم، ولا يتشبهون بهم، بل يخالفونهم، كما لا يلتقون معهم في أي ميدان، فقد قال ﷺ: «**ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[(١)]، وقد تكلمت علىٰ هذه الميزة عند الكلام علىٰ الحكمة من تحويل القبلة، ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام طويل مسهب في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» مخالفة أصحاب الجحيم، أوضح عند مشابَهتهم وتقليدهم للكفار في أعيادهم وسننهم الجاهلية التي تفاقم شرها في هذا الزمان، كعيد الأم والأعياد الوطنية الأخرىٰ التي أولع العصريون بتقليدهم فيها بحجج واهية لا وزن لها ولا قيمة.

ثانيها: تدل هذه الآية علىٰ وجوب رد السلام بحيث يأثم التارك له، وقد ورد الوعيد الشديد بِهجر المسلم فوق ثلاثة أيام، وأنه إن مات بعد ذلك مصرًّا علىٰ هجره دخل النار، وإن عاش يكون محرومًا من

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٣١).

مواسم الغفران، كما صحت الأحاديث بذلك.

ثالثها: أن تحية اليهود والنصارىٰ بعضهم لبعض إشارة بالأيدي أو الأصابع، وتحية المجوس الانحناء، وتحية العرب قول بعضهم لبعض: «حياك اللَّه»، ولملوكهم «أنعم صباحًا»، فجعل اللَّه تحية المسلمين «السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته» ولا شك أنها أشرف التحيات وأكرمها لما اشتملت عليه من المعاني الجميلة الجليلة القدر، منها أن السلام مشعر بالسلامة من الآفات والبليات، ومن المعلوم أن السعي في تحصيل الصون عن الضرر أولىٰ من السعي في تحصيل النفع، وأيضًا فإن الوعد بالنفع قد يقدر الإنسان علىٰ الوفاء به وقد لا يقدر، وأما الوعد بترك الضرر، فإنه قادر عليه في كل الأحوال، والسلام يدل عليه، فيثبت أنه من أفضل أنواع التحية.

رابعها: أن من الدلائل القرآنية علىٰ فضل السلام ومميزاته أن أشد الأوقات حاجة إلىٰ السلامة والكرامة ثلاثة أوقات:

١ ـ وقت الابتداء.

٢ ـ وقت الموت.

٣ ـ وقت البعث.

اللَّه سبحانه لما أكرم يحيىٰ وعيسىٰ عليهما السلام حيث وعدهما بالسلام في هذه الأوقات الثلاثة، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم]، وكذلك عيسىٰ أنطقه بهذا فقال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم].

خامسها: أن اللَّه سلم علىٰ المؤمن في اثني عشر موضعًا:

الأول: أنه ﷻ كأنه سلم عليك في الأزل؛ لأنه قال في وصف ذاته ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣].

والثاني: أنه سلم علىٰ نوح وجعل لكل مؤمن نصيبًا من ذلك السلام، حيث قال: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾

[هود: ٤٨] والمراد أمة محمد ﷺ.

والثالث: تسليمه سبحانه وتعالى على المؤمنين على لسان جبريل والملائكة بقوله جل جلاله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ [القدر] قال المفسرون: أنه ﷺ خاف على أمته أن يكونوا مثل أمة موسى وعيسى فقال اللَّه له: لا تَهتم لذلك، فإني وإن أخرجتك من الدنيا، فإني جاعل جبريل ينزل كل ليلة قدر مع جمع من الملائكة يبلغونهم السلام مني.

الرابع: أن اللَّه سلم على كل مؤمن على لسان نبيه موسى بقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه: ٤٣] فكل متبع لهداية اللَّه له نصيب من هذا السلام.

الخامس: أنه سبحانه سلم على جميع المؤمنين بواسطة خاتم النبيين ﷺ بقوله: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩] فكل من حقق عبادة اللَّه على هدى من اللَّه فقد استحق هذا السلام الكريم من اللَّه سبحانه.

السادس: أمره لمحمد ﷺ أن يسلم على المؤمنين شفاهيًّا من ذاته الكريمة حيث قال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنعام].

السابع: أمره للمؤمنين في هذه الآية التي نحن بصددها بالسلام ورده ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ ﴾.

الثامن: تسليمه سبحانه على المؤمنين عند الموت بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل].

قال بعض المفسرين فيما رواه من الآثار: «إن ملك الموت يقول في أذن المسلم المؤمن: إن اللَّه الذي هو السلام يقرئك السلام ويقول: إني مشتاق إليك فأجبني»، فذلك معنى قوله ﷺ: «**إن المؤمن يحب**

لقاء اللَّه فيحب اللَّه لقاءه»[1]، وذلك لما يرىٰ عند الموت من بشائر السعادة، وعلىٰ العكس الكافر نعوذ باللَّهِ من الكفر وأهله.

قالوا: وكذلك الجنات وحورها العين تشتاق إلىٰ المؤمن، فينقل اللَّه اشتياقها إليه عند الاحتضار، نسأل اللَّه من فضله.

التاسع: السلام الحاصل للمؤمنين من الأرواح الطاهرة المطهرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة].

العاشر: تسليم اللَّه علىٰ المؤمنين بواسطة «رضوان» خازن الجنة بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

الحادي عشر: تسليم الملائكة علىٰ المؤمنين بإذن ربهم حينما يزورونهم بعد دخولهم الجنة حيث قال سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

الثاني عشر: السلام من اللَّه سبحانه علىٰ المؤمنين بلا واسطة كما نص علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]، وبقوله سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس]، وعند ذلك يتلاشىٰ كل سلام بالنسبة إلىٰ سلام رب العالمين التلقائي؛ لأن المخلوق لا يبقىٰ علىٰ تجلي نور الخالق.

سادس الفوائد: ورد عن النبي ﷺ الأمر بأن يسلم الراكب علىٰ الماشي، وراكب الفرس علىٰ راكب الحمار، وأن يسلم الصغير علىٰ الكبير، والأقل علىٰ الأكثر، والقائم علىٰ القاعد، وقد عللوا مندوبية السلام للراكب علىٰ الماشي بعلتين:

إحداهما: أن الراكب أكثر هيبة، فبداءته بالسلام علىٰ الماشي يزيل الخوف.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣).

ثانيتها: أن الركوب يكون فعله مظنة الكبر علىٰ المشاة، ففي البداءة بالسلام كسر لذلك التكبر، وأما بداءة الأقل بالسلام علىٰ الأكثر فللأدب والاحترام وكسب المودة وتحصيل الثقة، وأما سلام القائم علىٰ القاعد؛ فلأنه قادم وواصل إليه فلابد من افتتاح قدومه أو وصوله بالخير، هذا وإن ما ذكرناه في الفائدة الخامسة من فوائد الإيمان ومكاسب المؤمنين عند اللَّه حيث يحظون منه بالتسليمات المتكررة، وهي حظوظ لهم من ربهم لا تعدلها الدنيا ثمنًا، فينبغي لكل مسلم أن يحرص علىٰ الاستقامة علىٰ الإيمان بالتزام الإخلاص للَّه، ومتابعة رسوله ﷺ ومواصلة جهاده لنفسه حتىٰ لا يتردىٰ في مهاوي الشهوات والمطامع المحرمة، فيخسر هذه الحظوظ التي لا يقدر علىٰ تعويضها بشيء أبدًا، فهي التي يجب أن يتنافس فيها المتنافسون.

سابعها: في نكتة ارتباط هذه الآية مع آيات الجهاد والقتال في نظم القرآن قال بعضهم: إنه التمهيد لمنع المؤمنين من قتل من ألقىٰ إليهم السلام في الحرب كما سيأتي في تفسير الآية (٩٤)، بحول اللَّه وقوته، فالسلام نوع من الإكرام، والكريم يقابل بمثل إكرامه أو أزيد، وأجاب الرازي عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن اللَّه لما أمر المؤمنين بالجهاد أمرهم ـ أيضًا ـ بأن الأعداء لو رضوا المسالمة فكونوا أنتم راضين بها، فشبه آية التحية بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

ثانيهما: أن الرجل في الجهاد كان يلقاه الرجل في دار الحرب أو ما يقاربها فيسلم عليه فقد لا يلتفت إلىٰ سلامه عليه ويقتله، وربما ظهر أنه كان مسلمًا، فمنع اللَّه المؤمنين عنه، وأمرهم أن كل من يسلم عليهم ويكرمهم بنوع من الإكرام يقابلونه بمثل ذلك الإكرام أو أزيد، فإنه إن كان كافرًا لا يضر المسلم إن قابل إكرام ذلك الكافر بنوع من الإكرام، أما إن كان مسلمًا وقتله ففيه أعظم المضار والمفاسد، وهذا يدل علىٰ شدة الاعتناء بحفظ الدماء والمنع من

إهدارها. اهـ بتصرف.

ثامنها: في فضل السلام: روىٰ الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والدارمي عن عمران بن الحصين ﷺ قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: السلام عليكم ثم جلس، فقال النبي ﷺ: «**عشر**»، ثم جاء رجل آخر فقال: السلام عليكم ورحمة اللَّه، فرد عليه فجلس، فقال: «**عشرون**»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته، فرد عليه فجلس فقال: «**ثلاثون**»[1]. قال الترمذي: حديث حسن وفي الباب عدة أحاديث هذا أصحها اسنادًا، وقد اشتهرت الأحاديث عنه ﷺ أن: «**من قال: السلام عليكم كتب اللَّه له عشر حسنات، ومن قال: السلام عليكم ورحمة اللَّه، كتب اللَّه له عشرين حسنة، ومن قال: السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته كتب اللَّه له ثلاثين**»[2].

تاسعها: الجمهور علىٰ أن البدء بالسلام سنة ورده واجب، وعند بعضهم أن البدء واجب كالرد، وبعضهم أوجبه في بعض الحالات دون بعض، وفصلوا أحكام الرد إلىٰ ثمانية، وكل هذا مبسوط في كتب الفقه فلا نطيل بذكره. والبدء بالسلام من المندوبات التي هي أفضل من الفرض كإبراء المعسر الذي هو نافلة وهو أفضل الإمهال الذي هو واجب.

عاشرها: يجوز تعريف السلام وتنكيره في البدء علىٰ حد سواء، وأما سلام الوداع فتعريفه أفضل، واختلفوا في الأفضل فرجحوا التنكير في الابتداء لوروده في أكثر النصوص كذلك، ولأن التعريف يدل علىٰ أصل الماهية، التنكير يدل علىٰ أصلها مع وصف الكمال فكان أولىٰ، هذا وأحسن المراجع لمباحث السلام ومستحباته وممنوعاته وأحكامه زيادة علىٰ كتب الفقهاء كتاب «الآداب الشرعية»، و«غذاء الألباب في شرح

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والتِّرمذي (٢٦٨٩).

(٢) انظر السابق.

منظومة الآداب» للشيخ السفاريني فليرجع إليهما طالب المزيد.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي كافيًا لمحاسبتكم علىٰ أعمالكم حسب مقاصدكم فيها، وأنه لا يفوت عليه شيء فاحذروا من الإخلال بأوامره، أو مخالفة تشريعاته، ففي هذا الختام وعيد من اللَّه للمخالفين في أحكام السلام وغيره من سائر الأحكام بأنه حسيب عليهم وكفىٰ باللَّه حسيبًا.

و اعلم أنه يجب علىٰ من دخل بيت غيره أن يسلم عليه ليبشره بالسلامة ويؤمنه من الخوف، ويظهر شعار الإسلام، فإن إزالة الضرر عن المسلم واجبة، وعدم السلام فيه إخافة وإضرار، وأما سلامه إذا دخل بيتًا خاليًا فإنه أولًا يسلم علىٰ نفسه كما قال اللَّه: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

وثانيًا: أنه يسلم علىٰ من فيه من مؤمني الجن.

وثالثًا: أنه يطلب السلامة ببركة السلام ممن فيه من الشيطان والمؤذيات واللَّه أعلم.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٨٧): ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾:**

هذا مبالغة منه ﷻ في تأكيد ذلك الوعيد المتكرر في الآيتين السابقتين، وذلك لأن التوحيد والإيمان بالحشر متلازمان، وهما الركنان الأعظمان للإسلام، والقاعدتان الأساسيتان لعقيدة أهله، وهما من أكبر البواعث علىٰ فعل الأعمال الصالحة والتنافس فيها ابتغاء لمرضاة اللَّه والفوز بوعده، والنجاة من وعيده.

فالأعمال الصالحة والتزام طاعة اللَّه ورسوله هما نتاج تلك البذرتين، بذرة الإيمان باللَّه وحده واليوم الآخر، ولذا عنيت النصوص بكثرة تركيزها في القلوب لعظم نفعها وقوة تأثيرها، فإنهما النواة الوحيدة

للإيمان بالغيب الجالب لتقوىٰ اللَّه بجميع معانيها، وخصوصًا في الجهاد الذي يبذل المؤمنون أنفسهم وأموالهم في تحقيقه رغبة بما عند اللَّه من ثمنها الغالي الذي لا تعدل الدنيا أصغر شيء من أجزائه كما قال ﷺ: «**لَمناديلُ سعدٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها**»[1].

وفي بداية هذه الآية بالتوحيد بيان حتمي علىٰ أن انفراد اللَّه بالألوهية سبب لبعث الناس ومجازاتهم علىٰ أعمالهم، إقامة منه للعدل في خلقه، وإظهارًا لحقيقة ذاته أنه الإله الواحد القهار، له الملك وله الحمد في الأولىٰ والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون، فلا منازع له، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، أو مؤخر لوعده. ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي لا أحد أصدق من اللَّه ولا أولىٰ بعهد من اللَّه، فقوله حق وصدق ووعده كذلك؛ لأنه ليس بحاجة إلىٰ المداهنة والمواربة التي يسلكها البشر، فيختلط صدقهم وكذبهم، ويتعمدون الكذب لمصلحتهم، أما اللَّه العظيم الشأن فليس له مصلحة ولا نفع من طاعة الطائعين ومثوبته إياهم، وليس عليه ضرر أو نقص من معصية المخالفين، فلا يتشفىٰ بعقوبتهم كما يتشفىٰ ولاة الأمور في الدنيا من خصومهم ومخالفيهم، فلذا لم تكن له ملابسات تصرفه عن الصدق، فلا أحد أصدق منه أبدًا، ولا أحد أعظم جريمة ممن يكذب بشيء من آياته وكلماته.

وأن جميع ما يجريه اللَّه من التكاليف والثواب والعقاب عليها في الدنيا والآخرة إنما هو لظهور آثار أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا، واتضاح خضوع الخلائق لحكمه وتقديره في الدنيا والآخرة، فينبغي الاستقامة علىٰ الإيمان به وتعظيم حرماته، وتصديق كلماته التي لا مبدل لها والتي هي صدق في الأخبار وعدل في الأحكام. وهذه الآية الكريمة من جملة الآيات الموجبة علىٰ عباد اللَّه المؤمنين أن تكون

---

(١) رواه البخاري (٢٦١٥)، ومسلم (٢٤٦٩).

سياستهم الداخلية والخارجية في السلم والحرب ومستلزماتهما منبثقة من وحي اللَّه، ونابعة من توحيده والإخلاص له والصدق معه، وأن تكون منسجمة مع مراده الديني الشرعي الذي لا يقبل ولا يرضىٰ سواه أبدًا، لا أن تكون منبعثة من أهوائهم وشهواتهم وأغراضهم النفسية، فإنهم يكونون بعيدين عن تحقيق العدل والسعادة حين لا تكون تصرفاتهم وفق سياسة القرآن في ارتباطهم باللَّه في الحب والبغض، والموالاة والمعاداة، والسلام والحرب، والهدنة والصلح، وسائر المعاملات والاتجاهات فيما بينهم وبين الآخرين، واللَّه أعلم.

ثم إن هاهنا فوائد:

أحدها: قيل: كيف جاء نظم القرآن بلفظ: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ولم يقل: في يوم القيامة؟ والجواب من وجهين:

أحدهما: ليجمعنكم في الموت أو القبور إلىٰ يوم القيامة.

ثانيهما: أن التقدير: ليضمنكم إلىٰ ذلك اليوم، ويجمع بينكم وبينه بأن يجمعكم فيه.

ثانيها: في تسمية يوم البعث والنشور بيوم القيامة قيل: لأن الناس يقومون فيه من قبورهم، أو لأن الناس يقومون للحساب، قال اللَّه سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين]، قال الزمخشري: القيام والقيامة كالطلاب والطلابة.

ثالثها: زعم بعضهم أن إثبات يوم القيامة بالأخبار السمعية المجردة، وعللوا ذلك بأن المسائل الأصولية علىٰ نوعين: نوع يحتاج في معرفته إلىٰ معرفة صحة النبوات، كإثبات وجود اللَّه ووحدانيته، ونوع لا يتوقف علىٰ معرفة صحة النبوات، فهذا يكفي فيه مجرد الاختبار، ولكن الحقيقة الواضحة أن ركائز الإيمان بالغيب قائمة علىٰ الإيمان باللَّه واليوم الآخر، وأن الفاقد لهذه الحاسة الدينية لا يهتدي إلىٰ الخير والفلاح بحواسه الأخرىٰ من سمع وبصر وفؤاد، ولا يسلم المجتمع من شروره لانعدام

التقوىٰ في ضميره كما أسلفنا ذلك مفصلًا في أول سورة البقرة وغيرها.

ولهذا نجد أكثر ما في القرآن تركيز عقيدة التوحيد والإيمان بالبعث، ولم يجعل اللَّه الأخبار فيه أخبارًا مجردة، بل جعلها مركزة علىٰ الكائنات الحسية والأمثلة العقلية المخرسة للملاحدة.

فدلائل القرآن علىٰ ذلك من أقوىٰ الدلائل التىٰ لا ينكرها إلا المغالطون المعاندون، فإن اللَّه يدلل علىٰ إمكان البعث وسهولته عليه بآياته الكونية العظيمة، وإبداعه لجميع المخلوقات كما قال بعد ذكر الآيات الكونية (٢٠ـ ٢٧) من سورة الروم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم]، وقال في الآية الخامسة من سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج]، والآية (٦): ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج]، والآية (٧): ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج].

وقال في الآية الثالثة والرابعة من سورة (ق) عن الكفار بقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق]، ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾ [ق]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق]، إلىٰ أن قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ [ق]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق]، ثم يقول: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق]، وهذا استفهام إنكاري، أي لم يعترنا عجز ولا تعب بالخلق الأول وهذا لقوله في آخر سورة الأحقاف: ﴿أَوَلَمْ

يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف].

وقد أسلفنا الكلام على قول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، في سورة البقرة ولله الحمد والمنة.

وقال في الآية (٤٥) من سورة يونس: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ﴾ [يونس]، وقال في الآيات من سورة الأعراف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾، وقال في الآيات (٣٨ ـ ٤٠) من سورة النحل: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

وقال في الآيات (٤٩ ـ ٥٢) من سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُل كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾، وقال عن أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١].

وقد تحدى الله الكفار بأول عدل الآخرة وهو الموت مستدلًا به على ما بعده في عدة سور، منها قوله في سورة الواقعة: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة].

فهذا التحدي منه سبحانه للمنكرين بشيء محسوس يشاهدونه في أنفسهم ومجاوريهم، وهو نزول الموت الذي لا يترك صغيرًا ولا كبيرًا، ولا غنيًّا ولا فقيرًا، ولا عظيمًا ولا حقيرًا، وإذا نزل بأحد أذهل من حوله وعجز عنه طبهم ووسائلهم، شيء لا يجد الأطباء فيه سبيلًا، ولا يدفعه مال ولا سلطان مهما كان، فلو أتوا بغاية ما يقدرون علىٰ إرجاع الروح عن الحلقوم لم يتمكنوا من ذلك بأي محاولة، بل تتلاشىٰ معلوماتهم، ويفسد مفعول طبهم مهما تطور فيسقط في أيديهم، ولا يبقىٰ عندهم حيلة سوىٰ العمل علىٰ مفارقة الجثة التي طالما كانت عزيزة أو معظمة، فلا يجدون لها سوىٰ دسِّها في التراب وإعادتها إلىٰ الأرض التي جعلها اللَّه كفاتًا للبشر، يعيشون عليها زاعمين، ويدفنون بها راغمين لسنة اللَّه التي لا مبدل لها فيهم.

هذا التحدي الإلهي يرغم أنوف الجاحدين والمعاندين. وقد جعل اللَّه في الأحياء سنة شبيهة بذلك فقال في الآية (٤٢) من سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر]، وقال في الآية (٦٠ ـ ٦٢) من سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام].

وقال في الآية (٩٧ ـ ٩٩) من سورة الإسراء: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء] والآيات كثيرة، فيها الاستدلالات العقلية القاطعة الرادعة، فليست مجردة كما زعموا واللَّه أعلم.

وقوله سبحانه في الآية (٨٨): ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾:

هذا الخطاب موجه من اللَّه لجميع المؤمنين وإن كان التوبيخ الذي يتضمنه لبعضهم، ولكن لطف اللَّه وحكمته يقضيان بتوجيه الخطاب إلىٰ العموم سترًا علىٰ المخطئين في التأويل، وهذا الاستفهام إنكاري يحمل الإنكار علىٰ عدم إجماعهم في مقاطعة أعداء الإسلام بما يستحقونه من حمل الضغينة علىٰ المسلمين، وتذبذبهم في موقفهم منهم، ليلعبوا علىٰ الحبلين، مستغلين ميوعة العواطف، واللَّه يوجب عليهم أن يتخذوا موقفًا صارمًا إجماعيًّا من أعدائهم، لا أن تلعب بهم العواطف فيتفرقوا في شأنهم.

ولهذا قال سبحانه: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ يعنىٰ: أي شيء كائن لكم في شأنهم وأمرهم جعلكم تفترقون في الحكم عليهم؛ ومعاملتهم بما يستحقونه؟ وكيف لم تتفقوا علىٰ التبرؤ منهم كما اتفقوا ضدكم، فإنهم متفقون في المقاصد السيئة والأغراض الدنيئة ضدكم، فيجب عليكم أن تجتمعوا وتتفقوا في الحكم عليهم، وأن لا يختلف رأيكم فيهم أبدًا، ﴿وَاللَّهُ﴾ قد ﴿أَرْكَسَهُم﴾ أرجعهم إلىٰ الكفر، ونكسهم في الضلالة ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من سوء المقاصد الناشئة عن مرض القلوب ومن سيئ الأعمال المصممين عليها ضدكم لنفع الكفار، وذلك لعدم ثقتهم باللَّه وعدم طمأنينتهم إلىٰ عباده.

فهل أنتم في تميعكم هذا: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾؟ أي تعدوهم من جملة المهتدين، فإن هذا من المحال الذي لا يجوز صدوره من عباد اللَّه؛ لأن سنة اللَّه قضت بإمداد الضال في ضلاله، وإركاس المتنكبين عن هدايته لزيغ قلوبهم حتىٰ تصبح منكوسة لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا، والإركاس في اللغة هو: الإرجاع، فالمقصود

به هنا الإرجاع إلىٰ الكفر والضلالة، وتنكيس أمر الكاذبين في زعمهم الإيمان بأفواههم، واللَّه يعلم ما في قلوبهم.

قال أبو السعود: تجريد للخطاب وتخصيص له بالقائلين بإيمانهم من الفئتين، وتوبيخ لهم علىٰ زعمهم ذلك، وإشعار بأنه يؤدي إلىٰ محاولة المحال الذي هو هداية من أضله اللَّه تعالىٰ؛ وذلك لأن الحكم بإيمانهم وادعاء اهتدائهم وهم بمعزل عن ذلك سعي في هدايتهم وإرادة لها علىٰ خلاف ما قضاه اللَّه عليهم، ووضع الموصول موضع ضمير المنافقين لتشديد الإنكار وتأكيد استحالة الهداية، بما ذكر في حيز الصلة وتوجيه الأفكار إلىٰ الإرادة لا إلىٰ متعلقها بأن يقال: «أتَهدون من أضل اللَّه» للمبالغة في إنكاره، بيان أنه لا يمكن إرادته فضلًا عن إمكان نفسه.

ثم قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، يعني أن من أضله اللَّه عن الدين فلا يمكن هدايته من غيره، ولن يجد أحد طريقًا إلىٰ هدايته بأي وسيلة، وذلك أن اللَّه ـ سبحانه ـ قضىٰ بسنته أنه يهدي المنيب إليه، القابل لوحيه، المصدق بوعده من كل مؤمن به غير مرتاب في ذاته أو صفاته؛ لأن إيمانه الثابت باللَّه يجعله كافرًا بالطواغيت والدجاجلة، ويوقن أنهم لن يغنوا من اللَّه شيئًا، وأن اللَّه سيزهق باطلهم ويقمع أتباعهم، وينصر دينه وأولياءه لقوة إيمانهم بما جاء من اللَّه علىٰ لسان رسوله، وهذا يزيده اللَّه هداية ونور بصيرة كما قضىٰ بسنته أنه لا يهدي الشارد عن سبيله، والذي يزداد بالنعمة كفرًا ونفورًا، ويقابل آياته بالسخرية ويطمئن إلىٰ أقوال الطواغيت والدجاجلة من شياطين الإنس فهذا يركسه اللَّه مع إخوانه من عبدة الطاغوت، فالمنافق الذي يظهر خلاف ما يبطن يركسه اللَّه في أحكام الكفر من الذل والصغار والقتل والسبي بما كسب من سوء المقاصد وخبث الأعمال؛ من أشدها التربص بالمؤمنين، ومن يضله اللَّه عن الإيمان امتنع أن يجد المخلوق إلىٰ هدايته سبيلًا.

وهاهنا فوائد:

إحـداها: أن هـذا الإركـاس في الـضلالة الـذي أسـنده اللَّه إلـيهم، وجعـل سببه مـا كسبوه مـن إضـمار الكفـر والاطمئنان إليه مـع إظهـار الإسلام خداعًا؛ هـو كسب لهـم يؤاخذون عليه في الدنيا والآخرة؛ لأن اللَّه جعـل لهـم الاختيار كغيـرهم مـن البـشر بمـا خلـق لهـم مـن القـدرة علىٰ ما يـريدون والإرادة لمـا يختارون، وأمدهم بالجـوارح والأحاسيس والـتقوىٰ، وأوضـح لهـم طـريق الرشـد مـن الغـي، فهـم الـذين أفـسدوا فطـرتهم باختيـارهم الأهـواء والـشرور حتـىٰ أحاط بهم كفـرهم وخطيئاتهم لإيغـالهم في الـضلالة وابـتعادهم عن الحق، حتـىٰ لم يخطر ببالهـم ولم يجُلْ حتىٰ بأذهـانهم إلا الثبـات علىٰ ذلك، فلـم يفكـروا بالـرجوع عنه إلىٰ تحقيق التوحيد بصدق وإخلاص، فلهذا أصبحوا المتحملين لأوزار ذلك في الدنيا والآخـرة؛ لأنهم السبب في خذلان اللَّه لهـم بِهذا الإركـاس، فـافهم بمـا أوضحته معنىٰ قوله سبحانه: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ لتسلم من جميع همـزات الـشياطين الجبـرية والقدريـة، ولا تخفَـين علـيك سـنة اللَّه في تأثيـر الأعمـال الاختيـارية عـن نفـوس أهلهـا، وإلـيك مـن القـرآن بعـض الشواهد للاختصار.

قـال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ [يونس]. فإن خروجهم عن طاعة اللَّه هو السبب في حرمان اللَّه لهم من الإيمـان، وقـال: ﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، أي استحقوا العمايـة الدائمـة عـن الهدايـة لمجـاوزتهم الحـد الـذي حـده اللَّه لهـم، وقـال: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، وقـال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسًا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨﴾ [محمد]، أي: أنهم اسـتحقوا التعاسـة والـضلال السرمدي بسبب كفرهم، والتعس هو الـذل و الخذلان والخزي والانحطاط والخـسران والـسقوط، وقـال تعالـىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] أي الذين لا يعقلون الوحي فيعملون به.

ثانـيها: ذكر المفسرون عدة أسباب لنزول هذه الآية بأخبار متضاربة

عن المنافقين المقصودين فيها، منها أنهم في مكة ممن تخلف عن الهجرة، وأسلم بعد ارتحال المهاجرين ولم يطمئن قلبه بالإيمان، أو كاتب النبي ﷺ بالإسلام علىٰ غير صدق، ومنها أنهم من المنافقين في المدينة كما رواه البخاري فيمن رجع عن غزوة «أحد»، أو أنهم من أتباع رئيسهم ابن أبي سلول ونحو ذلك، ولكن النص في الآية يخالف الروايات القائلة: إنهم من منافقي المدينة؛ لتحتيم اللَّه قتالهم حتىٰ يهاجروا في الآية بعدها مما يدل علىٰ أن المقصود بهم غير منافقي المدينة.

ويدل علىٰ ذلك ـ أيضًا ـ أن الرسول ﷺ لم يعمل بمقتضاها في هؤلاء وهو قتلهم حيثما وجدوا إن رفضوا الهجرة، وذلك من أقوىٰ الدلائل علىٰ أنهم غير منافقي المدينة.

العجب أننا ألفنا من بعض المفسرين أنهم يجمعون بين الروايات في مثل هذا بتعدد الوقائع ونزول الآية عقبها، ولا يمنعهم من هذا أن يكون بينها تباعد وزمن طويل، وأقرب من ذلك أن يحملها كل واحد علىٰ واقعةٍ يرىٰ أنها تنطبق عليها من باب التفسير لا التاريخ، ولكن من الروايات ما يكون نصًّا أو ظاهرًا في التاريخ وتعيين الواقعة، إلا أن تكون الرواية منقولة بالمعنىٰ كما هو الغالب، وحينئذ تكون الرواية في سبب النزول ليس أكثر من فهم للمروي عنه في الآية، ورأي في تفسيرها يخطئ فيه أو يصيب، ولا يلزم أحدًا أن يتبعه فيه، بل لمن ظهر له خطأه أن يرده عليه، ولا سيما إذا كان ما يتبادر من معنىٰ الآيات يأباه كمعنىٰ هذه الآية الذي يأبىٰ كثيرًا مما جعلوه سببًا لنزولها.

ثالثها: توجب هذه الآية علىٰ جميع المسلمين أن يتخذوا من عدوهم الكافر موقفًا موحدًا، لا يختلفون فيه فيما بينهم فلا يكون فيهم فريق منحاز إلىٰ الكفار أو مسالم لهم علىٰ حساب عقيدته أو إخوانه المسلمين، ولا يكون محسنًا ظنه بهم وهم مخالفون للإسلام أو محاربون لبعض أهله، سواء كان العدو الكافر كفره أصليًّا أو مرتدًّا عن الإسلام باعتناقه

ما يخالف ملة إبراهيم من المبادئ العصبية أو المادية التي هي من أوضاع الماسونية اليهودية، أو بارتكابه ما هو ردة عن الإسلام، كالنواقض المشهورة وغيرها.

وسواء كان العدو الكافر معلنًا كفره وشاهرًا طريقته، أو كان منافقًا يتظاهر بالإيمان باللَّه خداعًا للمسلمين وهو سائر ضد أحكام الإسلام ومناقض في منهجه للتعاليم النبوية، فإن هذا أشد ضررًا علىٰ الإسلام والمسلمين من الكافر المصرح بكفره، خصوصًا إذا ظفر بشيء من القيادة الفكرية أو العسكرية أو المدنية، ولم يظفر الأفراد من المنافقين ولن يظفروا بذلك إلَّا بسبب تفرق المسلمين في الحكم عليهم ومنابذتهم والنفرة منهم، والعمل علىٰ إقصائهم.

فإن المسلمين إذا لم يجمعوا أمرهم ضد المنافقين ويتحدوا في معاداتهم والبراءة منهم استفحل أمرهم وصعب ردعهم؛ لأنهم يكسبون من المسلمين من يسندهم عن حسن نية أو ميوعة أو انخداع أو طمع، وغير ذلك مما يرفع شأن المنافقين بين المسلمين حتىٰ يكون لهم الحول والصول، أو يكون لهم قوة أو نفوذ يخدمون به الأعداء فيضربون المسلمين من كل ناحية، كما حصل ذلك فعلًا في القرون الوسطىٰ وقبلها وبعدها حتىٰ الآن، وما سبب ذلك إلا تقصير المسلمين في تدبر وحي اللَّه والعمل به والتساهل في أمور يجب الحزم بها، وقد ضبط اللَّه المنافقين بأوصاف يجب علىٰ المؤمن أن لا يتهاون بها وأن لا تأخذه رأفة في أهلها، ولا يعمل علىٰ تخذيل غيره من المؤمنين عن اتخاذ الخطة الصارمة ضدهم، وأن لا تنطلي عليه الأحابيل فيصطاده المنافقون في الماء العكر.

فإن من أوجب الواجب علىٰ المؤمنين أن يأخذوا حذرهم الكامل من كل من يتشدق بالعمل للمصلحة، ويبث الانتقاد علىٰ المسئولين لإيغار صدور العامة، واللعب علىٰ عقولهم وأن لا يغتروا بزخارف القول،

فإن اللَّه يقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة] إلخ، ويقول ﷺ: «**سيظهر في آخر الزمان رجال حداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية، إيمانهم لا يجاوز حناجرهم، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم إلىٰ يوم القيامة**»[1]. هذا نص مسلم.

وعند النسائي زيادة: «**ولا يزالون يخرجون حتىٰ يكون آخرهم مع الدجال**»[2]، وغير ذلك من النصوص التي هي منطبقة علىٰ العصريين أفراخ الماسونية وتلاميذ الاستعمار تمام الانطباق، لإعجابهم بتقاليد الكفرة الفجرة واستهجانهم لقول اللَّه، فهم أشنع عدو داخلي، وسرطان معنوي يقضي علىٰ عقيدة الناشئة وآدابها الفطرية الإسلامية، وهم معاول هدم وتخريب في المسلمين، وسند وكسب رخيص لأعداء الدين.

وهم من أبرع الناس في الكذب والتزوير، ويخدعون الناس بشتم الاستعمار والصهاينة والشيوعية وهم يعملون لصالح أولئك جميعًا، من تحطيم العقيدة والأخلاق، وإنكار وحي اللَّه، والتهكم به خصوصًا فيما يتعلق بأحكام النساء والخمور وتشريع حدود اللَّه وإقامتها، وسلوك السياسة الإسلامية فيما يتعلق بمعاملة الكفار، فالواجب علىٰ المسلمين أن لا ينخدعوا بأقوالهم، ولا يتعاونوا معهم، بل يجب أن ينظروا إلىٰ أفعالهم، ويعاملوهم معاملة المرتدين ويتحدوا جميعًا ضدهم طاعةً للَّه.

📖 **ثم قال سبحانه في الآية (٨٩):** ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾:

---

(١) رواه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦).
(٢) رواه أحمد (٤/ ٤٢٤).

والآية (٩٠): ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ۝٩٠﴾:

في هذه الآية إيضاح من اللَّه لخبث المنافقين وفساد سرائرهم وسوء مقاصدهم وتخطيط قويم عظيم للمؤمنين من اللَّه؛ لمقابلة خططهم وإحباطها بكل قوة وصرامة، ففيها تعاليم عقائدية تغرس الحذر والحزم في قلوب المؤمنين، وتؤكد لهم خطة عدوهم الأثيمة التي لا يرجىٰ تزحزحه عنها، فلا تشفع عنده سماحة المسلمين ولا تسامحهم، كما لا ينفع تآلف المسلمين لقلوب أعدائهم المنافقين، ولا الاختلاف في شأنهم رجاء إسلامهم؛ لأنهم اختاروا إبطان الكفر للكيد بالمسلمين، والاحتيال بهم بشتىٰ أنواع المكر ليرجعوهم إلىٰ الكفر أو يلحقوا بهم بليغ الأذىٰ خلسة وهم لا يشعرون، وذلك بمساعدتهم للكفار بكل طريقة وتعصبهم لدينهم الباطل المفترىٰ علىٰ اللَّه.

فاللَّه سبحانه، بعدما قرر استبعاد هدايتهم بقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أوضح ذلك للمؤمنين بأن المنافقين الذين يطمعون في نصرهم إياهم علىٰ الكفار، ويرجون هدايتهم بمخالطتهم لهم إنهم ليسوا من الكفار القانعين بكفرهم، والتاركين لغيرهم بل هم الموغلون في الضلالة، الساعون لإضلال غيرهم وما اختاروا النفاق إلَّا لهذا الغرض فهم يودون: ﴿لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾.

وهذا من حسدهم لكم، ورغبتهم في الضلالة؛ لأنهم يستقونها من أهل الكتاب، كما تجري خططهم علىٰ تعاليمهم اليهودية، فإن اليهود حسدوا العرب الإسماعيليين علىٰ الرسالة الخاتمة لرسالات اللَّه، فأخذوا يشجعون الوثنية ويفضلونها علىٰ الإسلام، زاعمين أنها أهدىٰ سبيلًا كما أسلفنا توضيح ذلك في تفسير الآيات الماضية رقم (٥٠/٥٤)

ويعملون علىٰ تكوين النفاق وتوسيع دائرته، فلهذا كانت خطة المنافقين خطة فظيعة شنيعة من بدايتهم إلىٰ نهايتهم في كل عصر، وهم يريدون القضاء علىٰ الإسلام ومحو أهله.

وما خطة القوميين والبعثيين والشيوعيين بطرقهم الثورية الهادفة إلىٰ ذلك والعاملة له إلا لأنها مستقاة من ذلك المصدر، وقد تقمص المنافقون أثوابًا متنوعة في السابق غير هذه الأثواب من القرمطية والباطنية والدروز والنصيرية وغيرها من أنواع البدع، و ما راج النفاق بِهذه الأقنعة إلا لعدم تطبيق المسلمين حكم اللَّه في أهله تطبيقًا صارمًا شاملًا بدون اختلاف فيهم ولا تساهل معهم.

ففي هذه الآية الكريمة أعظم التعاليم الواجبة علىٰ المسلمين، والنافعة لهم إزاء أعدائهم من كل من يخالف قوله فعله.

وقد أرشدهم فيها لقاعدة قويمة سليمة حيث قال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي فلا تثقوا بهم، ولا تستنصروا بهم حتىٰ يعانوا ما عانيتم من الهجرة ومراغمة الكفار ويلحقوا بكم، ويتحدوا معكم ويشاركوكم في البأساء والضراء، فلا يتركون المدينة لأجل مرض ولا يتخلفون عن غزوة ولا يتسللون من صفوفكم بأي حجة يزعمونها، بل يكون مصيرهم كمصيركم دون تفريق، فهنالك يبرهنون علىٰ صدق إيمانهم ويكونون إخوانكم في الدين تجب موالاتهم فيه، أما دون ذلك، فلا تجوز موالاتهم بأي حال من الأحوال، ولا يجوز الاختلاف في شأنهم، بل يجب الاتحاد ضدهم والعمل علىٰ تنكيلهم.

ولذا قال ﷻ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

فأوجب قتالهم وقتلهم، يعني إذا أبوا وأصروا علىٰ عدم الهجرة، والتزموا المكان المتربصين فيه، فخذوهم إذا قدرتم عليهم واقتلوهم في أي مكان وجدتموهم، سواء في الحل أو الحرم. ولا شك أن إهدار

دمائهم يقتضي إباحة أموالهم وأعراضهم، ولا تتخذوا منهم وليًّا يتولىٰ شيئًا من أموركم ولا نصيرًا تجعلونه موضع الثقة في الاستنصار.

وفي هذا دليل علىٰ وجوب الهجرة، وأن المقصود بقتال من لم يهاجر هو الذي رفض هجرة الانتقال من بلد الشرك والكفر إلىٰ بلد الإسلام، لا من رفض هجر ما نَهَىٰ اللَّه عنه، فإنه لم يذكر ولم يؤثر أن النبي ﷺ قتل أو قاتل الذين لا يهجرون ما نَهَىٰ اللَّه عنه من الذنوب، وإنما القتال علىٰ ما يهدم الإيمان كترك الهجرة الواجبة الانتقالية، وكموالاة الكفار ونحوها مما هو ردة عن دين الإسلام.

وقد استثنىٰ اللَّهُ من قتال أولئك نوعين:

أحدهما: من يتصل بقوم بينهم وبين المسلمين عهد، فيدخل في عهدهم كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾؛ لأنهم إذا دخلوا في عهد المعاهدين شملهم أمان الميثاق الإسلامي، وهذا من عظيم رعاية دين اللَّه الإسلام للعهود والمواثيق، ووفائه مع المعاهد بحيث يرعىٰ عهده لمن خالفه، فلا يخفر ذمته، ولا يرفض وجاهته.

قال القفال: وقد يدخل في الآية أن يقصد قوم حضرة الرسول ﷺ فيتعذر عليهم ذلك، فيلجئوا إلىٰ قوم بينهم وبين المسلمين عهد إلىٰ أن يجدوا السبيل إليه. اهـ.

وقد أبعد النُّجعة من فسر الوصول بالانتساب؛ لأن أكثر أهل مكة ينتسبون إلىٰ الرسول ﷺ، وقد عزلهم اللَّه عن قرابته، وأوجب عليه الهجرة عنهم ومحاربتهم حتىٰ يدخلوا دين اللَّه، فتعود قرابة النسب بعودتهم إلىٰ دين اللَّه الذي هو فوق الأنساب وفوق كل شيء علىٰ وجه الأرض.

قالوا: والذين بينهم وبين المسلمين ميثاق وقت نزول الآية هم خزاعة وخزيمة ابنا عبد مناف وبكر بن زيد، ونحوهم ممن دخل في عهد النبي ﷺ، وهذا الحكم يشمل كل من دخل في عهد المسلمين

علىٰ مدىٰ الدهر، إذا استقاموا علىٰ العهد المحدد حسب ما يمليه صالح الإسلام والمسلمين.

والنوع الثاني: من ضاقت صدورهم عن المقاتلة فلا يقاتلونكم لإسلامكم، أو للخوف من نصر اللَّه، ولا يقاتلون المشركين لما بينهم من القرابة، أو لأن أولادهم وأهلهم عندهم فيخافون من نقمتهم وهتك أعراض نسائهم، فأصبح امتناعهم عن قتال المسلمين مانعًا للمسلمين من قتالهم، فهذا هو معنىٰ قوله ﷻ: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ فلا ينجو من القتل غير هذين الصنفين الموادعين، الذين يكفون أيديهم عن المسلمين، وقد نسخت سورة «براءة» حكم المعاهدين كما سيأتي إيضاحه إن شاء اللَّه.

قالوا: والمعنىٰ في العطفين مختلف، واختلافه أن المستثنىٰ إما أن يكون صنفين: منهم من كان واصلًا إلىٰ معاهد، ومنهم من كان جائيًا كافًّا عن القتال، أو أنه صنف واحد له حالتان مختلفتان، بحسب حال من وصل إليه من معاهد أو كاف، وظاهر الآية أنهما صنفان.

وعلىٰ كل حال فحكمها منسوخ بسورة براءة، قال ابن عطية: وهذا ـ أيضًا ـ حكم كان قبل أن يستحكم أمر الاسلام، فكان المشرك إذا جاء إلىٰ دار الإسلام مسالمًا كارهًا لقتال قومه مع المسلمين، ولقتال المسلمين مع قومه لا سبيل عليه، وقد نسخت بما في براءة. اهـ.

ولأهل اللغة كلام طويل مختلف في العطف والاستثناء قد أسهب فيه أبو حيان ونحوه ممن يعني باللغة، ونحن لا يعنينا سوىٰ توضيح أحكام الإسلام العادلة في السلم والحرب، والمرتكزة علىٰ عقيدة الألوهية لا علىٰ المطامع المادية والأغراض النفسية، بل تشريعات اللَّه حتىٰ في هذا الميدان منبثقة ونابعة من توحيد الألوهية، لا تتأثر بقوة قوي أو ضعف ضعيف، بخلاف الأنظمة الغربية التي لا تساوي قيمة الورق المكتوب عليها؛ لكونها لا تنفذ إلا وفق المصلحة.

فإن اللَّه لم يختم آية من آيات التشريع العام، أو آيات الحرب والسلم والشئون السياسية، إلا بما يركز العقيدة مما فيه وعد أو وعيد وتعظيم لجناب اللَّه سبحانه، حتىٰ إن آيات القتال تخللها قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، أي لا إله غيره يُخشىٰ أو يُخاف أو يُرجىٰ فتترك تلك الأحكام لأجله، فمن توحيد اللَّه وإفراده بالألوهية تنبثق أحكام الإسلام في جميع شئون الحياة، وتنبعث الجوارح والقوىٰ لتنفيذها بدون مبالاة بما سوىٰ اللَّه من أي قوة أو سلطة.

وقد سبق الإسلام جميع الأنظمة السياسية للسلم والحرب بقرون كثيرة، وجعلها مبنية علىٰ تقوىٰ اللَّه ومراقبته، ولم يتركها للتحكمات البشرية، بما يوجب علىٰ المسلمين أن يشمخوا برءوسهم، وأن يحرصوا علىٰ رجوعهم والتفاتهم إلىٰ وحي اللَّه فقط، فهو الذي يجعلهم مسيرين للبشرية، ومعلمين لها ما يكفل العدالة علىٰ أساس عزة العقيدة الإسلامية وصيانتها، وعلىٰ أساس العدل دون مبالاة بمخالفة العدو له، فهي أحكام أصيلة غير متأثرة بالأوضاع الوثنية الجاهلية التي هي من تدبير الطواغيت الدجاجلة قبل تجديدها، ولا تتأثر ـ ولا يجوز أن تتأثر ـ بما حدث ويحدث بعدها من أوضاعهم، وقد أوضحت هذه الآيات (٨٧/٩٥) أحكام الدماء والمحاربين والمعادين للإسلام والمذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء، فاشتملت علىٰ خمسة أحكام:

أحدها: أحكام المنافقين من غير سكان المدينة.

وثانيها: حكم الذين يرتبطون بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق.

وثالثها: حكم المحايدين الذين لا تقبل صدورهم حرب المؤمنين ولا حرب قومهم لأسباب شاخصة أمامهم.

ورابعها: حكم المتلاعبين ذوي الوجهين الذين يظهرون الإسلام إذا قدموا المدينة، ويظهرون الكفر إذا وصلوا مكة.

وخامسها: حكم قتل الخطأ إذا وقع علىٰ مسلم صديق، أو عدو أو

جرىٰ علىٰ كافر معاهد، أو جرىٰ عمدًا في مؤمن علىٰ مؤمن.

وقد قدم سبحانه أمام هذه الأحكام تذكير المؤمنين بوحدانيته واليوم الآخر الذي يجمعهم فيه للحساب والجزاء، تنبيهًا لهم علىٰ مراقبة اللَّه وخشيته لينفذوا هذه الأحكام والأوامر بكل قوة وصرامة، دون مبالاة بما سوىٰ اللَّه من أي شيء، ودون التفات إلىٰ طمع أو مصلحة أخرىٰ، بل يتقون اللَّه في إقامتها، طلبًا للعدل ورغبة فيه؛ لأنها مبنية علىٰ العدل الذي قامت عليه السموات والأرض، لا علىٰ المصالح، ولا علىٰ تكافؤ القوىٰ ونحوه مما تقوم عليه الأنظمة البشرية التي لا تنفذ علىٰ غير الضعيف، وأما القوي فيتمرد عليها لعدم ارتباطه باللَّه، وعدم ارتداعه من غيره. فالتشريع الإسلامي مستقل أولًا عن غيره غاية الاستقلال، ونابع من صميم العقيدة.

ثانيًا: يحفز أهله علىٰ تنفيذه بالقسط؛ لأنه كامن في أعماق نفوسهم وحارس علىٰ نزعاتهم، ففيه الضمان الوثيق من ذاته علىٰ تنفيذه، ولذلك حملت هذه الآيات استنكار انقسام المؤمنين فئتين في معاملة المنافقين، والتعجب من موقفهم المائع اغترارًا منهم بنطقهم بالشهادتين دون النظر إلىٰ أعمالهم والتفكير في خطتهم الأثيمة، ثم تصوير حقيقة حالهم، وبيان ما يجب عليهم فعله تجاههم بكل حزم وصرامة، وأنهم يريدون تكفير المسلمين وارتدادهم عن دينهم، علىٰ الرغم من أن المسلمين يعتقدون هدايتهم أو يطمعون بها.

ويا ليت المسلمين يطبقون تعاليم القرآن علىٰ المتفرنجين بجميع أنواعهم، ولا ينخدعون بزعمهم الإيمان أو التظاهر باحترام القرآن أو طبعه أو إذاعته، وهم شاردون عن العمل به، ساخرون بأحكامه، منتقصون لأهله، فإن خطتهم أخطر من خطة المنافقين الأوائل، وأنكىٰ ضررًا علىٰ المسلمين.

فهي خطة مدروسة مسبوكة لهدم الدين والقضاء علىٰ أهله بإعلان

استهجانهم، وتسميتهم رجعيين متزمتين متوحشين متخلفين، وطعنهم في دين اللَّه بِهذه الألقاب، وزعمهم بأنه مدعاة للتخلف والانحطاط ونحو ذلك مما هم به ألصق، وتخطيطهم مناهج لتربية أولاد المسلمين تربية تسلخهم من الدين والأخلاق، وتزلقهم في مهاوي الضلال والفساد والغي المتنوع باسم التقدم والتطور الذي قلبوا معانيه، حيث حولوا مصطلحاته إلىٰ شعارات خلابة مطاطية زئبقية لا ترتكز علىٰ قيم محدودة، ولا تعتمد في سيرها علىٰ نظام صحيح منضبط، ولا تنطلق إلىٰ غاية إنسانية واضحة، بل إنها مجرد ثورة علىٰ الماضي ومزاعم كاذبة يقصد بها التمرد علىٰ وحي السماء والتحطيم لكل شيء ثابت أو شبه ثابت في طريق الإنسان، وسرعة جنونية في طريق التحول الإنساني حتىٰ ولو كانت النهاية هي السقوط المحتم في أوحال الظلام والبهيمية، بل المقصود هو خدمة اليهود.

فما أجدر المسلمين بمعرفة أعدائهم الذين وصفهم النبي ﷺ بأنهم من جلدتهم وينطقون بلغتهم، وأن يعاملوهم معاملة صارمة كما أمرهم اللَّه سبحانه في هذه الآيات! ومما ينبغي فهمه أنه لا يجوز الاختلاف بمن استثناهم اللَّه في هذه الآية، هل هم من الكفار أو المؤمنين، إذا الاستثناء يكون منقطعًا؛ لأن اللَّه نص في هذه الآيات علىٰ المنافقين، وندد بموقف المؤمنين منهم، وأوجب عليهم قتالهم؛ لأنهم في حكم الكفر، والكافر يُقتل ولو لم يقاتل، ولكنه استثنىٰ هذين الصنفين ضبطًا لحالة النفاق، حتىٰ يتضح للمؤمنين حالة المنافقين وحكم اللَّه فيهم، فلا يلتبسوا في تنفيذه ولا يتميعوا فيه بنوع من الظنون.

فائدة: قال الماتريدي: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ أي: إن لحق المنافقون بمن لا ميثاق بينكم وبينهم فاقتلوهم حتىٰ يتوبوا ويهاجروا، إن لحقوا بأهل الميثاق فلا تقاتلوهم، ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ هذا صفة لمن سبق ذكرهم فيكون الاستثناء عن الذين يصلون إلىٰ أهل العهد إذا كان وصفهم أن تضيق صدورهم عن مقاتلة المؤمنين والكفار

جميعًا، إما لنفور طباعهم، وإما لوفاء العهد، وإما لكونهم في مهلة النظر، ليتبينوا الحق من الباطل، وعلىٰ هذا وصف اللَّه جميع المعاهدين الذين عزموا علىٰ الوفاء بالعهد أنهم إنما قبلوا العهد والذمة لما تعذر عليهم قتال المسلمين، وأبت نفوسهم معاونة المسلمين علىٰ قومهم، فلم يسالموا حقيقة وإنما سالموا لقبول العهد. انتهىٰ ومنه يفهم أن الاستثناء لا يعود للولاية كما سيأتي.

فائدة أخرىٰ: يروىٰ أن المثبت في مصحف أبي: «بينكم وبينهم ميثاق جاءوكم» بغير حرف «أو» قال الزمخشري: وجهه أن يكون جاءوكم بيانًا ل«يصلون»، أو بدلًا أو استئنافًا أو صفة بعد الصفة ل«لقوم» انتهىٰ.

قال أبو حيان: وهي وجوه محتملة وفي بعضها ضعف، وهو البيان والبدل؛ لأن البيان لا يكون في الأفعال، ولأن البدل لا يتأتىٰ لكونه ليس إياه ولا بعضًا ولا مشتملًا عليه. وأجيب بأن الانتهاء إلىٰ المعاهدين والاتصال بهم حاصلة الكف عن القتال، فصح جعل مجيئهم إلىٰ المسلمين بِهذه الصفة وعلىٰ هذه العزيمة بيانًا لاتصالهم بالمعاهدين، أو بدلًا منه كلًّا أو بعضًا أو اشتمالًا وكون ذلك لا يجري في الأفعال لا يقول به أهل المعاني.

والذي أراه: أن القراءة الشاذة لا يعول عليها في التفسير إلا عند الضرورة إلىٰ فهم حقيقة المعنىٰ عن اللجوء للمجاز، كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ [النور: ٦٠] فإنه يلجئ إلىٰ قراءة ابن مسعود رضي الله عنه في التبعيض واللَّه أعلم.

فائدة ثالثة: لا يجوز أن يفسر الاستثناء من الضمير في قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. وإن كان أقرب شيء إليه، بل يحرم اعتقاد ذلك ويخل بالعقيدة، وذلك لأن اتخاذ الولي منهم حرام علىٰ الإطلاق في جميع الأحوال، بل هادم للعقيدة لورود المنع من ذلك بنص القرآن، والحكم علىٰ من تولاهم بأنه منهم في عدة آيات هي التي

جعلت لهذا الاستثناء حكمًا غير حكم غيره في انصراف القريب، وأوجبت تخصيصه عن سائر أحكام الاستثناء بعدم انصرافه إلىٰ الجملة القريبة لمصادمة ذلك للعقيدة، وعلىٰ هذا يكون الاستثناء راجعًا إلىٰ قوله: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ فقط.

فائدة رابعة: قال الألوسي: وقال الإمام: جعل الكف عن القتال سببًا لترك التعرض أولىٰ من جعل الاتصال بمن يكف عن القتال سببًا لترك التعرض؛ لأنه سبب بعيد، علىٰ أن المتصلين بالمعاهدين ليسوا معاهدين، لكن لهم حكمهم، بخلاف المتصلين بالكافِّين فإنهم إن كفوا فهم هم، وإلا فلا أثر له، أي لا أثر لاتصالهم بالكافِّين إن لم يكفوا. اهـ.

وأقول: إن الاتصال بالكافِّين لا يقاس علىٰ الاتصال بالمعاهدين أصلًا إذ ليس له أثر علىٰ الإطلاق حسب ما يتبادر إلىٰ الذهن من ظاهر الآية والله أعلم.

وأما قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ فهو لبيان أن جميع نواصي الخلق بيده ومقاليد الأمور بيده سبحانه وتعالى، وأنه لا يخرج شيء عن قضائه وقدره. فهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦].

وفي هذا تقرير للمؤمنين علىٰ مقدار نعمته عليهم ولطفه سبحانه بهم، كما في ذلك تثبيت لقلوبهم وربطها بجنابه الكريم، حتىٰ لا يخالجهم الغرور والزهو والإعجاب، فلهذا أخبرهم أنه لو شاء تسليطهم عليهم لسلطهم، وذلك بأن يقويهم ويجرئهم ويسوق إليهم من الأخبار ما ينشطهم علىٰ القتال، ويلهمهم من الآراء ما يبعثهم علىٰ الإقدام عليه، ولكن لرحمته وتوفيقه للمؤمنين حسب سنته الكونية صرف قلوب أعدائهم عن كيدهم الحربي بقلب تفكيرهم، وقذف الرعب في قلوبهم، وغير ذلك من المثبطات، ولولا ذلك لقاتلوكم، واللام هنا جواب «لو» علىٰ التكرير أو البدل.

وقال ابن عطية في قوله: ﴿لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ هي جواب «لو»، وأما اللام في قوله: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ فهي لام المحاذاة والازدواج؛ لأنها بمثابة الأولىٰ، لو لم تكن الأولىٰ كنت تقول: «لقاتلوكم».

قال أبو حيان: وهذه التسمية غريبة لم أرها في غير عبارة هذا الرجل وعبارة مكي. اهـ.

وللمعتزلة كلام في هذا الشأن مضطرب، تكلفوا به علي خلاف النصوص، وليس في الآية دليل علىٰ أنه شاء تسليط الكفار وأراده، وإنما تدل علىٰ أنه لا يقبح منه التسليط لإيقاظ المؤمنين وتأديبهم وتربيتهم، وصقل قلوبهم وتصفية صفوفهم من النفاق، وعقوبة لهم علىٰ ذنوبهم، وابتلاء لصبرهم، واختبارًا لقوة إيمانهم وإخلاصهم وثباتهم ورفعة لدرجاتهم، وتكثرًا لحسناتهم، ثم تنكيلًا لعدوهم وتعذيبًا له علىٰ أيديهم بما يقلب ذلك إلىٰ نصر للمؤمنين، يشفي به صدورهم، ويخزي أعداءهم، ويذهب غيظ قلوبهم، ويكتب التوبة علىٰ من شاء منهم كما فصلنا ذلك في تفسير الآيات النازلة في وقعة «أحد» وكما سيأتي في تفسير الآية (١٤/١٥) من سورة التوبة إن شاء اللَّه، وهو سبحانه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

والتسليط في اللغة مأخوذ من السلاطة وهي الحدة. ومعنىٰ: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي ضاقت عن المقاتلة، وأصل الحصر في المكان، ثم توسع فيه حتىٰ صار في القول وفي أعمال القلب كما تدل عليه أقوال الشعراء، والمعنىٰ: كرهوا قتالكم وقتال قومهم معكم، أو أنهم لا يقاتلونكم، ولا يقاتلون قومهم معكم، فيكونون لا عليكم ولا لكم.

وأما قوله سبحانه: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فمعناه أن الذي لا يتعرض لقتالكم، بل يعتزل وينفرد عن قومه المحاربين، ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: يعلن انقياده واستسلامه لكم، بمعنىٰ يعطيكم زمام أمره في المسالمة، بحيث

تثقون به وثوق المرء بما يلقىٰ إليه، فتكونون في غاية الأمان منه. فهذا النوع لم يجعل اللَّه لكم طريقًا مبيحًا لقتالهم.

وتأمل المعنىٰ المحيط للاستسلام في قوله سبحانه: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ الذي هو الإلقاء بزمام الأمور، وقد جاءت سورة التوبة بنسخ العهد المطلق، وإمهال أهله إلىٰ أربعة أشهر، وإتمام مدة العهد المقيد بثبات أهله عليه كما نصت عليه الآيات مما سنوضحه إن شاء اللَّه.

وقوله سبحانه في الآية (٩١): ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾:

بعد ما أبان اللَّه حكم الفرق الأولىٰ التي منها الفرقة الثالثة الصادقة في الكف عن القتال، والجادة في إلقاء زمام الأمر استسلامًا للمؤمنين، ذكر حكم الفرقة الرابعة المنكشف خبثها ونفاقها، وهم القوم المخادعون الذين يريدون الإقامة في مواضعهم مع أهليهم، يقولون لهم: نحن معكم وعلىٰ دينكم، ويقولون للمسلمين كذلك إذا وجدوا، وهؤلاء مذبذبون يلعبون علىٰ الحبلين، ليأمنوا علىٰ أنفسهم وأموالهم بهذه المخادعة، وقد فضحهم اللَّه بقوله: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ فهم يظهرون الإسلام إذا التقوا برسول اللَّه أو بسرية من المسلمين، وإذا رجعوا إلىٰ قومهم ارتكسوا في الشرك والوثنية؛ لأن قلوبهم مفتونة بما عليه قومهم من ذلك.

قال مجاهد: هم قوم يجيئون من مكة إلىٰ النبي ﷺ ويظهرون الإسلام، فإذا عادوا إلىٰ قريش يكفرون، ففضحهم اللَّه، قالوا: والسين في قوله: ﴿سَتَجِدُونَ﴾ ليست للاستقبال، وإنما هي دالة علىٰ استمرارهم علىٰ ذلك الفعل في الزمن المستقبل، كقوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وما نزلت إلا بعد قولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾

[البقرة: ١٤٢] فدخلت السين إشعارًا بالاستمرار، ورجح أبو حيان في أنها للاستقبال لكن ليس في ابتداء الفعل، بل في استمراره.

﴿أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ أي يأمنوا أذاكم، ويأمنوا أذىٰ قومهم، والفتنة هنا هي المحنة في إظهار الكفر، ومعنىٰ: ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ رجعوا أقبح رجوع وأشنعه، فكانو شرًّا فيها من كل عدو، فتصوير اللَّه لهم بِهذه الصورة يوضح سوء ما تنطوي عليه ضمائرهم من الكفر العريق ومخادعة المؤمنين، فهم مثل الذين قال اللَّه عنهم في الآية (١٤) من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾.

فهذا الصنف من الناس يقف منهم الإسلام موقفًا حاسمًا حازقًا كما قرره اللَّه بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ أي: يتنحوا عنكم جانبًا ولا يتعرضوا لكم بسوء، ﴿وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: لم يلقوا إليكم زمام المسالمة بالصفة التي تثقون بها، ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن القتال وإعمال الدسائس، إن لم تتضح منهم هذه الأمور الثلاثة: الاعتزال التام الذي تأمنون به خطرهم، والاستسلام الكامل الذي يكون به زمام الأمر في أيديكم، والكف عن جميع أنواع العدوان من القتال أو الدسائس، ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: يجب أن تأسروهم وتقتلوهم حيث وجدتموهم في داركم أو دارهم أو أي بقعة من الأرض، سواء في الحل أو الحرم، فإن اللَّه المشرع العليم الحكيم يعلم أنه لا علاج لهم سوىٰ هذا، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: جعلنا لكم عليهم حجة واضحة وبرهانًا علىٰ استحقاقهم هذا العقاب؛ لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم، وخبث خططهم اللئيمة، بحيث لا يجوز لأحد الاعتذار عنهم.

وفي هذه الآية ـ زيادة على ما تقدم ـ عدة فوائد:

إحداها: قال ابن عطية: في هذه الآية حض المسلم علىٰ قتال هؤلاء

المخادعين إذا لم يرجعوا عن حالهم إلىٰ حال الآخرين المعتزلين الملقين للسلم، وتأمل فصاحة الكلام، في أن سياقه في الصيغة المتقدمة قبل هذه سياق إيجاب الاعتزال، وإيجاب إلقاء السلم، ونفي المقاتلة إذا كانوا محقين في ذلك معتقدين له، وسياقه في هذه الصيغة المتأخرة سياق نفي الاعتزال ونفي إلقاء السلم إذا كانوا مبطلين فيه مخادعين، والحكم سواء علىٰ السياقين؛ لأن الذين لم يجعل عليهم سبيلًا لو لم يعتزلوا لكان حكمهم حكم هؤلاء الذين جعل عليهم السلطان المبين، وكذلك هؤلاء الذين عليهم السلطان إذا لم يعتزلوا لو اعتزلوا لكان حكمهم حكم الذين لا سبيل عليهم، ولكنهم بِهذه العبارة تحت القتل إن لم يقتلوا. اهـ.

قال أبو حيان: وهو حسن، ولما كان أمر الفرقة الأولىٰ أخف، رتب اللَّه تعالىٰ انتفاء جعل السبيل عليهم علىٰ تقدير سببين: وجود الاعتزال، وإلقاء السلم، ولما كان أمر هذه الفرقة المخادعة أشد، رتب أخذهم وقتلهم علىٰ وجود ثلاثة أشياء: نفي الاعتزال، ونفي إلقاء السلم، ونفي كف الأذىٰ، كل ذلك علىٰ سبيل التوكيد في حقهم والتشديد.

ثانيها: قال الخفاجي: السلم بفتح السين واللام هو الانقياد، وقرئ بفتح السين وكسرها مع سكون اللام، وكأن إلقاء السلم استعارة؛ لأن من سلم شيئًا ألقاه وطرحه عند المسلَّم له، وأما عدم جعل السبيل فهو مبالغة في عدم التعرض؛ لأن من لا يمر بشيء كيف يتعرض له؟.

ثالثها: دلت هذه الآيات علىٰ تحريم موالاة الكفار المشركين وسائر الملاحدة و الزنادقة العاملين ضد الدين ولو باللمز والسخرية، وقد ثبت هذا في النصوص في أكثر من عشرين آية.

رابعها: أن هذا الآيات الكريمات حددت موقف المسلمين من أعدائهم تحديدًا واضحًا حاسمًا صحيحًا، لا ميوعة فيه ولا تعنت وغطرسة، بل بسلوك الحزم والجد والقوة والشهامة والبطولة والعدالة،

وإن دين اللَّه يرفض المسالمة الرخيصة؛ لأن الإسلام ليس غايته كف العدو عن القتال فقط، بل غايته إرغام العدو علىٰ إلقاء السلم بمعناه الذي ذكرناه، بحيث ينقاد للإرادة الإسلامية، ويخرس لسانه عن كل ما يضر بالدعوة والدعاة، فلا يتعرض لهم بأي أذىٰ قولي أو فعلي ولا يعرقل مساعيهم في التبليغ، ولا يحرج شعور المسلمين ولو من ناحية أدبية، ولا يتعرض للداخلين في الإسلام بأي أذىٰ حتىٰ باللمز أو التعريض، لتزول جميع العقبات عن طريق الدعوة إلىٰ الإسلام والدخول فيه، ولنضمن حقوق المسلمين وكرامتهم في جميع بقاع الأرض، فمشروعية الجهاد والصلابة والغلظة علىٰ الكافرين والمنافقين هي لإيجاد قوة مرهوبة محققة لأمن المسلمين والدعاة إلىٰ الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وليس التشريع لمجرد الدفاع عن قوم أو بلد أو بقعة مقدسة كما يزعمه المهزومون عقليًّا، الذين جعلوا الإسلام كأنه في قفص الاتهام، وأخذوا يتبجحون بالتعايش السلمي، ويتميعون بمصادقة ومسالمة الدول المنكلة بالمسلمين، والمحاربة لدين اللَّه مع حقارتها. فإن هذا التشجيع منهم لأعداء اللَّه علىٰ أوليائه هو مروق من الدين، وسير في ركاب الكافرين وكذلك الأنظمة العلمانية، فأهلها من هذا القبيل إذ لابد من العمل علىٰ إعزاز الإسلام وأهله في كل مكان.

خامسها: يجب علىٰ المسلمين أن يعاملوا كل من طعن أو انتقص أو سخر بشيء من تشريعات الكتاب والسنة معاملة المنافقين المرتدين عن الإسلام، سواء كانوا من أصحاب الصحف والمجلات والمصورات وسائر أهل الدعايات الأخرىٰ كالأفلام ونحوها، أو كانوا ممن احتل الصدارة، وينفذ ما يخالف الشريعة أو يحمي أحدًا من هؤلاء أو يحتضنهم، فإنه منافق يجب علىٰ المسلمين أن ينفذ حكم اللَّه فيه، وإذا لم تكن لهم قيادة مهتمة بأمورهم وحامية لعقيدتهم، وجب عليهم أن ينفذوا وصية رسول اللَّه ﷺ بالفتك في أعداء الإسلام، حيث ندب أصحابه إلىٰ أناس مؤذين فقال: «**من لي بابن الحقيق، من**

لي بفلان، من لي بفلان؟»[١] إلىٰ آخر الحديث.

فيجب علىٰ المسلمين تطبيق حكم اللَّه في المنافقين، وأن لا تأخذهم بهم رأفة، ولا ينخدعوا بأحابيلهم وزخارف قولهم، ولا يلينوا معهم لقرابة، ولا تأخذهم بهم في اللَّه لومة لائم؛ وإن لم ينفذوا بهم حكم اللَّه استفحل أمرهم، وصارت الصدارة بيدهم كما تريده القوة الخفية، فتحكموا بهم وفعلوا بهم الأفاعيل، وقد حصل ذلك علىٰ المسلمين بسبب تفريطهم في حكم اللَّه.

وأما قوله سبحانه في الآية (٩٢): ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾:

فإن اللَّه سبحانه بعدما بين للمسلمين حكمه في المنافقين، وشدد عليهم في التراخي وأوجب عليهم أن يأخذوهم ويقتلوهم في أي مكان، أبان لهم في هذه الآية حكم الذي لا يجوز قتله، وما فيه من الضمان، خصوصًا ما كان علىٰ سبيل الخطأ؛ لكثرة وقوعه علىٰ المسلم والكافر المعاهد. فلهذه الآية أقوىٰ المناسبة والارتباط بما قبلها، ولا سيما ولها مساس بالسياسة الداخلية في علاقة المسلمين بعضهم ببعض، وفي السياسة الخارجية في علاقتهم مع المعاهدين.

وقد افتتح اللَّه هذه الآية بالنفي العظيم الذي هو نفي الشأن؛ لأنه أبلغ من نفي الفعل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ أي ما

---

(١) رواه البخاري (٤٠٣٨).

كان من شأن المؤمن وسجاياه المنبعثة عن الإيمان أن يقتل مؤمنًا مثله، وذلك لسببين:

أحدهما: أنه لا توجد رابطة أقوىٰ من وشيجة الإيمان تربط بين الشخصين، فإنها رابطة أخوية وثيقة أقوىٰ من رابطة أخوة النسب، فالأخوان الشقيقان في النسب قد يقتتلان إذا اختلت عقيدة الإيمان، وأما مع بقائها فلا يمكن حصول الاقتتال، وذلك:

للسبب الثاني: وهو أن الإيمان الصحيح هو صاحب السلطان علىٰ النفس، والحاكم عليها، والمصرف لأعمالها، فهو المسيطر علىٰ الضمائر والخواطر، ولهذا لا يجري قتل مؤمن مثله أبدًا إلا في حالة الخطأ الذي لا يقصده ولا يرتضيه، وليس في مقدوره دفعه، ولهذا جاء التعبير بنفي الشأن الذي هو بمعنىٰ النهي للمبالغة، ورتب اللَّه عليه الحكم القاسي المركب من حقين عند حصول الخطأ: حق اللَّه سبحانه يجب الوفاء به، وهو قوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ من رقها؛ لأنه لما أعدم فردًا من المؤمنين وجب عليه إيجاد مؤمن آخر، ولا يقدر علىٰ ذلك إلا بعتق رقيق من المؤمنين؛ لأن عتقه كإيجاده؛ لأن الرقيق وجوده ناقص، حيث لا يقدر علىٰ القيام بحق اللَّه علىٰ التمام.

وقد جرىٰ التعبير بالرقبة عن الذات، لأن الرقيق يحني رقبته دائمًا لمولاه كلما أمره ونهاه، أو يكون كالبهيمة التي يوضع النير علىٰ رقبتها لأجل الحرث ونحوه، ولهذا قال الجمهور: إنه لا يجزئ عتق الأشل والمقعد ونحوهما؛ لأنهما لا يكونان مسخرين في الخدمة علىٰ التمام، وكذلك الأعمىٰ والمجنون لقلة استخدامهما، وعدم شعورهما بذل الرق.

وأما المراد من الإيمان في الرقيق فهو اتضاح فعله لشعائر الإسلام الظاهرة كالصلاة، فإن من لا يصلي لا يجوز تحريره، ولا تصح الكفارة به؛ لأنه غير مؤمن.

والحق الثاني: حق أولياء المقتول وهو قوله سبحانه: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ

إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ﴾ يعني: وعلىٰ القاتل المخطئ من الجزاء دفع دية إلىٰ أهل المقتول تورث عنه عوضًا عن دمه، أو تعويضًا لهم عن حقهم فيه، وقد أطلق الكتاب الدية وحددتها السنة المطهرة بالمواشي والذهب والفضة، وتفصيلها في كتب الفقه، وهي تجب علىٰ العاقلة كما نص رسول اللَّه ﷺ علىٰ ذلك، ولهذا سميت عقلًا، والدية مستقر حكمها في الجاهلية، والأقرب أن تكون من رواسب شرائع الأنبياء قبلنا، وأما تسميتها دية فلأنها غرامة من آثار اليد، كما قال الشاعر:

نأسو بأموالنا آثار أيدينا

وقيل غير ذلك، ومعنىٰ قوله سبحانه: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ ﴾ أي مدفوعة إلىٰ أهل المقتول الذين يرثونه يقتسمونها كالميراث، لا فرق بينها وبين سائر التركة، إلا أن بعض المحققين قالوا: لا يقضىٰ منها ولا تدخل في الوصية، ويرث منها كل وارث حتىٰ الزوجة بنص السنة إلا القاتل، وإذا لم يكن وارث فالدية لبيت المال، ويأتي تفصيل أحكامها في كتب الفقه، وإنما ذكرنا هنا المهمات.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ ﴾ أي: إلا أن يعفو وراثه عن الدية، فإنها تسقط بإبرائهم؛ لأنها فرضت لهم تطييبًا لنفوسهم، وتعويضًا عما فاتهم من المنفعة بفقد المقتول، وإرضاء لأنفسهم عن القتال حتىٰ لا تقع العداوة والبغضاء بينهم، فيحصل التقاطع، فإذا طابت نفوسهم عنها حصل المقصود وانتفىٰ المحذور؛ لأنهم يرون أنفسهم بذلك أصحاب فضل ومعروف، ويرىٰ القاتل هذا ويعترف لهم به.

وقد جاء نص الآية بصيغة التصدق تنبيهًا علىٰ فضيلة العفو وحضًّا عليه، وأنه جار مجرىٰ الصدقة في استحقاق المثوبة في الآجل دون طلب العرض العاجل، وهذا النوع من الفضل والمنة لا يثقل علىٰ النفس حمله، بل فيه اجتثاث لسخائم النفوس وحزازاتها، وفي هذا النص دليل علىٰ جواز الإبراء من الدين بلفظ الصدقة، ودليل علىٰ أنه لا يشترط

القبول في الإبراء؛ لأن اللَّه لم يقيده في هذه الآية بذلك، خلافًا لمن قال به، والظاهر أن الجماعة إذا اشتركوا في قتل رجل واحد علىٰ سبيل الخطأ، فليس عليهم سوىٰ دية واحدة لعموم قوله سبحانه: ﴿وَمَن قَتَلَ﴾ وترتب تحرير رقبة واحدة، ودية واحدة علىٰ ذلك واللَّه أعلم.

واختلفوا في سبب وجوب الكفارة في قتل الخطأ، فقيل: تمحيص وتطهير لذنب القاتل، حيت ترك التحفظ والاحتياط حتىٰ هلك علىٰ يده امرؤ محقون الدم. وقيل: لما أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفسًا في جملة الأحرار؛ لأن إطلاقها من قيد الرق هو إحياء معنوي لها، وذلك أن الرقيق ممنوع من تصرف الأحرار، فحياته ناقصة بالنسبة إلىٰ حقوق اللَّه وإلىٰ حقوق نفسه الذاتية، وقد تقرر أن التحرير في مال القاتل، وأما الدية فعلىٰ العاقلة علىٰ سبيل المواساة والتكافل والتضامن العائلي الذي شرعه اللَّه لرباط الأسرة، وشعور بعضها بالمسئولية نحو البعض الآخر؛ ليتحمل بعضهم عن بعض كبريات أعباء الحياة، وهي خلاف قياس الأصول في الغرامات والمتلفات.

وعند النحاة أن المنسبك في محل نصب علىٰ الاستثناء لا علىٰ الحال في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ وابن مالك يقدر في الآية حرف الجر أي: بأن يصدقوا.

وإذا كانت الدية تسقط بالعفو كما هو مقرر بالمنصوص، فهل يسقط الإعتاق بعدم الاستطاعة من فقر أو عدم وجود رقيق؟ أما العاجز عن الإعتاق لفقره فحكمه منصوص في آخر الآية من وجوب الصيام، وأما العاجز لعدم وجود من يعتقه فليس له سبيل غير الصيام لتطهير نفسه مما ابتلي به، وقد جاء في الأثر: «**أن من أعتق للَّه رقبة مؤمنة ولو صغيرة أعتق اللَّه بكل جزء منها جزءً منه من النار**»(١)، والعتق من أفضل القربات، فلهذا صار سيد الكفارات، ومن لم يقدر

---

(١) رواه البخاري (٢٥١٧)، ومسلم (١٥٠٩).

عليه فالصوم بدل منه.

ثم لما أوضح اللَّه حكم القتيل المؤمن خطأ إذا كان مع المؤمنين شرع في بيان حكم المؤمن إذا كان في أرض العدو فلم يهاجر عن قومه المشركين إلىٰ المؤمنين، وقتل مثل هذا يحصل في حملات الحرب من المؤمنين علىٰ الكافرين؛ لأن معرة القتال تصيب من كان مؤمنًا علي سبيل الخطأ بغير علم ممن لم يهاجر أو رجع إلىٰ قومه لظروف خاصة، كما قال سبحانه في تعليل صرف المؤمنين عن قتال أهل مكة يوم الحديبيه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥].

فمثل هذا المؤمن إذا قتله مؤمن في أرض العدو لا يضمنه، ولكن يجب عليه تحرير رقبة مؤمنة لحق اللَّه في حرمته، دون أن يدفع الدية لاختلاطه بالمشركين، وصعوبة فهمه علىٰ القاتل.

وقال بعض المحققين: إن عدم دفع الدية إلىٰ أهله؛ لأنهم أعداء محاربون، يستعينون بها علىٰ حرب المسلمين فلا يعطون من أموال المسلمين ما يتقوون به عليهم، ولا عبرة بقول من قال: إنها واجبة لبيت المال، لأن وحي اللَّه لم يذكر ذلك؛ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

ثم إن اللَّه ﷻ أبان الحكم الثالث لقتل المؤمن الذي يكون أهله معاهدين، فإنهم ينزلون منزلة المؤمنين، لأن أحكام المؤمنين جارية عليهم بمقتضىٰ العهد فقال: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فجعل الصنف الثالث كالصنف الأول رعاية للعهد؛ لتكون الدية عوضًا عن حقهم، والعتق كفارة عن حق اللَّه الذي حرم قتل الذميين والمعاهدين والإساءة إليهم بقتل قريبهم ولو لم يكن منهم، وهذا من عظيم رعاية الدين الإسلامي للعهد.

وقد قدم اللَّه في هذا الصنف ذكر الدية وأخَّر ذكر الكفارة، علىٰ

عكس الجملة الأولىٰ في قتل المؤمن خطأ بين المؤمنين، ولعل النكتة في تقديم التحرير في الصنف الأول أنها للإشعار بأن حق اللَّه سبحانه في معاملة المؤمنين مقدم علىٰ حقوق الناس، ولذلك استثنىٰ العفو في أمر الدية المدفوعة للمؤمنين بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ لأن من شأن المؤمن العفو والسماح، واللَّه يرغبهم فيما يليق بكرامتهم ومحاسن أخلاقهم، ولم يستثن ذلك في الدية الواجب دفعها إلىٰ المعاهدين؛ لأن من طبيعتهم المشاحة والتشديد في حقوقهم، وليسوا مذعنين لهداية الإسلام، فيرغبهم اللَّه في الفضائل، وأيضًا فإن في سماحهم منة علىٰ المسلمين، واللَّه الذي وصف المسلمين بالعزة وكتبها لهم لا يفتح لهم باب المنة، بل يحب أن يكونوا هم اليد العليا في كل شيء.

ثم إنك تجد في هذه الآية الكريمة من محاسن نظم الكلالة وتأليفه تأخير المعطوف الذي له متعلق علىٰ ما ليس له متعلق، وتأخير ما متعلقاته أكثر علىٰ ما متعلقاته أقل، وهذه نكتة لفظية لتأخير ذكر الدية في حق المؤمن؛ إذ تعلق بها الوصف بقوله: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ والاستثناء، وهو قوله سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ ولهذه أمثال أخرىٰ في القرآن.

وأيضًا فإن اللَّه سبحانه نكر الدية في حق المؤمنين في الجملة الأولىٰ، وحق المعاهدين في الجملة الثانية إشارة إلىٰ أنه يجزئ منها ما يرضي أهل المقتول وورثته من قليل أو كثير، وإن كانت محددة فالزيادة فيها أو النقص جائز.

ثم قال ﷻ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يعني من لم يجد ثمنًا يشتري به الرقبة أو لم يجد رقبة يملكها؛ فتعذر عليه العتق الذي هو كفارة للقتل، فإنه يعدل إلىٰ الصيام، فيصوم شهرين متتابعين لا يفصل بينهما إلا لضرورة لابد منها، كما فصله الفقهاء في موضعه، وهذا الصيام يجب

علىٰ القاتل العاجز عن العتق أن يأتي به؛ كفارة عن إزهاق نفس المؤمن الذي كان هو السبب في إتلافها، فيكون إتيانه بِهذه الكفارة: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي لأجل التوبة من اللَّه عما صدر منه ليقبل اللَّه توبته في تجشمه وتصميمه علىٰ الإتيان بِهذه الكفارة.

فإن قيل: إن قتل الخطأ لا يكون معصية فما معنىٰ قوله: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فالجواب من عدة وجوه:

أحدها: أن فيها نوعين من التقصير، فإن الظاهر أنه لو بالغ في الاحتياط لم يصدر منه ذلك الفعل، ألا ترىٰ أن من قتل مسلمًا علىٰ ظن أنه حربي كافر، فلو أنه بالغ قبل القتل في الاحتياط والاستكشاف لما وقع في هذا الخطأ، ومن رمىٰ إلىٰ صيد فأخطأ وأصاب إنسانًا فلو احتاط ولم يرم إلا في موضع يقطع بأنه ليس هناك إنسان، فإنه لا يقع في تلك الواقعة، فقوله: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تنبيه علىٰ أنه كان مقصرًا في ترك الاحتياط.

وثانيها: كأن قوله: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ راجع إلىٰ أنه أذن له في إقامة الصوم مقام الإعتاق عند العجز عنه؛ لأن اللَّه إذا تاب علىٰ المذنب فقد خفف عنه، فلما كان التخفيف من لوازم التوبة، أطلق لفظ التوبة لإرادة التخفيف إطلاقًا لاسم الملزوم علىٰ اللازم.

وثالثها: أن المؤمن إذا اتفق له مثل هذا الخطأ فإنه يندم ويتمنىٰ أن لا يكون ذلك مما وقع، فسمىٰ اللَّه ذلك الندم وذلك التمني توبة، وبِهذه الإجابة يتضح الإشكال في إيجاب صوم شهرين متتابعين علىٰ الأم والحاضنة المفرطة للطفل حتىٰ مات بسقوط أو غرق أو ضغط من اضطجاع عليه ونحو ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يعني عليمًا بسرائركم وخواطركم ومقاصدكم، فلا يخفىٰ عليه حقيقة قتل الخطأ ومقاصد صاحبه، فهو عليم بالظواهر والسرائر، وعليم بما يصلح أحوال نفوس

عباده، وما يصلحها من التأديب، وحكيم فيما يشرعه لهم من الأحكام النافعة والرادعة والضامنة لأمن النفوس وسعادتها.

ومن أسرار حكمته أنه لا يؤاخذ العبد إلا بما يقصده ويختاره ويتصدىٰ لفعله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] ونحو ذلك من النصوص، وأن السبب في العقوبة علىٰ قتل الخطأ هو أن صدوره، لا يخلو من التهاون وعدم العناية وقلة المبالاة في بعض الأحوال، خصوصًا من السفهاء والمتسرعين.

فائدة: في كون حكم المؤمن المقتول من مؤمن، وهو من قوم أعداء لنا تسقط ديته بنص هذه الآية قالوا: إن القياس يقوي ذلك؛ لأن الدية لو وجبت في قتل المسلم الساكن بدار الحرب لاحتاج غازيها أن يبحث عن كل أحد هل هو من المسلمين أو الكافرين، وذلك مما يصعب ويشق ويذهب بمهمة الجهاد، فالأولىٰ سقوط الدية عن قاتله؛ لأنه هو الذي أهدر دم نفسه بسكناه في دار الحرب، ولما أسقط اللَّه الدية، أوجب الكفارة التي هي عتق رقبة مسترقة، فإن الكفارة من حقه ﷻ؛ لأنه لما صار ذلك المؤمن الساكن بدار الحرب مقتولًا، فقد هلك إنسان كان مواظبًا علىٰ طاعة اللَّه، والرقيق لا يمكنه المواظبة علىٰ العبادة، فإذا أعتقه فقد أقامه مقام ذلك المقتول في المواظبة علىٰ العبادات، فظهر أن الحكم مرافق للمفعول، وأن القياس يقتضي سقوط الدية؛ لأنه لا محل لها يقتضي بقاء حق اللَّه في الكفارة.

وقوله سبحانه في الآية (٩٣): ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾:

بعد ما أخبر اللَّه سبحانه أن القتل للمؤمن ينافي الإيمان، وأنه لا يصدر من مؤمن إلا خطأ، وتوضيحه لأحكام الخطأ فيما يتعلق بحقوقه وحقوق أولياء المقتول، أتىٰ ببيان القتل عمدًا للمؤمن المعصوم

الدم، وقد رتب عليه هذا الوعيد الشديد في عذاب جهنم والخلود فيها.

وقد استشكل بعض العلماء تخليد القاتل في النار، خصوصًا من شطحت به آراؤه إلىٰ معارضة المعتزلة والخوارج، فأخذ يلوي المعاني بناء علىٰ ذلك، واعتمادًا علىٰ أن قتل المؤمن مجرد خطيئة، وهذا هو الذي ساقهم إلىٰ التأويلات التي بعضها خطير كما نسب إلىٰ الواحدي، والعجب كيف خفي عليهم موافقة منطوق هذه الآية لمفهوم الآية قبلها، وهي واضحة بدون القياس، فالآية التي قبلها تحمل نفي الشأن الذي هو أبلغ من نفي الفعل، بمعنىٰ أنه ما كان من شأن المؤمن الذي هو مؤمن حقيقة أن يقتل أحدًا من أهل الإيمان، فلا تجتمع البواعث علىٰ القتل مع الإيمان في قلب المؤمن الصحيح أبدًا.

إن المؤمن الصادق بالله ورسوله وما جاء به إيمانَ يقينٍ وإخلاصٍ مشبع بالحب والتعظيم يعلم أن المؤمن أخ له بعهد الإيمان الذي ربطه الله به، وجعله أعظم وأوثق وأقوىٰ من أخيه الشقيق في النسب، ويعتبره نصيرًا له في الدين ووليًّا وعضدًا، فكيف يعمد بعد هذا إلىٰ الاستهانة بأمر الله وحكمه، ونقض ميثاقه الذي ربطه بأخيه المؤمن، وتوهين شأن دينه بهدم أركان قوته بقتله لأخيه المؤمن وتجرئة الناس علىٰ مثل ذلك.

إن عمله ينافي الإيمان، بل هو خروج عن الإيمان؛ لأنه بفتح هذا الباب يهون المسلمون ويضعفون، ويكون بأسهم بينهم شديدًا، فلا جرم إذا كان عقابه التخليد في نار جهنم لما صمم عليه ونفذه من نقض عهد الله، والإخلال بأمن المجتمع المؤمن من جراء فعلته الشنعاء التي لا يقدم عليها مؤمن، ولهذا جاء في وصية المصطفىٰ ﷺ في خطبة الوداع: **«ألا لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب»**. ذلك بعد قوله ثلاث مرات: **«ألا هل بلغت؟»**[(١)].

(١) تقدم تخريجه.

فالأمر خطير جدًّا وله أعظم مساس بالعقيدة، وليس مجرد معصية كما توهمه بعض من شطحت به مذاهبه وآراؤه عن تدبر وحي اللَّه تدبرًا صحيحًا مع وفرة علمهم، وجلالة قدرهم رحمهم اللَّه، ولكن المذاهب تعمل عملها، وإلا فمجرد الإمعان في مطلع الآية السابقة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ يكفي لعدم استنكار هذا الوعيد الشديد في الآية بعدها علىٰ قاتل المؤمن متعمدًا، وللعلم بأن صدور هذا العمل فيه منافاة للإيمان، وجناية علىٰ العقيدة الإسلامية وأهلها، ولا يجوز الاعتماد في تفسير هذه الآية علىٰ ما ذكروه من أسباب نزولها في كافر قتل مؤمنًا، فهي عامة كما قرر الأصوليون من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولفظ الآية دال علىٰ الاستغراق، وأيضًا فإن سياق الآيات مانع من تخصيص هذه الآية في حق الكفار، وبيانه من وجوه:

أحدها: أن اللَّه أمر المؤمنين بمجاهدة الكفار والمنافقين ثم علمهم يحتاجون إليه عند اشتغالهم بالجهاد، فابتدأ بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾. فذكر في هذه الآية ثلاث كفارات: كفارة قتل المسلم في دار الإسلام، وكفارة قتل المسلم عند سكنه مع أهل الحرب، وكفارة قتل المسلم عند سكنه مع أهل الذمة وأهل العهد، ثم ذكر عقوبة حكم قتل العمد مقرونًا بالوعيد الشديد، فلما كان بيان حكم قتل الخطأ بيانًا لحكم مختص بالمسلمين كان بيان حكم القتل العمد الذي هو كالضد لقتل الخطأ وجب أن يكون مختصًا بالمؤمنين.

والثاني: أنه تعالىٰ قال بعد هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، وهذه الآية فيها نَهْي المؤمنين عن قتل الذين يظهرون الإسلام، وهذا يقتضي أن يكون قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ نازلًا في نَهْي المؤمنين عن قتل أمثالهم حتىٰ يحصل التناسب، فثبت بما ذكرنا أن ما قبل

هذه الآية وما بعدها يمنع من كونها مخصوصة بالكفار.

والثالث: أنه ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم علىٰ الوصف المناسب له يدل علىٰ كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم، وبِهذا الطريق عرفنا أن السرقة علة القطع، والزنا علة الرجم والجلد ونحو ذلك. فكذا ههنا وجب أن يكون الموجب الوعيد هو هذا القتل العمد؛ لأن هذا الوصف مناسب لذلك الحكم، فلزم كون ذلك الحكم معللًا به، وبِهذا الوجه لا يبقىٰ لقول القائل وجه في كون الآية مختصة بالكفار.

والرابع: أن المنشأ لاستحقاق هذا الوعيد إما أن يكون هو الكفر، أو هذا القتل المخصوص، فإن كان منشأ هذا الوعيد هو الكفر كان الكفر حاصلًا قبل هذا القتل، فحينئذ لا يكون لهذا القتل أثر بتاتًا في هذا الوعيد، ومعلوم أن ذلك باطل، وإن كان منشأ هذا الوعيد هو القتل العمد فحينئذ يلزم أن يقال: أينما حصل القتل يحصل هذا الوعيد فتسقط مزاعمهم.

وأما القول السخيف الخطير القائل، إن التخلف في الوعيد كرم، ويجوز أن يخلف اللَّه وعيده عن المؤمنين، فهذا القول ناشئ من التمذهب بمذاهب أهل الكلام وهو في غاية الفساد؛ لأن الوعيد قسم من أقسام الخبر، فإذا جوزنا علىٰ اللَّه الخلف فيه فقد جوزنا الكذب عليه، وهذا خطأ عظيم يقرب من الكفر كما قاله الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولأننا إذا جوزنا الكذب علىٰ اللَّه في الوعيد جريًا علىٰ القول: بأن الخلف في الوعيد كرم، جاز الخلف في وعيد الكفار وفي سائر الأخبار.

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومعلوم أن فتح هذا الباب يفضي إلىٰ الطعن في القرآن وكل الشريعة، فثبت أن كل واحد من هذين الوجهين ليس بشيء.

قلت: وقول القائل: إن الخلف في الوعيد كرم ليس مطردًا، فإن بعض الخلف أو كثيره يكون مذمومًا لدلالته علىٰ الضعف أو الانتهازية أو المحاباة وغير ذلك، مما يوجب القول بعدم جوازه علىٰ

اللَّه، للقفال رَحِمَهُ اللَّهُ: رأي ضعيف ترده النصوص، وقد كفانا الرازي مئونة هذه الردود، فلا نطيل بها المقام، وإنما نقتصر علىٰ ما يدحض شبهة المتمذهبين.

والخامس: أن جريمة الكفر أعظم من جريمة القتل، فلا يحسن القول بأن الوعيد في هذه الآية مخصوص بالكافر، وإنما يدل هذا الوعيد علىٰ سوء مصدر القتل ومنشئه من صاحبه كما أوضحناه ولله الحمد والمنة.

وليس في هذه الآية دليل للوعيدية من الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد أهل الكبائر في النار قطعًا؛ لأنها وأشباهها يراد بها هدم الإيمان والجناية علىٰ العقيدة وأهلها كما نص في خطبة الوداع، وقد صح الحديث عنه ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مؤمن إلا بثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[(١)].

وقد ضرب اللَّه الذكر صفحًا في هذه الآية عن القصاص لوروده في سورة البقرة، واختلفوا في توبة القاتل اختلافًا كبيرًا، والصحيح أنها تقبل منه إذا تاب وسلم نفسه للقصاص، سواء قتلوه أو عفوا عنه، وجاء نص حديث عبادة ابن الصامت رضي الله عنه في الصحيحين أنه من عوقب في الدنيا فهو كفارة له، وليس القتل بأعظم من الكفر وجرائمه العظيمة، ومن تاب منه فالإسلام يمحوه، وأما حق المقتول فيسقط بتسليم القاتل نفسه لأوليائه توبة منه. وقد فصل ابن القيم الخلاف في «الجواب الكافي» فليرجع إليه.

وإنما شدد اللَّه في أمر القتل للمؤمن عمدًا وجعل المقدم عليه عديم الإيمان قريبًا من الشرك، وجعله لا يجزئ عنه دية ولا كفارة؛ لأن جريمة قتل المؤمن عمدًا ليست جريمة قتل نفس فقط، ولكنها جريمة قتل لوشيجة الإيمان العزيزة الحبيبة التي أنشأها اللَّه بعهد الإسلام

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

بين المؤمن والمؤمن، والتي هي أعز وأغلىٰ من وشيجة النسب؛ لأنها وشيجة روحية إلهية، فقاتل النفس المؤمنة متنكر للإيمان ذاته، وجان علىٰ العقيدة نفسها، ومتسبب لإحزان بيوت كثيرة، وإيغار صدور كثيرة قد تلعب عليها شياطين الجن والإنس، فتثور منها فتنة في المسلمين بسبب هذه الجريمة، ويختل الصف المسلم، وتتزعزع وحدته في بعض الأماكن والشعوب من أجل ذلك.

وقد يحصل من هذه الجريمة نتائج وخيمة يستفيد منها أعداء اللَّه وأعداء عباده المؤمنين، أو تحدث ثغرة في سياسة المسلمين الداخلية أو الخارجية، وقد يحصل من نتائجها أو نتائج القصاص عليها مفاسد كبيرة كما جرىٰ فعلًا في العصر الأول الذهبي من عصور الإسلام، فلهذا رتب اللَّه تلك العقوبة العظيمة عليها، ولهذا كان الذين تربوا في مدرسة محمد ﷺ بمسجد الطين والعريش لا يصدر من أحدهم مثل هذه الجريمة قط، بل كانوا هم يرون قاتلي أبائهم وأبنائهم وإخوانهم قبل إسلامهم يمشون معهم في الأرض بعد أن أسلموا فتخالج صدورهم مرارة الحزن، ولكن الإيمان الذي في صدورهم يطفئ الغيظ منها، ويزيل كل حزازة، فلا يفكرون بالانتقام، بل ينظرون إلىٰ الوشيجة الجديدة نظرة الإعزاز والاحترام، ويعتبرونهم قد حلوا محل من قتلوه أو أعظم في القرابة الروحية التي ليس لها مثيل.

فهكذا تربية الإسلام وعمق تأثيرها في نفوس أهله، ورعايتها للدماء أعظم رعاية لصيانة المجتمع الإسلامي من التفكك، فلا داعي لاختلاف بعض العلماء في شدة الوعيد واستنكارهم لخلود القاتل في نار جهنم، ومحاولتهم الجناية علىٰ النصوص بالتأويلات، قال أبو حيان: من العجب من قوم يقرؤون هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث الفظيعة، وقول ابن عباس مع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتُهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم أهواءهم وما يخيل إليهم مناهم أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]. اهـ.

ذكر اللَّه التوبة في قتل الخطأ لما عسىٰ أن يقع من نوع تفريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ فيه حسم للأطماع وأي حسم، ولكن لا حياة لمن تنادي، وقد ورد في الأثر: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا».

وللزمخشري كلام في هذا جميل إلا أن بعضه مرتكز علىٰ مذهبه المعتزلي؛ قال صاحب «المنار»: ومن نظر إلىٰ انحلال أمر الإسلام والمسلمين بعد ما أقدم بعضهم علىٰ سفك دم بعض من زمن طويل يظهر له وجه هذا، أي وجه التشديد في أمر القتل وكونه لا يصدر من مؤمن حقيقة، وأن القاتل لا يعذر بِهذه الجراءة علىٰ هذه الجريمة، وهو لم تعرض له شبهة في أمر اللَّه إذ لا رائحة للعذر في عمله، بل هو مرجح للغضب وحب الانتقام وشهوة النفس علىٰ أمر اللَّه تعالىٰ، ومن فضل شهوة نفسه الخسيسة الضارة علىٰ أمر اللَّه وعلىٰ كتابه ومصلحة المؤمنين بغير شبهة فهو جدير بالخلود في النار، وغضب اللَّه ولعنته ويدل علىٰ هذا قوله تعالىٰ في الآية (١٣٤) من سورة آل عمران: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأمل قوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ولو سمح اللَّه أن يفضل أحد شهوته أو حجته وغضبه علىٰ اللَّه ورسوله وكتابه ودينه والمؤمنين، ووعده بالمغفرة لتجرأ الناس علىٰ كل شيء، ولم يكن للدين حرمة في قلوبهم.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٩٤):** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)﴾:

هذا الأمر الكريم في هذه الآية للاحتراس من وقوع القتل ولو خطأ، وتطهير قلوب المجاهدين وتمحيصها للَّهِ، حتىٰ لا يكون فيها شيء

لسواه من المقاصد والمطامع، ولهذا ناداهم بنداء الكرامة، لقوة صدقهم وإخلاصهم في الإيمان فقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي سرتم للجهاد في سبيله لقمع أعدائه وقتالهم، ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ خذوا بالتثبت والأناة فيمن أشكل عليكم أمره ولم تعرفوا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تستعجلوا فتبدؤوا بالقتال أو القتل دون اكتشاف الظاهر؛ لأن الباطن علمه عند اللَّه.

فمن التبس عليكم أمره فتثبتوا فيه حتىٰ تعرفوا أنه حرب للَّه ورسوله، ﴿وَلَا﴾ يأخذكم الطمع ﴿تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فتقتلوا أخاكم طلبًا لمتاعها الزائل، معرضين عن التحقيق في إسلامه، واللَّه سبحانه لم يأذن لكم في قتال الكفار طمعًا لتكونوا مثلهم في أطماعهم الدنيوية، بل إنه أوجب الجهاد لرفع منار الحق، وإعلاء كلمته، وقمع المفترين علىٰ اللَّه، والتنكيل بالصادين عن سبيله، والقيام بنشر الهداية وتوزيعها في ربوع الأرض، فأنتم أهل هداية لا أهل جباية للأموال، فإذا فضلتم المال فقد تساويتم مع أعدائكم في الهدف الباطل، فلهذا يأمركم التثبت في أمر العدو لتكون أهدافكم منحصرة في نصر الإسلام، و مقصورة عليه، فلا تقتلوا مسلمًا يبادركم بتحية الإسلام أو النطق بكلمة التوحيد طمعًا في سلبه وماله، (فـ) إنه ﴿عِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ من رزقه وسوابغ فضله، سيهيئها لكم ويمنحكم إياها دون أعمال ملتوية ومقاصد مشوبة، بل بأعمال صحيحة ومقاصد حسنة صريحة سيدفعكم إلىٰ قتال أعداء لكم في الدين، واقفين لدعوتكم بالمرصاد، فتغنمون منهم ما ليس في الحسبان.

وقد حقق اللَّه لهم ذلك لما صدقوا بتطبيق أوامره وأخلصوا له الضمائر، ففي هذه الآية نَهْي صريح عن رفض قبول إسلام من أعلن إسلامه بنطقه بالشهادة، أو تحيته لكم بالسلام الدال علىٰ إيمانه، وأنه لا يجوز للمجاهد إنكاره وحمله علىٰ المخادعة؛ لأن السرائر علمها

عند اللَّه، وهم مطالبون أن يأخذوا بالظواهر كما قال رسول اللَّه ﷺ لأسامة: «**هلَّا شققت عن قلبه**»[١] وذلك لما زعم أن القتيل نطق بالشهادة يريد الخلاص.

وفيها ـ أيضًا ـ بيان أن عرض الحياة الدنيا لا يجوز أن يخطر علىٰ بال المسلمين المجاهدين، أو يكون له أي حساب عندهم، فإنه لا يجوز أن يكون من أهداف المؤمنين قطعًا، حتىٰ يكون التسرع بإراقة دم المسلم من أجله كما حصل من طيش بعضهم، وقد ذكرهم اللَّه بحالتهم القريبة التي كانوا عليها من الاستخفاء بالإسلام ليكون وخزًا لضمائرهم، وتربية لنفوسهم فقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي إنكم كنتم كذلك، تستخفون بدينكم كما استخفىٰ بدينه عن قومه هذا الذي ألقىٰ إليكم السلام فقتلتموه بعد أن أظهر لكم إسلامه، فإنه بقي بين قومه يخفي الإسلام خوفًا منهم، كما كنتم تخفون إسلامكم خوفًا من قومكم، (ف) حالتكم واحدة، ولكن منَّ اللَّه عليكم بالهجرة والقوة التي ظهر فيها إسلامكم حتىٰ استطعتم القيام بالزحف المقدس في سبيل الإسلام ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، أي: تثبتوا كما هي في بعض القراءات، ولا تعجلوا بقتل من أظهر إسلامه فتقتلوه بالظن والتهمة التي قد تكون بعيدة عن الصواب، واذكروا حالتكم المشابهة لحاله.

وقد كان السابقون الأولون الذين هم خيار المؤمنين يخفون إسلامهم حتىٰ أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأظهر إسلامه وحملهم علىٰ إظهار إسلامهم، ثم كان من بعدهم يخفي إسلامه حتىٰ تتيسر له الهجرة، ثم إن الإسلام انتشر، ولم يبق مكان في أرض العرب وقبائلهم يخلو من المسلمين أو الذين يميلون إلىٰ الإسلام، ويتربصون الفرص للاتصال بالمسلمين حتىٰ يدخلوا فيه، فأعلم اللَّه المؤمنين بذلك في هذه

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

الآية، وأمرهم أن لا يحسبوا كل من يجدونه في أرض الكفر كافرًا، وأن يتثبتوا فيمن تظهر منهم علامات الإسلام، إما بإبداء تحية أهله التي هي السلام، أو النطق بالشهادتين، وأن لا يحملوا ذلك علىٰ المخادعة، فربما يكون الإيمان قد دخل في قلوبهم.

وهذه الآية تفيد ـ أيضًا ـ أن زمن التقية قد مضىٰ بظهور الإسلام وانتشاره، وقوله سبحانه للمؤمنين وقت نزولها: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ لا يعني أن جميعهم كانوا كذلك مستخفين بدينهم، وإنما يذكرهم اللَّه بما جرىٰ علىٰ السابقين منهم الذين هم الخيرة والقدوة.

قالوا: واسم الإشارة هو إشارة إلىٰ الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة، والفاء في قوله: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ للعطف علىٰ ﴿كُنتُم﴾، وتقديم خبرها للقصر المفيد لتأكيد المشابهة، كأنه قيل: لا تردوا إيمان من حياكم بتحية الإسلام، وتقولوا: إنه ليس بإيمان عاصم لعدم ظهوره، فإنكم كنتم في سابق الأمر مثله، ولم يأمر اللَّه بالفحص عن تواطؤ ألسنتكم وقلوبكم. و﴿قَالُوٓاْ﴾ إن اللَّه لم يعطف أحد التعليلين علىٰ الآخر؛ لئلَّا يتوهم السامع أنهما تعليلان لشيء واحد، أو يتوهم أن مجموعها علة، وهذا من بيان القرآن للمعاني وإيضاحها، وقيل غير ذلك، واللَّه أعلم.

وقد ورد في سبب نزولها عدة أحاديث من أمثلها ما رواه ابن جرير عن السدي قال: بعث رسول اللَّه ﷺ سرية أمَّر عليها أسامة بن زيد إلىٰ بني ضمرة، فلقوا رجلًا منهم يدعىٰ مرداس بن نُهيك، معه غنيمة له وجمل أحمر، فآوىٰ إلىٰ كهف جبل واتبعه أسامة، فلما وصل مرداس الجبل وضع غنمه ثم أقبل عليهم، فقال: السلام عليكم، أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، فشد عليه أسامة وقتله من أجل جمله وغنمه، وكان النبي ﷺ إذا بعث أسامة أحب أن يثني عليه خيرًا ويسأل عنه أصحابه، فلما رجعوا لم يسألهم عنه، فجعل القوم يحدثون النبي ﷺ ويقولون: يا رسول اللَّه، لو رأيت أسامة

وقد لقيه رجل، فقال: لا إله إلَّا اللَّه فشد عليه فقتله، والنبي معرض عنهم، فلما أكثروا عليه رفع رأسه إلىٰ أسامة فقال: «**كيف أنت ولا إله إلا اللَّه؟**»، فقال: يا رسول اللَّه، إنما قالها متعوذًا يتعوذ بها، فقال عليه الصلاة والسلام: «**هلَّا شققت علىٰ قلبه فنظرت إليه؟**»[(١)]، ثم نزلت الآية.

وفي حديث آخر أن القاتل هو أبو الدرداء، وحديث آخر عن الإمام أحمد، وكل ما احتوياه الاقتصار علىٰ السلام، وقال بعض المحققين: إن الاقتصار علىٰ ذكر تحية الإسلام علىٰ هذا مع أنها كانت مقرونة بكلمة الشهادة للمبالغة في النهي والزجر، والتنبيه علىٰ كمال ظهور خطئهم؛ ببيان أن التحية كانت كافية للكف والانزجار عن التعرض لصاحبها، فكيف وهي مقرونة بتلك الكلمة الطيبة؟

واستدل المحققون بِهذه الآية علىٰ صحة إيمان المكره، وأن المجتهد قد يخطئ وأن خطأه مغتفر، ووجه الدلالة علىٰ صحة إيمان المكره إنكار النبي ﷺ لقتله، فلولا صحة إسلامه لم ينكر عليهم ذلك. ووجه الدلالة علىٰ أن المجتهد قد يخطئ أنَّ اللَّه أمرهم بالتثبت المشعر بأن الخطأ في العجلة، وفيما اشتهر من كلام العلماء: «ما كل مجتهد مصيب»، ووجه الدلالة علىٰ أن المخطئ عن اجتهاد مغفور له مأخوذ من السياق وعدم الوعيد علىٰ التثبت.

وذهب بعضهم إلىٰ أنه لا عذر في ترك التثبت في مثل هذه الأمور، وأن المخطئ يأثم، واحتجوا بأحاديث أخرىٰ بعضها مجمل، وبعضها مفصل في قصة عامر بن الأضبط الأشجعي الذي حمل عليه رجل من غزو المسلمين اسمه محلم بن جثامة بعد ما نطق بالشهادة، وقال: إنه مسلم مرتين، وأن رسول اللَّه ﷺ أنكر عليه غاية الإنكار، وأنه مات بعد ذلك، فدفنه أصحابه عدة مرات والأرض تلفظه ولا تقبله، وأنهم جاء للرسول ﷺ فأخبروه قال: «**إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم،**

---

(١) تقدم تخريجه.

ولكن اللَّه أراد أن يعظكم»[١] ثم طرحوه بين صدفي جبل وألقوا عليه الحجارة.

وقد أجاب العلماء عن هذه الأحاديث بأن الرجل القاتل إنما قتله لشيء كان بينه وبينه، ولم يقتله لمجرد الاشتباه بإسلامه، ولكنه اغتنم هذه الفرصة كما يدل عليه نص الحديث الذي أخرجه أحمد وابن المنذر والطبراني وجماعة عن عبداللَّه بن أبي حدرد الأسلمي الذي ينصُّ علىٰ أن القتل كان لشيء في قلبه من ضغائن الجاهلية، وأنه لما رجع إلىٰ الرسول ﷺ ومعه بردان يطلب الاستغفار قال له: لا غفر اللَّه لك، فقام وهو يتلقىٰ دموعه ببرديه، وعلىٰ هذا فلا حجة لهم بمثل حديث كهذا؛ لأن خطأه ليس عن اجتهاد، بل هو ناشئ عن التشفي لنفسه.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ يعني أنه خبير بظواهركم وسرائركم، عليم بجميع ما تعملونه وتبرزونه وما تخفونه من مخبآت ضمائركم، وهو سبحانه خبير ببواعث أعمالكم في صدق وإخلاص واجتهاد في تحري النصح والحق، أو طيش وحماقة علىٰ غير هدي، أو متابعة للهوىٰ وتفضيل للشهوات والمقاصد النفسية، فاللَّه خبير بصير بجميع ذلك، فكونوا محتاطين فيما تقصدون وما تفعلون، وكونوا متوخين أمر اللَّه سبحانه ومحاذرين من الوقوع في مساخطه، فختام الآية يحمل الوعيد كأمثاله مما سبق، واختلفوا في تكرار قوله سبحانه: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ هل هو للتأكيد أو أن معنىٰ الثانية: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ نعمة اللَّه عليكم والتكرار أولىٰ في المعنىٰ.

قال صاحب «المنار»: فأين هذا من حرص من لم يهتدوا بكتاب اللَّه في إسلامهم، ولا عملهم بأحكامه علىٰ تكفير من يخالف أهواءهم من أهل القبلة، بل من أهل العلم الصحيح والدعوة إلىٰ كتاب اللَّه تعالىٰ وسنة نبيه ﷺ فليعتبر المعبرون، هذا وإن الجاهلين بتاريخ

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٣٠).

الإسلام وبأحوال الأمم والدول إلىٰ هذا الزمان يظنون أن الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ كانوا ملومين في أخذ الغنائم ممن يظفرون بهم، وأن بعض أمم الحضارة صارت أرقىٰ في هذا الأمر منهم، وأن قوانينها في الحرب أقرب إلىٰ أهل النزاهة والعدل من أحكام الإسلام.

فكيف هذا وقوانين الدول المرتقية كلها تبيح أخذ كل ما تصل إليه من أموال المحاربين؟ لا يصدهم عن ذلك سلام ولا دين وقد علمت من هذه الآيات أن الإسلام يمنع قتل من يظهر الإسلام، ومن يلقي السلم أو السلام دون البحث عن حقيقته، ويمنع قتل من بينه وبين المسلمين عهد وميثاق إما علىٰ المناصرة، وإما علىٰ ترك القتال، ومن اتصل بأهل الميثاق المعاهدين، ومن اعتزل القتال فلا يساعد قومه المقاتلين.

وبعد هذا كله رغب عن ابتغاء عرض الدنيا بالقتال ليكون لمحض رفع البغي والعدوان، وتقرير الحق والإصلاح، ولا هم لجميع الدول والأمم الآن إلا الربح وجمع الأموال، وهم ينقضون العهد مع الضعفاء، ولا يلتزمون المعاهدات إلا مع الأقوياء، وهو ما شدد الإسلام في حفظه وحافظ عليه النبي ﷺ في عهده، وحافظ عليه خلفاؤه الراشدون من بعده، فأين أرقىٰ أمم المدنية من أولئك الأئمة المهديين ـ رضوان اللَّه عليهم أجمعين ـ اهـ.

قلت: ولا يزال المسلمون يحترمون العهود دائمًا.

وقال الرازي: قال أكثر الفقهاء: لو قال اليهودي أو النصراني: أنا مؤمن أو أنا مسلم، لا يحكم بِهذا القدر بإسلامه؛ لأن مذهبه أن الذي هو عليه هو الإسلام وهو الإيمان، ولو قال: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه لا يحكم بإسلامه؛ لأن فيهم من يقول: إنه رسول اللَّه إلىٰ العرب لا إلىٰ الكل، ومنهم من يقول: إن محمدًا الذي هو الرسول الحق لم يجئ وسيجيئ بعد ذلك، بل لابد وأن يعترف بأن الدين الذي كان عليه باطل، وأن الدين الموجود فيما بين المسلمين هو الحق، واللَّه أعلم. اهـ.

ولكن ظاهر الآية يدل علىٰ أن كل من قال من المحاربين: أنا مؤمن أو مسلم أو نطق بالشهادتين، فإنه يكف عن قتله وأخذ ماله دون التعمق في تفسيرات ما يقول، مهما كان من أي ملة والله أعلم.

ولا يفوتني أن أنقل شيئًا قليلًا مما قاله العلامة ابن القيم في كتابه «الجواب الكافي» حول القتل، فقد قال رحمه الله: لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذي قامت به السموات والأرض وأرسل الله رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، الظلم من أكبر الكبائر عند الله، وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه، وكان قتل الإنسان من أقبح الظلم وأشنعه... ثم قال: ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة، قال الله تعالىٰ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ثم قال: وفي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال: أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع منكم ألا يأكل إلا طيبًا فليفعل، ومن استطاع ألا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهرقه فليفعل. وهذا الحديث رقمه (٢٤٣٩) في كتاب الأحكام باب من شاق شاق الله عليه.

وفي جامع الترمذي عن نافع قال: «نظر عبدالله بن عمر إلىٰ الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة منك»، قال الترمذي: هذا حديث حسن، والحديث أخرجه الترمذي في (٢٥) كتاب البر والصلة (٨٥) باب ما جاء في تعظيم المؤمن.

وفي صحيح البخاري ـ أيضًا ـ عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال المؤمن في فسحه من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا**». وهذا في (٨٧) كتاب الديات.

وذكر البخاري ـ أيضًا ـ عن ابن عمر قال: من ورطات الأمور التي

لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله. وهو في المرجع المذكور نفسه، وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعًا: «**سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر**»، وهذا في (٢) كتاب الإيمان (٣٦) باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله.

وفي صحيح البخاري عنه ﷺ: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا**». وهو في (٥٨) كتاب الجزية.

هذه عقوبة قاتل عدو اللَّه إذا كان معاهدًا في عهده وأمانه، فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن؟ وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتي ماتت جوعًا وعطشًا، فرآها النبي ﷺ في النار والهرة تخدشها في وجهها وصدرها، فكيف بعقوبة من حبس مؤمنًا حتىٰ مات بغير جرم؟ وفي بعض السنن عنه ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون علىٰ اللَّه من قتل مؤمن بغير حق**».

قلت: وهذا الحديث أخرجه النسائي في (٣٧) كتاب تحريم الدم (٢) باب تعظيم الدم، وأخرجه ابن ماجه في (٢١) كتاب الديات ـ باب التغليظ ـ في قتل المسلم حديث (٢٦١٩) طبعة الحلبي، وأخرجه الترمذي في (١٤) كتاب الديات ـ أيضًا ـ.

ثم ساق ابن القيم الكلام في حكم القاتل والخلاف في قبول توبته، وأسهب في نقل الأقوال ودلائلها ثم قال: والتحقيق في المسألة أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق: حق للَّهِ، وحق للمظلوم المقتول، وحق الولي، فإذا سلم القاتل نفسه طوعًا واختيارًا إلىٰ الولي ندمًا علىٰ ما فعل، وخوفًا من اللَّه وتوبة نصوحًا فقطع حق اللَّه بالتوبة، وحق الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول يعوضه اللَّه عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه فلا يبطل حق هذا، ولا تبطل توبة هذا. انتهىٰ ما أردنا نقله اختصارًا؛ لأنه توضيح لما قلناه سابقًا، وكأن ما قاله جواب

لما نقله من قول بعض المخالفين أن الولي أنما استوفىٰ حقه الذي فرضه اللَّه له، وماذا ينتفع المقتول من استيفاء وارثه من القاتل؟ وأي استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه؟.

فقد أجاب بأن اللَّه يعوض المقتول بجزاء من عنده لقاء توبة القاتل النصوح، فإن اللَّه لا يضيع لأحد حقًّا، هذا ولابد من إيراد الحديث الأول كاملًا وهو حديث ابن سمرة عن طريف أبي تميمة قال: شهدت صفوان وجندبًا وأصحابه وهو يوصيهم فقالوا: هل سمعت من رسول اللَّه ﷺ شيئًا قال: سمعته يقول: «**من سمع سمع اللَّه به يوم القيامة**»، قال: «**ومن يشاقق يشقق اللَّه عليه يوم القيامة**»، فقالوا: أوصنا فقال: «**إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه**»[(١)] إلىٰ آخر الحديث، وليعلم أنه مرفوع.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٩٥)**: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾:

و الآية (٩٦): ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾:

في هاتين الآيتين الكريمتين بيان من اللَّه لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجاتهم في الجهاد؛ الذي هو من أعظم النصح للَّه ولرسوله ولكتابه وعباده المؤمنين، ومناسبة الآيتين لما قبلهما أنه سبحانه لما رغب عباده المؤمنين في القتال في سبيل اللَّه لقمع أعدائه الكفار وإذلالهم، واستطرد من ذلك إلىٰ قتل المؤمن خطئًا وعمدًا بغير تأويل أو بتأويل، ونَهَىٰ عن قتل من أبدىٰ السلام أو نطق بكلمة

---

(١) رواه البخاري (٧١٥٢)، وبنحوه عند مسلم (٢٩٨٦).

الإسلام، ذكر بيان فضل المجاهد على القاعد، وبيان تفاوتهما، وأن ذلك لا يمنع منه كون الجهاد مظنة أن يصيب المجاهد مؤمنًا خطئًا أو يصيب من يلقي السلام فيقتله بتأويل، فيتقاعس عن الجهاد لهذه الشبهة. ولهذا أعقب اللَّه ذلك بذكر فضل الجهاد، وفوز أهله بعالي الدرجات والمغفرة والرحمة والأجر العظيم.

والمقصود من القاعدين هم المتخلفون عن الجهاد لغير عذر شرعي، وسموا بذلك لأن القعود هيئة من لا يتحرك إلى الأمر المقصود عنه في الأغلب، وأما أهل الضرر فهم المعذورون بقعودهم عن الجهاد لمرض أو عرج أو عمى أو فقد راحلة ونفقة، فإن هؤلاء معذورون ومأجورون على حسب نياتهم وتلهفهم وتحسرهم على الجهاد، كما قال ﷺ في غزوة تبوك: «**إن في المدينة رجالًا ما سرتم مسيرة ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم العذر**»[1].

واللَّه سبحانه عليم بالسرائر ويتولى أهلها، فمن كان منهم مغتبطًا بحالته التي حبسته عن الجهاد فهذا ـ والعياذ باللَّه ـ غير مأجور، وقد يأثم إذا استمرت مسرته وطمأنينته لذلك، ومن كان محزونًا متحسرًا على فوات الجهاد، ويتمنى لو كان مع المجاهدين؛ كتب اللَّه له مثل أجر المجاهد، ولا يهلك على اللَّه إلا هالك.

وظاهر الآية يشعر بأن المقصود بالقاعدين هم المأذون لهم بالقعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] بدليل قوله في نفس الآية: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وليس المقصود بهم المتخلفين عن الجهاد للنفاق أو لأغراض نفسية، فإن هؤلاء لهم شأن آخر، ولا يقرنون بالمجاهدين حتى في نفي المساواة، وإنما هم القاعدون الذين لم يستنفروا لعدم الحاجة إليهم، وهم من أهل الإيمان الخالص، ولهذا كانت الفائدة من ذكرهم

---

(١) رواه البخاري (٤٤٢٣).

في الآية هو الإيذان من أول الأمر بأن القعود عن الجهاد لا يقعد بهم عن الإيمان؛ لأنهم ليسوا كالمتخلفين نفسانيًّا، ولهذا جاء الإشعار باستحقاقهم للحسنىٰ، لصدق إيمانهم وحسن مقاصدهم.

قالوا وقدم اللَّه «القاعدون» علىٰ المجاهدين ولم يؤخرهم عنهم ليتصل التصريح بتفضيلهم بهم، وقيل: هو للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبئ عنه عدم الاستواء من جهة القاعدين ليس من جهة مقابليهم، فأن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانًا وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد، لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر، وعليه قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الرعد: ١٦].

وحاصل الآية أنه لا يستوي القاعدون الأصحاء والمجاهدون في سبيل اللَّه، ولما كان عدم الاستواء يحتمل الزيادة ويحتمل النقصان كشف اللَّه سبحانه حقيقة الأمر بقوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾، وذلك لأنهم رجحوا جانبه، واختصوا بمحاربة أعدائه، واختاروا ما عنده سبحانه علىٰ مرادات أنفسهم وشهواتها تفضيلًا منهم لمراد ربهم، ولا شك أن المفضل عليهم هم القاعدون غير أولي الضرر؛ لأنهم هم الذين نفىٰ اللَّه التسوية بينهم.

فذكر ما امتازوا به عليهم، وهو تفضيلهم عليهم بدرجة، فهذه الجملة بيان للجملة الأولىٰ شبه سؤال وجواب مقدر كأن قائلًا قال: فإنهم لا يستوون؟ فقيل فضل اللَّه المجاهدين، والمفضل عليهم هنا درجة هم المفضل عليهم أخيرًا درجات.

وقوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وكلًّا من المجاهدين والقاعدين غير أولي الضرر وعدهم اللَّه الحسنىٰ جزاء علىٰ صدق إيمانهم، والمقصود بالحسنىٰ هي الجنة ههنا كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الليل] يعني الجنة التي بذل من أجلها المال، وتجشم تقوىٰ اللَّه طيلة حياته، وقيل إن المقصود بقوله:

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إنهم المجاهدون، والقاعدون غير أولي الضرر الذين حبسهم عن الجهاد ما بهم من العاهات أو الأعواز، فكلهم يشتركون في الثواب العام وإن كان المجاهدون يمتازون بمزيد الدرجة لما نالوه من البلاء الحسن، ولما أرخصوا للَّه من أرواحهم وأموالهم العزيزة، وإنما أوضح ما للجميع من الحسنىٰ لئلَّا يتوهم متوهم اختصاص المجاهدين بثواب الدارين دون أولئك.

وكذلك أعقب ذكر مزيد الفضل للمجاهدين لئلَّا يتوهم متوهم أن الجميع سواء في ثواب الحسنىٰ، فقال سبحانه: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مع أن التفضيل واضح من أول وهلة، ولكنه سبحانه يريد بيان رفعة شأنهم عنده لزيادة الترغيب في الجهاد، ولئلَّا يستكين القاعدون عنه فيألفوا القعود والأمن والراحة، بل يأنفوا من ذلك ويترفعوا بأنفسهم عن انحطاط رتبتهم رغبة وتنافسًا في رفعة درجاتهم.

وقد أوضح اللَّه سبحانه تفضيلهم الأخير بقوله: ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ وتكرير التفضيلين باعتبار متعلقهما، فالتفضيل الأول بالدرجة هو ما يؤتىٰ في الدنيا من الغنيمة وقبول العمل الذي يترتب عليه خيرًا الدارين، والتفضيل التالي هو ما يخولهم اللَّه في الآخرة ومنطوق الوعد الكريم يقتضي التنبيه بإفراد الأول وجمع الثاني علىٰ أن ثواب الدنيا في جنب الآخرة يسير.

وقيل: إن المجاهدين تتساوىٰ مراتبهم في الدنيا بالنسبة إلىٰ أحوالهم كتساوي المقاتلين بالنسبة إلىٰ أخذ سلب من قتلوه، وكتساوي أنواعهم في الغنيمة، ولكنهم في الآخرة متفاوتون بحسب قوة إيمانهم وصبرهم وثباتهم واختلاف بلائهم، فلهم درجات بحسب استحقاقهم، فمنهم من يكون له الغفران، ومنهم من يكون له الرحمة، فكأن الرحمة أرقىٰ المنازل، والمغفرة فوق الرحمة، ثم كذلك الدرجات علىٰ حسب الطبقات كما قال سبحانه: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

فالدرجات هي باعتبار المنازل الرفيعة بعد دخول الجنة والمغفرة

باعتبار ستر الذنب، والرحمة باعتبار دخول الجنة، وهذا القول مستند علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧] يعني الجنة.

ونص الآية أن هذا التفضيل الخاص للمجاهد بنفسه وماله، ومن انفرد بأحدهما ليس كذلك، ومن المعلوم أن من جاهد وأنفق ماله في الجهاد ليس كمن جاهد بنفقة غيره.

ومن بديع التعبير القرآني تقييد الجهاد بكونه في سبيل اللَّه بأموالهم وأنفسهم لمدحهم بذلك، والإشعار بعلة استحقاقهم هذا الفضل العظيم لعلو المرتبة مع ما فيه من حسن موقع السبيل في مقابلة القعود كما لاحظه المحققون.

وقد أسلفنا حديث البخاري: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم اللَّه فاسألوه الفردوس الأعلىٰ، فإنه أوسط الجنة، وأعلىٰ الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة**»(١).

✍ **وهاهنا فوائد:**

إحداها: لقائل أن يقول: إن اللَّه قدم في هذه الآية الأموال علىٰ الأنفس، وقد قدم في سورة التوبة الأنفس بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١] فما السبب؟ والجواب واضح وهو أن النفس أشرف من المال وأعز وأغلىٰ، فالمشتري قدم ذكر النفس تنبيهًا علىٰ أن الرغبة فيها أشد، وأما البائع فيقدم المال، لأن المضايقة في النفس أشد عليه من المضايقة علىٰ المال، فلا يسمح ببذلها إلا في آخر المراتب.

ثانيها: في تكرار التفضيل درجة ودرجات، فمن هو المفضل في الأولىٰ والثانية؟ قالوا: المفضلون درجة واحدة هم الذين فضلوا علىٰ القاعدين الأضراء، وأما المفضلون درجات فهم الذين فضلوا علىٰ

(١) رواه البخاري (٢٩٧٠).

القاعدين المأذون لهم في القعود اكتفاء بغيرهم، وقال أبو السعود: لعل تكرير التفضيل بطريق العطف المبني علىٰ المغايرة، وتقييده تارة بدرجة وأخرىٰ بدرجات مع اتحاد المفضل، والمفضل عليه حسبما يقتضيه الكلام ويستدعيه حسن النظام، إما لتنزيل الاختلاف العنواني بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتي تمهيدًا لسلوك طريق الإبهام، ثم التفسير روحًا لمزيد التحقيق والتقرير كنص الآية (٨٥) من سورة هود، كأنه قيل: فضل اللَّه المجاهدين علىٰ القاعدين درجة لا يقدر قدرها، ولا يبلغ كنهها. وحيث كان تحقق هذا البون البعيد بينهما موهمًا لحرمان القاعدين قيل: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ثم أريد تفسير ما أفاده التنكير بطريق الإبهام بحيث يقطع احتمال كونه للوحدة فقيل ما قيل، وللَّه در شأن التنزيل، وإما للاختلاف بالذات بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات، علىٰ أن المراد بالتفضيل الأول ما خولهم اللَّه عاجلًا في الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل الحقيق بكونه درجة واحدة، والتفضيل الثاني ما أنعم به عليهم في الآخرة من الدرجات العالية الفائتة للحصر كما ينبيء عنه تقديم الأول وتأخير الثاني، وتوسيط الوعد بالجنة بينهما توضيحًا لحالهما، وتسلية للمفضول انتهىٰ باختصار.

ثالثها: قال بعضهم: إن التفضيل الثاني علىٰ حسب مراتب الجهاد، فمن عقر جواده وأزهقت روحه فهو أعلىٰ درجات الفردوس إذا كمل صدقه للَّه وإخلاصه معه، ثم يليه من قتل ولم يعقر جواده قبل ذلك، ثم يليه من عقر جواده وسلمت روحه، وهكذا من عقر بعيره ثم أزهقت نفسه، ويليه من أزهقت نفسه وسلم بعيره، ثم من عقر بعيره وأزهقت روحه، وهكذا الفضل فيمن جاهد بنفسه وماله علىٰ من جاهد بنفسه دون مال أو بمال غيره كما سبق.

وقال بعضهم: التفضيل علىٰ حسب الجهاد الصغير والكبير، فالصغير جهاد الكفار، والكبير جهاد النفس، واستدلوا بقوله ﷺ:

«**رجعنا من الجهاد الأصغر إلىٰ الجهاد الأكبر**»[(١)] وإنما كانت مجاهدة النفس أعظم؛ لأن من جاهد نفسه فقد جاهد الدنيا كلها، ومن غلب الدنيا فقد هان عليه جهاد أعداء الإسلام.

قلت: إن الجهاد المقصود في آيات القتال هو جهاد الكفار، وتتفاوت درجاته بما ذكرناه، وأما جهاد النفس فبعضه من لوازم الإيمان، وبعضه من مكملاته المدخلة للمؤمن في حظيرة الإحسان، وهو من أقوىٰ أسباب نصر اللَّه.

رابعها: إبهام اللَّه للفضل بعدم تفصيل الدرجات هو أعظم من تفصيل المنزلة التي بين القاعد والمجاهد؛ لأن المتأمل يبقىٰ مع فكره، ويتخيل الدرجات بينهما.

خامسها: ذكر العلماء أن التنكير في هذه الآية العظيمة يفيد تفخيم الشأن المذكور فيها.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعني أنه ﷻ غفور لمن يستحق المغفرة، ورحيم لمن يتعرض لنفحات رحمته، وما حصل عباده علىٰ هذا الفضل والدرجات إلا بما اقتضته صفاته من الجود والكرم وإحاطة العلم والحكمة، ففي ختام هذه الآية وعد من اللَّه لعباده المؤمنين الصادقين علىٰ اختلاف درجاتهم، فهو في مقابلة الوعيد الذي في سابقتها.

سادسها: دلت هذه الآية الكريمة علىٰ أن الجهاد من أفضل الأعمال وأفضل القربات للقاعدين؛ لأن اللَّه سبحانه فضل المجاهدين علىٰ القاعدين مطلقًا، فمهما عملوا من الأعمال في قعودهم عن الجهاد لا يحصلون علىٰ شيء من الأجور والفضائل تجبر قعودهم عن الجهاد، بل إن المجاهدين أفضل منهم مهما عملوا من الأعمال.

وقد فرع العلماء علىٰ هذا أن من أوصىٰ بأن يصرف ثلث ماله أو

---

(١) رواه البيهقي في «الزهد الكبير» (٣٧٣). وضعفه.

كله في أفضل الأعمال أو أحسن وجوه البر؛ فإنه يصرف في الجهاد خلاف ما ذكر بعضهم من أنه يصرف لطلب العلم، ولكن في هذا العصر الذي عطل فيه جهاد القتال، ولم يكنس له راية وقيادة، فإنه يصرف إلىٰ وجوه الجهاد الأخرىٰ من الدعوة للإسلام، وإنعاش أهله، والعمل علىٰ رفعة شأنهم في أصوات الانتخاب، وتركيز الركائز النافعة لدين اللَّه وأهله المؤمنين، وإزاحة الشر عنهم إذا كان يزاح بالمال والتأليف ونحو ذلك مما يدخل في أنواع الجهاد.

هذا وإن جميع أنواع النوافل والتطوع لا تقوم مقام يوم من أيام الجهاد، وذلك لأنه فيه الذب عن العقيدة الإسلامية، والدفاع عن المسلمين ورفعة شأنهم، ورفع التسلط عنهم، وقمع كل من يحاول إذلالهم أو فتنتهم أو النيل منهم، ولهذا جعله اللَّه ذروة سنام الدين، ونَهَىٰ عن تركه، وتوعد تاركيه بأبشع أنواع الوعيد، وحكم عليهم بالميتة الجاهلية، وقضىٰ بإنزال ذل عليهم لا ينزعه منهم حتىٰ يراجعوا دينهم بالجهاد، وتوعدهم بالخزي في الدنيا والآخرة، وقد أسلفنا سرد الأحاديث في الجهاد، والوعيد علىٰ تركه، وأن من لم يجاهد أو يعن المجاهد أو يخلف الغازي في أهله بخير، فإنه لابد أن تصيبه غاشية من عذاب اللَّه قبل موته.

ولا يخفىٰ علىٰ أحد من ذوي العقل والدين ما حل بالمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من أنواع الاضطهاد والفتنة والتنكيل، زيادة علىٰ ما ابتلوا به من الغزو الفكري الفظيع الذي حطم عقيدة الشباب، وأفسد أخلاقهم بل حصل علىٰ الكهول منهم مثل ذلك، وكله من جراء تعطيل الجهاد الذي نتج منه انعدام قيادة إسلامية مهتمة بأمور المسلمين، تدافع عنهم، وتعمل علىٰ رفع مستواهم كما يليق، علمًا أن الملاحدة الشيوعيين لهم من يحميهم ويتدخل في شئون الدول الداخلية من أجلهم، فلا يجري عليهم شيء مما يجري علىٰ المسلمين. فمتىٰ يخشىٰ اللَّه ذوو الحل والعقد، ويتقونه في إعادة

راية الجهاد معتمدين عليه؟

سابعها: أحسن ما ذكر النحويون في انتصاب قوله: ﴿أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ وجهان:

أحدهما: أنه انتصب بقوله سبحانه: ﴿وَفَضَّلَ﴾ لأنه في معنىٰ قولهم: أجرهم أجرًا، ثم قوله: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ بدل من قول أجرًا.

ثانيهما: أنه انتصب علىٰ التمييز، و﴿دَرَجَٰتٖ﴾ عطف بيان ﴿وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ معطوفان علىٰ درجات.

ثامنها: بنبغي أن يعلم أن هذه الدرجات المنصوص عليها هي للمجاهدين السالمين من القتل، وليست درجات الشهداء، فإن لهم مزيدًا من الدرجات.

تاسعها: قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا كله ينبئ بحقيقتين:

الأولىٰ: هي أن هذه النصوص كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة كما أسلفنا وتعالجها، وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكًا لطبيعة النفس البشرية، ولطبيعة الجماعات البشرية، وأنها مهما بلغت في مجموعها من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائمًا في حاجة إلىٰ علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف، وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس، مع خلوص النفس للّه وفي سبيله، لتنهض من السفح، وتسير في المرتقىٰ الصاعد إلىٰ القمة السامقة كما ترىٰ في المنهج الرباني الحكيم.

والحقيقه الثانية: هي قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان اللّه، واعتبارات هذا الدين وأصالة هذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة هذا النظام لما يعلمه سبحانه من طبيعة الطريق، وطبيعة البشر وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين.

إن الجهاد ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفطرة، إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة لا كما قاله بعض أصحاب التكهنات

والظنون، ولو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة لما استغرق كل هذه الفصول، من صلب كتاب اللَّه في مثل هذا الأسلوب، ولما استغرق كل هذه الفصول من سنة رسول اللَّه ﷺ وفي مثل هذا الأسلوب، ولو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول اللَّه ﷺ تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلىٰ قيام الساعة: «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات علىٰ شعبة من النفاق**»[1].

ولا يجوز لأحد أن يقول: إن الجهاد لملابسات خاصة بسبب رده ﷺ لبعض الأفراد لمبرة أبوية، وليس معنىٰ ذلك أن الإسلام يجب أن يشهر سيفه ويمشي في الطريق يقطع الرءوس، ولكن لأن واقع حياة الناس، وطبيعة الدعوة تلزمه أن يمسك بِهذا السيف، ويأخذ حذره في كل حين، إن اللَّه سبحانه يعلم أن هذا أمر تكرهه الولاة، ويعلم أنه لابد لأصحاب النفوذ أن يقاوموه؛ لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم، ليس بالأمس فقط ولكن اليوم وغدًا وفي كل أرض وفي كل جيل، وأن اللَّه يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفًا، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو مهما يسلك هذا الخير من طرق سليمة موادعة؛ لأن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة علىٰ الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر علىٰ الباطل.

ولابد أن يجنح الشر إلىٰ العدوان، ولابد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة، هذه جبلة وليست ملابسة وقتية، هذه فطرة وليست حالة طارئة، ومن ثم لابد من الجهاد، لابد منه في كل صورة، ولابد أن يبدأ في عالم الضمير، ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود، ولابد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح، ولابد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة، وإلا كان الأمر انتحارًا، أو كان هزلًا لا يليق بالمؤمنين، ولابد

---

(١) رواه مسلم (١٩١٠).

من بذل الأموال والأنفس كما طلب اللَّه من المؤمنين، وكما اشترىٰ منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فإما إن يقدر لهم الغلب أو يقدر لهم الاستشهاد، فذلك شأنه سبحانه وذلك قدره المصحوب بحكمته.

أما هم فلهم إحدىٰ الحسنيين عند ربهم، والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل، والشهداء وحدهم هم الأحياء الحقيقيون.

هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة، وفي منهجها الواقعي، وفي خط سيرها المرسوم، وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية التي لا علاقة لها بِهذه الظروف، وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين تحت أي ظرف، ومن هذه النقط الجهاد الذي يتحدث عنه اللَّه سبحانه هذا الحديث، الجهاد في سبيل اللَّه وحده وتحت رايته وحدها، وهذا هو الجهاد الذي يسمىٰ من يقتلون به شهداء ويتلقاهم اللَّه الأعلىٰ بالتكريم. انتهىٰ باختصار وتصرف قليل.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٩٧)**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾:

والآية (٩٨): ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾:

والآية (٩٩): ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

مناسبة هذه الآيات لما قبلها، هي أن اللَّه ﷻ لما ذكر ثواب المجاهدين، وفضلهم علىٰ القاعدين المأذون لهم في القعود من غير ضرر تفضيلًا عظيمًا أتبعه بذكر عقاب التاركين للهجرة والمساكنين للكفار الذين بسكناهم قعدوا عن الجهاد، فلم ينتفع المسلمون بشيء من مجهودهم، بل ولم تنتفع بهم عقيدتهم ببقائهم بين المشركين،

وروىٰ البخاري عن ابن عباس أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم علىٰ عهد رسول اللّه ﷺ، يأتي السهم يرمىٰ به فيصيب أحدهم أو يضرب فيقتل، فنزلت هذه الآية وقد وردت آثار غير هذا لا نرىٰ لذكرها حاجة.

والمقصود بالتوفي هنا قبض الأرواح، وقد أسلفنا معانيه في سورة آل عمران، وقوله سبحانه: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ يحتمل أن يكون ماضيًا وتركت علامة التأنيث للفصل، ولأن الفاعل غير مؤنث حقيقي، ويحتمل أن يكون مضارعًا وأصله: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ فحذفت إحدىٰ التاءين تخفيفًا، وهو لحكاية الحال الماضية، ويؤيد الأول قراءةُ من قرأ: ﴿تَوَفَّتْهُمُ﴾، والثاني قراءة إبراهيم: ﴿تُوفيهم﴾ بضم التاء علىٰ أنه مضارع وفيت، بمعنىٰ أن اللّه يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفونها، أي يمكِّنهم من استيفائها فيستوفونها كما أشار إلىٰ ذلك ابن جني من اللغويين، وكل هذا علىٰ أن المراد من التوفِّي قبض الروح كما قاله ابن عباس رضي الله عنه، وقال الحسن: إن المراد به الحشر إلىٰ النار حيث تستلمهم الملائكة إليها، والمراد من الملائكة ملك الموت وأعوانه، وقد قيل: إنهم ستة، ثلاثة لأرواح المؤمنين، وثلاثة لأرواح الكافرين.

ويرىٰ الأكثرون أن المراد بهم ملك الموت فقط، وهو من إطلاق الجمع مرادًا به الواحد، تفخيمًا له وتعظيمًا لشأنه، وذلك في الحقيقة بعيد كما قاله المدققون، والتحقيق أنه لا مانع من نسبة التوفي إلىٰ اللّه سبحانه وإلىٰ ملك الموت وأعوانه، بل قد ثبت بالنصر أن الذي يتولىٰ قبض الأرواح جمع من الملائكة كأعوان لملك الموت، وذلك في قوله سبحانه في بعض الآية (٦١) من سورة الأنعام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ وعلىٰ هذا التحقيق فاللّه هو الآمر بل هو الفاعل الحقيقي، وملك الموت أو أعوانه هم المزاولون لإخراج الروح من نحو العروق والشرايين والعصب، والنازعون لها من تعلقها بذلك، ولا يبعد أن يكون ملك الموت هو القابض المباشر

لأخذها بعد تهيئتها، واللَّه أعلم.

وهذه الآيات نزلت في الهجرة وعظم شأنها وخطرها، وقد كانت جزيرة العرب في عهد النزول قسمين: أحدها دار هجرة المسلمين ومأمنهم، وثانيها دار الشرك والحرب للدين وفتنة أهله، وكان غير المسلم في دار الإسلام حُرًّا في دينه لا يفتن عنه ولا يؤذىٰ فيه؛ إذا لم يجر منه إساءة ولا انحياز لأهل الحرب، كما أنه ـ أيضًا ـ حُرٌّ في تنقلاته، لا يُمنع من الأسفار، وأما المسلم في دار الشرك فعلىٰ العكس من ذلك يضطهد ويُعذب ليفتن عن دينه، ويمنع من التصرف في نفسه، فلا يسافر ولا يهاجر إلىٰ إخوانه المسلمين إذا كان مستضعفًا ليس له قوة ولا أولياء أو أنصار يحمونه، ولأجل هذا كانت الهجرة واجبة علىٰ كل مسلم قادر، ليكون حُرًّا في دينه، آمنًا علىٰ نفسه، وليكون وليًّا ونصيرًا للنبي ﷺ ولأصحابه المؤمنين، يعينهم ويكثر سوادهم، ليساعدوهم علىٰ قمع أعدائهم الكفار الذين يكررون الهجوم عليهم للانتقام منهم دون فتور.

فالهجرة واجبة عليهم لهذا السبب، ولكونهم في حاجة إلىٰ تلقي الأحكام، ومعه وحي اللَّه عند نزوله، وكان كثير منهم يخفي إسلامه، وهم ينقسمون بطبيعة الحال إلىٰ أربعة أقسام:

حيث إن منهم: القوي الشجاع الذي يظهر إيمانه ويعلن هجرته مستعدًّا لمقاومته المشركين المعاندين.

ومنهم: من يكتم إيمانه ليتمكن من الهجرة في غاية السرية.

ومنهم: من يؤثر البقاء في وطنه بين أهله لضعف إيمانه، مفضلًا مصالح الدنيا التي هو فيها علىٰ عقيدته الإسلامية.

ومنهم: المستضعف الذي لا يقدر علىٰ الانفلات من مراقبة المشركين وظلمهم، ولا يدري أية حيلة يعمل، ولا أي طريق يسلكه، وهذان الصنفان هم المقصودون في هذه الآيات الكريمات بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ

ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾.

والظلم له معان يقصد ببعضها الشرك كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] ويقصد ببعضها المعاصي كما قال تعالىٰ: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] ويقصد به ظلم المسلم أو المسلمين بانتقاص شيء من حقوقهم، أو خذلانهم بعدم النصرة لهم، أو الإضرار بهم في مساعدة أعدائهم طوعًا أو كرهًا، ونحو ذلك من إنزال أنواع الأضرار، أو ظلم العقيدة الإسلامية بعدم التحمس لها والغضب من أجلها، وعدم العمل في سبيلها.

وكل هذه الأنواع وأضعافها يجري من تارك الهجرة، ولهذا تتساءل الملائكة مع هؤلاء التاركين للهجرة وهم قادرون، وذلك عند موتهم أو عند حشرهم إلىٰ الناس قائلين لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمۡ﴾؟ يعني: في أي شيء كنتم من أمر دينكم حتىٰ صار مصيركم إلىٰ النار؟ وهذا الاستفهام يراد به التوبيخ علىٰ شيء معلوم وليس عن شيء يجهلونه من حقيقة حالهم، ولهذا أجابوا بقولهم: ﴿كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذا اعتذار منهم عن تقصيرهم في دينهم الذي وبختهم الملائكة عليه، ومعنىٰ جوابهم أنهم لم يستطيعوا أن يكونوا في شيء يُعتد به من أمر دينهم الذي هو من أوجب واجباتهم في الحياة، بحيث يجب أن تكون حياتهم ومماتهم في سبيله، وأن تنحصر جميع أعمالهم لصالحه ومن أجله، فكان جوابهم أنهم لم يكونوا علىٰ شيء من ذلك، لاستضعاف الكفار لهم، ولهذا ردت عليهم الملائكة برد مفحم مخرس حيث قالوا: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾؟ لتحرير أنفسكم من رق الذل والاستضعاف؛ الذي لا يليق بالمؤمن الصبر عليه ولا الرضا به في حياته، فالاستضعاف لا يجوز أن يكون مانعًا لهم من الهجرة، ومسوغًا لإقامتهم مع الكفار تحت سيطرة أعدائهم، وذلك أنهم كانوا قادرين علىٰ الهجرة إلىٰ موضع يستطيعون فيه خدمة دينهم وعقيدتهم، ويكونون سندًا لإخوانهم المهاجرين قبلهم، ولعدم قيامهم بِهذا الواجب الذي يقدرون عليه لو صمموا كان

مصيرهم سوء الدار في الآخرة كما قال ﷻ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ يعني وقبحت جهنم مأوىٰ ومصيرًا لمن يصير إليها؛ لأن جميع ما فيها يسوء داخليها؛ ولا يرون فيها أي مسرة ولا لحظة من لحظات إقامتهم فيها.

قال الزمخشري: وهذا دليل علىٰ أن الرجل إذا كان في بلده لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب والعوائق، وعلم أنه في غير بلده أقوم بحق اللَّه وأدوم علىٰ العبادة حقت عليه المهاجرة.

وقال «صاحب المنار» عن شيخه: ذكر اللَّه تعالىٰ في الآية السابقة فضل المجاهدين في سبيل اللَّه علىٰ القاعدين لغير عجز، فعلم أن العاجز معذور، ومعنىٰ سبيل اللَّه الطريق الذي يُرضيه ويقيم دينه، ثم ذكر حال قوم أخلدوا إلىٰ السكون وقعدوا عن نصر الدين، بل وعن إقامته حيث هو، وعذروا أنفسهم بأنهم في أرض الكفر، حيث اضطهدهم الكافرون ومنعوهم من إقامة الحق، وهم عاجزون عن مقاومتهم، ولكنهم في الحقيقة غير معذورين؛ لأنه كان يجب عليهم الهجرة إلىٰ المؤمنين الذين يعتزون بهم، فهم بحبهم لبلادهم وإخلادهم إلىٰ أرضهم، وسكونهم إلىٰ أهليهم ومعارفهم ضعفاء في الحق لا مستضعفون، وهم بضعفهم هذا حرموا أنفسهم بتركهم الهجرة من خير الدنيا بعزة المؤمنين؛ ومن خير الآخرة بإقامة الحق، فظلمهم لأنفسهم عبارة عن تركهم العمل بالحق خوفًا من الأذىٰ وفقدًا للكرامة عند عشرائهم المبطلين.

وهذا الاعتذار هو نحو مما يعتذر به الذين جاروا أهل البدع علىٰ بدعهم في هذا العصر وفي كثير من الأعصار، يعتذرون بأنهم يجنبون الغيبة عن أنفسهم، ويدارون المبطلين، وهو عذر باطل، فالواجب عليهم إقامة الحق مع احتمال الأذىٰ في سبيل اللَّه أو الهجرة إلىٰ حيث يتمكنون من إقامة دينهم.

وللفقهاء خلاف في الهجرة، هل وجوبها مضىٰ أو هو مستمر في كل زمان، والمالكية علىٰ الوجوب، قال: ولا معنىٰ عندي للخلاف في

وجوب الهجرة من الأرض التي يمنع فيها المؤمن من العمل بدينه، أو يؤذىٰ فيه إيذاء لا يقدر علىٰ احتماله، وأما المقيم في دار الكافرين ولكنه لا يمنع ولا يؤذىٰ إذا هو عمل بدينه، بل يمكنه أن يقيم جميع أحكامه بلا نكير، فلا يجب عليه أن يهاجر، وذلك كالمسلمين في بلاد الانكليز لهذا العهد، بل ربما كانت الإقامة في بلاد الكفر سببًا لإظهار محاسن الإسلام وإقبال الناس عليه اهـ.

أي إذا كان المسلمون المقيمون هنالك علىٰ حريتهم يعرفون حقيقة الإسلام ويبينونها للناس بالقول والعمل والأخلاق والآداب. انتهىٰ كلامهما وفيه إبهام وغفلة ينبغي تفصيلها بإيضاح.

أما الإبهام: فهو أن إظهار الدين ليس مقصورًا علىٰ فعل شرائع الإسلام الظاهرة من أذان وصلاة ونحوهما، إلا إذا كان يقصد بقوله: «بل يمكنه أن يقيم جميع أحكامه بلا نكير» يقصد بالتعميم أظهار دينه بالدعوة إلىٰ اللَّه ومجاهدة أعدائه بالحجة قلمًا ولسانًا، بحيث يستطيع تفنيد مزاعم المشركين، ودحض باطلهم بالحكمة والموعظة الحسنة، لا أن تفسر الحكمة بالجبن والخرس والميوعة المفضية إلىٰ الإنصهار في بوتقتهم.

وأما الغفلة: فهي غفلتهما عن مناهج التربية والتعليم ووسائل النشر والإعلام التي هي بيد الدول الحاكمة لبلاد الكفر، ويربون عليها الناشئة، ويطبعون عقولهم بها، فكيف يكون مصير أولاد المسلمين في مدارس الكفر وصحفهم وواقع بلادهم وفسقهم من المراقص والمسارح الخليعة والبلاجات العارية والتبرج والتفسخ والانحلال الخلقي الكامل بجميع معانيه، هل يقدر المسلمون علىٰ تربية أولادهم بمدارس لها مناهجها الروحية تعترف بها الدولة اعترافًا يجعل شباب المسلمين يتساوىٰ مع غيره في نيل أسباب المعيشة، ويتوقىٰ من هدم عقيدته وأخلاقه، أم الأمر بالعكس، لو سمح لهم بالمدارس التي لا تقبل شهادتها، وليس لأهلها حقوق مدنية، فإن هذا من موجبات الهجرة ـ أيضًا ـ.

والخطة المرسومة من قبل الماسونية اليهودية انتهجتها دول كثيرة في «أوربا» و «أمريكا» هي تركهم الحرية الدينية، لكن المتمتع بها تمامًا هم النصارىٰ واليهود من دون المسلمين، لخمولهم من جهة، وليقظة تلك الدول أمام الإسلام ومحاذرتها من اشتعال شرارته الكامنة في نفوس الصادقين المخلصين من أهله، فإن جعلهم مناهج التعليم بأيديهم يسيرونها علىٰ الطريقة الإلحادية الماسونية، واحتكارهم لوسائل النشر والإعلام علىٰ ما يريدونه، يجعل المسلمين الساكنين عندهم في حالة انتحار؛ لأنهم لم يقوموا بتدريس أولادهم وتثقيفهم ثقافة دينية صحيحة، ولو قاموا فهل تمكنهم الدول من ذلك كما مكنت غيرهم من اليهود والنصارىٰ؟

إن بعض الدول أو أكثرها لا تمكن المسلمين كما يمكن غيرهم، وثمة نقطة مهمة وهي أن طبيعة دين اللَّه الإسلام الصحيح ليست كطبيعة غيره، فهو دين حركي، يوجب علىٰ أهله الطموح ليكونوا هم المسيرين لغيرهم لا مسايرين كما تريده اليهودية العالمية، وهذا شيء يصعب علىٰ المنغمس في المحيط الكافر، وعلىٰ هذا فلابد للمسلمين من التجمع في محيط صالح يحصلون به علىٰ التنفس الصحيح الكامل، ليكون قوة لعقيدتهم، ومنطلقًا للزحف بها، وليس ذلك بالأمر العسير.

فإن في محيط العالم الدولي الآن مجالات واسعة في بعض دول الحرية الصحيحة، صالحة للتكتل الإسلامي المفضي إلىٰ الانتشار والقوة والتحرك، ولذا قال اللَّه سبحانه: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾؟ وهو العليم الحكيم الذي لا يكلف نفسًا إلا وسعها، والذي يعلم أنه يوجد في كل زمان مأوىٰ للمؤمنين في بعض الأرض فيه لعقيدتهم مرتع خصيب ومنطلق صالح، فما علىٰ المسلمين إلا النصح للَّه ولكتابه ولرسوله ﷺ باختيار الموقع الصالح لما يرضيه ﷻ، وأن لا يتعلقوا بالأوطان وغيرهم من الأقوام والمصالح، بل يكون همهم الأكبر وغايتهم الوحيدة العمل لنصرة دين اللَّه وإعادة الزحف المقدس به من جديد،

وهو سبحانه يقول: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥] ولا يجوز للمسلمين إضاعة فرصة الحرية في بعض الأمكنة، وهم مسؤولون عن هذه الإضاعة، ومعاقبون علىٰ استمرارهم بالسكنىٰ في بلاد مكبوتين فيها مهما كانت دولتها؛ لأن لهم مندوحة عنها.

وهنا فوائد:

إحداها: تشديد اللَّه سبحانه في أمر الهجرة علىٰ المسلمين؛ لأنهم إذا بقوا تحت سيطرة الكفر عاشوا أذلاء مستضعفين، وصاروا لا يقدرون علىٰ خدمة دينهم وعقيدتهم بحمل الرسالة والتبليغ الواجب، بل صاروا لا يقدرون علىٰ تربية أولادهم تربية دينية من جميع الوجوه؛ لأن السلطة هي التي تقوم بوسائل التربية والتوجيه بما يحصل منه الجناية علىٰ الأفكار والضمائر، بإفساد التصورات إفسادًا يحصل منه استحسان القبائح، واستحلال الحرام واستهجان التشريع الإسلامي، وأخذ فكرة خاطئة عن الإسلام وتاريخ أهله.

كما أن الأحكام الكافرة الفاجرة الديوثية تجري عليهم وعلىٰ أهليهم وأولادهم، كالأحكام التي تجعل الجناية علىٰ الكلب ونحوه أعظم من الجناية علىٰ أعراضهم، وتجعل قيمته أغلىٰ من قيمة أعراضهم، كما تنص قوانينهم المعمول بها أن يعفىٰ مرتكب الزنا حالة الرضىٰ بدلًا من إقامة حدود اللَّه، وغير ذلك من إباحة الفساد ووسائل الإفساد كالتبرج والتفسخ وبث المراقص وغيرها من كل فجور وخلاعة، فالساكن بينهم يتعرض لذلك هو وذريته، فلا يبقىٰ لدينه قيمة، ويتعرض مع ذريته ـ أيضًا ـ للسكر المعنوي والرق المعنوي، زيادة علىٰ السكر الحسي الذي روجوه بإباحة المسكرات.

وأيضًا فإنه ببقائه في البلاد المحكومة بالكفر يمدها بعناصر القوة والنماء، فتكون حياته ومجهوداته مددًا ورفدًا لأعداء اللَّه وأعدائه، خلاف ما أوجب اللَّه عليه من جعل حياته ومجهوداته مددًا لعقيدته،

ورفدًا لرسالته، وأيضًا فإن أولاده تجري عليهم أحكام الجندية، فيكونون ضد الإسلام والمسلمين رغمًا عنهم، ويكونون من المقاتلين في سبيل الطاغوت، فهذا بعض الثمرات الحنظلية لترك الهجرة، فلا عجب في تشديد اللَّه بأمرها، والحكم علىٰ تاركها بنار جهنم وساءت مصيرًا.

ثانيها: بناء علىٰ ما تضمنته بعض فقرات من الفائدة الأولىٰ وما هو واقع البلاد الإسلامية التي ابتليت بالغزو الفكري والثورات واحتلال الصدارة ممن هم علىٰ مخالفة التنزيل، فقد أصبحت الهجرة إلىٰ البلاد الموسومة بالإسلامية عديمة الفائدة، أو كالانتقال من خطر إلىٰ خطر، وعلىٰ هذا فيجب علىٰ المسلمين في أكثر الأمكنة البحث عن بلاد فيها الحرية واسعة، ليحصل لهم التنفس وانتشار الدعوة والمنطلق النافع، وإلا فيحق عليهم هذا الوعيد في هذه الآية.

ثالثها: قال المهايمي: ولما أوهم ما فهم مما تقدم من تساوي القاعدين أولي الضرر والمجاهدين أن من قعد عن الجهاد لكونه في دار الكفر محسوب منهم وإن عجز عن إظهار دينه، فإن لم يحسب فلا أقل من أن يحسب من القاعدين غير أولي الضرر الموعود لهم الحسنىٰ أزيل ذلك الوهم، بأنهم بترك الهجرة من مكان لا يمكنهم فيه إظهار دينهم مع إمكان الخروج عنه صاروا ظالمين مستحقين لتوبيخ الملائكة، بل لعذاب جهنم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة عن مكان لا يمكنهم فيه إظهار دينهم مع القدرة عليها وبموافقة الكفار... إلىٰ أن قال: وروىٰ أبو داود في كتاب الجهاد ـ باب في الإقامة بأرض الشرك ـ حديثًا رقم (٢٧٨٧) عن سمرة ابن جندب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله». انتهىٰ باختصار.

رابعها: إن اللَّه العليم الخبير يعلم أن المشركين لا يسمحون للمؤمن أن يهاجر بماله منهم، بل يصادرونه، ومع هذا لم يعذرهم علىٰ أموالهم،

بل أوجب عليهم الهجرة مع مصادرة المال، وشدد عليهم في الوعيد علىٰ تركها؛ لأن الجناية علىٰ المال شيء تافه بالنسبة إلىٰ الجناية علىٰ العقيدة ومصادرة الأذهان.

خامسها: إن قيل: كيف صح وقوع قوله: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ وكان حق الجواب أن يقولوا: كنا في كذا، ولم يكن في شيء؟ قيل: معنىٰ ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين، حيث قدروا علىٰ الهجرة ولم يهاجروا كما أسلفنا ذلك، فقالوا: كنا مستضعفين في الأرض اعتذارًا مما وبخوا به، واعتلالًا بالاستضعاف، وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتىٰ يكونوا في شيء من الدين، فجوابهم يعتبر علىٰ المعنىٰ لا علىٰ اللفظ، وجوابهم كذب كما أوضحه صاحب «المنار» بما أسلفناه؛ لأنه يمكنهم حل عقدة هذا الأمر الذي أخل بدينهم بالرحيل إلىٰ قطر آخر من الأرض يقدرون فيه علىٰ إقامة دينهم، كمن هاجر إلىٰ الحبشة؛ لأنهم بمساكنتهم المشركين يضطرون إلىٰ موافقتهم علىٰ الخروج لحرب رسول اللَّه ﷺ وهذا يغيظه ولو كانوا مقهورين؛ لأنهم تسببوا لأنفسهم بالقهر، فاستحقوا جهنم، لتركهم الفريضة المحتومة فعذرهم بارد ليس شيء أبرد منه إلا الزمهرير.

سادسها: قال بعض المحققين: إن عدم التقييد بالتأبيد في نار جهنم ليس نصًّا بالعصيان فيما دون الكفر، فلا يدل علىٰ أن معصيتهم أخف من الكفر ـ والعياذ باللَّه ـ وإنما النص التقييد بعدمه وهذا لم يذكر، وعن السدي كان يقول من أسلم ولم يهاجر فهو كافر حتىٰ يهاجر، وإن صح هذا فسببه اضطراره أن ينصر أعداء اللَّه علىٰ أحب عباد اللَّه إليه سيدنا محمد ﷺ، وظاهر معنىٰ الآية أنهم قادرون علىٰ الهجرة من مكة إلىٰ بعض البلاد التي لا يمنعون فيها من إظهار دينهم، ولو كان بلدًا غير المدينة، حتىٰ لا يتصرف بهم الكفار كما أسلفنا، فبقاؤهم ليس للعجز المطلق، ولهذا استحقوا جهنم.

سابعها: إن قيل كيف الجمع بين قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، و﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] ونحوها من الآيات مع قوله: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ و﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] فالجواب: أن خالق الموت هو اللَّه ﷻ، والرئيس المفوض إليه هذا العمل هو ملك الموت، وله أعوان من الملائكة ليس لأحد علم بعددهم، ولكن اللَّه أخبرنا أنهم جمع بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

ثامنها: قال صاحب «المنار» في بحثه لحكمة الهجرة وسبب مشروعيتها وأنها لثلاثة أسباب أحدها وثانيها يتعلق بالأفراد، والثالث يتعلق بالجماعة، وقد أوضحنا أكثرها وننقل ما قاله في الثالث المتعلق بجماعة المسلمين، قال: إنه يجب علىٰ مجموع المسلمين أن تكون لهم جماعة أو دولة قوية تنشر دعوة الإسلام، وتقيم أحكامه وحدوده وتحفظ بيضته، وتحمي دعاته وأهله من بغي الباغين، وعدوان العادين، وظلم الظالمين.

فإذا كانت هذه الجماعة أو الدولة أو الحكومة ضعيفة يخشىٰ عليها من إغارة الأعداء، وجب علىٰ المسلمين أينما كانوا وحيثما حلوا أن يشدوا أزرها حتىٰ تتقوىٰ وتقوم بما يجب عليها، فإذا توقف ذلك علىٰ هجرة البعيد عنها إليها وجب عليه ذلك وجوبًا قطعيًّا لا هوادة فيه، وإلا كان راضيًا بضعفها، ومعينًا لأعداء الإسلام علىٰ إبطال دعوته وخفض كلمته. انتهىٰ ما أردت نقله للاختصار.

وقد سبق الكلام علىٰ وجوب انتشال أولاد المسلمين من الانصهار في بوتقة الكفر والإلحاد؛ بإنشاء مدارس ودور تربية وتخطيط عقائدي بشتىٰ الوسائل النافعة، وأن البلاد التي لا يتمكن المسلمون فيها من ذلك يجب عليهم الهجرة فرارًا بدينهم، وأن يرخصوا أموالهم ومألوفاتهم في هذا السبيل، وإذا لم يقم المسلمون بِهذا ويتساعدوا فإنهم يكونون من أهل الوعيد المذكور.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ في هذه الآية استثناء من اللَّه عن الوعيد الشديد فيما قبلها لتارك الهجرة، وهو استثناء للعاجزين المستضعفين حقيقة من الرجال والنساء والولدان لا يقدرون علىٰ الهجرة، لفقرهم الذي يقعدهم عن الهجرة لعدم حصولهم علىٰ ما يمتطونه وينقذون به مهجهم، ولجهلهم بمسالك الأرض ومضايقها وأحزانها، ولعجزهم بدنيًّا عن الانطلاق لمرض أو عرج ونحوه، فإن العاجز من الرجال الذي يكون علىٰ هذه الحال يقرن بالنساء في العذر.

واستشكال بعض العلماء ذكر الولدان وهم ليسوا مكلفين ولا يكونون إلا عاجزين، وأيضًا فهم تبع لآبائهم، فما وجه ذكرهم؟

وأجيب: بأنه إما أن يكون المقصود بالولدان العبيد والإماء البالغين فلا إشكال في دخولهم في المستثنين، أو يكونوا أطفالًا فكلهم يدخلون مع آبائهم ومواليهم في الاستثناء، بل ولا يتوجه إليهم الوعيد باعتبار أن عجزهم هو عجز لآبائهم الرجال، ولكن ذكرهم في الاستثناء تنبيه علىٰ أعظم طرق العجز للرجال والنساء؛ لأن طرق العجز لا تنحصر.

فنبه اللَّه العليم الخبير بذكر عجز الولدان علىٰ قوة عجز الآباء والأمهات بسببهم؛ لأن أقوىٰ أسباب العجز وعدم الحنكة كون الرجال والنساء مشغولين بأطفالهم ومشغوفين بهم، فيعجزون عن الهجرة بسبب خوفهم ضياع أطفالهم وأولادهم، ويجوز أن يكون الولدان تبعًا لآبائهم؛ لأنهم يكلفون أن يهاجروا بهم، فإذا كان الولدان عاجزين عن السير مع الوالدين، والوالدان عاجزان عن حملهم كان من عذرهما أن يتركوا الهجرة ما داما عاجزين ولا يكلفان ترك أولادهم.

وقد وهم من زعم أن المراد بالولدان المراهقون؛ لأنهم لم يبلغوا سن التكليف حتىٰ توجب عليهم الهجرة، إلا إذا كان المقصود بالمراهقة ما بين سن الخامسة عشرة والعشرين، فهذا مصطلح نادر.

وقد دل الوعيد في الآية السابقة مع الاستثناء في هذه الآية علىٰ أن أولئك الذين اعتذروا عن عدم إقامة دينهم وعدم الفرار به هجرة إلىٰ اللَّه ورسوله غير صادقين في اعتذارهم، فإن الاستضعاف الحقيقي عذر صحيح، ولذلك استثنىٰ اللَّه أهله من الوعيد بِهذه الآية، وأن الذين زعموا الاستضعاف هم ضعاف في إرادتهم، وهم غير مستضعفين حقيقة، ولهذا استحقوا الوعيد الشديد في الآخرة زيادة علىٰ ما يلحقهم في الدنيا من التبعات علىٰ تركهم الهجرة فرارًا بدينهم من الفتن، وعملًا علىٰ نصرة اللَّه وإعزازه، واللَّه سبحان لا يخفىٰ عليه خافية، وهو عليم بمن يستحق العفو لكونه معذورًا عذرًا صحيحًا. ولهذا قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾.

والإشارة بأولئك إلىٰ من استثناهم من الوعيد علىٰ ترك الهجرة، وحرف عسىٰ كلمة إطماع وترجية، وقد أتىٰ بها اللَّه وإن كانت منه واجبة، للدلالة علىٰ أن ترك الهجرة أمر صعب لا فسحة فيه، حتىٰ إن المضطر الواضح الاضطرار من حقه أن يقول: عسىٰ اللَّه أن يعفو عني، وقيل: معناه العفو في المستقبل، والمعنىٰ أن أولئك الذين استثناهم من الوعيد علىٰ ترك الهجرة لعجزهم الصحيح، وضعفهم يرجىٰ أن يعفو اللَّه عنهم ولا يؤاخذهم بالإقامة في دار الكفر لعذرهم الواضح بفضله وكرمه ومنته.

والنكتة في اختيار التعبير عن التحقيق بعسىٰ الدالة علىٰ الترجي هي تعظيم أمر ترك الهجرة، وتغليظ جريمتها.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾ أي كان شأن اللَّه العفو عن المخالفات الصادرة عن أعذار صحيحة، وليست عن استخفاف بأمر اللَّه واستهانة بدينه، فهو عليم بالسرائر، ولذلك يعفو ويغفر، وفي ختام هذه الآية الكريمة تأكيد علىٰ وقوع عفوه عن هؤلاء المستضعفين الحقيقيين، وتنبيه علىٰ أن هذا الترجي هو واقع؛ لأن اللَّه سبحانه لم يزل متصفًا بالعفو والمغفرة.

وهاهنا فوائد:

إحداها: هل الاستثناء متصل أو منقطع، فقال الزجاج: إنه متصل؛ لأنه استثناء من قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ كأنه قيل: «فأولئك مأواهم جهنم إلا المستضعفين»، والذي يقتضيه النظر في نظم القرآن أنه استثناء منقطع؛ لأن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾... إلخ يعود الضمير في مأواهم إليهم، وهم علىٰ أقوال المفسرين: إما كفار وإما عصاة مصرون علىٰ التخلف وهم قادرون، فلم يندرج فيهم المستضعفون المستثنون؛ لأنهم عاجزون، فهو استثناء منقطع.

ثانيها: الحيلة هي لفظ عام لأنواع أسباب التخلص، وأما السبيل هنا فهو الطريق الذي ينفذ منه إلىٰ الهجرة بأي قصد إلىٰ أي جهة، فمعناه عام في جميع السبل المخلصة من دار الكفر وكيد الكافرين، واختلفوا في موضعه من الإعراب فقيل: مستأنفة، وقيل: في موضع الحال، وزعم الزمخشري أنه صفة للمستضعفين أو الرجال والنساء والولدان وقال: إنما جاز ذلك والجمل نكرات؛ لأن الموصوف وإن كان فيه حرف التعريف فليس بشيء بعينه كقول الشاعر:

ولقد أمرُّ علىٰ اللئيمِ يَسُبُّني فمضيتُ ثُمَّتَ قلتُ: لا يعنيني

انتهىٰ كلامه.

قال أبو حيان: وهو تخريج ذهب إلىٰ مثله بعض النحاة في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، وهو هدم للقاعدة المشهورة بأن النكرة لا تنعت إلا بالنكرة، والمعرفة لا تنعت إلا بالمعرفة، والذي يظهر أنها جملة مفسرة لقوله: ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ لأنها في معنىٰ: إلا الذين استضعفوا، فجاء بيانًا وتفسيرًا لذلك؛ لأن الاستضعاف يكون بوجوه عديدة، فبين اللَّه جهة الاستضعاف النافع في التخلف عن الهجرة، وهي عدم استطاعة الحيلة وعدم اهتداء السبيل.

ثالثها: للعلماء كلام كثير في كلمة «عسىٰ»، ومن أمثل ما قالوا: إن

الإنسان لشدة نفرته عن مفارقة وطنه ربما ظن نفسه عاجزًا عن الهجرة، مع أنه لا يكون عاجزًا في الحقيقة، لهذا المعنىٰ ذكر اللَّه العفو بكلمة «عسىٰ» لا بالكلمة الدالة علىٰ القطع، وهو سبحانه أعلم بحقائق الأمور ودخائل النفوس، وأصح من هذا ما قاله المهايمي: إن فيه إشعارًا بأن ترك الهجرة أمر خطير، حتىٰ إن المضطر يجب عليه أن يترصد الفرصة ويعلق قلبه بها، وأن الصبي إذا قدر فلا محيص له عنها، وأن القوام علىٰ الولدان يجب أن يهاجر بهم.

قلت: وهذا من الضروري؛ لأن تركيز الأعداء عليهم في التضليل أكثر.

رابعها: يتضح لنا من مدلولات الآيات السابقة مدىٰ كراهية اللَّه للقعود وسط المجتمع الكافر، بحيث يكون المسلمون محرومين من مدد إخوانهم القاعدين عنهم في الجهاد، وما أعظم جريمة المستمر علىٰ شيء يكرهه اللَّه! ويتضح ـ أيضًا ـ مدىٰ تحتيم الجهاد علىٰ المسلمين، وأنه من لوازم عقيدتهم وضروريات وجودهم، وأن تحتيمه يزيد علىٰ تحتيم بعض أركان الإسلام، وهو عند بعض الطوائف ركن من أركانه، ولديهم من قوة النصوص وشواهد الواقع ما يؤيد ركنيته، لا حديث الأركان الخمسة في حديث جبريل وغيره، وقد تكون الأحاديث لا تفيد الحصر لقوة التحتيم في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق والصبر عليه، وما هو شاهد ملموس من ضرورة الجهاد لحماية العقيدة والزحف بالرسالة.

خامسها: يتضح من مدلول الآيات أن النفس البشرية هي النفس البشرية حتىٰ في خير القرون وأصلحها، ينتابها الضعف فتحجم أمام الصعاب، أو تخاف أمام المخاطر والأهوال، أو تكسل أمام العقبات والمثبطات، وأنها في حاجة دائمة إلىٰ العلاج، وتتطلب مزيدًا رائعًا من العلاج في العصور التي تكون ناشفة من الروحانية القوية، وغارقة في المادة والشهوات.

ومن نظر إلىٰ تربية القرآن وقت نزوله للمسلمين حين يقظة ضمائرهم

وأحاسيسهم المرهفة، رأىٰ كيف يستجيش نفوسهم، ويشجعها ويحذرها، ويحمسها ويقرعها، ويوبخها ويطمئنها في آن واحد، ليرتفع بمستواها إلىٰ القمة اللائقة بها، وينتشلها من رواسب الجاهلية، ويعالج خطراتها ومشاكلها في جميع الميادين.

أقول: من نظر إلىٰ تربية القرآن لأهل خير القرون عرف شدة حاجة المسلمين في هذا الزمان إلىٰ قادة فكريين مصلحين، وعلماء ربانيين متقشفين متجردين للّه، ولو لم يزهدوا في الدنيا زهدًا كاملًا لكن يفضلون مرادات اللّه علىٰ مرادات أنفسهم، ويحصرون مهمتهم علىٰ تركيز العقيدة ومتطلباتها في النفوس، ويلهبون حماس المسلمين نحو رسالتهم ليتفانوا في سبيلها، ويجعلوها الغاية الكبرىٰ والهدف الوحيد من حياتهم ومجهوداتهم، ليكون كدحهم في الدنيا وسعيهم لها من أجل اللّه وفي سبيله، لا للتكاثر والانغماس في الشهوات وجمع المال وتأسيس العمارات الشاهقة للأولاد كما هي حال المسلمين اليوم، بل يعودون بهم إلىٰ أهداف أسلافهم النبيلة، ليشمخوا إلىٰ القيادة العالمية كما شمخ أولئك، ويكونوا دائمًا في هجرة صادقة إلىٰ اللّه ورسوله بقلوبهم وأعمالهم، حتىٰ يحطموا أعداء اللّه وأعداءهم بما ينالون من توفيق اللّه ونصره وتأييده إذا أخلصوا له أعمالهم.

وسادسها: الهجرة باق وجوبها المحتم ما دام المسلمون يواجهون غزوًا فكريًّا أو مسلحًا إلىٰ الموقع الذي لا فتنة فيه بغزو فكري أو مسلح، أما حديث: «**لا هجرة بعد الفتح**»[1] فليس فيه دليل علىٰ نسخ حكمها أو انقطاعه، بل لا تزال فرضًا لازمًا محتمًا، وإنما يدل هذا الحديث علىٰ عدم الهجرة من مكة إلىٰ المدينة بعد الفتح، وعلىٰ أنه لا هجرة من كل بلد أصبحت محكومة بحكم الإسلام وتعاليمه وإقامة حدوده.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣).

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: الهجرة الترك، والهجرة عن الشيء الانتقال إليه من غيره، وفي الشرع ترك ما نَهَىٰ اللَّه عنه، وقد وقعت في الإسلام علىٰ نوعين:

الأول: الانتقال من دار الخوف إلىٰ دار الأمن كما في هجرتي الحبشة، وابتداء الهجرة من مكة إلىٰ المدينة.

الثاني: الهجرة من دار الكفر إلىٰ دار الإيمان، وذلك بعد أن استقر النبي ﷺ بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين، وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلىٰ المدينة إلىٰ أن فتحت مكة، فانقطع الاختصاص وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقيًا. انتهىٰ.

فهذا التحقيق العلمي الموضح لحديث: «**لا هجرة بعد الفتح**»؛ وقد أفصح ابن عمر بالمراد فيما أخرجه الإسماعيلي عنه بلفظ: انقطعت الهجرة بعد الفتح إلىٰ رسول اللَّه ﷺ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار، أي ما دام في الدنيا دار كفر، فالهجرة واجبة منها.

وقد روي في معنىٰ الآية أحاديث كثيرة أخرجها محيي الدين أبو البركات جد شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «منتقىٰ الأخبار» في ترجمة «باب بقاء الهجرة من دار الحرب إلىٰ دار الإسلام، وأن لا هجرة من دار أسلم أهلها»، ثم أتىٰ بالحديث الذي أخرجه أبو داود في (١٥) كتاب الجهاد (١٧٠) باب الإقامة بأرض الشرك حديث (٣٧٨٧) عن سمرة بن جندب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله**».

ثم ساق حديث أبي داود (٢٦٤٥) الذي تحت عنوان «باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود» عن جرير بن عبداللَّه أن رسول اللَّه ﷺ بعث سرية إلىٰ خثعم فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم بالقتل، فبلغ النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل، وقال «**أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين**»، قالوا: يا رسول اللَّه لم؟ قال: «**لا تراءىٰ**

نارهما» ورواه الترمذي ـ أيضًا ـ.

ثم أخرج ما رواه الإمام أحمد في المسند بالصفحة (٩٩) الجزء الرابع طبعة الحلبي، ونصه عن أبي هند البجلي قال: كنا عند معاوية وهو علىٰ سرير وقد غمض عينيه، فتذاكرنا الهجرة والقائل منا يقول: قد انقطعت، والقائل منا يقول: لم تنقطع، فانتبه معاوية وقال: ما كنتم فيه؟ فأخبرناه، وكان قليل السرد علىٰ النبي ﷺ فقال: تذاكرنا عند رسول اللَّه ﷺ فقال: «**لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها**». وأخرجه أبو داود في «باب في الهجرة هل انقطعت» حديث (٢٤٧٩)، ثم روىٰ ما أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة (٢٧٠) من المجلد الخامس طبعة الحلبي عن عبداللَّه بن السعدي أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو**». ورواه النسائي في سننه، ولما كانت ـ ترجمة المجد رَحِمَهُ اللَّهُ في «المنتقىٰ» ذات شقين:

أحدهما: بقاء الهجرة من دار الحرب إلىٰ دار السلام.

والثاني: لا هجرة من دار أسلم أهلها، فقد أورد هذه الأحاديث لمطابقتها للشق الأول، ثم أورد حديث: «**لا هجرة بعد الفتح**»[1]، وما في معناه للشق الثاني ليجمع بين الأحاديث حتىٰ لا يتوهم أحد تعارضها.

وروىٰ عن النبي ﷺ أنه قال: «**من فر بدينه من أرض إلىٰ أرض ـ وإن كان شبرًا ـ استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ**»[2]. وذلك لاقتدائه بهما في أصل عظيم من أصول الدين.

سابعها: ينبغي إخلاص النية في الهجرة، وذلك بأن تكون للَّه ورسوله لا لغرض آخر من مقاصد الدنيا، فقد جاء في الصحيحين وغيرهما عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٢/١١٨).

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ اللَّه ورسوله فهجرته إلىٰ اللَّه ورسوله، ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه»[1]، وهذا الحديث الشريف يحتوي علىٰ أعظم أصل من أصول الإسلام، وهو الإخلاص للَّه.

وقد فرع عليه العلماء ما يقرب من ثلث أحكام الشريعة وأولوه العناية التامة بالشروح، وأوضحوا أن الأعمال تصدر من أصحابها علىٰ اختلاف أنواعها ولكن فيها ما هو للرياء والسمعة، وفيها ما هو للأغراض النفسية المتشعبة المقاصد، وفيها ما يصدر عن غفلة وعدم حسبان، وفيها ما يصدر عن حمق وغيظ بدون قصد، لكن جدوىٰ الأعمال وحصول فائدتها أو خسارتها يكون بالنية وارتباط المقاصد والبواعث النفسية، فالنية هي من أعظم كسب القلوب الذي يؤاخذ اللَّه به ويجزي عليه بجنات النعيم أو عذاب الجحيم.

وقد اشتهر حديث الثلاثة الذين أول ما تسعر بهم النار عالم ومجاهد ومتصدق كلهم قصدوا بأعمالهم رياء الناس دون وجه اللَّه، والذي يظله اللَّه في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف اللَّه، والثواب العظيم للشهداء المخلصين مقاصدهم لوجه اللَّه، وقد ذكر العلماء أن هذا الحديث له مناسبة في هجرة رجل متعلق بامرأة يقال لها أم قيس، فرفضت صحبته حتىٰ يهاجر، فهاجر من أجل زوجته هذه فسمي مهاجر أم قيس، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو المقرر في الأصول، وكما ذكرنا إن هذا الحديث الشريف ينبني عليه كثير من أحكام الشريعة، فيجب أن تكون هجرة المسلم للَّه وحده، لا أن تكون للشراء والتجارة، ولا للذائذ والشهوات، ولا للنجاة من المتاعب والأخطار أو لأي شيء من أغراض الدنيا، بل تكون الهجرة منحصرة في سبيل اللَّه، وأن لا يتهاون المسلمون

---

(١) تقدم تخريجه.

في تحقيقها.

ثامنها: دلت الحوادث المؤسفة المؤلمة التي لا يجوز التعامي عنها لحظة من اللحظات علىٰ أن المسلمين لا يعود إليهم مجدهم وسلطانهم، ولا يتخلصون من رق الطواغيت ومكر الدجاجلة إلا بالهجرة إلىٰ أي منطلق صالح، وذلك أن اليهود الذين هم أصغر شعوب الأرض وأحقرهم وأذلها لما صمموا في تخطيطهم علىٰ الهجرة إلىٰ فلسطين - التي يزعمون أنها وطنهم المقدس - حصلوا علىٰ تكوين دولة يحسب لها حسابها رغم المعارضين لهم، واعترف بها أكثر الدول، وعملت علىٰ تحصيل القوة، وأصبحت حقيقة واقعة مع بعض أكثر أمم الأرض والشعوب لهم.

وعلىٰ العكس، المسلمون الذين عددهم مئات الملايين لم يستطيعوا تكوين قيادة إسلامية مستقلة عن الكتلتين الشرقية والغربية، لأنهم لم يبحثوا عن مهجر، ويختاروا منطلقًا، مع أن دينهم الإسلامي لم يحصر مهجرهم في بقعة خاصة لا مقدسة ولا غيرها، بل فسح لهم المنطلق في جميع ربوع الأرض، فلا يجوز لهم البقاء متفرقين في أصقاع الأرض، ضائعين بين أممها، ومحكومين تحت دولتها الكافرة التي يسيرها اليهود، بل يجب عليهم التخطيط لمنطلق صالح يتجمعون به من غير ضجيج، لتكون لهم القيادة المطلوبة، فعار عليهم أن يغلبهم اليهود الذين لا يزيد عددهم عن مليونين ونصف وهم مئات الملايين.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (١٠٠):** ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾:

يخبر اللَّه ضعاف العقول وأهل الوساوس الشيطانية أن ما يجول بخواطرهم من ضيق الغربة وصعوبة العيش فيها وعدم الارتياح لمفارقة الوطن كلها أوهام عارضة من الشيطان، وأن من ترك شيئًا للَّه

عوضه اللَّه خيرًا منه، فلا قيمة ولا أثر للخيالات النفسية والتصورات الفاسدة لمستقبل الحياة والنجاة والرزق، بل إن أمر الهجرة الخالصة للَّه علىٰ العكس، فإن المهاجر سيجد في أرض اللَّه منطلقًا فسيحًا وخيرًا كثيرًا، وسيبدله اللَّه بخير من وطنه ومجاوريه، كما قال سبحانه: ﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ أي متحولًا ومذهبًا ومتزحزحًا عما يكرهه، ﴿وَسَعَةٗ﴾ في الأوطان والرزق.

فهذا تقرير في اللَّه للمستقبل الصحيح للمهاجرين الذي هو خير لهم مما ألفوه وعرفوه، وسيجدون اللَّه أمامهم عوضًا عن كل شيء يخلف عليهم ويعوضهم ما فات، ويوفقهم في المستقبل ويحييهم حياة طيبة بعز وسؤدد وحرية، علىٰ خلاف ما يتصوره ضعاف النفوس عديمو الثقة باللَّه الذين يخيل إليهم أن وسائل الحياة والرزق مرهونة بأرض، ومقيدة بظروفها وملابساتها للحصول علىٰ وسائل الحياة، فلهذا يرضون بالذُّل والضَّيم، ويسكتون عن الفتنة في دينهم، فيعيشون في الدنيا عيشة خسيسة، ويتعرضون لغضب اللَّه حيث ينالون من الملائكة ما ينالون.

فاللَّه سبحانه أخبرهم أن الأرض لا تضيق بهم، وأكد لهم أنهم سيجدون منطلقًا رحيبًا وسعة في العيش، ليزيل أوهامهم وخيالاتهم الفاسدة التي أقعدتهم عن المجد والعز والشرف، وهذا توضيح لما قالته الملائكة: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ وفي إطلاق اللَّه لسعة الأرض علىٰ لسان الملائكة، وتأكيده في الآية الأخيرة أن المهاجر يجد في الأرض مراغمًا أي مذهبًا ومتزحزحًا ينطلق فيه بكل حرية إفادة لهم بتهيئة الأرض لهم علىٰ عموم بقاعها، وأنه إذا ضاقت بهم بقعة اتسعت بهم بقاع كثيرة، وأن هجرتهم ليست مقصورة علىٰ موضع مقدس كما يزعمه اليهود لمهجرهم الذي تكلفوا في تحصيله، وطال أمدهم في المكر والاحتيال من أجله، وبذلوا تضحيات مادية ودموية ولا يزالون في خطر.

أما المسلمون فلم يقيد اللَّه لهم مهجرًا معينًا بعد رسول اللَّه ﷺ،

ولم يربطهم بمهجر مقدس أو غير مقدس يتكلفون في تحصيله، بل جعلهم أحرارًا في التماس الموضع الصالح من الأرض؛ لأن الإسلام لا يحفل بالأوطان، ولم يجعل لأهله موطنًا، إلا الذي يقدرون فيه علىٰ تنفيذ حكم ربهم وحمل رسالته إلىٰ البشر.

قال ابن عطية: المشبه لفصاحة العرب أن يريد سعة الأرض وكثرة المعاقل، وبذلك تكون السعة في الرزق واتساع الصدر عن همومه وفكره وغير ذلك من وجوه الفرج. انتهىٰ.

وفي تعبير اللَّه عن الانطلاق والتحول بالمراغمة تبشير لعباده بمراغمة الأعداء في هجرتهم من الضيق والضغط إلىٰ السعة والحرية ورفعة الرأس؛ لأن الابتهاج والعز يرغم أنوف الأعداء لسوء معاملتهم أشد من الابتهاج والسعة.

وفي هذه الآية - أيضًا - تعليم للمؤمنين تعليمًا دائمًا إلىٰ آخر الدهر؛ بأن لهم متسعًا في الأرض غير محدود، يجب عليهم أن يهرعوا إليه نازحين عن اضطهاد الظلمة، ومختارين ما يناسبهم للحرية الدينية والمنطلق بالرسالة، وأن يتحركوا تحركًا إنسانيًّا، ولا يقطنوا مقطن البهائم، بل يجب أن يتحركوا وينتقلوا كبشر يسعىٰ لتحقيق كرامته وحريته وبسط نفوذه في القيام بواجب ربه؛ لأن استكانتهم في أوطانهم وصبرهم علىٰ الذل والتحكم يجعلهم كقطعان البهائم المسيرة، ويفقدهم قيمتهم عند الدجاجلة المتحكمين.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هذا وعد جميل محبوب أتىٰ اللَّه فيه بصيغة المبالغة في ثبوت الأجر ولزومه، ووصول الثواب إلىٰ صاحبه فضلًا من اللَّه وتكريمًا له، وصيغة المبالغة هي تعبير اللَّه عن حصول ذلك بالوقوع، وذلك أنه لما كان المهاجر والسائر في طريقه إلىٰ اللَّه لأداء واجب من حج أو جهاد أو إزالة منكر وغيره عرضةً للموت كسائر الأحياء،

وكان اللَّه سبحانه قد وعد المهاجرين بالمستقبل الحسن الذي يرغم أنوف أعدائهم في الدنيا، وبجزيل الثواب في الدار الآخرة، فلهذا وعد من يموت من المهاجرين في الطريق دون بلوغ مقصوده بما يرغم أعداءه بأجر عظيم يضمنه اللَّه له، وهذا من بعض ترغيب اللَّه في الهجرة، وتأنيس أهلها، ولذا قال ﷻ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ قبل بلوغه إلىٰ مهاجره ونيله مقصده ـ حتىٰ ولو أتاه الموت خارج باب منزله من بلد الكفر الذي هاجر عنه تفضيلًا لأمر اللَّه ـ، فقد أوجب اللَّه علىٰ نفسه بكرمه الذي اقتضاه وعده أن يكرمه بعظيم الأجر الذي لا يقادر قدره، ولا يكتنه كنهه؛ لأنه علم علىٰ الذات الأقدس المسمىٰ بذلك الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنىٰ، والمشعر بِهذا المزيد من الأجر العظيم هو أن اللَّه سبحانه لم يقل: ومن يهاجر إلىٰ اللَّه ورسوله ويمت يثبه، بل اختار سبحانه زيادة المبنىٰ الدال علىٰ زيادة المعنىٰ فقال: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فاختار قوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ﴾ بدلًا من الخروج من البلد إعلامًا باستحقاقه الوعد الجميل منذ خروجه من باب منزله، لا من حدود بلده، واختار وضع: ﴿يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ علىٰ وضع «يمت» إشعارًا بمزيد الرضىٰ منه سبحانه عليه، وأن الموت كالهدية منه سبحانه له؛ وذلك لأنه سبب الوصول إلىٰ النعيم المقيم الذي لا ينال إلا بالموت.

وجاء اللَّه سبحانه بحرف «ثم» بدل الواو تتميمًا لهذه النكتة الدقيقة في التعبير، وأن مرتبة الخروج دون مرتبة الموت، فإنه إكرام من اللَّه له علىٰ حسن نيته، وإراحة له من شيء يصيبه في الطريق لا يعلمه إلا هو ﷻ، جزاء له علىٰ إخلاص قصده وصدقه في تنفيذ أمر ربه، فجعل له هذه الكرامة العظيمة، وأقام ﷻ قوله: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ مقام «يثبه» لما أنه مؤذن باللزوم والثبوت، وأن الأجر مما لا يخطر علىٰ بال بشر أبدًا، وهذه الجملة هي جواب الشرط، وفي مقارنة هذا الشرط السابق الدلالة علىٰ أن المهاجر له إحدىٰ الحسنيين، إما أن يرغم أنوف

أعداء اللَّه ويذلهم بسبب مفارقته لهم واتصاله بالخير والسعة، وإما أن يدركه الموت فيصل إلىٰ السعادة الحقيقية والنعيم الدائم. وقد أورد أكثر المفسرين أحاديث في سبب نزول الآية لا حاجة لذكرها؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد فرع المحققون علىٰ هذه الآية أن من خرج من بيته قاصدًا حج بيت اللَّه الحرام ومات، فقد وفَّىٰ ما عليه من الواجب ووقع أجره علىٰ اللَّه الذي كلفه بذلك، وهو يعلم أن المنية ستوافيه قبل إتمام طاعته، فاللَّه الذي استوفىٰ روحه سيجزيه أجر ما قصده وتوجه إليه.

ولم يوجب أحد من العلماء علىٰ ورثته أن يحجوا عنه في هذه الحالة؛ لأن اللَّه أماته في طريقه إلىٰ الحج استنادًا علىٰ هذه الآية، وعلىٰ أن الرسول ﷺ لم يأمر أولياء الحاج المحرم الذي وقصته ناقته أن يحجوا عنه، بل قصارىٰ ما قال لهم: «**لا تغطوا رأسه؛ فإنه يبعث ملبيًا**»[(١)]، وكذلك قالوا: إن من خرج من داره لإزالة شرك أو إنكار منكر أو للدعوة وتبليغ الرسالة فأدركه الموت، فقد وقع أجره علىٰ اللَّه للجامع المشترك في حسن المقصد، وختام اللَّه للآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مناسب لحال هؤلاء، فإنه يغفر للمهاجر ما سلف من ذنوبه، ويرحمه بوقوع أجره عليه ومكافأته علىٰ هجرته وحسن نيته؛ لأنه ﷻ من شأنه المغفرة وغفران الذنوب من الأزل إلىٰ الأبد.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (١٠١)**: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾:

مناسبة هذه الآية والتي بعدها لآيات الجهاد والهجرة هي أن الصلاة فرض لازم محتم و مقيد بأوقات، ولا تسقط عن المسلم بانشغاله بقتال،

(١) رواه البخاري (١٢٦٥)، ومسلم (١٢٠٦).

ولا انهماكه بالسير في الهجرة خوفًا من لحوق عدوه، وبما أنه قد يتعسر علىٰ المسلم في حالة السفر والحرب إقامتها جماعة أو منفردًا كما أراد اللَّه أن تقام في صورتها ومعناها، فأتىٰ اللَّه سبحانه في هاتين الآيتين بالتسهيل علىٰ عباده، فرخص لهم بقصر الصلاة من عددها في السفر، وبتغيير بعض هيئتها في الحرب وحالة الخوف العامة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

والضرب في الأرض عبارة عن السفر فيها؛ لأن المسافر يضربها برجليه وعصاه وبقوائم راحلته، وبما أن المسافر في حاجة ماسة إلىٰ الصلة بربه ليعينه علىٰ مهمته ونوائبه، وأعظم صلة باللَّه تعالىٰ هي الصلاة التي هي أعظم عدة وسلاح فيما هو مقدم عليه، وما هو مرصود له بالطريق، فهي عدة المؤمنين للاستعانة بها في الشدائد والملمات، كما قال سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] فسهلها اللَّه عليهم حسب حكمته، ورخص لهم في قصرها من أربع إلىٰ ركعتين، فالقصر هو ترك شيء منها تكون به قصيرة.

وفسروا الجناح بالإثم والحرج والميل عن الاستواء، قالوا: وظاهر الآية جواز قصر الصلاة في كل سفر طويل أو قصير، قريب أو بعيد، قال الشيخ ابن تيمية: كل سفر يحتاج صاحبه إلىٰ الزاد والمزاد يجوز فيه قصر الصلاة، ومعنىٰ هذا أن السفر الذي يعد له صاحبه أي عدة ولو قليلة من الزاد والماء تقصر فيه الصلاة، ولو حصل في وقت أو بقعة لا يحتاج فيها إلىٰ الاستعداد لذلك كأرض البساتين والأرض التي يكون فيها محطات للراحة والأكل والشرب، فإنه لا يتغير فيها معنىٰ السفر ولا حكمه.

وقد قيد كثير من العلماء حكم السفر بمسافات مختلفة لكن لم يثبت فيها دليل يصح الاعتماد عليه عن رسول اللَّه ﷺ، بل هي آثار مختلفة عن التابعين والأئمة لا يجوز إلزام الأمة وتقييدها بشيء منها ما دام النص القرآني جاء علىٰ الإطلاق.

أما قوله سبحانه: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فيظهر منه تقييد القصر بالخوف من فتنة الكفار، لكن الأحاديث الصحيحة دلت علىٰ أن هذا الشرط لا مفهوم له، فيجوز قصر الصلاة في الخوف والأمن لا فرق بينهما، وقد صحت الأحاديث أن أصحاب رسول اللَّه ﷺ قالوا له: كيف نقصر في السفر وقد أمنا؟ فقال ﷺ: «**صدقة تصدق اللَّه بها عليكم فاقبلوا صدقته**»[1].

وبهذا النص وأمثاله اعتبر المحققون من العلماء أن القصر أفضل من الإتمام، وأنه خصه بمعنىٰ العزيمة للحديث الآخر عنه ﷺ: «**إن اللَّه يحب أن تؤتىٰ رخصه كما يحب أن تؤتىٰ عزائمه**»[2]، فالقصر والإفطار للمسافر أفضل من الإتمام والصيام، وأما إتمام عائشة وأمير المؤمنين عثمان للصلاة في «منىٰ» فقد اعتذرت عائشة بأنها أم المؤمنين، وأن كل مكان حلت فيه فهو دار لها، واعتذر عثمان بأنه كان متزوجًا متأهلًا، واعتذروا عنه بأنه يخشىٰ أن تحسب الأعراب الصلاة ركعتين، فأحب تعليمهم بحضورهم في موسم الحج حتىٰ لا يختلفوا بشأن الصلاة، واعتذروا بأن تأويل عائشة لا يطعن في صحة حديثها، وعلىٰ كل حال فالسنة المطهرة أوضحت أفضلية القصر علىٰ خلاف ظاهر الآية، وفي قراءة «أبي عبداللَّه»: «فلا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا»، بإسقاط «إن خفتم» وهو مفعول من أجله من حيث المعنىٰ، أي مخافة أن يفتنكم، ولا حاجة لنا إلىٰ الالتفات إلىٰ قراءة شاذة أو مخالفة للمصحف العثماني مع وجود الأحاديث الصحيحة الدالة علىٰ عموم الرخصة في قصر الصلاة وتفضيله علىٰ الإتمام.

وقيد بعض العلماء رخصة القصر بالسفر المباح دون سفر المعصية، كسفر البغاة واللصوص وعاشقي اللهو، لكن عموم هذه الآية الكريمة

---

(١) رواه مسلم (٦٨٦).

(٢) رواه ابن حِبَّان (٣٥٤).

لم يرد ما يخصصه من صحيح السنة فلا وجه لذلك؛ لأن نفس السفر بحد ذاته ليس معصية، إذ هو عبارة عن خروج مديد فالمعصية أمر عارض يلابسه أو شيء مصمم عليه يحدث بعده، وإذا استمر قاصده علىٰ التصميم ولم يتب أو ينثني عن عزمه عن ذلك فمتعلق الرخصة صالح فيه من حيث ذاته لإمكان الانفكاك عما يقصد به، كذا قالوا وهو مقارب للصواب.

وأصل معنىٰ الفتنة الاختبار بالشدائد، واستعملت لغلبة العدو وتسلطه وصرفه للمؤمنين عما يريدون؛ لأن إطالة الاشتغال بالصلاة مظنة لاقتدار الكافرين علىٰ إيقاع الفتنة بهم، قال ابن القيم «في الهدي»: وكان النبي ﷺ يقصر الرباعية فيصليها ركعتين من حين يخرج مسافرًا إلىٰ أن يرجع إلىٰ المدينة، ولم يثبت عنه أنه أتم الرباعية في سفره ألبتة، وأما حديث عائشة أن النبي ﷺ كان يقصر في السفر ويتم، ويفطر ويصوم فلا يصح، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هو كذب علىٰ رسول اللَّه ﷺ. انتهىٰ.

وقد روي (كان يقصر وتتم ـ الأول بالياء المثناة التحتانية، والثاني بالتاء المثناة من فوق، وكذلك: يفطر وتصوم، أي تأخذ هي بالعزيمة في الموضعين، قال شيخنا ابن تيمية: وهذا باطل، ما كانت أم المؤمنين لتخالف رسول اللَّه ﷺ وجميع أصحابه فتصلي خلاف صلاتهم، والصحيح عنها أنها قالت: فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فلما هاجر رسول اللَّه ﷺ إلىٰ المدينة زيد في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر، فكيف يظن بها مع ذلك أن تصلي بخلاف صلاة النبي ﷺ والمسلمين معه؟.

قال ابن القيم: وقد أتمت عائشة بعد موت النبي ﷺ قال ابن عباس: إنها تأولت كما تأول عثمان، وأن النبي ﷺ كان يقصر دائمًا، فركب بعض الرواة من الحديثين حديثًا واحدًا، وقال: وكان يقصر وتتم هي، فغلط بعض الرواة فقال: كان يقصر ويتم أي هو.

والتأويل الذي تأولته قد اختلف فيه، فقيل: ظنت أن القصر مشروط بالخوف والسفر، فإذا زال الخوف زال سبب القصر، وهذا التأويل غير صحيح، فإن النبي ﷺ سافر وكان آمنًا وكان يقصر الصلاة، والآية قد أشكلت علىٰ عمر وغيره فسأل عنها رسول اللَّه ﷺ فأجابه بالشفاء، وقال: إن هذه صدقة من اللَّه، وشرع شرعه للأمة، وكان هذا بيانًا أن حكم المفهوم غير مراد، وأن الجناح مرتفع في قصر الصلاة عن الآمن والخائف، وغايته أنه نوع تخصيص للمفهوم أو رفع له.

وقد يقال: إن الآية اقتضت قصرًا تناول قصر الأركان بالتخفيف، وقصر العدد بنقصان ركعتين، وقيد ذلك بأمر من الضرب في الأرض والخوف، فإذا وجد الأمران أبيح القصر، فيصلون صلاة الخوف مقصورة عددها وأركانها، وإن انتفىٰ الأمران فكانوا آمنين مقيمين انتفىٰ القصر فيصلون صلاة تامة وإن وجد أحد السببين ترتب عليه قصره وحده، فإذا وجد الخوف والإقامة قصرت الأركان واستوفىٰ العدد، وهذا نوع قصر وليس بالقصر المطلق في الآية، فإن وجد السفر والأمن قصر العدد واستوفىٰ الأركان وسميت صلاة أمن، وهذا نوع قصر وليس بالقصر المطلق، وقد تسمىٰ هذه الصلاة مقصورة باعتبار نقصان العدد، وقد تسمىٰ تامة باعتبار إتمام أركانها وأنها لم تدخل في قصر الآية.

والأول اصطلاح كثير من الفقهاء المتأخرين، والثاني يدل عليه كلام الصحابة كعائشة وابن عباس وغيرهما... إلىٰ أن قال ابن القيم: قال أمية بن خالد لعبداللَّه بن عمر: إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السفر في القرآن ـ يعني الرباعية ركعتين ـ فقال ابن عمر: يا أخي إن اللَّه بعث محمدًا ﷺ ولا نعلم شيئًا وإنما نفعل كما رأينا محمدًا ﷺ يفعل. اهـ.

أقول: وهذا القول الفصل، والحاذق من عرف كيف يطبق فعله ﷺ علىٰ القرآن، فهو تبيان له لا يعد له تبيان. انتهىٰ قول صاحب «المنار».

وأقول ـ وبالله التوفيق ـ: إن قول عائشة رضي الله عنها فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فزيدت في الحضر وأقرت في السفر فيه نظر، ولا يعتمد علىٰ قولها هذا من عدة وجوه:

أحدها: أنه غير مرفوع ولا ينجبر ذلك بالاعتذار عنها، بإمكان سماعها إياه من النبي ﷺ ما دامت لم تصرح بالسماع منه، ولم تنسب إليه كعادتها.

ثانيها: صغر سنها بحيث أنها عند فرضية الصلاة ليلة المعراج كانت طفلة لا تعقل.

ثالثها: إن كلامها في غاية الشذوذ؛ لأنه لم يقل به أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، لا المهاجرين ولا الأنصار، فلم يقل أحد سواها حتىٰ أبوها ومن معه من المهاجرين: إن الصلاة مفروضة في الأصل ركعتين أبدًا.

رابعها: وهو أقواها: أن قولها مخالف لنص القرآن الذي ورد بقصر الصلاة في السفر، فإن نص القرآن يدل علىٰ أن الصلاة أربع، وأنه يجوز قصرها للمؤمنين إذا ضربوا في الأرض.

ولو كانت الصلاة ركعتين علىٰ ما زعمته عائشة لما ورد نص القرآن بِهذا اللفظ، فتقصير الصلاة من أربع إلىٰ ركعتين يبطل قول عائشة المقتضي بأن الركعتين أقرت في السفر؛ لأن كلامها يقتضي أن الركعتين بقاء علىٰ الأصل المفروض وإقرار له، ونص الآية علىٰ خلاف ذلك؛ لأنها تنص علىٰ إباحة قصر الصلاة، وأن قصرها مشروع جديد في الآية ليس من باب الإقرار علىٰ إبقاء حكم الأصل قطعًا، إذ لا معنىٰ لنزول الآية من الله وامتنانه علىٰ عباده بالتخفيف، بل علىٰ قول عائشة تكون صلاة السفر من باب استصحاب الحال الذي هو البقاء علىٰ الأصل المفروض، ليس علىٰ المصطلح الأصولي، بل البقاء علىٰ الحكم الأصلي وحاشا أن يكون نزول الآية لا معنىٰ له. هذا وإن للقصر

أحكامًا في حالة المسافرين وتخلل الإقامة لأسفارهم وغير ذلك مما محله كتب الفقه وشروح الأحاديث فلا حاجة للإطالة بذكره.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ يعني أن العداوة بينكم وبين الكفار عداوة شديدة عميقة؛ لأنها عداوة عقائدية فائقة لجميع أنواع العداوات، وهي واضحة لا يجوز التساهل في أمرها ولا الاستهانة بها أو الغفلة عنها، فإنهم مظهرون عداوتكم تمامًا أيها المؤمنون منذ أن أظهرتم الإسلام، فعداوتهم لكم غير مستورة وغير هينة وهم لا يخفونها ويتربصون بكم الفرص، فلا يتركون فرصة سانحة إلا ويغتنمونها لضربكم والفتك بكم، فإن طالت صلاتكم أو انشغلتم بها جميعًا أجهزوا عليكم، ولهذا رخصت لكم بقصرها، وفي هذه الآية دليل واضح علىٰ عموم عداوة الكفار للمسلمين، وأنها لا تزول بأي مواطنة أو منفعة، وأنه لا يصلح للمسلمين إلا جهادهم حتىٰ يقمع اللَّه شرهم.

وقوله سبحانه في الآية (١٠٢): ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾:

هذه الآية الكريمة فيها بيان صفة من صفات صلاة الحرب التي يسميها الفقهاء صلاة الخوف، وبما أن الإسلام دين حربي[1] عسكري وروحاني وسياسي جامع لكل هذه النواحي لصلاحيته للحياة العامة،

---

(١) وصف الإسلام بهذا الوصف فيه شيء من المبالغة، فالإسلام دين السلم، وأما الجهاد فهو مشروع بضوابطه وآدابه لتحقيق السلم بمفهومه الواسع؛ فنسبة هذا الوصف إلىٰ الإسلام لا تصح استنادًا إلىٰ مشروعية الجهاد.

فإنه يرشد أهله إلىٰ أن ينتبهوا إلي ناحية عظيمة من شأنها تقوية الروح المعنوية فيهم، وهذه الناحية هي الالتجاء إلىٰ اللَّه سبحانه مالك النفع والضر وواهب النصر، والاتصال به عن طريق القيام بأحب الواجبات الدينية إليه، وأقوىٰ مزك للنفوس وهي الصلاة، التي لا يجوز التساهل فيها والغفلة عنها، فرسم لهم اللَّه في حالة الحرب كيفية خاصة ضامنة لعباده العسكريين إقامة الصلاة وقتال العدو مع أخذهم الحذر منه.

وقد أمر اللَّه نبيه أن يجعل المجاهدين طائفتين: طائفة تصلي معه ومعها أسلحتها التي لا تشغلها عن الصلاة ولا يتركونها وقت الصلاة، لئلَّا يضطرهم العدو إلىٰ القتال عقبها مباشرة أو قبل إتمامها، فيكونون مستعدين لما يراد بهم وهو الذي أشار اللَّه إليه بقوله لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأمر اللَّه لنبيه أمر لجميع الأمة عمومًا، ولقادتها السياسيين والعسكريين خصوصًا ـ ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ [النساء: ١٠٢] أي كنت في جماعة المؤمنين المحاربين: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي دعوتهم إلىٰ أدائها جماعة في حالة الحرب والنزال، اجعلهم طائفتين احتياطًا لمكر العدو، واستعدادًا له.

وعلىٰ هذا: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ يقتدون بك ﴿وَ﴾ يأخذون بالحزم ولا يتساهلون، بل ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ يحملونها في الصلاة ويهيئونها لما يطرأ عليهما وتبقىٰ الطائفة الأخرىٰ مراقبة للعدو، ومشغلة له، وقاصمة له عن غدره وطمعه، ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ أي سجد الذين يصلون معك سجدتي الركعة الأولىٰ وأتموها فارقوك وأتموا صلاتهم، فإذا فرغوا ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي لينصرفوا إلىٰ مقابلة العدو للحراسة، وأنت يا محمد أو يا أيها الإمام بعده، تكون منتظرًا للطائفة الثانية التي قال اللَّه عنها: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ ركعتهم الأولىٰ وأنت في الثانية فإذا جلست منتظرًا لهم في تشهدك قاموا إلىٰ تكميل صلاتهم، فصلوا الركعة الثانية ثم جلسوا معك بخلاف الطائفة الأولىٰ فإنها تكمل صلاتها وتخرج منها لاستلام

المراكز من الطائفة الثانية المتمركزة للمراقبة.

ولم يبين اللَّه في هذه الآية الكريمة الركعة الثانية لكل من الفريقين اكتفاء ببيان الرسول ﷺ لهم كما سيأتي، وقد كرر اللَّه عليهم الأمر بأخذ الحيطة واليقظة التامة بقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي الفرقة الثانية في الصلاة خوفًا من خطر العدو كما فعلت الطائفة الأولىٰ، وقد زاد اللَّه هذا الأمر للطائفة الثانية بأخذ الحذر احتراسًا من المخاوف ومكر العدو؛ لأنه يتوهم في الأولىٰ كون المسلمين قائمين في الحرب، فإذا قامت الطائفة الثانية لتصلي اتضح لهم أنهم في الصلاة فيحاولون انتهاز الفرصة للهجوم علىٰ المؤمنين، فمن هنا تكرر الأمر من اللَّه بأخذ السلاح في الصلاة مع زيادة أخذ الحذر.

قال الواحدي: وفي هذا رخصة للخائف في الصلاة بأن يجعل بعض فكره في غير الصلاة.

قلت: ولا حرج علىٰ العسكريين إذا صرفوا أفكارهم إلىٰ العدو؛ لأن حالتهم تتطلب ذلك، ولأن اللَّه أمرهم بأخذ حذرهم، وأخذ الحذر لا يكون إلا بانشغال الفكر في شأن العدو ومكره، واللَّه يعذرهم لأنهم في عبادة عظيمة.

قال أبو السعود: وتكليف كل من الطائفتين بما ذكر لما كان الانشغال بالصلاة مظنة لإلقاء السلاح والإعراض عن غيرهم ومؤذنة لهجوم العدو كما ينطق به قوله تعالىٰ: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ فتضعونها، ﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أي حوائجكم التي فيها بلاغكم: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي يحملون عليكم حملة واحدة فيقتلونكم.

فهذا علة الأمر بأخذ السلاح والأمر بذلك للوجوب لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا إثم ولا حرج عليكم ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ يثقل معه حمل السلاح، ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ يثقل عليكم حمله ﴿أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾. وأخرجه البخارىٰ في كتاب التفسير من سورة

النساء حديث (١٩٩٤) عن ابن عباس قال: نزلت: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ في عبد الرحمن بن عوف كان مريضًا، ثم أمروا بعد ذلك بالتيقظ والاحتياط فقيل: ﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ لئلَّا يهجم عليكم العدو غيلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي يهانون به، ويقال: شديدًا، وقال أبو السعود: هذا تعليل للأمر بأخذ الحذر، أي أعد لهم عذابًا مهينًا بأن يخذلهم وينصركم عليهم، فاهتموا بأموركم ولا تَهملوا في مباشرة الأسباب كي يحل بهم عذابه بأيديكم، وقيل: لما كان الأمر بالحذر من العدو موهمًا لتوقع غلبته واعتزازه نفىٰ اللَّه ذلك الإيهام بأنه ينصر المؤمنين ويهين عدوهم لتقوىٰ قلوبهم. انتهىٰ.

قلت: والسياق واضح في أن اللَّه سبحانه أعد العذاب المهين للكافرين بما هدىٰ عباده المؤمنين إليه من أسباب النصر، كإعداد كل ما يستطاع من القوة، وأخذ الحذر والالتجاء إليه سبحانه بالاستعانة بالصبر والصلاة ورجاء ما عند اللَّه من الأجر، والرضوان بإخلاص المقاصد له والصدق معه في بيع النفس والمال له ونعم الصفقة الرابحة.

فالعذاب المهين لأعدائنا هو عذاب الغلبة وانتصار جيوش المصلين عليهم انتصارًا قامعًا لهم، كاسرًا لشوكتهم، مهينًا لنفوسهم إذا قام المسلمون بما أمرهم اللَّه به من الجهاد النفسي والجهاد الخارجي، وسيأتي قريبًا ما يؤيد هذا المعنىٰ في السياق كالأمر بذكر اللَّه كثيرًا وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، ويؤيد قوله سبحانه في الآية (١٤) من سورة التوبة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

وقد اختلفوا في صلاة الخوف، هل هي ركعة واحدة كل طائفة تصلي ركعة مع الإمام ثم تنصرف لمجابهة العدو دون أن تكمل أي طائفة منهم الركعة الثانية وحدها، ويكون الإمام فقط هو المصلي ركعتين عنهم، أو أن كل واحدة تصلي ركعتين إحداهما مع الإمام والأخرىٰ تكملها بدونه كما سبق.

وقد أورد ابن جرير ستة عشر أثرًا، كلها تنص على أن كل طائفة تصلي ركعة واحدة والإمام يصلي ركعتين، فتجزئ عنهم ركعة الإمام، وأورد عشرة آثار تدل على أن كل طائفة صلت مع النبي ﷺ ركعة، وأتمت لنفسها الركعة الثانية، وقد أتى ببضع عشر أثرًا في صفة إتمامهم الركعة الثانية، وإني لا أطيل الموضوع بل أكتفي بالإشارة كي يراجع من أراد الاستزادة والاطلاع، فإنه قد أتى - أيضًا - بزيادة آثار مقاربة لهذا المعنى إلا أنها على القول بأن العدو كان بينهم وبين القبلة، ثم قال: وأولى الأقوال التي ذكرناها بتأويل الآية قول من قال: معنى ذلك: فإذا سجدت الطائفة التي قامت معك في صلاتها ﴿فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ﴾ يعني من خلفك وخلف من يدخل في صلاتك ممن لم يصل معك الركعة الأولى بإزاء العدو بعد فراغها من بقية صلاتها، ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾ وهي الطائفة التي كانت بإزاء العدو ولم يصلوا، يقول: لم يصلوا معك الركعة الأولى، ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ يقول: فليصلوا معك الركعة التي بقيت عليك ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ لقتال عدوهم بعد ما يفرغون من صلاتهم.

وذلك نظير الخبر الذي روي عن رسول الله ﷺ أنه فعله يوم ذات الرقاع، والخبر الذي رواه سهل بن أبي خيثمة، قلت: هي تسعة آثار من رقم (١٠٣٤٥) إلى (١٠٣٥٣) ثم قال: وإنما قلنا: ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن الله ﷻ ذكره - قال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ وقد دللنا على أن إقامتها إتمامها بركوعها وسجودها، ودللنا مع ذلك على أن قول: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إنما هو إذن بالقصر من ركوعها وسجودها في حال شدة الخوف.

قلت: يرحم الله ابن جرير ما كان يحسب أنه يأتي على المسلمين عصور ينقرون الصلاة نقرًا، ولا يمكن أن يقصروا من ركوعهم أو سجودهم، أو قيامهم أو قعودهم.

قال: فإذا صح ذلك كان بيّنًا أن لا وجه لتأول من تأول أن الطائفة

الأولىٰ إذا سجدت مع الإمام فقد انقضت صلاتها لقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ واحتمال ذلك من المعاني ما ذكرت قبل، ولأنه لا دلالة في ذلك علىٰ أن القصر الذي ذكر في الآية قبلها عُني به القصر من عدد الركعات، وإذا كان لا وجه لذلك فقول من قال: أريد بذلك التقدم والتأخر في الصلاة علىٰ نحو صلاة النبي ﷺ أبعد، وذلك أن اللَّه جل ثناؤه يقول: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾ وكلتا الطائفتين كانت قد صلت مع النبي ﷺ ركعته الأولىٰ في صلاته بعسفان، ومحال أن تكون التي صلت مع النبي هي التي لم تصل معه، فإن ظن ظان أنه أريد بقوله: ﴿لَمْ يُصَلُّوا۟﴾ لم يسجدوا، فإن ذلك غير الظاهر المفهوم من معاني الصلاة، وإنما توجه معاني كلام اللَّه جل ثناؤه إلىٰ الأظهر والأشهر من وجوهها ما لم يمنع من ذلك ما يجب التسليم له، وإن كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآية أمر من اللَّه ـ تعالىٰ ذكره ـ للطائفة الأولىٰ بتأخير قضاء ما بقي عليها من صلاتها إلىٰ فراغ الإمام من بقية صلاته، ولا علىٰ المسلمين الدين بإزاء العدو في اشتغالها بقضاء ذلك ضرر؛ لم يكن بأمرها بتأخير ذلك وانصرافها قبل انقضاء باقي صلاتها من موضعها معنىٰ، غير أن الأمر وإن كان كذلك فإنا نرىٰ أن من صلاها من الأئمة فوافقت صلاته بعض الوجوه التي ذكرناها عن رسول اللَّه ﷺ أنه صلاها، فصلاته مجزئة تامة لصحة الأخبار بكل ذلك عن رسول اللَّه ﷺ، وأنه من الأمور التي علمها أمته ثم أباح لهم العمل بأي ذلك شاءوا.

قال أبو جعفر: وأما قوله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ فإنه يعني تمني الذين كفروا باللَّهِ، ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ يقول: لو تشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم التي تقاتلونهم بها، وعن أمتعتكم التي بها بلاغكم في أسفاركم فتسهون عنها، ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ يقول: فيحملون عليكم وأنتم مشاغيل بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم حملة واحدة فيصيبون منكم غرة فيقتلونكم

ويستبيحون عسكركم، يقول ـ جل ذكره ـ: فلا تفعلوا ذلك بعد هذا، فتشتغلوا جميعكم بصلاتكم إذا حضرتكم صلاتكم وأنتم موافقو العدو، فتمكنوا عدوكم من أنفسكم وأسلحتكم وأمتعتكم، ولكن أقيموا الصلاة علىٰ ما بينت لكم، وخذوا من عدوكم حذركم وأسلحتكم انتهىٰ.

وقد سرد ابن القيم في «الهدي» جميع أنواع صلاة الخوف وهي سبعة، معظمها صحت عن النبي ﷺ بأسانيدها، وفيها ثلاثة أحاديث تثبت أن القوم صلوا علىٰ ركعتين بعضها ينص علىٰ قضائهم، وبعضها ينص علىٰ أنها مع رسول اللَّه ﷺ، وأنه كان لكل طائفة ركعتان وله ﷺ أربع منها اثنتان له نفلًا، وفيها حديثان يثبتان أن كل طائفة صلت ركعة ولم تتم الثانية خارجًا عن إمامته ﷺ، وقال عن هذه الأحاديث الخمسة: إنها كلها تنطبق علىٰ الآية إلا حديث أبي هريرة، ففيه مخالفة للآية كما فصلها، فليرجع إليه المستزيد، لأني لا أريد الإطالة بنقل تحقيقه الطويل.

وأما النص السادس من أنواع الصلاة فإنه ينطبق علىٰ الآية، وأما السابع الذي رواه الشافعي في «الأم» والبخاري في التفسير، ومالك يبدو فيه تغيير هيئات الصلاة في شدة الخوف عند التحام القتال أو الفرار من الخوف لا الفرار من الزحف، وفي وقت الحركات الالتفافية لتطويق العدو أو لإحباط تطويقه لبعضهم، أو في ضرورة سرعة الإقدام أو الإحجام ونحو ذلك، فإن المجاهد في هذه الأحوال يجوز له التخفيف من هيئات الصلاة بالإيماء عن الركوع والجلوس والاقتصارُ علىٰ المجزئ في القراءة وعدم التمسك باستقبال القبلة، وأن لا تعوقه الصلاة عن الكر والفر، وأن يكون الإيماء علىٰ حسب الطاقة ونحو ذلك مما سهله اللَّه علىٰ عباده لأداء هذه الشعيرة الروحية العظيمة التي لا يجوز التهاون بها حتىٰ في وقت الهول والشدة ليتركز في معتقدهم أنهم في جميع حالاتهم عباد اللَّه، يجاهدون في سبيله، ويهدون

بأمره، ويخشون جلاله، ويؤدون واجبه، لا يشغلهم شأن عن شأن.

فإن في تكليف اللَّه سبحانه للمؤمنين بالصلاة في وقت الحرب والاشتغال بقتال الأعداء، وفي حالة ترقب الموت دليلًا واضحًا علىٰ أهمية هذا الواجب في تزكية النفوس والحصول علىٰ رضاء اللَّه وعفوه ورحمته ومدده الذي لا يغلبه غالب، وقد جاء في الآية (٢٣٨- ٢٣٩) من سورة البقرة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

ولا ريب أن الصلاة وهي مناجاة بين العبد وربه ـ تبعث علىٰ مراقبته واستشعار عظمته، وتجعل المؤمن في حذر دائم من مخالفة أحكامه أو التقصير في حدوده، وبذلك يكمل للنفس تَهذيبها وقوتها وصلاحها لقوة صلة الروح باللَّه القادر القاهر العظيم، وحسب المؤمنين في الاعتناء بها ومحبتهم لها وتعلقهم بها تعلقًا تامًّا أنها عمود الدين والركن الأول من أركانه بعد الشهادتين، وأنها أقدم عبادة عرفت في أهل الإيمان، وكانت ديدنهم الخاص، وحكيت عن الأنبياء المرسلين، وضحىٰ إبراهيم ﷺ بقرب أهله والأنس بهم وبطفله الصغير الذي رزقه اللَّه إياه عند الكبر؛ فأخرجهم من جنان الشام وخيراتها وطقسها البارد وأنهارها ووضعهم في أرض حرور لا ماء فيها ولا زرع، لكنها حول البقعة المعدة للكعبة بأمر اللَّه قائلًا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ويحدثنا اللَّه عن إسماعيل أنه يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وعن عيسىٰ وهو يشرح نعمة اللَّه عليه بقوله: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم].

وقد قرن اللَّه بين الصلاة والصبر وجعلهما عدة الإنسان في هذه الحياة، وطلب منه الاستعانة بهما علىٰ صعوبتهما ومشاقهما فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فهي أعظم سلاح من أسلحة معركة الحياة الروحية والبدنية، وأقوىٰ سلاح يتدرع به المؤمن فينجح به في

الجهاد النفسي الداخلي التربوي، وفي الجهاد الخارجي الحربي الذي إذا تدرج به حاز علىٰ قوة أمضىٰ من كل قوة، وكان مالكًا لما يملكه عدوه مهما كان متسلحًا بالقوة المادية.

ولهذا حرصت الجمعيات الماسونية اليهودية الهائلة المتنوعة علىٰ تربية الأمم والشعوب بمخططاتها الثقافية تربية يزدرون فيها الصلاة، ويسخرون بها ويهربون عنها، ولا يعيرونها أي اهتمام، ليحرموهم جميع أنواع مدد اللَّه، من نور البصيرة وصدق العزيمة، والاستبسال في القتال، وبيع أنفسهم لمن يعطيهم ثمنها العاجل والآجل من النصر، ونيل القيادة العالمية في الدنيا، وجنان الفردوس والخلد في الآخرة؛ لأن اليهود الخبثاء يعلمون أنه لا تقوم لهم قائمة بين المتسلحين بالصلاة تسلحًا صحيحًا لا شكليًّا، وأنهم لا يلعبون علىٰ عقول الناس ويعبثون بمقدراتهم إلا إذا أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

فعملوا بمكرهم علىٰ تنشئة من يسيئون إلىٰ الصلاة ويحرمون أنفسهم من آثارها الطيبة التي تعود عليهم بالخير والنصر العظيم والمكانة السامية، فيكونون بِهذا المصير السيئ كسبًا لليهود في جميع شئون حياتهم رغمًا علىٰ أنفسهم، وإن أبغضوا اليهود أو شتموهم فحياتهم ليست لأنفسهم بل هي لأعدائهم كما هو المشاهد من أحوالهم هذا الزمان.

وينبغي التأمل في معاني «الغي» الذي توعد اللَّه به الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، ليعرف مدىٰ السقوط الذي أوقعت فيه اليهودية العالمية أغلب البشر بمخططاتها التربوية الملعونة، وعلىٰ الأخص العرب الذين كانوا في القرون المفضلة أعجوبة الدهر ومفخرة التاريخ بتربية الإسلام، ثم صاروا إلىٰ هذه الحال التي هي في صالح اليهود لا في صالح البشر كما سبق فضلًا عن صالحهم.

وقد كان أسلاف العرب ومن اهتدىٰ بهديهم الإسلامي من غيرهم الذين تربوا بالقرآن وفق منهجه الرباني، يلقون عدوهم بالسلاح

الروحي الذي في طليعته الصلاة، فيتفوقون به علىٰ أي سلاح، حيث إنهم كانوا متفوقين في إيمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة، ويشعرون بمعيته في المعركة، ومتفوقين في إيمانهم بالهدف الذي أوجب اللَّه عليهم التمسك به، وتكريس جميع الجهود من أجله والقتال في سبيله، ويستيقنون أنه أرفع الأهداف جميعًا، وأنهم يستمطرون به نصر اللَّه ومدده، وكذلك هم متفوقون بحسن التصورات الصادقة للحياة، ووظيفتهم للَّه فيها، وكل هذا بسبب إقامتهم للصلاة ونيلهم نتائجها الطيبة التي حرم منها أعداؤهم سابقًا، والمتفرنجون المتأمركون لاحقًا، ممن صدق عليهم إبليس ظنّه فاتبعوه وأقروا عيون جنوده من اليهود وأفراخهم.

وهذا وإن المتأمل لآيات صلاة الخوف والحرب وما بعدها من التوصيات العسكرية العظيمة، يجد فيها إعداد المؤمنين للحرب إعدادًا روحيًّا وماديًّا وسياسيًّا، وذلك بربطهم بالقوة الخفية، وحصر التفاتتهم إلىٰ السماء، وخوفهم ممن في السماء فقط دون من في الأرض جميعًا، وتحتيم الاحتفاظ بالسلاح، وأخذ الحذر بكل يقظة واهتمام، وفي هذا تعبئة روحية عظيمة، وتقوية للعزائم، وتطمين لقلوبهم أخيرًا بإشعارهم أنهم يقاتلون قومًا كتب اللَّه عليهم الهوان، وذلك الهوان ليس بضربة سماوية حسية، ولكنه علىٰ أيدي المؤمنين الذين يثبتهم اللَّه أمامهم وينصرهم عليهم، ويشفي قلوبهم منهم كما أسلفنا ذلك.

وإن قيل: كيف طابق الأمر بالحذر قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ فجوابه أن اللَّه سبحانه لما أمر بأخذ الحذر من العدو أوهم ذلك قوة العدو وشدته، فأزال اللَّه ذلك الوهم بأن أخبر أنه يهين أعداءهم الكافرين ويخذلهم ولا ينصرهم بتاتًا، ليقوي بِهذا قلوب المؤمنين، ويعلموا أن الأخذ بالحذر هو من أجل مكرهم واهتبالهم فرصة الغفلة، لا من أجل قوتهم أو شدتهم، ولو كان من أجل ذلك لأمرهم بزيادة الاستعداد فوق أخذ الحذر اللازم، وأيضًا فإن في أمر

اللَّه سبحانه بأخذ الحذر يزداد لجوء المؤمنين وضراعتهم إلىٰ اللَّه، والحرص علىٰ طلب مرضاته ليمدهم بنصره الذي ليس لهم عنه غنىٰ، وقد جمع اللَّه بين الأمر بأخذ الحذر والأسلحة؛ لأن العمل بكل من ذلك فيه احتراز لهم، وتوق من شر عدوهم.

وقال أبو حيان: ودلت هذه الكيفية التي ذكرت في هذه الآية علىٰ أن طائفة صلت مع الرسول ﷺ بعض صلاة، ولا دلالة فيها علىٰ مقدار ما صلت معه ولا كيفية إتمامهم، وإنما جاء ذلك في السنة، ثم ذكر لصلاة الخوف إحدىٰ عشرة كيفية، كلها ثبتت في السنة، فليرجع إليه المستزيد فإني لا أريد الإطالة بذكرها.

وقال الإمام أحمد: لا نعلم أنه روي في صلاة الخوف إلا حديث ثابت صحيح، فعلىٰ أي حديث صليت أجزأ، وكذلك قال ابن جرير، وقال أبو بكر ابن العربي المالكي: روي عنه ﷺ أنه صلىٰ صلاة الخوف أربعًا وعشرين مرة - يعني كيفية - والله أعلم.

فائدة: ما يجوز في صلاة الخوف يجوز في صلاة الخائف الهارب من سيل أو قطاع طريق أو حيوان مفترس وغير ذلك، فيصلي علىٰ حسب حاله إيماء بما يقدر عليه وبدون استقبال القبلة، وعلىٰ واسطة فعل أو علىٰ قدميه واللَّه الموفق.

وقوله سبحانه في الآية (١٠٣): ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾:

ظاهر المعنىٰ أنه إذا فرغتم من الصلاة التي هي صلاة الخوف، فعليكم بذكر اللَّه المأمورين به عقب كل صلاة، وعقب أداء المناسك من التهليل والتكبير والتحميد، ودعاء اللَّه بالنصر والتثبيت والتأييد في جميع الأحوال، وخصوصًا ما هو فيه من مجابهة العدو ومقارعته، فإنه حقيق بالذكر والالتجاء إلىٰ اللَّه.

قال ابن عباس: لم يعذر اللَّه تعالىٰ أحدًا في ترك ذكره إلا المغلوب علىٰ عقله.

والمؤمن مطالب بذكر اللَّه في جميع أحواله من قيام وقعود واضطجاع مطالبة بالذكر العام، كما أن هناك أذكارًا مخصوصة للصباح والمساء، وعند النوم، وعقب الصلوات جاءت بها السنة المطهرة تفصيلًا للأمر بالكتاب العزيز: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق] وذكر اللَّه سبحانه مشروع مرغب فيه في جميع الأوقات علىٰ العموم، وبعد أداء الصلوات علىٰ الخصوص شكرًا للَّه الموفق لفعلها، وعلىٰ الأخص صلاة الخوف والحرب، فإن ذكر اللَّه مؤكد عندها وبعدها؛ لما فيها من التخفيف في أركانها والحركات الزائدة فيها من ذهاب وإياب وغير ذلك مما لا يوجد في سواها.

وقيل: إن المراد بالذكر هنا الصلاة، ورجحه بعضهم يعني صلوا قيامًا حال اشتغالكم بالمسابقة والمقارعة، وقعودًا حال اشتغالكم بالرمي، وعلىٰ جنوبكم حينما تكثر الجراحات فيكم، أو يضطركم العدو إلىٰ السقوط علىٰ الأرض اتقاء مما يرميكم به مما ليس له علاج إلا ذلك، مثل القنابل ونحوها، فإن معاني القرآن شاملة لما يتجدد من الأحداث.

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ أي بعد ما تضع الحرب أوزارها ويحصل لكم الأمن التام، ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدوها علىٰ الوجه الكامل المطلوب، وذلك لسكون قلوبكم وسلامتها من الاضطراب الموجب لصلاة الخوف، وبزوال ذلك يجب عليكم إقامة الصلاة بكامل أركانها وهيئاتها علىٰ الحالة التي أنتم تعرفونها، فلا تغيروا شيئًا من ذلك.

وقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ يعنىٰ إن الصلاة مكتوبة أي مفروضة محتمة علىٰ المؤمنين، وموقوتة بأوقات يجب عليهم مراعاتها وعدم الإخلال بها، وهذا توضيح لتعليل وجوب المحافظة علىٰ الصلاة حتىٰ في وقت الخوف ولو مع القصر منها، وإذا كنا

مأمورين بالصلاة وبالذكر علىٰ كل حال نكون عليها؛ وأنه لا يجوز لنا تأخيرها في الحرب قطعًا، فأجدر بنا أن نحافظ عليها غاية المحافظة في أحوال السلم والراحة كما يعطيه السياق، علىٰ أن المؤمن في حرب دائمة وجهاد مستمر في قرارة نفسه وخارج محيطه، فهو تارة يجاهد الأعداء وتارة يجاهد الأهواء، ولذلك وصف اللَّه المؤمنين العقلاء بأنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١]؛ لأن ذكر اللَّه أعون ما يعين صاحبه علىٰ تربية النفس وإن جهل ذلك الغافلون.

ورویٰ ابن جرير عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية: لا يفرض اللَّه علىٰ عباده فريضة إلا جعل لها جزاء معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذر غير الذكر، فإن اللَّه لم يجعل له حدًّا ينتهىٰ إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا علىٰ عقله، والصلاة من أهم أنواع الذكر، قال اللَّه سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤] فالصلاة كانت في حكم اللَّه ومقتضىٰ حكمته في هداية عباده ﴿كِتَٰبًا﴾، أي: فرضًا مؤكدًا ثابتًا ثبوت الكتاب في اللوح، و﴿مَّوْقُوتًا ﴾ أي منجمًا في أوقات محدودة لابد من أدائها فيها بقدر الإمكان، وإن أداءها في وقتها مقصورًا بعضها بشرطه خير من تأخيرها لقضائها تامة كما سنوضحه إن شاء اللَّه، وروىٰ ابن جرير عن ابن مسعود أنه قال: إن للصلاة وقتًا كوقت الحج، وروي عن زيد بن أسلم في تفسيره: ﴿مَّوْقُوتًا ﴾ أي منجمًا، كلما مضىٰ نجم جاء نجم، قال يقول: كلما مضىٰ وقت جاء وقت آخر أي يؤدىٰ فيه.

وليس توقيت الصلاة رسومًا صورية وعادات أو رياضات بدنية كما يزعمه دعاة النصرانية والملاحدة والمتفرنجون، فليعلم أن تقدير الصلوات بِهذه الأوقات الخمسة في نهاية الحسن والجمال نظرًا إلىٰ المعقول، قال الرازي:

وبيانه: أن لكل شيء من أحوال هذا العالم مراتب خمسة:

أولها: مرتبة الحدوث والدخول في الوجود، وهو كما يولد الإنسان ويبقىٰ في النشوء والنماء إلىٰ مدة معلومة وهذه المدة تسمىٰ سن النشوء والنماء.

والمرتبة الثانية: مدة الوقوف وهو أن يبقىٰ ذلك الشيء علىٰ صفة كماله من غير زيادة ولا نقصان وهذه تسمىٰ سن الشباب.

المرتبة الثالثة: سن الكهولة هو أن يظهر في الإنسان نقصان خفي، وهذه المدة تسمىٰ سن الكهولة.

والمرتبة الرابعة: مدة الشيخوخة وهي أن يظهر في الإنسان نقصانات ظاهرة جلية إلىٰ أن يموت ويهلك، وتسمىٰ هذه المدة سن الشيخوخة.

والمرتبة الخامسة: أن تبقىٰ آثاره بعد موته مدة، ثم بالآخرة تنمحي تلك الآثار وتبطل وتزول ولا يبقىٰ منه في الدنيا خبر ولا أثر.

فهذه المراتب الخمس حاصلة لجميع حوادث هذا العالم، سواء كان إنسانًا أو غيره من الحيوانات أو النباتات.

والشمس حصل لها بحسب طلوعها وغروبها هذه الأحوال الخمس؛ وذلك لأنها حين تطلع من مشرقها يشبه حالها حال المولود عندما يولد، ثم لا يزال يزداد ارتفاعها ويقوىٰ نورها ويشتد حرها إلىٰ أن تبلغ وسط السماء فتقف هناك ساعة، ثم تنحدر ويظهر فيها نقصانات خفية إلىٰ وقت العصر، ثم بعده يظهر فيها نقصانات ظاهرة فيضعف ضوءها وحرها ويزداد انحطاطها إلىٰ الغروب، ثم إذا غربت في عين الرائي يبقىٰ بعض آثارها في المغرب وهو الشفق حتىٰ تمحىٰ تلك الآثار وتكون كأنها ما كانت.

فلما حصلت هذه الأحوال الخمسة وهي أمور عجيبة لا يقدر عليها إلا اللَّه، لا جرم أن اللَّه تعالىٰ أوجب عند كل واحد من هذه الأحوال الخمسة صلاة، فأوجب عند قرب الشمس من الطلوع صلاة الفجر شكرًا للنعمة العظيمة الحاصلة بسبب زوال تلك الظلمة وحصول

النور، وبسبب زوال النوم الذي هو كالموت، وحصول اليقظة التي هي كالحياة، ولما وصلت الشمس إلىٰ غاية الارتفاع ثم ظهر فيها أثر الانحطاط، أوجب صلاة الظهر تعظيمًا للخالق القادر علىٰ قلب أحوال الأجرام العلوية والسفلية من الضد إلىٰ الضد، فجعل الشمس بعد غاية ارتفاعها واستعلائها منحطة عن ذلك العلو، وآخذة في سن الكهولة وهو النقصان الخفي، ثم لما انقضت مدة الكهولة ودخلت في أول زمان الشيخوخة، أوجب اللَّه تعالىٰ صلاة العصر التي وقتها إذا صار ظل كل شيء مثليه، وذلك لأنه من هذا الوقت تظهر النقصانات الظاهرة؛ لأنه من وقت الظهر إلىٰ وقت العصر ما ازداد الظل إلا مثل الشيء، ثم إنه في زمان لطيف يصير ظله مثليه، وذلك يدل علىٰ أنه من الوقت الذي يصير ظل الشيء مثليه، تأخذ الشمس في النقصانات الظاهرة.

ثم إذا غربت الشمس أشبهت هذه الحالة ما إذا مات الإنسان، فلا جرم أوجب اللَّه تعالىٰ عند هذه الحالة صلاة المغرب، ثم لما غرب الشفق فكأنه انمحت آثار الشمس ولم يبق في الدنيا منها خبر ولا أثر، فلا جرم أوجب اللَّه تعالىٰ صلاة العشاء، فثبت أن إيجاب الصلوات الخمس في هذه الأوقات الخمس مطابق للقوانين العقلية والأصول الحكيمة، واللَّه أعلم بأسرار أفعاله. (اهـ) بتصرف قليل.

وأقول: إن في توقيت الصلاة وتحديد فعلها في الأوقات المشروعة فيه تربية علىٰ جهاد النفس وصدق صاحبها في تضحيته بمرادات نفسه ومحبوباتها في سبيل مرادات اللَّه ومحبوباته منه، ويظهر هذا جليًّا في توقيت صلاة الفجر آخر الليل عند ازدياد شهوة النوم، ولذة الفراش، فلو جعل اللَّه وقت صلاة الفجر بعد طلوع الشمس لنقصت فائدة التكليف، ولم يبق لجهاد النفس أثر، ولا للتضحية بمراد النفس معنىً.

وكذلك باقي مواقيت الصلاة، فيها من جهاد النفس وتفضيل مراد

الرب علىٰ مرادها ما يصطدم به التاجر والعامل والصانع وأرباب المؤسسات المادية والصناعية والمقاولون وغيرهم، فإن بعضهم أو أكثرهم يرىٰ الصعوبة في التزام تلك الأوقات، وكل فريق من هؤلاء يرىٰ وقتًا مناسبًا لحرفته ومصلحة عمله، ويثقل عليه الشيطان التقيد بِهذه الأوقات ولا يهضمها حتىٰ يجاهد نفسه علىٰ طاعة اللَّه، ويروضها علىٰ تفضيل ما يطلبه اللَّه منه، وما يجب منه المبادرة إليه علىٰ ما تهواه نفسه، وتصور له مقتضيات عمله من التصوير المخالف لشرع رب العالمين، المبني علىٰ العلم والحكمة اللذين لو علم البشر حقيقتهما لما تأخروا في تنفيذ شرع اللَّه وتقديمه علىٰ شهواتهم.

وقال صاحب «المنار» في جواب له علىٰ سؤال عن التوقيت وعدم ترك حرية الاختيار فيه للمصلين المخلصين، حتىٰ لا يفقدوا الإخلاص والميل الحقيقي للعبادة إذا كان توقيتها لا يناسبهم، فإنه قال بعد تمهيدات عقلية ما نصه: إذا تدبرت ما ذكرناه فاعلم أن اللَّه تعالىٰ شرع الدين لأجل تكميل فطرة الناس، وترقية أرواحهم وتزكية نفوسهم، ولا يكون ذلك إلا بالتوحيد الذي يعتقهم من رق العبودية والذلة لأي مخلوق مثلهم، وشكر نعم اللَّه عليهم باستعمالها في الخير ومنع الشر، ولا عمل يقوي الإيمان والتوحيد ويغذيه ويزع النفس عن الشر، ويحبب إليها الخير ويرغبها فيه مثل ذكر اللَّه ﷻ، أي نذكر كماله المطلق وعلمه وحكمته وفضله ورحمته، وتقرب عبده إليه بالتخلق فيما يحبه.

ولا تنس أن الصلاة شاملة لعدة أنواع من الذكر والشكر كالتكبير والتسبيح وتلاوة القرآن والدعاء، فمن حافظ عليها بوقتها قويت مراقبته للَّه ﷻ وحبه له، وبقدر ذلك تنفر نفسه من الشر والنقص، وترغب في الخير والفضل، ولا يحافظ العدد الكثير من طبقات الناس في البدو والحضر علىٰ شيء ما لم يكن فرضًا معينًا وكتابًا موقوتًا، فهذا النوع من ذكر اللَّه المهذب للنفس ـ وهو الصلاة ـ تربية عملية للأمة تشبه

الوظائف العسكرية في وجوب اطرادها وعمومها وعدم الهوادة فيها.

ومن قصر في هذا القدر القليل من الذكر الموزع علىٰ هذه الأوقات الخمسة في اليوم والليلة فهو جدير أن ينسىٰ ربه ونفسه، ويغرق في بحر من الغفلة، ومن قوي إيمانه وزكت نفسه لا يرضىٰ بِهذا القليل من ذكر اللَّه ومناجاته، بل يزيد عليه من النافلة ومن أنواع الذكر الأخرىٰ ما شاء اللَّه أن يزيد، ويتحرىٰ في تلك الزيادة أوقات الفراغ والنشاط التي يرجو حضور قلبه وخشوعه، وهو الذي استحسنه السائل.

وجملة القول: إن الصلوات الخمس إنما كانت موقوتة؛ لتكون مذكرة لجميع أفراد المؤمنين بربهم في الأوقات المختلفة، لئلَّا تحملهم الغفلة علىٰ الشر، أو التقصير في الخير ولمريدي الكمال في النوافل وسائر الأذكار أن يختاروا الأوقات التي يرونها أوفق بحالهم. «انتهىٰ بتصرف قليل لاضطرار التصحيح».

وقوله جميل وله كلام آخر جميل طويل في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة]، ومن بعض ما قاله: إن المحافظة علىٰ الصلوات آية الإيمان الكبرىٰ، وقد جعل الشرع الصلاة والزكاة شرطًا لصحة الإسلام وأخوة الدين وما له من الحقوق، وذلك في أوائل سورة التوبة في الكلام علىٰ المشركين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١] والأحاديث كثيرة جدًّا، نكتفي منها بقوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم علىٰ اللَّه**»(١).

إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أصلا الدين وركيزته، فالصلاة هي الركن الركين لصلاح النفوس، والزكاة هي الركن الركين لصلاح

---

(١) تقدم تخريجه.

المجتمع، فإذا هدما فلا إسلام في الأمة.

وقال ـ أيضًا ـ: فإذا كان من أثر في ترك الصلاة والتهاون بالدين في المدن والقرىٰ والمزارع كان من أثره في المدن فشو الفواحش والمنكرات، تجد حانات الخمر ومواخير الفجور والرقص والقمار غاصة بخاصة الناس وعمتهم، حتىٰ في ليالي رمضان، ليالي الذكر والقرآن، وفي القرىٰ والمزارع استباحوا السلب والنهب وأنواع الاعتداء، وأحب الجميع المال وانقبضت أيديهم عن فعل الخير وانبسطت في أفعال الشر، وفسدت أخلاقهم وقلت الثقة فيما بينهم، وقل عدد المصلين غير الساهين وندر المصلون المحافظون.

وصار الإسلام عند المتمدينين جنسية سياسية لا عقيدة دينية، وجعلوا الرابطة الوطنية لأهل كل قطر بدلًا من الرابطة الدينية، فلم يفلحوا بل صار لهذا أسوأ النتائج، وصار الممدوح عندهم بالتمدن والتنور إذا تتلىٰ عليه آيات اللَّه ولّىٰ مستكبرًا كأن لم يسمعها غرورًا بعلمه المادي.

أما غير هذا النوع فغروره بمجرد انتسابه إلىٰ الإسلام أو مجاورته لبقعة مقدسة، أو شفاعة مقبور، أو الانتماء لشيخ طريقة يأخذ عليه العهد ويوصيه بقراءة الورد أو بزيارة القبور وإهداء النذور وتسييب السوائب لها.

وبعضهم يتعلم كيفية الصلاة ليصليها في حالة سهو وغفلة كالذين هم عن صلاتهم ساهون، علىٰ عكس الصادقين المحافظين علىٰ الصلاة الذين وصفهم اللَّه بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون] إلىٰ آخر الآيات، فالمحافظ علىٰ هذه الصلاة الفضلىٰ ينتهي عن الفحشاء والمنكر، فلا يرضىٰ لنفسه أن يكون حلسًا من أحلاس بيوت القمار والفسق واللهو، والمحافظ علىٰ هذه الصلاة الخاشعة لا يمنع الماعون بل يبذل معونته ورفده لمن يراه مستحقًا

لهما، والمحافظ عليها لا يخلف ولا يلوي في حق غيره عليه وإن كان حقًّا فرضه علىٰ نفسه أو التزمه برًّا بغيره.

والمحافظ علىٰ هذه الصلاة لا يضيع حقوق أهله وعياله، ولا حقوق أقاربه وجيرانه، ولا حقوق معامليه وإخوانه، والمحافظ علىٰ هذه الصلاة يعظم الحق وأهله، ويحتقر الباطل وجنده، فلا يرضىٰ لنفسه ولا لأمته بالذل والهوان ولا يغتر بأهل البغي والعدوان، والمحافظ علىٰ هذه الصلاة لا تجزعه النوائب، ولا تفل عزمه المصائب، ولا تبطره النعم، ولا تقطع رجاءه النقم، ولا تعبث به الخرافات والأوهام، ولا تطير به رياح الأماني والأحلام، فهو الإنسان الكامل الذي يؤمن شره، ويرجىٰ في الناس خيره، ولو أن فينا طائفة من المصلين الخاشعين لأقمنا بهم الحجة علىٰ المارقين والمرتابين، ولكن المحافظ علىٰ الصلوات والصلاة الوسطىٰ مع القنوت والخشوع قد صار أندر من الكبريت الأحمر، ومن عرفه لا يصدق أن للصلاة يدًا في آدابه العالية واستقامته في السر والعلانية. «انتهىٰ باختصار وتصرف قليل».

واعلم أن اللَّه سبحانه أجمل ذكر الأوقات في هذه الآية وبينها في عدة آيات:

إحداها: قوله سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] فالواجب من الدلوك إلىٰ الغسق هو الظهر والعصر، والواجب من الغسق إلىٰ الفجر هو صلاة المغرب والعشاء والواجب في الفجر صلاة الصبح، وهذه الآية توهم أن الظهر والعصر وقت واحد، والمغرب والعشاء وقت واحد ولكن السنة أبطلت هذا الإيهام بالتفصيل القولي والعملي.

وثانيها: قوله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود: ١١٤] فقوله: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ يفيد صلاة الصبح والعصر، لأنهما كالواقفين علىٰ الطرفين، وقوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ يفيد وجوب المغرب والعشاء،

وكان بعضهم يستدل بِهذه الآية علىٰ وجوب الوتر؛ لأن الزلف جمع وأقله ثلاثة؛ وعند بعضهم أن أقله اثنان.

وثالثها: قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠] فقبل طلوع الشمس وغروبها صلاة الفجر، وآناء الليل إشارة إلىٰ المغرب والعشاء.

ورابعها: قوله: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم] فهذه فيها جميع الأوقات للصلوات الخمس؛ لأن العشي فيه وقت العصر وغير ذلك من الآيات.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (١٠٤):** ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾:

هذه الآية الكريمة فيها أعظم تربية عسكرية لأهل الملة الإسلامية العسكرية السياسية، وذلك بما أن دين الإسلام يوجب علىٰ أهله الجهاد في سبيله بمحاربة أعدائه المفترين عليه والمعادين لرسالته وأوليائه القائمين بها، فإن اللَّه سبحانه يرسم لهم أعظم خطة حربية مشجعة لنفوسهم، وملهبة لحماسهم، وشامخة برؤوسهم.

إنه يعمق في قلوبهم معنىٰ الحرب ونتائجه الحتمية، كما يعمق في قلوبهم الهدف الصحيح الذي من أجله يحاربون، وينور بصائرهم ويشحذ هممهم، ويستجيش نفوسهم، ويستثير شجاعتهم علىٰ ضوء ذلك، ويوجب عليهم الصدق في العزيمة، وقوة الاستبسال ومواصلة الثبات والصبر حتىٰ النصر الذي يرجونه من اللَّه، وينهاهم عن ضد ذلك قائلًا: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي لا تضعفوا ولا يدب فيكم الوهن الحسي أو المعنوي، ولا يساوركم الوهن النفسي والخلقي أمام جلد الأعداء وهول نزالهم وقوة صولتهم، فإنهم أولىٰ بالضعف منكم، وأولىٰ بلين القناة من قناتكم؛ لأنه لابد أن يوجد فيهم من عوامل

الضعف واليأس ما لا يجوز وجوده فيكم أو صدوره عنكم؛ لأنه: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ﴾ من مواصلة القتال وهول النزال وإثخان الجراح ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾؛ لأنهم بشر مثلكم، يتساوون معكم فيما يصيب الأجسام من الألم، فليس عندهم ميزة في أجسامهم تتحمل من أجلها ما لا تتحملون، بل كلكم مشتركون في الألم الحسي.

ولكن أنتم عندكم معنويات أخرىٰ تخفف عنكم الألم، أو تذهلكم عنه وتجعلكم تستصغرونه أو تسخرون به أمام أهدافكم التي ترجون تحقيقها من اللَّه إذا تدرعتم بالصبر والتقوىٰ فإنكم بفضل اللَّه: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ فالفوارق الروحية والمعنوية بينكم وبين أعدائكم فوارق عظيمة جدًّا، تستسهل مع وجودها جميع الصعاب والمتاعب والآلام.

يا لها من تربية عسكرية عظيمة بِهذا التعليم الحكيم والتوجيه السليم، إن أعداءكم أيها المؤمنون يألمون في المعركة الحربية كما تألمون، ولكن بينكم فوارق عظيمة، إنهم لا يملكون لآلامهم علاجًا نفسيًّا يشد أزرهم علىٰ مواصلة القتال أبدًا، ولا يملكون علاجًا يمنعهم من الجزع ويقيهم من الهلع؛ لأنهم مبتورو الصلة باللَّه، وبضاعتهم بضاعة أرضية سريعة النفاذ والاضمحلال، أما أنتم فإنكم علىٰ العكس، تملكون أعظم علاج يكسبكم رباطة الجأش وطمأنينة القلب، ويبعث فيكم الروح المعنوية الوثابة التي تجعلكم تستصغرون ما أصابكم ولا تعيرونه اهتمامًا، وتستسهلون ما أمامكم لقوة ثقتكم بوعد اللَّه العزيز الجبار القهار في الثواب العاجل بالنصر والفتح المبين، أو نيل ما هو أكبر عنده من ثواب الآخرة خصوصًا مقام الشهداء، ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، فإن عندكم أيها المؤمنون ضمانات من اللَّه القوي العزيز تجعلكم علىٰ ثقة تامة من مستقبلكم، بخلاف عدوكم المفلس من ذلك تمام الإفلاس، والذي لا يملك سوىٰ الأماني الشيطانية التي نهايتها الخيبة والخسران.

وما دمتم تملكون هذا الرصيد القوي من اللَّه، فيجب أن يكون إصراركم علىٰ مواصلة القتال أقوىٰ من إصرارهم وأعظم، وأن تقابلوا عنادهم وغرورهم بعناد أقوىٰ مصحوب بالثقة؛ لأن المؤمنين باللَّه يجب أن يكونوا أشجع من عدوهم وأقوىٰ احتمالًا لأهوال الحرب وآلامه، وأن يكونوا أشد ضراوة منه ويواصلوا ابتغاءهم وتعقبهم لأعداءهم، ولا يكفوا عنهم حتىٰ يكسروا شوكتهم، فلا تكون لهم قوة، فإن لدىٰ المؤمنين من بضاعة السماء ما يؤهلهم لذلك، ويجعلهم متفوقين علىٰ عدوهم تفوقًا معنويًّا لا يمكنه الحصول عليه، إنهم يؤمنون باللَّه واليوم الآخر، ويثقون بوعد اللَّه، ويتشوقون إلىٰ لقائه بخلاف عدوهم الكافر، فإنه لا يؤمن بِهذا كله، وإن المؤمنين مولاهم اللَّه، والكافرون لا مولىٰ لهم.

وإذا كانوا كذلك، وكان خوف الألم ليس مانعًا للكافرين من قتال المؤمنين، فكيف يكون الألم مانعًا للمؤمنين من قتالهم؟ هذا شيء لا يجوز صدوره؛ لأن المؤمنين أولىٰ بالمصابرة علىٰ القتال وتحمل ما يلاقونه؛ لأنهم يحملون من العقيدة ما يجعلهم لا يبالون به كما أسلفنا، فإن بضاعتهم السماوية تجعلهم في طمأنينة كاملة وترقب أكيد لنصر اللَّه، وهذا كسب قلبي لا يملكه عدوهم أبدًا، بل هم مختصون به وممتازون علىٰ غيرهم.

إنه كسب روحي يحملهم علىٰ الثبات حتىٰ في الوقت الذي تزيد فيه المشقة علىٰ الطاقة في العدة الحربية، وتتضخم الآلام، لأن زاد الصبر متوفر، وفيض الأمل باللَّه جياش كالشيء الملموس حقيقة، فالمؤمن الذي يعتبر وعد اللَّه متحققًا له كالشيء الذي يمسكه بيده لا يبالي بما أصابه من أجل نيله، فهذا معنىٰ قوله سبحانه: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ إنهم يرجون من اللَّه جزاء جهادهم وحسن بلائهم رجاء الجازم بتحصيله ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وكلما تأملوا في هذا السبيل عرفوا أن عدوهم مثلهم في الألم علىٰ الأقل،

كما يذكرهم اللَّه بذلك تذكيرًا يهون عليهم ما يصيبهم من ذلك، زيادة علىٰ ما يشحن صدورهم بذلك الرجاء الجازم الذي هو كالملموس باليد، فلا يمكن أن يساورهم الجزع واليأس علىٰ هذه الحال، بل يتحققون أنه من نصيب عدوهم، فيشدون عليه حتىٰ يرهقوه وينهكوه.

فقد احتوت هذه الآية الكريمة القصيرة علىٰ أعظم تعليم عسكري لم تصل إليه التعاليم العسكرية حتىٰ الآن؛ لأن القرآن يمد أهله بروح عسكرية جبارة لا يملك غيره من التعاليم أن يمد سواهم بمثلها؛ لأنه ليس مقصورًا علىٰ التعبير الذي يقدر عليه كل أحد، فإن التشجيع بالقول لا يعجز عنه المتشدقون، ولكنهم لا يملكون تكوين عقيدة روحية تجعل الأمل ملموسًا، وتصور الحقيقة علىٰ وجهها الصحيح.

إن التعاليم القرآنية يتكون منها صلابة عظيمة لا يقابلها أي صلابة، وقد ظهرت آثار هذه التعاليم في جنود المسلمين أيام حربهم مع أكبر الدول المجاورة لهم، وبرزت روحهم المعنوية بعبورهم تيارات الأنهار الجارفة والبحار المغرقة دون جسور ولا وسائط نقل أبدًا، بل بقوة يقينهم بوعد اللَّه الذي فلق البحر لموسىٰ وقومه، وجعل لهم منه طريقًا يبسًا، أن يجعل لهم طريقًا يَخْلُصُون منه إلىٰ عدوهم علىٰ حسب رحمته وحكمته.

وقد حصلت لهم هذه المعجزة في فتح «المدائن» يوم عبروا نهر «دجلة» العظيم علىٰ أقدامهم فلم تبتل، وعند عبور خيل أبي العلاء الحضرمي الخليج في البحرين.

ومثل هذه الآية التي نحن في تفسيرها والتي تربي عليها الرعيل الأول تصفع المتفرنجين المنتقصين للإسلام وتعاليمه، والزاعمين أنه لا يصلح للسياسة في هذا العصر، فإنه علىٰ عكس مزاعمهم كما أوضحنا مرارًا.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فيه ختام مناسب لمعاني

الآية، فإنه سبحانه عليم بسرائر المقاتلين ومقاصدهم، وحكيم في ترتيب وسائل النصر لمن يستحقها ولو كان كافرًا علىٰ كافر، وأما المؤمنون فقد اقتضت حكمته البالغة أن ينصرهم علىٰ الكافرين إذا استمسكوا بهديه وامتثلوا أوامره؛ لأنهم إذا عملوا بواجب التعبئة المطلوبة، واستعدوا بالقوة المستطاعة فإنهم ولو لم يتساووا مع عدوهم بالقوة المادية؛ يفضلون عليه بالقوة الروحية والأسباب المعنوية، ويكون النصر حليفهم إذا أخلصوا مقاصدهم للَّه، وصدقوا في تطبيق أوامره.

جاء في «ظلال القرآن»: ولربما أتت علىٰ العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة، ولكن القاعدة لا تتغير، فالباطل لا يكون بعافية أبدًا حتىٰ ولو كان غالبًا، إنه يلاقي الآلام من داخله، من تناقضه الداخلي ومن صراع بعضه مع بعض، ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء، وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تتحمل ولا تنهار، وأن تعلم أنها إن كانت تألم فإن عدوها كذلك يألم، والألم أنواع والقرح ألوان: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وهذا هو العزاء العميق وهذا هو مفترق الطريق. انتهىٰ المراد، وقد سبق توضيحنا مرارًا أن المصلين الخاشعين لا ينتابهم ما ينتاب غيرهم من الجزع والهلع ولا يساورهم اليأس أبدًا.

📖 **وقوله سبحانه في الآيات (١٠٥، ١٠٦)**: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾:

في هذه الآيات الكريمات وما بعدها إلىٰ الآية الثالثة عشرة بعد المائة تشريف عظيم للنبي ﷺ، وتفويض الأمور إليه لعصمة اللَّه له، وذلك بقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ كما أن فيها معجزة عظيمة من أعظم الدلائل علىٰ صدقه ﷺ وعلىٰ أن القرآن من عند اللَّه وحده،

وأن محمدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رسوله بالحق؛ لأن البشر مهما بلغت معارفهم وارتقت تصوراتهم وأرهفت أحاسيسهم لا يمكن أن يصلوا إلىٰ هذا المستوىٰ الذي أشارت إليه هذه الآية من فضح الخطة الأثيمة التي وضعها المنافقون لإظهار الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق؛ خداعًا للحاكم وتضليلًا لسير القضاء العادل إلا بوحي من اللَّه علام الغيوب.

ومناسبة هذه الآيات لما قبلها أن اللَّه سبحانه لما شرح أحوال المنافقين علىٰ سبيل الاستقصاء ونَهَىٰ المؤمنين أن يختلفوا في شأنهم، أو تجرّهم المحاباة إلىٰ التميع معهم، وأوجب عليهم قتالهم، واتصل بذكر المحاربة وما يتعلق بها من الأحكام، ثم ذكر السفر والخوف، ورسم الخطة الموجبة لثبات المؤمنين واستبسالهم في الحرب، رجع بالكلام إلىٰ خبث المنافقين، وأنهم كانوا يحاولون أن يحملوا الرسول ﷺ علىٰ الحكم بالباطل وأن يذر الحق، فأطلع اللَّه رسوله علىٰ مكرهم، وأمره أن لا يلتفت إليهم، ولا يحيد عن شيء من العدل مرضاة لقومه، وأن حرب الكفار لا يبيح الخيانة بهم، ولا إلصاق التهمة وتحميلهم الجريمة علىٰ ما لم يفعلوه، وأن كفر الكافر لا يبيح الجور عليه، بل يجب التزام الحق سواء كان في مصلحته أو ضدها بدون أي حيف، وهذا من محاسن الإسلام وصحة مصادره.

واتفق المفسرون علىٰ أن أكثر هذه الآيات نزلت في «طعمة بن أبيرق» الذي سرق طعامًا وسلاحًا، وأودع السلاح عند يهودي ليخفيه، ولما التمس صاحب السلاح درعه عند «طعمة» لم يجده، وحلف له أنه لم يأخذ شيئًا، وأنه ليس له بذلك علم، ثم وجدت عند اليهودي، فقال: دفعها إليَّ «طعمة» واستحفظني عليها، وشهد له بذلك ناس من اليهود، فاهتم لذلك قوم «طعمة» وأخذوا يتناجون فيما بينهم في طريقة تبرئته وإلصاق السرقة باليهودي، وبيتوا في ذلك ما بيتوا، ثم انطلقوا إلىٰ رسول اللَّه ﷺ وأخذوا يثيرون نفسه بأن هذه التهمة من

كيد اليهود للإسلام، وأنهم ما يعلمون عن صاحبهم «طعمة» إلا خيرًا، وشهدوا أمام الرسول ببراءته وسرقة اليهودي، وسألوا الرسول أن يجادل عنه وأكثروا عليه في هذا الشأن إثارة لعاطفته الدينية.

وكان أصحاب الحق قد تحققوا بالقيافة الصحيحة أن السارق «طعمة» ولكن قومه عملوا غاية التلبيس لإخفاء جريمتهم وإلصاقها بالبريء، والرسول ﷺ لا يعلم من الغيب إلا ما علمه اللَّه إياه، فأنزل اللَّه عليه هذه الآيات الكريمات: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي هذا القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا عوج فيه ولا ميل أبدًا، ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ جميع أنواع الناس من مؤمن وكافر، ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ بالنظر الصحيح فيما أنزل اللَّه عليك من الوحي في هذا الكتاب المبارك، فإن هذا الوحي فيه النور الذي تستنير به البصيرة، خصوصًا علىٰ ما أنزله اللَّه علىٰ قلبه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويروىٰ عن عمر بن الخطاب أنه قال: لا يقولنّ أحدكم: قضيت بما أراني اللَّه، فإن اللَّه لم يجعل ذلك إلا لنبيه ـ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ـ؛ لأن الرأي كان منه مصيبًا؛ لأن اللَّه كان يريه إياه، وأما الواحد منا فيكون رأيه ظنًّا ولا يكون علمًا.

وعلىٰ هذا قال بعضهم: إنه ﷺ لا يحكم إلا بالوحي والنص، وأن معنىٰ قوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ بما أعلمك اللَّه، وسمي ذلك العلم بالرؤية؛ لأنه كاليقين، حيث صدر من تعليم اللَّه لنبيه في القضاء بين الناس، ونهاه من الانحياز إلىٰ بعض الخصوم ثقة بقوله وانخداعًا بإيمانه وتدليسه؛ لأنه في أغلب القضايا يكون أحد الخصمين كاذبًا أو خائنًا، وقلما تكون خصومتهما عن سوء تفاهم مع حسن مقصد، ولهذا قال اللَّه سبحانه لنبيه في نَهيه عن ذلك: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي لا تكن لمن خان مسلمًا، أو كافرًا معاهدًا في نفسه أو ماله، خصيمًا تخاصم عنه وتدفع عنه من طالبه بحقه الذي خانه فيه بأي نوع من الخيانة مهما صغرت.

وتعبير اللَّه بصيغة الجمع بقوله: ﴿لِّلْخَآئِنِينَ﴾ إما لكون الذين نقبوا المشربة لسرقة الطعام والسلاح هم بنو أبيرق الثلاثة، أو أن السارق أحدهم وهو «طعمة» لكن عمّ اللَّه بالخيانة كل من شهد ببراءته ومن تابعهم في تزكيته؛ لأن سعيهم في براءة المتهم، وتزكيتهم له وإلصاق التهمة بمن هو نزيه بريء منها؛ خيانة فوق خيانة إذا كانوا يعلمون واللَّه أعلم بما يصفون، وإما أن يكون إطلاق الجمع ليتناول السارق الخائن «طعمة» وكل من خان خيانته فلا يخاصم النبي ﷺ لخائن، وكذلك ورثته وأتباعه من كل مسلم علىٰ وجه الأرض إلىٰ يوم القيامة لا يخاصم لخائن أبدًا.

وقوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ فيه أمر من اللَّه له بالاستغفار مما صدر منه في هذه الحادثة التي همّ فيها بعقاب اليهودي المتهم زورًا، وتبرئة المجرم الحقيقي والمخاصمة عنه، لانطلاء كذبهم وتدليسهم وتهويلهم عليه ﷺ، فإن أصواتهم أجمعت علىٰ براءة الخائن ونزاهته، وأنه من أصلح القوم، كما توافر إقسامهم باللَّه علىٰ ذلك ورمي اليهودي البريء بجريمة السارق الحقيقي مستغلين ما كان معهودًا من مكر اليهود بالمسلمين، زاعمين أن هذه الحادثة نقطة من بحر.

ولا إشكال في انطلاء مثل هذا التدليس علىٰ النبي ﷺ خصوصًا مع سلامة صدره الشريف وثقته بالمسلمين، وتصديقه لإقسامهم باللَّه الذي لا يجوز رفض الإقسام به؛ ولأنه ﷺ لا يعلم شيئًا من الغيب بادئ الأمر أبدًا حتىٰ يخبره اللَّه، كما أمره اللَّه أن يصرح بذلك في عدة مواضع من القرآن منها قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف]، وكقوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ] وهذا يدفع كل إشكال، إذ بها الإيضاح الكامل أنه ﷺ لا يعلم الغيب، وأن هدايته منحصرة

فيما يوحي به اللَّه إليه.

وليس معنىٰ العصمة عدم صدور الذنب منه بالكلية، بل معناها عدم إقرار اللَّه له عليه، فيعصمه بالمعاتبة وحسن التوجيه كما تنص عليه آيات القرآن في سورة عبس والأحزاب والأنفال والتوبة وغيرها، فاللَّه يعصم أنبياءه بألطافه عن الانزلاق في أي معصية.

والذي أجمع المحققون عليه أنهم معصومون فيما يبلغونه عن اللَّه كما صرح نبينا ﷺ في قصة التأبير، والذي يقرأ القرآن يدرك عصمته التامة في ذلك، إذ لو أراد أن يكتم شيئًا لكتم عتاب اللَّه في سورة عبس وسورة الأحزاب وغيرهما، وحاشاه من كتمان حرف واحد، وهو ﷺ لم يصدر منه في هذه القصة ما يخلّ بعصمته، وكذلك الأمر بالاستغفار ليس فيه غضاضة علىٰ عصمته كما أوضحنا شأن التهويل فيها، وحتىٰ علىٰ القول بجواز الاجتهاد له ﷺ لا يصدر من اجتهاده ما يخل بعصمته؛ لأن اللَّه يقيه من الخطأ بما يوحي إليه.

📖 **وقوله سبحانه في الآية** (١٠٧): ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾:

والآية (١٠٨): ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾:

والآية (١٠٩): ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩﴾:

والآية (١١٠): ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾:

والآية (١١١): ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١﴾:

والآية (١١٢): ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾:

هذا من توضيح اللَّه وكشفه لنبيه ﷺ أحوال الخونة الذين حاولوا التمرد علىٰ أحكام اللَّه، والتلبيس علىٰ أعظم قادة المسلمين، لقلب ميزان العدالة الواجب إقامته، وذلك باستخدامهم القوىٰ والمواهب لقلب الحقيقة، وإخفاء الباطل والانتصار لأهله، ورمي الغافلين البعيدين عن الجريمة بتهمتها، لتبرئة نفوسهم منها وهم الجناة، وإدانة غيرهم بها وهم المدينون في نفس الأمر، وعملهم الذي جرىٰ منهم أفظع مما يجريه المحامون في هذا الزمان من دفاعهم عن المجرم بكل وسيلة طمعًا في تحصيل المال؛ لأن مهمة المحامين في الغالب العمل علىٰ تبرئة المجرم دون رمي سواه بجريمته، وأولئك خطيئتهم مركبة من عدة جرائم، وهم لم يكتفوا بإبراء السارق وتنزيهه وتزكيته، بل رموا غيره بدائه.

وهي في الحقيقة معضلة لا يكشفها إلا وحي اللَّه، كما أسلفنا أن بذلك معجزة عظيمة، وقد حذر اللَّه رسوله أن ينخدع بأساليبهم المضللة، وتدليساتهم الفاتنة، أو يتهاون في تحري الحق اعتمادًا علىٰ ظن الصدق فيهم وعلىٰ ظاهر حالهم في دعوىٰ الإيمان والخوف من اللَّه؛ لأنهم اتخذوا التدبير السيئ وطرق الخداع سبيلًا لصرف الرسول عن الحق، حيث أودعوا المسروق عند أمين من الناس، ثم اتْهموه به، وواصلوا مكرهم حتىٰ كشفه اللَّه علام الغيوب سبحانه وتعالى.

فقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ فيه نَهْي عام عن المجادلة لكل خائن مراوغ، ويندرج فيه أصحاب هذه الجريمة ويتقرر به توبيخهم، واختيان الأنفس هو مما يعود عليها من العقوبة في الدنيا والآخرة، فالاختيان هو بمعنىٰ الخيانة ووصف اللَّه لهم بأنهم يختانون أنفسهم؛ لأن ارتكابهم الجريمة خيانة منهم لأنفسهم قبل

كل شيء، حيث عرّضوها للعقاب بدلًا من تحصيلهم الثواب لها، فكل من أقدم علىٰ المعصية فقد حرم نفسه الثواب وأوصلها إلىٰ العقاب فكان خائنًا لنفسه وظالمًا لها.

ولهذا يقال لمن ظلم غيره: إنه ظلم نفسه، وذلك بالإساءة إليها بجلبه لها العقاب، وحرمانها من الثواب.

قال الرازي: واعلم أن في الآية تهديدًا شديدًا، وذلك لأن النبي ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ لما مال طبعه قليلًا إلىٰ جانب «طعمة» وكان في علم اللَّه أنه فاسق، فإن اللَّه عاتب رسوله علىٰ ذلك القدر من إعانة المذنب، فكيف حال من يعلم من الظالم ثم يعينه علىٰ ذلك الظلم، بل يحمله عليه ويرغبه فيه أشد الترغيب؟ انتهىٰ.

وذلك كفعل المساعدين لطعمة، وكفعل المحامين في هذا الزمان الذين يبيعون دينهم وضمائرهم بالكسب الخبيث ويجعلونها قنطرة للظالمين.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ الخوان وهو كثير الخيانة المفرط فيها، واستحق أصحاب «طعمة» هذا الوصف لإصرارهم علىٰ الدفاع عن الخائن، ورمي غيره بجريمته، واستباحة الكذب والتهويل علىٰ رسول اللَّه ﷺ والمؤمنين.

وقد أتىٰ بصيغة المبالغة في الخيانة والإثم ليخرج منه من وقع منه المرة الواحدة، ومن صدرت منه الخيانة علىٰ سبيل الغفلة وعدم القصد، فإن هذا ليس مبعدًا عن محبة اللَّه، لأن اللَّه لا يحب من طبعه الخيانة أو الإفراط فيها أمثال «طعمة»، وقيل: إذا حصلت من رجل سيئة فاعلم أن لها أخوات، وقدم اللَّه صفة الخيانة علىٰ صفة الإثم؛ لأن الخيانة سبب للإثم والعياذ باللَّه.

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ تنبيه لكل مسلم مؤمن أنه لا يجوز محبة ما يبغضه اللَّه، فإن عدم المحبة يدل علىٰ البغض

والكراهة، ولا تجوز محبة ما لا يحبه اللَّه ولو كان أقرب قريب، فكيف بحال المدافعين عن هذا الصنف الذي لا يحبه اللَّه؟ بل كيف بحال الذين يقربونهم ويزوجونهم ويوظِّفونهم أو يستوزرونهم ويحتضنونهم؟ ومن المعلوم أن الخيانة في المال والمعاملة بأنواع التلصص والتطفيف والغش والنصب أهون من الخيانة في الدين ونبذ القرآن ظهريًّا، وما أكثر المحبين لهم من المسلمين!.

وإن أشنع أنواع الخونة وألعنهم وأشدهم خيانة للَّه ورسوله وكتابه والمؤمنين من يزعم أن الدين طائفي، وأنه لا يصلح لهذا العصر، أو لا يجوز أن يتدخل في السياسة، وأن أحكامه قاسية ونحو ذلك من المصطلحات القومية الناشئة من المخططات الماسونية اليهودية، وما أكثر المحبين لهؤلاء والمتعاونين معهم، والمتبرعين لقضاياهم، والعاملين لصالحهم! فهل يتفق هذا مع الإيمان باللَّه ورسوله، وحب اللَّه ورسوله أو الحب في اللَّه والبغض في اللَّه؟ كل هذا مخالف للإسلام وناقض له من أساسه.

وإذا كان اللَّه ينهىٰ المسلم أن يكون خصيمًا للخائنين في المعاملات، فكيف بحال من يجند نفسه لخدمة الخائنين للَّه ورسوله وكتابه في أصل الدين؟ جريمتهم كبرىٰ قد يصل بعضها إلىٰ الكفر.

وقوله سبحانه: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ يعود الضمير في ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ ﴾ علىٰ الذين يختانون أنفسهم، وفي هذا توبيخ عظيم لهم، وتقريع شديد وفضيحة كبيرة لهم، حيث يرتكبون المعاصي مستترين بها عن الناس الذين لا يملكون نفعًا ولا ضرًا، كيلا يطلعوا عليها حياء منهم وخجلًا من الفضيحة عندهم، وخوفًا من ضررهم البسيط.

والاستخفاء هو الاستتار، وقال ابن عباس: هو الاستحياء، استحىٰ فاستخفىٰ وسمي الحياء بالاستخفاء الذي هو الاستتار؛ لأنه من لوازمه، ولأن الاستتار من اللَّه محال، إذ لا يحجب عن علمه أي ستار مهما

كانت ضخامته، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يستحيون منه ﷻ وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من عقابه، ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي وهو سبحانه معهم بعلمه الشامل المحيط كالشاهد لأحوالهم في الوقت الذي يدبرون فيه من الليل مكرهم لإخفاء الخيانة بتبرئة أنفسهم منها، ورمي غيرهم بجريرتها.

ويدخل معهم في هذا التقريع والتوبيخ كل من فعل فعلهم، وكل من أظهر للناس خلاف ما يبطنه، إذا استتر عنهم، فإن هذا قليل الإيمان أو عديمه؛ لأن الحياء من اللَّه يجب أن يكون أشد من الحياء من الناس، وفي الحديث ما معناه: «استحيوا من اللَّه حق الحياء» قيل: وما ذلك؟ قال: «**أن تحفظ الرأس وما وعىٰ، والبطن وما حوىٰ، وتذكر المقابر والبلىٰ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من اللَّه حق الحياء**»[1].

قال في «الكشاف»: وكفىٰ بِهذه الآية ناعية علىٰ الناس ما هم عليه من قلة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم ـ إن كانوا مؤمنين ـ أنهم في حضرته، لا سترة ولا غفلة ولا غيبة، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح. انتهىٰ.

وهذا قول الشاعر:

ما للعَجاج لمن يعصي ويزعم إذ ... قد آمنوا بالذي جاءت به الرسلُ

أنىٰ يُجامِعُ إيمانٌ لمعصيةٍ؟ ... كلا أماني كذب ساقَها الأمَلُ

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ إخبار عن بالغ علمه، وأنه محيط مدرك لكل شيء مهما أسرّه صاحبه وأخفاه، ولما كانت قصة طعمة جمعت بين عمل وقول جاء قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ فنبه علىٰ أنه عالم بأعمالهم وأقوالهم، وتضمّن ذلك الوعيد الشديد والتقريع البالغ، إذ كان سبحانه محيطًا بكل شيء، فينبغي أن تستر القبائح عنه بعدم

(١) رواه التِّرمذي (٢٤٥٨).

ارتكابها بتاتًا، وأما سترها حين مزاولتها أو بعده فلا يفيد شيئًا أمام من لا يحجب عن علمه التستر بأضخم شيء، بل هو أحق أن يستحيا منه عن غيره، وأولىٰ أن يعظم دون غيره؛ لأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فضلًا عن الأعمال والأقوال، فيجب عليهم التحفظ من اللَّه أن يراهم علىٰ حالة يكرهون اطلاع أحد من خلقه عليها، فكيف يزيدون في جريمتهم السعي في تغييرها عن وجهها ويتعمدون الكذب علىٰ الرسول ﷺ؟

ولقد ازدادوا في مخادعتهم للَّه ورسوله والمؤمنين أوزارًا عظيمة علىٰ وزرهم بتدبير طرق الكيد للحق صرفًا للنبي - عليه الصلاة والسلام - عن الحكم بالسرقة علىٰ صاحبهم، وهذه محاولة للخروج عن العدل الذي قرره اللَّه بين الناس متعمدين هذه الجرائم.

وقوله سبحانه: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ هذا خطاب لجميع الذين يتعصبون لأهل الريب والمعاصي، ويندرج فيه رهط «طعمة» وأهل تلك النازلة. ولكن بما أن قوله سبحانه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلىٰ حاضرين فالأظهر أن يكون ذلك خطابًا للمتعصبين في قضية «طعمة»، ويندرج فيه من عمل عملهم في الدفاع والمحاماة عن أي مجرم بشتىٰ الأساليب إلىٰ يوم القيامة.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ﴾ وعيد محض، أي إن اللَّه يعلم حقيقة الأمر، فلا يمكن التلبيس عليه بجدال ولا غيره، ومعنىٰ هذا الاستفهام النفي، أي يجادل اللَّه عنهم يوم القيامة إذا حل بهم عذابه الذي لا محيد عنه، ويعني اللَّه سبحانه بِهذا التساؤل مع المجرمين، إنكم أيها المدافعون عن هؤلاء الخائنين أنفسهم وإن دافعتم عنهم في عاجل الحياة الدنيا؛ فإنهم سيصيرون في الدار الآخرة إلىٰ من لا يدافع عنهم عنده أحد أبدًا فيما يحل بهم من أليم العذاب والنكال، ومن ذا الذي يكون علىٰ هؤلاء الخائنين وكيلًا يقوم عنهم في خصومة ربهم ﷻ

يوم القيامة؟.

وقد سبق أن الوكيل هو الحفيظ، وهو المحامي، وهو النائب عن الإنسان يكل إليه أموره، وهذ الاستفهام الثاني معناه النفي ـ أيضًا ـ، أي لا أحد يكون عليهم وكيلًا فيحفظهم أو يدافع عنهم، وهاتان الجملتان انتفىٰ منهما في الأول المجادلة التي هي المدافعة بالنصر والقوة، ولعل آذان المحامين الذين تفاقم شرهم في هذا الزمان ممن ينتسب للإسلام؛ وهم في الوقت نفسه يتخذون أساليب الحيل والخداع طريقًا لصرف القضاة العادلين عن جهة الحق وموطن العدل؛ لعل آذانهم تُصغي إلىٰ هذه التحذيرات الشديدة التي تضعهم في صفوف الخائنين الآثمين المستحقين نكال اللَّه.

هذا ولا يفوتنا بمشيئة اللَّه التنبيه علىٰ أمور هامة:

أحدها: أن هذا الحديث الذي نددت به هذه الآيات، وكشفت أهله، وأوصت رسول الهدىٰ وعلمته ما يجب عليه في الحكم وما لا يجوز له صدوره منه بكل حرارة، ووجهت إلىٰ أهل النازلة المتآمرين كلمات التقريع والتوبيخ والتبكيت؛ له أثر سياسي واجتماعي في سير العدالة، تحسب له الدول المادية والعلمانية حسابًا تسلك من أجله المواربة، وتضطر للمحاباة، ولكن دين الإسلام لا يعبأ بجميع ما يصطدم مع العدل أبدًا، إنه لا ينظر إلىٰ أي مصلحة للدولة ولا غيرها في هذا السبيل، فقد مثل الإسلام فيها أبدع أنواع النزاهة والتسامي عن الأغراض السياسية والاجتماعية وجميع الملابسات التي تحسب لها الأنظمة الوضعية حسابها، ويتجلىٰ ذلك في:

الأمر الثاني: وهو أن الحادث ذو شقين خطيرين سياسيًّا واجتماعيًّا وعسكريًّا، ولهما أعظم المساس في جانب الدولة الإسلامية:

فأحدهما: أن المتهم كان يهوديًّا من يهود أمة الفساد والإفساد التي ناصبت الإسلام العداوة منذ ظهورها، ولم تدخر في الكيد للمسلمين،

والتأليب عليهم، والسعي بالتشكيك في دينهم وطعن رسولهم، ولم تترك سهمًا مسمومًا تملكه إلا أطلقته في حربهم، ومع ذلك فهي لا تعرف الحق والإنصاف، ولا تقيم للأخلاق والعدالة وزنًا بالكلية.

وثانيها: أن الجريمة جرت من رجل أنصاري، والأنصار هم الذين آووا رسول اللَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ونصروه، وكانوا ركيزة الإسلام وقاعدته، وعدّة رسوله التي يعتمد عليها، وهذا يحدث في بيوتهم ما يحدثه من الضغائن التي ينبغي أن يحسب لها حسابها، ويتفرع من هذين الشقين سبب خطير، وهو عدم إعطاء اليهود سهمًا جديدًا يوجهونه إلىٰ الأنصار بحادثة السرقة التي فعلوها وألصقوها باليهود، فإنها مؤامرة دقيقة لو لم يفضحها وحي اللَّه لأدين اليهود بها، وهم مع ذلك لا يحمدون اللَّه علىٰ براءتهم بل يستغلون هذه الحادثة للتشهير بالأنصار وبالمسلمين، ولكن مع كل هذه الاعتبارات اقتضت حكمة اللَّه كشف حقيقة الأمر لرسوله وللمؤمنين، مع الأمر الصارم بإجراء الحكم الشرعي دون مراعاة الظروف الوقتية، أو ما يسمىٰ بالمصلحة العامة أو الصالح الوطني ونحو ذلك من المصطلحات الوضعية.

بل برز في ذلك:

الأمر الثالث: وهو أن هذا الأمر خالص جدًّا، لا يقبل المداهنة ولا التمويه ولا أي مسلك من مسالك اللباقة السياسية، وإنما هو المنهج الرباني الأصيل في إقامة العدل علىٰ العدو والصديق بالسوية: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] إنه المنهج الذي يأمر بالعدل علىٰ أرفع المستويات التي لا تبلغها همم الناس مهما أنصفوا، بل لا يعرفه الناس بدون وحي اللَّه الذي يرتفع بالمسلمين إلىٰ أعلىٰ قمم المجد والكمال، إنه يحتم علىٰ المسلمين أن يقيموا ميزان العدل الذي لا يميل مع الهوىٰ، ولا يعطف به أي نوع من الملابسات والظروف، ولا يتأرجح مع المودة والقرابة.

رابعها: أن هذه الآيات الكريمات ليس شأنها تبرئة النزيه مما وصموه به مهما كانت هويته ـ مع أن تبرئة النزيه المظلوم أمر عظيم ثقيل الوزن في ميزان الإسلام ـ ولكن الشأن أكبر من ذلك، وهو تطهير المجتمع الإسلامي الجديد من رواسب الجاهلية، وقلب عناصر الضعف إلىٰ عناصر قاهرة في سبيل الحق، لا تتأرجح مع الأهواء والشهوات ولا تميل إلىٰ مصلحة مادية أو عاطفية عصبية أو دينية، فاللَّه سبحانه الذي شاء حدوث التهمة علىٰ يهودي من أخبث أعداء الإسلام والمسلمين أراد تعليم المسلمين إقامة العدل الذي يبرهنون به علىٰ صحة دينهم وحسن استقامتهم.

خامسها: أنه كان هناك عدة أسباب للإغضاء عن الحادث، أو عدم التشديد فيه والتشهير بأهله وكشفه لجميع الأبصار كشفًا مفضوحًا، ولكن هذه الأسباب ليس لها تأثير لو أن موازين العدل ومقاييسه بيد البشر ونظراتهم الضيقة التي تتحكم فيها الاعتبارات الأرضية، وتجعلها تحكم علىٰ ضوئها، ولكن اللَّه سبحانه لا يرضىٰ أن تكون موازين العدل بيد البشر؛ لأنه يعلم أنها تختل فتنحرف الأحكام عن العدالة الحقيقية؛ لأن البشر وحدهم بدون هداية اللَّه لا يملكون سوىٰ البضائع الأرضية التي هي الباعث الوحيد لجميع تصرفاتهم التي تجعلهم في أمر مريج، فلهذا حصر الهداية علىٰ سبيله، وحصر الاحتكام إليه وإلىٰ رسوله فيما يوحيه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ إلىٰ آخر الآيات، وغيرها مما هو في سورة النساء والمائدة وغيرهما، حتىٰ لا يكون الحكم تابعًا للأهواء البشرية أو منبثقًا منها، فلا يصدر إلا وفق الأغراض السياسية ومراوغتها ومهارتها في كسب الضمائر والعواطف، ومراعاتها ما يسمىٰ بمصلحة الدولة، أو مصلحة الوطن، أو مصلحة المذهب المادي الفلاني، ونحو ذلك مما أركسوا به العدالة في مستنقعات الأهواء والأغراض القذرة كما هو المشاهد الآن.

سادسها: ما قاله سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ظلال القرآن» إن الأمر أكبر من كل هذه الاعتبارات الصغيرة، الصغيرة في حساب الإسلام، كان أمر تربية هذه الجماعة الجديدة في تكاليفها في خلافة الأرض وفي قيادة البشرية، وهي لا تقوم بالخلافة في الأرض، ولا تنهض بقيادة البشرية حتىٰ يتضح لها منهج فريد متفوق علىٰ كل ما تعرف البشرية، وحتىٰ يثبت هذا المنهج في حياتها الواقعية وحتىٰ يمحص كيانها تمحيصًا شديدًا، وتنفض عنه كل خبيئة من ضعف البشر ومن رواسب الجاهلية، وحتىٰ يقوم فيها ميزان العدل؛ لتحكم فيه بين الناس مجردًا من جميع الاعتبارات الأرضية والمصالح القريبة الطاهرة والملابسات التي يراها الناس شيئًا كبيرًا لا يقدرون علىٰ تجاهله. «انتهىٰ ما أردت للاختصار ومن أراد المزيد فليغترف من بحره رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

سابعها: هذه الآيات الكريمات تنص علىٰ ما قرره الفقهاء من أن حكم الحاكمين بشهادة الزور لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالًا، وهو معنىٰ قولهم: «إنه لا ينفذ باطنًا وإن نفذ ظاهرًا». فإن الحاكم يحكم بالظاهر؛ لأنه إنما كلف الحكم بناء علىٰ ما يسمعه ويصل إليه من وجوه الإثبات والدفاع، ولم يكلف الحكم بالواقع الذي لم يعرفه عن طريق الإثباتات الواضحة المضبوطة، وأن الحكم متىٰ صدر من الحاكم مبنيًّا علىٰ شرطه المقدور له وجب احترامه حفظًا لإقامة العدل الظاهر، ومن هنا وجب القول بنفاذه ظاهرًا، ولكنه مع ذلك لا يتتبع تغير الواقع، ولا قلب الحقيقة التي يعلمها اللَّه في شأن الدعوىٰ.

وهذه الحقيقة هي مناط الحل والحرمة، والثواب والعقاب عند اللَّه، والمدعي المحكوم له زورًا هو الذي يعلمها دون غيره، وهو الذي عليه الإثم فقط دون الحاكم، ويجب عليه الكف عما يعلم أنه ليس حقًّا له، ومن شهد له زورًا شاركه في الإثم وزاد عليه في الجريمة.

وقد صح أن النبي ﷺ كان يومًا في حجرة زوجه أم سلمة فسمع

ببابها نزاعًا ارتفعت فيه الأصوات، وعلا بعضها علىٰ بعض، فخرج إليهم فإذا هم خصوم يتنازعون حقوقًا بينهم، وقد جاءوا إليه ﷺ يفصل بينهم فابتدرهم بقوله: «**إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، ولعل بعضكم أن يكون في حجته ألحن من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار؛ فليأخذها أو يتركها**»[1]، وهذا حديث مشهور صحيح يدل علىٰ أن حكم القاضي لا يحل حرامًا، فليتق اللَّه أرباب الخصومات، ولا يأكلوا مال غيرهم بالباطل استنادًا علىٰ حكم المحاكم الشرعية.

ثامنها: تدل الآيات دلالة واضحة قوية علىٰ أن دين اللَّه الإسلام يقرر في أول مهمته وجوب العدالة بين الناس جميعًا علىٰ اختلاف طبقاتهم ومللهم ونحلهم، وأنه لا يحابي في العدالة مسلمًا لإسلامه، ولا شريفًا لشرفه، فالشريف والوضيع، والغني والفقير، والمسلم والكافر، كل هؤلاء في نظر الإسلام سواء أمام الحكم والقضاء، وقد حث اللَّه علىٰ العدل مع أشد الناس عداوة للمسلمين بعد إيذائهم لهم في «مكة» واضطرارهم علىٰ الهجرة، وكانوا معهم في أفظع أنواع الخصومة حتىٰ صدوهم عن المسجد الحرام، فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] وحذّر الأمة من المحاباة كيفما كانت، ولمن تكون، كما نصت عليها الآية (١٣٥) المقبل تفسيرها إن شاء اللَّه.

ولعل المغرضين وأفراخهم المتفرنجين ممن يرمون الإسلام بالتعصب وهم في الوقت نفسه يتخذون الاعتداء علىٰ الأبرياء دينًا، يحاربونهم كما يحاربون الضعفاء ـ أيضًا ـ، ولا يوجد لهؤلاء في أنظمتهم مكان للعدل.

---

(١) رواه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣).

أقول: لعل عيون هؤلاء تنفتح علىٰ أمثال هذه الآيات من القرآن الكريم التي تقضي بالمساواة والعدل بين الناس جميعًا، وأن الإسلام يعمل علىٰ إقامة العدل والأمن والسلام في هذه الحياة، كما قال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

تاسعها: من بعض مدلولات هذه الآيات أن مهمة القاضي ليست مقصورة علىٰ استماع البيانات وإصدار الأحكام، وإنما مهمة القاضي تتناول قبل ذلك أن يبذل النصح للمتخاصمين، ويحضهم علىٰ الإنصاف والتصالح والتراضي، وأن يحملوا روح التسامح فيما بينهم، وأن يلتزموا الصدق ولا يفجروا في الخصومة، وأن ينبههم ويذكرهم بسوء عاقبة التضليل والاحتيال، ليوفروا علىٰ أنفسهم أسباب الخصومة الدائمة، كما يوفرون علىٰ أنفسهم نفقات الخصومة الطائلة التي يبذلونها في سبيل التمويه والخداع، وبخاصة في استئجار المحامين المرتزقة الذين لا يلتفت أكثرهم إلىٰ دينه ولا إلىٰ ضميره، بل يلتفت إلىٰ جيبه وحقيبته، وكذلك استئجار شهود الزور عديمي الإيمان والشرف.

كما تدل هذه الآيات ـ أيضًا ـ علىٰ أنه لا يجوز للقضاة التساهل في تمحيص الأدلة، ولا الاندفاع مع تيار الخصوم وتهويلاتهم وتلبيساتهم، ولا الانخداع بما يظهره بعضهم من التحزن والبكاء والعويل ونحو ذلك، فإن إخوة يوسف رموا أخاهم في الجب وعاملوه بأبشع أنواع القسوة، ثم جاءوا إلىٰ أبيهم عشاء يبكون، ويندبون علىٰ أنفسهم وهم كاذبون.

عاشرها: دلت هذه الآيات علىٰ أن النبي ﷺ كان يجتهد في تحري الصواب، ولا ينتظر الوحي، وأن ذلك يجوز له وأن اللَّه يوفقه ويسدد خطاه، ولا يُقره علىٰ الخطأ عند اشتباه الأمور عليه، أو عند ثقته بتزكية بعض الناس للخصوم كما وقع منه في حادثة «طعمة»، حيث لما اشتكىٰ خصومه عليه عنده ﷺ أمهلهم، ثم لما جاءه المزكون للسارق وقومه وقالوا: يا رسول اللَّه، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلىٰ أهل بيت

منا أهل إسلام وصلاح، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقال: «**عمدت إلىٰ أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح؛ ترميهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت**»(١) فأخبرت عمي فقال: الله المستعان، فلم يلبث أن نزل القرآن، فإنه ﷺ قال ما قاله لهم عن اجتهاد وحسن ظن بالمزكين، وليس عن عاطفة.

حادي عشرها: أحدث الغزو الفكري الماسوني لفيفًا من الناس يزعمون أن أساس الفضيلة هو تلبية الضمير فيما يعتقدونه خيرًا للمجتمع، ويزعمون أن هذا كاف في سعادة الإنسان، وأن الضمير كفيل بتقدير الخير ومعرفته، وأن الوحي إذا كان فإنما يحتاج إليه لإرشاد من ليسوا من أهل الضمائر الحية المتيقظة وقد فات هؤلاء أن فهم ما ينفع الهيئة الاجتماعية وما لا ينفعها كثيرًا ما تختلف فيه الأنظار والآراء، وقلما تجد في تاريخ هذه النظرية قديمة وحديثة اتفاقًا علىٰ نفع جزئية معينة أو ضرر جزئية معينة.

وفاتهم ـ أيضًا ـ أن النظر الواحد أو الضمير الواحد ـ كما يعبرون ـ كثيرًا ما يتغير في فهم الخير والفضيلة، أما اختلاف الأنظار والآراء المتعددة فهو أمر ضروري الوقوع؛ لأن الآراء لا تتكافأ، فاتفاقها من المستحيل، وأما اختلاف الضمير الواحد فلأن القلوب تتقلب، وبعض علل الأشياء تتقلب، وقد عدل كثير من الفلاسفة عن آرائهم الأولىٰ، واستحدثوا آراء أخرىٰ جديدة شقي أتباعهم باختلافها، ولهذا تعترك في عصرنا الحاضر المذاهب الاجتماعية والمادية المتضاربة من ديمقراطية وفاشية ونازية وشيوعية وبعثية واشتراكية وغيرها، بل يتنازع أرباب المذهب الواحد، بل يتناقض الفرد الواحد مع نفسه ورأيه في وقتين مختلفين، بل في وقت واحد ومقالة واحدة.

وكل هؤلاء يتحاكمون إلىٰ الضمير، أو يتحاكمون إلىٰ الإدراك

---

(١) رواه التِّرمذي (٣٠٣٦).

البشري في معرفة الفضيلة وهو تحاكم - كما ترىٰ - إلىٰ أساس غير ثابت ولا منضبط ولا مأمون العاقبة، وهو في الوقت ذاته سير بالنفس وبالعالم في طريقة محفوفة بالمخاطر، تهدد العالم في أمنه واستقراره، وتشمل فيما بين جوانبه نار الحروب والتدمير، ولا سبيل إلىٰ الاستقرار في هذا العالم من أثر الآراء المستأجرة؛ إلا بالرجوع إلىٰ أساس ثابت منضبط صادر عن عليم بطيات الصدور ونزعات البشرية، يبصرهم ذلك الأساس بالخير والفضيلة التي ارتسمت في لوح الوجود الحق الذي لا يكتنهه إلا خالق الوجود ومدبر الكون علىٰ ما يعلم فيه سنن وشئون، وليس ذلك المُبْصَر إلا وحي العليم الحكيم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

ونحن نرىٰ اضطرابهم في الشئون المادية التي لم يحلوا فيها مشاكل الربا وأضراره ولا مشاكل القمار وأضراره، ولا الاحتكار والتحكم بأسعار المنتوجات التي يحرقون بعضها أو يرمونها في البحر ونحو ذلك؛ ليسيطروا علىٰ اقتصاديات الأمم ويحدثوا الأزمات والغلاء، فتعسًا لسوء المعتقد وتلبية الضمائر الفاسدة. أين ضمائر العباقرة ورجال الإصلاح والزعماء الذين يزعمون أنهم خدام الشعوب من إسعادها بحلول هذه المشكلات والقضاء عليها؟ كيف لم يسعدوا الناس بضمائرهم الحية المتيقظة فيما يزعمون؟ أو أن يقظتها لصالح فريق دون فريق؟ إن كانت هكذا فهي ضمائر ملعونة أثيمة، ولا شك أنها هكذا، وأن مساعدتهم للشعب اليهودي بتكوين وطن ودولة له علىٰ حساب غيره يثبت هذا.

ثم إذا تركت الشئون المادية للضمائر، فهل تترك الشئون التعبدية لها، حتىٰ تعطل وتكون مرفوضة من الأساس؟ فالذين يخونون اللَّه في ترك فرائضه وشعائر دينه لا يحملون ضمائر أمينة سليمة حتىٰ يكونوا أمناء علىٰ حل مشاكل الناس، إن الذي يخون ربه الذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، وأمده بسائر الجوارح والقوىٰ؛ جدير بأن يخون جميع الخليقة مهما ادعىٰ لنفسه من ضمير، وما دعوىٰ الضمائر إلا

خداع وشقشقة.

إنهم أباحوا الربا والقمار والفواحش، وشجعوا علىٰ فعلها بحمايتها قانونًا، وإخراج المرأة بِهذا الشكل الفاتن المغري علىٰ فساد الأخلاق يثبت لنا أنهم ليسوا أهل ضمائر، وأن تصوراتهم فاسدة، وأن تشريعهم القوانين الديوثية المرخصة للأعراض والمغلية للمادة تشهد عليهم بذلك، وأن تقنينهم هو ما يحمي الزعماء من فظيع العقوبات علىٰ شاتمهم ومنتقصهم، وعدم تحصينهم الدين وذكر رب العالمين من الملاحدة الساخرين والشاتمين يشهد عليهم بذلك، فيا لأزمة الضمير وفجور مدعيه!.

إن أساس الفضيلة اليقظة والوعي وعمارة وصيانة تقوىٰ اللَّه ومراقبته باستشعار عظمته وإحاطة علمه بالخفيات والجليات، والخواطر والنواظر، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فيستحي المؤمن باللَّه من اطلاع منه ـ سبحانه ـ علىٰ ما يكرهه، ومن رؤيته حيث نهاه، وتخلفه عما أمره أو مخالفته لقوله ودعاويه بعمله، وكذلك يستشعر مشاهد يوم القيامة وأهوالها وما يحصل فيها من الخزي والفضيحة للساعين بالشر دعوة وعملًا وتحريضًا وتشريعًا، ويتصور في مخيلته بروز جهنم للعصاة ورميها عليهم بالشرر، وما فيها من أهوال العذاب ومقامع الزبانية، وطعام الزقوم وشراب الحميم، وعبور الجسر المحدود عليها في طوله ودقته وحدته، حيث إنه أدق من الشعر، وأحد من السيف، وكونه لا يعبر بنفس الأقدام ولا بالأحذية ولا بأي شيء من وسائط النقل، وإنما يعبر بصالح الأعمال الذي يتفاوت الناس بسببها في سرعة عبورهم أو تعثرهم أو سقوطهم في جهنم.

فباستشعار عظمة اللَّه وإحاطة علمه وخشيته والحياء منه، واستشعار مشاهد القيامة تنغرس تقوىٰ اللَّه في القلوب ومراقبته انغراسًا ينتج منه يقظة الضمير وطهارته ونزاهته واستنارته بوحي اللَّه، الذي يكون

منه المنشأ الوحيد لتصوراته التي تكون صحيحة نافعة لأهلها ولغيرهم، ولأجل هذا اختار اللَّه سبحانه إمداد بني الإنسان الذين هم خليفته في الأرض بإرسال رسله وإنزال وحيه الذي فيه تنوير الضمائر وعمارتها، وبدونه لا يمكن أن يحمل الإنسان ضميرًا صحيحًا نافعًا أبدًا، وما دعوىٰ الضمير عند تلاميذ الماسونية وأفراخ الاستعمار إلا تعطيل لرسالة اللَّه ورفض لوحيه وكفر بدينه من الأساس.

ثاني عشرها: كان صاحب هذه الحادثة التي نزلت فيها هذه الآيات من المنافقين وليس من المؤمنين، كما روىٰ الترمذي في جامعه من طريق الإمام ابن إسحاق في كتاب التفسير عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق ـ بشر وبشير ومبشر ـ وكان بشير منافقًا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول اللَّه ﷺ ثم ينحله إلىٰ بعض العرب فيقول: قال فلان، فإذا سمع أصحاب النبي ﷺ ذلك الشعر قالوا: ما يقول هذا الشعر إلا الخبيث بشير فقال:

أوَ كلَّما قال الرجالُ قصيدةً أَصَمَوْا وقالوا ابنُ الأبيرقِ قالها

ومعنىٰ قوله: أضموا أي غضبوا عليه وحقدوا، وقيل: الأضم هو أوائل الغيظ، قال: وكانوا أهل بيت فاقة وحاجة في الجاهلية والإسلام، وساق قصة السرقة وما جرىٰ منهم في إخفائها والتدليس علىٰ رسول اللَّه ﷺ بواسطة قريب لهم يدعىٰ «أسير بن عروة» بعد ما اجتمع عليه نفر منهم لتعزيره، وقد تأثر الرسول بكلامهم وتهويلهم وتزكيتهم، فأوقف الدعوىٰ قائلًا لقتادة بن النعمان ما قاله كما أسلفنا، حتىٰ نزل الوحي عليه من اللَّه، فلما نزل الوحي بفضيحتهم وإعلام الرسول ﷺ بحقيقة أمرهم وواجبه في شأنهم، قام بشير فلحق بالمشركين بمكة وأعلن ردته وهجوه للمسلمين، ونزل علىٰ سلافة بنت سعد بن شهيد فأنزل اللَّه تعالىٰ قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [النساء: ١١٥] فلما نزل علىٰ سلافة رماها حسان بن ثابت بأبياته المشهورة:

وما سارقُ الدِّرعين إن كنت ذاكرًا بذي كرم بين الرجالِ أُوادِعُه
وقد أنزلتْه بنتُ سعدٍ فأصبحت ينازعُها في دارِها وتنازعُه
ظننتم بأن يخفىٰ الذي قد صنعتمُ وفيكم نبيٌّ عنده الوحيُ واضعُه

فلما علمت بالشعر حملت رحله علىٰ رأسها وخرجت به ورمته في الأبطح ـ مسيل وادي مكة، ثم قالت: أهديت إلي شعر حسان، ما كنت تأتيني بخير، فنزل علىٰ الحجاج بن علاط فسرقه وطرده، ثم نقب بيتًا ليسرق منه فسقط عليه الحائط فمات، وقيل: إنه لحق قومًا من العرب فسرقهم فقتلوه، وهذه عاقبة السوء والعياذ باللَّه.

وقوله سبحانه في الآيات (١١٠ ـ ١١٢): ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ يريد اللَّه سبحانه إرشاد عباده إلىٰ عدم الإصرار علىٰ ما يقترفونه من السيئات، وأن يبادروا بالتوبة النصوح إلىٰ اللَّه واستغفاره مما حصل منهم.

والمراد بعمل السوء هو الفعل القبيح الذي يسوء به صاحبه غيره كما فعل «طعمة» من السرقة ورمىٰ غيره بجنايتها، وظلم النفس ما يختص بالفاعل كالحلف الكاذب ونحوه، ولهذا أتىٰ اللَّه بهما في صورة المغايرة؛ لأنهما غيران وقيل: إن عمل السوء هو الذنوب التي تكون دون الشرك، وأما ظلم النفس فإنه يكن بالشرك أو بكبائر الذنوب الموبقة.

وقيل: إن المقصود بظلم النفس هنا رمي البريء بالتهمة الكاذبة، والصحيح أن ظلم النفس هو ما يجترح من كبائر الذنوب التي يهلك بها العاصي نفسه؛ بتعريضها لعقوبات اللَّه العاجلة والآجلة وحرمانها من ثوابه حتىٰ في مواسم الغفران، وهذه البشرىٰ بمنفعة الاستغفار الناشئ عن توبة صادقة هي للعموم، وإن كانت نزلت في شأن الخائنين

والمدافعين عنهم الذين تقدمت الإشارة إليهم في الآيات السابقة، فالعبرة بعموم اللفظ كما أسلفنا.

وظاهر الآية يفهم منه تعليق الغفران والرحمة للعصاة، علىٰ مجرد الاستغفار، ولكن النصوص الأخرىٰ قيدت جدوىٰ الاستغفار بالتوبة النصوح؛ لأن المستغفر مع الإصرار هازئ باللَّه كما جاء الحديث بذلك.

وعند أهل السنة أن الغفران معلق بمشيئة اللَّه كما هو المنصوص في آية الشرك، ولكن اللَّه أثبت المغفرة للتائب تحقيقًا لا تعليقًا في عدة مواضع، خصوصًا في هذه الآية التي جاء فيها بلفظه: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ لأن فيها مبالغة في الغفران، كأن المغفرة والرحمة معدان لطالبهما ومهيئان له، متىٰ طلبهما وجدهما، وهذه الآية فيها لطف عظيم ووعد كريم للعصاة إذا استغفروا اللَّه تائبين مما عملوه مهما كان، ويروىٰ عن ابن مسعود أنها من أرجىٰ الآيات.

وخص بعضهم ذلك بالمعاصي التي تكون بين العبد وبين اللَّه، لا بينه وبين الناس فإنها تحتاج إلىٰ استباحة من المظلوم، وهذا صحيح؛ لأن ذلك من الدواوين التي لا يتركه اللَّه، كما نص عليه حديث الدواوين واللَّه أعلم.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ معنىٰ آخر إضافة لما تقدم، وهو أن التائب المستغفر عن صدق يجد أثر المغفرة في نفسه بكراهة الذنب وذهاب البواعث عليه، ويجد أثر الرحمة بالرغبة في الأعمال الصالحة التي تطهر النفس وتزيل أدران الذنوب عنها، حتىٰ يكون الظلم أو السوء الذي تاب منه علىٰ حد تعبير ابن عطاء اللَّه السكندري: «رب معصية أورثت ذلًّا وانكسارًا خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا»، والمراد بالذل والانكسار أن يكون للَّه وحده لا لسواه، فهو الذل الذي يورث صاحبه العزة والرفعة، ومحبة رب العالمين التي تكسبه محبة الناس كما صحت الأحاديث بذلك، ولشيخ الإسلام

ابن تيمية كلام طويل جميل في هذا الشأن جوابًا علىٰ ثمرة توبة يونس استطرد فيه كعادته لحوادث كثيرة، وذلك في «الفتاوىٰ» فينبغي مراجعته.

وهذه الآيات الثلاث موضحة لسوء عاقبة المعاصي والتخلص منها، والقاعدة العظيمة الكلية التي يعامل اللَّه بها عباده، من قبول توبتهم الصادقة، بلا قيد ولا شرط ولا حجاب ولا وسائط بينهم وبينه من بابوات أو أولياء أو سادة من الأحياء والمقربين، ولا صكوك غفران ولا غيرها فما يعتقده المخرفون القبوريون الذين تلعب عليهم السدنة والدجاجلة ومبتدعة العلماء المتأثرين بالتقليد والأحاديث المكذوبة.

فإن دين اللَّه الإسلام الذي شوهه أولئك ليس فيه شيء من جميع ذلك بتاتًا، وإنما باب التوبة مفتوح علىٰ مصراعيه لكل تائب صادق، والمؤمن حبله موصول باللَّه دون أي واسطة وأي وسيلة سوىٰ الإخلاص للَّه والصدق معه في المقاصد والأعمال، فالتوبة مقبولة عند اللَّه من التائب الصادق بشروطها الثلاثة التي هي الندم علىٰ الذنب، والعزم علىٰ عدم العودة إليه، وتعقيب ذلك بالأعمال الصالحة للذنوب، كما قال ﷺ في وصيته لمعاذ: «**اتق اللَّه حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»(١).

وذلك تفريع علىٰ قول اللَّه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] ولا يضر التائب العودة إلىٰ سيئة ما دام غير مصمم عليها، بل هو عازم علىٰ التوبة، ولكن غلبته شدة الشهوة، أو شدة الوسوسة، أو خداع قرناء السوء، بشرط أن يجدد التوبة من جديد بصدق نية واللَّه يغفر له كما ورد الحديث بذلك.

كما أن في الآيات قاعدة ثانية هي التي يقوم عليها التصور الإسلامي في الجزاء، وهي حصر التبعة علىٰ المذنب وحده وما علىٰ غيره من حسابه من شيء، وهي التي نص اللَّه عليها بقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا

(١) رواه التِّرمذي (١٩٨٧).

﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ [النساء] والإثم جامع للسوء وظلم النفس، والمعنىٰ أن وبال الذنوب ـ مهما كانت ـ لاحق بالمذنب لا يتعداه إلىٰ غيره، وفي التعبير بلفظه «علىٰ نفسه» دلالة علىٰ استعلاء الإثم علىٰ المذنب واستيلائه وقهره له، فهذه الآية تثير في قلب كل مؤمن شعور الخوف من عمله وكسبه، والطمأنينة من أن لا يحمل تبعة شيء من ذنب غيره.

ثم إن في ختام اللَّه لهذه الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مناسبة كاملة للموضوع، وهي أن اللَّه سبحانه يعلم جميع ما يكسبه العباد لا يغيب عنه شيء منها، ثم إنه سبحانه حكيم يضع الأشياء مواضعها، فيجازي علىٰ ذلك الإثم بما تقتضيه حكمته البالغة، فهاتان الصفتان أشارتا إلىٰ علمه بذلك الإثم ومنشئه، وإلىٰ ما يستحق عليه فاعله، وأيضًا فإن في هذه الآية الكريمة بقاعدتها الكلية طمأنينة عظيمة للمؤمنين خاصة ولجميع الناس عامة؛ بأنه لا يوجد في ميزان اللَّه خطيئة موروثة يتحملها الخلف عن السلف، ولا الأولاد عن الآباء قطعًا، كالذي تبثه تصورات الكنيسة نحوها من بعض الأفكار الوثنية، حتىٰ خطيئة آدم وحواء تأبىٰ رحمة اللَّه وحكمته، ويأبىٰ عدله وفضله أن يحملها أحدًا من ذريتهما علىٰ الإطلاق بتاتًا لو لم يتوبا منها، فكيف وقد تابا وتاب اللَّه عليهما كما قال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة]، وقد أخبرنا اللَّه عن تلك الكلمات التي وفقهما اللَّه للضراعة بها في سورة الأعراف: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف] وقد مضىٰ الكلام علىٰ ذلك.

وهنا تكذيب لمزاعم الكهنوت من البابوات والقسس ونحوهم، ولطواغيت البوذية وسائر دجاجلة الوثنية وطوائف المبتدعة المفترين علىٰ اللَّه وعلىٰ خلقه فيما زعموه، وأن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولا يتحمل أحد من خطيئة غيره شيئًا مهما قرب أو بعد، فهذه عدالة الإسلام التي أكرم بها بني الإنسان، خلاف ما يزعمه الدجالون

المفترون علىٰ اللَّه.

أما القاعدة الثالثة في هذه الآيات فهي تقرر النتيجة الكبرىٰ والإثم العظيم علىٰ من اكتسب خطيئة من شتىٰ الجرائم ورمىٰ بها بريئًا منها، وذلك هو ما تضمنته هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

والبريء هو المتهم بالذنب تزويرًا عليه وهو لم يذنب، والمعنىٰ أن من يكسب خطيئة أو إثمًا ثم يبرئ نفسه من ذلك ويزكيها ويرم غيره من البرآء بما اقترفه من الجريمة فقد ارتكب جريمتين عظيمتين:

إحداهما: اكتساب الخطيئة التي أقدم عليها.

وثانيتهما: إلصاق ذنبه وخطيئته بغيره تنزيهًا لنفسه أمام الناس، وتبرئةً لها من تبعة الخطيئة، فيكون متحملًا لعقوبتين في الدنيا، وعقوبتين في الآخرة عقوبة ارتكاب الجريمة، وعقوبة البهتان الذي بَهت به غيره وافترىٰ عليه بإلصاقه التهمة به وهو بريء منها، ولذلك حكم اللَّه عليه بأنه: ﴿ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي كلف نفسه أن يحمل عقوبة الجريمة، وعقوبة زور البهتان علىٰ البريء الذي زور عليه، وقدم اللَّه ذكر البهتان؛ لأنه أفظع من كسب الخطيئة وأشد نكالًا.

والكسب عبارة عما يفيد جلب منفعة أو دفع مضرة، ولهذا لا يجوز نسبته لغير المخلوقين، وصاحب البهتان مذموم في الدنيا والآخرة أشد الذم، ومستحق لأفظع العقاب، ولهذا وصف اللَّه إثمه بالمبين الذي لا يمكن تغاضيه ولا الدفاع عنه.

وهاتان الآيتان اللتان بعد آية الاستغفار تفيدان بكل صراحة أن عاقبة الذنوب وآثارها السيئة، إنما تحيق وينزل شرها بمن اكتسبها وباشرها فقط دون من ألصقت به وحكم بها عليه ظلمًا وزورًا، وأن إثمها ليتضاعف علىٰ صاحبها إذا رمىٰ بها شخصًا بريئًا، وانتحل في خصومته الأكاذيب والتزويرات حتىٰ يضلل بها الحاكم ويوقعه في

الخطأ وهو يريد الصواب، ويجره للباطل وهو يريد الحق، وأن الحاكم المصروف بِهذه التزويرات والحيل عن الحكم بالحق لا يصيبه شيء من الإثم؛ متىٰ احتاط في تمحيص ما يسمعه من وجوه الإثبات والنفي، وأن اللَّه لابد أن يجعل للمظلوم فرجًا إذا اتقىٰ اللَّه وتضرع إليه، وكذلك الحاكم إذا صفا قلبه للَّه واجتهد في طلب مرضاته وفقه اللَّه للحق.

وبعد فإن هذه الآيات الكريمات يبدو فيها بعض خصائص التصور الإسلامي ومقوماته المطابقة للفطرة الصحيحة التي فطر اللَّه عليها الإنسان، والتي يبرز فيها العدل الإلهي ويتحقق، وهي أن كل نفس لا تطالب إلا بجريرة ما اكتسبته من الخطيئة، وليست مسئولة عن خطيئة والدها القريب أو البعيد بتاتًا، وأنها لا تتحمل كفارة عن ذنب لم تعمله بنفسها أو بتسببها، فليس عليها أي كفارة سوىٰ كفارة ما كسبت يداها مباشرة أو تَسبُّبًا.

وبذلك تكون مطمئنة إلىٰ أنها لا تحاسب إلا علىٰ ما اكتسبت، وأن محاولة الإفلات من عقوبة الجريمة بإلقائها علىٰ غيره من الأبرياء واتهامه بها تزيد في إجرامه، وتضاعفت عليه العقوبة في الدنيا والآخرة جزاء علىٰ محاولته تزكية نفسه بالباطل واعتدائه علىٰ الأبرياء بالافتراء والتزوير، وأن من اعترف بذنبه ولم يسئ إلىٰ غيره؛ بل التجأ إلىٰ اللَّه وتاب توبة نصوحًا فأبواب اللَّه مفتوحة للتائبين دون وسائط علىٰ الإطلاق.

وهكذا رسمت هذه الآيات المباركات ميزان العدالة التي يتضح بها صدق ما جاء به محمد ﷺ، وأنه الدين الحق والهداية الصحيحة التي لا يزيغ عنها إلا هالك، كما أوضحت هذه الآيات أن القائمين بحادث خيانة السرقة المشار إليها، وبَهت غيرها بها ليسوا مسلمين إلا في الظاهر، وإنما هم منافقون، ولكل قوم وراث، فإن الذين يقترفون أي نوع من الخيانة في هذا الزمان ويلصقونه بغيرهم ليسوا مؤمنين، بل

منافقين، ولا ينفعهم استمالة بعض الحكام، ولا صدور الفتوىٰ المرتكزة علىٰ التضليل أو المبيحة لخيانة الكافر المستأمن، فإن ماله لا يجوز استباحته بأنواع النصب والاحتيال أبدًا، ولا يستباح إلا في الحرب الشرعية، والمقابلة بالشجاعة المطلوبة حينئذ.

وقوله سبحانه في الآية (١١٣): ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾:

في هذه الآية الكريمة امتنان من اللَّه سبحانه علىٰ نبيه ﷺ وتطمين لفؤاده بأنه يحفظه ويعصمه من قبول تدليس المبطلين، فلا تنطلي تضليلاتهم عليه، بل يوفقه اللَّه ويحفظه من مؤامراتهم، وينور بصيرته، ويعلمه ما لم يكن يعلمه، صيانة لأحكامه أن يصدر منها تبرئة مجرم أو ظلم بريء، وهكذا يكرم اللَّه الحاكم الذي يجرد نفسه من الميل إلىٰ أحد الخصوم فيجعله في كنفه يحفظه ويرعاه، ويعصمه من التأثر بخداع المبطلين، ويقيه من إثم ما يراد به، فيجعل الضرر علىٰ المبطلين ولا يصيبهم من ضررهم شيء كما نصت عليه هذه الآية: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

والظاهر أن الضمير في قوله: ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ عائد علىٰ بني «ظفر» المجادلين والمنافحين عن «بني أبيرق»، أي فلولا عصمته وإيحاؤه إليك بما كتموه من الحق وروجوه من الباطل؛ لهموا بإضلالك عن الحكم بالعدل، وتوخي طريق الحق، مع علمهم بأن الجاني هو صاحبهم، وهذا قول ابن عباس، وروىٰ الضحاك أن الضمير عائد إلىٰ وفد أهل الطائف «ثقيف» إذ قدموا علىٰ النبي ﷺ وقالوا: نبايعك علىٰ أن لا نحشر ولا نعشر، وعلىٰ أن تمتعنا بالعُزَّىٰ سنة فلم يجبهم.

ولكن هذه القصة مبتورة عن الآيات وليست في موضوعها، ولهذا قال ابن عطية: إن اللَّه وفق نبيه علىٰ مقدار عصمته له، وأنها بفضل اللَّه ورحمته.

وقوله سبحانه: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ﴾ معناه لجعلته همها وشغلها الشاغل حتىٰ تنفذه، وهو يدل علىٰ أن الألفاظ عامة في غير أهل النازلة، وإلا فالغاضبون لبني «أبيرق» وقع همهم بذلك، وثبت حصوله منهم والمعنىٰ: ولولا عصمة اللَّه لك لكان في الناس من يشتغل بإضلالك ويجعله هم نفسه، كما فعل هؤلاء، لكن العصمة تبطل كيد الجميع. «انتهىٰ ببعض إيضاح».

ولا شك أنها وإن كانت في هذه الحادثة فهي عامة في جميع ما يصدر من محاولات أعداء الرسالة بوسائل الفتنة المختلفة، كاقتراح أهل الطائف، وكاقتراح كفار قريش في مدح آلهتهم أو عبادتها وقتًا من الأوقات كما قال سبحانه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] إلىٰ قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ أي أن وبال ما أقدموا عليه من التعاون علىٰ الإثم والبهتان وشهادة الزور، ومحاولة فتنتك عما أنزل اللَّه إليك إنما يخصهم في أنفسهم، وينالهم ضرره فقط من دونك ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ أبدًا لا في قليل ولا كثير؛ لأنك إنما عملت بظاهر الحال، وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة بخلاف ذلك.

ثم إن اللَّه سبحانه لما أنزل علىٰ رسوله فصل القضية وجلاها له امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال بقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني القرآن والسنة، والمعنىٰ أن من أنزل اللَّه عليه الكتاب والحكمة وأهله لذلك وأمره بتبليغهما والقضاء بهما فهو معصوم من الضلال ومن الوقوع في الشبهات؛ لأنه علمه من الشريعة

ومن بعض الأشياء المغيبة ما تقتضيه الحال مما لا يعلمه قبل ذلك كما قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من هذه الأمور ومن أخبار الأولين والآخرين مما يناسب نفسك العزيزة ـ صلىٰ اللَّه عليك وسلم ـ وكما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢] فاللَّه الذي أنزل علىٰ نبيه الكتاب والحكمة، وما أطلعه علىٰ أسرارهما، وأوقفه علىٰ حقائقهما مع أنه ما كان قبل ذلك يعلم بشيء منها، فكذلك يفعل في مستقبل أيامه، فلا يقدر أحد من المنافقين علىٰ إضلاله أو إزلاله مهما حاولوا ذلك، أو أنه يعلمه من وجوه كيدهم ما يقدر به الاحتراز منهم، والمعنىٰ الأول هو الأظهر.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ يعني منته عليك بالإيمان والعلم بأسرار الوحي فضل عظيم لا يقدر أحد قدره، ولا يحيط به وصف واصف أبدًا، لا تحويه عبارة ولا تحيط به إشارة، ومن ذلك النبوة والرسالة العامة إلىٰ جميع الثقلين، والقيادة العامة الباقيتين في أمته ما استمسكوا بهدايته، وكذلك الشفاعة العظمىٰ التي هي المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

قال الرازي: وهذه الآية من أعظم الدلائل علىٰ أن العلم أشرف الفضائل والمناقب، وذلك لأن اللَّه ما أعطىٰ الخلق من العلم إلا القليل كما قاله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ونصيب الشخص الواحد من علوم جميع الخلق يكون قليلًا، ثم إنه سمىٰ ذلك القليل عظيمًا، حيث قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] وسمىٰ جميع الدنيا قليلًا حيث قال: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ وذلك يدل علىٰ غاية شرف العلم. اهـ.

وهذه النعمة العظيمة التي امتن اللَّه بها علىٰ محمد ﷺ وأتباعه لا يعرفها إلا المجربون للجاهلية الأولىٰ في ذلك العصر، وأهل البصيرة الذين يرون مساوئ الجاهلية الجديدة في هذا الزمان من أعمال الفساد والإفساد والظلم والبغىٰ والجور واحتكار العدالة والكرامة والخيرات علىٰ أفراد من الناس مخصوصين في كل بلد من بقاع الأرض، وجعل

الحق للقوة، وما يحصل من التمييز العنصري، واستعلاء الأراذل وانتشار الفتن الفكرية والعسكرية، وكثرة المجازر البشرية لأتفه الأسباب، وضياع العرض وامتهانه امتهانًا يندىٰ له الجبين، وغير ذلك من المساوئ التي تجري تحت شعار الحرية والتطور والتقدمية، فنعمة اللّٰه الكبرىٰ الإسلام الذي يحقق العدل وينشر الفضيلة لا يدركها ولا يشكرها إلا من اكتوىٰ بنيران الجاهلية القديمة البسيطة، أو الحديثة المعقدة المغلفة بشعارات براقة مختلفة، تذكير اللّٰه سبحانه لنبيه ﷺ بنعمة الإسلام والهداية هو لأنه أول من عرفها وأكبر من عرفها وكذلك الرعيل الأول من المسلمين، وكما أوجب اللّٰه علىٰ نبيه شكر هذه النعمة؛ فإنه يجب علينا شكرها وجوبًا محتمًا، بل شكرًا عظيمًا لا يتحقق إلا بالعمل الصحيح للإسلام، والتضحية الكاملة في سبيله، لنثبت لجميع العالم أننا خير أمة أخرجت للناس، ونكون لهم قدوة ونبراسًا.

وإذا كانت هذه الآية العظيمة الشأن نزلت لكشف خيانة منافق دخل في الإسلام ليتخذ من أهله عونًا علىٰ أغراضه الدنيئة، فلما علم أن الإسلام جاء ليبطل الخيانة والضلال، ويقضي علىٰ الرذيلة هرب إلىٰ مشركي مكة معلنًا كفره المتأصل في قلبه بعد ما اكتشفه وحي اللّٰه وكشف مناصريه، أفلا ينشر المسلمون هذه القصة التي شددت في أمرها الآيات لتنصف يهوديًّا من أعدىٰ أعداء المسلمين علىٰ من ساعد الخائن المنافق، وتكشف نفاقه وتضطره إلىٰ الهروب؛ ليثوروا بِهذه القصة وأمثالها علىٰ المفترين في «أوربا» الطاعنين علىٰ الإسلام والمسلمين، والذين يرمونهم بالتلصص والقرصنة، وهم لا يزالون يقلدون ويقدسون القسس الكذابين مثيرىٰ الحروب الصليبية وأعداء العلم والعدل ممن يأنسون بظلمات الهوىٰ ويعتبرونها نورًا، ليعلموهم أن أرقىٰ حكوماتهم في هذا الزمان لم توصلها مدنيتها ولا علومها وحضارتها إلىٰ الرضىٰ بمساواة أبنائها وأوليائها بأعدىٰ أعدائها في العدالة

الاجتماعية أو السياسية كما فعل المسلمون المهتدون بوحي الإسلام، وإذا كانوا في هذا العصر لم يحققوا شيئًا من عدل المسلمين في مثل هذه القضية، فكيف سمحت لهم عقولهم وضمائرهم بالتجني علىٰ المسلمين؟ ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم.

وقوله سبحانه في الآية (١١٤): ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾:

في هذه الآية الكريمة إشارة إلىٰ ما كانوا يتناجون فيه، حين يبيتون ما لا يرضىٰ من القول، أعني المنافقين في شأن السرقة وإخفائها، ورمي البريء بها، وما حاكوه في النجوىٰ من التضليل والتهويل.

والنجوىٰ في اللغة مصدر أو اسم مصدر، ومعناها المسارة في الحديث، فهي ما يتكلم به من السر بين اثنين فأكثر، يقال: ناجيت الرجل مناجاة ونجا، ونجوت الرجل أنجوه نجوىٰ إذا ناجيته.

قال مقاتل: هم قوم من اليهود ناجوا أصحاب طعمة بالتلبيس علىٰ رسول اللَّه ﷺ وهذا فيه نظر؛ لأن البريء الذي اتْهمه قوم «طعمة» هو من اليهود، فكيف يتفق اليهود معهم علىٰ تُهمة يهودي؟ اللهم إلا إذا كانوا يريدون التشهير بالأنصار، وقد اطمأنوا علىٰ سلامة اليهودي لعلمهم أن اللَّه سيكشف الحقيقة لرسوله، وتعود التبعة علىٰ الجاني الحقيقي، وإلا فلا يمكن صدور ذلك.

وقال ابن عطية: هو عائد علىٰ الناس أجمع، وجاءت هذه الآيات عامة فاندرج أصحاب النازلة وهم قوم «طعمة» في هذا العموم، وهذا من باب الإيجاز والفصاحة لكون الماضي والمضارع تشملها عبارة واحدة، انتهىٰ وجاء استعمال النجوىٰ بالمعنىٰ المصدري في القرآن كقوله سبحانه: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ [الأنبياء: ٣]، وكقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وأجاز المفسرون هنا أن النجوىٰ

بمعنىٰ المتناجيين أي المتسارين، ويكون المعنىٰ الأخير في كثير من المتناجين من أصحاب طعمة أو من سائر الناس إلَّا من أمر منهم بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس.

وهذه الثلاثة هي مجاميع الخيرات التي يحتاج فيها إلىٰ النجوىٰ؛ لأن من أنفع ما ينتفع به الناس هذه الأمور الثلاثة، وذلك لأن عمل الخير إما أن يكون بإيصال المنفعة أو بدفع المضرة، أما إيصال الخير بالمنفعة فإنه إما أن يكون من الخيرات الجسمانية كالنفع بالمال وسائر الإسعافات وهو مشار إليه بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، والصدقة شاملة لجميع الإسعافات المالية والبدنية، وإما أن يكون من الخيرات الروحانية، وهي عبارة عن تكميل القوة النظرية بالعلوم، أو تكميل القوة العلمية بالأفعال الحسنة، ومجموعها عبارة عن الأمر بالمعروف كما أشار إليه اللَّه سبحانه بقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، وأما إزالة الضرر فهو ما أشار إليه بقوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فكانت مجامع الخيرات مذكورة في هذه الآية.

وقد ورد في معنىٰ ذلك حديث عن النبي ﷺ: «**كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما كان من أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو ذكر للَّهِ ﷻ**»[1]، وقيل لسفيان الثوري: ما أشد هذا الحديث! فقال سفيان: ألم تسمع اللَّه يقول: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ فهو هذا بعينه، أما سمعت اللَّه يقول: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر] فهو هذا بعينه.

والاستثناء يكون هنا متصلًا حسب قواعد النحو إلا أنهم يقدِّرون للإعراب مضافًا محذوفًا فيكون: لا خير في كثير من نجواهم إلا نجوىٰ من أمر بصدقة أو معروف، حتىٰ لا يكون منقطعًا يحتاج إلىٰ حرف «لكن» في المعنىٰ.

---

(١) رواه التِّرمذي (٤٢١٢)، وابن ماجه (٣٩٧٤).

هذا إن نفي الخير عن النجوىٰ في القرآن؛ لأنها مظنة الإثم والشر الذي يحتاج أهله إلىٰ إخفائه والمسارة فيه كما قال سبحانه في الآيات (٨/١٠) من سورة المجادلة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ...﴾، إلىٰ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة: ٩، ١٠].

والحكمة في كون النجوىٰ مظنة الشر في الغالب هي أن العادة الغالبة وسنة الفطرة المتبعة هي استحباب إظهار الخير والتحدث به بين الناس وإخفاء الشر والإثم، بحيث إنه لا يبحث إلا في النجوىٰ سرًّا، وقد ورد في الحديث الشريف عنه ﷺ: «**الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[(١)]، وقلما يكتم الناس حديث خير من الخير المطلق المتفق علىٰ خيريته، وإنما الغالب في كتمان بعض الخير وجعل الحديث فيه نجوىٰ إذا كان ذلك الخير خيرًا للمتناجين فقط وشرًّا علىٰ غيرهم، أو مؤذيًا لغيرهم ولو من بعض الوجوه، كأسرار الحرب والسياسة التي يتوخىٰ بها أهلها منفعة أنفسهم وضرر غيرهم، فيكتمون أخبارها ويجعلونها نجوىٰ بينهم لئلَّا يطلع خصمهم عليها فيحبط تدبيرهم.

ويشبه ذلك ما يتناجىٰ به أهل المصالح الخاصة من التجار والشركات لمصلحة عملهم، فإن هذا ليس من النجوىٰ المذمومة لعدم اشتمالها علىٰ الإثم والعدوان، وقد تكون النجوىٰ التجارية خيرًا إذا قصد المتناجون بها تخفيف الأزمة علىٰ الناس وإنزال الضربة بالمحتكرين، وبعكس ذلك تكون شرًّا لما فيها من الإثم والعدوان، وأما النجوىٰ في الأمور الحربية فهي من المعروف المحمود أهله إذا كانت في صالح

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٣).

العقيدة والمسلمين.

في استثناء اللَّه خيرية النجوىٰ لهذه الأمور الثلاثة الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، لأن في كتمانها والتناجي بها فوائد ملموسة، أما في الصدقة فلأن بعض الفقراء يتأذىٰ من إعطائه إياها جهرًا، ويرىٰ فيها حطًّا من كرامته، وكذلك إسرارها أقوىٰ في إخلاص المتصدق وإن كان بعضهم يرىٰ في إظهارها نوعًا من الإخلاص يزيد نفعه وخيره علىٰ الإخفاء، لكن للإخفاء حالات خاصة تقتضيها مصلحة الفقير، ولهذا قال ﷻ: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة].

ويرىٰ أكثر العلماء أن الإظهار أفضل في الصدقة الواجبة، والإخفاء أفضل في صدقة التطوع، والصحيح هو مراعاة حال الفقير علىٰ حسب رفعة نفسه وعدم الهبوط بمروءته، «ولكل مقام مقال»، وأما المعروف علىٰ اختلاف أنواعه فالمنفعة في سريته أقوىٰ كثيرًا من الجهر به كما هو معروف مجرب، ومنه ما يتوقف جدواه علىٰ السرية كالأمور الحربية.

وأما الإصلاح بين الناس فبعضه يحتاج إلىٰ التكتم والتناجي في تخطيطه ويفسد مفعوله بالإظهار، وفيه ما لا يحتاج إلىٰ الكتمان، فالنوع الأول تكون النجوىٰ فيه خيرًا، ولما كان الشرع الشريف مهذبًا للنفوس ومرشدًا للعقول ومقيمًا للمائل عن الفطرة، كانت أوامره مطابقة للعقول وصالحة لكل زمان ومكان، فالحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

هذا وإن لفظ الصدقة والمعروف يشمل جميع أنواع البر والفضل والإحسان من إغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وبذل المعروف، وجبر خواطر المنكوبين، وجميع أنواع المعونة والإسعاف، وقد جاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ: «**يصبح علىٰ كل سلامىٰ من الناس**

صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله أو تحمل عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها صدقة، وتميط الأذي عن الطريق صدقة»(١).

وهذا الحديث متفق علىٰ صحته، ومثله الحديث المتفق علىٰ صحته ـ أيضًا ـ عن النبي ﷺ قال: «**علىٰ كل مسلم صدقة**»، قال: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «**يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق**»، قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «**يمسك عن الشر؛ فإنها صدقة**»(٢) وفي هذه الآية الكريمة والأحاديث دروس اجتماعية قويمة هامة نافعة جدًّا للمجتمع أرشدت إليها هداية اللَّه المسلمين، لينتفعوا بمغزاها وحسن نتائجها.

وقد نفىٰ اللَّه الخير في أكثر التناجي الحاصل بين الناس فيما يتصل بغيرهم، وذلك أن النفوس مجبولة علىٰ إظهار الخير والتحدث به علانية بين الناس، وعلىٰ محبة إخفاء الشر وكتمانه فيما يريدون إيقاعه بغيرهم، وقلَّما يكتم الناس حديثًا فيه الخير كله، والناظر في حالة الطوائف والأحزاب السياسية وما يتناجون فيه لتدبير المكائد ضد خصومهم، ووضع خططهم للأراجيف عليهم والتشهير بهم ونحوها عرف سوء النتائج للنجوىٰ المنهي عنها.

وكذلك ما يعمله بعض الزعماء وأعوانهم الظلمة ضد من ينصحهم أو يريد منهم إقامة حكم اللَّه ونحو ذلك من المعروف، وما يفعله المترفون والماجنون من الفتيان والفتيات من التناجي علىٰ الفسق والفجور، فكل هذه الأنواع من التناجي مذمومة لا يحبها اللَّه ولا أهلها؛ لأن منها ما هو تدبير للاستعلاء في الأرض واستغلال الناس، ومنها ما فيه تدبير ضد الحق لردع أهله والتنكيل بهم، ومنها ما هو تدبير لتهيئة سبل الفسق والفجور التي يحصل بها الجناية علىٰ

(١) رواه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).
(٢) رواه البخاري (١٤٤٥)، ومسلم (١٠٠٨).

العقول بالسكر، وعلىٰ الأموال بتبديدها في ذلك، وفي القمار علىٰ الفساد الذي تلوث الأرض والأرواح بتدنيسها، وإضاعة شرفها بالاختلاط والدعارة، تلبية للنزعات الفاجرة والنفوس الجامحة عن الصواب، والمفضلة للغي علىٰ الرشاد.

فلهذا نفىٰ اللَّه الخير عن النجوىٰ والمتناجين إلا في هذه الأحوال الثلاثة التي استثناها لصالح المجتمع، مما يبرز فيها التعاون علىٰ البر والتقوىٰ بصفة واضحة نافعة، كالحض علىٰ الصدقات الممثلة للنفع المادي، والأمر بالمعروف الذي يمثل النفع الروحي، والصلح الذي يمثل المنافع السياسية والاجتماعية، والذي هو من أكبر دعائم السلم والأمن وإصلاح القلوب وطهارتها عن الشحناء والأحقاد؛ الجالبين للعداوة والشقاق والتنافر الذي يستفيد منه الأعداء، فإنه بالإصلاح تجدد المحبة المزيلة لذلك، ويصفو التفكير من شوائب الحقد والنقمة، فتصلح التصورات حينئذ. ولو أن الناس صدقوا في السعي بالإصلاح لما تفاقمت شرور الخلاف والفتن بين الأفراد والجماعات والدول، ولكن كلما ابتعد الناس عن تعاليم دين اللَّه ابتعدوا عن العدالة بقدر ذلك.

وبعد: فقد جاء اللَّه من وحيه المبارك بِهذه الآية المناسبة لما قبلها ليضع الحد الفاصل الصحيح بين النجوىٰ الآثمة التي يمقتها اللَّه ولا يرضاها، والنجوىٰ الطيبة النافعة التي يحبها ويدعو إليها، وقد أرشدنا النبي الكريم ﷺ إلىٰ الأدب الشريف الذي وضعه فيما يتصل بالنجوىٰ الصالحة حتىٰ تكون خيرًا كلها بقوله: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجىٰ اثنان دون الثالث**»[1]، إذ ذلك يحزنه، وكثيرًا ما يظن أنهما يتكلمان ضده، أو محتقران له علىٰ الأقل.

وفرَّع العلماء علىٰ ذلك كثرة العدد، وأن يتخاطبا بلغة أجنبية لا

---

(١) رواه البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٣).

يعرفها، فإن ذلك يحزنه ويبعث فيه الظنون ضدهم، وهذا من الأدب الشرعي القويم، وقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيه تقرير على أن أساس الفضيلة هو تنفيذ أوامر اللّٰه ابتغاء مرضاته على طاعة وصدق وإخلاص، وذلك بأن يكون الباعث على الأمر بالمعروف، والحض على الصدقة، والإصلاح بين الناس هو رجاء ما عند اللّٰه من رضوانه على الفاعل، وثوابه له بدافع الإيمان به والإخلاص له والصدق معه ﷻ، وليس لمقاصد أو بواعث أخرى مما يدفع الفلاسفة ونحوها إلى القول أو العمل.

وبهذا يكون المؤمن أرقى من الفيلسوف في عمله، وأبعد عن الغرور والدعاوى فيه، وأرسخ قدمًا في الإخلاص وتحري المنفعة في عمله له ولإخوانه المؤمنين، وأقوم للثبات على القول والعمل، وأن لا تكون الأغراض الشخصية أو الدوافع الوطنية ونحوها هي الباعثة له على ذلك، فإن جدوى العمل وثمرته النافعة من اللّٰه في الدنيا والآخرة يكونان بالإخلاص التام للّٰه وحده لينال من اللّٰه التوفيق والسداد في قوله وعمله، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة، وبذلك تظهر آثار بعض أسماء اللّٰه الحسنى من الرحمة والحكمة والفضل والرضوان، وقد رتبت هذه الآية هذا الأجر العظيم على هذه الأشياء بشرط أن يكون قد فعل ابتغاء مرضاة اللّٰه، ومن الواضح أن التماس مرضاة اللّٰه بفعل هذه الأمور أو بعضها يستدعي أن يكون الفاعل معتقدًا أن اللّٰه أمر بها وأن فعلها يرضيه، وأنه لم يقصد بفعلها سوى ابتغاء وجهه الكريم، فيكون الفاعل لها باعتبارها أمرًا من أوامر اللّٰه مظهرًا لرحمة اللّٰه بعباده وحكمته في تشريعه وأوامره.

وبذلك تتجرد روحه بفعل الخير عن الحظوظ النفسية، وتتجه إلى الحظ الأسمى الذي يتعلق باللّٰه الدائم الباقي الذي لا ينقطع مدده ولا يخبو نوره، فيتمركز حب الخير في النفس على وجه الثبات والاستقرار، سواء وافقته شهوته أم خالفته، وسواء اقترن به مدح الناس أم لم

يقترن، فعندئذ يستحق ذلك الجزاء الذي وصفه الرب العليم الحكيم العظيم بأنه جزاء عظيم.

أما من يفعل هذه الأمور علىٰ غير هذا الوجه، بأن التمس بها سمعة يكتسبها أو جاهًا يناله، فإنه لا ثبات للخير في نفسه إلا بقدر ما ينال من سمعة أو جاه، وهو مع ذلك قد حول وجهته في فعل الخير عن مصدر الخير والأمر بالخير، ولم يربطه به رباط الرحمة والحكمة والإيمان، ومن قطع صلته باللَّه في أعماله قطع صلته به في رحمته وثوابه، ووكله إلىٰ من وصل به نفسه وتعلق بأذياله، ومن هنا يتضح جليًّا سر نفي الإيمان عن المرائين بأفعال الخير، والذين يبتغون السمعة عند الناس جزاء لما يظهرون من فعل الخير، كما يتضح السر في أن الرياء يحبط ثواب الأعمال عند اللَّه، وفي أنه لا دليل علىٰ تأصل الخلق الكريم في نفس الفاعل، وفي أن الرياء قد جعله اللَّه من علامات التكذيب بيوم الدين في «سورة الماعون».

فالإخلاص هو الأساس في فهم الفضيلة، وتحصيل ثوابها، وتوفيق صاحبها، وهو ترسم أوامر اللَّه وتنفيذها ابتغاء مرضاة اللَّه، ومن هنا جاهد المؤمنون باللَّه في سبيل اللَّه بأموالهم وأنفسهم وأهليهم وعشيرتهم، وكان ذلك في نظرهم الحياة الخالدة والغنىٰ الدائم و السعادةَ الأبدية.

وقوله سبحانه في الآية (١١٥): ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾:

أتىٰ اللَّه سبحانه بِهذه الآية الكريمة بعد ما أوضح لنا فيما قبلها أن الحكم بالحق هو الثمرات التي أرادها اللَّه للناس من إنزال الكتاب، وأن الذين يحاولون طمس الحق خائنون لأنفسهم ولدينهم، وأن التناجي بِهذه المحاولة شر لا خير فيه، ولا يكون التناجي خيرًا

إلا إذا كان فيما يصلح الناس وينفعهم في شئون حياتهم، وأن ما ينفعهم لا يستحق صاحبه الأجر والمثوبة إلا إذا قصد به ابتغاء وجه اللَّه، ليكون مبدأ دائمًا له لا يتغير، فيستمر ولا ينقطع مدده.

فكان من البديهي بعد هذا البيان أن يوضح اللَّه حكم من يشاقق الرسول في شيء من هذا، فلا يفعل إلا الشر، أو يفعل بعض الخير للمقاصد الشخصية والأغراض النفسية فيتبع في أعماله وأخلاقه غير سبيل المؤمنين، فهذا هو ما تضمنه معنىٰ هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ والمشاقة هي المخالفة عن معاداة ومجافاة، ومنه قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٣] وأصل المشاقة أن يكون المرء في شق غير شق صاحبه والمعنىٰ يرجع إلىٰ الخروج عما رسمه اللَّه لرسوله والمؤمنين، واتخاذ طريق آخر لا يلتقي بذلك، أو ليس فيه تحقيق للخير الذي يريده اللَّه لعباده.

ومن بديع قول علماء «البيان» ما قالوه في هذه الآية من انفكاك الإدغام لظهور الانفكاك بين الرسول والمشاق له، ونص اللَّه في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾ هو علىٰ العموم، فيندرج فيه «طعمة» وغيره من المشاقين ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي اتضح له الحق الذي هو سبب الهداية بالبرهان والدليل، ولو لم يكن إلا إخبار اللَّه نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقصة «طعمة» وإطلاعه إياه علىٰ ما بيتوه وزوره لكان له في ذلك أعظم وازع ورادع، وأوضح بيان يشفيه للرجوع إلىٰ الحق، وتطهير قلبه عما سواه، ولكن مرض النفاق يصد صاحبه عن الحق ويعمي بصيرته، وفي هذا دليل علىٰ أن من يعرف الحق ويزيغ عنه أعظم ذنبًا من الجاهل؛ لأن من لا يعرف الحق يستحق العقوبة لترك المعرفة، لأن العمل لا يلزمه حتىٰ يعرفه أو يعرفه به من يصدقه، أما العالم فيستحق العقوبة لترك استعمال ما تقتضيه معرفته، فهو أعظم جرمًا إذا اطلع علىٰ الحق وعمل بخلاف مقتضاه علىٰ سبيل العناد للَّه الذي جعل له نورًا يهتدي به.

وسبيل المؤمنين هو الدين الحنيفي الذي هم عليه من الإيمان بوحي اللَّه والعمل بمقتضاه، وهو الصراط المستقيم الذي يجمع بين العلم بالحق والعمل به، والذي أوجب اللَّه علىٰ المؤمنين أن يدعوه بالهداية إليه في كل ركعة من ركعات صلاتهم بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة] هو سبيل اللَّه الذي أمر رسوله بالدعوة إليه، وأن يضيفه إلىٰ نفسه بقوله: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] وسبيل اللَّه الواحد هو سبيل المؤمنين، هو ما توعد اللَّه بالعذاب الشديد من صد عنه بقوله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [هود] وصرح في كثير من الآيات أن الصد عنه هو شأن المشركين والمنافقين وشأن كثير من الأحبار والرهبان، منها قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦] و ﴿إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

وسبيل اللَّه أمر مقرر من بدء الوحي والرسالة، وهو كتاب اللَّه وسنته في ردع من خالف ما أجمعت عليه الأمة من معاني الكتاب والسنة، أو استباح شيئًا مما حرمه اللَّه فيهما.

قال المفسرون: وهذه الجملة المعطوفة هي علىٰ سبيل التوكيد والتشنيع، وإلا فمن يشاقق الرسول هو متبع غير سبيل المؤمنين ضرورة، ولكنه سبحانه بدأ بالأعظم في الإثم، وأتبع بلازمه توكيدًا، وبما أن مخالفة المؤمنين واتباع غير سبيلهم حرام فينبغي أن يكون اتباعهم واجبًا؛ لأن عدم اتباعهم علىٰ ما هم عليه من الحق النبوي اتباع لغير سبيل المؤمنين، وكذلك لا يجوز بتاتًا أن ينعزل بعض المسلمين عن جماعة المؤمنين بتصورات شاذة مخالفة لما فهمه المؤمنون من نصوص وحي اللَّه في الكتاب والسنة، كبعض ما انفرد به ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إباحة الغناء وسائر المعازف ونحو ذلك مما يتشبث به أهل الأهواء والنزعات المختلفة.

وأشد من ذلك جريمة من يعمل ببعض الكتاب ويترك البعض، ومن يحكم ببعض الشريعة ويرفض بعضها أو أكثرها، فإن دين اللَّه بجميع تشريعاته كالجسم الواحد الذي تزهق روحه إذا شطر فأخذ منه شق وترك الشق الآخر، ولهذا حكم علىٰ من يفعل ذلك بأنه يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، وأنه كافر بالجميع، يستحق الخزي في الحياة الدنيا كما وقع لأكثر المسلمين في هذا الزمان بذلك.

وقد رجح المحققون أن قول اللَّه سبحانه: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس مغايرًا لمشاقة الرسول، بل هو أمر لازم لمشاقته ﷺ ذكره اللَّه علىٰ سبيل المبالغة والتوكيد وتفظيع الأمر وتشنيعه، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ يعني نخلي بينه وبين ما اختار لنفسه، ونكله إلىٰ ما توكل عليه وتولاه من اتباع غير دين اللَّه، واستحسان غير شريعته، وهذا مما نسخته آية السيف وسورة التوبة، خصوصًا في المرتد، فإن قتله واجب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ بعد ما أوضح حالته في الدنيا من تركه في ضلاله وعدم توفيقه للهداية، وتسليط الشيطان عليه ليكون وليه وقرينه فيتخبط في ظلمات الغواية ممن يذرهم اللَّه في طغيانهم يعمهون، وممن يزيغ قلوبهم حيث زاغوا عن هدايته، فمصيرهم في الآخرة الصلاء الذين يشويهم في نار جهنم، وبئست النهاية نهايتهم؛ لأن من خرج عن الهدىٰ واتبع غير سبيل المؤمنين فليس له طريق إلا إلىٰ النار يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف].

وفي هذه الآية دليل علىٰ عصمته ﷺ من الخطأ؛ لأن اللَّه ينبهه ولا يقره عليه، كما أن فيها تشريفًا لهذه الأمة، وأنها قد عصمت من الاجتماع علىٰ الضلال، وهذا من كرامات نبيهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد وردت أحاديث كثيرة، من ذلك قوله: ﷺ: «**لا تجتمع أمتي علىٰ ضلالة**»[1]

(١) رواه التِّرمذي (٢١٦٧).

وغيرها مما ادعىٰ بعض العلماء تواتر معناها.

وفي هذه الآية دليل علىٰ أن مشاقة رسول اللَّه ﷺ من أكبر الذنوب وقد تكون كفرًا، وليست مقصورة علىٰ حياته، بل كل من طعن في شيء من سنته أو انتقص شيئًا مما جاء به فهو مشاق له، يكفر إذا أصر علىٰ ذلك، ويجب أن يعامل معاملة المرتدين، وكذلك من طعن في أمانته تصريحًا أو ضمنًا كمن يزعم أنه استفاد من الرهبان في طريقه إلىٰ الشام للتجارة، أو أنه ينقل الأقاصيص من البادية كقصة أصحاب الكهف أو الهدهد، أو عصا موسىٰ، وغير ذلك مما يتفوه به أفراخ الماسونية وتلاميذ الاستعمار والمنخدعون بهم، أو من يطعن عليه بتعداد زوجاته أو مشروعية تعددها علىٰ الإطلاق، أو كون إرث المرأة نصف إرث الرجل، وغير ذلك من كل ما فيه مساس بالشريعة، فهو مشاق للَّه ورسوله طاعن بأمانته، وقد نسبوا إلىٰ الإمام الشافعي استنباط حجية الإجماع من هذه الآية، وهو استنباط جميل وقالوا بحرمة مخالفته، ولكن فيه خلاف طويل، وأخذ ورد تركناه لكتب الأصول فليراجع فيها.

وقال صاحب «المنار» في هذا الخصوص: إن المؤمن الفقيه في دينه الذي هو علىٰ بصيرة منه يعمل الخير علىٰ هذا الوجه - أي الإخلاص لابتغاء مرضاة اللَّه حتىٰ ترتقي روحه ارتقاء تصل به إلىٰ ذلك الفضل، وأما صاحب النظرية الفلسفية فقلما يعمل بها، وإن عمل بها أحيانًا فقلما يكون مخلصًا في عمله، وإذا تعارض هواه وشهوته مع خير غيره ومنفعته، فإنه يؤثر نفسه ولو بالباطل علىٰ غيره من أصحاب الحق، فإذا كان مما وصف اللَّه تعالىٰ به المؤمنين أنهم يؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، فهؤلاء الفلاسفة ومقلدوهم يؤثرون أنفسهم علىٰ غيرهم ولو عن ظهر غنىٰ، ثم إنهم يميلون في تأويل الخير والنفع مع الهوىٰ.

وقد جرىٰ لي حديث مع بعض كبراء العصريين في تحديد معنىٰ الفضيلة، فكان يتكلم بلسان الفلسفة وأتكلم أنا بلسان الإسلام الجامع بين الدين والحكمة، فلما حددها بما ينفع الهيئة الاجتماعية قلت: إذا كان هذا هو المعنىٰ، فما الباعث للنفوس علىٰ العمل به؟ قال: هو اعتقاد كل فرد أن نفع الهيئة الاجتماعية نفع له، فإذا صلحت عاش فيها سعيدًا وإن فسدت لحقه شيء من فسادها فكان به شقيًّا، قلت: معنىٰ الفضلية إذن أن يطلب الإنسان نفع نفسه مع ملاحظة نفي الهيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، فتخلفت الأعمال التي تتدرج في مفهومها الكلي باختلاف آراء أفراد الناس فيما ينفع الهيئة الاجتماعية، وفيما هو أرجح من المنافع عند تعارضها، مثال ذلك: إذا أردت أن تسرق مال رجل أو تخونه فيه إذا استودعك إياه فعلت ذلك لاعتقادك أنك تقدر علىٰ ما لا يقدر عليه صاحب المال من نفع الهيئة الاجتماعية، أو تنفقه فيما هو أنفع لها، وتكون بِهذه السرقة أو هذه الخيانة معتصمًا بعروة الفضيلة.

قال: نعم. قلت: وإذا قدر رجل علىٰ أن يخون رجلًا آخر في عرضه ويزني بامرأته معتقدًا أن لا ضرر في ذلك علىٰ الهيئة الاجتماعية لأنه في الخفاء، فلا يثير نزاعًا ولا خصامًا فلا ينافي الفضيلة أو أنه ربما ينفع الهيئة الاجتماعية بإيلادها ولدًا يرث من ذكائه ما يكون خيرًا ممن تلدهم تلك المرأة من زوجها الشرعي، أو بما هو أوضح من هذا كأن تكون تلك المرأة لا تلد من ذلك الرجل، فهل ذلك العمل من مقومات الفضيلة بما حددتم؟ قال: نعم كل من هذا وذاك يعد من الفضيلة، في الواقع ونفس الأمر إذا كان اعتقاد الفاعل بنفعه للهيئة الاجتماعية صحيحًا، وإن كان القانون لا يجيز الحكم له بحسب اعتقاده إذا ظهر الأمر ورفع إلىٰ القاضي.

أقول: وقس علىٰ السرقة والخيانة والفاحشة جميع الرذائل حتىٰ القتل، فإنه يمكن أن يعد من الفضائل علىٰ ذلك التعريف إذا ظن

فاعله أن ينفع الهيئة الاجتماعية، كأن يقتل من يرىٰ هو في سياسته أو اعتقاده أو عمله ضررًا وإن كان المقتول يرىٰ ذلك نافعًا. فهذا المذهب الجديد في الفلسفة العملية هو شر مذهب أخرج للناس، فإن الرذائل فيه قد تسمىٰ معاقل الفضائل، والمفاسد تعد فيه من أفضل المصالح، والحاكم فيه هو الهوىٰ.

ولولا افتتان ضعفاء النفوس ببعض من يقول به لما استحق أن يحكي، وكان للفلاسفة الأولين مذاهب في الفضيلة معقولة، وآراء صحيحة، وقد أنطقهم اللَّه بكثير من الحكم، ولكن ثمرات عقولهم لم تكن دانية القطوف يجنيها القوي والضعيف، ولم يكن لها ما لهداية الوحي من السلطان علىٰ القلوب والأرواح والتأثير السريع في إصلاح شئون الاجتماع، فمن ثم كان الدين أنفع من الفلسفة للناس. انتهىٰ باختصار وتصرف بسيط.

وأقول إن الفلاسفة المشار إليهم لا يخلون من الروحانيات وإن كانوا بعيدين عن الوحي، وأما الفلسفة الجديدة التي كتب لنا عنها النماذج السيئة فهي فلسفة يهودية خبيثة إلحادية، وهي التي يبيحون من أجلها المحرمات، ويعتبرون أخبث الوسائل لتحصيل غاياتهم وسائل شريفة، ولقد صدق رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: إنها شر مذهب أخرج للناس؛ لأن جميع الشرور والرذائل والثورات والمجازر التي حصلت كلها بسببها، وكل ما يتجدد من الشرور والمفاسد فهو منبعث منها ـ والعياذ باللَّه ـ.

ويجدر بنا أن ننقل كلامًا مفيدًا لشيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الشأن من رسالته المسماة «الفرقان بين الحق والباطل» أجال فيها جواد قلمه وأجاد، وأطال وأطاب، ومما قاله رَحِمَهُ اللَّهُ: ما يسميه ناس الفروع، والشرع والفقه فهذا قد بينه الرسول ﷺ أحسن بيان، فما بقي مما أمر اللَّه به أو نَهَىٰ عنه أو حلله أو حرمه إلا بين ذلك، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]،

وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] فقد بين للمسلمين جميع ما يتقونه كما قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وهو الرد إلىٰ كتاب اللَّه أو إلىٰ سنة الرسول بعد موته، وقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ﴾ شرط والفعل نكرة في سياق الشرط، فأي شيء تنازعوا فيه ردوه إلىٰ اللَّه والرسول، ولو لم يكن بيان اللَّه والرسول فاصلًا في النزاع لم يؤمروا بالرد عليه، وقد قال ﷺ: «**تركتكم علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»[1]. وعن عمر بن الخطاب كلام نحو هذا.

والحاصل أن الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين، وأما إجماع الأمة فهو في نفسه حق لأنه لا تجتمع الأمة علىٰ ضلالة، وكذلك القياس الصحيح حق فإن اللَّه بعث رسوله بالعدل وأنزل الميزان مع الكتاب، والميزان يتضمن العدل وما يعرف به العدل، وقد فسروا إنزال ذلك بأن ألهم العباد معرفة ذلك، واللَّه ورسوله يسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين وهذا هو القياس الصحيح، وقد ضرب اللَّه في القرآن من كل مثل، وبين بالقياس الصحيح ـ وهي الأمثال المضروبة ـ ما بينه من الحق، لكن القياس الصحيح يطابق النص، فإن الميزان يطابق الكتاب، واللَّه أمر نبيه أن يحكم بالعدل، وهو أنزل الكتاب بالعدل، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]، وأما إجماع الأمة فهو حق لأنه لا تجتمع الأمة بحمد اللَّه علىٰ ضلالة كما وصفها

---

(١) تقدم تخريجه.

اللَّه في الكتاب والسنة بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر، فلو قالت الأمة في الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف في ذلك ولم تنه عن المنكر فيه، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والوسط العدل الخيار، وقد جعلهم اللَّه شهداء علىٰ الناس، وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول.

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ مُر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيرًا فقال: «وجبت»، ثم مر عليه بجنازة فأثنوا عليه شرًّا فقال: «وجبت» قالوا: يا رسول اللَّه ما قولك وجبت؟ قال: «**هذه الجنازة أثنيتم عليها خيرًا فقلت وجبت لها الجنة، وهذه أثنيتم عليها شرًّا فقلت وجبت لها النار، وأنتم شهداء اللَّه في الأرض**»(١).

فإن كان الرب جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل فإذا شهدوا أن اللَّه أمر بشيء فقد أمر به، وإن شهدوا أن اللَّه نَهَىٰ عن شيء فقد نَهَىٰ عنه، ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ لم يكونوا شهداء اللَّه في الأرض، وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] والأمة منيبة إلىٰ ربها فيجب اتباع سبيلها، وقال تعالىٰ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فرضي عمن اتبع السابقين إلىٰ يوم القيامة، فدل علىٰ أن متابعهم عامل بما يرضي اللَّه، واللَّه لا يرضىٰ إلا بالحق لا بالباطل، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

والشافعي رضي الله عنه لما جرد الكلام في أصول الفقه احتج بهذه الآية علىٰ الإجماع كما كان يسمع هو وغيره من مالك، ذكر ذلك عن عمر

(١) رواه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

بن عبدالعزيز، والآية دلت علىٰ أن متبع سبيل غير المؤمنين مستحق للوعيد، كما أن مشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدىٰ مستحق للوعيد، ومعلوم أن هذا الوصف يوجب الوعيد بمجرده، فلو لم يكن الوصف الآخر يدخل في ذلك لكان لا فائدة من ذكره.

وهنا للناس ثلاثة أقوال:

قيل اتباع غير سبيل المؤمنين هو بمجرده مخالفة للرسول المذكورة في الآية.

وقيل: بل مخالفة الرسول مستقلة للذم، فكذلك اتباع غير سبيلهم مستقل بالذم.

وقيل: بل اتباع غير سبيل المؤمنين يوجب الذم كما دلت عليه هذه الآية، لكن هذا لا يقتضي مفارقته للأول بل قد يكون مستلزمًا له، فكل متابع غير سبيل المؤمنين هو في نفس الأمر مشاق للرسول، وكذلك مشاق الرسول متبع غير سبيل المؤمنين، وهذا كما في طاعة اللَّه والرسول.

فإن طاعة اللَّه واجبة، وطاعة الرسول واجبة، وكل واحد من معصية اللَّه والرسول موجب للذم، وهما متلازمان، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع اللَّه، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**ومن أطاعني فقد أطاع اللَّه، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصىٰ اللَّه، ومن عصىٰ أميري فقد عصاني**»[(١)]، ثم قال تقي الدين بعد ثلاث أوراق، ومن الناس من يقول: إنها لا تدل علىٰ مورد النزاع فإن الذم فيها لمن جمع الأمرين، وهذا لا نزاع فيه، أو لمن اتبع غير سبيل المؤمنين وهي متابعة الرسول وهذا لا نزاع فيه، فهذا ونحوه قول من يقول: لا تدل علىٰ محل النزاع، وآخرون يقولون: بل تدل علىٰ وجوب اتباع المؤمنين مطلقًا وتكلفوا لذلك ما تكلفوه، كما قد عرف كلامهم، ولم

---

(١) رواه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

يجيبوا علىٰ أسئلة أولئك بأجوبة شافية.

والقول الثالث الوسط أنها تدل علىٰ اتباع سبيل المؤمنين، وتحريم اتباع غير سبيلهم، ولكن مع تحريم مشاقة الرسول من بعد ما تبين له الهدىٰ، وهو يدل علىٰ ذم كل من هذا وهذا كما تقدم، لكن لا ينبغي تلازمهما كما ذكر في طاعة اللَّه والرسول، وحينئذ يقول: الذم إما أن يكون حقًّا لمشاقة الرسول فقط أو اتباع غير سبيلهم فقط، أو أن يكون الذم لا يلحق بواحد منهما، بل بهما إذا اجتمعا، أو يلحق الذم بكل منهما إذا انفرد عن الآخر، أو بكل منهما لكونه مستلزمًا للآخر، والأولان باطلان؛ لأنه لو كان المؤثر أحدهما فقط لكان ذكر الآخر ضائعًا لا فائدة فيه، وكون الذم لا يلحق بواحد منهما باطل قطعًا، فإن مشاقة الرسول موجبة للوعيد مع قطع النظر عمن اتبعه، ولحوق الذم بكل منهما إن انفرد عن الآخر لا تدل عليه الآية، فإن الوعيد فيها إنما هو علىٰ المجموع.

بقي القسم الآخر وهو أن كلا من الوصفين يقتضي الوعيد؛ لأنه مستلزم للآخر كما يقال مثل ذلك في معصية اللَّه والرسول، ومخالفة القرآن والإسلام فيقال: من خالف القرآن والإسلام أو من خرج عن القرآن والإسلام فهو من أهل النار، ومثله قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، فإن الكفر بكل واحد من هذه الأصول يستلزم الكفر بغيره، فمن كفر باللَّهِ كفر بالجميع، ومن كفر بالملائكة كفر بالكتب والرسل، فكان كافرًا باللَّه إذ كذب رسله وكتبه، وكذلك إذا كذب باليوم الآخر كذب الكتب والرسل فكان كافرًا.

وكذلك قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران] ذمهم علىٰ وصفين وكل منهما مقتض للذنب وهما متلازمان، ولهذا نهىٰ عنهما جميعًا في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة] فإنه من لبس الحق بالباطل فغطاه

به فغلط به لزم أن يكتم الحق الذي يبين أن هذا باطل، إذ لو بينه زال الباطل الذي لبس به الحق، فهكذا مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، من شاقه فقد اتبع غير سبيلهم، وهذا ظاهر، ومن اتبع غير سبيلهم فقد شاقه ـ أيضًا ـ، فإنه قد جعل له مدخلًا في الوعيد، فدل علىٰ أنه وصف مؤثر في الذم، فمن خرج عن إجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم قطعًا، والآية توجب ذم ذلك.

وإذا قيل: هي إنما ذمته مع مشاقة الرسول قلنا: لأنهما متلازمان، وذلك لأن كل ما أجمع عليه المسلمون فإنه يكون منصوصًا عن الرسول، فالمخالف لهم مخالف للرسول، كما أن المخالف للرسول مخالف للَّه، ولكن هذا يقتضي أن كل ما أجمع عليه المسلمون قد بينه الرسول وهذا هو الصواب، فلا يوجد قط مسألة مجمع عليها إلا وفيها بيان من الرسول، ولكن قد يخفىٰ ذلك علىٰ بعض الناس ويعلم الإجماع فيستدل به، كما أنه يستدل بالنص من لم يعرف دلالة النص، وهو دليل ثان مع النص كالأمثال المضروبة في القرآن.

وكذلك الإجماع دليل آخر كما يقال: قد دل علىٰ ذلك الكتاب والسنة والإجماع وكل من هذه الأحوال يدل علىٰ الحق مع تلازمها، فإن ما دل عليه الإجماع قد دل عليه الكتاب والسنة، وما دل عليه القرآن فعن الرسول أخذ، فالكتاب والسنة كلاهما مأخوذ عنه، ولا توجد مسألة يتفق الإجماع عليها إلا وفيها نص، وقد كان بعض الناس يذكر فيها الإجماع بلا نص كالمضاربة وليس كذلك، بل المضاربة كانت مشهورة عندهم في الجاهلية لا سيما قريش، فإن الأغلب عليهم كان التجارة، وكان أصحاب الأموال يدفعونها إلىٰ العمال، ورسول اللَّه ﷺ قد سافر بمال غيره كما سافر بمال خديجة، والعير التي كان فيها أبو سفيان كان أكثرها مضاربة مع أبي سفيان وغيره.

فلما جاء الإسلام أقرها رسول اللَّه ﷺ وكان أصحابه يسافرون بمال غيرهم مضاربة، ولم ينه عن ذلك، والسنة قوله وفعله وإقراره،

فلما أقرها كانت ثابتة بالسنة، والأثر المشهور فيها عن عمر رواه مالك في «الموطأ» ويعتمد عليه الفقهاء لما أرسل أبو موسىٰ بمال أقرضه لابنيه، واتجرا فيه وربحا، وطلب عمر أن يأخذ الربح كله للمسلمين لكونه خصهما بذلك دون سائر الجيش، فقال له أحدهما: لو خسر المال لكان علينا، فكيف يكون الربح وعلينا الضمان؟ فقال له بعض الصحابة: اجعله مضاربة فجعله مضاربة. وإنما قالوا ذلك لأن المضاربة كانت معروفة بينهم، والعهد بالرسول قريب لم يُحدث بعده، فعلم أنها كانت معروفة بينهم علىٰ عهد الرسول كما كانت الفلاحة وغيرها من الصناعات كالخياطة والخرازة.

وعلىٰ هذا فالمسائل المجمع عليها قد تكون طائفة من المجتهدين لم يعرفوا فيها نصًّا؛ فقالوا باجتهاد الرأي الموافق للنص، لكن كان النص عند غيرهم، وابن جرير وطائفة يقولون: لا ينعقد الإجماع إلا عن نص نقلوه عن الرسول، مع قولهم بصحة القياس، ونحن لا نشترط أن يكونوا كلهم علموا النص فنقلوه بالمعنىٰ كما نقلوا الأخبار، ولكن استقرينا موارد الإجماع فوجدناها كلها منصوصة، وكثير من العلماء لم يعلم النص وقد وافق الجماعة، كما أنه قد يجمع بقياس وفيها إجماع لم يعلمه فيوافق الإجماع، وكما يكون في المسألة نص خاص، وقد استدل فيها بعموم كاستدلال ابن مسعود وغيره بقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، وقال ابن مسعود: سورة النساء الصغرىٰ نزلت بعد الطولىٰ. أي بعد البقرة، وقوله: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ يقتضي انحصار الأجل في ذلك، فإن وجب عليها أن تعتد بأبعد الأجلين لم يكن أجلها أن تضع حملها، وعليٌّ وابن عباس وغيرهما أدخلوها في عموم الآيتين، وجاء النصف في قصة سبيعة الأسلمية بما يوافق قول ابن مسعود، وكذلك لما تنازعوا في المفوضة التي مات زوجها هل لها مهر المثل؟ أفتىٰ ابن مسعود برأيه أن لها مهر المثل، ثم رووا حديث بروع بنت واثق بما يوافق ذلك، وقد

خالفه علي وزيد وغيرهما، فقالوا: لا مهر لها.

فثبت أن بعض المجتهدين قد يفتي بعموم أو قياس ويكون في الحادثة نص لم يعلمه فيوافقه، ولا يعلم مسألة واحدة اتفقوا علىٰ أنه لا نص فيها، بل عامة ما تنازعوا فيه كان بعضهم يحتج فيه بالنصوص، وأولئك يحتجون بنص كالمتوفىٰ عنها الحامل هؤلاء احتجوا بشمول الآيتين لها والآخرون قالوا: إنما تدخل في آيات الحمل فقط، وأن آية الشهور في غير الحامل، كما أن آية القروء في غير الحامل.

وكذلك لما تنازعوا في الحرام احتج من جعله يمينًا بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [التحريم]. وكذلك تنازعوا في المبتوتة هل لها نفقة أو سكنىٰ احتج هؤلاء بحديث فاطمة، وأن السكنىٰ التي في القرآن للرجعية، وأولئك قالوا: بل هي لهما، ودلالات النصوص قد تكون خفية، فخص اللَّه بفهمها بعض الناس كما قال علي: إلا فهمًا يؤتيه اللَّه عبدًا في كتابه، وقد يكون النص بينًا ويذهل المجتهد عنه، كتيمم الجنب، فإنه بينٌ في القرآن في آيتين، ولما احتج أبو موسىٰ علىٰ ابن مسعود بذلك قال الحاضر: ما درىٰ عبداللَّه ما يقول، . إلا أنه قال: لو أرخصنا لهم في ذلك لأوشك أحدهم إذا وجد البرد أن يتيمم.

وقد قال ابن عباس وفاطمة بنت قيس وجابر إن المطلقة في القرآن هي الرجعية بدليل قوله: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١] وأي أمر يحدثه بعد الثلاثة؟.

وقد احتجت طائفة علىٰ وجوب العمرة بقوله: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٩٦] واحتج بهذه الآية من منع الفسخ، وآخرون يقولون: إنما أمر بالإتمام فقط، وكذلك أمر الشارع أن يتم، وكذلك في الفسخ قالوا: من فسخ العمرة إلىٰ غير حج فلم يتمها ـ أما إذا فسخها ليتم من عامه؛ فهذا قد أتىٰ بما تم مما شرع فيه، فإنه شرعه ﷺ لأصحابه عام حجة الوداع.

وتنازعوا في الذي بيده عقدة النكاح، وفي قوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة: ٦]، ونحو ذلك مما ليس هذا موضع استقصائه وأما مسألة مجردة اتفقوا فيها علىٰ أنه لا يستدل فيها بنص جلي أو خفي فهذا ما أعرفه، والجد لما قال أكثرهم: إنه أب استدلوا علىٰ ذلك بالقرآن بقوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال ابن عباس: لو كانت الجن تظن أن الإنس تسمي أب الأب جدًّا لما قالت: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ٣]، نقول: إنما هو أب لكن أب أبعد من أب.

وقد روي عن علي وزيد أنهما احتجا بقياس، فمن ادعىٰ إجماعهم علىٰ ترك العمل بالرأي والقياس فقد غلط، ومن ادعىٰ أن من المسائل ما لم يتكلم فيها أحد منهم إلا بالرأي والقياس فقد غلط، بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم فمن رأىٰ دلالة الكتاب ذكرها، ومن رأىٰ دلالة الميزان ذكرها، والدلائل الصحيحة لا تتناقض، ولكن قد يخفىٰ وجه اتفاقهما أو ضعف أحدهما علىٰ بعض العلماء، وللصحابة فهم في القرآن يخفىٰ علىٰ أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفه بأمور من السنة وأحوال الرسول لا يعلمها أكثر المتأخرين، فإنهم شهدوا التنزيل وعاينوا الرسول وعرفوا من أقواله وأحواله ما يستدلون به علىٰ مرادهم مما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك، فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماع أو قياس.

ومن قال من المتأخرين إن الإجماع مستند إليه معظم الشريعة فقد أخبر عن حاله، فإنه لنقص معرفته بالكتاب والسنة احتاج إلىٰ ذلك، وهذا كقولهم: إن أكثر الحوادث يحتاج فيها إلىٰ القياس لعدم دلالة النصوص، فإنما هذا قول من لا معرفة له بالكتاب والسنة ودلالتهما علىٰ الأحكام، وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو في نظيرها، فإنه لما افتتحت البلاد وانتشر الإسلام حدثت جميع أجناس الأعمال فتكلموا بالكتاب والسنة، وإنما تكلم بعضهم بالرأي في مسائل قليلة.

والإجماع لم يكن يحتج به عامتهم ولا يحتاجون إليه، إذ هم أهل الإجماع فلا إجماع قبلهم، لكن لما جاء التابعون كتب عمر إلي شريح: اقض بما في كتاب اللَّه، فإن لم تجد فبما في سنة رسول اللَّه، فإن لم تجد فبما قضىٰ به الصالحون قبلك، وفي رواية: فبما أجمع عليه الناس، فقدم عمر الكتاب ثم السنة وكذلك ابن مسعود قال مثل ما قال عمر، قدم الكتاب ثم السنة ثم الإجماع، وكذلك ابن عباس كان يفتي بما في الكتاب، ثم بما في السنة، ثم بسنة أبي بكر وعمر لقوله ﷺ: «**اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر**»(١) وهذه الآثار ثابتة عن عمر وابن مسعود وابن عباس، وهم أشهر الصحابة بالفتيا والقضاء، وهذا هو الصواب.

ولكن طائفة من المتأخرين قالوا: يبدأ المجتهد ينظر أولًا في الإجماع فإن وجده لم يلتفت إلىٰ غيره، وإن وجد نصًّا خالفه اعتقد أنه منسوخ بنص لم يبلغه، وقال بعضهم: الإجماع نَسَخَهُ.

والصواب طريقة السلف؛ وذلك لأن الإجماع إذا خالفه نص فلابد أن يكون مع الإجماع نص معروف به أن ذلك منسوخ، فأما أن يكون النص المحكم قد ضيعته الأمة وحفظت النص المنسوخ فهذا لا يوجد قط، وهو نسبة الأمة إلىٰ حفظ ما نُهيت عن اتباعه وإضاعة ما أمرت باتباعه، وهي معصومة عن ذلك.

ومعرفة الإجماع قد تتعذر كثيرًا أو غالبًا، فمن الذي يحيط بأقوال المجتهدين؟ بخلاف النصوص فإن معرفتها ممكنة متيسرة، وهم إنما كانوا يقصدون بالكتاب أولًا؛ لأن السنة لا تنسخ الكتاب فلا يكون في القرآن شيء منسوخ بالسنة، بل إن كان فيه منسوخ كان في القرآن ناسخه، فلا يقدم غير القرآن عليه، ثم إذا لم يجد ذلك طالبه في السنة، ولا يكون في السنة شيء منسوخ إلا والسنة نسخته؛ لا ينسخ

(١) رواه التِّرمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧).

السنة إجماع ولا غيره، ولا تُعارض السنة بإجماع وأكثر ألفاظ الآثار، فإن لم يجد فالطالب قد لا يجد مطلوبه في السنة مع أنه فيها، وكذلك القرآن فيجوز له إذا لم يطلبه في القرآن أن يطلبه في السنة، وإذا كان في السنة لم يكن ما في السنة معارضًا لما في القرآن، وكذلك الإجماع الصحيح لا يعارض كتابًا ولا سنة. انتهىٰ كلامه ـ قدس اللَّه روحه ـ وإني نقلته لعظم فائدته وشمولها في هذا الشأن.

وأما الذي استطرده من إقراض أبي موسىٰ لابني عمر من مال اللَّه ليتجرا به ويؤديا أصله ويأكلا ربحه، وأن أمير المؤمنين عمر ضاق ذرعًا بذلك وأراد أن يجعل الربح كله للمسلمين، ولا يخصهما به علىٰ رأي أبي موسىٰ فهذا لأنه لم يحضره حديث: «**الخراج بالضمان**»[1]، ولو حضره لما أشكل عليه الأمر وبلغ به الورع إلىٰ هذا الحد، ولهذا ناقشه أحد بنيه بقوله: لو خسر المال لكان علينا فكيف الربح لغيرنا وعلينا الضمان؟ وقوله مصيب، فإن الربح جميعه لهما ما داما يتحملان الغرم لو خسرت التجارة، ولا يجوز لأحد مشاركتهما في الربح وهو ليس بضامن شيئًا، وأما مشورة بعض الصحابة بجعلها مضاربة، فهذا من باب الصلح الذي إذا حصل عليه التراضي انتهىٰ كل نزاع ولم يجز نقضه، وإلا فلو أصرا علىٰ رفض المضاربة وطلبا عليه التراضي وطلب جميع الربح؛ لكان لهما الحق الكامل فيه؛ لأن المضارب لا يضمن شيئًا من نقص المال لو خسرت البضاعة، ولكن هذا من ورع عمر المشهور وعدم اطلاعه علىٰ قول النبي ﷺ: «**الخراج بالضمان**»[2].

وأورد الراغب علىٰ استنباط الإمام الشافعي حجية الإجماع من هذه الآية ما نصه: إنه لا حجة فيها علىٰ ما ذكره؛ بأن كل موصوف

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٠٨)، والتِّرمذي (١٢٨٥)، والنسائي (٤٤٩٠)، وابن ماجه (٢٢٤٣).

(٢) تقدم تخريجه.

علق به حكم فالأمر باتباعه يكون في مأخذ ذلك الوصف، فإذا قيل: اقتد بالمصلي فالمراد في صلاته، فكذا سبيل المؤمنين يعني به سبيلهم في الإيمان لا غير، فلا دلالة في الآية علىٰ اتباعهم غيره، وورد بأنه تخصيص بما يأباه الشرط الأول، ثم إنه إذا كان مألوف الصائمين الاعتكاف تناول الأمر باتباعهم ذلك ـ أيضًا ـ، فكذلك يتناول ما هو مقتضىٰ الإيمان فيما نحن فيه، فسبيل المؤمنين وإن فسر بما هم عليه من الدين يعم الأصول والفروع، الكل والبعض، علىٰ أن الجزاء مرتب علىٰ كل من الأمرين المذكورين في الشرط لا علىٰ المجموع، للقطع بأن مجرد مشاقة الرسول كافية في استحقاق الوعيد، علىٰ معنىٰ أن ترك اتباع سبيل المؤمنين اتباع لغير سبيل المؤمنين؛ لأن المكلف لا يخلو من اتباع سبيل ألبتة انتهىٰ.

أقول: ينبغي قصر السبيل علىٰ ما كان عليه المصطفىٰ ﷺ وأصحابه من العقيدة والعمل، لا ما استحدثه خلف السوء بعد القرون المفضلة من العقائد والأعمال، وعلىٰ هذا فالمخالف لمعتقدات أهل الكلام فيما يسمونه التوحيد وهو منبثق من مذهب الجهمية ومعتمد علىٰ القوانين المنطقية التي يسمونها في جدلهم يقينية، ومخالف للنصوص الشرعية المسماة عندهم نقلية، والتي يزدرونها ويرفضون الاعتماد عليها، أقول: فالمخالف لمعتقدات هؤلاء في صفات اللَّه ونحوها ليس داخلًا في هذه الآية: ﴿يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء]، بل هم الداخلون في مدلول هذه الآية والمستحقون للوعيد، وأما المخالف لهم فهو علىٰ منهج المصطفىٰ ﷺ وأصحابه والتابعين لهم من المؤمنين المتمسكين بوحي اللَّه.

وكذلك المخالف لكثير من الطرق الصوفية في العبادات ليس متبعًا غير سبيل المؤمنين؛ لأن هؤلاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به اللَّه، وادعوا أنواعًا من الكشف والولاية التي يفضلونها علىٰ النبوة،

كما يفضلون خاتم الأولياء علىٰ خاتم الأنبياء، ويرون الحج إلىٰ قبور المقدسين عندهم أفضل بكثير من الحج إلىٰ بيت اللَّه الحرام، وفيهم من يعتقد الحلول ويعتقد من أجله الرقص، وفعل أقبح الفواحش عبادة مما ننزه تفسيرنا عن تفصيله، إلىٰ غير ذلك مما هو مشاقة للَّه ورسوله واتباع لغير سبيل المؤمنين، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١) أي مردود علىٰ صاحبه، فالمخالف لهؤلاء هو المتبع لسبيل المؤمنين باقتدائه بصاحب الرسالة ﷺ.

وكذلك المخالف للقبوريين علىٰ كثرتهم وكثرة العلماء المدافعين عنهم والسالكين طريقهم هو متبع لسبيل المؤمنين وليس مخالفًا لها، بل هم المشاقون للَّه ورسوله والمتبعون غير سبيل المؤمنين من سبل الشياطين المختلفة، فهم قريبون من غلاة الصوفية.

هذا وإن كل مبتدع بدعة في الإسلام منذ الخوارج والروافض والمعتزلة والنواصب وجميع ما تفرع من الجهمية مما عده العلماء قديمًا من الفرق الثنتين والسبعين فرقة كلها ـ أي كل حَمَلة مذاهبها من المشاقين لرسول اللَّه والمتبعين غير سبيل المؤمنين، وكذلك ما تجدد من المذاهب المبتدعة كالبابية والبهائية والقاديانية والتيجانية وغيرها من الطرق المخالفة لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ـ كلهم من المشاقين للرسول والمتبعين غير سبيل المؤمنين، وكذلك ما يتجدد من أنواع المخالفين لصراط اللَّه.

ومن أخطر وأفجر المشاقين للَّه والرسول والمتبعين غير سبيل المؤمنين ما أبرزته أجنحة المكر الماسونية اليهودية في عالمنا الحاضر من أهل الإلحاد الجديد كالشيوعية وفروعها، وكالقوميين علىٰ اختلاف حلقاتهم وموارباتهم في ضرب الإسلام وتحطيمه، وعملهم ضد المسلمين تحت مختلف الشعارات والأوصاف المبتكرة التي

---

(١) تقدم تخريجه.

كونت في محيطنا أنواعًا من الملحدين، ممن ينكر الجن ولا يؤمن بالمغيبات، ويتبجح بحصر الإيمان بالمحسوس وممن ينكر اليوم الآخر أو صفة العذاب فيه.

وممن يزعم أن محمدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رسول اللَّه إلىٰ العرب فقط دون غيرهم من الأمم، ومن يزعم أن القرآن متناقض، وأنه من تلفيق محمد، ومن يزعم أنه مرسل إلىٰ العرب الجاهليين الأميين عديمي العلوم والمعارف، وأن الناس في مثل هذا الزمان لا يحتاجون إلىٰ رسالة ولا هداية من خارج أنفسهم وضمائرهم، وأن الإسلام طائفي يجلب الخلافات والشقاق، بل هو وبال ذهب بأمن الحياة، ونحو ذلك مما عملوا به علىٰ تركيز القوميات في جميع الأمم والشعوب الإسلامية؛ ليعيدوها إلىٰ حالتها قبل الإسلام ويحلوا محل العقيدة الإسلامية الموحدة عقائد قومية جاهلية كامنة فيها جميع عوامل الفرقة والشقاق، وهم يركزون في أدمغة الناس وخصوصًا الناشئة أن الإسلام لا يصلح لهذا العصر، ولا يساير التطور، ولا يجوز أن يتدخل في السياسة، وأن أحكامه قاسية غير مناسبة للإنسانية، وأن تحريم المحرمات معطل للإرادة وصانع الإغراء، وأنه يجب أن يكون الوطن للجميع، وأن يكون الحب للوطن والعمل والبذل والتضحية للوطن لا للَّه رب العالمين، ونحو ذلك مما أباحوا به كل محرم، وشجعو الناس علىٰ فعل الفواحش بأنواع الانحلال والتعري.

فكل أرباب هذه المذاهب والأقاويل من أخطر وأفجر المبتغين غير سبيل المؤمنين، ولم يربح اليهود علىٰ مر الدهور والعصور من يعمل لصالحهم ويخدم قضاياهم أعظم خدمة وأكملها مثل ربحهم لهؤلاء الأصناف عن شعور منهم أو عن غير شعور، علىٰ الرغم من دعواهم حرب الصهاينة، فإنهم أخطر علىٰ الإسلام والمسلمين منها، وهم بمزاعمهم هذه جنايتهم علىٰ دين اللَّه أزيد من كل جناية، وخيانتهم للَّه ولرسوله أعظم من كل خيانة، ولم ينبَر أعداء لرسالة اللَّه علىٰ مدىٰ التاريخ

أعدىٰ من هؤلاء وأضل سبيلًا.

هذا وقد ذكر صاحب «المنار» في تفسيره لهذه الآية عشرة أصناف للناس في موقفهم من هداية اللَّه لا نطيل بنقلها بل نشير إليها للمراجعة، ثم تكلم علىٰ مدلول قول اللَّه: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥]، وأن أكثر المفسرين فسرها بالمعنىٰ اللغوي، أو علىٰ حسب مذهبه في الجبر والاختيار، وقال: إن هذه الجملة مبنية لسنة اللَّه في عمل الإنسان، ومقدار ما أعطيه من الإرادة والاستقلال والعمل بالاختيار، فالوجهة التي يتولاها في حياته، والغاية التي يقصدها من علمه يوليه اللَّه إياها ويوجهه لها، أي يكون بحسب سنته وليًّا لها وسائرًا علىٰ طريقها إلىٰ أن قال: وذهب بعضهم إلىٰ أن المراد من تولية اللَّه لمثل هذا ما تولىٰ هو ما يلزمها من عدم العناية والألطاف، بناءً علىٰ أن للَّه عناية خاصة ببعض عباده وراء ما تقتضيه سنته في الأسباب والمسببات ثم رد عليهم بقوله:

وليت شعري أيقول الذين فسروا التولية بِهذا النفي والحرمان من العناية والألطاف إن هذا الصنف وحده هو المحروم من ذلك، أم الحرمان شامل لغيره من أصناف الضالين؟ وهل يستلزم حرمانه من ذلك اليأس من هدايته ثانية أم لا؟ لا يمكنهم أن يقولوا في هذا الباب ما تقوم به الحجة ويسلم من الإيرادات التي لا تدفع، والصواب أنه لا مانع يمنع من عودة هذا الصنف من الضالين إلىٰ الهدىٰ، لأن علمه بحقيقة ما كان عليه وبطلان ما صار إليه لا يبرح يلومه ويوبخه علىٰ فعله.

أقول: هذا افتراض منه لا تؤيده حقيقة، إذ لو كان جازمًا، بأحقية ما كان عليه لم يرفضه إلىٰ غيره، ولكن علام الغيوب يعلم أن المشاق لرسوله، المتبع غير سبيل المؤمنين لم يسلك هذا المسلك إلا لمرض في قلبه، وقد يزيده مرضًا ويزيغ قلبه كما هي سنته ـ سبحانه وتعالى ـ في المنحرف، ثم قال: أما السبب الذي يحمل من تبين له الهدىٰ علىٰ تركه فلابد أن

يكون حالًا من الأحوال النفسانية القوية كالحسد والبغي وحب الرئاسة والكبر والشهوة الغالبة علىٰ العقل والعصبية للجنس، والقول الجامع فيه هو اتباع الهوىٰ كصدود اليهود الذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، ولكن جرهم الحسد والعناد وحب الرئاسة علىٰ أن لا يكونوا مرؤوسين للعرب، فاستحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ، وكارتداد جبلة بن الأيهم عن الإسلام لما رأىٰ أنه يسوي بينه وبين من لطمه من السوقة وهو ملك، وكارتداد أناس في أزمنة مختلفة لافتتانهم ببعض نساء الكفار.

وعلة ذلك كله، أي علىٰ تأثير هذه الأسباب في نفوس بعض الناس ـ هي ضعف النفس، ومرض الإرادة لعدم التربيةِ علىٰ تحمل ما لا تحبه في العاجل لأجل الخير الآجل، وهذا هو مرادنا من إرجاع جميع الأسباب إلىٰ اتباع الهوىٰ.

أقول: إن الهوىٰ جامع لأسباب الزيغ والضلالة، وليس السبب كله ضعف النفس، فإن من أخبث أنواع الهوىٰ الكبر والبغي والحسد والحقد الملتهب كما في اليهود وأفراخهم من الشيوعيين ونحوهم.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (١١٦)**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾:

هذا تكرير من اللَّه لفظاعة الشرك وسوء عاقبته، وقد أسلفنا طرفًا صالحًا من تفسير هذا الموضوع الخطير الشأن عند الكلام علىٰ الآية الثامنة والأربعين، وفي تكرير اللَّه سبحانه لحكم الشرك الفظيع وسوء عاقبته ست فوائد:

إحداها: أن عمومات الوعيد متعارضة، وأنه ﷻ ما أعاد آية من آيات الوعيد بلفظ واحد مرتين، وقد أعاد هذه الآية الدالة علىٰ المغفرة مرتين بلفظ واحد في سورة واحدة، وهذا يقتضي ترجيح الوعد علىٰ الوعيد، لأن رحمته سبقت غضبه فيمن لا يشرك به شيئًا.

ثانيها: أن هذا التكرار له مناسبة بأصحاب القضية الذين يختانون أنفسهم، لأن الذي تولىٰ كبره منهم بمباشرة جريمة السرقة وإخفائها ورمي غيره بها قد ارتد عن الإسلام وعاد إلىٰ الشرك، فلو كانت جريمته مقصورة علىٰ الذنوب لم يكن محرومًا من رحمة اللّٰه ومغفرته، ولكنها انتهت بالشرك.

ثالثها: احتواء أضواء التكرير علىٰ التأكيد والتشديد في أمر الشرك، وأن صاحبه يجمع بين جريمة الافتراء علىٰ اللّٰه التي هي أعظم جريمة، وبين الضلال عن الحق الحقيق بالقبول.

رابعها: أن القرآن الذي هو وحي اللّٰه المبارك العزيز ليس كتابًا قانونيًا ولا فنيًّا حتىٰ لا تتكرر عباداته ومواضيعه، بل هو كتاب هداية ومثان تأتي مكررة، وتتلىٰ لأجل الاعتبار والتيقظ ولاستبصار كل تارة في موضوع أو أمر مشروع، كقصص الأنبياء والمرسلين، وتكرار آيات الصلاة والزكاة وغيرهما من شعائر الإسلام؛ لأن العبرة والهداية إنما ترجىٰ بإيراد المعاني التي يراد إيداعها في النفوس في كل سياق يوجه اللّٰه النفوس إليها، أو يعدها ويهيئها لقبولها، ولا يتم ذلك إلا بتكرار المقاصد الأساسية من تلك المعاني، إذ لا يمكن أن تتمكن دعوىٰ عامة في النفوس إلا بالتكرار، ولذلك ترىٰ أهل المذاهب الدينية والسياسية الذين عرفوا سنن الاجتماع وطبائع البشر يكررون مقاصدهم في خطبهم ومقالاتهم بكل وسيلة في كل مناسبة.

خامسها: أن التكرار لفظاعة الشرك لزيادة في بيان منشئه وسوء عاقبته كما سيأتي.

وسادسها: أن التكرار إذا كان تكرارًا محضًا فإنه ليس منتقدًا في البيان ولا مخلًّا في البلاغة، بلىٰ هر الركن الركين الذي لا يبلغ المتكلم مراده من النفس بدونه، فكيف إذا لم يكن تكرارًا محضًا؟

وبما أن الشرك ضلال بعيد عن الصراط السوي، وهوة سحيقة بين

الخالق سبحانه والمخلوق، ويتكون منه ظلمات دامسة بعضها فوق بعض يتخبط بها صاحبه في حياته، كما يتكون منه افتراءات مترادفة لا نهاية لها ولا حصر، لأن الكذب يجر بعضه بعضًا، فلا جرم أن يكرر اللَّه شناعته وسوء عواقبه، فقد كرر اللَّه تشديده فيه، وأنه سبحانه لا يغفر لأحد من بني الإنسان شركه به ألبتة، ولكن قد يغفر ما دون الشرك حسب ما تقتضيه حكمته ورحمته ومشيئته بالمذنبين، وذلك أن عقوبات المعاصي أثر طبيعي لنتائجها، فمنه ما يغفره اللَّه، ومنها ما لا يغفره حسب الحكمة والمشيئة التي لا معقب لها، فنتائج المعاصي كنتائج السكر الحسي، تكون وخيمة أحيانًا، وتكون بسيطة أحيانًا، ومع هذا سماها اللَّه علىٰ لسان رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «**أم الخبائث**»(١) ويحصل لصاحبه من الإفاقة أكثر مما يحصل من الغيبوبة، وأما الشرك فهو سكر معنوي لا يفيق صاحبه ولا يرعوي عن غيه، أو يتقبل داعي الرشد ما دام الشرك مستحوذًا عليه ومسيطرًا، فالمعاصي كالأمراض التي في أطراف الإنسان وبعض جسمه غير المخطر يسهل علاجها، ويقوىٰ البدن علىٰ دفاعها إذا كان القلب عامرًا بالتوحيد، لأن القلب العامر به يدفع صاحبه إلىٰ أعمال صالحة متنوعة تقابل الذنوب أو تمحوها ويحصل من صاحبها انكسار أمام عظمة اللَّه الذي يؤمن به وضراعة إليه تنفعه، وأما الشرك فهو كالمرض الذي في القلب أو الدماغ، أو كالإصابة بجرح خطير لا يمكن علاجه، فالفرق عظيم بين المعاصي التي يفعلها المؤمن بغفلة وجهالة أو غلبة شهوة أو قوة وسوسة، أو تأثير قرناء السوء وبين الشرك الذي هو منتهىٰ فساد الأرواح وضلال العقول، وسفاهة النفس، وانقلاب التصورات علىٰ عكس الحقيقة، فأهله علىٰ حد ما وصفهم اللَّه بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وأن جميع الأعمال الصالحة مهما كثرت وتوفرت في مشرك فإنها

---

(١) رواه النسائي (٥٦٦٦).

لا تقوىٰ علىٰ إضعاف شرور شركه فضلًا عن العروج بروحه إلىٰ ربه؛ لأن روحه في الآخرة تكون علىٰ ما كانت عليه في الدنيا متعلقة بشركاء يحولون بينها وبين الخلاص إلىٰ ربها ﷻ، وهو سبحانه لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم، وحكم الشرك واحد في عاجله ومستقبله، سواء كان بعبادة الأصنام أو اتخاذ أنداد من دون اللَّه، أو جعل وسائط بينه وبين الناس من المقبورين المزعوم صلاحهم والأحياء الدجاجلة.

وأنداد المشركين تختلف، فأحيانًا تكون من الأحبار والرهبان ورجال الكهنوت، وأحيانًا تكون بمبادئ عصبية أو مادية، أو حب وتقديس للأرض وإخلاد إليها، وجعل العمل من أجلها والحياة في سبيلها، كما تجد الشرك بذلك بأنواع الوطنيات والقوميات والمذاهب المادية التي تفاقم شرها في هذا الزمان وحلت محل الدين والعقيدة، بل زادت علىٰ قيمة كل دين وعقيدة كما يقوله القروي المشرك:

بلادَك قدِّمها علىٰ كل مِلَّةٍ ... ومن أجلِها أفطِرْ ومن أجلها صُمِ

فلم يبق للَّه شيء في الحياة علىٰ حد تعبير هذا الشاعر الذي أصبح مقدسًا عند المتفرنجين.

قال أبو البقاء: الشرك أنواع: شرك الاستقلال، وهو إثبات إلهين مستقلين كشرك المجوس، وشرك التبعيض، وهو تركيب الإله من آلهة كشرك النصارىٰ، وشرك التقرب وهو عبادة غير اللَّه؛ ليقرب إلىٰ اللَّه زلفىٰ كشرك متقدمي الجاهلية، وشرك التقليد وهو عبادة غير اللَّه تبعًا للغير، كشرك متأخري الجاهلية، وشرك الأسباب وهو إسناد التأثير للأسباب العادية كشرك الفلاسفة والطبائعيين ومن تبعهم علىٰ ذلك، وشرك الأغراض وهو العمل لغير اللَّه. فبحكم الأنواع الأربعة الأولىٰ الكفر بإجماع، وحكم السادس المعصية من غير كفر بإجماع، وحكم الخامس التفصيل: فمن قال في الأسباب العادية أنها تؤثر بطبعها قد حُكي الإجماع علىٰ كفره، ومن قال: إنها تؤثر بقوة أودعها

اللَّه فيها فهو فاسق. انتهىٰ.

أقول: وكذلك النوع السادس الذي هو شرك الأغراض فيه تفصيل، فمن كان يعمل لغير اللَّه رياء وسمعة في بعض الأحيان والمناسبات بدون مواصلة لذلك وثبات عليه طيلة عمره فهذا معصية، لأنه الشرك الأصغر، وإن كان العامل لغير اللَّه مواصلًا عمله، وثابتًا عليه طيلة عمره ومصرًّا عليه فإنه ينقلب شركًا أكبر بسبب الإصرار الذي لا ينشأ من توحيد خالص.

وقد تجدد في هذا الزمان شرك أغراض مقصود يقصد به صرف الوجوه عن اللَّه إلىٰ غيره من المحبوبات الثمانية أو أكثرها، وحصر العمل جميعه لها، والاتجاه لها والتضحية في سبيلها، وتفضيلها وإيثارها كل الإيثار علىٰ حب اللَّه ورسوله، والعمل في سبيله، وهي المذكورة في الآية (٢٤) من سورة التوبة.

وقد أشار الشاعر القروي المشرك إلىٰ واحد منها فقط، ومشكلة أكثر المسلمين اليوم منحصرة في هذا الشرك بتفضيل محبة هذه الأشياء الثمانية علىٰ حب اللَّه ورسوله، وحصر العمل لها والتضحية في سبيلها، فتجد أكثرهم شغوفًا بحب المال وجمعه، لا يستعين به علىٰ القيام بواجب ربه من النصح له ولكتابه بحمل رسالته وتوزيع هدايته، والنصح لرسوله بجعل هذا المال وقاء وفداء لسنته يذبُّ به عنها طعن الطاعنين وانتحال المبطلين وتحريف الغاوين وتأويل الجاهلين، بل لإشباع نَهمته، ونيل شهواته، وخدمة نفسه، والجمع لأولاده، وتأسيس العمارات الضخمة لتأمين مستقبلهم كما يزعم بالرغم من أن والده لم يؤمن مستقبله، ولكن اللَّه حقق له المستقبل الحسن في الدنيا، هذا مقصده في المال، ومقصده في الأزواج قد يكون علىٰ خلاف بما يحبه اللَّه منه، ومقصده بحب الأولاد ليس لأجل الجهاد في سبيل اللَّه وحمل الدعوة، ولو كان لهذا الغرض لم يكن

حبه لهم أفضل من حب اللَّه، بل كان في اللَّه وتابعًا لمحبته، لكن عدم ذلك جعله يربيهم تربية مادية خالية من الروحانية الصحيحة، فصاروا كالأنداد للَّه، يكرس جميع مجهوداته في سبيلهم.

وكذلك المحبة لقومه وعشيرته ليست لأجل الاستعانة بهم علىٰ الجهاد في سبيل اللَّه والزحف برسالته إلىٰ الأمام، ولكن ليستطيل بهم علىٰ غيرهم، ويستعين بهم في أغراضه المادية والخدمة المذهبية، وكذلك حبه للوطن ليس لكونه معقلًا لدينه، أو موئلًا لأهل اللَّه يهاجرون إليه، أو منطلقًا لرايات الجهاد والزحف بالدعوة، كلا، ولكنه إخلاد إلىٰ الأرض ورغبة خاصة به حتىٰ ولو لم يكن محكومًا بالإسلام، فيفضله في المحبة علىٰ الوطن الإسلامي الذي يجب عليه الالتحاق به، وقد بلغ بهم حب القومية والوطنية أن يكون علىٰ خلاف ما يحبه اللَّه، وأن يكون قتالهم للأعداء في سبيلهما، لا في سبيل اللَّه، وبذلهم التبرعات والتضحيات كذلك، حتىٰ صاروا مبتورين من نصر اللَّه، فتتسلط عليهم الكفار لولا ازدحام المطامع في بعض الأحيان، هذا بعض تصوير الشرك المتجدد من شرك الأغراض عند المسلمين أو المحسوبين علىٰ الإسلام.

قال ابن القيم: في كتابه «الجواب الكافي» الشرك بالرب تعالىٰ نوعان: شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرىٰ معه، وشرك به في معاملته، وهذا قد لا يوجب دخول النار وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع اللَّه غيره، وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القول علىٰ اللَّه بغير علم في خلقه وأمره، فمن كان من أهل هذه الأمور فقد نازع اللَّه ﷻ ربوبيته وملكه، وجعل له ندًّا وهذا أعظم الذنوب عند اللَّه ولا ينفع معه عمل، وقال بعد ذلك: وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال: إن اللَّه ﷻ أرسل وأنزل كتبه وخلق السموات والأرض ليعرف ويعبد ويوحد ويكون الدين كله له، والطاعة كلها له، والدعوة كلها له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

﴿٥٦﴾ [الذاريات]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق]، وقال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة].

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته، وأن يعبد وحده لا شريك له، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل، ومن أعظم القسط التوحيد، بل رأس العدل وقوامه، وأن الشرك لظلم عظيم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو من أوجب الواجبات وأفرض الطاعات.

فتأمل هذا الأصل حق التأمل، واعتبر به تفاصيله تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرض علىٰ عباده وحرمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي، فلما كان الشرك بالله منافيًا بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر علىٰ الإطلاق، وحرم الله الجنة علىٰ كل مشرك وأباح دمه وماله لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيدًا لهم لمَّا تركوا القيام بعبوديته، وأبىٰ الله أن يقبل من مشرك عملًا، أو يقبل فيه شفاعة أو يستجيب له في الآخرة دعوة، أو يقيل له فيها عثرة، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه ندًّا، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك

لم يظلم ربه ولكن ظلم نفسه.

ووقعت مسألة وهي أن المشرك إنما قصد تعظيم جناب الرب ﷻ، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية، وإنما قصد تعظيمه وقال: إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني وتدخلني عليه، فهو المقصود وهذه وسائط وشفعاء، فلم كان هذا القدر موجبًا لسخطه وغضبه ﷻ ومخلدًا في النار وموجبًا لسفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم؟ وترتب علىٰ هذا سؤال آخر وهو أنه هل يجوز أن يشرع اللَّه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط؟ فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع أم ذلك قبيح في النظر والعقول يمتنع أن تأتي به شريعة، بل جاءت بتقرير ما في الفطر والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح؟ وما السبب في كونه لا يغفره من دون سائر الذنوب كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

فتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك علىٰ جوابه ولا تستهونه، فإن به يظهر الفرق بين المشركين والموحدين والعالمين باللَّه والجاهلين به، وأهل الجنة وأهل النار، فنقول ـ وباللَّه التوفيق والتأييد، ومنه نستمد المعونة والتسديد فإنه من يهد اللَّه فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له، ولا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع ـ: الشرك شركان: شرك يتعلق بعبادته ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد أنه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، والشرك الأول نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون القائل ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال تعالىٰ مخبرًا عنه أنه قال: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر]، فالشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطل، وكل معطل مشرك، لكن الشرك لا يستلزم أصل

التعطيل، بل قد يكون المشرك مقرًّا باللَّه سبحانه وصفاته، ولكن عطل حق التوحيد.

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه، وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد، ومن هنا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون: ما ثم خالق ولا مخلوق، ولا هنا شيئان بل الحق المنزه وهو عين الحق المشبه، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه ليس معدومًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأثرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها يسمونها العقول والنفوس، ومن هذا أشرك من عطل أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة، فلم يثبتوا له اسمًا ولا صفة، بل جعلوا المخلوق أكمل منه، إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها وهذا هو النوع الأول.

النوع الثاني: شرك من جعل معه سبحانه إلهًا آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته وصفاته كشرك النصارى الذي جعلوه ثالث ثلاثة، فجعلوا المسيح وأمه إلهًا، ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة، ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه، وأنها تحدث بدون مشيئة اللَّه وقدرته وإرادته، ولهذا كانوا من أشباه المجوس، ومن هذا شرك الذي حاج إبراهيم في ربه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فجعل نفسه ندًّا للَّه يحيي ويميت بزعمه كما يحيي اللَّه ويميت، فألزمه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي اللَّه بها منها، وليس هذا انتقالًا كما زعمه بعض أهل الجدل، بل إلزامًا على طرد الدليل إن كان حقًّا.

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها أربابًا مدبرة لأمر هذا العالم كما هو مذهب الصابئة وغيرهم، ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم، ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله علىٰ الحقيقة ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة، وأنه إذا خصه بعبادته والتوسل إليه أقبل إليه واعتنىٰ به، ومنهم من يزعم أنه معبودهم الأدنىٰ يقربهم إلىٰ المعبود الذي هو فوقه، والفوقاني يقربه إلىٰ من هو فوقه، حتىٰ تقربه تلك الآلهة إلىٰ اللَّه سبحانه فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل.

وأما الشرك في العبادة فهو أسهل من هذا الشرك وأخف أمرًا، فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا اللَّه، وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع إلا اللَّه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، ولكن لا يخلص للَّه في عبادته ومعاملته، بل يعمل لحظ نفسه تارة، وطلب الدنيا تارة، وطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة، فلله من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحظه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب، وهذا حال أكثر الناس وهو الشرك الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه ابن حبان في صحيحه: «**الشرك في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل**» قالوا: كيف ننجو منه يا رسول اللَّه؟ قال: «**قل اللَّهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»[(١)] فالرياء كله شرك، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، أي كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالألوهية يجب أن ينفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة، وكان من دعاء عمر بن الخطاب: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٦).

وهذا الشرك في العبادة يبطل العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله، فيعاقب علىٰ ترك الأمر، فإن اللَّه سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

فمن لم يخلص للَّه في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتىٰ به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول تعالىٰ في حديث قدسي: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(١) وهذا الشرك ينقسم إلىٰ مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر، والنوع الأول ينقسم إلىٰ كبير وليس شيء منه مغفورًا، فمنه الشرك باللَّه في المحبة والتعظيم بأن يحب المخلوق كما يحب اللَّه، فهذا من الشرك الذي لا يغفره اللَّه، وهو الشرك الذي قال اللَّه فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف]، ومعلوم أنهم ما سووهم به في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل.

وهذا غاية الجهل والظلم فكيف يسوىٰ من خلق من التراب برب الأرباب؟ وكيف يسوىٰ العبد بمالك الرقاب؟ وكيف يسوىٰ الفقير بالذات، والضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته إلا العدم، الغني بالذات، القادر بالذات، الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته؟ فأي ظلم أقبح من هذا؟ وأي حكم أشد جورًا منه؟ حيث عُدل من لا عدل له بخلقه كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام]، فَعَدَلَ المشرك

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

من خَلَقَ السموات والأرض وجعل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره ذرة في السموات ولا في الأرض، فيا له من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه؟ وأقول: يرحمك اللَّه يا ابن القيم وشيوخك، لو رأيتم أبناء المسلمين في هذا الزمان يحبون الدجاجلة الفجرة والطواغيت الظلمة أعداء الحق وجلادي أهله، حتىٰ الطواغيت من خنازير اليهود الذين نبشوا الشيوعية المزدكية وأقاموها في «أوربا» أمثال «ماركس، ولينين» وطغاته الذين فتكوا بالمسلمين وبطشوا بهم في حالة لا يعرف التاريخ لها مثيلًا، حيث أعدموا وأهلكوا عشرات الملايين من المسلمين، ودفنوا بعضهم وهم أحياء كما نصت التقارير الطبية الألمانية علىٰ ذلك، واعترف به بعض المنفذين له من عبيدهم، فيقدسون هؤلاء بتعظيمهم وحمل تصاويرهم وتقبيلها، حتىٰ إن بعض المحسوبين علي الإسلام يستعمل طوابع البريد الحاملة لصورة «لينين» التذكارية، وبعضهم يجبر الرعايا علىٰ إلصاقها بالبريد متعاميًا عن وصيته المشهورة بدولة «إسرائيل» ويحبون اتباع مذهبهم من العرب المفتونين بهم، بل من طواغيت النصارىٰ مؤسسي البعثية والاشتراكية الكاذبة، يحبونهم حب تقديس وتعظيم واقتداء وبذل وتضحية، واعتقاد أحقيتهم وعدالة قضيتهم، وصدق دجلهم مما هو مخالف لدين اللَّه وملة إبراهيم ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ حيث يحبون أخبث المحادين للَّه ورسوله وأقبحهم واللَّه يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. إنهم ورب الكعبة يحبون هؤلاء ويعظمونهم، وبعضهم يحب الزعماء القوميين العلمانيين، ويعظمهم حبًّا وتعظيمًا وانقيادًا لا يحظىٰ به منهم رب العالمين، ويحل كلامهم وتصريحاتهم الدجلية في القلوب ما لا يحل بها وحي رب العالمين، مع أن كلاًّ من هؤلاء وهؤلاء يلتقون في حقيقة الإلحاد وتطبيقه عن رغبة واقتناع، وإن اختلفت صيغته، أو اختلفت أحوال أهله في الصراحة والنفاق؛ لأن من لم يصرح منهم بمحادة

اللَّه ورسوله ومشاقتهما لفظيًّا يطبقها عمليًّا، ويعادي الدعاة إلىٰ اللَّه ورسوله، فمحبتهم كلها شرك فظيع مناقض للتوحيد من أساسه، ولو لم نشاهد صنيعهم لم نصدق ما يكتب عنهم من إعلان إباحة ما حرم اللَّه من الخمور والفواحش، وتشجيعهم علىٰ ذلك ببث شتىٰ المغريات، ورفض شريعة اللَّه مع انتقاص دين اللَّه وتحقير أهله، وتصريح بعضهم قولًا وعملًا بما لم يجرؤ عليه كافر في غابر القرون، واللَّه المستعان.

ثم قال ابن القيم: ويتبع هذا الشرك به سبحانه في الأقوال والأفعال والإرادات والنيات، فالشرك في الأفعال كالسجود لغيره، والطواف بغير بيته، وحلق الرأس عبودية وخضوعًا لغيره وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمين اللَّه في الأرض، وتقبيل القبور واستلامها والسجود لها، وقد لعن النبي ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلىٰ للَّه فيها، فكيف بمن اتخذوا القبور أوثانًا يعبدونها من دون اللَّه؟

وفي الصحيحين عنه أنه قال: «**لعنة اللَّه علىٰ اليهود والنصارىٰ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١).

وفي الصحيح عنه: «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد**»(٢).

وفي الصحيح ـ أيضًا ـ عنه: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»(٣).

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عنه ﷺ: «لعن رسول اللَّه ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).
(٢) رواه مسلم (٧٠٦٧).
(٣) رواه مسلم (٥٣٢).
(٤) رواه أبو داود (٣٢٣٦)، والتِّرمذي (٣٢٠)، والنسائي (٢٠٤٣).

وقال: «**اشتد غضب اللَّه علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(١)].

وقال: «**إن من كان قبلكم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا علىٰ قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند اللَّه يوم القيامة**»[(٢)].

فهذا حال من يسجد للَّه في مسجد علىٰ قبر، فكيف حال من سجد للقبر نفسه؟ وقد قال ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»[(٣)]، وقد حمىٰ النبي جانب التوحيد أعظم حماية حتىٰ نَهَىٰ عن صلاة التطوع للَّه سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها، لئلَّا يكون ذريعة إلىٰ التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين، وسد الذريعة بأن منع الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس.

وأما السجود لغير اللَّه فقال: «**لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا للَّهِ**»[(٤)]، و«لا ينبغي» في كلام اللَّه ورسوله ﷺ للذي هو في غاية الامتناع شرعًا كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾ [الشعراء]، وقوله عن الملائكة: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨].

ومن الشرك به سبحانه الشرك في اللفظ كالحلف بغيره كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال: «**من حلف بشيء دون اللَّه فقد أشرك**»[(٥)]، وصححه الحاكم وابن حبان.

ومن ذلك قول القائل للمخلوق: ما شاء اللَّه وشئت، كما ثبت عن

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (٤١٤).
(٢) رواه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).
(٣) تقدم قريبًا، وهو بعض حديث مالك في «الموطأ».
(٤) رواه ابن حِبَّان (٤١٦٢).
(٥) رواه أبو داود (٣٢٥١)، والتِّرمذي (١٥٣٥).

النبي ﷺ أنه قال له رجل: ما شاء اللَّه وشئت فقال: «**أجعلتني للَّهِ ندًّا؟ قل ما شاء اللَّه وحده**»(١).

وهذا مع أن اللَّه أثبت للعبد مشيئة كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير]، فكيف من يقول: أنا متوكل علىٰ اللَّه وعليك، وأنا في حسب اللَّه وحسبك، ومالي إلا اللَّه وأنت، هذا من اللَّه ومنك، وهذا من بركات اللَّه وبركاتك، واللَّه لي في السماء وأنت لي في الأرض، أو يقول: واللَّه وحياة فلان، أو يقول: نذرًا للَّه ولفلان، وأرجو اللَّه وفلانًا. ونحو ذلك.

فوازن بين هذه الألفاظ وبين قوله: «ما شاء اللَّه وشئت». ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك أن قائلها أولىٰ لجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة وأنه إذا كان جعله ندًّا للَّه بها، فهذا قد جعل من لا يداني رسول اللَّه ﷺ في شيء من الأشياء، بل لعله أن يكون من أعدائه جعله ندًّا لرب العالمين، فالسجود والعبادة والتوكل والإنابة والتقوىٰ والخشية والتحسب والتوبة والنذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعًا وتعبدًا، والطواف بالبيت والدعاء كل ذلك محض حق اللَّه لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

وفي مسند الإمام أحمد أن رجلًا أتي به إلىٰ النبي ﷺ قد أذنب، فلما وقف بين يديه قال اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلىٰ محمد فقال: «**قد عرف الحق لأهله**»(٢).

وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه اللَّه، ونوىٰ شيئًا غير التقرب إليه، وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته، والإخلاص

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٤).
(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٣٥).

أن يخلص للَّه في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر اللَّه بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الإسلام: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران] وهي ملة إبراهيم التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء.

وإذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور فنقول ـ ومن اللَّه وحده نستمد الصواب ـ: حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به، وهذا هو التشبيه في الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التي وصف اللَّه بها نفسه، ووصف بها رسوله ﷺ فعكس من نكس اللَّه قلبه وأعمىٰ عين بصيرته وأركسه بلبسه الأمر، وجعل التوحيد تشبيهًا والتعطيل تعظيمًا وطاعة.

فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الألوهية، فإن من خصائص الألوهية التفرد بملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا أفضل من غيره تشبيهًا بمن له الأمر كله، فأزمة الأمور كلها بيده، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد، فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير الذات، بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الألوهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلًا وشرعًا

وفطرة أن يكون له وحده، ويمتنع عقلًا وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئًا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له، ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره، مع أنه كتب علىٰ نفسه الرحمة.

ومن خصائص الألوهية العبودية التي قامت علىٰ ساقين لا قوام لها بدونهما غاية الذل مع غاية الحب، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطىٰ حبه وذله وخضوعه لغير اللَّه فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل عقل وفطرة، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم، وأفسدتها عليهم، واجتالتهم عنها، ومضىٰ علىٰ الفطرة الأولىٰ من سبقت له من اللَّه الحسنىٰ، فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرتهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نورًا علىٰ نور يهدي اللَّه لنوره من يشاء.

إذا عرف هذا فمن خصائص الألوهية السجود، فمن سجد لغير اللَّه فقد شبه المخلوق به، ومنها التوكل فمن توكل علىٰ غيره فقد شبهه به، ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به، ومنها الحلف باسمه تعظيمًا وإجلالًا فمن حلف بغيره فقد شبهه به، هذا جانب التشبيه، وأما في جانب التشبيه به فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلىٰ إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفًا ورجاء واستعانة والتجاء، فقد تشبه باللَّه ونازعه في ربوبيته وألوهيته وهو حق بأن يهينه اللَّه غاية الهوان، ويذله غاية الذلة، ويجعله تحت أقدام خلقه.

وفي الصحيح عنه ﷺ قال: «يقول اللَّه ﷻ: **العظمة إزاري والكبرياء ردائي؛ فمن نازعني واحدًا منهما عذبته**»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠).

وإذا كان المصور الذي يصنع الصور بيده من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؛ لتشبهه بالله في مجرد الصنعة، فما الظن بالتشبيه بالله في الربوبية والألوهية؟ كما قال النبي ﷺ: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون يقال لهم: أحيُوا ما خلقتم**»(١).

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**قال الله ﷻ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة**»(٢)؛ فنبه بالذرة والشعيرة علىٰ ما هو أعظم منهما وأكبر، والمقصود أن هذا حال من تشبه به في صنعة صورة، فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وألوهيته؟ وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده، كملك الأملاك، وحاكم الحكام ونحوه.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أن أخنع الأسماء عند الله رجل يسمىٰ بـ«شاهان شاه» ملك الملوك ولا ملك إلا الله، وفي لفظ: «**أغيظ رجل علىٰ الله رجل يسمىٰ بملك الأملاك**»(٣).

فهذا مقت الله وغضبه علىٰ من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا له، فهو سبحانه ملك الملوك وحده، وهو حاكم الحكام وحده، فهو الذي يحكم علىٰ الحكام كلهم، ويقضي عليهم كلهم لا غير.

تنبيه: حيثما وقع في الحديث: «**من فعل كذا فقد أشرك، أو فقد كفر**»، لا يراد به الكفر المخرج عن الملة، والشرك الأكبر المخرج عن الإسلام الذي تجري عليه أحكام الردة والعياذ بالله تعالىٰ.

وقد قال البخاري: «باب كفران العشير وكفر دون كفر».

قال القاضي أبو بكر العربي في شرحه: مراده أن يبين أن الطاعات كما تسمىٰ إيمانًا كذلك المعاصي تسمىٰ كفرًا، لكن بحيث يطلق عليه

---

(١) رواه البخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧).

(٢) رواه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

(٣) رواه البخاري (٦٢٠٥)، ومسلم (٢١٤٣).

الكفر لا يراد به الكفر المخرج من الملة، فالجاهل والمخطئ من هذه الأمة ولو عمل من الكفر والشرك ما يكون صاحبه مشركًا أو كافرًا فإنه يعذر بالجهل والخطأ حتىٰ تتبين له الحجة التي يكفر تاركها بيانًا واضحًا ما يلتبس علىٰ مثله وينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام مما أجمعوا عليه إجماعًا جليًّا قطعيًّا يعرفه كل من المسلمين من غير نظر وتأمل كما يأتي بيانه إن شاء اللَّه تعالىٰ، ولم يخالف في ذلك إلا أهل البدع، قال الشيخ تقي الدين في كتاب «الإيمان» لم يُكفر الإمام أحمد الخوارج ولا المرجئة ولا القدرية وإنما المنقول عنه وعن أمثاله تكفير الجهمية، مع أن أحمد لم يكفر أعيان الجهمية ولا كل من قال: أنا جهمي كفره، با صلىٰ خلف الجهمية الذين دعوا إلىٰ قولهم، وامتحنوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة.

ولم يكفرهم أحمد وأمثاله بل كان يعتقد إيمانهم وإمامتهم ويدعو لهم، ويرىٰ لهم الائتمام بالصلاة خلفهم، والحج والغزو معهم، والمنع من الخروج عليهم بما يراه لأمثالهم من الأئمة، وينكر ما أحدثوا من القول الباطل الذي هو كفر عظيم وإن لم يعلموا هم أنه كفر كان ينكره، ويجاهدهم علىٰ رده بحسب الإمكان، فيجمع بين طاعة اللَّه ورسوله ﷺ في إظهار السنة والدين وإنكار بدع الجهمية الملحدين، وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والأمة وإن كانوا جهالًا مبتدعين وظلمة فاسقين. انتهىٰ كلام الشيخ فتأمله تأملًا خاليًا من الميل والحيف.

وقال الشيخ تقي الدين ـ أيضًا ـ: من كان في قلبه الإيمان بالرسول وبما جاء به، وقد غلط بعض ما تأوله من البدع ولو دعا إليها فهذا ليس بكافر أصلًا، والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالًا للأمة وتكفيرًا لها، ولم يكن في الصحابة من يكفرهم لا عليّ ولا غيره، بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين كما ذكرت

الآثار عنهم في غير هذا الموضع، وكذلك سائر الثنتين والسبعين فرقة، من كان منهم منافقًا فهو كافر في الباطن، ومن كان منهم مؤمنًا باللَّه ورسوله في الباطن لم يكن كافرًا في الباطن، وإن كان أخطأ التأويل كائنًا ما كان خطؤه، وقد يكون في بعضهم شعبة من النفاق ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، ومن قال: إن اثنتين وسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفرًا ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة، فليس فيهم من كفر كل واحدة من الثنتين والسبعين فرقة. انتهىٰ.

وقال ابن القيم في طرق أهل البدع: الموافقون علىٰ أصل الإسلام ولكنهم مختلفون في بعض الأصول كالخوارج والمعتزلة والقدرية والرافضة والجهمية وغلاة المرجئة فهؤلاء أقسام:

أحدها: الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له، فهذا لا يكفر ولا يفسق ولا ترد له شهادة إذا لم يكن قادرًا علىٰ تعلم الهدىٰ، وحكمه حكم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

القسم الثاني: متمكن من السؤال وطلب الهداية ومعرفة الحق، ولكن يترك ذلك اشتغالًا بدنياه ورئاسته ولذاته ومعاشه، فهذا مفرط مستحق للوعيد، آثم بترك ما أوجب عليه من تقوىٰ اللَّه بحسب استطاعته، فهذا إن غلب ما فيه من البدعة والهوىٰ علىٰ ما فيه من السنة والهدىٰ ردت شهادته وإلا قبلت.

الثالث: أن يسأل ويطلب ويتبين له الهدىٰ ولا يترك تعصبًا أو معاداة لأصحابه، فهذا أقل درجاته أن يكون فاسقًا، وتكفيره محل اجتهاد. انتهىٰ كلامه.

وهذا القول منه ومن شيخه وأمثالهم ـ رحمهم اللَّه ـ مرتكز علىٰ الورع المجرد من معرفة خطط بعض المبتدعة، وتركيزهم لعقيدتهم

من سن الطفولة تركيزًا يصعب معه الإصغاء لقول الغير، فضلًا عن البحث عن الحق، وخصوصًا في هذا الزمان الذي نشطت فيه الجمعيات الماسونية اليهودية للتغلغل في كل مذهب، والعمل علىٰ تركيز الباطل بشتىٰ الأساليب، لكسب الفرقة والخلاف بين الطوائف، وتمزيق أمة الإسلام بِهذه الطريقة الخطيرة، مما أصبح معه تقسيم ابن القيم وغيره ضربًا من الافتراضات التي لا حقيقة لها، خصوصًا مع انقضاء زمن التقية التي انخدع بسببها كثير العلماء، يحسبون دعوىٰ الجهل في الخصم حقيقة، وما علموا أنه مكر ودهاء للتخلص.

إن مصيبة البدعة عويصة من أول أمرها، لأن صاحبها مقتنع بها ويرىٰ صوابها، فلا يبحث عن الحق وليس عنده استعداد لقبول ما يلقىٰ إليه من تفنيدها هذا في الزمن السابق، ولهذا كانت البدع من أكبر مطايا الشياطين وغاية أمنياتهم، فأما اليوم فقد ازدادت تعقيدًا، وأصبح أهلها دعاة يملكون من وسائل المكر والإقناع ما ليس عند أهل السنة له مثيل، يقابلونهم به، فأصبحت مشربة في القلوب، وعند أهلها من الجدل العقيم الذي يحاول أهله جذب غيرهم، خصوصًا بعد ما دخلت مذاهبهم الأغراض السياسية، وأصبحوا يعملون لتحصيل القيادة.

فعلىٰ علمائنا مقابلة التخطيط بتخطيط أقوىٰ منه، عسىٰ أن ينجحوا في الدعوة المحمدية، وأن لا ينشغلوا بالمهاترات، ولا يسمحوا لأعدائهم أن يشغلوهم بها أبدًا وإني لا أقول هذا رفضًا لقواعدهم في التكفير ـ حاشا ـ ولكن لبيان ما اختلف من واقع أهل البدع، حتىٰ لا يطمع المسلم في غير مطموع، أو يعيش بليدًا مغرورًا يقيس الآخرين علىٰ الأولين دون النظر إلىٰ الفوارق الكثيرة المستحدثة الخطيرة، فإن الذي يعيش هكذا لا يحسب للأمور حسابها ولا يقدر علىٰ التخلص مما يريد به أعداؤه.

وإني مقتنع بما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في جوابه علىٰ مسألة

التكفير، وأكتب هنا منها زبدته وهي قوله بعد تمهيده: وحقيقة الأمر في ذلك أن القول قد يكون كفرًا فيطلق القول بتكفير قائله، ويقال من قال كذا فهو كافر، لكن الشخص المعين الذي قاله لا يكفر حتىٰ تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها من تعريف الحكم الشرعي من سلطان أو أمير مطاع، كما هو المنصوص عليه في كتب الأحكام، فإذا عرفه الحكم وزالت عنه الجهالة قامت عليه الحجة، وهذا كما هو في نصوص الوعيد من الكتاب والسنة وهي كثيرة جدًّا، والقول بموجبها واجب علىٰ وجه العموم والإطلاق من غير أن يعين شخص من الأشخاص فيقال هذا كافر أو فاسق أو ملعون أو مغضوب عليه أو مستحق للنار، لا سيما إن كان للشخص فضائل وحسنات.. إلىٰ آخر كلامه، لكن ينبغي معرفة أمرين:

أحدهما: أن الحجة قائمة، ولكن مقصود الشيخ وغيره بإقامة الحجة هو فهمها علىٰ وجه يزول به التباس التأويل، وهذا من الصعوبة بمكان كبير، خصوصًا مع الأفراد، ولا يمكن تحقيقه إلا بإقامة محضر علمي لكبار المتزعمين بدعة أو قولًا باطلًا يحضره نخبة من علماء الأمصار، ولا نكتفي فيه بعلماء بلده الذين لا يقتنع بهم، فإذا ناقشوه وقطعوا حجته ودفعوا جميع شبهاته فهناك لا يبقىٰ له إلا تسليمه للحق، وإعلان رجوعه إعلانًا صحيحًا كتابيًّا يمحو به ما سبق وعَلِق في أذهان تابعيه ومقدسيه، أو يظهر عناده وإصراره وإعجابه بما هو عليه، فيحكم عليه بما يستحقه من أنواع الضلال.

وثانيهما: أن المشكلة اليوم ليست في التكفير وعدمه، بل هي في إحباط وسائل الهدم والتخريب، ولا يحصل ذلك إلا بمقاومة الشرك وتفصيل أنواعه الفظيعة ونتائجه الشنيعة، وكشف أباطيل المشركين، وتزييفاتهم المغرِّرة.

إن الرقيق الحقيقي قد يعصي سيده أو يهرب منه، لكن لا يخرجه عصيانه أو هروبه عن كونه عبدًا لسيده، وللسيد أن يعاقبه علىٰ ذلك

أو يعفو عنه، ولكنه لا يقبل منه ولا يغفر له أن يكون عبدًا لغيره لا عبودية كاملة ولا مبعضة ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر].

بل هم يجهلون أن شركاءهم الذين استكبروا امتيازهم عليهم بعلم أو عمل غير معتاد كبعض الأولياء والرؤساء والزعماء كلهم عبيد أمثالهم، لا ينبغي أن يكون لهم شركة ما في مقام العبادة، لا بدعاء ولا نداء وكذلك ما استكبروا خلقه أو نفعه أو ضره كالشمس والقمر والنجوم والكواكب والنار وبعض الأنهار والحيوانات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يدعونهم ويتوسلون بهم هم ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي: الوسيلة التي تقربهم إلىٰ اللَّه زلفىٰ وهي التوحيد والإخلاص والعمل الصالح ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي: أقربهم وأعلاهم منزلة كالملائكة والمسيح، يبتغي هذه الوسيلة إليه ﷻ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وإن أعرفهم باللَّه أشدهم خوفًا منه، ورجاء لفضله ورحمته.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون كما قال اللَّه ﷻ، فتجد الملايين منهم يدعون المسيح ويوجهون كل عبادتهم إليه تارة، ويذكرون اسم اللَّه تارة أخرىٰ، وتجد ملايين آخرين يدعون من هو دون المسيح من الأولياء، ويصمدون إلىٰ قبورهم أو إلىٰ الصور والتماثيل التي اتخذها قدماء المفتونين بهم تذكارًا لهم.

ومن الناس من يسمون أنفسهم موحدين وهم يفعلون مثل ما يفعله المشركون، ولكنهم يفسدون في اللغة كما يفسدون في الدين، فلا يسمون أفعالهم هذه عبادة وقد يسمونها توسلًا وشفاعة، ولا يسمون من يدعونهم من دون اللَّه أو مع اللَّه شركًا ولا أندادًا، ولكن لا يأبون أن يسموهم أولياء وشفعاء، كأنهم يجهلون أو يتجاهلون أن الحساب

والجزاء على الحقائق لا على الأسماء. ولو لم يكن منهم إلا دعاء غير الله والاستغاثة بغير الله لقضاء الحاجات وتفريج الكربات لكفى ذلك عبادة له وشركًا بالله.

وفي قوله سبحانه في الآيات (٥٦، ٥٧) من سورة الإسراء: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء] فوائد كثيرة دافعة لمزاعم القبوريين والمخرفين، فمنها أن في هذه الآيات الحجة على من تعلق بالأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألهم؛ لأن ذلك هو سبب نزول هذه الآيات، وقد نَهَىٰ الله عن ذلك أشد النهي، وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله، ينافي التوحيد الذي يدعون إليه، ويعاملون الله به، فهو مناف لشهادة أن ألا إله إلا الله المقتضية للإخلاص ونفي الشرك بأن لا يدعى إلا الله، ولا يرجى بالمحبة ولوازمها إلا هو، ولا يخشى إلا منه، ولا يستعان أو يستعاذ إلا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومنها: أن المدعو لا يملك للداعي كشف الضر ولا تحويله من مكان إلى مكان، ولا من صفة إلى صفة مهما كانت مرتبته، ملكًا مقربًا أو نبيًّا مرسلًا، وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون الله على الإطلاق، وأن دعوته تخون داعيه أحوج ما يكون إليها.

ومنها: أن أولئك الصالحين المدعوين دينهم التوحيد، يعملون به ويدعون إليه، يطلبون الوسيلة التي تقربهم من الله بالإخلاص له وطاعته في امتثال أمره واجتناب نَهيه، فيتقربون إليه بما يرضيه: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ دون من سواه، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ فقط ولا يخافون مما سواه أبدًا، فلا يبالون بأكبر عدو ولا بأضخم قوة ولا يخافون إلا مما يسخط الله فيجلب عليهم عذابه.

قال العلامة ابن القيم: في هذه الآية ذكر المقامات الثلاث، الحب:

وهو ابتغاء القرب إليه والتوسل إليه بالأعمال الصالحة، والخوف والرجاء، وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الإسلام كما وصفه النبي ﷺ بقوله: «**الإسلام أن تسلم قلبك، وتوجه وجهك إلىٰ اللَّه**»[(١)]، وفيها الرد علىٰ من زعم أن شرك المشركين إنما هو بعبادة الأصنام، فهذه الآيات أوضحت إنكار اللَّه علىٰ من دعا غيره من الأنبياء والملائكة والصالحين، فإنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه والعزير والملائكة، قال العماد ابن كثير: وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين، وعلىٰ هذا فدعاء الأموات والغائبين لجلب نفع أو دفع ضرر هو من الشرك الأكبر الذي لا يغفره اللَّه مع الإصرار، فمن تدبر هذه الآيات العظيمة تبين له حقيقة التوحيد وما ينافيه من الشرك الذي هو دعوة غير اللَّه علىٰ الإطلاق، وعلم أن من يدعو المقبورين والغائبين أسوأ حالًا بكثير ممن يدعو المسيح وأمه والعزير والملائكة ونحوهم من الأنبياء.

ومنها: أن في هذه الآيات بيان مخالفة المشركين لهؤلاء الذين يدعونهم في أصل الدين، أولئك المدعوون ملتزمون دين اللَّه في حصر طاعتهم ودعائهم له، ورجائهم له، وخوفهم منه. وقد قدم اللَّه المعمول؛ لأنه يفيد الحصر يعني يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة لا إلىٰ غيره.

فهذه الآيات تدل علىٰ أن جميع الصالحين الذين يدعونهم المشركون ويستغيثون بهم، إما توسلًا إلىٰ اللَّه بهم ليقضي حوائجهم، وإما استغلالًا بأن يطلبوا منهم قضاء الحوائج معتقدين أن اللَّه وهبهم التكوين والتصرف، إنهم في حياتهم مشغولون بأنفسهم يدعون اللَّه لها، ويتوسلون إليه بإخلاص عبادته راجين رحمته، خائفين من عذابه، وإذا لم يملكوا لأنفسهم نفعًا ولا دفع ضرر فكيف يملكون لغيرهم ذلك؟ وقال ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ

---

(١) رواه ابن حِبَّان (١٦٠).

عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ].

قال الشيخ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: نفىٰ اللَّه عما سواه جميع ما يتعلق به المشركون، فنفىٰ أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونًا للَّه، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولًا، ثم يقال له: ارفع رأسك وقل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع.

وقال أبو هريرة: مَن أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «**من قال: لا إله إلا اللَّه خالصًا من قلبه**»(١) فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن اللَّه، ولا تكون لمن أشرك باللَّه.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الكلام علىٰ هذه الآيات: وقد قطع اللَّه الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها، فالمشرك إما أن يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه. فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده، فنفىٰ اللَّه المراتب الأربع نفيًا مرتبًا منتقلًا من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ، فنفىٰ الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه، فكفىٰ بِهذه الآيات نورًا وبُهتانًا وتجريدًا للتوحيد وقطعًا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها.

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونها في نوع وقوم خلو من قبل

---

(١) رواه البخاري (٩٩).

ولم يعقبوا وارثًا، فهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر اللَّه إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك، وقال بعض أئمة الدعوة ـ رحمهم اللَّه: هذه الآيات تقطع عروق الشرك بأمور أربعة:

الأول: أنهم لا يملكون مثقال ذرة مع اللَّه، والذي لا يملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض لا ينفع ولا يضر، فاللَّه تعالىٰ هو الذي يملكهم ويدبرهم ويتصرف فيهم وحده.

الثاني: قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: وما لهم شرك مثقال ذرة من السموات والأرض.

الثالث: قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ والظهير المعين، فليس له معين من خلقه، بل هو الذي يعينهم علىٰ ما ينفعهم لكمال غناه عنهم، وضرورتهم إلىٰ ربهم فيما قل أو كثر.

الرابع: قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأخبر تعالىٰ أن من اتخذ شفيعًا من دونه حرم شفاعة الشفعاء، قال تعالىٰ في الآية (١٨) من سورة يونس: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس]؛ لأن اتخاذ الشفعاء شرك، لقوله تعالىٰ في حقهم: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والشرك منفية الشفاعة في حقه كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر]، وقال في الآية (٩٤) من سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ وذلك أن متخذ الشفيع لابد أن يرغب إليه ويدعوه ويرجوه ويخافه ويحبه لما يؤمله منه، وهذه من أنواع العبادة التي لا يصرف شيء منها لغير اللَّه، وذلك هو الشرك المنافي للإخلاص تمامًا.

وقال ابن القيم ـ أيضًا ـ ومن أنواعه ـ أي الشرك طلب الحوائج من الموتىٰ والاستغاثة بهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا فضلًا عمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلىٰ اللَّه، وهذا من جهله بالشافع عنده، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند اللَّه إلا بإذنه، واللَّه سبحانه لم يجعل استغاثته سببًا لإذنه، وإنما السبب كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها، هذه حالة كل مشرك، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ومعاداة أهل التوحيد، ونسبتهم إلىٰ التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بِهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان.

وما أكثر المستجيبين لهم! وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده للَّه، وعادىٰ المشركين في اللَّه، وتقرب بمقتهم إلىٰ اللَّه، واتخذ اللَّه وحده إلهه ومعبوده، فجرد حبه للَّه، وخوفه من اللَّه، ورجاءه للَّه، وذله للَّه، وتوكله علىٰ اللَّه، واستعانته باللَّه، والتجاءه إلىٰ اللَّه، واستغاثته باللَّه، وقصده كله للَّه متبعًا لأمره متطلبًا لمرضاته، وقال: فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه أي مع اللَّه تعالىٰ بعبادته له، وتوحيد الحب أن لا يبقىٰ في قلبه بقية حب حتىٰ يبذلها له، فهذا الحب وإن سمي عشقًا فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن تكون محبته لغير اللَّه تابعة لمحبة اللَّه تعالىٰ، فلا يحب إلا اللَّه كما في الصحيحين: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان**»[(١)].

---

(١) تقدم تخريجه.

ومحبة رسول اللَّه هي من محبة اللَّه، ومحبة المرء إن كانت للَّه فهي من محبة اللَّه، وإن كانت لغيره فهي منقصة لمحبة اللَّه، مضعفة لها، ويصدق هذه المحبة بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلىٰ اللَّه وهو الكفر؛ بمنزلة كراهيته لإلقائه في النار أو أشد، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة فإن الإنسان لا يقدم علىٰ محبة نفسه وحياته شيئًا، فإذا قدم محبة الإيمان باللَّه علىٰ نفسه بحيث لو خير بين الكفر وبين إلقائه في النار لاختار أن يلقىٰ في النار ولا يكفر كان اللَّه أحب إليه من نفسه.

وهذه المحبة هي فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبيهم، بل لا نظير لهذه المحبة كما لا مثل لمن تعلقت به، وهي محبة تقتضي تقديم المحبوب فيها علىٰ النفس والمال والولد وتقتضي كمال الذل والتعظيم والخضوع والإجلال والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطنًا.

وهذا لا نظير له في محبة المخلوق ولو كان المخلوق من كان، ولهذا من أشرك بين اللَّه وبين في هذه المحبة الخاصة كان مشركًا شركًا لا يغفره اللَّه كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] والصحيح أن معنىٰ الآية: أن الذين آمنوا أشد حبًّا للَّه من أهل الأنداد لأندادهم، كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلًا، كما لا يماثل محبوبهم غيره، وكل أذىٰ في محبة غيره فهو نعيم في محبته، وكل مكروه في محبة غيره فهو قرة عين في محبته.

ومن ضرب لمحبته الأمثال التي في محبة المخلوق للمخلوق، كالوصل والهجر والتجني بلا سبب من المحب، وأمثال ذلك مما يتعالىٰ اللَّه عنه علوًّا كبيرًا فهو مخطئ أقبح الخطأ وأفحشه وهو حقيق بالإبعاد والمقت. انتهىٰ.

قال شيخ الإسلام: الإخلاص محبة اللَّه وإرادة وجهه الكريم.

وبتحقيق معاملة اللَّه معاملة المحب لحبيبه بكل صدق وإخلاص؛ يتحقق ما يجب للَّه من الدين الخالص الذي يكسب أهله الوحدة والاتحاد، والقوة الحسية والمعنوية بتضامنهم وتكاتفهم كما حصل ذلك في القرون المفضلة بحمد اللَّه وفضله علىٰ يد من لم تعرف قلوبهم غير بضاعة التوحيد الخالصة، رافعين جميع البضائع المادية التي يكمن فيها أنواع وأنواع من الشرك المفرق للصفوف كما قال ﷺ: **«تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»**(١).

وقد قامت اليهود الذين هم أمة الفساد والإفساد بمكرهم وأحابيلهم لتمزيق هذه الوحدة العظيمة التي احتلت الصدارة في العالم مستغلة الموتورين من الفرس المجوس الذين انتظموا في سلك جمعياتها الماسونية، فخططوا بمكرهم اغتيال الخليفة الثاني علىٰ يد أبي لؤلؤة والهرمزان المجوسيين، ثم لما التأم الصدع خططوا للفتنة الكبرىٰ في قتل عثمان وما وراءها من الفتن التي هي من فروعها وكل هذا بتركيزهم الشرك المادي الذي هدف أهله التعلق بالأطماع وبالأغراض النفسية.

ولما رأوا التئام الصدع وعودة الخلافة والفتوح وإن كانت ليست كالأولىٰ أضافوا إلىٰ هذا الشرك شركًا يتقمص شيئًا من اسم الدين المزيف ينتحل تقديس القبور وخصوصًا المنسوبة إلىٰ أهل البيت، وذلك بتكوينهم جماعة عبيد بن القداح اليهودي وطغمته بالمغرب الأقصىٰ ليلعبوا علىٰ عقول البربر بعد ما لعبوا علىٰ بعض العرب في الشرق بتكوين مذاهب الابتداع التي تفاقم شرها في أواخر العصور العباسية، وبعد ما تكونت للعبيديين دولة في المغرب منتحلة اسم الفاطمية ـ وفاطمة وزوجها وأولادها الطاهرون برآء منهم ـ خططوا

---

(١) تقدم تخريجه.

للتمركز في مصر لتكون قاعدة لاحتلال الشرق ونشر الباطنية والزندقة فيه، فنجحوا في كثير مما أرادوا وروجوا الأفكار الباطنية والشرك الروحاني المتمثل بتقديس القبور واختلقوا أكذوبة رأس الحسين الذي حقق العلماء الربانيون أن ليس له وجود أصلًا في القاهرة ولا عسقلان ولا غيرهما، وإنما هو من كذب الدجالين والمنخدعين بهم فانتشر تقديس القبور في الأمصار.

والتقىٰ شر الفاطميين في الغرب بشر بني «بويه» في الشرق بمكر ماسوني مدروس وقد كثرت القبور المقدسة عند الجهال والمخالفين للتوحيد في كثير من بقاع الأرض، وهي من آثار أولئك الباطنيين الزنادقة، وعم بلاؤها وتفاقم شرها بواسطة بعض العلماء الماديين الانتهازيين ممن فيهم حب الطمع والجاه، وبواسطة دعايات السدنة لقبور المزعوم لهم ولاية، ودعايات الفسقة الذين اتخذوا من أعياد المشاهد وزياراتها مواسم للفساد، وغير ذلك من تشجيع شياطين الإنس، وقد عظمت الفتنة بأرباب القبور وصارت محطًّا للرجال العابدين المعظمين لها، فصرفوا جل العبادة من الدعاء والاستعانة والاستغاثة بها والتضرع والذبح لها والنذور وغير ذلك من أنواع الشرك.

قال ابن القيم: ومن جمع بين سنة رسول اللَّه ﷺ في القبور وما أمر به ونَهَىٰ عنه وما كان عليه وأصحابه وبين ما عليه أكثر الناس اليوم، رأىٰ أحدهما مضادًّا للآخر، مناقضًا له بحيث لا يجتمعان أبدًا. فنهىٰ رسول اللَّه ﷺ عن الصلاة إلىٰ القبور وهؤلاء يصلون عندها، ونَهَىٰ عن اتخاذها مساجد وهؤلاء يوقفون الوقوف علىٰ إيقاد السرج والقناديل عليها، ونَهَىٰ أن تتخذ عيدًا وهؤلاء يتخذونها أعيادًا ومناسك ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر، وأمر بتسويتها كما روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي: ألا أبعثك علىٰ ما بعثني رسول اللَّه ﷺ: أن لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته.

وما رواه مسلم ـ أيضًا ـ من حديث ثمامة بن شفّي عن فضالة بن عيد قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يأمر بتسويتها، وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعون القبور كالبيت ويعقدون عليها القباب.

ونَهَىٰ عن تجصيص القبر والبناء عليه، كما روىٰ مسلم في صحيحه عن جابر قال: نَهَىٰ الرسول ﷺ عن تجصيص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنىٰ عليه. ونَهَىٰ عن الكتابة علىٰ القبر كما روىٰ أبو داود في سننه عن جابر أن رسول اللَّه ﷺ نَهَىٰ عن تجصيص القبور وأن يكتب عليها قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره، ونَهَىٰ أن يزاد عليها غير ترابها كما روىٰ أبو داوود عن جابر ـ أيضًا ـ عنه ﷺ وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار، فهم مناقضون لما أمر به الرسول ﷺ ومحادون لما جاء به.

وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، وهو من الكبائر، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه، قال أبو محمد المقدسي: ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله؛ ولأن فيه تضييعًا للمال من غير فائدة وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام، وقال: ولا يجوز اتخاذ المساجد علىٰ القبور لهذا الخبر، ولأن النبي ﷺ قال: «**لعن اللَّه اليهود والنصارىٰ؛ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر مما صنعوا**»(١) متفق عليه، ولأن تجصيص القبور والصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام كان بتعظيم الأموات، وباتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها. انتهىٰ.

وقد ازداد شر هؤلاء الضلال بأن شرعوا الحج للقبور ووضعوا لها

---

(١) تقدم تخريجه.

مناسك حتىٰ إن بعض غلاتهم صنف كتابًا سماه «مناسك حج المشاهد» مضاهاة منه للقبور بكعبة اللَّه، وبعضهم يعلن أفضلية الحج إلىٰ قبر الولي الفلاني علىٰ الحج إلىٰ الكعبة البيت الحرام بأضعاف مضاعفة ولا تخفىٰ أن هذا مفارقة لدين الإسلام ودخول في دين عباد الأصنام.

ومن أضرار هذه البلوىٰ المخالفة للشارع تعظيم المواقع والأضرحة المقدسة زورًا في الافتتان بها واتخاذها أعيادًا، ومنها إنشاء السفر إليها، وقد نَهَىٰ النبي ﷺ عن السفر إلىٰ غير المساجد الثلاثة، ومنها مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها، وتعليق الستور عليها، وجعل السدانة عندها، وكون روادها يفضلون المجاورة عندها علىٰ المجاورة في المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، ومنها النذر لها ولسدنتها، ومنها اعتقاد زُوَّارها أن بها يكشف البلاء، ويستنصر علىٰ الأعداء ويستنزل الغيث، وتفرج الكروب، وتقضىٰ الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلىٰ غير ذلك مما يدخل في الشرك الخطير.

ومنها الدخول في لعنة اللَّه ورسوله بتسريجها واتخاذ المساجد عليها، وما يفعل عندها من الشرك الأكبر، ومنها إيذاء أصحابها بما يفعل عندها من الشرك، فإنه يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم من ذلك، وهكذا الأنبياء والأولياء وجميع الصالحين يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم من مخالفة دين اللَّه الحق ويتبرءون منهم يوم القيامة كما قال ﷻ في الآيات (١٧، ١٨) من سورة الفرقان: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾، ثم قال اللَّه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ وكذلك في الآيات (٤٠، ٤١) من سورة سبأ، والآية (١٢٨) من سورة الأنعام، وقال في الآيات (٢٨، ٢٩) من سورة يونس: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ

وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ والآية (٥٢) من سورة الكهف: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ وغيرها من الآيات الدالة علىٰ تبرؤ المتبوع من تابعه علىٰ غير هدىٰ من اللَّه.

ومن أضرارها ومفاسدها إماتة السنن وإحياء البدع وتفضيلها علىٰ خير البقاع وأحبها إلىٰ اللَّه، فإن عباد القبور وزوارها الزيارة البدعية يقصدونها مع التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة علىٰ الموتىٰ بما لا يفعلونه في المساجد، ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريب منه.

ومن المفاسد المخلة بالعقيدة الصلاة عند القبور واستقبالها والطواف بها وتقبيلها واستلامها والتمسح بها، وتعفير الخدود علىٰ أرضها وجدرانها، والاستغاثة بأصحابها، وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الدين وإنجاب الأولاد وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا اللَّه، بل قد يزيد دعاؤهم علىٰ دعاء عباد الأصنام وطلباتهم منهم، ويجري من القبوريين ما لا يجري من عباد الأصنام من نزولهم عن مراكبهم بمكان بعيد، ووضع جباههم علىٰ الأرض وتقبيلها، وكشف الرؤوس وارتفاع الأصوات بالضجيج والبكاء والنحيب والنشيج، كل هذا لغير اللَّه، بل للشيطان ما يراق من العبرات، وما يراق من الدماء للدجالين.

ومن المصائب الفظيعة ما يجري في مواسمهم من الفسق والفجور وانتهاك الأعراض اعتقادًا منهم أن ذنوبهم هناك مغفورة مهما ارتكبوا من الذنوب، وما يجري من بعض السدنة من اللعب بعقول النساء اللاتي يشكين للمقبور عدم الحمل أو عدم حياة الولد، فيدخلون في ظلمات القبة من شاءوا من فسقة الرجال الذين يبتزون أموالهم، ثم يدخلون المرأة المسكينة لتحبل من الولي رأسًا، ويأخذون منها أكثر

مما يأخذونه من الرجال من المال الحرام، ولا تقدر علىٰ كشف الحقيقة لولي أمرها أو تتصور أن المباشر لها هو الولي، وأنها سعيدة به والعياذ باللَّه من همزات الشياطين، فكم من عفيفة انزلقت في مهاوي الرذيلة وزال إحصانها؛ بانخداعها بتهريج الفجرة وتضليلهم لخروجها من حصانة التوحيد.

وقد قرر كثير من علماء السلف تكفير الذين يفعلون هكذا عند القبور من جميع أئمة المذاهب الأربعة، كأبي الوفاء بن عقيل الحنبلي، وابن عبد الهادي، ومحمد بن وضاح، وأبو شامة ومن المالكية والحنفية كثير منها ما في «الفتاوىٰ البرازية» من كتب الحنفية قال علماؤنا: من قال: أرواح المشايخ حاضرة تعلم، يكفر، وهذا غالب معتقد القبوريين.

وقال الشيخ صنع اللَّه الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه في الرد علىٰ من ادعىٰ أن للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات علىٰ سبيل الكرامة: هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات، وبهمتهم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين أن ذلك منهم كرامات. وقالوا: منهم أبدال ونقباء، وأوتاد ونجباء، وسبعة وسبعون، وأربعة وأربعون.

والقطب: هو الغوث للناس وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور وأثبتوا لهم فيها الأجور، قال: وهذا كلام فيه تفريط وإفراط بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق ومصادمة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة، وفي التنزيل ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء]، ثم قال: فأما قولهم: إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات فيرده قوله تعالىٰ: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: ١٢٠]،

ونحوها من الآيات الدالة على أنه المتفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيء ما بوجه من الوجوه، فالكل تحت ملكه وقهره تصرفًا وملكًا وإحياء وإماتة وخلقًا.

وتمدح الرب تبارك وتعالى بانفراده بملكه في آيات من كتابه كقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر]، وذكر آيات في هذا المعنى ثم قال: فقوله في الآيات كلها: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من غيره فإنه عام يدخل فيه من عقيدته من ولي أو شيطان تستمده، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمد غيره؟ إلى أن قال: إن هذا لقول رجيم وشرك عظيم، وأما القول بالتصرف بعد الموت فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة، قال جل شأنه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر]، ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر].

وفي الحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...**»(١) الحديث، فجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان. فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلًا عن غيره، فإذا عجز عن حركة نفسه فكيف يتصرف في غيره.

فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إن الأرواح مطلقة متصرفة ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات فهو من المغالطة، لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم به أولياءه لا قصد لهم فيه ولا تحدي

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٢).

ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم بنت عمران وأسيد بن حضير وأبي مسلم الخولاني.

قال: وأما قولهم: فيستغاث بهم في الشدائد، فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]، ومصادمة لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام].

وذكر آيات في هذا المعنىٰ ثم قال: فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر علىٰ دفع الضر، القادر علىٰ إيصال الخير فهو المتفرد بذلك، فإذا تعين هو ـ جل ذكره ـ خرج غيره من ملك ونبي وولي، قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه كقولهم: يا لزيد، يا للمسلمين، بحسب الأفعال الظاهرة، وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وجلب الرزق ونحوه فهو من خصائص اللَّه لا يطلب فيها غيره.

قال: وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال وينادونهم ويستنجدون بهم فهذا من المنكرات، فمن اعتقد أن لغير اللَّه من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيرًا فقد وقع في وادي جهل خطير، فهو علىٰ شفا حفرة من السعير. وأما كونهم مستدلين علىٰ أن ذلك منهم كرامات، فحاش للَّه أن يكون أولياء اللَّه بِهذه المثابة فهذا ظن أهل الأوثان، كما أخبر الرحمن: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس]، فإن ذكر

ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره علىٰ وجه الإمداد منه إشراك مع اللَّه، إذ لا قادر علىٰ الدفع غيره ولا خير إلا خيره، قال: وأما ما قالوا: إن منهم أبدالًا ونقباء وأوتادًا ونجباء، وسبعة وسبعين، وأربعة وأربعين والقطب: هو الغوث للناس، فهذا من موضوعات إفكهم كما قاله القاضي المحدث في «سراج المريدين»، وابن الجوزي وابن تيمية. انتهىٰ باختصار.

وقال في الرد علىٰ من أجاز النذر والذبح للأولياء: إنه باطل والنذر لغير اللَّه إشراك مع اللَّه كالذبح لغيره وبرهن علىٰ ذلك بالآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ١٦٣]، ولشيخ الإسلام ابن تيمية والرافعي في «شرح المنهاج»، والشيخ قاسم الحنفي في «درر البحار»، والشيخ ابن نجيم في «البحر الرائق»، والشيخ المرشدي في «التذكرة» كلام جميل طويل في إبطال النذر وسوء معتقد صاحبه، لا أريد الإطالة بنقله ولم أكتب ما كتبت وأُشِرْ إلىٰ ما أشرت إلا لبيان أن العلماء الربانيين لم يسكتوا عن الشرك.

وأخرج أهل السنن والمسانيد عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ إلىٰ حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول اللَّه اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«اللَّه أكبر؛ إنها السنن، قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهةً، قال: إنكم قوم تجهلون، لتركبن سنن من كان قبلكم»**[١].

ففي هذا الحديث عشرات الفوائد:

منها: الغضب للَّه وتكبيره تعجبًا مما قالوه في سؤالهم تعظيمًا للَّه وتنزيهًا له مما اقترفوه؛ لأن فيه هضمًا للربوبية أو الألوهية، وهذا لا

---

(١) رواه التِّرمذي (٢١٨٠) ـ بنحوه ـ.

يليق بالله سبحانه.

ومنها: التنبيه علىٰ قاعدة كلية هي ربط حاضر الجاهلية بماضيها، حيث شبه مقالتهم هذه بقول بني إسرائيل بجامع أن كلاً منهم طلب أن يجعل له ما يألفه ويعبده من دون اللَّه، وإن اختلف اللفظان فالمعنىٰ واحد؛ لأن تغيير الاسم لا يغير الحقيقة، فإن طَلَبتَهُمْ في معناها مطابقة لِطَلِبَةِ قوم موسىٰ بنص من لا ينطق عن الهوىٰ ﷺ، فإن موقفه منهم قد برز فيه الخوف من الشرك بصورة واضحة؛ لأن أصحابه قد استحسنوا شيئًا ظنوه مقربًا إلىٰ اللَّه، وهو أبعد ما يبعدهم من رحمته ويقربهم من سخطه، وهذا شيء لا يعرفه إلا الربانيون من دعاة العقيدة الذين مهمتهم حماية جانبها مما يناقضها.

ومن فوائد هذا الحديث: أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والأحجار والقبور من التبرك المفضي إلىٰ أنواع من التأله مصادم للتوحيد، كما قال موسىٰ لقومه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف].

ومن فوائده: أنه لا يستبعد وقوع الشرك في خلف هذه الأمة وانخداعها بأحابيل الشياطين؛ لأنه إذا كان سلفها ظنوا ذلك حسنًا وطلبوه من النبي ﷺ حتىٰ أوضح لهم بكل حرارة أن هذا كقول بني إسرائيل لموسىٰ، فإذا كان هذا النوع من الشرك قد خفي علىٰ بعض الصحابة، فكيف لا يخفىٰ علىٰ من هو دونهم بأضعاف مضاعفة خصوصًا مع غلبة الجهال وبعد العهد بآثار النبوة؟.

وللقبوريين والمخرفين شبهات وأباطيل يطعنون بها المخالفين لهم من كل متمسك بالتوحيد والسنة أو مقاوم للبدعة، منها زعمهم أنهم منتقصون الأولياء والصالحين، بل منتقصون للرسول ﷺ إذ لو

يأتوا بشيء من البدع حول قبره الشريف، وهذا قلب للحقيقة، فإن محبة رسول اللَّه ﷺ وتعظيمَ ومحبةَ صحابته والتابعين لهم بإحسان علىٰ منهجهم؛ تقتضي وتستلزم طاعة الرسول والاقتداء به وبخلفائه وصحابته ومن سار علىٰ نَهجهم، وقد كان من هديهم النهي عن البناء علىٰ القبور وتجصيصها وإشعال الأنوار عليها، والتمسح بها أو تقبيلها، والصلاة عندها فضلًا عن الصلاة إليها، والدعاء من أهلها، بل أهلها في حاجة إلىٰ الدعاء، وقد كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان بل والخلفاء الراشدون لا يفعلون شيئًا أبدًا حول قبر رسول اللَّه ﷺ مما يفعله القبوريون في هذا الزمان، حتىٰ إن أنس بن مالك وغيره من الصحابة إذا صلوا علىٰ رسول اللَّه استدبروا قبره واستقبلوا القبلة للدعاء، وقول الإمام مالك في ذلك مشهور، وكذلك من يُزعم لهم الولاية والصلاح يدعون إلىٰ التوحيد وينهون عن الشرك، ويَسُدون جميع ذرائعه كما كان السلف الصالح يفعلون، ولم يؤثر عنهم شيء مما يفعله القبوريون، فالذي يحبهم ويعظمهم يسلك طريقتهم في عمارة المساجد والانطلاق برسالة اللَّه دعوة ونصحًا وتطبيقًا عمليًّا يورث صاحبه قبول ما يلقيه.

وأما الذي يرتاد القبور والمساجد للخضوع والخشوع عندها، ودعاء أهلها أو المنسوبين إليها فهذا هو الذي انتقص رسول اللَّه ﷺ واستهان بجنابة الكريم، وما جاء به من التوحيد والهدىٰ بمخالفته له، وانتقص جميع الأولياء والصالحين من أتباعه، وكان دعوىٰ محبته لهم شيطانية مخالفة للعقل والنقل، وقد امتحن اللَّه المشركين بدعوىٰ محبته الكاذبة فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

فكل من زعم حب اللَّه ورسوله وهو غير متبع لنصوص القرآن في التوحيد غير مقتد بالرسل، فمحبته كاذبة وادعاؤه لها ضرب من الزور والهذيان واللَّه المستعان علىٰ ما يصفون.

ومن شبهاتهم دعوىٰ التبرك، وهي دعوىٰ مردودة؛ لأن التبرك ينحصر

معناه في أسماء اللَّه وصفاته، وما يقره نبيه من المواضع التي يصلي بها في بيوت أصحابه مما أقرهم عليه وأجاب طلباتهم لعدم المساس بالعقيدة، فأما التوسع في معنىٰ التبرك فهو من البدع المحدثة، وللإمام الشاطبي المالكي في كتابه «الاعتصام» كلام نفيس تعرض فيه لقياس غير النبي في التبرك، وذكر أنه عارضه أصل مقطوع به، وهو أن الصحابة رضي الله عنهم بعد موت النبي ﷺ لم يقع منهم بالنسبة إلىٰ مَنْ خَلَفَهُ شيء من ذلك، إذ لم يترك النبي ﷺ بعده في الأمة أفضل من أبي بكر الصديق فهو كان خليفته، ولم يفعل به شيء من ذلك، ولا عمر رضي الله عنه فهو أفضل الأمة بعد أبي بكر، ثم كذلك عثمان ثم علي، ثم سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم في الأمة.

ثم لم يثبت لواحد منهم عن طريق صحيح معروف أن متبركًا تبرك به علىٰ أحد تلك الوجوه ونحوها، بل اقتصروا فيهم علىٰ الاقتداء بالأعمال والأقوال والسِّيَرِ التي اتبعوا فيها النبي ﷺ قال: فهو إجماع منهم علىٰ ترك تلك الأشياء، قال: ولو كان اعتقادهم التشريع لعمل بعضهم بعده، أو عملوا به ولو في بعض الأحوال، إما وقوفًا علىٰ أصل المشروعية، وإما بناء علىٰ اعتقاد انتفاء العلة الموجبة للامتناع.

كما ذكر الشاطبي في ذلك البحث النفيس أن العامة لا تقتصر في التبرك علىٰ حد، بل تتجاوز فيه الحدود وتبالغ بجهلها في التماس البركة حتىٰ يداخلها للمتبرك به تعظيم يخرج به عن الحد، فربما اعتقد في المتبرك به ما ليس فيه، وهذا التبرك هو أصل العبادة، ولأجله قطع عمر رضي الله عنه الشجرة التي بويع تحتها رسول اللَّه ﷺ، بل هو كان أصل عبادة الأوثان في الأمم الخالية حسبما ذكره أهل التفسير، فخاف عمر رضي الله عنه أن يتمادىٰ الحال في الصلاة إلىٰ تلك الشجرة حتىٰ تعبد من دون اللَّه، فكذلك يتفق عند التوغل في التعظيم، ولقد حكىٰ الفرغاني مُذَيِّلُ تاريخ الطبري عن الحَلَّاجِ أن أصحابه بالغوا في التبرك به حتىٰ كانوا يتمسحون ببوله، ويتبخرون بِعَذِرَتِهِ، حتىٰ ادعوا فيه الألوهية،

تعالىٰ اللَّه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

قلت: فكيف يرضىٰ الحلاج بذلك؟ بل كيف يمكنهم من بوله وعذرته؟ هذا من أكبر الدلائل علىٰ فساد عقيدته، وخبث تعليمه لأصحابه، وهكذا يتلاعب بعض الأعاجم بدين اللَّه، واللَّه أعلم بالدسائس الخفية ومنبع الضلالة، فكيف يأكل الإله الطعام، ويتبرز كالحيوان الناطق وغيره؟

وذكر الشاطبي في التبرك بمن تعتقد العامة فيه الولاية أمرًا آخر هو أن الولاية في الحقيقة راجعة إلىٰ أمر باطن لا يعلمه إلا اللَّه، فربما أثبتت الولاية لمن ليس بولي، أو ادعاها هو لنفسه، أو أظهر خارقًا ليس من باب الكرامة، بل من باب السحر والشعوذة أو غير ذلك، والعامة لا تعرف الفرق بين الكرامة وغيرها، فيعظمون من ليس بعظيم، ويقتدون بمن لا قدوة فيه، وذلك هو الضلال البعيد. انتهىٰ المراد من كلام الشاطبي.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة مهمة جليلة القدر اسمها «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» فيها من التحقيق ما لا يستغني المسلم ـ كل مسلم ـ عن معرفته، فضلًا عن طالب العلم والباحث في الحق، فينبغي الحرص علىٰ اقتنائها وتكرار قراءتها حتىٰ ترسخ في القلب لعظيم نفعها في شأن العقيدة والحذر من الدجالين وهمزات الشياطين وتفنيد الجاهلين، واللَّه الموفق.

ومن شبهاتهم أن دعاءهم بمعنىٰ النداء، وأنه ليس كل نداء أو دعاء عبادة، ويغالط بعض غلاتهم فيقول: إنه لو كان كل نداء وكل دعاء عبادة لشمل ذلك نداء الأحياء والأموات، فيكون كل نداء ممنوعًا مطلقًا للطرفين الأحياء والأموات بل والحيوانات والجمادات، وهذا من خبث تلبيسهم علىٰ العوام ومجادلتهم بالباطل لتغطية الحق وخلطه عليهم، وإلا فلا يقول هذا عاقل يحترم نفسه؛ لأن المنع ليس لنداء الجميع ودعائهم، بل للنداء والدعاء الحقيقي الذي يقصد به من المنادىٰ ما لا

يقدر عليه إلا اللَّه من جلب النفع وكشف الضر، ولا مرية في أنه عبادة، ومنعه لا يقتضي منع كل نداء، فالاستعانة بالحي والاستغاثة به فيما يقدر عليه وما هو من شئونه لا بأس به، ولم يمنعه الموحدون كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥].

ومن تلبيساتهم الباطلة قول بعضهم: إن النداء الذي يكون عباده هو نداء من يعتقد ألوهيته واستحقاقه للعبادة، فيرغبون إليه ويخضعون بين يديه وهذه مغالطة مكشوفة، فإنه لا ريب أن من ينادىٰ أحدًا نداء حقيقيًّا ويقصد به من المنادىٰ ما لا يقدر عليه إلا اللَّه، من جلب نفع أو كشف ضر فهو يعتقد استحقاقه للعبادة، وإلا لم يصدر منه هذا النداء الذي هو الدعاء، وهو من أنواع العبادة بل هو مخ العبادة كما في الحديث النبوي، ولا يتوقف كونه عبادة علىٰ اعتقاد ألوهيته، ومن يدع ذلك فعليه البرهان.

وتحرير الموضوع أن الدعاء قسمان: دعاء العبادة ودعاء العادة، فدعاء العادة هو ما يطلبه الناس بعضهم من بعض مما يقدرون عليه بالأسباب التي سخرها اللَّه لهم، ودعاء العبادة هو طلب ما وراء الأسباب مما لا يقدر عليه إلا اللَّه، والإله في اللغة هو المعبود بالدعاء الذي هو مخ العبادة والفرض الكامل منها أو بغيره مما يتقرب به إلىٰ المعبود؛ من نذر وذبح وتعظيم قولي أو عملي، باعثُه اعتقاد القدرة الغيبية علىٰ النفع ومنع الضر وكشفه من غير طريق الأسباب بالذات، أو بالتأثير عند اللَّه.

وكانت عبادة كفار قريش لآلهتهم من النوع الثاني، وهي دعاؤهم ليشفعوا لهم عند اللَّه، ويقربوهم إليه زلفىٰ كما نص القرآن علىٰ ذلك، ولكن علماء القبوريين من متأولة الشرك يجهلون معنىٰ العبادة والألوهية، ولا يفرقون بين اتخاذ المخلوق إلهًا بدعائه والنذر له، أو هم يتجاهلون هذه الحقيقة للطمع وحب الجاه والمنزلة عند العوام، وتأخذهم العزة بالإثم لمصادمة أهل الحق، فيحاولون تغيير الأسماء

لقلب الحقائق، كأنهم إذ سموا التأله نداء لا يكون تألهًا، وإذا سموا العبادة توسلًا لا تكون عبادة، فالمشركون الأوائل أصرح منهم بتسمية الشيء علىٰ حقيقته.

قال الشوكاني بعد تقسيمه الدعاء تقسيمًا افتراضيًّا: وإذا عرف هذا فالذي نعتقده وندين اللَّه به أن من دعا نبيًّا أو وليًّا أو غيرهما، وسأل منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات؛ أن هذا من أعظم الشرك الذي كفر اللَّه به المشركين حيث اتخذوا أولياء وشفعاء يستجلبون بهم المنافع، ويستدفعون بهم المضار بزعمهم قال اللَّه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

فمن جعل الأنبياء أو غيرهم كابن عباس وأبي طالب وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم، وسألهم جلب المنافع بمعنىٰ أن الخلق يسألونهم وهم يسألون اللَّه، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك حوائج الناس لتقربهم منهم، والناس يسألونهم أدبًا منهم أن يباشروا سؤال الملوك، أو لكونهم أقرب إلىٰ الملك، فمن جعلهم وسائط علىٰ هذا الوجه فهو كافر مشرك حلال الدم والمال، وقد نص العلماء ـ رحمهم اللَّه ـ علىٰ ذلك وحكوا عليه الإجماع. اهـ.

وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما من الأئمة السلفيين معروف في تكفير هذا النوع؛ لأنهم منتقصون اللَّه بتشبيهه بالحكام الجاهلين بأحوال الناس وسرائرهم الطيبة والخبيثة، فيحتاجون إلىٰ وسيط أو شفيع يخبرهم بحقيقة الجاني وحسن قصده أو صدق توبته، أو يكون عندهم نوع من المحاباة لمن له شفيع ووساطة، فيعفون عنه ويتركون أمثاله أو من هم أخف ذنبًا منه مطروحًا في العذاب، وهذا يستحيل علىٰ اللَّه ذي الرحمة الواسعة، والحكمة العظيمة، والعلم المحيط بالجليات والخفيات، فإنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وقد حرم الظلم علىٰ نفسه فلا يظلم أحد أبدًا لغناه المطلق وسعة رحمته، وعموم عدالته، وعدم احتياجه إلىٰ وسيط أو

شفيع يخبره أو يسترحمه علىٰ خلقه، ولا ظهير يعينه علىٰ ذلك فجاعل الشفعاء منتقص لجنابه العظيم، لتشبيهه بخلقه وسوء ظنه به عياذًا باللَّه من ذلك.

فإن حكام الدنيا إما أن يكونوا جاهلين بأحوال الناس واللَّه منزه عن ذلك، أو يكونوا عاجزين عن التدبير محتاجين إلىٰ معين واللَّه منزه عن ذلك، وإما أن يكونوا غير مريدي النفع والإحسان إلا بمحرك يحرك إرادتهم، واللَّه سبحانه منزه عن ذلك، فهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين ودافع المحسنين إلىٰ الإحسان، ولا يجوز أن يكون في الوجود من يدفع اللَّه إلىٰ غير مراده أو يعلمه ما لم يكن يعلمه أو يدله علىٰ الإحسان إلىٰ أحد كما يفعله الشفعاء بين المخلوقين، هذا يستحيل علىٰ اللَّه قطعًا، بخلاف حكام الدنيا، فإن الشفيع إما أن يكون شريكًا لهم في الملك أو الحكم، وإما أن يكون معينًا لهم لا يستغنون عن قربه وصحبته، فيشفع عندهم بغير إذنهم، ويضطرهم أحيانًا علىٰ العفو عن المجرم الذي يريدون التشفي منه، ويكون قبولهم لشفاعة الشفعاء إما عن محبة لهم أو مكافأة علىٰ خدماتهم أو عن حاجة إليهم، ولهذا يقبلون شفاعة أزواجهم وأولادهم بل وعبيدهم تارة؛ لأن قبولهم شفاعة الشافعين إما رغبة أو رهبة، واللَّه سبحانه منزه عن ذلك، فهو الغني بذاته والحي القيوم الذي يجير ولا يجار عليه، فيا ويح من اعتقد الشفاعة عنده بغير إذنه! وما يدريه عن حصول الإذن والقبول، حقًّا إن ذلك من إضلال الشياطين.

قال ابن القيم وغيره: إن الشيطان له تلطف ومخادعة ماهرة في الدعوة، فيزين للمسلم دعاء اللَّه عند القبر فيدعو عنده بحرقة وانكسار قلب وذلة، فيجيب اللَّه دعوته لما قام بقلبه لا لأجل القبر، فيظن الجاهل أن للقبر تأثيرًا، فإذا وقع ما يريده الشيطان من المسلم من استحسان الدعاء عند القبر وأنه أرجح وأفيد من دعائه في البيت أو المسجد نقله درجة أخرىٰ من الدعاء عنده إلىٰ الدعاء به، والإقسام به علىٰ اللَّه.

وهذا أعظم من الذي قبله، فإن شأن اللَّه أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه، وقد أنكر ذلك أئمة الإسلام، ومنهم أبو حنيفة كما نقله عنه أبو يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ، وإذا قرر الشيطان عنده أن الإقسام علىٰ اللَّه به والدعاء به أبلغ في نجاح الاستجابة نقله إلىٰ درجة أشد خطورة من ذلك، وهي دعاؤه من دون اللَّه، ثم إلىٰ درجة أخطر وهي اتخاذه وثنًا يعكف عليه ويشعل حوله الأنوار، ويعلق عليه الستور، ويبني عليه المسجد، ويعبده بالسجود له بالطواف بقبره أو تقبيله واستلامه، والحج إليه والذبح عنده، والنذر له.

ثم ينقله إلىٰ دعاء الناس إلىٰ عبادته واتخاذ قبره عيدًا ومنسكًا، وهذا هو غاية مطلب الشيطان من الشرك باللَّه، ومن قال: إنه لم يقصد بدعاء الأموات والنحر لهم والنذر عليهم عبادتهم، يقال له: فلأي مقتضىٰ عملت هذا الصنيع؟ فإن دعاءك الميت عند أمر نزل بك لا يكون إلا لشيء في قلبك ترجم عنه لسانك، فإن كنت تَهذي بذكر الأموات عند نزول الحاجات من دون اعتقاد منك لهم فإنك مصاب في عقلك.

وكذا إن كنت تنذر وتنحر للَّه فلأي شيء جعلت ذلك للميت وحملته إلىٰ قبره مع أن الفقراء في كل مكان؟ وأما من قال: إن المشركين كانوا لا يقرون بكلمة التوحيد، وهؤلاء المقتدون في الأموات يقرون بها، فجوابه أن هؤلاء قالوها بألسنتهم وخالفوهم بأفعالهم، فإن من استغاث بالأموات أو طلب منهم ما لا يقدر عليه إلا اللَّه سبحانه، أو قدر لهم من ماله، أو نحر لهم فقد نزلهم منزلة الآلهة التي كان المشركون يفعلون لها هذه الأفعال، لا يقبل منه أي مواربة أو تلبيس.

وقد تقدم أن من أشرف أنواع الطاعات والعبادة وأشهرها الدعاء، ولذا أمر اللَّه به تضرعًا وخفية، فهو أعظم مقامات العبودية، حيث يتضح فيه ذل العبودية وعز الألوهية وصدق التجاء العبد الضعيف إلىٰ إلهه القوي العزيز، الذي لن يعجزه من شيء في السموات ولا في

الأرض، فلا مقصود من جميع التكاليف سوىٰ معرفة ذل العبودية وعز الألوهية كي تخضع النفس لمنهج ربها في جميع ميادين الحياة، فلا تجعل لها شيئًا من الخيرة في السلوك يخالف منهج اللَّه أبدًا، فلهذا كان الدعاء أعظم أنواع العبادات؛ لأن الإنسان إذا عرف أن اللَّه متصف بكمال العلم والقدرة والرحمة والإحسان انحصر اتجاهه إليه، ودعاؤه ثم خشوعه له، وضراعته ورغبته إليه، فإن العبادة سبب الدعاء، وهو مخ العبادة ولهذا قال سبحانه: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

فلولا أن الدعاء بمعنىٰ العبادة لم يختم الأمر بالدعاء بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ ولكن بما أن الدعاء عبادة عظيمة ختم اللَّه الأمر به بالوعيد الشديد المحتم علىٰ تاركه إعراضًا عن عبادة اللَّه واستنكافًا لها، وإلا لما بقي له معنىٰ، وحاشا أن يكون حرف من كلام اللَّه عبثًا، وقد كان الغالب من حال من يعبد غير اللَّه ويتعلق به أن يلتجئ إليه في المسألة عند الشدائد وغيرها، طامعًا منه بجلب النفع أو دفع الضر، فما أسخف قول من زعم أن الدعاء ليس عبادة! والعجب أن الشيخ السبكي مع تخريفه قال بعد تقرير أن العبادة عام والدعاء خاص: إن الدعاء أخص من العبادة، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء.

ومن شبهات القبوريين تلفيق حكايات واهية السند وباطلة المعنىٰ، يستدلون بها علىٰ جواز التوسل، وهي حكايات غير معتمدة عند أهل السنة والأثر بتاتًا، ولا تقوم بها حجة ولا يجوز الاستدلال بها علىٰ أصغر الفروع، فضلًا عما له مساس بالعقيدة، وأغلبها من ترويج سدنة القبور والمتأكلين حولها، وما استدلالهم بمثل هذه الحكايات والروايات الواهية التي لم تسند عن رسول ولا عن ثقة إلا دليل علىٰ سخافة عقولهم.

ومن شبهاتهم وتدليساتهم الاستشهاد بأحاديث مكذوبة موضوعة

في توسل آدم بمحمد ﷺ وأهل بيته، مما أوضح الذهبي بطلان هذا الخبر من أساسه، وأنه مكذوب، ونص علىٰ من صدقه، لا شك أنه باطل رواية ودراية لمخالفته لقول اللَّه سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وجاء اللَّه بنص هذه الكلمات في الآية (٢٣) من سورة الأعراف: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ وليس وراء بيان اللَّه بيان، بحيث يصبح هذا الحديث المكذوب من أوضاع الزنادقة.

قال اللَّه سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ صدق اللَّه العظيم [العنكبوت]، إنك لا تجد استدلالًا لهؤلاء القبوريين إلا وهو أوهن من بيت العنكبوت، فجميع ما يروونه، حتىٰ أحاديث الزيارة علىٰ هذا النمط، والعجب أنهم علىٰ وتيرة واحدة في الاستدلالات الواهية مع تفاوت أزمانهم، فتجد الذي في القرن السابع كالذي بعده من القرون إلىٰ هذا القرن الرابع عشر، قد تشابَهت قلوبهم، وأصبحوا يلوكون كل خبر باطل لا أصل له، أو خبر يدل علىٰ التوسل بدعاء الحي، كاستسقاء الأعرابي برسول اللَّه ﷺ وصعوده المنبر يطلب من اللَّه الغيث، وكحديث توسل الأعمىٰ بدعاء النبي في حياته، وعلىٰ فرض صحة الحديث وهو مختلف فيه عند أهل الرواية، لكن لو صح فإنه كحديث الأعرابي ليس فيه دليل غير التوسل بدعاء النبي ﷺ في حياته، وهذا ليس فيه نزاع، لكن لا يدل علىٰ إطلاق التوسل بعد الحياة، وكاستشهادهم بحديث العتبي ونحوه مما لم يصححه الأمناء علىٰ الحديث العارفون برواياته ورجاله، ولم يروها وينقلها إلا من هو حاطب ليل، وجارف سيل، لكنهم كالفريق الذي يتشبث بالحشيش.

ومن شبهاتهم دعواهم أن الوسيلة هي التوسل إلىٰ اللَّه سبحانه بالأولياء والصالحين، وهذا باطل يناقض ما ذكره اللَّه في الآيات من تهديد من دعاهم، وإنكاره عليهم دعوتهم كما أسلفنا بيانه، وقد أسلفنا

ـ أيضًا ـ ما يبرهن علىٰ أن هذا بعينه هو دين المشركين المتخذين الشفعاء، يسألونهم أن يشفعوا لهم عند اللَّه، ويقربوهم إليه زلفىٰ، والقرآن كله من أوله إلىٰ آخره يبطل هذه الوسيلة، ويبين أنها شرك.

قال اللَّه سبحانه في الآيتين الخامسة والسادسة من سورة الأحقاف: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ ﴾ [الأحقاف] فنفىٰ سبحانه أن يكون أحد أضل ممن يدعو غيره، وأخبر أنه لا يستجيب له إلىٰ يوم القيامة، وهذه الآية عامة لجميع ما يدعىٰ من دون اللَّه كما مضىٰ التفصيل عن الآية: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ ﴾ [الإسراء] وهنا أخبر أنه لا يستجيب، وأنه غافل عن دعائه، وأنه يعاديه يوم القيامة، فتناولت هذه الآية كل داع وكل مدعو من دون اللَّه، من ميت أو غائب أو وثن أو المسيح أو عزير أو الملائكة أو الجن، ولا يُحَصِّل الداعي منهم يوم القيامة إلا نقيض قصده، فيحصد الخيبة والخسران في الدنيا والآخرة.

قال ابن جرير في قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ يقول تعالىٰ ذكره: وإذا جمع الناس ليوم القيامة في موقف الحساب كانت هذه الآية التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء، لأنهم يتبرءون منهم ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ كانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين؛ لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرناهم بعبادتنا ولا شعرنا بعبادتهم إيانا تبرأنا إليك منهم يا ربنا، وقد تقدمت الإشارة إلىٰ قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ ـ بضم التاء وتشديدها ـ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ ـ بفتح التاء ـ كما قدمنا الإشارة إلىٰ الآيات في سورة سبأ من إنكار الملائكة لعبادتهم، وكذلك الآيات التي في سورة الفرقان.

فالمشرك جريمته فظيعة جدًّا، ولا يخلو من خمسة أحوال: فإنه إما أن يظن أن اللَّه سبحانه يحتاج إلىٰ من يدبر أمر العالم معه من وزير أو معين، وهذا أعظم التنقص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته،

وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وإما أن يظن أنه لا يعلم حتىٰ يُعلمه الواسطة، ولا يرحم أحد إلا بواسطة، ولا يكفي وحده أو لا يفعل ما يريد العبد إلا بالواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق فيجعل اللَّه محتاجًا إلىٰ الواسطة ومحوج لعباده إليها، وإما أن يعتقد أن اللَّه لا يجيب الدعاء بلا واسطة، ولا يغيث ولا يدفع الضر إلا به، كحال حكام الدنيا في الغالب، وهذا تشبيه مرذول مذموم، أو أن يظن أن اللَّه لا يسمع دعاءه لبعده عن الخلق وكثرة أصواتهم المختلفة اللغات واللهجات حتىٰ يرفع الوسائط إليه ذلك، أو يظن أن للمخلوق عليه حقًّا فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق كما يتوسل الناس إلىٰ الأكابر والملوك بمن يعز عليهم، وكل ذلك تنقص للربوبية وهضم لحقها.

ولو لم يكن في ذلك إلا نقص محبة اللَّه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه من قلب المشرك بسبب قسمة ذلك بينه وبين من أشرك به، فيضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرف بعضه أو أكثره إلىٰ من تعلق به من دون اللَّه، فالشرك مستلزم لانتقاص الرب سبحانه، والتنقص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبىٰ، شعر أو لم يشعر، ولهذا حكم اللَّه علىٰ صاحبه بعدم المغفرة والخلود بالنار، وجعله أشقىٰ البرية لهذا الانتقاص الذي هو من ضروريات الشرك.

قال أبو الوفاء ابن عقيل: لما صعبت التكاليف علىٰ الجهال والطَّغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلىٰ أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت العسر غيرهم، وهم عندي كفار بِهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نَهَىٰ الشرع عنه، من إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتىٰ بالحوائج وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا، وأخذ تربتها تبركًا بها وإفاضة الطيب علىٰ القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق علىٰ الشجر اقتداء بمن عبد

اللات والعزىٰ. اهـ.

قال في «جلاء العينين» ولا يغرك أن المستغيث بمخلوق قد تقضىٰ حاجته وتنجح طلبته، فإن ذلك ابتلاء وفتنة منه ﷻ، وقد يتمثل الشيطان للمستغيث في صورة الذي استغاث به، فيظن أن ذلك كرامة لمن استغاث به هيهات وهيهات، إنما هو شيطان أضله وأغواه، وزين له هواه، وذلك كما يتكلم الشيطان في الأصنام ليضل عباده الطغام، وبعض الجهلة يقول: إنه من تطور روح المستغاث به أو من ظهور ملك بصورته كرامة له، ولقد ساء ما يحكمون؛ لأن التطور والظهور وإن كانا ممكنين، لكن لا في هذه الصورة، وعند ارتكاب هذه الجريمة. نسأل اللَّه بأسمائه أن يعصمنا من ذلك، فنتوسل بلطفه أن يسلك بنا وبكم أحسن المسالك اهـ.

ومن زعم أن هناك فرقًا بين من اعتقد في وثن من الأوثان أنه يضر أو ينفع أو يشفع، وبين من اعتقد في ولي ونحوه من الموتىٰ أنه يضر أو ينفع أو يشفع أو يقدر علىٰ شيء لا يقدر عليه إلا اللَّه فقد غلط غلطًا واضحًا، وأعلن علىٰ نفسه بالجهل الشنيع، فإن الشرك هو دعاء غير اللَّه في الأشياء التي تختص به، أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه، أو التقرب إلىٰ غيره بما هو من أنواع العبادة، أو انصراف القلب عن اللَّه إلىٰ غيره من المحبوبات المادية والمعنوية بالاتجاه إليها والعمل من أجلها، وليس في مجرد تسمية المشركين لما جعلوه بالصنم والوثن والإله لغير اللَّه زيادة علىٰ التسمية بالولي والسيد والمشهد ونحوه كما يفعله كثير من مشركي المسلمين.

فالكل واحد بلا زيادة ولا تفريق، إذ ليس الشرك مجرد إطلاق الأسماء علىٰ بعض المسميات، بل الشرك هو أن يفعل لغير اللَّه شيئًا يختص به سبحانه، أو ينصرف قلبه عن اللَّه، إلىٰ محبوباته وأغراضه الشخصية، فيكون قصده لها وعمله من أجلها لا أجل اللَّه، كأعمال القوميين والوطنيين ونحوهم في هذا الزمان، سواء من أطلق علىٰ ذلك ما كانت تطلقه الجاهلية، أو أطلق عليه اسمًا آخر، فلا عبرة

بالأسماء، وإنما العبرة بالمعاني والمقاصد التي تنبعث منها الأعمال، ومن لم يعرف هذا فإنه جاهل أو معاند لا يستحق المخاطبة.

وقد علم كل من له أدنىٰ فهم أن عبادة الكفار لم تكن إلا بتعظيمها، وصرف الاتجاه إليها، واعتقاد نفعها وضررها، والاستعانة بها، والتقرب لها أحيانًا بجزء من الأموال، وهذا كله قد وقع من المعتقدين النفع في القبور، فإنهم قد عظموها إلىٰ حد لا يكون إلا للَّه، بل ربما يترك العاصي منهم المعصية إذا كان في مشهد يحترمه ويعظمه خوفًا من تعجيل العقوبة، وهو لا يتركها في حرم اللَّه ولا خوفًا من اللَّه، بل قد يفعلها في بيوت اللَّه، والمشهور عنهم أنهم يحلفون باللَّه كذبًا، ولا يحلفون بأحد من المقبورين كذبًا أبدًا.

وأما الفسوق فقد جرَّأهم الشيطان عليه بقرب القبور والمشاهد، وفي البلاد التي يقدمونها، لوجود من يزعم له الولاية، أو أنه من أهل البيت بحجة أن ذنوبهم مغفورة، وأن من كان في كنف هؤلاء أو بجواره فلا تضره المعاصي حتىٰ مع غاية الإصرار، فهكذا نجاح الشيطان.

وأما شبهتهم بالتوسل والوسيلة، فليس لهم بها دليل ولا لهم منها نصيب؛ لأنهم خالفوا طريقتها الشرعية، فالوسيلة إلىٰ اللَّه لا تكون إلا بالأعمال الصالحة الصادرة عن حب وتعظيم للَّه، وصدق مع اللَّه، وإخلاص له في جميع المقاصد، فالوسيلة الصحيحة هي ما يتقرب به إلىٰ المحبوب الأعظم الذي هو اللَّه بما يرضيه من الإخلاص له بالأعمال الصالحة التي من أعظمها وأجلها تحقيق النصح للَّه ولكتابه ورسوله والمسلمين بالدعوة إليه وامتثال أوامره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوسل إليه بصالح الأعمال، كتوسل أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة، فدعوا اللَّه بصالح أعمالهم ففرج اللَّه عنهم، وكالتوسل إليه سبحانه بما كتبه علىٰ نفسه من حق إجابة السائلين وإثابة العاملين للخير بإخلاص، والتوسل إليه بدعاء الأحياء الصالحين المعروفين بدينهم وصلاحهم، كما استسقىٰ عمر بن الخطاب

بالعباس قائلًا: «اللهم إنا كنا نستسقي بنبيك فتسقينا، والآن نتوسل إليك بعم نبيك العباس، قم يا عباس فادع اللَّه لنا»، فلم يستسق بالرسول بعد وفاته لعدم الطمع في دعائه، وعدم مخالطة الدسائس الشيطانية للمتعلقين بالقبور في قلبه ﷺ، بل استسقىٰ بدعاء العباس، وكان بمحضر كبير من الصحابة فأقروه علىٰ ذلك بدون إنكار ولا استهجان، وهكذا كان التوسل بدعاء الأحياء في حياتهم، وقد كان ﷺ يوصي بعض الحجاج والمسافرين بالدعاء له؛ كتشريع لأمته في نفع بعضهم لبعض ما داموا في حياتهم.

وقد علل بعض القبوريين استسقاء عمر بالعباس أنه ليبين للناس جواز الاستسقاء بغير الرسول، وحتىٰ لا يتوهم متوهم عدم جوازه، وهذا تعليل فاسد ليس له مرتكز علىٰ قاعدة عقلية أو نقلية، بل هو رجم بالغيب وافتراء قبيح علىٰ عمر، وحكم جائر علىٰ عقيدته وضميره، فكأن المعلل يعلم ما هو مكنون في ضمير عمر، فنصب نفسه مترجمًا عما في ضميره، فيا ويحه ما أجرأه علىٰ الكذب و التلبيس! واعتقاده تنقيص الصحابة وجهلهم بالتوحيد، وعدم تفريقهم بين الحي والميت، وقدمنا أن معنىٰ استسقاء عمر بالعباس والتوسل به هو الاستسقاء بدعائه علىٰ الطريقة المعهودة عندهم ـ كما فعل النبي ﷺ ـ بأن يخرج ويستقبل القبلة ويصلي ركعتين، ثم يدعو بدعاء الاستسقاء المأثور عنه، ويحول رداءه في أثناء الخطبة والدعاء تفاؤلًا بتغير الحال.

وهذه الهيئة التي وردت في الصحاح للاستسقاء لا يفعلها إلا الحي دون الميت، فالقول بإمكان هذا من الرسول ﷺ بعد موته من أبطل الأباطيل، وأيضًا فإنه لو كان المقصود دفع هذا التوهم لكان الأولىٰ بالصحابة أن يتوسلوا ببعض الأحياء أو الأموات في حياة الرسول، ولأرشدهم الرسول إلىٰ ذلك، أو توسل بعمه حمزة سيد الشهداء، أو أحد رفاقه، أو أمر أصحابه أن يفعلوا ذلك، لكنه لما كان حقيقة التوسل دعاء به، وهذا لا يمكن إلا في الحي، فهم عمر والصحابة ذلك، فلم يستسقوا

بالرسول ولا بعمه حمزة سيد الشهداء ولا غيرهم من خيار الصحابة والمستهدين الذين هم من خيرة أولياء اللَّه وصفوة عباده المقربين.

وأبدىٰ بعض القبوريين نكتة أخرىٰ في غاية السفاهة والحماقة، وهي أن عدول عمر عن التوسل والاستسقاء بالنبي ﷺ هو لخوف تأخير اللَّه إجابة رسوله، فيحصل اضطراب إيمان بعض الضعفاء، وهذه في الحقيقة نكتة سوداء صدرت من قلب مريض، وعقل متخبط، يعلن سوء ظنه باللَّه في تأخيره في دعاء نبيه، وقلب معجزته في الاستسقاء رأسًا علىٰ عقب، فإن هذه النكتة تستلزم أن يترك الرسول الاستسقاء للناس بنفسه في حياته خشية من تأخير اللَّه بإجابة دعواته لأمته، وأن يختار غيره للاستسقاء حتىٰ إذا تأخرت رحمة اللَّه إجابة لا يضطرب إيمان الضعيف؛ لأن التأخير لم يكن بسبب الرسول، هذا لا يقوله أحد من المؤمنين.

ولكن ألجأ هؤلاء القبوريين إلىٰ مثل هذه التعليلات السخيفة الساقطة كونهم لا يعجبهم الحق الذي سلكه عمر والصحابة من حصر التوسل بالحي دون الميت، وعدولهم عن الرسول ﷺ بعد موته إلىٰ عمه، فشرقوا بملة إبراهيم المخالفة لنحلة القبوريين، وأخذوا يخبطون خبط عشواء؛ لأنهم عموا وصموا عن الحق اتباعًا لأهوائهم، ولا يخجلون من كذبهم بنسبة مذهبهم لأهل السنة والجماعة، وأهل السنة برآء من مذهبهم، ولا يلتقون معهم في شيء من غلوهم المخالف لدين الإسلام، وهم متناقضون كل التناقض في زعمهم؛ لأنهم يطعنون بمن يفرق بين الأحياء والأموات في التوسل، زاعمين أن الشرك يتدخل في توحيدهم بِهذا التفريق، لكونهم اعتقدوا تأثير الأحياء دون الأموات، فأصبحوا يطعنون في توحيد أهل السنة والجماعة الذي هو التوحيد الصحيح الخالص من جميع الشوائب.

ومن تلبيساتهم المشبهة للهذيان طعنهم علىٰ السلفيين القائلين بعدم قدرة الميت علىٰ ما يقدر عليه الحي، منكرين قدرة الحي ـ أيضًا ـ وأنه كالميت لا يقدر، إذ القدرة للَّه، زاعمين أن القول بقدرة الحي يستلزم

لكونه يخلق أفعال نفسه، ويكذبون علىٰ أهل السنة بقولهم: إن مذهبهم أن الحي لا يقدر علىٰ شيء، والقادر هو اللَّه، وهذا مذهب الجبرية، لا مذهب أهل السنة، ولكنهم لا يتورعون من الكذب والتلبيس وترديد المتناقضات لترويج مذهبهم القبوري خداعًا للجهال والطغام، وكسبًا للجاه عندهم، دون مبالاة بمخالفة العقيدة وافتراء الأكاذيب، فنقول لهم:

أولاً: بمعارضة اعتقادهم أن الحي لا يقدر علىٰ شيء يستلزم اعتقادهم الجبر، وهو اعتقاد فاسد ومذهب باطل، مخالف لمذهب أهل السنة.

وثانيًا: إننا لا نسلم أن قدرة الحي علىٰ بعض الأشياء تستلزم خلقه لأفعال نفسه؛ لأن الفرق بين الخلق والقدرة واضح جلي، لا يخفىٰ علىٰ من له أدنىٰ بصيرة، لأن المقصود هو القدرة الكسبية التي أقدرهم اللَّه عليها لعمارة الكون ومناط التكليف، فإن اللَّه سبحانه خلق في الأحياء القدرة والإرادة علىٰ التصرفات والأفعال، فخلق ﷻ فيهم الإرادة لاختيار ما يفعلون، والقدرة علىٰ تنفيذه، ليقيم عليهم الحجة في مخالفة الأوامر وفعل المناهي، يحملهم المسئولية بعد إبانته الهداية، كما هو مقرر عند أهل السنة المنزهين للَّه عن ظلم العباد، إذ لو لم يكن لهم قدرة استقلالية موهوبة من اللَّه لما ساغت مسؤوليتهم، ولما جازت عقوبتهم ومثوبتهم، فهذا معنىٰ خلق اللَّه لأفعال العباد.

وهم فاعلوها باختيارهم وهي كسب لهم يجزيهم اللَّه عليها بما يستحقون، بخلاف الأموات، فإن اللَّه لم يخلق فيهم هذه القدرة والإرادة التي جعلها اللَّه في الأحياء، فمن هنا جازت الاستغاثة والتوسل بالأحياء فيما أقدرهم اللَّه عليه دون الأموات الذين سلبهم اللَّه القدرة والإرادة بإماتته لهم، فالفرق بين الحي والميت ظاهر لا يخفىٰ إلا علىٰ فاسد العقيدة ممن يعتقد أن لهم تأثيرًا روحيًا كما سيأتي.

فهم يزعمون التسوية بين الحي والميت في نداء الميت والطلب منه بدون تفريق منهم بينهما، مع أن الفارق واضح في قدرة الحي ومحدوديتها،

بخلاف الميت الذي لو فرضنا له قدرة فلا نعلم حدها بالمشاهدة، وهل هي مساوية لقدرة الحي أو زائدة عليها أو ناقصة عنها؟ فلا بد من بيان بالنص القاطع علىٰ ذلك وإلا فدعواها مرتكزة علىٰ الأهواء.

وقد قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[(١)] فأوضح انقطاع عمله، وحاجته إلىٰ من يدعو له، والمحتاج إلىٰ دعاء غيره لا يسعف من يدعوه، بخلاف الحي فقد صرحت نصوص الكتاب والسنة الكثيرة علىٰ قدرته علىٰ الأشياء المنوطة به.

ومن تلبيساتهم أنه يجوز إطراء الرسول ﷺ بغير ما وصفت النصارىٰ عيسىٰ من الألوهية، والتوسل به بعد مماته بدون فرق عن حال حياته، ويرون القيام عند ذكر ولادته قربة، وكذلك النذر له والطواف بقبره، وتوجيه الوجه إلىٰ قبره من بعيد في البلاد الخارجة عن المدينة، وغير ذلك مما يعدونه تعظيمًا، وهذا مخالف لتعاليمه، فقد قال ﷺ: «**لا تطروني... إنما أنا عبد فقولوا: عبد اللَّه ورسوله**»[(٢)]، ونهاهم أن يقولوا سيدنا وابن سيدنا وقال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني أينما كنتم**»[(٣)]؛ فمزاعمهم هذه غلط فاحش ومصادمة لمقصود اللَّه من رسالته، والتمادي بها خطر علىٰ الدين، وأما القيام عند ذكر ولادته، والاتجاه إلىٰ قبره في كل مكان، فهذا من المحدثات البدعية الخطيرة، وكذا الطواف بقبره قياسًا علىٰ الكعبة، فإن الطواف بها مشروع دون غيرها، كما شرع تقبيل الحجر الأسود، فلا يجوز قياس غيره عليه، فإن كل هذه الأعمال البدعية ليست من تعظيمه، بل هي من تحقيره وتهوينه؛ لأنها بدعة لم تكن في الأمر الذي جاء به وسار

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه البخاري (٣٤٤٥).
(٣) تقدم تخريجه.

عليه، وإنما يكون تعظيمه بطاعته وحصر الاقتداء به، وتعظيم سنته، والتفاني في حمل رسالته وتوزيع هدايته.

وأما الاحتفال بالمولد فهو بدعة من مبتدعات الروافض من بني بويه ونحوهم كالعبيديين أفراخ اليهود، وقد صنف المفتونون بالبدع في المولد ورد عليهم علماء السنة ردودًا وافية شافية، ومن المتأخرين صاحب «المنار»، فإن له ردًّا بديعًا دامغًا للشبهات، وابن حجر الهيتمي الذي هو من أساتذة المبتدعة في هذا الشأن أنكر القيام عند ذكر ولادته ﷺ، وأبان أنها بدعة مكروهة شرعًا.

ومن تلبيساتهم في الاستغاثة بالمقبورين زعمهم أنهم لا يعتقدون التأثير في أهلها، وأن التأثير والنفع والضر من اللَّه والأمر للَّه، وأن الشرك هو في اعتقاد التأثير، وقد أسلفنا أن ذكر هذا القيد من مبتدعاتهم في تحديد الشرك، وأن المشركين الأوائل الذين ذمهم القرآن وأباح دماءهم وأموالهم ونساءهم لم يكونوا يعتقدون التأثير في أصنامهم، وأن غاية ما ذكر اللَّه عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ومع أنهم قد ابتدعوا هذا التحديد للشرك باعتقاد التأثير فإنهم كاذبون في زعمهم عدم اعتقاد التأثير بالمقبورين، بل إنهم يعتقدون أعظم التأثير فيهم علىٰ العموم، ولهم اعتقادات كثيرة طويلة عريضة يصعب نقلها كلها، وحكايات غريبة لا يهضمها إلا سخفاء العقول، فقد نقل النبهاني عن دحلان هذيانه الذي في كتابه «تقريب الأصول لتسهيل الوصول» وهو قوله: قد صرح كثير من العارفين أن الولي بعد وفاته تتعلق روحه بمريديه، فيحصل لهم ببركته أنوار وفيوضات، قال: وممن صرح بذلك قطب الإرشاد سيدي عبد اللَّه بن علوي الحداد، فإنه قال: الولي يكون اعتناؤه بقرابته واللائذين به بعد موته أكثر من اعتنائه بهم في حياته؛ لأنه في حياته كان مشغولًا بالتكليف، وبعد موته طرح عنه الأعباء وتجرد، والحي فيه خصوصية وبشرية، وربما غلبت إحداهما الأخرىٰ، وخصوصًا في هذا الزمان، فإنها تغلب البشرية، والميت ما

فيه إلا الخصوصية فقط.

ثم بقي يهذي إلىٰ أن قال: وكان الشيخ أبو المواهب ـ أيضًا ـ يقول: من الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد مماته أكثر مما ينفعه حال حياته، ومن العباد من تولىٰ اللَّه تربيته بنفسه بغير واسطة، ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه ولو ميتًا في قبره، فيربي مريده وهو في قبره، ويسمع مريده صوته من القبر، وللَّه عباد يتولىٰ تربيتهم النبي ﷺ ثم نقل كلام الفخر الرازي في الفصل الثالث عشر من كتابه «المطالب العالية» في بيان كيفية الانتفاع بزيارة القبور والموتىٰ، وهو قوله: إن الإنسان إذا ذهب إلىٰ قبر إنسان قوي النفس، كامل الجواهر، ووقف هناك ساعة، وحصل تأثير في نفسه حين حصل من الزائر تعلق بزيارة تلك التربة، فلا يخفىٰ أن لنفس ذلك الميت تعلقًا بتلك التربة ـ أيضًا ـ، فحينئذ يحصل لنفس الزائر الحي، ولنفس ذلك الإنسان الميت تعلق بتلك التربة وملاقاة بسبب اجتماعهما بتلك التربة ـ أيضًا ـ، فصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين متقابلتين، بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلىٰ الأخرىٰ، فكل ما حصل في نفس هذا الميت من المعارف والبراهين والعلوم الكسبية والأخلاق الفاضلة من الخشوع للَّه والرضىٰ بقضائه ينعكس منه نور إلىٰ روح هذا الحي الزائر، وبِهذه الطريقة تصير تلك الزيارة سببًا لحصول تلك المنفعة الكبرىٰ والبهجة العظمىٰ لروح هذا الزائر.

فهذا هو السبب الأصلىٰ في مشروعية الزيارة، ولا يبعد أن يحصل منها أسرار أخرىٰ أدق وأخفىٰ مما ذكرنا.

ثم قال أبو المواهب: قال بعض العارفين: وللأولياء عند زيارة الأولياء وقائع كثيرة تدل علىٰ اعتناء المزور بالزائر وتوجهه إليه بالكلية علىٰ قدر توجهه وقابليته. انتهىٰ ما نقله النبهاني في كتاب «الاستغاثة» عن الكتاب المذكور لدحلان، وإنما نقلناه ليفهم القارئ والسامع مدىٰ

تلبيس القبوريين وتدليسهم وشناعة كذبهم في دفعهم حكم الشرك عنهم بزعمهم عدم اعتقادهم التأثير، ويأبىٰ اللَّه إلا أن يفضحهم بما سجلوه بأقلامهم من اعتقاد التأثير بالأموات إلىٰ حد السخافة والخرافة التي لا يهضمها ولا يقبلها من عنده ذرة من عقل وذرة من إيمان.

وإنني ليحزنني أن أشغل أقل جزء من وقتي بكتابة هذه الخرافات والسخافات، ولكن لإظهار حقيقة هؤلاء وشناعة افترائهم علىٰ اللَّه بِهذه المزاعم التي يؤيدون بها باطلهم، وليس عندهم بها أي حجة أو برهان، بل هي مبتورة وكلها كذب يعلم بطلانه وسفاهة أهله ببداهة العقول، وهي مرتكزة علىٰ فلسفات اليونان والزنادقة كابن سينا وأضرابه، قال الآلوسي: وجميع من نقل عنه ذلك الهذيان كانوا من غلاة الشافعية فقط، ومن المؤسف علىٰ هذا المذهب أن يدنسه هؤلاء الغلاة وأضرابهم مع ما كان عليه الإمام الشافعي من الاتباع للسنة، وقد صان اللَّه تعالىٰ السادة الحنفية والمالكية والحنابلة من مثل هذه العقيدة الزائفة والقول الباطل. انتهىٰ.

ومن تدبر ختام اللَّه لآيات الشرك بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ اتضح له ما يعلمه اللَّه من سوء نتائج الشرك وسوء عاقبته، ولم يعجب من نقص عقولهم وفساد تصوراتهم وانحراف عقيدتهم عن ملة إبراهيم، وافترائهم علىٰ اللَّه بزعمهم تأثير الأولياء في تربية مريديهم لهم وزائريهم بعد الموت أكثر مما في الحياة، واعتقادهم قوة التأثير إلىٰ هذا الحد الذي لا يهضمه ولا عقل الحيوان.

ولا شك أن اعتقادهم هذه القدرة التي هي أعظم من قدرة الحي افتراء علىٰ اللَّه افتراء قبيحًا، فإن كل ما لم يَرد برهان قاطع هو افتراء قبيح علىٰ اللَّه، وضلال بعيد من الحق الذي أنزله ومشاقة للَّه ورسوله، وفيه جناية علىٰ العقول بالفتنة عن الطريقة المحمدية أشد من القتل،

وأكبر من القتل كما وصفها اللَّه، وقد أعرضت عن كتابة شيء كثير لسماجته ولعدم الإطالة بذكره.

ومن شبهات غلاة القبوريين الخطيرة زعمهم حياة الأنبياء والشهداء والأولياء حياة كاملة في قبورهم أعظم إحساسًا وكمالًا من حياتهم الأولىٰ وخصوصًا سيدنا ونبينا محمد ﷺ، فقد جعلوه حيًّا محبوسًا مطمورًا في قبره يتصل به بعض الأولياء، وبعضهم لا يغيب عن مشاهدته لحظة، وهذا من أكبر الافتراء علىٰ اللَّه والطعن برسله مما لم يسبقهم إليه أي مشرك وكافر في غابر القرون.

وليت شعري كيف غاب الرسول عن أفضل أولياء اللَّه وأشرف أحبابه أبي بكر وعمر وغيرهما يوم السقيفة وقول الأنصار: منا أمير ومنكم أمير؟ وكيف غاب أو صمت لسانه عند اختلاف عمر مع أبي بكر في قتال أهل الردة، فلم يرشدهم إلىٰ الصواب لا في هذا ولا في هذا.

وقد اختلف الصحابة في مسائل علمية هامة في المواريث وغيرها فلم يستفتوا رسول اللَّه ﷺ في شيء منها أبدًا، ولم يتصل هو بأحد منهم لا يقظة ولا منامًا فيرشده إلىٰ الصحيح من الخلاف، حتىٰ إن فاطمة ريحانته ﷺ أتت إلىٰ أبي بكر تطلب ميراثها من بستان فَدَك فأورد لها حديث أبيها: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة**»[1]، فقامت وهي عليه غضبىٰ، ولم تستفت أباها الرسول في قبره، وكذلك زوجها عليٌّ، ولا كتبت كتابًا إلىٰ الرسول، ثم حصلت الفتنة علىٰ عثمان من أهل مصر وغيرهم، فلم يستفتوا الرسول في قبره وهو قريب منهم جدًّا، وحتىٰ عثمان ما شكا له أمره، وجرىٰ النزاع العظيم والفتنة الهائلة بين علي - أقرب الناس إليه وأحبهم - وبين معاوية، وجرىٰ بينهما من ضراوة الاقتتال والقتل حتىٰ ليلة الهَرير، ولم يرجع أحد منهم إلىٰ الرسول ﷺ في هذه المعضلة التي

(١) رواه البخاري (٣٠٩٢)، ومسلم (١٧٥٩).

ليس لها مثيل، فهل هذا عن جهل منهم بحياته ومنافعه، أو إعراض عن إرشاده وهدايته لحل مشاكلهم؟

إنهم منزهون عن كل هذا، ولكن لقوة يقينهم بانتهاء مهمته وعدم قدرته علىٰ شيء بتاتًا؛ لم يرجعوا إليه كحال السخفاء الذين مزجت عقيدتهم وفسدت تصوراتهم. فالصحابة ﷺ مع الخلفاء الراشدين لما كانوا هم ورثة محمد ﷺ في رسالته، وهم حملة الدين وحماته وهم الذين قاموا بالمد الإسلامي حتىٰ طبق الآفاق حماهم اللَّه وصانهم من غش الشيطان وتلبيسه، حتىٰ جعله لم يطمع في ضلالهم كما أضل غيرهم من أهل البدع الذين تأولوا القرآن علىٰ غير تأويله، وجهلوا السنة، فإذا رأوا أو سمعوا شيئًا من الخوارق ظنوها من جنس آيات الأنبياء والصالحين، وهي من أفعال الشياطين، فلم يفهموها لجهلهم بحقائق الوحي، فأضلتهم الشياطين كما أضلت النصارىٰ وأهل البدع الذين يتبعون المتشابه من الحجج العقلية والنقلية.

فالصحابة لقوة علمهم ويقينهم وانطباعهم بهدي الرسول، وقربهم منه، لم يطمع الشيطان في إضلالهم، فلم يتمثل لهم بصورة النبي، ولم يخاطبهم علىٰ لسانه أو يسمعهم صوتًا يشبه صوته كما يفعل بالقبوريين عند زيارتهم للولي، فلم يقل الشيطان للصحابة شيئًا علىٰ لسان الرسول يأمرهم أن يأتوا إلىٰ قبره أو يستفتوا به أو يستفتوه، وذلك لاستيقانه أنهم يعرفون ويعتقدون عدم جواز هذا وعدم حصوله في الميت مهما كان، وكذلك لم يطمع الشيطان أن يأتي إلىٰ أحد منهم ويقول له: أنا من رجال الغيب أو الأوتاد الأربعة أو السبعة والسبعين أو الأربعة والأربعين، أو يقول له: أنت منهم، ونحو ذلك مما يغش به المغفلين من الذين نسوا حظًّا مما ذكروا به؛ لأنه خبيث يعرف إنكارهم عليه وعدم قبولهم شيئًا من وسوسته وتلبيسه، فلم يفعل معهم شيئًا مما يفعله مع أهل الكتاب والمشركين الذين يرون بعد الموت من يعظمونه، فأهل الهند يرون من يعظمونه من شيوخهم الكفار وغيرهم، والنصارىٰ يرون من

يعظمونه من الأنبياء والحواريين وغيرهم.

والضُلال من أهل القبلة المتأخرين يرون من يعظمونه، إما النبي ﷺ أو غيره، ويخاطبهم ويخاطبونه يقظة ويستفتونه بنيتهم، لكن الشيطان لا يتمثل بالصورة الحقيقية لنبينا ﷺ، بل يغشهم ويلبس عليهم الأمر، ويتكلم بما يرضيهم في بعض الأوقات، ويوافق أذواقهم ليفتنهم عن الاتباع والمنهج الصحيح، حتىٰ قيل إن منهم من يخيل له أن الحجرة قد انشقت وخرج منها النبي ﷺ فعانقه هو وصاحباه.

ومنهم من يخيل إليه أنه رفع صوته بالسلام حتىٰ وصل مسيرة أيام إلىٰ مكان بعيد، قال الألوسي: أعرف ممن وقع له هذا وأشباهه عددًا كثيرًا يطول هذا الموضع بذكرهم، وهذا موجود عند كثير من النصارىٰ والمشركين، لكن كثيرًا من الناس يكذب بِهذا، وكثيرًا منهم إذا صدق به يعتقد أنه من الآيات الإلهية، وأن الذي رأىٰ ذلك رآه لصلاحه ودينه، ولم يعلم أنه من الشيطان، وأنه أضل من فعل به ذلك، وأنه بحسب قلة علم الرجل يضله، ومن كان أقل علمًا قال له ما يخالف الشريعة، ومن عنده علم بها لا يقول له ذلك ولا يفيده فائدة في دينه، بل يضله عن بعض ما كان يعرفه.

ومكر الشياطين في الإغواء مكر دقيق إن استفاد منه الرائي شيئًا فالذي خسره من دينه أكثر، ولهذا لم يقل قط أحد من الصحابة أن الخضر أتاه، ولا موسىٰ ولا عيسىٰ، ولا أنه سمع رد النبي ﷺ، وعبداللَّه ابن عمر كان يسلم ولم يقل قط أنه سمع الرد، وكذلك لم يكن أحد من الصحابة يأتيه عند القبر يسأله عن بعض ما تنازعوا فيه كما أسلفنا ذلك، وذلك لأن الشيطان لم يطمع فيهم، ولأنهم يعرفون حقيقة الحياة البرزخية، علىٰ خلاف ما لعب الشيطان به علىٰ غيرهم، ولم يكن الصحابة يدخلون إلىٰ القبر في بيت عائشة، ولا يقفون عنده خارجًا، مع أنهم يدخلون إلىٰ مسجده ليلًا ونهارًا، وكانوا يقدمون من الأسفار للاجتماع بالخلفاء الراشدين وغير ذلك فيصلون في مسجده، ويسلمون عليه في

الصلاة، وعند دخول المسجد والخروج منه، ولا يأتون القبر، إذ كان عندهم هذا مما لم يأمرهم به ولم يسنه لهم، وإنما أمرهم وسن لهم الصلاة والسلام عليه في الصلاة، وعند دخولهم المساجد وغير ذلك.

وما فعله ابن عمر فهو رأي منه، وكان يقتصر علىٰ السلام ثم ينصرف ولا يقف، ولم يكن جمهور الصحابة يفعلون ذلك لعدم اعتبار مندوبيتها عندهم، وكذلك أزواجه يسافرن إلىٰ الحج ويرجعن إلىٰ بيوتهن دون السلام عليه كما وصاهن بذلك، وكانت أمداد اليمن تأتي إلىٰ أبي بكر وعمر للجهاد أفواجًا، ويصلون خلف أبي بكر وعمر في مسجده، ولا يدخل أحد منهم إلىٰ داخل الحجرة لما كانت مكشوفة، ولا يقف خارجها لا لدعاء ولا صلاة ولا سلام[(١)]، وكانوا عالمين بسنته، كما علمهم الصحابة أن حقوقه ملازمة لحقوق اللَّه، وأن جميع ما أمر اللَّه به وأحبه، فإن المسلم مأمور بها في جميع المواضع والبقاع، فليست الصلاة والسلام عليه عند قبره بأوكد من ذلك في غير ذلك المكان، بل صاحبها مأمور بها حيث كان، إما مطلقًا وإما عند الأسباب المؤكدة لها كالصلاة والدعاء والأذان.

ولم يكن شيء من حقوقه ولا شيء من العبادات هو عند قبره أفضل منه في غير تلك البقعة، بل نفس مسجده له فضيلة لكونه مسجده ومن اعتقد أنه قبل القبر لم يكن له فضيلة، إذ كان النبي ﷺ يصلي فيه والمهاجرون والأنصار، وإنما حدثت له الفضيلة في خلافة الوليد بن عبد الملك لما أدخل الحجرة في مسجده، فهذا لا يقوله إلا جاهل مفرط في الجهل، أو كافر فهو مكذب لما جاء مستحق للقتل، وكان الصحابة يدعون في مسجده كما كانوا يدعون في حياته، لم يتجدد لهم شريعة غير الشريعة التي علمهم إياها في حياته، وهو لم يأمرهم إذا كان لأحدهم حاجة أن يذهب إلىٰ قبر نبي أو صالح فيصلي عنده

---

(١) وهذه القضايا كلها تحتاج إلىٰ دليل.

ويدعوه، أو يدعو بلا صلاة، أو يسأله حوائجه، أو يسأله أن يسأل ربه.

فقد علم الصحابة أن رسول اللَّه ﷺ لم يأمرهم بشيء من ذلك، ولا أمرهم أن يخصوا قبره أو حجرته لا بصلاة ولا دعاء لا له ولا لأنفسهم، بل قد نهاهم أن يتخذوا قبره عيدًا، فلم يقل لهم كما يقول بعض الشيوخ الجهال لأصحابه: إذا كان لكم حاجة فتعالوا إلىٰ قبري، بل نهاهم عما هو أبلغ من ذلك أن يتخذوا قبره أو قبر غيره مسجدًا يصلون فيه، ليسد ذريعة الشرك، فصلىٰ اللَّه عليه وعلىٰ آله وأصحابه وجزاه عنا أفضل ما جزىٰ نبيًّا عن أمته، فقد بلغ الرسالة، وأدىٰ الأمانة ونصح الأمة.

ومع هذا فقد لعن من يتخذ قبور الأنبياء مساجد، فعن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل برسول اللَّه ﷺ طفق يطرح خميصة له علىٰ وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «**لعنة اللَّه علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». يحذر مما صنعوا[(١)]. انتهىٰ باختصار وتصرف.

وقد قال قبل هذا إن الشيطان لم يطمع فيهم، فيقول لهم اطلبوا منه أن يدعو لكم بالمطر لما أجدبوا، ولا قال: اطلبوا منه أن يستنصر لكم ولا أن يستغفر كما كانوا في حياته يطلبون منه أن يستسقي لهم وأن يستغفر لهم، فلم يطمع الشيطان فيهم بعد موته أن يطلبوا منه ذلك!! ولا طمع بذلك في القرون الثلاثة، وإنما ظهرت هذه الضلالات ممن قل علمه بالتوحيد والسنة فأضله الشيطان كما أضل النصارىٰ في أمور، لقلة علمهم بما جاء به المسيح ومن قبله من الأنبياء.

وكذلك لم يطمع الشيطان أن يطير بأحدهم في الهواء ولا أن يقطع به الأرض في مدة قريبة كما يقع مثل هذا لكثير من المتأخرين؛ لأن الأسفار التي كانوا يسافرونها كانت طاعات كسفر الحج والعمرة والجهاد، وهم يثابون علىٰ كل خطوة يخطونها، وكلما بعدت المسافة

---

(١) تقدم تخريجه.

كان الأجر أعظم، فلم يتمكن الشيطان أن يفوتهم ذلك الأجر، وأن يحملهم في الهواء أو يؤزهم في الأرض أزًّا حتىٰ يقطعوا المسافة بسرعة، وقد علموا أن اللَّه أسرىٰ بنبيه ﷺ من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ ليريه من آياته، وأنه أراه في المعراج من آياته الكبرىٰ وأن ذلك من خصائصه، فليس لمن بعده هذا المعراج، ولكن الشيطان يخيل للمتأخرين معارج شيطانية.

وأما قطع النهر الكبير بالسير علىٰ الماء، فإنه قد يحتاج إليه المؤمنون في الجهاد فيسره اللَّه لهم حيث لا يمكنهم العبور بدونه إكرامًا لهم وقمعًا لأعدائهم، لأن الجهاد لا يكمل بدونه، فجمَّد اللَّه نهر دجلة لجيش سعد بن أبي وقاص، فعبروه إلىٰ المدائن، لم تبتل أقدامهم، وكما أكرم اللَّه ابن العلاء الحضرمي وأصحابه بعبور خيلهم علىٰ البحر، وكذلك أبا مسلم الخولاني وغيرهم مما لا يمكن بسطه في مثل هذا، لكن المقصود أن الصحابة خير القرون وأفضل الخلق بعد الأنبياء، فما ظهر فيمن بعدهم مما يظن أنها فضيلة للمتأخرين، ولم تكن في الصحابة فإنها من الشيطان وهي نقيصة لا فضيلة، سواء كانت من جنس العلوم أو العبادات، أو من جنس الخوارق والآيات، أو السياسة أو الملك، بل خير الناس بعدهم أتبعهم لهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه من كان منكم مستنًّا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ أبر هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، وقد اختارهم اللَّه لصحبة نبيه ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا علىٰ الهدي المستقيم.

والمقصود هنا أن الصحابة تركوا البدع المتعلقة بالقبور ـ قبر النبي ﷺ وقبر غيره ـ لنهيه عن ذلك، ولئلَّا يتشبهوا بأهل الكتاب الذين اتخذوا قبور الأنبياء أوثانًا، وقد كان بعضهم يسلم عليه عند قبره كما يسلم عليه في حياته كابن عمر، وما لم يجمعوا عليه مع الخلفاء أو

دونهم فلا يعتبر مسنونًا، وإنما يكون سائغًا؛ لأن الحكم الشرعي لا يثبت إلا بدليل شرعي، وقد جاء هذا عامًّا لجميع أموات المسلمين في قوله ﷺ: «**ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه، إلا رد اللَّه عليه روحه حتىٰ يرد عليه السلام**»[١].

فإذا كان رد السلام موجودًا في عموم المسلمين فهو في أفضل الخلق أولىٰ، وإذا سلم المسلم عليه في صلاته فإنه وإن لم يرد عليه فإن اللَّه يسلم عليه عشرًا كما ورد في الحديث، فاللَّه سيجزيه علىٰ هذا السلام أفضل مما يحصل بالرد، كما أن من صلىٰ عليه صلاة واحدة صلىٰ اللَّه عليه بها عشرًا.

وقد دلهم ﷺ علىٰ أفضل العبادات وأفضل البقاع، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول اللَّه أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة علىٰ وقتها**»، قلت: ثم أي. قال: «**بر الوالدين**». قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل اللَّه**»[٢].

ونص علىٰ أن خير البقاع المساجد، وأنها أحب البقاع إلىٰ اللَّه، ومع هذا لعن من يتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، وهو في مرض الموت نصحًا للأمة وحرصًا علىٰ هداها. انتهىٰ قوله باختصار ولعله منقول عن ابن تيمية.

وقد أجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عما راج عند الناس من أن أهل بغداد يندفع البلاء عنهم بالقبور الثلاثة التي عندهم، وأهل الشام بقبر الخليل ونحوه، وأهل مصر بقبر نفيسة، وأهل الحجاز بقبر المصطفىٰ ﷺ بأن هذا غلو مخالف لدين المسلمين، ومخالف للكتاب والسنة، فبيت المقدس عنده من قبور الأنبياء والصالحين ما شاء اللَّه، فلما عصوا الأنبياء وخالفوا أمر اللَّه سلط عليهم من انتقم منهم، والرسل الموتىٰ ما

---

(١) رواه الخطيب في «التاريخ» (٦/ ١٣٧).
(٢) رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

عليهم إلا البلاغ، وقد بلغوا رسالة ربهم، وقد ضمن اللّٰه لكل من أطاع الرسول أن يهديه وينصره، وكل من خالف الرسول استحق العذاب.

وكان أهل المدينة في عهد الخلفاء الراشدين أفضل أهل الدنيا لتمسكهم بطاعة اللّٰه ورسوله، ثم تغيروا بعض التغير، فقتل عثمان، وخرجت خلافة النبوة من عندهم، وصاروا رعية لغيرهم، ثم تغيروا بعض التغير فجرىٰ عليهم عام الحرة من النهب والقتل وغير ذلك من المصائب ما لم يجر عليهم قبل ذلك، والذي فعل بهم ذلك وإن كان ظالمًا فليس أظلم ممن فعل بالنبي ﷺ وأصحابه ما فعل، فقد قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾.

وكان ﷺ يقول في خطبته: «**من يطع اللّٰه ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه ولا يضر اللّٰه شيئًا**»(١).

وقال الشيخ بعد تفصيل تعظيم اللّٰه ورسوله الواجب علىٰ كل مسلم: وبالجملة فالتعظيم النافع هو تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والموالاة والمعاداة والحب والبغض من أجله وفيه، وتحكيمه وحده والرضىٰ بحكمه، وأن لا يتخذ من دونه طاغوتًا يكون التحاكم إلىٰ أقواله فما وافقها من قول الرسول قبله، وما خالفها رده أو تأوله أو أعرض عنه.

واللّٰه سبحانه يشهد وملائكته ورسله وأولياؤه أن عباد القبور وخصوم الموحدين ليسوا كذلك، وهم يشهدون علىٰ أنفسهم بذلك، وما كان لهم أن ينصروا دينه ورسوله شاهدين علىٰ أنفسهم بتقديم آراء شيوخهم وأقوال متبوعيهم علىٰ قوله ﷺ وأنه لا يستفاد من كلامه يقين، وأنه إذا عارضته آراء الرجال قدمت عليه، وكان الحكم ما تحكم به، أفلا يستحي من اللّٰه من هذا حاله في أصول دينه وفروعه أن يستتر بتعظيم القبر، ليوهم الجهال أنه معظم لرسول اللّٰه، ناصر له، منتصر له ممن

---

(١) رواه أبو داود (١٠٩٧).

ترك تعظيمه وانتقصه، ويأبىٰ اللَّه ذلك ورسوله والمؤمنون: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

فالذين يتقدمون بين يدي اللَّه ورسوله بقوانين اليونان، ويعارضون قول اللَّه ورسوله بما يسمونه معقولات يقينية قطعية، ثم يقدمونها علىٰ نصوص وحي اللَّه زاعمين أن دلالته ظنية لا توصلهم إلىٰ اليقين، مقلدين في ذلك شيوخهم غير معتقدين بالمصطفىٰ ﷺ وأصحابه، وليس بواسعهم ما وسع الرسول وأصحابه، فهؤلاء هم المنتقصون للرسول، وهم الذين عن تعظيمه وإجلاله بمكان بعيد؛ لأن الذي عنده ذرة من التعظيم الصحيح لا يصدر منه هذا القول أبدًا، لأن تعظيمه ﷺ بمحبة ما يحبه وبغض ما يبغضه، والرضىٰ بما يحبه، والابتعاد عما حذر منه، وأن لا يُقدم علىٰ قوله قول سواه من أي الفلاسفة والشيوخ مهما كان، وأن يعتقد البيان الكامل، واليقين الصحيح، والدلالة القاطعة فيما جاء به من الوحي كتابًا وسنة، عكس ما هم عليه من رفض النصوص الصحيحة المحكمة، والتعلق بأحاديث ضعيفة أو باطلة في تقديس القبور والعمل عندها، كما يعمله حجاج بيت اللَّه، لا ينقص عندهم سوىٰ رمي الجمار، والوقوف بعرفة، والمبيت بمنىٰ، وإلا فقد يحصل منهم عند قبره ﷺ من الخشوع والخضوع والذل والبذل ما لا يحصل منهم عند الكعبة البيت الحرام.

فهؤلاء مناقضون لما جاء به من الوحي كل المناقضة، ومخالفون لأوامره، وسالكون ما أبغضه ونَهَىٰ عنه ولعن فاعله والعياذ باللَّه، فهم المنتقصون لمحمد ورب محمد علىٰ الحقيقة، وخصومهم السلفيون هم المعظمون لهما، والعجب أن طريقتهم مبنية علىٰ الافتراء والحكايات الكاذبة، كما ينسب إلىٰ السيد الرفاعي من مد الرسول يده الشريفة من الشباك وتقبيله لها، وكذب هذا القول مفهوم من عدم سنده بأي رواية، ومن استحالة رؤيته بعد موته ﷺ، ومن عدم ذكر المؤرخين لحياة الرفاعي هذه القصة الخرافية، حتىٰ الشيخ السبكي علىٰ ما فيه

من الخرافة لم يذكرها في ترجمته، مع أنها لو كان لها شيء من الحقيقة لكانت أحق بالذكر؛ لأنها من أعظم الخوارق وأعجبها لو صحت، وهي أعظم من قصة الهرة النائمة علىٰ مكة والبعوضة والكلاب ونحوها.

وهذه القصة الخارقة لو صحت لتوفرت الدواعي علىٰ نقلها، لأنها حدث عظيم يستحق الذكر، ولكن لكونها باطلة لم تذكر في تراجمه، وإنما ذكرها الدجالون بعد موته ممن ألحقوا نسبه بإبراهيم المرتضىٰ ابن موسىٰ بن جعفر الكاظم، وهو لم يدع ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن قبح دجلهم المفضوح زعمهم أن الحاضرين الذين رأوا اليد وسمعوا الكلام مائة ألف أو يزيدون، مع أن المكان لا يسع معشار هذا العدد، وحتىٰ المعشار لا يمكنهم كلهم الرؤية والسماع، وأيضًا فإن البيتين اللذين قالهما لم ينسبا له، وإنما هي لابن الفارض الذي لا يرتضي طريقته، وكفىٰ بما ذكره صلاح الدين الصخري شاهدًا علىٰ بطلان ما ادعاه غلاة الرفاعية، وأيضًا فإن القبر قد أحاطت به الجدران، فمن أي موقع أو جهة خرجت اليد؟

ومن المعلوم أنه إذا كان هناك أمر عجيب غريب يتهاجم علىٰ رؤيته الحاضرون، فلا يمكن الرؤية إلا للقريب الذي هو قليل، فهذه الأكذوبة لا تروج إلا علىٰ ضعفاء العقول، ناقصي العقيدة، فاقدي التصور الصحيح، قال الألوسي ـ بعد سرده القدح في هذه القصة وتفنيد أهلها ـ إني أقول بعد هذا كله: إن ما نسب إلىٰ بعض الكاملين من أرباب الأحوال من رؤية النبي ﷺ بعد وفاته وسؤاله والأخذ عنه؛ لم نعلم وقوع مثله في الصدر الأول، وقد وقع اختلاف بين الصحابة رضي الله عنهم من حين توفي إلىٰ ما شاء اللَّه في مسائل دينية وأمور خلافية عظيمة وفيهم الخلفاء الراشدون، وإلىٰ أبي بكر وعلي ينتهي أغلب سلاسل الصوفية الذين تنسب إليهم تلك الرؤىٰ، ولم يبلغنا أن أحدًا منهم ادعىٰ أنه رأىٰ في اليقظة رسول اللَّه وأخذ عنه ما أخذ، وكذلك لم يبلغنا أنه ﷺ ظهر لمتحير في أمر من أولئك الصحابة الكرام فأرشده وأزال تحيره.

وقد صح عن عمر أنه قال في بعض الأمور: ليتني كنت سألت رسول اللَّه عنه، ولم يصح عندنا أنه توسل إلىٰ السؤال منه بعد الوفاة نظير ما يحكىٰ عن بعض أرباب الأحوال، وقد وقفت علىٰ اختلافهم في حكم الجد مع الإخوة فهل وقفت علىٰ أن أحدًا منهم ظهر له الرسول ﷺ فأرشده إلىٰ ما هو الحق فيه، وقد بلغك ما عرا فاطمة البتول رضي الله عنها من الحزن العظيم علىٰ وفاته ﷺ، وما جرىٰ لها في أمر فدك، فهل بلغك عنه ﷺ أنه ظهر لها كما يظهر للصوفية فبلَّ لوعتها، وهون حزنها، وبين الحال لها؟

وهل سمعت بذهاب عائشة إلىٰ البصرة وما كان من وقعة الجمل، فهل سمعت تعرضه لها قبل الذهاب وصده إياها عن ذلك؛ لئلَّا يقع أو تقوم الحجة عليها علىٰ أكمل وجه؟ إلىٰ غير ذلك مما لا يكاد يحصىٰ كثرة.

والحاصل أنه لم يبلغنا ظهوره عليه الصلاة والسلام لأحد من أصحابه وأهل بيته مع احتياجهم الشديد لذلك، وأما زعم ظهوره عند باب قباء كما يحكيه بعض الشيعة فهو افتراء محض وبُهت. انتهىٰ باختصار.

وللشيخ ابن تيمية كلام بديع في كتابه «الجواب الباهر» أثبت فيه كلام بعض الأصنام للمشركين، وبعض المقبورين للزائرين، وأنها من طريقة إغواء الشياطين لبني آدم، ولا نطيل بنقله، بل نشير إليه للمراجعة كما له في غير هذا الكتاب من الكلام المفيد.

ومن شبهاتهم التي سوغت لهم التعلق بالخرافات والأباطيل والحكايات الكاذبة اعتقادهم الجائر عن الحياة البرزخية أنها مساوية للحياة الأولىٰ في الدنيا من جميع الوجوه، وخصوصًا حياة النبي عندهم ﷺ.

وهذا القول مما يُعلم ـ واللَّه ـ بالضرورة بطلانه وفساد لوازمه الدالة علىٰ فساد القول به من الأساس، فإنه لو كان حيًّا في قبره حياة

مماثلة لحياته في الدنيا لم يجز أن يحبس في قبره ويسجن ذلك السجن الموحش الطويل، وأيضًا فلو كان حيًّا في قبره علىٰ هذه الحال لكان يرشد أمته ويفتيهم ويحل مشاكلهم وأزماتهم واختلافاتهم فيريحهم مما أصابهم، ولو اعتقد أصحابه ذلك لجاءوه واستغاثوا به مما أصابهم من الملمات الخطيرة، وشكوا إليه كما كانوا يفعلون معه في حياته.

فكل هذا دليل علىٰ أنهم اتفقوا علىٰ موته كما أخبر القرآن، وأن حياته البرزخية قاصرة، وشأنها غير شأن الحياة المعروفة، ولم يرد نص صحيح علىٰ بعثه من موته وجعله حيًّا في قبره، وإنما هي أوهام ووساوس، وقد ثبت أن الناس لهم ميتتان وحياتان، فعلىٰ قول المخرفين بحياة الرسل يكون لهم ثلاث ميتات، وهذا مع مخالفته لوحي اللَّه لا يقوله إلا من لم يبال بالأقوال التي لا مستند لها، وأما قياسهم علىٰ حياة الشهداء:

فأولاً: إن الشهيد تحل نساؤه لمن بعده، وتعتد نساؤه، ويقسم ماله ويحكم عليه بما يحكم علىٰ أموات المسلمين، لكن المراد بحياتهم أنها حياة برزخية تبتهج النفس بما تجده من رضوان اللَّه وتعجيل النعيم في البرزخ، والرسل أكمل حالة منهم بلا ريب، لكن ليست حياتهم مساوية ولا مقاربة للحياة في الدنيا أبدًا، فمهمتهم انقطعت بالموت انقطاعًا ظاهرًا محسوسًا، وأكرمهم رسولنا ﷺ فقد انقطعت سائر أحكامه ووظيفته بالموت من الإمامة الصغرىٰ والكبرىٰ، وقيادة الجهاد والصلاة والصوم والحج وأخذ الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي كان أصحابه بعده في أمس الحاجة إلىٰ صدوره من عنده، كما انقطع تحريضه علىٰ القتال والمشاورة وتجهيز الجيوش وبعث السرايا، فمن زعم حياته في معنىٰ انقطاعه؟!.

وثانيًا: إن القياس لا يجوز في مقابلة النص كما لا يجوز تجاوزه علىٰ المقيس عليه، فإن الشهداء لم يختصوا بأحكام عن غيرهم بعد موتهم سوىٰ عدم تغسيلهم وتكفينهم والصلاة عليهم، وأما استدلالهم

بتحريم نسائه من بعده فيدل علىٰ جهلهم بحقائق الأمور وصورة الواقع مما قضاه اللَّه في وحيه، فإن تحريم نساء النبي ﷺ لعدة أمور:

أحدها: أنهن نساؤه في الدنيا والآخرة، وذلك أنه لما خيرهن في الآية (٢٨/٢٩) من سورة الأحزاب بين البقاء في عصمته وبين إرادة متاع الدنيا وزينتها اخترن اللَّه ورسوله، فشكر اللَّه عملهن ولم يزل سبحانه شكورًا لأعمال عباده، فمنع رسوله من الزواج عليهن، ومن استبدال غيرهن بهن مهما أعجبه الجمال، وجعلهن زوجاته في الدنيا والآخرة، فلذلك حَرُمن علىٰ غيره، ليس لأجل أنه حي كما هو في الدنيا، فإن هذا لا يتفوه به عالم يحترم نفسه وعلمه، ولا يستقر عليه قدمه.

وثانيها: أنهن أمهات المؤمنين بنص القرآن في المحبة والتوقير والتعظيم والاحترام، فلا يناسب أن يتزوجهن أحد بعده؛ لأنه السبب في أمومتهن للمسلمين.

ثالثًا: أنه يجب تقديم محبته ﷺ علىٰ كل محبة بعد محبة اللَّه، فمنع اللَّه من كل ذريعة تحول دون هذا المقصود ودون تكميله، ولا شك أن تزوج الرجل بزوجة الرجل من بعده من جملة الدواعي لنقصان المحبة، وفي تحريمهن علىٰ المؤمنين حكم غير ذلك.

ومما يبطل دعواهم في الحياة أن زوجاته قد اعتددن بعده ولزمن الإحداد أربعة أشهر وعشرًا، وأن فاطمة طلبت إرثها من فدك فأجابها الخليفة بقوله ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**»[(١)]، ولم يقل: إنه حي لا يورث، وكذلك العباس طلب حقه من الإرث بالتعصيب الشرعي من عمر وحتىٰ من علي رضي الله عنه فلم يجبه واعتذر بِهذا الحديث، فكان مستقرًّا موته الحقيقي عند فاطمة وعلي والعباس وجميع الخلفاء والصحابة، والذي يجب اعتقاده أن للحياة البرزخية غير ما للحياة الدنيوية من الأحكام، فمن قاس إحداهما علىٰ الأخرىٰ وبنىٰ عليه

---

(١) تقدم تخريجه.

إباحة الدعاء وحكم المجيء إليه بعد وفاته للاستغفار فقد خالف العقل والنقل، وخالف كل الأمة خيرة خلق اللَّه، وأصبح تصوره وفعله بديهي البطلان.

فإن حكم المجيء إليه بعد موته للاستغفار قد انقطع وزال بموته، ولهذا لم يعمله أحد من الخلفاء والصحابة قاطبة والتابعون ومن تبعهم بإحسان، ولا يعرف وجود غير رواية العتبي التي يصعب تصحيحها، و لو صحت فليست بحجة، ولا يجوز لأحد في الأمة الاعتماد عليها ولا تقليده فيها.

وقد فهم علماء السلف من معنىٰ الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أن استغفار الرسول لهم يكون بعد استغفاره هم من ظلم أنفسهم في حياته، وردوا علىٰ من لم يعتبر استغفاره بعد الاستغفار بأربعة عشرة وجهًا مقحمة للقبوريين ونحوهم، وأنه ليس عندهم في قبول استغفارهم بعد موته، وشفع استغفارهم منه باستغفاره أي دليل من كتاب أو سنة معتمدة، وما عندهم سوىٰ الظن والتخمين وأنه ليس ممكنًا، ولو كان ممكنًا لأمرهم به ﷺ وحثهم عليه لقوة نصحه للأمة وشفقته عليها، ولبادر إليه الصحابة الذين هم خير القرون، إذ لو كان هذا المفهوم صحيحًا ومنصوصًا عليه منه لصار مجيء كل مذنب إلىٰ قبره للاستغفار قربة مطلوبة بالشرع يأثم المصر علىٰ تركها، وهذا مما لم يقل به أحد من المسلمين ولا يطيقه أكثر الناس لكثرة تكرر الخطايا الموجبة للاستغفار علىٰ يديه، وعدم وقوفها عند حد أبدًا.

ويلزم ـ أيضًا ـ من ذلك من أن يكون جميع سلف الأمة بأكابرها المقيمين في المدينة من السلف والخلف مذنبين لتركهم هذه القرية لو كان مأمورًا بها علىٰ العموم كما زعم القبوريون، ولكان الزاد والراحلة غير مشروط في السفر من أجلها كما هو مشروط في الحج والسفر إلىٰ المساجد الثلاثة، وهذه اللوازم الفاسدة لا يلتزمها إلا

الجاهل أو مغرض معاند.

وأما الروح فقد خلقها اللَّه للبقاء، وإذا مات العبد بقيت منعمة أو معذبة علىٰ حسب ش حال صاحبها، ولها اتصال بالبدن الذي خرجت منه حسب ما يدبرها اللَّه، وقد صنف العلماء فيها المصنفات وأحسنها كتاب «الروح» لابن القيم، ويجب اعتقاد ما وصفت فيه الروح بنصوص الوحي خلافًا لمعتقدات أهل الكلام أنها ليست داخل الجسم ولا خارجه، فإن هذا في الحقيقة نفي لها، كما قالوه في اللَّه سبحانه من أنه لا داخل العالم ولا خارجه، مما رد عليهم أهل السنة بأن هذا لا يوصف به إلا العدم المحض والعياذ باللَّه.

هذا ولا نطيل بذكر مسائل التخريف والشرك في القبور، وشبهات أهله المبنية علىٰ اعتقاد الحلول والاتحاد المشابه لقول النصارىٰ، أو علىٰ أكاذيب وحكايات لا يجوز الاستناد عليها في الأخبار، فضلًا عن العقائد، فقد تكفلت بذلك مؤلفات وردود و مناظرات منها «الصارم المنكي»، وكتاب «صيانة الإنسان»، و«الرد الباهر»، و«التوسل والوسيلة»، ورسالة «الواسطة»، وغيرها من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتب أهل الدعوة وغيرهم، خصوصًا الرد علىٰ البكري والإخنائي وغير ذلك مما هو في الفتاوىٰ وغيرها، فليرجع إليه المستفيد والمستزيد الذي لا يكتفي بما ذكرته استطرادًا مع عموم فائدته إن شاء اللَّه، وليرجع ـ أيضًا ـ إلىٰ «غاية الأماني» ونحوها.

وبما أنك قد عرفت من شبهات القبوريين والمبتدعين أنواعًا كثيرة لعلنا كشفنا باطلها خصوصًا في الحياة البرزخية التي لا يعلم حقيقة كنهها إلا اللَّه تعالىٰ، والتي ليست مشبهة للحياة الدنيوية ولا مقاربة لها، ولا يجوز أن تقاس عليها بوجه من الوجوه أبدًا، وقد أجاب النبي ﷺ أصحابه حين سألوه: كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرَمْت ـ أي بليت ـ؟

فقال: «**إن اللَّه حرم علىٰ الأرض أجساد الأنبياء**»[١]، هكذا أخبرهم عن حياته البرزخية فقط، فمن زاد علىٰ تفسيره إياها فقد افترىٰ.

وأما الدعاء الذي هو مخ العبادة، وهم يزعمون عكس ذلك ويغالطون بأنه نداء، وهو مشتمل علىٰ غاية الضراعة واللهفة والخشوع لدىٰ القبور.

قال صاحب «المنار»: ومن تأمل تعبير الكتاب العزيز عن العبادة بالدعاء في أكثر الآيات الواردة في ذلك ـ وهي كثيرة جدًّا ـ يعلم ـ كما يعلم من اختبر أحوال البشر في عبادتهم ـ أن الدعاء هو العبادة الحقيقية الفطرية التي يثيرها الاعتقاد الراسخ من أعماق النفس، لاسيما عند الشدة، وأن ما عدا الدعاء من العبادات فكله أو جله تعليمي تكلفي، يفعل بالتكلف وبالقدوة وقد يكون خاليًا من الشعور الذي يكون به القول أو الفعل عبادة، وهو الشعور بالسلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب العادية، حتىٰ إن الأدعية التعليمية في جميع الأديان قد تكون خالية من معنىٰ العبادة وروحها الذي ذكرناه، سواء دعي اللَّه بها وحده، أو دعي بها غيره معه، ولا سيما الأدعية الراتبة التي لا يعدو الدعاء بها سوىٰ مجرد التلاوة، فإن الحافظ لها أو القارئ لها من نسخة أو نسخ يحرك بها لسانه في الوقت المعين وقلبه مشغول، أو غير متلهف متضرع.

إنما العبادة جد العبادة في الدعاء الذي يقبض علىٰ اللسان في سويداء القلب وقرارة النفس عند وقوع الخطب، وشدة الكرب والشعور بشدة الحاجة إلىٰ الشيء واستقصاء الوسائل إليه وتقطع الأسباب دونه، وذلك الدعاء الذي تسمعه من أصحاب الحاجات وذوي الكربات عند حدوث الملحات، وفي هياكل العبادات، ولدىٰ قبور الأموات.

ذلك الدعاء الخالص الذي يغشاه جلال الإخلاص، ويمثل كل حرف

(١) رواه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥).

من حروفه معنىٰ الخشوع التام، وناهيك بما يفجره هذا الخشوع من ينابيع الدموع، ذلك الدعاء الذي يستغله سدنة الهياكل، ويستثمره خدمة المقابر، ويضن به ويدافع عنه رؤساء الأديان والبدع؛ لأنه أشد أركان رئاستهم علىٰ العوام، ومنهم من يضن به؛ لأنه لا يرىٰ للجمهور الجاهلين غنىٰ عنه، ولا يرىٰ في حيز الإمكان استبدال التوحيد به، علىٰ أن الموحدين أعلىٰ إخلاصًا وأشد حبًّا للَّه وخشوعًا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي: ومن يشرك باللَّه أي نوع من أنواع الشرك التي ذكرناها أو غيرها مما لم نذكره، أو يتجدد من أنواعه علىٰ العصور، من يتلبس به أو يخلط إيمانه به فقد ضل عما أوجب اللَّه عليه من سلوك صراطه المستقيم، وحسن المقاصد التي هي من ضروريات الدين الكريم، وكان ضلاله ضلالًا بعيدًا يقصيه عن اللَّه ويشرد به عن رضوانه، ويحرمه من حسن وعده في الدنيا والآخرة؛ لإيغاله في الغواية لجميع مساخط اللَّه.

وإن ما ذكرناه سابقًا من أحوال المشركين وشبهاتهم وسخافة عقولهم ورواج الدجل والمفتريات عليهم؛ يشهد أنهم في ضلال بعيد عن الرشد بجميع معاني الضلال البعيد، وقد ختم اللَّه آية الشرك الأولىٰ بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾؛ لأنها تخللت ذكر افتراءات اليهود علىٰ اللَّه بتحريفهم الكلم عن مواضعه، وتلاعبهم بالنصوص، وسلوكهم غير صراط اللَّه المستقيم، وكل من يخالف ما جاء به رسل اللَّه قولًا أو عملًا فقد افترىٰ علىٰ اللَّه، بل كل من يسلك ما يخالف الفطرة الأصيلة متعاميًا عن سنن اللَّه الكونية، ومعطلًا عقله وأحاسيسه عن التفكير في خلق اللَّه الموجب لتعظيمه، واستلهام هدايته والانقياد له، وحصر العبادة والاتجاه، فهو مفتر علىٰ اللَّه، ولهذا قال نبي اللَّه هود لقومه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]، فحصر حالتهم جميعًا في الافتراء.

أما هذه الآية فختمها اللَّه بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ لأن السياق هنا في المنافقين والحض علىٰ قتالهم، ووجوب الهجرة، وبيان سوء عاقبة المتخلفين عنها مع القدرة، وحكم الخائنين القاذفين غيرهم بجريمتهم، والمشاقين اللَّه ورسوله، المتبعين غير سبيل المؤمنين، وكل هؤلاء الأصناف جريمتهم لا تتوقف علىٰ مجرد الذنب الناشئ من نزوة الشهوة وغيرها، وإنما هي ميل عن التوحيد وضلال عنه، يدخلهم في الشرك، فالمناسبة مقتضية لإعادة ذكر الشرك وفظاعة حال أهله، وحرمانهم من غفران اللَّه؛ لأنهم ما بين مفترٍ علىٰ اللَّه وبين ضالٍّ عن سبيله، مفضلًا طريق الغي علىٰ طريق الرشد.

هذا وإن إعادة ذكر الشرك في هذه السورة لا يعتبر من التكرار المخل بالبلاغة، بل هو من مقتضياتها لحصول المناسبة بإعادة ذكره تمكينًا لفهم المعنىٰ وتركيزًا لحقيقة التوحيد الذي هو روح الدين وقوامه، فالفرقان كتاب هداية، ومثاني يتلىٰ لأجل العلم والاعتبار، وانقياد النفوس لتنفيذ التكاليف وارتباطها بخالقها في جميع نواحي السلوك، ولهذا اقتضت حكمة اللَّه تنويع إيراد المعاني بعدة أساليب لتركيز هذه المقاصد الأساسية القاطعة لجذور الشرك، والرادعة عن المعاصي التي هي بريد الكفر، وليس كتاب قصص وأخبار حتىٰ تقتضي البلاغة عدم وجود التكرار فيه، مع أن ما فيه من أي تكرار فله مناسبة صالحة.

ولا شك أن ضلال المشرك باللَّه ضلال بعيد؛ لأن الشرك يفسد العقل، فتفسد جميع تصورات أهله كما اتضح مما ذكرناه سابقًا من أحوالهم المضحكة المحزنة؛ ولأنه يدس النفس ويصغرها، ويخضع صاحبها ويستخذيه لعبد مثله، ويخشع ويضرع أمام مخلوق يحاكيه أو يزيد عليه في عجزه، ويجعله يطيع من لا يطاع، ولا يستحق الطاعة، ويرجو من ليس أهلًا للرجاء، ويخاف في غير مواطن الخوف، بل يخاف من مقبور قد أكله الدود، ويزعم له الولاية من غير علم، وربما كان جاهلًا أو مجنونًا أو فاسقًا أو حيوانًا أو لا شيء قطعًا.

فالمشرك يكون عبدًا للأوهام، عرضة للخرافات، مصادر العقل، لا يحمل إدراكًا، فليس له إرادة، بل عقله وإرادته في تصرف بعض المخلوقات وخصوصًا عباد الأصنام الناطقة من دجاجلة البشر وشياطينها؛ الذين يملكون من وسائل النشر والتضليل ما يصادرون به العقول، ومما يحمله المشركون من الضلال البعيد والإفك المفترىٰ خشوعهم أمام مخلوق مثلهم حيًّا كان أو ميتًا، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وسماحهم لزوجاتهم المحرومات من النسل بالذهاب إلىٰ مقبور يسألنه الحمل، وقد يلعب السادن علىٰ الجميلات منهن فيرديهن بالفاحشة داخل القبة المظلمة بعد إطفائه ما حولها من النور، بحجة اتصال الولي ومخاطبتها سرًّا كما مضىٰ تفصيله.

فلولا أنهم في ضلال بعيد، أفقدهم تفكيرهم وغيرتهم ورجولتهم لما سمحوا لنسائهم، ولما انغشوا هذا الغش الذي يدخل عليهم أولادًا ليسوا من أصلابهم، بل من أصلاب الفسقة، فكم من شريفة عفيفة مصونة تذوقت الزنىٰ من هذه الحيلة التي جرها إليها تقديس القبور، فأخذت تتطلع إليه بعد ما كانت لا تقبله حتىٰ بقوة السلاح، وكم من عفيف افتتن بما حول القبور من النساء المخدوعات والخبيثات غرورًا منه بأن الذنب مغفور حول تلك القبور والمشاهد، ولو كان يحمل عقلًا استقلاليًّا لاستيقن به أن الزنىٰ تتضاعف عقوبته حول مثوىٰ الصالحين إن كانوا هنالك صحيحًا؛ لأن معصية اللَّه تؤذيهم كما يؤذيهم ما يفعله الزائرون من مخالفة توحيد اللَّه، ولكن الضلال البعيد يعميهم ويصمهم عن حقائق الأمور والإحساس بخسة الرذيلة وشؤم عاقبتها.

وإن القبور علىٰ كثرتها وكثرة المفتتنين بها لم تنفع أهلها من فتك التتار ومجازرهم المريعة، ولم يدفع اللَّه شرهم إلا بعد تجريد المسلمين للتوحيد، ورفض جميع وسائل الإشراك حين وجههم شيخ الإسلام ابن تيمية ونحوه إلىٰ ذلك وقال لهم: الآن تنتصرون، فقالوا

له: قل إن شاء اللَّه، فقال: إن شاء اللَّه تحقيقًا لا تعليقًا.

ومن تأمل في أحوال الشرك وسوء نتائجه وتأثيره علىٰ العقول والأرواح عرف حكمة اللَّه سبحانه في عدم الغفران لأهله وتحريم الجنة عليهم كما سيأتي إن شاء اللَّه، ولهذا جعل اللَّه أعظم ما أعطاه لعباده المرسلين الأخيار، وميزهم به علىٰ سائر عباده، هو تبليغ رسالته والدعوة إلىٰ توحيده، من غير أن يكونوا مسيطرين أو جبارين أو أربابًا معبودين، كما قال سبحانه في الآية (٧٩ ـ ٨٠) من سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

ومن بعض الأشياء التي توضح كون الشرك ضلالًا بعيدًا وافتراء علىٰ اللَّه سبحانه قوله في الآيتين (١١٧ ـ ١١٨):

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾:

حرف «إن» هنا بمعنىٰ النفي، يعني أنهم ما يعبدون من دون اللَّه إلا إناثًا مع كونهم ينتقصون الإناث ويدفنونهن بالتراب وهن أحياء، ومع هذا جرهم نقص عقولهم وفساد تصوراتهم إلىٰ عبادة من ليس عندهم عالي الشأن في الأصل رفيع الذكر، بل علىٰ العكس.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ بمعنىٰ يعبدون؛ لأن من عبد شيئًا فإنه يدعوه عند الحاجة إليه، وقد حصر اللَّه عبادتهم للإناث لانتقاصهم لها، واعتبارهم الأنثىٰ أحط من مستوىٰ الرجل، وفي تعبير الرازي في قوله: إن الأنثىٰ أخس من الرجل والميت أخس من الحي، وهذا تعبير بشع لا يعجبني ولا يعجب كل متأمل؛ لأنه أثبت الخسة للرجل وللحي من الناس، وجعل المرأة أخس من الرجل، والميت أخس من الحي، وهذا منطق لا يجوز إطلاقه؛ لأن المعهود هو الانتقاص لا خصوصية الخسة، فلهذا نبهت عليه.

والمقصود بعبادتهم الإناث هو عبادتهم اللات والعزىٰ ومناة ونحوها مما كانوا يسمونها باسم الإناث، قال الحسن: لم يكن حي من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه ويسمونه أنثىٰ بني فلان، وقيل: إنها معبودات ضعيفة كالإناث لا تدافع عدوًّا ولا تدرك ثأرًا، وكانت العرب تصف الضعف بالأنوثة، فهي مع تأنيث الاسم فيها أنوثة معنوية، ومن المعلوم أن الإناث أضعف من الذكور حتىٰ في الحيوانات، ويقال للحديد اللين: أنيث، ورجح الراغب وبعض اللغويين أن وجه تسمية معبوداتهم إناثًا هو كونها جمادات منفعلة لا فعل لها، كالحيوان الذي هو فاعل منفعل، كما وصفت في غير هذا الموضع أنها لا تسمع ولا تبصر، وليس لها أيد تبطش بها أو أرجل تمشي بها، كأن اللَّه سبحانه يذكرهم بِهذا النوع من الأدلة علىٰ بطلان ألوهيتها بما ارتكبوه من العار والخزي بعبادة ما كان هذا وصفه.

وقيل: إن المقصود بتسمية معبوداتهم إناثًا لكونها موتىٰ عاجزة عن إغاثتهم وحماية ذمارهم، كما تعجز الإناث، وأنه يستوي كل من التجأ إلىٰ المقبورين في هذا الوصف من النصارىٰ وغيرهم قديمًا، ومن جهال المسلمين حديثًا، وما قلناه أولًا تبعًا لجمهور المفسرين هو الظاهر المتبادر من معنىٰ الآية، إنهم يدعون من دونه إناثًا في التسمية، وإناثًا بالمعنىٰ الحقيقي لعجزهم عن الإغاثة والإعانة، فهم يسمون أكثر أصنامهم تسمية الإناث، ويعبدون الملائكة ويسمونهم إناثًا كما فندهم اللَّه بقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف].

والخلاصة أن المشركين إنما يدعون من دون اللَّه كل عاجز عن إغاثتهم وإسنادهم من تماثيل الأصنام أو المقبورين من الأنبياء والصالحين المزعومين، أو الملائكة، وهؤلاء بعضهم عاجز عن النفع والضر، وبعضهم لا يملك لهم كشف الضر ولا تحويله، ومن كان عبدًا صالحًا للَّه منهم يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة، يتقربون إليه بما يحبه ويرضاه،

ويرجون رحمته ويخافون عذابه كما مضىٰ تفصيل ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ يعني إنهم ما يدعون بدعوة أولئك إلا شيطانًا مريدًا، فدعاؤهم لأصنامهم ينصرف إلىٰ الشيطان أيًّا كان من شيطان، ودعاؤهم للملائكة ينصرف إلىٰ الشياطين كما أسلفنا ذكر نصِّ اللَّه عنهم في سورة سبأ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وقد سبق في تفسير الاستعاذة أن الشيطان يطلق علىٰ كل من شَطَن أي ابتعد عن طاعة اللَّه، وعلىٰ كل من دعا الناس إلىٰ ضدها، وعلىٰ كل ماردٍ خبيث من الجن والإنس، والمريد والمارد المتعري من الخيرات، تقول العرب: شجر أمرد إذا تعرىٰ من الورق، أو المارد من مرد علىٰ الشيء إذا تمرد عليه حتىٰ صار يأتيه بغير تكلف، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة: ١٠١]، فالشيطان المريد من مرد علىٰ الإغواء والضلال من شياطين الجن والإنس، فكل مبالغ في العصيان والابتعاد عن الطاعة فهو شيطان، وكل ساع في الشر شيطان.

قال المفسرون: كان في كل واحد من الأوثان شيطان يتراءىٰ للسدنة أحيانًا ويكلمهم أحيانًا، ومن أشهر الأصنام الذي كان يكلم العرب صنم بحضرموت يقال له: الجَلْد كان يخبرهم بالأعاجيب، وقد كلمهم شيطانه في آخر الأمر بكلام طويل غريب يفيد ظهور دين الحق وانتهاء الأصنام، ذكره أبو أحمد الحسن العسكري، ونقله عنه الشيخ الآلوسي في كتابه «غاية الأماني» وقد أذكره لنفاسته إن شاء اللَّه، ومن الأصنام المشهور بالتكليم صنم لبني سُليم اسمه ضِمار كان يكلمهم شيطان من جوفه وهو السبب في إسلام عباس بن مرداس حيث سمع مناديًا من جوفه يقول:

مَـن للقـبائِلِ مِـن سـليمٍ كلُّهـا   أودىٰ ضِمارٍ وعاش أهلُ المسجدِ

إن الـذي وَرِث النـبـوةَ والهـدىٰ **بعـدَ ابـنِ مـريم مـن قـريشٍ مُهـتدِ**
أودىٰ ضِـمارِ وكــان يُعـبدُ مُـدَّة **قـبلَ الكـتاب إلـىٰ النبـيِّ محمـدِ**

قـال عـبـاس: فخـرجت مـع قـوم بنـي حارثـة إلـىٰ رسـول اللّٰه ﷺ فـدخلت المـسجد فلما رآني تبسم، وقـال: «**يا عباس كيف إسلامك**»، فقصصت عليه القصة فقال: «**صدقت**»[(١)]، وأسلمت أنا وقومي.

وقد ورد في قصة الجنية الشيطان التي في صنم العزىٰ ومناة فقد بعث رسول اللّٰه ﷺ خالد بن الوليد لهدم العزىٰ لخمس ليالي بقين من رمضان، فخرج إليها في ثلاثين فارسًا من أصحابه حتىٰ انتهىٰ إليها، فهدمها ثم رجع إلىٰ رسول اللّٰه ﷺ فأخبره، فقال: «**هل رأيت شيئًا؟**» قال: لا. قال: «**فارجع إليها فاهدمها، فإنك لم تهدمها**»، فرجع خالد وهو متغيظ فجرد سيفه، فخرجت امرأة عريانة سوداء ناشرة شعرها، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجزلها باثنتين، ورجع إلىٰ رسول اللّٰه ﷺ فأخبره فقال: «**نعم تلك العزىٰ، وقد أيست أن تعبد في بلادكم**»[(٢)]. وكانت بنخلة، وكانت لقريش وبني كنانة، وهي أعظم أصنامهم، وكان بنو شيبان سدنتها، ثم بعث رسول اللّٰه ﷺ سعد بن زيد الأشهل إلىٰ مناة.

وكانت بالمشلَّل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم، فخرج في عشرين فارسًا حتىٰ انتهىٰ إليها وعندها سادن، فقال السادن لسعد: ما تريد؟ فقال: هدم مناة، فقال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها وخرجت امرأة عريانة ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها، فقال له السادن: مناة دونك بعض عصاتك، فضربها سعد فقتلها، وأقبل علىٰ الصنم فهدمه وكسره، فهكذا الشياطين الذين يدعونهم المشركون من الأصنام، قد قتل قادةُ المسلمين بعضَهم، واتضح

---

(١) رواه ابن عساكر في «التاريخ» (٢٤/ ٤٤٤).
(٢) رواه ابن عساكر في «التاريخ» (١٦/ ٢٣٢).

لِعُبَّادِهِم شيطنتهم، وظهر لهم صدق تعبير القرآن عنهم.

ولا يزال الشياطين يغشون دعاة القبور فينادونهم، يخاطبونهم ويغشون السدنة لإغراء الجميع علىٰ الشرك باللَّه، واتخاذ الأنداد من دونه، والوسائط بينهم وبينه، حتىٰ يكون دعاؤهم غير اللَّه، لا يدعون إلا شيطانًا مريدًا؛ لأنه المُغْوِي لهم بذلك، وهو الذي زينه لهم وأغراهم علىٰ الولوع به والاستمرار عليه بمخاطبته إياهم، وتحبيبه لهم البذل والنذور، ليكون في ذلك مأكله، فيستفحل الأمر ويقوم بتخويفهم من صاحب القبر الفلاني وغضبه علىٰ من لم ينذر له أو يكرر زيارته، ويرغبهم في بعض القبور زاعمًا أن صاحبها الكبريت الأحمر والقطب الأكبر أو الغوث أو الوتد، إلىٰ غير ذلك مما فيه صرف الوجوه إلىٰ غير اللَّه، وخشية المقبور ورجاؤه دون اللَّه.

ويستغل ضعف التوحيد والنفس عند المرض أو المصيبة؛ لأن الشيطان عدو مضل مبين، قد حصر مهمته علىٰ الأمر بالسوء والفحشاء، والافتراء علىٰ اللَّه بجميع أنواع الافتراء التي من أعظمها مزاعم المشركين والقبوريين.

وقوله ﷻ: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي لعن جنس الشيطان الذي أصله إبليس وذريته من الجن وأعوانه من الإنس، فإن مسمىٰ الشيطان لا يتوقف علىٰ إبليس فقط كما أسلفنا في أوائل التفسير، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة اللَّه، فهي مكتوبة من اللَّه علىٰ الأبالسة وأعوانهم، وينالها أو ينال قسطًا منها من اتبعهم بفعله ما يستحق اللعن، فإن في تقرير اللعنة عليهم إشعارًا للمسلمين وتحذيرًا لهم من الوقوع في أسبابها، بسبب طاعة الشياطين والإصغاء لوحيهم الباطل الفاسد، وقد اقتضت حكمة اللَّه إجابة أبي الشياطين بإمهاله إلىٰ يوم الدين وتسليطه علىٰ الناس بالوسوسة والإغراء علىٰ كل باطل، وتزيين الشر بكل ما استطاع من أنواع الفتنة، والصد عن سبيل اللَّه، لتظهر فائدة الجهاد

النفسي والخارجي، وتظهر ثمرة التكليف، وتتحقق معاني أسماء اللَّه الحسنىٰ، وتظهر بعض الحكمة من استخلاف اللَّه لبني آدم في الأرض، ولهذا نص علىٰ إبقائه في الأرض وتمكينه من أهلها سوىٰ المخلصين من عباده ليملأ جهنم منه وذريته وأتباعه، وليتمحص الخير من الشر في الدنيا، ولذا قال له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾، ولما قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص].

وهنا قال اللَّه عنه: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ والاتخاذ هو أخذ الشيء علىٰ وجه الاختصاص، والفرض هو القطع والحز وما أشبهه، والفريضة ما فرضها اللَّه علىٰ عباده حتمًا عليهم وقطعًا لعذرهم ومنه قوله: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٧]، أي قطعتم علىٰ أنفسكم لهن قطعة من المال، فمعنىٰ ذلك أن الشيطان قال لربه: لأتخذن من عبادك حظًّا مقدرًا معينًا، وهم الذين يتبعون خطواته، ويقبلون وساوسه وإغراءاته.

وهذا النصيب المفروض للشيطان هو ما في نفس كل أحد من الاستعداد للباطل والشر، المقابل للاستعداد للخير والحق، وهو إحدىٰ النجدتين، ووقوع هذا القول من الشيطان كأنه ناشئ من طمعه في ذرية آدم أن ينال منهم كما نال من أبيهم، أو أن ذلك كان ظنًّا منه أيده الواقع من غالب الطبائع التي بها صدق ظنه كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ وفي هذه الجمل ما ينادي علىٰ جهل المشركين والكفار، وغاية انحطاط درجتهم بحيث لم يصلحوا للانخراط في سلك العقلاء، وفيها ـ أيضًا ـ توبيخ لهم علىٰ انخداعهم بِهمزات الشياطين، وشرودهم عن تحقيق التوحيد الذي هو الغاية الكبرىٰ من إيجاد اللَّه لهم، وتنكرهم لفضله ونعمته باستعمالها في مرضاة عدوه من الشياطين، لا في مرضاته.

فإن قيل: لم قال: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا﴾ ولفظ النصيب يتناول القسم الأقل لا القسم الأكثر، وقد ثبت بالمنصوص والمحسوس أن أتباع الشيطان هم الأكثر، فالجواب أن هذا التفاوت إنما يحصل في نوع البشر، أما إذا ضممت إليه زمرة الملائكة الذين هم عباد اللَّه مع غاية كثرتهم إلىٰ المؤمنين صارت الكثرة لعباد اللَّه المخلصين، وأيضًا فالمؤمنون وإن كانوا قليلين في العدد لكنهم في حساب اللَّه كثير لمنصبهم العظيم عنده، والكفار والفساق مع كثرتهم في العدد فإنهم كالعدم لضعف وزنهم عند اللَّه، فلهذا السبب وقع اسم النصيب علىٰ قوم إبليس.

وهذه الآية كغيرها من أشباهها تنص علىٰ أن عبادة الشيطان مخالفة للألوهية ومضادة لها، وعبادته هي طاعته، وتَقبُّل وساوسه، والاطمئنان إلىٰ همزاته، وعبادته ضلال فادح من عدة وجوه:

أحدها: أنه منهمك في الغي لا يكاد يعلق بشيء من الخير والهدىٰ، فتكون طاعته ضلالًا بعيدًا عن الحق.

وثانيها: أنه ملعون لضلاله، فلا ينتج من طاعته سوىٰ اللعن والضلال.

وثالثها: أنه يسعىٰ بكل جهده في إهلاك الناس وإضلالهم، وإفساد أحوالهم في جميع ميادين الحياة، فموالاته في غاية الضلال، فضلًا عن طاعته التي هي عبادة، وقد مضىٰ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

ولما كان الشرك من أعظم الكبائر كان الضلال الناشئ عنه بعيدًا عن الصواب؛ لأن غيره من المعاصي وإن كان ضلالًا لكنه قريب من أن يراجع صاحبه الحق؛ لأن له رصيدًا روحيًّا قويًّا من إخلاص التوحيد والإيمان يرجع إليه، بخلاف المشرك المفلس من أصل الدين وحقيقة العقل الفطري، فإنه يستمر علىٰ الضلال.

هذا وإن في الآية حصرين:

أحدهما: في قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾.

وثانيهما: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ وليس بينهما تعارض أبدًا كما يتوهمه أصحاب الرأي، وذلك لأن دعاء الأصنام ناشئ عن دعائهم الشيطان لما استجابوا له وعبدوه بطاعته أغراهم بعبادة الأصنام التي سموها بتسمية الإناث، وصاروا يحلونها بأنواع الحلي كالإناث، ويسمون الملائكة بنات اللَّه لقوة مكره بهم، وغشه بالافتراء على اللَّه.

وقوله سبحانه عن جنس الشيطان كل شيطان في الآية (١١٩): ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾:

في هذه الآية الكريمة إخبار من اللَّه سبحانه عن خمس إقسامات أقسم بها الشيطان كقواعد أساسية لإضلال بني آدم، يتفرع منها مئات أنواع الغش والتضليل التي ينصب شراكه بها لإغوائهم.

فالقسم الأول: قوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ وقد مضى تفصيله.

والثاني: قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾، وإضلاله إياهم بصرفه لهم عن طريق الهدى والرشد، وشروده بهم عن كل سبب موصل إليها.

والقسم الثالث: قوله: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، أي بالتسويل والأماني التي لا تقف عند حد، وليس لغرورها نهاية، فهو حريص على إضلالهم عن التوحيد وإزلاقهم في جميع مهاوي الشرك أو بعضها، إنه يفتح لهم باب الطمع والشهوة ليخرجهم من الإخلاص، ويوقعهم في ضروب من الشرك الأصغر ثم الأكبر، سالكًا معهم طرق الغرور والأماني التي لا تنحصر، فيحبب إليهم زيارة القبور ودعاء أهلها بدلًا من الدعاء لهم، والتعلق بالأولياء والاستغاثة بهم.

ويقذف في روعهم أنه لا يضرهم أخذ الربا، ولا أكل أموال الناس بالباطل، ولا ارتكاب الفواحش والموبقات ما داموا يحبون الأولياء، أو يزورون القبر الفلاني ويدعونه، أو يدعون القطب الغوث ونحوه، فإنه يشفع لهم وينجيهم من غضب اللَّه، وخصوصًا من كان مجاورًا أو ساكنًا في بلد مقدس أو بلد فيها ضريح الحسين ونحوه من القبور المنسوبة لأهل البيت، فإنه يغشهم ويمنيهم بأنه لا تضرهم معصية ولا أي شرك باللَّه، ولا ترك فريضة، ما داموا مجاورين لفلان.

بل إن الشياطين تغش بعض أهل مكة وتجرئهم علىٰ المعاصي وارتكاب الفواحش زاعمة أنهم بجوار اللَّه، وأن الطواف بالبيت مكفر لجميع ما عملوه في الأسبوع، ويغرهم بترك الصلاة والطاعات؛ لأنهم مكيون، وأن سيئاتهم أفضل من حسنات غيرهم، وقد شاهدنا هذا ملموسًا عند بعضهم والعياذ باللَّه.

وأيضًا فإن الشيطان ـ أي شيطان ـ يغش الشباب بالانهماك علىٰ المعاصي والتسويف بالتوبة؛ لأنهم في حاجة إلىٰ إشباع نَهمتهم والتمتع باللذات ما داموا في مهلة، ويمنيهم بإمكان توبتهم في سن الشيخوخة أو أوائلها، وهذا من أخطر غرور الأماني؛ لأن شطرًا من الناس ينقضي أجله المحتوم وهو في سن الشباب أو سنه المبكر، وأمر الأجل خفي لا يعلمه أحد، فمن أعظم الخطر الانغماس في المعاصي بِهذا الغرور وعدم الإسراع بالتوبة اتباعًا لأماني الشيطان، ومن المعلوم أن من بقي مواظبًا علىٰ طلب اللذات العاجلة، معرضًا عن السعادات الروحانية فإنه لا يزال يزيد في قلبه الرغبة في الدنيا، والنفرة عن الآخرة، ولا تزال تتزايد هذه الأحوال إلىٰ أن يتغير القلب بالكلية، فلا يخطر بباله ذكر الآخرة ألبتة، ولا يزول عن خاطره حب الدنيا بتاتًا، فتكون حركته وسكونه وقوله وفعله لأجل الدنيا.

وهذا هو نفس المخطط الماسوني اليهودي الذي يقوم بتنفيذه أعوانها من شياطين الإنس الذين أراحوا الأبالسة في هذا الزمان، فإن

تربية الشباب المسماة بالتربية الحديثة تربية بَهيمية حاملة للخواء الروحي، ومشجعة علىٰ إضاعة الصلاة واتباع الشهوات بجميع أنواعها، مشبعة بالإلحاد المتنوع الذي تستغلق أدمغة أهله عن قبول الحق، وتتقبل كل ما تمليه الشياطين.

ومن أماني الشيطان تغريره للشيوخ بأنهم شابوا في الإسلام واللَّه يحترمهم ويغفر ذنوبهم، وتغريره بالجميع بالأماني الكاذبة، وأن من نطق بالشهادتين دخل في الإسلام، وكان محسوبًا علىٰ اللَّه ولو لم يصلِّ ويصُم ويعمل طاعة، ويغش بعضهم بأنه إذا لم يعمل المعاصي ويأكل الربا فإنه لا يضره ترك الصلاة والطاعات ما دام لا يزني ولا يأكل مال الناس ولا يكذب عليهم، ويغش الفريق الآخر بعكس ذلك، فيسول له أنه مهما عمل من الفواحش والعصيان فهو خير وأقرب إلىٰ اللَّه ممن يصلي ويصوم ويتقرب وهو يأكل الربا ويغش الناس ويغتابهم ويحتال عليهم، فهو أحسن إذا لم يشابِههم في ذلك.

وهكذا يغزو كل فريق بما يناسبه؛ لأنه يشم القلوب وينظر إلىٰ الأذواق وما يناسب طبع كل قوم، حتىٰ إنه أحدث في المسلمين قسمًا كبيرًا يعتبر الإسلام جنسية ينتسب إليه مجرد انتساب، دون التقيد بشيء من أوامره، والعمل لصالحه، بل علىٰ العكس يعمل ما يهدمه من مقتضيات المذاهب المادية، ومن تسويله للصوفية والزهاد وتلبيسه عليهم وتزيينه لهم بغض الدنيا والنفرة عن شهواتها، فيحملهم علىٰ الخروج إلىٰ الفلوات، ومغارات الجبال، والانقطاع عن الجمعة والجماعات، وإضاعة العيال، والتخلي عن الوالدين، فيجعلهم يفرطون في الطاعات، ويتركون الواجبات وما فيه رفعة درجاتهم.

يتلبسون بمعصية اللَّه من ترك عمارة المساجد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل لصالح العقيدة والمسلمين في القيام بأنواع الجهاد الفكري والعسكري، ومقابلة تخطيط الأعداء بما يحبطه،

وبر الوالدين، والقيام على العائلة بالإنفاق وحسن التربية، وبهذا قد كسب منهم الشيطان مكاسب كثيرة، وفوت عليهم شيئًا كثيرًا من مصالح الدين والدنيا، وحرمهم أجورًا كثيرة ودرجات عظيمة، وجعلهم يسيرون فيما يخالف شرع اللَّه، لا فيما يوافقه، فإن النبي ﷺ نهىٰ عن الخلوة والمبيت المنفرد، وسمىٰ المسافر وحده شيطانًا، والاثنين شيطانين وأنكر علىٰ المتبتلين ومديمي الصيام والقيام، والذين لا يأكلون اللحم ونحوه، وقال: «**لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[1]، وقد زين الشيطان لهم ترك الطيبات، وزينة الحياة، بشبهة أن الدنيا مذمومة ملعونة، وأن النفس يجب تعذيبها لتربيتها، وهذا خلاف الحق والحقيقة من وجهين:

أحدهما: أن الدنيا لا تذم لذاتها أبدًا، وكيف يذم ما من اللَّه به علىٰ بني آدم، وما هو ضرورة لبقائهم، وسبب في إعانتهم علىٰ تحصيل العلم والعبادة المرضيين للَّه من مطعم ومشرب وملبس ومال يتقوىٰ به علىٰ الدعوة والجهاد، ومسجد يكون مصلىٰ وملتقىٰ، وإنما المذموم أخذ الشيء من غير حله، أو تناوله علىٰ وجه السرف والتبذير، لا علىٰ مقدار الحاجة، والتعلق بالدنيا وصرف جميع الهمة لها، وجعلها غاية لا وسيلة، وعدم اعتبارها مزرعة للآخرة.

وثانيها: أن نفس الإنسان مطيته، ولابد له من الرفق بها ليصل بسببها إلىٰ رضوان اللَّه، فيجب عليه أن يقوم بما يصلحها ويقويها من أكل الطيبات، ويريحها من العناء ومن كل ما يشقيها، كما قال ﷺ ما معناه: لا تكلفوا أنفسكم من الأعمال ما لا تطيقونه، فإن اللَّه لا يمل حتىٰ تملوا، أي لا نقطع ثوابه عنكم حتىٰ تنقطعوا عن العمل فيترك ما يؤذيها من مواصلة الصيام والقيام، وما يضعفها من الجوع واختيار

---

(١) تقدم تخريجه.

الأكل الرديء والشراب الكدر أو القذر، كما يترك ما يؤذيها من الإفراط في الشبع، والنهمة في الشهوات، بل يسلك الوسط والاعتدال في عبادته ونومه وأكله وشربه، ويحرص علىٰ أكل الحلال واختيار الطيب من المأكول والمشروب بغير إفراط ولا تفريط.

ومن تسويله للصوفية تخريق الثياب، ولبس الممزق والمخرق والوسخ ونحو ذلك، مما هو ترك للطيب وللطاهر، وتنكر لنعمة اللَّه التي يحب اللَّه أن يرىٰ آثارها علىٰ عبده.

ومن لعبه بهم ودجله عليهم ما ألقاه في قلوبهم من الشطح والهذيان في مقام الربوبية وعالم الغيب، حتىٰ زعموا لأنفسهم الكشف، ونطقوا بالطامات الكبرىٰ والمفضية إلىٰ الكفر، وحرمهم من فضل الذكر الكامل وعظيم أجره، بأن قصرهم علىٰ الاسم المفرد المظهر «اللَّه» أو المضمر «هو» فأكثرهم لا يذكرون اللَّه إلا هكذا، وقد استجر بهم إلىٰ مذهب الحلول والاتحاد وغير ذلك من العظائم، ويفتح عليهم من الخيالات والشطحات ما يخالف المعقول والمنقول، ولما رباهم علىٰ التبتل وكراهة النساء فتح عليهم شهوة الصبيان المرد وأولعهم بهم، وأخذ يغري أولياءه علىٰ الافتراء علىٰ اللَّه ورسوله باختلاق الأحاديث الباطلة كحديث: «اطلبوا الخبر عند حسان الوجوه»، وحديث: «ثلاثة تجلو البصر وتذهب الحزن عن القلب منها النظر إلىٰ الوجه الحسن»، وهذه أحاديث لا يختلف علماء الأثر في أنها باطلة موضوعة مختلقة، ثم إنها تصادم أوامر اللَّه من غض البصر، وتجعل الإنسان يتعرض لأخطر فتنة وهي عشقه ما لا يحل نكاحه بحال من الأحوال.

وقد زين الشيطان حب الأحداث والمردان لرهبان النصارىٰ وقسسهم حتىٰ الآن، بحيث اضطروا بعض الدول النصرانية المعاصرة علىٰ إصدار قانون يبيح اللواط رسميًّا، وقد استجر الصوفية إلىٰ الاعتقاد بفضيلة الرقص مع المردان واعتبار الأمرد والجميل شاهدًا علىٰ حب اللَّه أو علىٰ حلول اللَّه، ولهم في ذلك أشعار فظيعة تقشعر منها قلوب

المؤمنين المتقين، ذكر ذلك الشيخ عبداللَّه البيتوشي في منظومة الكبائر في كتاب النكاح ومنها:

لا يَعدم الشَّرَّ مُحب أمرد ... أمن خيار الناس كان أم ردي
فلا تحل صاح لحب المُرد ... فإنه للدين داء مُردي
ولا يضرنك من الصوفية ... طائفة عن الهدي أبيه
قالوا بأن صورة الجميل ... مرآة وجه ربنا الجليل

إلخ... فليرجع إليه من أراد المزيد، فإنها مطبوعة مع تعليقها «قطف الأزاهر في نظم الكبائر» فإني لا أحب الاسترسال بذكر ذلك، وإنما أشير إليه كمرجع. نسأله الهداية والوقاية من شر شياطين الإنس والجن.

إنهم بادئ الأمر يصرفون الرجال عن النساء بحجة التفرغ للعبادة والخروج من أجلها، أو من أجل الدعوة، ثم يبذرون في قلوبهم استبشاع النساء والنفرة منهن ومن تكاليفهن، حتىٰ إذا مردوا علىٰ ذلك جروهم إلىٰ إشباع شهوتهم من الأحداث وحببوهم إليهم، فهم يمادون في الافتراء علىٰ اللَّه ويجعلون الفاحشة القبيحة عبادة، وهذا من أنواع تغيير خلق اللَّه، وللشيطان مع الصوفية مزالق كثيرة من أول نشأتهم وقصرهم التلقي علىٰ شيخ واحد، يعتقدون عصمته وقداسته، ويستجر الشيطان ذلك الشيخ إلىٰ علم الكشف أو الاتصال باللَّه والرسول رأسًا، حتىٰ إنهم يعتبرون أنفسهم خاصة أو خاصة الخاصة الذين هم بزعمهم أعلىٰ من الرسل، وبعضهم يزين له الشيطان أنه ارتفع إلىٰ مرتبة سقطت عنه بها العبادة والتكاليف يسمونها اليقين كما أسلفنا في تفسير سورة الفاتحة.

وبعضهم يوصي مريديه بالحج إلىٰ قبره أو قبر أبيه، وأنه أفضل من الكعبة بكذا وكذا، وعندهم من التسويلات والأماني الباطلة الشيطانية

التي يطول ذكرها، وفيهم ـ ولله الحمد ـ من هو معتدل وإن كان عنده بعض الزيادات، وإنما نذكر بعض من انزلقوا بحبائل الشياطين غرورًا بتلبيسهم لأن فيهم خطرًا عظيمًا.

هذا وقد لعب الشيطان علىٰ الصوفية بإظهار أمور شيطانية، يقدمها لبعضهم علىٰ أنها كرامات، فيغترون بها مع مريديهم وضعفاء العقول زيادة في فتنتهم، والكرامة لا تكون لمن يسكن المزابل والمغارات أو يألفها، أو يهيم في الفلوات هاجرًا مساجد الله وجماعة المؤمنين، كما أن الكرامة لا تكون إلا لمن حقق الاقتداء بالمصطفىٰ ﷺ وقام بالنصح لله ولكتابه ورسوله وعباده بتبليغ الدعوة، وتوزيع الهداية المحمدية، وعمله بمجهوده الذي يقدر عليه من الجهادين الفكري والعسكري.

أما من غشته الشياطين بالابتعاد عن جميع وسائل الجهادين، واستجاب لهم بانقطاعه عن المجتمع الإسلامي، وتركه ما أوجب الله عليه من لزوم الجماعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة والجهاد والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فلا جرم أن تستزله الشياطين، وتمكر به وبأتباعه في إحداث أعمال شيطانية مختلفة، وتقذف في روعهم أنها كرامات وهي زيادة في الفتنة.

ومن المعلوم الذي لا شك فيه أن إغواء الشياطين لبعض فرق الصوفية ولكثير من فرق المبتدعة هو لأجل توقيف الجهاد، وإشغال الأمة بالتناحر والشقاق، واحتياج بعضهم إلىٰ مداهنة المسؤولين والاستعانة بهم علىٰ البعض، وتربح الشياطين ربحًا آخر وهو انشغال الأمة عن عبث المسؤولين وعدم قدرتها علىٰ تقويم المعوج، وقد يدرك بعض المسؤولين ذلك فيغري بعضهم علىٰ بعض، كما فعل المأمون وإخوانه في الأقدمين، وكثير غيرهم في القرون الوسطىٰ والقريبة.

وللشياطين طرق كثيرة في إضلال الصوفية يصعب ذكرها في مثل هذا التفسير، ولهم طرق كثيرة في إضلال الناس بتقديس بعض المقبورين والمجذوبين، وقد صحت الآثار أن أول عبادة الأصنام كانت من جراء تعظيم الصالحين، وأن الشيطان عمل أول لعبته وخداعه أن قال للمسلمين الذين بين عهد آدم ونوح إن هؤلاء الصالحين يجب أن تعملوا لهم تصاوير لتذكروا سيرتهم وصلاحهم فتقتدوا بهم حتىٰ تكونوا مثلهم، فلما عملوها وطالت المدة، تمثل لمن بعدهم بصورة الناصح، وقال إن آباءكم يدعون أهل هذه التماثيل ويتبركون بهم ويستغيثون، فلما استجابوا لأحابيل الشيطان أخذ ينقلهم إلىٰ الشرك الأكبر بدعوتهم من دون اللَّه، وجعلهم كالآلهة، حتىٰ أرسل اللَّه نوحًا وجرىٰ ما جرىٰ، وقد أسلفنا أن الشيطان يكلم الزائرين، ويتمثل للسدنة بصورة صاحب القبر، وأن بعض الشياطين يتقمص بعض الأصنام من ذكر أو أنثىٰ كما سبق في قصة خالد وغيرها.

وللشياطين أحابيل كثيرة في إضلال بني آدم بشتىٰ أنواع الضلال، فلهم مع العلماء خطط، ومع الحكام والقضاة خطط، ومع العباد خطط، ومع التجار وأصحاب الحرف المختلفة خطط أخرىٰ، وما تسويلهم الرشوة باسم الهدية إلا من بعض الأحابيل، ولذا قال ﷺ في قصة عامله ابن اللَّتبية: «**هلَّا جلس في بيت أبيه أو أمه فينظر ما يهدىٰ إليه؟**»[(١)]، وقد تجددت لهم أحابيل في الرشوة باسم القرض أو القراض، أو المشاركة في بعض الصفقات الرابحة، وإن لم يكن لها حقيقة، بل يزعم أنه جعل للحاكم سهمًا في النوع الفلاني من عقار أو غيره ليكسب ضميره.

ومن تسويلات الشياطين تحبيبهم لبعض الناس القعود عن العمل ليكونوا عالة علىٰ غيرهم، بشبهة أن الأخذ بالأسباب مناف للتوكل، والشيطان يستغل جهل الجاهلين، فيزيد في تغفيلهم والتلبيس عليهم،

---

(١) رواه البخاري (٢٥٩٧)، ومسلم (١٨٣٢).

حتىٰ جعل أمثال أبي سليمان الداراني يقول: لو توكلنا علىٰ اللَّه ما بنينا الحيطان، ولا أغلقنا الباب مخافة اللصوص، وجعل بعضهم إذا سأله أحد عن التوكل لا يجيبه حتىٰ يخرج ما في بيته من الدراهم القليلة حياء من اللَّه أن يجيب عن معنىٰ التوكل وعنده شيء زهيد جدًّا من المال، وهذا من جهلهم بحقيقة معنىٰ التوكل، ولو عرفوا حقيقته وماهيته لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب مضادة ولا مناقضة، وذلك أن التوكل اعتماد القلب علىٰ الوكيل سبحانه، والثقة به، وذلك لا يناقض حركة البدن والعمل بالأسباب، ولا ادخار المال، كما أنه لا يقتضي إخراج المال والتعرض للفاقة والإعواز، فقد قال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، أي قوامًا لأبدانكم وشخصياتكم، وقال ﷺ: «**نعم المال الصالح مع الرجل الصالح**»[(١)].

وقال لسعد بن أبي وقاص: «**إنك إن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس**»[(٢)].

وليعلم أن اللَّه الذي أمر بالتوكل أمر بأخذ الحذر والاستعداد بالمستطاع من كل قوة علىٰ الإطلاق مهما اختلفت أنواعها، وقال لموسىٰ: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ [الدخان: ٢٣]، وقال لنبيه لوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: ٨١] وقد اختفىٰ رسول اللَّه محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الغار، وقال: «**من يحرسني الليلة؟**»[(٣)]. وأمر بغلق الباب.

وورد في الصحيحين من حديث جابر أن النبي ﷺ قال: «**أغلق بابك**»[(٤)]، والنصوص كثيرة في ذلك، تفيد أن التوكل لا ينافي الاحتراز ولا الاكتساب أو الاحتياط، قال ابن عقيل: يظن أقوام أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكل، وأن التوكل هو إهمال العواقب واطراح

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٩٧).
(٢) رواه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).
(٣) رواه البخاري (٢٨٨٥)، ومسلم (٢٤١٠).
(٤) رواه البخاري (٣٢٨٠)، ومسلم (٢٠١٢).

التحفظ، وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط الذي يقتضي من العقلاء التوبيخ والتهجين.

ولم يأمر اللَّه بالتوكل إلا بعد التحرز واستفراغ الوسع في التحفظ، فقال تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فلو كان التعلق بالاحتياط قادحًا في التوكل لما خص اللَّه به نبيه حين قال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهل المشاورة إلا استفادة الرأي الذي منه يؤخذ التحفظ والتحرز من العدو، ولم يقنع في الاحتياط بأن يكله إليهم واجتهادهم حتىٰ نص عليه وجعله عملًا في نفس الصلاة وهي أخص العبادة قال: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] وبين علة ذلك بقوله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

ومن علم أن الاحتياط هكذا لا يجوز له تفسير التوكل بترك ذلك، لكن التوكل تفويض المؤمن أمره إلىٰ اللَّه فيما لا وسع له ولا طاقة، قال ﷺ لصاحب الناقة: «**اعقِلْها وتوكل**»[1]؛ منكرًا عليه عمد عقلها لمجرد التوكل، ولو كان التوكل ترك التحرز لخص به خير الخلق ﷺ في خير الأحوال وهي حالة الصلاة، ولم يؤمر بصلاة الخوف، لكن أمر اللَّه بصلاة الخوف علىٰ اختلاف هيئاتها من أكبر الأدلة علىٰ وجوب الأخذ بالأسباب والتمسك بالحيطة والحذر، وأن ذلك لا ينافي التوكل، وقد أخذ النبي بالأسباب حين هجرته، وأخبر اللَّه عن يعقوب أنه قال ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، وقال لإخوته: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ [يوسف: ٦٧] وقال تعالىٰ: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥].

فيجب عليك أيها المسلم استعمال ما عندك ثم طلب ما عند اللَّه، وقد جعل اللَّه للطير والبهائم عدة أسلحة تدفع عنها الشرور كالمخلب والظفر والناب والذيل، وخلق للآدمي عقلًا، يقوده إلىٰ حمل الأسلحة

---

(١) رواه التِّرمذي (٢٥١٧).

ويهديه إلىٰ التحصن بالدروع والمباني، وسخر له ما في الأرض جميعًا، فمن عطل نعمة اللَّه بترك الاحتراز بحجة التوكل فقد عطل حكمته، كمن يترك الأغذية والأدوية ثم يموت جوعًا ومرضًا، ولا أبله ممن يدعي العقل والعلم ويستسلم للبلاء، وإنما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكل في الكسب، وقلبه ساكن مفوض إلىٰ اللَّه سواءً منع أو أعطىٰ.

ومتىٰ وُضِعَت أسبابٌ فأهملت كان ذلك جهلًا بحكمة الواضع، مثل وضع الطعام سببًا للشبع، والدواء سببًا للشفاء، فإذا ترك الإنسان ذلك استهانة بالسبب، ثم دعا اللَّه أن يطعمه ويشفيه فربما قيل له: قد جعلنا لعافيتك وشبعك سببًا فتركته تهاونًا بعطائنا أو سخرية بحكمتنا، فكيف تطلب شيئًا قد رفضت أسبابه؟

فالتوكل فعل القلب، ولا ينافي حركة الجوارح، بل ترك الأعمال قدح في التوكل، وقدح في حكمة اللَّه، وما ترك الأسباب والسعي في الاكتساب إلا من إضلال الشياطين، قال سهل بن عبداللَّه التستري: من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، من طعن علىٰ الكسب فقد طعن علىٰ السنة، ويروىٰ أن عيسىٰ كان يصلي علىٰ جبل فأتاه شيطان فقال له: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر؟ قال: نعم، قال: فألق بنفسك من الجبل، وقل: قدر اللَّه عليَّ ذلك، فقال له: يا لعين، اللَّه يختبر العباد، وليس للعباد أن يختبروا اللَّه.

وقد كان الصحابة الذين هم خيرة هذه الأمة يتجرون ويجمعون المال للاستعانة به علىٰ الجهاد والإنفاق في سبيل اللَّه وطرق الخير، وهؤلاء المشار إليهم من الصوفية لعبت عليهم الشياطين بالبطالة وترك الاكتساب، وزينت لهم التسول المضعف لنفوسهم، والتطلع إلىٰ ما عند الرؤساء المضعف لدينهم، والبحث في مشكلتهم هذه يطول، ولهم في ترك التكسب تعليلات قبيحة أعرضنا عنها للاختصار، وتفصيلها في كتاب «التلبيس» لابن الجوزي.

وقد أدخلت الشياطين في الصوفية من ليس منهم، بل من فرق الملاحدة والإباحية ليحتموا بالتصوف من القتل، ويكونوا عونًا للشياطين علىٰ زيادة إضلال الصوفية.

وللشياطين تلبيسات وتسويلات لبني آدم وأكبر مهمتها إفساد العقائد بأنواع الشكوك التي لا تقف عند حد، ثم الإغراء علىٰ الفتن والتناحر، وإحداث المجازر البشرية، ثم إفساد الأخلاق، ومن تلبيس الشياطين في العقائد تسويلهم للسفسطائية أن الأشياء لا حقيقة لها، وأن ما يستعبد يجوز أن يكون علىٰ ما يشاهد، ويجوز أن يكون علىٰ خلاف المشاهدة، وقد ناظرهم العلماء مناظرات كثيرة لا جدوىٰ لها؛ لأن الذي يعتقد أن المخاطبة بمنزلة السكوت في الإبانة، والصحيح بمنزلة الفاسد كيف يناظر؟

ولكن الذي يدفعهم ويكبتهم هو إبطال قولهم واجتثاثه من الأساس، وذلك بما وفق اللَّه به بعض العلماء حيث قالوا لهم: هل لمقالتكم هذه حقيقة أم لا؟ فإن قلتم: لا حقيقة لها وجوزتم عليها البطلان فكيف يجوز أن تدعوا إلىٰ ما لا حقيقة له؟ فكأنكم تقرون بِهذا القول أنه لا يجوز قبول قولكم، وإن قلتم لها حقيقة فقد تركتم مذهبكم وكذبتموه.

وقد لعبت الشياطين بعقول الدهريين والطبائعيين وغيرهم من الفلاسفة المنكرين لوجود اللَّه والزاعمين أنهم لا يؤمنون إلا بالمحسوسات، وقد ألهمتهم الشياطين ضروبًا من الجدل أغلبها لا يرتكز علىٰ أساس صحيح، وإنما هي تعنت ومغالطة وجناية علىٰ العقل؛ لأن العقل الصريح ضدها، ولسنا بصدد ذكر ما أقيم عليهم من الحجج والمناظرات، فإن الكلام ضائع مع من لا يحترم عقله ويتمسك بمغالطات يمجها كل عقل صريح.

ومن تسويل الشياطين ما زينوه للفلاسفة المتعقلين من الكلام في

الإله بما يخالف العقل، حتىٰ إن الذين أثبتوا الصانع منهم نفوا عنه العلم، وقالوا إن اللَّه لا يعلم إلا نفسه، وتلقفه ابن سينا طاغوت الإلحاد فقال: إنه يعلم الكليات فقط دون الجزئيات، وتلقف المعتزلة منه هذا المذهب الخبيث وكأنهم استكثروا المعلومات فأنكروا علم اللَّه بها جميعًا، فالحمد للَّه الذي جعلنا ممن ينفي عن اللَّه الجهل والنقص ونؤمن بقوله سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

واستجرت الشياطين بعض الفلاسفة إلىٰ إنكار بعث الأجسام ورد الأرواح فيها وإنكار الجنة والنار الجسمانيين، وزعموا أنها أمثلة ضربت لعوام الناس تخويفًا لهم، وأنه ما هناك إلا الثواب والعقاب الروحانيين علىٰ الأرواح التي تبقىٰ بقاء سرمديًا، فعميت بصائرهم عن إمكان الحشر وسهولة إعادة الأجسام علىٰ اللَّه الذي لا يعجزه شيء أبدًا، وعموا وصموا عن إثبات السعادتين والشقاوتين الروحانية والجسمانية جميعًا بمجرد التحكم والمغالطة؛ لأن الشياطين عبثت بعقولهم الشاردة عن وحي اللَّه ونوره، وقد تلقف هذا الرأي الفاسد بعض فلاسفة المسلمين الذين يفخرون بتقليد الفلاسفة الأقدمين.

وقد لعبت الشياطين علىٰ أصحاب الهياكل حتىٰ عبدوا الكواكب السبعة ونصبوا لها أصنامًا علىٰ صورتها، وجعلوا لها قرابين يسخر منها حتىٰ أطفال العقول، وذلك لأن تلبيس الشياطين مفسد للفطرة، ومخبط للأذهان، وأكثر عبادة الأصنام عند المجوس والبراهمة وغيرهم انبثقت من هذا المكر الشيطاني، كما انبثق منه القول بإلهين للخير والشر، وعبادة النار والشمس والقمر والنور والظلمة، وما لأهلها من سخافات ينكرها كل عقل فطري وينعىٰ أهلها.

وأكثر تلبيسات الشياطين علىٰ الناس في باب المعتقدات تزيينهم لهم الميل إلىٰ الحس والإعراض عن مقتضىٰ العقل، فيرفضون استعمال عقولهم، ولا يؤمنون إلا بالمحسوسات مع شدة ضلالهم في ذلك، ولا نزال في هذا العصر نعاني من أمثال هؤلاء ممن يشجعهم مكر اليهود

الذين هم من أخطر شياطين الإنس، وقد ثبت في صحيح البخاري أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، وذلك في حديث صفية، لما مشىٰ رسول اللَّه ﷺ معها في الليل ليردها إلىٰ بيتها فلقيه رجلان من الأنصار فأسرعا في المشي فقال رسول اللَّه ﷺ لهما: «**علىٰ رسلكما إنها صفية**»، فقالا: سبحان اللَّه يا رسول اللَّه، فقال: «**إن الشيطان يجري في ابن آدم مجرىٰ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًّا**»[(١)].

وروي عن الشافعي أنه قال: خاف النبي ﷺ أن يقع في قلوبهما شيء من أمر فيكفرا، وإنما قال ما قال شفقة منه عليهما لا علىٰ نفسه، وقال الخطابي: وفي هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الإنسان من كل أمر من المكروه مما تجري به الظنون ويخطر بالقلوب، وأن يطلب السلامة من الناس بإظهار البراءة من الريب.

وورد في بعض الآثار أن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين بابًا من الخير يريد به بابًا من الشر، ويروىٰ عن الأعشىٰ أنه قال: حدثنا رجل كان يكلم الجن، فقالوا: ليس علينا أشد ممن يتبع السنة، وأما أهل الأهواء فإننا نلعب بهم لعبًا.

ويروىٰ عن أنس بن مالك مرفوعًا: «**إن الشيطان واضع خطمه علىٰ قلب ابن آدم، فإن ذكر اللَّه خنس، وإن نسي اللَّه التقم قلبه**»[(٢)].

والخطم: هو منقار الطائر، أو مقدم الأنف والفم من كل دابة فاستعير للشيطان.

من تسويل الشياطين وتلبيساتهم تحسين عبادة النار، زاعمين أنها الجوهر الذي لا يستغني الناس عنه، بل لا يستغني عنه جميع العالم، ومن هنا زين عبادة الشمس ـ أيضًا ـ، وكان للمجوس بيوت نار في عدة بلاد كطرطوس وسجستان وبخارىٰ وغيرها، وكان «زرادشت» من

---

(١) رواه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٥).
(٢) رواه أبو يعلىٰ (٤٣٠١).

جنود الشياطين الذين بثوا الديانات المجوسية وأباحوا نكاح ذوات المحارم بشبهة قبيحة هي خلاف الواقع الذي ذكرناه في أول السورة، وقد زين الشياطين عبادة الملائكة وقالوا هي بنات اللَّه، تعالىٰ اللَّه عن ذلك، وزينوا عبادة الخيل والبقر، ومن أخطر تلبيس الشيطان تحبيب تقليد الآباء المذموم في القرآن؛ لأنه يقطع صاحبه عن النظر في الدليل، وعن استعمال العقل، وتحبيبه مذاهب الدهرية التي تعلق العرب بشيء منها.

وقد لبست الشياطين علىٰ البراهمة والهندوس وغيرهم طقوسًا كثيرة من الوثنية المجوسية وأفكار النبوات ليسد عليهم طريق ما يصل من اللَّه، وجعلهم يختلفون في إطلاق هذه الأفكار وتقييدها، حتىٰ إن منهم من حصر النبوة في آدم وإبراهيم فقط، ولهم شبهات قال ببعضها كفار قريش وسنأتي بأقواها والرد عليه في أوائل سورة الأنعام إن شاء اللَّه، وقد لعبت الشياطين علىٰ البراهمة فزينوا لهم إحراق أنفسهم وهم أحياء قربانًا إلىٰ الجنة، كما زينوا للمرأة إحراق نفسها بعد موت زوجها، ومن لم تحرق نفسها تعتبر غير شريفة ولا نزيهة.

وزينوا لهم القول بتناسخ الأرواح وأنها تتقمص أبدانًا أخرىٰ من الإنسان أو الحيوانات، وأن الأرواح الطاهرة تحل في أجسام البقر، ولهذا يقدسونها وتقوم الحروب عند ذبحها، وقد غشتهم الشياطين باعتقاد التناسخ بشبهة ما يجري علىٰ الأطفال والحيوانات من أنواع الاستسلام، زاعمين أن هذا بسبب الأرواح التي تقمصت أبدانها وهي مذنبة ذنوبًا سلفت منها، وهذا غش وبُهتان تُحيله العقول الفطرية، وقولهم بالتناسخ جرهم إلىٰ انكار الحشر والمعاد بزعمهم أن النفوس تنتقل من جسم إلىٰ جسم، وقد سرت هذه العقيدة إلىٰ بعض الصوفية وأكثر الباطنية، وطائفة الدروز علىٰ هذا المعتقد.

وقد لعبت الشياطين علىٰ عباد الأصنام من كل أمة عجمية أو عربية، وكسبت أعوانًا لها من شياطين الإنس والسدنة، وسولت لهم

نحت الأصنام علىٰ صور شتىٰ يتألهونها أحيانًا ويرجون منها الشفاعة أحيانًا، أو يؤلهها أقوام ويرجو شفاعتها أقوام.

وقد شنع اللَّه عليهم علىٰ لسان خليله إبراهيم حيث قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا نَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات]، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، ومصائدهم كثيرة في هذا الشأن.

وبعد أن يئست الشياطين من عبادة الأصنام علىٰ حالتها الأولىٰ، أحدثت عبادة القبور وتقديس المجذوبين، كما أحدثت الابتداع في الدين الذي هو من أخطر الأشياء وأبعدها عن الرجوع إلىٰ الحق، وهو أخطر مطية لهم؛ لأن صاحبه لا يعتبر نفسه مخطئًا فيتوب، بل زينت له الشياطين أنه أهدىٰ سبيلًا من أهل السنة، وأنه المعظم للرسول، وغيره منتقص، والأمر بالعكس، فهو المنتقص للرسول والرسالة والدين ورب العالمين، ولكن التأويلات الشيطانية تجعله في ضلال مبين.

ولشياطين الإنس الذين من أخبثهم اليهود والمجوس دور كبير في نشر البدع، واتساع خرقها، وكثرة أهلها بمسالك كثيرة نشأ فيها السبئية الذين يؤلهون علي بن أبي طالب، والخوارج الذين يكفرونه، والنواصب الذين يخطئونه، وكل هذه الفرق كثيرة، ثم نشأ أهل الكلام تلاميذ طالوت اليهودي جَعد بن درهم وجهم بن صفوان، فإن مذهبهم الباطل حصل له رواج وفتنة، وتشعبت منه عشرات فرق الضلال، وحصل به امتحان الأئمة وفرقت الأمة بكثرة الجدل والمشاغبة والشقاق، وحصل علىٰ بعض الأئمة إيذاء بسبب انحياز بعض الأمراء لبعض فرق أهل الكلام، لا زال يتكرر ذلك في عصور مختلفة لهذا السبب.

ولأن مذهب جهم الخبيث أخذت منه كل فرقة من فرق أهل الكلام بحسب قربها أو بعدها من مذهب السنة والقرآن، فإن المعتزلة أخذوا بشيء بل بأشياء، والقدرية كذلك، والأشعرية والماتريدية كذلك،

والكرامية والكلابية والمرجئة وسائر فرق التعطيل كذلك، وقد قذفت الشياطين في روعهم أن دلالة الكتاب والسنة ظنية لا تفيد اليقين، وهذا أخطر معتقد وأسفه رأي وأسوأ نتيجة، فإن الذي يعتقد أن وحي اللَّه لا يستفاد منه يقين، وأن اليقين لا يحصل إلا من المنطق اليوناني، وما قرره شيوخهم من نتائجه فهي المسلمات اليقينية عياذًا باللَّه من هذا القول الزائف الخطير.

إن أرباب هذا القول قد اتخذوا شيوخهم ومراجعهم رسلًا دون محمد ﷺ فلم يعاملوه معاملة خاتم النبيين، سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا، فإن اعتقادهم أعظم من الشعور، ولسان حالهم علىٰ خطتهم هذه ينطق بذلك.

وقد نجىٰ اللَّه أهل السنة والجماعة من جميع مذاهب الجهمية ومصائدهم الشيطانية، فأثبتوا للَّه سبحانه ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله من صفات الذات والأفعال بغير تشبيه ولا تمثيل، وبغير تأويل ولا تعطيل، وعلموا أن ما أتت به الجهمية وفروعها من التعاليم اليهودية والفلسفة اليونانية ما هو إلا استدراك علىٰ اللَّه ورسوله، ويا ويح من استدرك علىٰ اللَّه ورسوله باسم التنزيه الذي هو من تلبيس الشيطان، والذي لم ينزه اللَّه نفسه عنه بإثباته لذاته كما نزهها عن الولد والشبيه والنظير والشريك والكفء والصاحبة التي لم يقل بها أحد من الكفار والمشركين.

وقد قابل غلاة التعطيل غلاة من أهل التجسيم والتشبيه انخدعوا بِهمزات الشياطين، ولم يوفقوا لمذهب أهل الإثبات أهل السنة الذين يثبتون للَّه ما أثبته لنفسه من غير تشبيه ولا تكييف، ولا بحث عن الكنه، ولا رد للنصوص ولا جمود علىٰ ظواهرها، ونسيان لمدلول قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

هذا وإن الشياطين لعبوا علىٰ أهل الطوائف وفرقوهم شيعًا وأحزابًا

حتىٰ زادوا عن البضع والسبعين فرقة المذكورين في الحديث، فأحدثوا فرقًا جديدة من البهائية والبابية والقاديانية والتيجانية، كما أحدثوا في الصوفية فرقًا كثيرة كالشاذلية والدسوقية والعيدروسية والعامودية والسبكية والشبراوية والنقشبندية، وفرق الرفاعية والحلولية وغيرهم ممن يصعب حصره، وهذا في مدعي السنة ونحوها، فكيف بالفرق الأخرىٰ من الشيعة والروافض والنصيرية والدروز، وفرق النواصب والخوارج، لأن إغواءهم للناس لا يقف عند حد.

ومن أخطر ما أحدثه شياطين الجن والإنس مذهب الباطنية والقرمطية الذي نشروه في المشرق والمغرب خصوصًا بلاد فارس «إيران» والجزائر في المغرب، ثم غزوا مصر والشام والحجاز، وأصل مذهبهم نقمة اليهود والفرس المجوس الموتورين بالإسلام، فإنهم كسبتهم الأبالسة في إيذاء المسلمين والابتداع في الدين، والتآمر علىٰ أهله، فاستنبطوا تدبيرًا يخفف عنهم جمرة غيظهم، ويحصل لهم التشفي من الإسلام وأهله الذين أخرسوهم عن النطق بما يعتقدونه من إنكار اللَّه والنبوات وحشر الأجسام، وكبتوهم عن نيل شهواتهم، فاقتضىٰ رأيهم بوسوسة الشياطين انتحال مذهب الباطن الذي يقدرون بواسطته علىٰ إحداث الفرقة والبلبلة والفتنة المستطيرة بين المسلمين، وأن يتزعموا التشيع ليلعبوا علىٰ عقول الشيعة، ويتحصنوا بذلك من القضاء عليهم في مهدهم، ويتغلغلوا في الروافض ويتوددوا إليهم بالحزن علىٰ ما جرىٰ علىٰ أهل البيت، والعمل علىٰ الانتصار لهم.

قالوا: ومقصودنا أن نتمكن من شتم السلف الذين نقلوا دين الإسلام إلىٰ الآفاق بالفتح والدعوة، لنغرس انتقاصهم وهوانهم في القلوب، فإذا هانوا عند الناس لم يلتفتوا إلىٰ نقلهم، فيمكننا استدراجهم إلىٰ الانصراف عن دينهم وبغض أسلافهم، فإذا بقي منهم من يعتصم بظواهر القرآن أوهمناه أن لها أسرارًا وبواطن، وأن المنخدع بظواهرها

أحمق، وإنما الفطنة في اعتقاد بواطنها، فإذا نجحنا في ذلك تمكنا من نشر عقائدنا، وزعمنا أنها المرادة من ظواهر النصوص التي عندهم، ثم إذا تكثرنا بِهؤلاء سهل علينا استدراج الكثير من الناس، ثم نختار قيادة نزعم أنها من أهل البيت الذي يجب اتباعهم علىٰ كل مسلم، لكونه الخليفة الحقيقي للرسول، والمعصوم من الزلل بتأييد اللَّه، ونبتعد بالدعوة عن قرب القيادة حتىٰ لا تنكشف.

قالوا: وينبغي اختيار من يُطمع في استدراجه من الناس، وأن نغزوه بما يوافق ذوقه من الصلاح والفساد والتقشف، أو الانطلاق في اللذات، فهم يقابلون كل ذي مذهب بما يوافق مذهبه بادئ الأمر، ثم يشككونه فيما بعد، ويختارون أتباعهم من أبناء المنكوبين والموتورين، خصوصًا أبناء الملك والسلطنة الموتورين بأهل الإسلام، ومن الأشخاص الذين يحبون التزلف والعلو، أو أصحاب المطامع، أو أهل الفسق والمجون والضراوة بأموال الناس وأعراضهم، وكلٌّ من يحمل نقمة علىٰ المسلمين أو علىٰ الخلفاء الراشدين، واستجلاب الملاحدة من الفلاسفة ومحبي الظهور، واستغلال عواطف الشيعة ونحوهم، لتكثير السواد وكثرة الأتباع، وكذلك اختيار المتحيرين وكل من في قلبه حقد علىٰ الإسلام، كالثنوية ونحوهم لتحصل الصولة بِهذه الأجناس علىٰ المسلمين؛ لأن هؤلاء عندهم قبول لما يلقىٰ في روعهم بسبب ما في قلوبهم علىٰ الإسلام والمسلمين.

هكذا تكونت جماعتهم من خليط من الناس عندهم استعداد للنكاية بالمسلمين، وقد أغروهم بإباحة المحرمات، وتحبيب جميع الفواحش باسم العلم الباطني، فراج أمرهم وكثر شرهم، وحصل منهم علىٰ المسلمين فتن ومحن وقتل كثير، ونَهب وفساد حتىٰ في مكة، وتسلطوا علىٰ الحجاج وادعوا الألوهية، وأخذوا الحجر الأسود بِهذه الحجة، وأخبارهم مذكورة في التاريخ فلا نطيل بها، ونكتفي بذكر مبادئهم واستغلالهم السفهاء والمغرضين والموتورين والفاسقين،

وأن هذا من بعض مكر الشياطين، وأن شبهاتهم يصعب تفنيدها لدعوىٰ الباطن، ولكن إذا اتفقت مناظرة لأحدهم فلنقل له: أهذه الأشياء التي عرفتموها عن ضرورة، أو عن نظر أو عن إمام معصوم؟

فإن قلتم: ضرورة، فكيف خالفكم أهل العقول السليمة؟ ثم لو جاز للإنسان أن يهتدي بدعوىٰ الضرورة فيما يهواه؛ لجاز لخصمه دعوىٰ الضرورة في نقض ما ادعاه، وإن قلتم: فالنظر عندكم باطل؛ لأنه تصرف بالعقل، وقضايا العقول عندكم لا يوثق بما، وإن قلتم: عن إمام معصوم، قلنا: فما الذي دعاكم إلىٰ قبول قوله بلا معجزة، وترك قول محمد ﷺ مع المعجزات؟ ثم ما يؤمنكم أن يكون ما سمع من الإمام المعصوم له باطن غير ظاهر؟ ثم يقال لهم: هذه البواطن والتأويلات أيجب إخفاؤها أم إظهارها؟ فإن قالوا: يجب إظهارها قلنا لهم: كتمها محمد ﷺ، وإن قالوا: يجب إخفاؤها، قلنا: ما وجب علىٰ الرسول إخفاؤه كيف حل لكم إفشاؤه؟

ولسنا بصدد الرد عليهم في هذا التفسير، ولكنني لما استطردت في ذكر الباطنية في معرض تلبيسات الشياطين وتسويلاتهم رأيت من الضروري إتحاف القراء والمستمعين ببعض أنواع الرد عليهم وعلىٰ غيرهم باختصار، وأرشد المستزيد إلىٰ مراجعة كتاب «فضائح الباطنية» والمسمىٰ بـ«المستظهري» لأبي حامد الغزالي، فإنه من غرر كتبه ومن أحسن ما يفيد في الرد عليهم ردًّا قامعًا دامغًا فإني استصعبت نقل شيء منه.

وللشياطين تلبيسات وتسويلات كثيرة علىٰ العلماء والقراء والفقهاء والمحدثين وطلاب العلم من كل فريق، فيلبسون علىٰ العلماء ويسولون لهم الاختلاف، ليشغلوهم عن حقيقة الدعوة والقيام بها علىٰ الوجه المطلوب، وليجعلوا من اختلافهم سبة علىٰ الدين وحجة للملاحدة، وسببًا لزهد بعض الناس أو شطرهم في الدين والإعراض، ولينتشر الجدل فيما بين العلماء، وتنشأ الحزازات،

وكثيرًا ما يكون الخلاف في الأشياء التافهة المشغلة لهم عن الأصول والمسائل الكبار.

وتلعب الشياطين بعقول أهل الحديث أو أدعيائه ممن لا يحفظون من الأحاديث إلا نزرًا يسيرًا، فيتنازعون مع الفقهاء في مندوبية بعض النوافل التي لم تشتهر بها النصوص، أو في عددها كمندوبية نافلة المغرب القبلية، أو عدد صلاة التراويح، ونحو ذلك من الفروع، ويتركون الأصول والعقائد التي عليها مدار الغزو الفكري والتضليل الماسوني اليهودي، فلا تجد أحدًا منهم ولا من العلماء الآخرين المتنازعين في الفروع يتصدىٰ لتفنيد الأفكار الخطيرة الهادمة لملة إبراهيم من القوميات ومستلزماتها القاضية بمحبة أعداء اللَّه وموالاتهم، والتعاون معهم باسم القومية الفلانية، والوطنية الفلانية، مما فيه التصريح الواضح الخطير بأولوية النصراني العربي علىٰ المسلم غير العربي، وهكذا كل فرقة كافرة تتحد في القومية، فهي أولىٰ من المسلمين الذين هم من قومية أخرىٰ.

ولا تجد أكثر العلماء يعير هذا أي اهتمام، فضلًا عن أن يقوم بوجه هذه الأفكار الخطيرة، ويحذر الشباب منها الكهول، بل ولا تجد واحدًا من أهل الحديث يقوم بذلك، فيا عجبًا من غرور الشياطين الذين يشغلوننا بالقشور عن اللباب، بل المصيبة أن قصارىٰ همة أهل الحديث انتقاد الفقهاء والرد عليهم، والتقاط ما عساه يكون زلة لهم، والطعن عليهم بالتقليد، كأنهم هم مرتفعون كل الارتفاع عنه، ولم يكونوا عولًا علىٰ ابن حزم المتناقض في الأصول فضلًا عن الفروع، واللَّه يهدي الجميع إلىٰ الحق.

وكذلك تلعب الشياطين علىٰ الفقهاء فتجعلهم لا يلتفتون إلىٰ الحديث حتىٰ في مسائل الخلاف التي ينبغي الرجوع فيها إلىٰ الدليل وقوته، لا إلىٰ موافقة المذهب الفلاني أو العالم الفلاني، فإن هذا

تعصب لا ينبغي صدوره من العلماء، ومن الضروري الجمع بين الفقه والحديث والأخذ بما صح دليله، وأن لا يقدم الفقه للطلاب عاريًا من الدليل والتعليل، فينشئون علىٰ الجمود والجهل بالحديث، وأن لا يحلوا علم الجدل محل علم الحديث، ولا يفرعوا بالاستنباط علىٰ حديث غير ثابت.

ومن تلبيس الشياطين علىٰ جميع العلماء مداهنتهم مع الحكام بعدم الإنكار عليهم، وعدم تحقيق النصح الواجب لهم والنافع لسير حكمهم، وترك إغرائهم بالمدح الباطل، فإن كثيرًا من العلماء أضاع حق اللَّه في ذلك.

ومن تسويلات الشياطين علىٰ العلماء والفقهاء تجبينهم عن الإنكار علىٰ سواد الناس ما يتظاهرون به من المنكرات، وبدعة زيارة القبور والمشاهد، وما يجري فيها من الشرك الذي أسلفنا ذكره، مع أن الواجب يقضي عليهم أن يكونوا شجعانًا، ويجتمعوا علىٰ هدمها وتسويتها بالأرض تنفيذًا لوصية المصطفىٰ ﷺ وهذه مصيبة ليست عصرية، بل هي قديمة، ولابد أن يكون سبب عدم الاجتماع والاتفاق علىٰ ذلك هو بيع بعض العلماء ضمائرهم للشياطين بحطام الدنيا أو نيل وجاهتها، فينصبون أنفسهم سندًا للباطل، وخصوصًا لأهل البدع، كما دافعوا عن هذه البدع الشنيعة، وصنف بعضهم كتبًا حشاها من الشبهات ووحي الشياطين كما تكلمنا علىٰ بعضه فيما مضىٰ من تفسير الآية السابقة، وبِهذا يكونون قد شابَهوا اليهود والمنافقين الذين اشتروا بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا.

ومن تسويلات الشياطين علىٰ القراء صرفهم عن تلاوة القرآن الصحيحة بالخشوع والتباكي، وتدبر المعاني واستشعار عظمة مُنزلِه ـ جَلَّ وَعَلَا ـ إلىٰ الانشغال بالترنيم والتطريب وقراءة الألحان والتمطيط، بل إشغال ما مع الناس بالقراءات الشاذة، أو الجمع بين القراءات

كلها وترديدها مما نص أهل العلم علىٰ عدم جوازه، ومن خروجهم بالقرآن عن شرف مكانته وعلو رفعته إلىٰ حد الغناء المذموم، وجعلهم قراءة القرآن كالطقوس، بل تجاوز الأمر بهم إلىٰ الإسراف بحدود التجويد، وكونهم يتعلمونه علىٰ ألحان العود، وبدون ذلك لا يعطون الشهادة، فإن هذه أوضاع شيطانية ما أنزل اللَّه بها من سلطان.

ومن المعروف المشهور في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ قرأ بالثلاث السور التي هي أطول سور القرآن في ركعة واحدة ـ البقرة والنساء وآل عمران ـ قراءة المتمهل، يسأل اللَّه عند كل آية وعد، ويستعيذ به عند كل آية وعيد، فلو كانت قراءته علىٰ هذه الحال المشاهدة من قراء هذا الزمان لطلع الفجر قبل أن ينتهي من سورة واحدة، وكذلك قرأ سورة الأعراف بصلاة المغرب، فلو كانت قراءته كقراءتهم أو قريبة منها لخرج وقت المغرب والعشاء قبل الانتهاء من قراءتها، وهذا مما يوضح أن القوم في بعد شاسع عن سنة رسول اللَّه ﷺ في القراءة، ولنا رسالة في هذا الشأن ردًّا علىٰ المتنطعين من الأزهريين.

ويوجد كثير من الناس يسرع في القراءة، فتكون هذرمة خالية من كل تدبر وخشوع، وهذا من غش الشياطين للمسلمين، يلبسون عليهم أن في كثرة القراءة ثوابًا، ويجعلونهم لا يحسنون معنىٰ الحديث: «**إن اللَّه يأجركم علىٰ قراءته كل حرف بعشر حسنات**»(١)، وقد ذم اللَّه اليهود الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، أي قراءة مجردة عن التدبر والتفهم والخشوع.

ومن تلبيسات الشياطين علىٰ الوعاظ والقصاص وتسويلاتهم لهم أنهم جعلوهم يقصرون الوعظ علىٰ الرقائق والترغيب والترهيب، فيتساهلون في الحديث من أجل ذلك، ويقرءون الأسجاع والأحاديث

---

(١) رواه الدارمي (٣٣١٥).

الباطلة المكذوبة بحجة الترغيب والتزهيد للعوام، وجذبهم للاستماع، وهذا فيه خطر عظيم وافتيات علىٰ الشريعة كأنها ناقصة تحتاج إلىٰ تمام، وفيه خطر الكذب علىٰ رسول اللَّه ﷺ وأن القارئ للأحاديث المكذوبة هو أحد الكاذبين، وأكثر الكتب المصنفة في الوعظ من هذا القبيل، قد جمعوا فيها بين ضعيف الأحاديث وموضوعها مع قصص لا تجدي نفعًا.

والواجب علىٰ الواعظ إلهاب قلوب السامعين بسياط المواعظ الصحيحة علىٰ نمط القرآن ومواعظ المصطفىٰ ﷺ فيما يغرس حب اللَّه وتعظيمه، ويدفع إلىٰ الأعمال الصالحة والبذل في سبيل اللَّه، إن رسول اللَّه ﷺ إذا وعظ الناس كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم، وكان إذا خطب احمر وجهه، وعلا صوته وكان يعالج المشاكل بصفة منقطعة النظير، فكلما حدثت مشكلة أو أخطأ عامل من عماله جمع الناس في المسجد، وصعد المنبر فألقىٰ التعاليم النافعة، بخلاف أكثر وعاظنا وخطبائنا اليوم الذين خدموا أعداء الدين من حيث لا يشعرون، بترديدهم الأقاصيص والأسجاع والخطب المكتوبة منذ قرون لا تناسب غير أهل زمنها. وفاتهم أن رسول اللَّه ﷺ لا يردد، وأن خليفته الأول لم يخطب الناس ولا بخطبة واحدة من خطبه، وأن الخليفة الثاني فمن بعده كذلك، وقد كسب شياطين الإنس والجن خطباءنا ووعاظنا بعدم علاجهم للمشاكل، ومقارعتهم ما يحدث من أنواع الغزو الفكري.

هذا وإن الشياطين إذا عجزت عن إزلاق الإنسان في المعاصي أتته من أبواب الطاعة حتىٰ تزين له البدع والإحداث في الدين، أو تزين له إرهاف نفسه في العبادة حتىٰ يملها فيترك الدين كله، أو يشوش عليه عبادته بأنواع الوساوس في الوضوء والطهارة والأحداث والنجاسة والجنابة، أو عدد الركعات أو النطق بالنية، أو تكرارها وغير ذلك مما يؤذيه، وقد نص المحققون علىٰ أن النطق بالنية نقص في العقل

وجهل بالشرع، ولم يصح عن الإمام الشافعي القول بذلك. بل قال الإمام أحمد: من نسب إلىٰ الشافعي قول: نويت ونويت فهو كذوب.

قالوا: ومعلوم أن من دخل عليه عالم فقام له، وقال: نويت أن أنتصب قائمًا تعظيمًا لهذا العالم فقد سفه في عقله؛ لأن هذا قد تصور في ذهنه منذ رأىٰ العالم، فقيام الإنسان للصلاة ليؤدىٰ الفرض أمر يتصور في النفس لا يحتاج إلىٰ التعبير عنه باللسان، فالنية محلها القلب، وجميع الصحابة الذين نقلوا لنا صفة صلاة النبي ﷺ ووضوءه لم يذكروا أنه تلفظ بالنية، مع حرصهم علىٰ ملاحظة أحواله بالدقة، حتىٰ إنهم سألوه عما يسره من النطق بين التكبير وقراءة الفاتحة، ولو أحسوا بإسراره شيئًا قبل التكبيرة لسألوه عنه، بل كان يكبر سريعًا بعد الإقامة والأمر بالاعتدال.

ولكن الشياطين يحرجون بعض الناس في أمر الطاعة والطهارة حتىٰ يجعلوا البعض يغسل ثوبه مرارًا، وبعضهم لا يكتفي بغسله إلا في النهر والبئر كاليهود، وبعضهم تفوت عليه الشياطين صلاة الجماعة أو الجمعة ونحو ذلك، وللشيخ الموفق بن قدامة رسالة نافعة في الرد علىٰ الموسوسين أنجانا اللَّه من أضرار الأبالسة بمنه وكرمه، وقد نجىٰ اللَّه الصحابة من ذلك، وفتحوا فارس والروم، وصلوا في ملابسهم دون وسوسة، وبعضهم غسلها مرة واحدة، وكذلك استعملوا أثاثهم وأوطئتهم وأوانيهم بدون غسل والحمد للَّه.

وقد أغوت الشياطين بعض القراء في مخارج الحروف وصفاتها، وجرتهم إلىٰ التكلف المفسد للقراءة، ولذلك تجد كثيرًا من الأئمة لا يحسن قراءة الفاتحة كما ينبغي، وهو محسن لباقي السور، وكذلك يفسدون علىٰ بعض الأئمة والمؤذنين حقيقة النطق والتكبير، كما يغرون بعض الناس في الصيام والحج وغيرها من العبادات، ويغشونهم في أداء الزكاة والاحتيال فيه بدفعها إلىٰ المستخدمين، وإلىٰ من تجب عليهم النفقة، وإلىٰ بعض الموظفين الذين ينتفع بهم، فيجعل

دفع الزكاة إليهم وسيلة لقضاء حوائجه في دوائر الدولة كما يجعلها وسيلة لاستبقاء الخدم والكتاب عنده بدون زيادة رواتب بسبب إعطائهم الزكاة، وهكذا يتنوع إغواء الأبالسة للمسلمين حتىٰ يدخلوهم في مصاف المطففين علىٰ اللَّه.

ومن أعظم تلبيسات الشياطين وتسويلاتهم الخبيثة تحبيب الغناء وجميع آلات الطرب واللهو، فهم يعملون علىٰ تحبيبها لجميع الناس، وخصوصًا من يتمكنون منه من الصوفية، ذلك أن الغناء بريد الزنىٰ، وأكبر الملهيات عن ذكر اللَّه، بل فيه شرود بالقلب عن حب اللَّه ورسوله إلىٰ حب ما يكرهه اللَّه ورسوله، مما هو خلل في العقيدة وفساد في الأخلاق، ولهذا قرر المحققون أنه مضاد للحس الديني ومناقض له تمام المناقضة، إذ لا يجتمع في القلب حب اللَّه ورسوله، وحب ما لا يرضاه اللَّه ورسوله، ولا يجتمع في القلب حب وحي اللَّه ووحي الشياطين، فلابد أن بعضهما يطرد بعضًا.

حُبُّ الكتاب وحبُّ ألحانِ الغنا في قلب عبدٍ ليس يجتمعانِ

ولقد ذكرت فيما مضىٰ قاعدة عقلية لا تقبل الجدل، وهي أن قبول الوعاء لما يوضع فيه مشروط بتفريغه وتخليته من ضده، فكل وعاء لا يصلح مستقرًا لأي مادة حتىٰ يفرغ من ضدها، ومثال ذلك الإناء الذي فيه ملح لا يصلح مستقرًا للسكر حتىٰ ينظف من الملح ثم يوضع فيه السكر، فكيف يوضع العسل المصفىٰ بإناء فيه أوساخ وقاذورات؟ فهذه قاعدة دامغة لجميع المغالطات.

قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان»: ومن مكايد عدو اللَّه ومصائده التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين سماع المكاء والتصدية والغناء والآلات المحرمة التي يصد بها القلوب عن القرآن ويجعلها عاكفة علىٰ الفسوق والعصيان، فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط

والزنىٰ، وبه ينال العاشق من معشوقته غاية المنىٰ. كاد به الشيطان النفوس المبطلة، وحسنه لها مكرًا وغرورًا، وأوحىٰ إليها الشبه الباطلة علىٰ حسنه، فقبلت وحيه، واتخذت لأجله القرآن مهجورًا «إلىٰ أن قال شعرًا»:

تُلي الكتابُ فأطرقوا لا خيفةً ... لكنه إطراقُ ساهٍ لاهي
وأتىٰ الغناءُ فكالحمير تناهقوا ... واللَّهِ ما رَقصوا لأجل اللَّهِ
دُفٌّ ومزمارٌ ونغمةُ شادنٍ ... فمتىٰ رأيتَ عبادةً بملاهي
ثَقُل الكتابُ عليهمُ لمَّا رأوا ... تقييدَه بأوامرٍ ونواهي
وأتىٰ السماعُ موافقًا أغراضَهم ... فلأجل ذاك غدًا عظيمَ الجاهِ
إن لم يكنْ خَمرَ الجسوم فإنه ... خمرُ العقول مماثلٌ ومضاهِي
فانظر إلىٰ النشوانِ عند شرابه ... وانظر إلىٰ النشوانِ عند ملاهي
وانظر إلىٰ تمزيقِ ذا أثوابَه ... من بعد تمزيقِ الفؤادِ اللاهي
واحكم فأي الخمرتين أحقُّ بالتحـ ... ـريم والتأثيم عند اللَّهِ

انتهىٰ باختصار. وسنتكلم إن شاء اللَّه علىٰ الموضوع بكامله في تفسير آية الإسراء: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾.

ولهم شبهات يلبسون بها علىٰ الناس كحديث الجاريتين الصغيرتين عند عائشة، وحديث: «**رفقًا بالقوارير**»(١)، وحديث الجارية العروس: «**أتيناكم أتيناكم، فحيونا نحييكم**»(٢)، والاستدلال بِهذه الشبهات من المضحكات؛ لأن الذي جرىٰ في هذه الحوادث ليس من نوع الغناء المذموم الفاتن المحرك للشهوة، وإنما هو من الحداء والنشيد الحربي في يوم بعاث، والغزل الذي فيه غزل لفظي بحت، ليس فيه

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٩)، ومسلم (٢٣٢٣).
(٢) رواه أحمد (٤/ ٧٧).

شيء من معنىٰ الغناء المحذور، فتملقهم بمثل هذه الآثار سخافة وكذلك غناء الحبشيات يوم العيد.

والذي ينبغي اعتماده في الحكم علىٰ الشيء هو أن ينظر في ماهيته، ثم يطلق عليه حكم التحريم أو الكراهة، والغناء اسم يطلق علىٰ أشياء عديدة من أنواع الشعر، وقد أجمع العلماء علىٰ أن الشعر كالكلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح، والغناء منه حداء الرعاة، ونشيد الحُجَّاج، ونشيد الأعراس النزيه، ونشيد الأعراب الحربي المحتوي علىٰ الحماس ومدح الشجاعة، والافتخار بالظفر والعز والكرم، وذم البخل والجبن ونحو ذلك، فهذا مباح لا حرج فيه، وكذلك الشعر المحتوي علىٰ القصص والحكم، فأما الأشعار التي ينشدها المطربون المتهيئون للغناء والطرب، يصفون فيها أنواع الجمال الفاتن والخمر وغير ذلك مما يهيج الطباع، ويخرج النفوس عن الاعتدال، ويثير كوامنها من حب اللهو، كحالة الغناء اليوم، فلا شك في تحريمه، وما أشد جريمة من يقيسه علىٰ الحداء وغناء الأعراب الساذج من ذلك لأنه سالك مسلك التلبيس، فهو من أعوان الشياطين، ومن قال: إن عاطفته لا تتحرك، ونفسه لا تَهيج عند رؤية المستحسنات، أو التغني بأوصاف الجمال ولذة الوصال فهو كاذب مهرج مخادع.

وقد صنف كثير من العلماء في تحريم الغناء والأغاني وجميع آلات الطرب، وجاءوا بنصوص الكتاب والسنة علىٰ ذلك، وأقوال الأئمة وأتباعهم من كل مذهب، ونصوا علىٰ إتلاف آلات اللهو، ووجوب الإنكار علىٰ أهله وتعزيرهم بما يردعهم، وفندوا مزاعم ابن حزم وشبهاته الباطلة، وقرروا أن الغناء من جملة الكبائر، خصوصًا إذا اقترن بالآلات، وأن من كسرها فلا ضمان عليه بتاتًا، ومن المعلوم أن الاستباحة أشد جريمة من الفعل، ولهذا تضافرت الأحاديث عن النبي ﷺ أن اللَّه يخسف بأقوام يبيتون علىٰ الغناء والمعازف، وأنه يحصل فيهم المسخ قردة وخنازير، وهذه النصوص لا تصادم نصوص

رفع العقوبات السابقة عن هذه الأمة؛ لأن المرفوع هو عذاب الاستئصال أو المسخ الجماعي، فأما المسخ الفردي فليس بمرفوع بتاتًا، لا سيما وقد وردت نصوص كثيرة بإثباته.

وسمع ابن عقيل البغدادي الحنبلي بعض الصوفية يقول: إن مشايخ هذه الطائفة كلما وقفت طباعهم حداها الحادي إلىٰ اللَّه بالأناشيد، فقال عقيل: لا كرامة لهذا القائل، إنما تحدىٰ القلوب بوعد اللَّه في القرآن ووعيده، وسُنَّة الرسول ﷺ لأن اللَّه يقول: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]. وما قال: وإذا أنشدت عليهم القصائد طربت، فأما تحريك الطباع بالألحان فقاطع عن اللَّه، والشعر يتضمن صفة المخلوق والمعشوق مما يتعدد عنه فتنه، ومن سولت له نفسه التقاط العبر من محاسن البشر وحسن الصوت فهو مفتون.

ومن تلبيسات الشياطين وتسويلاتهم لعبهم علىٰ الفلاسفة وبعض الصابئة بتقديس النجوم واعتقاد تأثيرها علىٰ حسب ما زعموه من طبائعها من السعود والنحوس، وتأثيرها في النفوس، وأنها حية فعالة كما زعمه ابن سينا والفارابي، وفرعوا اعتقادهم من ذلك في القبور، فإن ابن سينا والفارابي قالا: إن تمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلىٰ الميت، ويعكف بِهمته عليه، ويوجه قصده كله وإقباله عليه، بحيث لا يبقىٰ فيه التفات إلىٰ غيره، وكلما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلىٰ انتفاعه به، وتصريح بِهذا مطابق لتصريح عباد الكواكب، لأنهما يعتقدان كاعتقادهم، فإن من بعض معتقداتهم أنه إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور، وبِهذا السر عُبدت الكواكب واتُّخذ لها الهياكل، وصنفت لها الدعوات، واتخذت الأصنام المجسدة لها، ثم سرىٰ هذا الاعتقاد إلىٰ عباد القبور حسب ما رسمه ابن سينا لهم، وابن سينا فارسي إسماعيلي عدو للإسلام والمسلمين كالفارابي.

ومن إغواء الشياطين وتلبيسهم غشهم للناس بإنكار المعاد، بدعوىٰ

ضعف المادة واختلاط الأجزاء المتفرقة، وكون بعض الأجسام يكون مأكولًا ممتزجًا بأجسام أخرىٰ، ومتحولًا إلىٰ عذرة، وبعضها غريق طعم للأسماك، وبعضها حريق، فغرسوا في قلوبهم استبعاد إعادة الأجزاء المختلطة والمتفرقة في أعماق الأرض والبحار، وهذه الشبهة الخطيرة من أقوىٰ شبهات الشياطين وإضلالهم في أقدم العصور وأحدثها، وقد ذكرها اللَّه في القرآن وركز علىٰ تفنيدها وعلىٰ إمكان المعاد وسهولته كما أسلفنا ذلك؛ لأن الإيمان بالبعث والحساب هو قوام الدين وسبب الخوف من اللَّه ومراقبته، وهو الذي بدوام استشعار أهواله تصلح أعمال العبد، وتحسن سيرته ومعاملته للخالق والمخلوق في جميع ميادين الحياة، وهو الذي بسببه يحصل الانتفاع بمواعظ وحي اللَّه من كتاب وسنة كما أسلفنا ذلك مرارًا، وقد كسب الشياطين من ينكر المعاد في جميع العصور فأبو العلاء المعري يقول:

حياةٌ ثم موتٌ ثم بعثٌ ... حديثُ خرافةٍ يا أمَّ عمرو

والشاعر الجاهلي القديم يقول:

يُخبِّرُنا الرسولُ بأنْ سنحيا ... وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ؟

وقد أجاب العلماء عن شبهات الأبالسة التي غشوا بها منكري المعاد بأن ضعف المادة في الثاني ـ وهو التراب ـ يدفعه كون البداية من نطفة وعلقة ومضغة، ثم أصل الآدميين وهو آدم من تراب، علىٰ أن اللَّه سبحانه لم يخلق شيئًا مستحسنًا إلا من مادة ضعيفة سخيفة، فإنه أخرج هذا الآدمي البديع من نطفة، والطاووس من بيضة مذرة، والطرفة الخضراء من حبة عفنة، فالنظر ينبغي أن يكون إلىٰ قدرة الفاعل وقوته لا إلىٰ ضعف المواد.

وبالنظر إلىٰ قدرته يحصل جواب الشبهة الثانية التي هي الاختلاط والتفرق، فإن اللَّه سبحانه أرانا من عجائب خلقه المادي أن سحالة الذهب المتفرقة في التراب الكثير إذا ألقي عليها قليل من زئبق

اجتمع الذهب مع تبدده، فكيف بالقدرة الإلهية التي من تأثيرها خلق كل شيء من لا شيء، لا من شيء كما أسلفنا، علىٰ أننا لو قدرنا أن نحيل هذا التراب إلىٰ ما استحالت إليه الأبدان لم يصر بنفسه؛ لأن الآدمي بنفسه لا ببدنه، فإنه ينحل ويسمن ويهزل ويتغير من صغر إلىٰ كبر وهو هو.

ومن أعجب الأدلة علىٰ البعث أن اللَّه سبحانه قد أظهر علىٰ أيدي أنبيائه ما هو أعظم من البعث، وهو قلب العصا حية تسعىٰ، وإخراج ناقة من صخرة، وأخرج حقيقة البعث علىٰ يد عيسىٰ وإبراهيم وقد كفانا ابن الجوزي الإطالة في هذا الموضوع بكتابه: «الرد علىٰ الفلاسفة» الذي لا نقدر علىٰ نقله.

وقد لعبت الشياطين علىٰ بعض المؤمنين بالمعاد، وسولت لهم بالأماني الباطلة أن اللَّه الذي أغناهم في الدنيا من فضله سيوافيهم بفضله يوم القيامة، كما حكىٰ اللَّه عن بعضهم في قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

ومن المعلوم الواضح المشاهد أن الشياطين تكسب من أغوته لإغواء غيره، ومن أكبر ما كسبت وأفظعِهِ إغواءً للناس اليهود والنصارىٰ وأهل الكلام والقبوريون، وقد أفسدت علىٰ اليهود عقولهم ودينهم مع أنهم أمة الذكاء والدهاء، حتىٰ صار أحدهم يزيد في الشر علىٰ إبليس، وقد انطلت عليهم أقبح شبهات الأبالسة وأشنعها وأبعدها عن العقل، وهي تشبيههم الخالق بالمخلوق، ولو كان ذلك حقًّا لجاز عليه ما يجوز علىٰ المخلوق، وهذا من أمحل المحال علىٰ الإطلاق، فكيف يستسيغه ذو عقل ودين، وهم ممن تولاهم اللَّه بالوحي والنبوات.

بل جرتهم الشياطين إلىٰ الضلال حتىٰ صوروا للَّه في كلامهم هيكلًا، وزعموا أن العزير ابن اللَّه، مع أن حقيقة النبوة مضادة للربوبية والألوهية من جميع الوجوه، ولو لم يكن من ذلك إلا أن عزيرًا بشر

يأكل الطعام ويحتاج إلىٰ ما يحتاج إليه الإنسان لكفىٰ؛ لأن الإله الحق هو من قامت به الأشياء لا من كان مفتقرًا إليها، ولكن غشهم إبليس بكون العزير عاد إليهم بعد الموت، فتعلقوا به، ولم يتعلقوا بالخلاق العظيم الذي أحياه بقدرته، وجعله لا ينسىٰ التوراة بعد حفظها، وقد تجرءوا علىٰ اللَّه بتسويلات الشياطين لهم فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤].

وأنكروا نسخ الشرائع، وهم يعلمون أن شريعة موسىٰ نسخت كثيرًا مما قبلها من الشرائع، وهم قد رسخت في قلوبهم الوثنية وحب المادة، فقد قالوا بعد ما جاوز اللَّه بهم البحر وأغرق عدوهم فرعون: ﴿يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ولم يتعظوا بزجر موسىٰ، بل عبدوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات، وغرتهم الشياطين بأنسابهم حتىٰ لم يكونوا أمناء علىٰ وحي اللَّه التوراة التي استحفظهم عليها، فخانوها بالتبديل والتحريف وكتمان صفات محمد ﷺ التي كانوا يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم، فكفروا به حسدًا منهم وبغيًا، واشتروا بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا، وباعوا رضوان اللَّه بالهوىٰ، فهم من أخطر جند إبليس، ولقد آذوا موسىٰ وعابوه وأعنتوه واتْهموه بقتل هارون، ثم اتْهموا داود بتهمة شنيعة، ولا يستغرب هذا ممن يطعن بالذات الإلهية.

ولا يزالون جنودًا للأبالسة في كل ميدان، ولا تجد غشًّا عقائديًّا أو اقتصاديًّا أو مكرًا سياسيًّا إلا واليهود وراءه، فقد ساعد الأبالسة علىٰ إضلال النصارىٰ، وسرقة أناجيلهم، واللعب علىٰ عقولهم بتحريف الدين، واعتقاد الأقانيم الثلاثة عند بعضهم، وكون اللَّه هو المسيح عند البعض الآخر، مع اعتقاده الجازم بأنه يأكل الطعام مثلهم، وأنه مقتول مصلوب بزعمهم، لم يقدر علىٰ الدفاع عن نفسه؛ لأنهم غشوهم بأن الفعل هذا كان مما فيه من الناسوت؛ لأن اللاهوت والناسوت اجتمعا فيه، وغفلوهم عن أن اللاهوت يدفع الشرَّ عن الناسوت لو كانا

قد اتحدا بالمسيح، إذ ما قيمة اللاهوت الذي لا ينفع الناسوت في أحرج الحالات؟

وللشياطين تلبيسات أخرىٰ علىٰ النصارىٰ في شأن اللاهوت والناسوت، وأن خذلان اللاهوت للناسوت هو لأجل تكفير الخطايا، وهذه دعوىٰ باطلة بنص اللَّه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم]، وإن اللَّه سبحانه تاب علىٰ آدم من ذنبه، واجتباه لرسالته وخلافته في الأرض، وإن اللَّه لا يعاقب أحدًا بذنب غيره، ولا ينفع المذنب صلاح أبيه أو غيره من الناس أبدًا إلا بالشفاعة العظمىٰ، شفاعة محمد ﷺ العامة لأهل الموقف بالحساب، والخاصة للمذنبين من أهل الإخلاص بإذن اللَّه، وأما المشركون والكافرون فليس لهم من دون اللَّه ولي ولا شفيع: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقد غرهم الشيطان بإنكار نبوة محمد ﷺ وبعضهم يقصر نبوته علىٰ العرب، وهذا من غش الشياطين واليهود الذي لا يزال رائجًا في هذا الزمان، خصوصًا بين عروبة اليوم المغشوشة بالأفكار الماسونية، وإلا فنبوته ورسالته ﷺ عامة لجميع الناس من عرب وعجم كما نص علىٰ ذلك وحي اللَّه من كتاب وسنة، بل هو رسول عام إلىٰ الجن والإنس كما نص اللَّه علىٰ ذلك في سورة الجن والأحقاف ووردت أحاديث بذلك.

ومن تسويل الشياطين لليهود والنصارىٰ أن اللَّه لا يعذبهم لأجل أسلافهم من الأنبياء والأولياء حتىٰ قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وقد كذب اللَّه مزاعمهم، وألزمهم بما هو ثابت في قرارة نفوسهم، وما يعترفون به من حصول العقوبات والعذاب في الدنيا وفي الآخرة، ويعترفون أن النار تمسهم أربعين يومًا ونحوها، وهي عدة الأيام التي عبدوا فيها العجل، فاللَّه يقول لهم: لو كنتم أبناءً لي أو أحبابًا لم أعذبكم بذنوبكم، ولكنكم بشر كسائر البشر، وهذا الإلزام دافع لشبهاتهم وقامع لكبريائهم، فإن اللَّه عذب أسلافهم بعذاب بئيس،

كأخذهم بالصاعقة، وإيجاب قتل بعضهم لبعض، وتحريم الأرض المقدسة عليهم، وجعلهم يتيهون في الأرض، ثم مسخهم قردة وخنازير، وإنزال الغضب عليهم والذل، ووعيدهم في الآخرة بالعذاب الشديد.

فزعمهم محبة اللَّه باطلة كزعمهم النبوة، وأن محبة اللَّه ليست محبة شغف وولوع كمحبة المخلوقين، وإنما هي مرتبطة بالتقوىٰ عن صدق وإخلاص فمن تقرب إلىٰ اللَّه علىٰ هذين الأصلين بما يحبه نال محبته وتوفيقه ومدده، ومن لم يقم بذلك، أو قام بما يخالفه كان عدوًّا للَّه وملائكته ورسله والمؤمنين، فإن الشخص المطالب بحقوق اللَّه لا يدفع المطالبة عنه قريب من سلفه أو خلفه أبدًا، ولا يمكن أن تتعدىٰ المحبة شخصًا إلىٰ غيره لأي قرابة، وقد قال ﷺ لابنته فاطمة: «**لا أغني عنك من اللَّه شيئًا**»[1] ولكنها أماني الشياطين وتغريراتهم، وسيأتي مزيد كلام علىٰ ذلك بعد تفسير ثلاث آيات إن شاء اللَّه.

وبالجملة فإن الشياطين لم يتركوا مجالًا من المجالات إلا سلكوا فيها مسلك الغش والإغواء لبني آدم، واليهود من أكبر أعوانهم في ذلك، فهم الأحابيل والوسائل الخبيثة للشياطين بتعاليمهم المضللة وجمعياتهم الهدامة، وهم أهل الفساد والإفساد في جميع ميادين الحياة، لأجل تأسيس دولتهم ثم تقويتها وتأمينها، وقد كسبوا بتضليلهم وإغرائهم أدمغة وأقلامًا تعمل لصالحهم من حيث تشعر أو لا تشعر، فجميع الصحف المضللة، وأكثر الممثلين والفنانين والمخرجين لأفلام السينما، وأصحاب المصورات ودور الرقص والمسارح، و مؤسسو البلاجات الخليعة وعامروها كلهم إما من اليهود أو من كسب اليهود، وكذلك أهل جميع الأفلام المنحرفة فمن يكتب في الإلحاد أو يحبب الرذيلة أو يدعو إلىٰ الاختلاط والتبرج والتعاليم المخالفة لوحي اللَّه؛ فكلهم من شياطين الإنس يهود أو تلاميذهم وأعوانهم.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤).

ومن تسويل الشياطين وإضلالهم ما قاموا به من اللعب علىٰ أهل الحلول من الصوفية ونحوهم، حتىٰ إنهم غشوهم بأن اللَّه ﷻ اصطفىٰ أجسامًا حل فيها بمعاني الربوبية، وأزال عنها معاني البشرية، وجعلوا منهم من يقول بالنظر إلىٰ الشواهد المستحسنات، ومنهم من يقول: إن اللَّه حال في المستحسنات، ومنهم من يقول: إن رؤية اللَّه بالقلوب في الدنيا كرؤيته بالعيان في الآخرة، ومنهم من يصرح بعشق اللَّه ونحو ذلك من الكلمات البشعة في الشرع والعقل، والتي جر بعض أهلها أن يصرحوا بأنهم يقدرون علىٰ التكلم بمثل القرآن، وذلك لاعتقادهم الحلول.

وقد ساعد الشياطين علىٰ هؤلاء أنهم أعاجم، دخلوا في الإسلام وعندهم رواسب من المذاهب والتصورات الوثنية الشيطانية، فاستزلتهم الشياطين بواسطتها، وبطريق العبادة والغلو فيها إلىٰ هذه المذاهب الشنيعة، وقد أسلفنا أن قومًا منهم باعتقاد الحلول تعبدوا اللَّه بعشق المردان، واعتقاد التحلي فيهم، حتىٰ استباحوا اللواط، فيا لها من عقيدة فاسدة نتيجتها نكاح من يعتقدون حلول اللَّه فيه، أو تجليه علىٰ صورته، ولا شك أن هذا من أخطر أنواع الافتراء علىٰ اللَّه، وأبشع أنواع الضلال البعيد، ومنشؤه من مذهب النصارىٰ بالحلول، ومذهب البراهمة وبعض الأعاجم، والجميع من جند الشياطين، ويصعب علينا الإطالة بذكر كلام بعضهم فضلًا عن كلهم، وقد قُتل بعض المعلنين منهم لمذهبه، وحُكم عليهم وعلىٰ أمثالهم بالكفر، وذلك معروف في كتب العقائد والمناظرات.

وقد لعبت الشياطين علىٰ فرق كثيرة من الناس بشبهة التقليد والاجتهاد المرتكز علىٰ غير المناهل الشرعية، فجعلوا قسمًا من العلماء لا يعرف الحق إلا بالرجال، عكس ما هو الواجب من معرفة الرجال بالحق، وجعلوا بعضهم يترفعون عن التقليد، لكن ترفعهم ترفع غرور؛ لأن الشياطين استغوتهم بأن الوقوف عند ظواهر النصوص

عجز وبلادة، فساقوهم إلىٰ ضروب من مذاهب الفلاسفة، ولم يزالوا بهم حتىٰ أخرجوهم من الإسلام، وشككوهم في كل شيء، وقذفوا في روع بعضهم أن لا يؤمن إلا بالمحسوس والملموس، وأخذوا يتبجحون بذلك كأنهم أعقل الناس وأعرفهم.

ولم يدركوا أنهم مختلطوا العقل، قد خبطت الشياطين أدمغتهم، ولبست عليهم أمرهم، فيقال لهؤلاء: هل علمتم صحة قولكم هذا بالحواس المحضة أو بالتقليد؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا وكابروا؛ لأن ما يدرك بالحواس يشترك فيه جميع الناس، ولا يقع فيه خلاف، ونحن لم ندرك بحواسنا هذا المذهب السلبي، وإن قالوا: أدركناه بغير الحواس فقد ناقضوا قولهم.

ومنهم من نفرتهم الشياطين عن التقليد، وحسنت لهم الخوض في علم الكلام وقوانين الفلاسفة، لتفضي بهم إلىٰ الشكوك والإلحاد والضراوة بالجدل، وقد أمسك علماء الأمة القدماء عنه ابتعادًا من شره، ونَهوا عن الخوض فيه حتىٰ قال الإمام الشافعي: لأن يبتلىٰ العبد بكل ما نَهَىٰ اللَّه عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام، وقال: إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمىٰ أو غير المسمىٰ؛ فاشهد أنه من أهل الكلام ولا دين له، وقال: وحكمي فيهم أن يُضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء ترك الكتاب والسنة والأخذ بالكلام، وقال ابن حنبل: لا يفلح صاحب كلام أبدًا، علماء الكلام زنادقة.

قال أبو الفرج: وكيف لا يذم الكلام وقد أفضىٰ بالمعتزلة إلىٰ أنهم قالوا: إن اللَّه سبحانه يعلم جمل الأشياء ولا يعلم تفاصيلها، وقال جهم بن صفوان: علم اللَّه وقدرته وحياته محدثة، وحكىٰ النوبختي عن جهم أنه قال: إن اللَّه ليس بشيء، وقال الجبائي وأبو هاشم وأتباعهما من البصريين: المعدوم شيء وذات ونفس وجوهر وبياض وصفرة وحمرة، وإن اللَّه سبحانه لا يقدر علىٰ جعل الذات ذاتًا، ولا

العرض عرضًا، ولا الجوهر جوهرًا، وإنما هو قادر علىٰ إخراج الذات من العدم إلىٰ الوجود، فهل هذا القول إلا كفر صراح.

وحكىٰ القاضي أبو يعلىٰ في كتاب «المقتبس» قال: قال لي العلاف المعتزلي: نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أمر لا يوصف اللَّه بالقدرة علىٰ دفعه، ولا تصح الرغبة حينئذ إليه، ولا الرهبة منه؛ لأنه لا يقدر إذ ذاك علىٰ خير ولا شر، ولا نفع ولا ضر، قال: ويبقىٰ أهل الجنة جمودًا سكوتًا لا يفضون بكلمة، ولا يتحركون، ولا يقدرون هم ولا ربهم علىٰ فعل شيء من ذلك؛ لأن الحوادث لابد لها من منتهىٰ تنتهي إليه لا يكون بعده شيء.

تعالىٰ اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا، كيف يجرؤ من يدعىٰ الإسلام علىٰ هذا النطق أو يحمل هذا الاعتقاد؟ هذا من بعض هراء أهل الكلام الذي يشهد أنهم أقل من مستوىٰ الصبيان في العقول، حتىٰ إن هذا الرجل قال باستحالة قدرة اللَّه علىٰ غيره في هذه الحال، وقال النظام: إن اللَّه لا يقدر علىٰ شيء من الشر، وأن إبليس يقدر علىٰ الخير والشر، ولأصحاب الكلام عبارات بشعة ننزه هذا التفسير عن ذكرها، وإنما اضطررت للإشارة إلىٰ بعضها كتدليل علىٰ صحة قول الإمامين الشافعي وأحمد.

فإن من مكائد الشياطين تزيين الكلام الباطل، والآراء المتهافتة، والخيالات المتناقضة، فالشيطان ينظر إلىٰ همة ابن آدم وأهدافه وذوقه وموجدته، فإن رآه يميل إلىٰ الشكوك وينظر في الشبهات زاده حيرة حتىٰ يركسه في الضلال، وإن رآه صاحب إيمان ويقين حرص علىٰ إيقاعه في الإفراط بالاعتقاد أو بالقول أو الفعل حتىٰ يزجه في الغواية، وإن رآه متثاقلًا عن طاعة اللَّه رغبه في ذلك، وسول له الأخذ بالرخص، وقذف في روعه أشياء كثيرة، وإن رآه نشيطًا في الطاعة أغراه بالإفراط وتجاوز الحدود في الواجبات إلىٰ الوساوس حتىٰ يغشه بترك ما يحتاج إليه من المأكولات التي تقويه وتعينه علىٰ العبادة،

وللشيطان غش واسع في المعتقدات والسلوك أسلفنا بعضه وتركنا بعضه اكتفاء بالإشارة.

وكثيرًا ما يسلك الشيطان طريق التشديد المخالف ليُسر الدين الحنيف وسماحته بشبهة الاحتياط والتحفظ، حتىٰ يجعل بعض المسلمين لا يصلي إلا علىٰ سجاد خاص، ويستنجس النعال فلا يصلي بها بتاتا، رفضًا لسنة المصطفىٰ ﷺ بل يبعدها، وبعضهم لا يدخل بها المسجد وبعضهم يغسل رجليه، وهذا خلاف السنة التي أرشد إليها الرسول، ومضىٰ عليها هو وأصحابه، فقد كانوا يأتون المسجد حفاة ولا يغسلون أرجلهم وكانوا يتفقدون النعال عند أبواب المساجد، فإذا وجدوا فيها خبثًا دلكوها بالأرض وصلوا بها لاعتقادهم بإجزاء الدلك مطلقًا، فقد قال ﷺ: «**إذا وطئ أحدكم بنعله الأذىٰ؛ فإن التراب له طهور**»[(١)]. رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه. وفي حديث آخر: «**إذا وطئ أحدكم بخفيه الأذىٰ فطهورهما التراب**»[(٢)]. رواه أبو داود.

وقد ورد ما يقرب من ثلاثين حديثًا في الصلاة بالنعال، وأن طهورها التراب، وأن الأرض يطهر بعضها بعضًا، وقال عاصم الأحول: أتينا أبا العالية فدعونا بوضوء فقال: ما لكم ألستم متوضئين؟ قلنا: بلىٰ، ولكن هذه الأقذار التي مررنا بها، قال: وهل وطئتم علىٰ شيء رطب تعلق بأرجلكم؟، قلنا: لا، قال: فكيف بأشد من هذا، الأقذار تجف فتنسفها الريح في رءوسكما ولحاكما. فانظر إلىٰ عمق العلم وقارنه بجهل الأعاجم الذي قلدهم به كثير من الناس، باستقذار النعال واعتقاد نجاستها، وعدم تطهير الأرض لها، فضيقوا علىٰ أنفسهم سعة الدين، وقيدوها بأغلال اليهود.

ومع ذلك يجادلون بالباطل، ويزعمون أن الأرض اليوم تغيرت عما

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٥).
(٢) رواه أبو داود (٣٨٦).

كانت عليه في عهد النبي ﷺ والصحابة، والأمر بالعكس، فإن الأرض اليوم أقل تلوثًا بالنجاسة من ذلك الوقت، لتعميم الحمامات ومواضع التخلي في البيوت والأسواق، وتصميمها علىٰ النظافة، وكثرة سيلان الماء عليها، بحيث لا يجوز اعتقاد كون نعال الخارج من الحمام نجسة، ولا يعتقد ذلك إلا الموسوسون.

ثم إن قولهم إن الأرض غير الأرض فيه استدراك علىٰ حكم اللَّه العليم الخبير الذي يعلم جميع ما يحدث للأرض وعليها فهل هم أعلم أم اللَّه؟ وإذا جاز لهم ذلك جاز لكل مبطل تغيير أحكام اللَّه كما يراه، ثم إن حكم النعال كحكم أسفل الثوب، وقد أمر النبي ﷺ النساء بإسبال ثيابهن ذراعًا في الأرض، ومعلوم أنه يصيبه القذر، ولم يأمرهن بغسلها، بل أفتاهن بأن الأرض تطهرها، والآن لما خالف الناس السنة فقصرت النساء ثيابهن أطال الرجال ثيابهم، فأصبحت تغط في الأرض وتنال منها ما تنال، فهل يجوز أن نضيق عليهم في حكم الثياب كما ضيقوا علىٰ أنفسهم في حكم النعال؟ أو لعلهم يخرجون أنفسهم من رحمة اللَّه وتيسيره في أسفل الثياب كما فعلوا في النعال؟

هذا ولا أطيل البحث في إغواء الشياطين وتسويلاتهم علىٰ هذه الإشارات الخفيفة التي اضطرني إلىٰ أكثرها الرد والتفنيد، وإني أرشد القراء والمستمعين إلىٰ مراجعة كتاب «تلبيس إبليس» لابن الجوزي، وكتاب «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» لابن القيم، وقراءتهما بتكرار، فإنهما علىٰ غاية كبيرة من الإفادة في هذا الشأن، ويصعب عليّ نقل ما فيهما من الفوائد، واللَّه الواقي من الشرور بمنه وكرمه.

والخطة الرابعة: من خطط الشياطين قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [النساء: ١١٩]، البتك يقارب البت الذي هو القطع، إلا أنه يخص بالتعبير في قطع الأطراف أو شقها كالشعر والآذان ونتف الريش، والبِتكة بكسر الباء هي القطعة المنجذبة، قال الشاعر:

طارتْ وفي يدِه من ريشها بِتَكُ

والمراد بِهذا ما كان الوثنيون يعملونه في الأنعام من قطع آذان بعضها لأصنامهم كالبحائر التي كانوا يقطعون أو يشقون آذانها شقًّا واسعًا، ويتركون استعمالها في أسفارهم وحمل أثقالهم، وكان هذا من أسخف أعمالهم المعبرة عن سفه عقولهم، ولهذا خصه بالذكر؛ لأنه من سماتهم البشعة التي سيأتي الكلام عليها في تفسير أواخر سورة الأنعام إن شاء اللَّه.

وقد ورد النهي عن الخصاء لما سوىٰ الغنم فإنها كثيرة لا يضر الخصاء بنمائها، وورد النهي عن العبث في الحيوانات وتشويهها كالوشم في الوجه، وجز الذيل للمعرفة؛ لأنها تنتفع بذلك لهش الذباب وطرد المؤذي وفيه ما فيه من تغيير خلق اللَّه، وإذا كان هذا ممنوعًا في الحيوان ومعدودًا من عمل الشيطان وتسويله، فكيف بما يفعله الظلمة ببني آدم من خصائهم خصاء حسيًّا بالقطع أو السَّلِّ أو الكي، أو معنويًّا بالتعقيم؟ وكيف بجدع أنوفهم وقطع آذانهم والتمثيل بهم، وإزالة بعض حواسهم تنكيلًا وتعذيبًا وانتقامًا وتشفيًا؟ هذا فضلًا عن القتل الوحشي المروع من السحل والوقد والوأد؟ ومع هذا يجد الطواغيت من ينفذ وحشيتهم بالبشر من البشر، فلا يخشىٰ المنفذ المباشر من أن يُفعل به كما فعل بغيره، ولكنه إغواء الشيطان وأمانيه.

والطريقة الخامسة: من طرائق إغواء الشيطان ـ أي شيطان ـ هي قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ وإغواء الشياطين لبني آدم بتغيير خلق اللَّه علىٰ نوعين:

أحدهما: تغيير حسي جسماني.

ثانيهما: تغيير معنوي روحي.

فالتغيير الحسي يكون بأشياء كثيرة تتجدد وتتنوع باختلاف أنواع الجاهليات المتعددة، فمنها ما أسلفناه من أنواع التمثيل والتشويه

بالحيوانات وبالناس أجمعين، ومنها ما يكون بالوشم والوشر ووصل الشعر وتغيير الألوان، وحتىٰ ما يفعل عند المصائب.

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بلعن الواشمة والمتوشمة والواصلة والمُسْتَوْصِلة ونحو ذلك، مما فيه تغيير خلق اللَّه الحسي الذي تطورت به الجاهلية الجديدة في وضع ما يسمىٰ «باروكة» من الشعر المصنوع، وتغيير الألوان حسب ذوق العشاق، وتطويل الأظفار إطالة قبيحة بشعة وصبغها بالألوان، وتجسيم العجيزة، ورفع الثديين لغير الزوج، بل للمباراة في الحسن، ونحو ذلك من كل ما فيه شيء من معاني تغيير خلق اللَّه.

ومنه كل ما يحصل فيه تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، فقد ورد فيه اللعن الصريح من المصطفىٰ ﷺ في الأحاديث الصحيحة، ومنها ما استورده المسلمون عربًا وعجمًا من الغرب الكافر الملحد كحلق اللحىٰ، والتختم بالذهب، وتطويل لباس الرجال، وتقصير لباس النساء، وما يتخلق به الرجال من الميوعة بالتقليد الفردي لأهل «أوربا»، فإن حلق اللحىٰ وإزالة سمة الرجولة في خلق اللَّه ليس بأهون من الوشم ووصل الشعر والنمص ونحوه، بل هو أشنع وأفظع وأقبح بكثير من ذلك، ولو قيس حلق اللحىٰ علىٰ تبكيت آذان الأنعام ونحوه لقيل: في هذا نوع من الاعتقاد الجاهلي فلا يصح القياس عليه، ولكن يقاس في الحقيقة علىٰ الوشم أو وصل الشعر أو عليهما جميعًا ونحوها بجامع العلة التي هي تغيير خلق اللَّه حسيًّا، مع ما فيه من التغيير المعنوي الفطري الشرعي.

ولا شك أنه إذا كان وصل الشعر ممنوعًا وملعونًا صاحبه، فحلقه وإزالته بلا موجب شرعي أولىٰ بالمنع واللعن، خصوصًا إذا أنضم إليه مشابهة النساء من جهة، والتشبه بالكفار من جهة أخرىٰ، وكلاهما منهي عنه، ووارد فيه الوعيد الذي يلحق صاحبه بأهل الكبائر، ولا عبرة بالمتميعين من العلماء والمسايرين للركب الوثني الجاهلي

العصري، أو المتعشقين للنساء والراغبين في عشقهن إياهم، فإن كل هذه الأغراض من أهداف بعض الحالقين، ولو تزيوا بزي العلماء، وحملوا شهادة العالمية، فلا عبرة بالعلم المجرد من متابعة رسول اللَّه ﷺ وخلفائه الراشدين وصحابته الصالحين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولو لم يكن في حلق اللحىٰ إلا مخالفة هدي رسول اللَّه ﷺ في فعله، ومخالفته في محبته، فإنه طبعًا لا يحب الحالقين، ومخالفة أوامره التي هي من وحي اللَّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم]، فقد ورد في إعفاء اللحىٰ أكثر من ثلاثين حديثًا ما بين صحيح وحسن أقول: لو لم يكن إلا المخالفة له ﷺ في جميع ذلك لكفىٰ، فكيف وفي حلق اللحىٰ من المثلة وتغيير خلق اللَّه في الرجولة ومشابهة النساء والتشبه بالكفار والمخنثين من الرجال، ولكنه التقليد القردي والهزيمة العقلية الشنعاء، وإني أقسم باللَّه العظيم، أنه لو وفر الزعماء المحبوبون لحاهم وأعفوها لوجدنا كثيرًا من المضبوعين يعفون لحاهم، ولو أن الغربيين رجعوا إلىٰ إعفاء اللحىٰ جميعًا لما وجدنا في محيطنا من يحلق لحيته، وإذا كان الأمر علىٰ هذه الحالة، فهم علىٰ خطر من دينهم بإصرارهم علىٰ التشبه بالكفار في الورد والصدر، وهذا له مساس بالعقيدة يجب أن لا يستهان به.

وأما التغيير المعنوي لخلق اللَّه، فالمراد به تغيير الفطرة التوحيدية التي ركزها اللَّه في خليقته، وتغيير دينه وشريعته، فتغيير الفطرة الإنسانية هو بتحويل النفس من الميل إلىٰ النظر والاستدلال، وطلب الحق بالعقل الفطري الذي يهتدي بسنن اللَّه الكونية وآياته العظيمة، الشاهدة له بما يستحقه سبحانه من الوحدانية والكمال والجمال إلىٰ الانحراف بها في التربية والتعليم علىٰ الأفكار الباطلة، ومساوئ الأخلاق، واستحسان الرذائل والمنكرات. فقد قال ﷺ: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كمثل البهيمة تنتج**

البهيمةُ جَمْعَاءَ هل ترىٰ فيها جدعاء»؟(١). أخرجاه في الصحيحين.

وفي صحيح مسلم عن المجاشعي أن رسول اللَّه ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم مما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نَحَلْتُهُ عبدًا حلال، وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن اللَّه نظر إلىٰ أهل الأرض فَمَقَتَهُمْ عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان، وإن اللَّه أمرني أن أحرق قريشًا، فقلت: إذن يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خُبْزَةً ـ أي يشدخوه ويشقوه كما يشدخ الخبز ـ قال: استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك ـ أي نعينك ـ وابعث جيشًا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك**». قال: «**وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربىٰ ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال**»، قال: «**وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا زَبْر له ـ أي لا عقل له يزبُره ويمنعه مما لا ينبغي ـ الذين هم فيكم تبع، لا يتبعون أهلًا ولا مالًا، والخائن الذي لا يخفي له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك**»(٢)، وذكر البخل أو الكذب، والشِّنظِير الفحاش.

فقوام الفطرة وصلاحها بإقامة دين اللَّه الإسلام، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، أي لا يصلح تبديله للناس أبدًا، فليس المعنىٰ أنهم لا يبدلونه بل تجتالهم الشياطين حتىٰ يبدله أكثرهم، ولكن تبديله غير صالح، بل يجلبون الشقاء علىٰ أنفسهم بتبديله. والدين الفطري الذي هو من

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).

خلق اللَّه وآثار قدرته ليس هو مجموع الأحكام التي جاء بها الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإن هذه من كلام اللَّه لا من فطرته المركوزة في الضمائر والأدمغة، ومن أعظم أصول الدين وأسسه الفطرية العبودية الحقيقية للسلطة الغيبية التي تنتهي إليها الأسباب، وتقف دون اكتناه حقيقتها العقول.

فانحصار انصراف القلب إلىٰ اللَّه الذي هو خالق جميع الكائنات، والمتصرف فيها وحده هو الدين الحنيف الذي فطر اللَّه عليه الخليقة، ومن أكبر وأشد مفسدات الفطرة والعقل حصر تلك السلطة العليا في بعض المخلوقات التي يستكبرها الإنسان من الأفلاك أو الأشخاص المعظمين عنده، وهذا هو أصل الشرك المفسد للعقول والأرواح، والمبدد لطاقات الإنسان فيما يضره ولا ينفعه، وهو الذي يجر الأبناء إلىٰ تقليد الآباء تقليدًا تتعطل به العقول عن استعمال مواهبها الفطرية والعلمية والروحية، حتىٰ يكون الإنسان كالآلة.

ثم إنه بانصراف القلوب عن اللَّه إلىٰ غيره يحصل أنواع وأنواع كثيرة لا نهاية لها من صنوف التغيير لخلق اللَّه الصوري والحسي والمعنوي الذي بسببه يدعو الإنسان غير اللَّه، بل يدعو من هو أعجز منه علىٰ نفع نفسه، أو دفع الضرر عنها، لفساد فطرته ونقص عقله ومن تغيير خلق اللَّه ما قامت به شياطين الجن والإنس من التسويل للناس بعبادة الكواكب والشمس والقمر، وبعض المقبورين المجذوبين والأحبار والرهبان، وذوي الثروة والسلطان وغيرهم من سائر أنواع العبادة تقديسًا وتعظيمًا ودعاءً وخوفًا وضراعة ورجاءً وذبحًا ونذرًا وما شابهه، فإنه من أخطر تغيير الفطرة، والجناية علىٰ الأرواح والعقول والنفوس.

فهو نزول بمستوىٰ البشرية إلىٰ المهبط الحيواني وتغرير لها بما تشاهده من العظمة والتفاوت الذي هو من هبات رب العالمين وتسخيره وخلقه وتقديره وتذليله وطبعه الطبائع علىٰ أحوال شتىٰ، فاللَّه

سبحانه خلق الشمس والقمر وجميع الكواكب والنجوم مسخرة لمنافع الناس بتكوينه ونعمته، وهؤلاء الشياطين وأعوانهم من الدجاجلة والطواغيت زينوا عبادتها للناس، وجعلوهم مسخرين لها، فقلبوا الحقيقة الفطرية، واللَّه سبحانه خلق الأنعام ليركبوها ويأكلوها وينتفعوا بها، فبعضهم عبدها، وبعضهم حرم أكلها جميعًا، وأَكْلَ كُلِّ حيوان ذي روح أو يتكون منه ذو روح كالبيض، وبعضهم حرم بعضًا منها لا يركبه ولا يأكله، وبعضهم قدس نوعًا منها، وهكذا لعبت بهم شياطين الجن والإنس حتىٰ عبدوا وقدسوا ما هو مسخر لهم ومذلل لمنافعهم، وحرموا علىٰ أنفسهم ما أباحه اللَّه كما سبق في الحديث من قول اللَّه: «**كل مال نحلته عبدًا حلال**».

ومن أنواع تغيير خلق اللَّه استعمال ما جعله اللَّه للفضيلة في الرذيلة من كل نوع في الحياة، وما جعله اللَّه سبحانه في الإنسان كغيره من شهوة الجنس للتناسل وبقاء النوع بطريق الحلال الشرعي، إذا استعمله الإنسان في خلاف ذلك من السفاح كالتسافد الحيواني فقد غير خلق اللَّه، وأفظع منه تغييرًا اللواط والسحاق، فإنهما من أقبح أنواع تغيير خلق اللَّه بمخالفة الفطرة والحكم الشرعىٰ، وقد رتب اللَّه عليهما عقوبات شرعية من وجوب الحد أو التعزير الرادع، وعقوبات قدرية من الأمراض المتنوعة وحرمان النسل وفقد الرجولة وضعف الباءة في زمان مبكر؛ لأن الرجل استعمل آلته في غير الآلة المناسبة التي خلقها اللَّه لها، فسعىٰ بالإضرار بها بذلك السلوك المقلوب، ولكنه لا يحس بالإضرار ما دام في قوة شبابه، مع أنه يعتري الجميع أزمات وإحراجات تضطرها إلىٰ فعل الجرائم أو معاناة الشقاء في الحياة، وللشيخ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفصيلات عجيبة بديعة عند كلامه علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات] في المجلد الثالث عشر من «الفتاوىٰ» طبعة السعودية فليراجع.

ومن أنواع تغيير خلق اللَّه: استعمال أي نعمة من نعم اللَّه في

معاصيه؛ لأن الواجب هو الاستعانة بنعم اللَّه علىٰ طاعته وحمل رسالته، فمن عكس الأمر كان مغيرًا لخلق اللَّه، وكذلك من استعمل جوارحه وأحاسيسه فيما يغضب اللَّه من منهياته فقد غير خلق اللَّه؛ لأن اللَّه يطلب من عباده الصعود إلىٰ مراقي الكمال، بما ركب فيهم من الجوارح والأحاسيس والعقول التي لم يعطها سواهم من المخلوقات، وسخر لهم ما في الأرض جميعًا، ليستعملوا جميع ذلك في طاعته بكل صدق وإخلاص، ويستعينوا بها علىٰ حمل رسالته، وحسن التصرف في خلافته في الأرض، فإذا عكسوا القضية واستخدموا جوارحهم وأحاسيسهم، وما سخره اللَّه لهم في شهواتهم وأغراض نفوسهم، وآثروا مراداتها وملذاتها علىٰ مرادات ربهم ومرضاته كانوا عبيدًا للشياطين، مطيعين لهم بتغيير خلق اللَّه.

ومن أنواع تغيير خلق اللَّه ما قام ويقوم به شياطين الإنس من تخطيط مناهجهم الجاهلية في ميادين التربية والتعليم والصحافة والنشر وسائر وسائل التوجيه والتسلية، من تركيز شرك التعطيل لرب العالمين، وعدم الاعتراف له بأي حق عملي أو قلبي أو أي فضل ونعمة، فذكره مطموس، ونعمته منكورة، وإنما الذكر للزعماء المحبوبين والقادة البارزين، والتقديس للقوميات والأوطان يغرس تعظيم حقوقهما في القلوب، وحصر العمل من أجلهما في الحياة، وبذل الدم والمال في سبيلهما وصالحهما.

كما يغرس في قلوب النشء تربية الجسم وملاحظته، وإعطاء النفس ما تشتهي بدون قيد ولا شرط، ولا أي وازع سوىٰ الوازع السياسي المقدس، وإغفال الجوانب الروحية إغفالًا كاملًا بل رفضًا تامًّا، وتربيتهم علىٰ طاعة السلطة طاعة عمياء، وعلىٰ عبادة المادة والشهوة غاية الإمكان، بحيث تكون تربيتهم تربية بَهيمية كاملة، يكونون بها من ناحية النفس ليس لهم هم سوىٰ التمتع الحيواني بجميع متطلباتها، ومن ناحية العمل كالآلات المسخرة، فيا لمصيبة

الإنسان وخسارته بِهذه التربية التي أضاعت قيمته الحقيقية المعنوية، وجعلته يعيش طيلة حياته في رق معنوي، وسكر معنوي لا مثيل له في غابر القرون! فلا يفيق الإنسان من سكره، ويتحرر من رقه إلا بتربية جديدة وحياة قلبية جديدة، وهذا لا يحصل إلا بكل صعوبة من معاناة الهدم والبناء، هدم الماضي وبناء الجديد، وذلك مطلب صعب لا يسهله إلا حصول الأزمات المختلفة في نواحي الحياة، مما يُحدث القابلية ويورث الانتباه الصحيح.

وتلك التربية الملعونة التي هي من مخططات شياطين الجن والإنس، ويتولىٰ كبرها عناصر شتىٰ من الجمعيات الماسونيية والحركات اليهودية الهدامة فيها تغيير جذري لخلق اللَّه، وجناية علىٰ مجموعة كبيرة من البشر، والعجب أن في التربية القومية والوطنية مصادرة للفكر، وإغلاقًا للقلب، يقتل إحساس الإنسان بما يحصل له من الذلة والمهانة والاستعباد والاحتقار وإهدار الكرامة، بحيث يرىٰ من هو مثله يمتع بمميزات خاصة هو محروم منها غاية الحرمان، فلا يبالي ولا يكترث، وذلك لقتل بواعث الهمة في قلبه من العزة والشهامة والنجدة والناموس والموجدة بسبب التضليل في التربية الوطنية، كحالة المنبوذين في الهند، الراضين بالذلة والمهانة، والتاركين لعزة الإسلام بسبب التضليل الوطني الذي هو علىٰ خلاف الحقيقة والواقع.

ولا شك أن كل تربية وكل تعليم وتوحيد منحرف عن فطرة اللَّه وشريعته هو تغيير لخلق اللَّه، فكل ظلم يجري علىٰ البشرية هو تغيير لخلق اللَّه وفطرته الأزلية، وكل اقتصاد يبنىٰ علىٰ الربا وعدم الرحمة وأكل أموال الناس بالباطل أو مصادرة الأموال والشركات والمصانع باسم التأميم ونحوه فهو تغيير لخلق اللَّه، وكل نظام تهدر كرامة المرأة فيه، وتؤكل حقوقها، وتسلب حريتها كالبهيمة والمتاع فهو تغيير لخلق اللَّه وفطرته، وكل نظام تستباح فيه الفواحش والخمور فيجنىٰ فيه علىٰ العقل، وترخص فيه الأعراض، وتجعل فيه النساء

سلعة مبتذلة لكل فاسق، وتغرر بإظهار مفاتنها وعرض زينتها فهو تغيير لخلق اللَّه وفطرته الأزلية.

ومن أخطر أنواع تغيير خلق اللَّه ما سعىٰ اليهود الخبثاء في تركيزه في العالم الإسلامي في هذا القرن وما قبله من الدعوة للقوميات والوطنيات، واطراح الدين ورفضه بتاتًا، زاعمين أنه طائفية أي مدعاة للفرقة والتناحر، وأنه لا يصلح لهذا العصر وأوضاعه، وأن أحكامه لا تناسب الإنسانية وتطورها وتقدمها المستمر، إلىٰ آخر الأحابيل الشيطانية المزخرفة، وذلك بعد أن لعبوا علىٰ الغربيين المنكودين بالكنيسة ورجال الكهنوت، ثم عرجوا علىٰ الأتراك ليطيحوا بالحكم الديني، كي يسهل عليهم تحصيل مرادهم من الاستيطان في فلسطين، ثم إقامة دولة لهم فيها تكون منطلقًا لهم إلىٰ غيرها، وقد أكثروا من الجمعيات الماسونية لهذا الغرض، فنفثت سمومها حتىٰ ظفرت بمطلوبها، واستغلوا اسم العلم؛ لأنه أمضىٰ سلاح لمآربهم، وساعدهم علىٰ ذلك شيئان:

أحدهما: جهل العرب والمسلمين بالفوارق العظيمة بين دين الإسلام والكهنوت النصراني الذي يحارب العلم، ويعادي الصنعة والاختراع، ويفتك بأرباب العلم والمخترعين، فإن دين اللَّه الإسلام علىٰ العكس من ذلك، فهو دين العلم الذي يحث علىٰ استثمار ما سخره اللَّه لبني آدم علىٰ وجه الأرض أو في جوفها أو أجوائها من كل دابة ومادة، وهو المشجع علىٰ العمل والصنائع، قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وما فائدة التسخير إن لم يستثمر؟

ودين الإسلام دين ودولة، دين حكم وسياسة، ومن أفضل العبادة فيه الجهاد لاستلام القيادة العالمية، وليكون أهله قوامين بالقسط، شهداء للَّه، يحكمون بالحق وبه يعدلون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل]، وقد فصلنا فيما مضىٰ أن دين الإسلام ليس فيه طائفية؛

لأنه يوجب علىٰ أهله الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وما أنزل إليهم من ربهم، ويعتبر الكافر ببعضهم كافرًا باللَّه علىٰ الإطلاق، وأن الطائفية هي عند النصاري ونحوهم، ممن لا يؤمن إلا بنبيه ويكفر بما وراءه، أو يزعم أن محمدًا ﷺ نبي العرب فقط، واللَّه أرسله إلىٰ الناس جميعًا كما نص القرآن والسنة علىٰ ذلك، وأوضحنا أن من ضرورة الإسلام أن يكون هو الحاكم والمشرع لتكون كلمة اللَّه هي العليا، ولا يكون الحكم للأهواء والنزعات البشرية والتحكمات الطاغوتية، وإنه لا قيمة لأي فكرة مادية أو مذهبية إذا لم تَحْكُمْ، فكيف يسوغون للمبادئ والمذاهب المادية الإلحادية أن تَحْكُمَ، ولا يسوغون الحكم للإسلام، بل يزعمون عدم صلاحيته؟

فما ذكرناه مما ابتلىٰ به العالم من مخططات الماسونية اليهودية هي من أخطر التغييرات لخلق اللَّه، حيث حصل بها إقصاء دين الإسلام عن الحكم، وعزل وحي اللَّه عن التشريع والتنفيذ، بل حصل بها تمزيق القرآن تمزيقًا معنويًا بعزله عن التشريع وإقصائه عن الحكم كما أسفلنا، وحصل به غش الناس، والجناية علىٰ عقولهم وأعراضهم وأموالهم، بإقامة الحكم العلماني في أكثر بقاع الأرض.

فأي تغيير لخلق اللَّه أفظع وأبشع وأقبح من ذلك؟ أي تغيير لخلق اللَّه أشنع وأقبح من إباحة ما حرم اللَّه من الخمور والقمار والربا والمراقص والمسارح وأنواع التعري الشيطاني، وإباحة جميع الفواحش؟ وأي تغيير أشنع وأقبح من جعل الدياثة علىٰ الأعراض مدنية وتقدمية؟ ذلك أن الذين يقيمون الحكم العلماني ينصبون أنفسهم ديوثين علىٰ أعراض شعوبهم بإباحة الزنىٰ حالة الرضىٰ، وتشريع القوانين المعفية لمرتكبي الفواحش من إقامة حدود اللَّه، تقليدًا للغربيين الذين كثرت فيهم الخيانات الزوجية كثرة هائلة منقطعة النظير. وكثرت فيهم أولاد الزنىٰ كثرة مطردة بلغت الملايين، زيادة علىٰ حوادث الإجهاض التي حصل منها الوفيات الكثيرة، وقل التناسل الشرعي في عدد من الدول

بحالة يُرثىٰ لها.

والشيء الثاني: أن المثقفين من نصارىٰ العرب وملاحدتهم قاموا بدور كبير في تركيز القومية العربية وتحبيبها، وتشويه الحكم الإسلامي والتحذير من أخطاره التي زعموها بكل تهويل، وذلك قلبًا للحقائق، وافتراء علىٰ الواقع وتجسيمًا لأخطاء بسيطة لابد من وقوعها من كل حاكم حازم؛ لأنه لا يعلم الغيوب إلا اللَّه. وهذا الذي قام به نصارىٰ العرب وملحدوهم هو عين ما قام به يهود تركيا ـ يهود الدونمة ـ والملاحدة الذين يسمونهم الأتراك مرتدين، فجميع الذين تحمسوا للقوميات ليسوا عربًا ولا مسلمين، بل إما يهود ونصارىٰ، أو أعاجم مرتدون عن دين الإسلام ومغرضون، قد باعوا ضمائرهم وأقلامهم وجهودهم لأعداء اللَّه، من شياطين الجن والإنس، مثل جمعيات الماسونية اليهودية المختلطة التي لا تزال حتىٰ الآن تعبث في الظلام، وتصطاد في الماء العكر، ولا تجد عربيًّا صريحًا خالصًا يعتز بدينه ورسالته المحمدية إلا وهو يرفض القوميات ويكشف باطلها في كل مكان.

ومن تغيير خلق اللَّه ما يقوم به تلاميذ اليهود وأفراخ الاستعمار من تعقيم الرجال والنساء تعقيمًا طبيًّا لقطع النسل، بحجة الخوف من المجاعات بسبب الكثرة، وهي شبهة باطلة واهية؛ لأنه ما من دابة في الأرض إلا علىٰ اللَّه رزقها، وخيرات الأرض كثيرة، ونتاجها يزيد عن استهلاك سكانها إذا قاموا بالمجهود الزراعي، وأحسنوا التصرف في المحصول، ولم يقم المغرضون بإتلافه لزيادة الأسعار، فإن ما يحدث من الأزمات ناشئ عن سوء التصرف والاحتكار، واستغلال البشر، بتعليم الخبث من اليهود لرؤسائهم، وليس ناشئًا من كثرة السكان أبدًا.

وبالجملة فإن أنواع تغيير خلق اللَّه الذي هو من مكر الشياطين أنواع كثيرة جدًا، يصعب ذكرها فضلًا عن حصرها، لضخامة كثرتها، ولتجدد أنواعها علىٰ مدىٰ الأوقات، والضابط فيها أن كل خطيئة

يرتكبها المجرمون أو يشيعها الدجالون و الطواغيت في الأصول والفروع فيها تغيير لخلق اللَّه الفطري وحكمه الشرعي، وهي من مهمات الشياطين.

وحيث إن الذي يقوم بها من صغيرة وكبيرة يجلب علىٰ نفسه أو علىٰ مجتمعه في الغالب أضرارًا قليلة أو كثيرة - حسب تفشي ذلك الفعل - فإنه يكون بذلك قد نسىٰ ربه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده، وبإصراره علىٰ ذلك ينسيه اللَّه نفسه، فيجعله يسعىٰ في ضررها وحرمانها من حظوظها الشريفة العالية من اللَّه، ويسعىٰ بضرر غيره حسب ما تلبس به، فيخرج نفسه من ولاية اللَّه الرحمن الرحيم، ويكون من أولياء كل شيطان رجيم، ولهذا قال اللَّه: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١١٩] يعني أن من يطع الشيطان في وساوسه وتسويلاته المخالفة للفطرة، والمصادمة لشرع اللَّه، فقد اختار ولايته علىٰ ولاية اللَّه، واتخذه وليًّا من دون اللَّه، وهذا عمل لا يقدم عليه إلا السفيه الساعي بالخسران قصدًا، ولا يعمله العاقل المراعي لمصلحة نفسه الحقيقية؛ لأن الشيطان يأمره بما يبعده عن رحمة اللَّه وفضله وإغاثته للناس، ويصرفه عن أسباب ذلك إلىٰ ضدها، من أسباب غضب اللَّه وحرمانه وجلب نقمته، ومَنْ هذه حاله في طاعة الشيطان وانصياعه إليه فقد خسر خسرانًا بينًا واضحًا في معاشه ومعاده، وكان أسير الأوهام والخرافات، يتخبط في ظلمات من الجهل والشكوك والغواية والتجارب الفاشلة عياذًا باللَّه من ذلك.

📖 وقوله سبحانه في الآية (١٢٠): ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾:

هما لفظان متقاربان، ومعناهما أن الذي أقسم عليه الشيطان من الإقسامات المتنوعة في الضلال تكون بالوعود والأماني الكاذبة، فجميع تضليلاته منحصرة في الأمور الباطلة والزخارف الخداعة التي

يغش بها الناس، وهو لا يعد بالخير ولا بالصدق، وإنما يقلب الحقائق، حتىٰ يوهم الإنسان، فيلتمس الخير واللذة بفعل ما فيه الضرر والألم، ويلقي في قلب الإنسان أنه سيطول عمره، وينال آماله، ويفوز علىٰ أقرانه، ويستولي علىٰ أعدائه، ويحصل علىٰ كذا وكذا وهو لا يحصل علىٰ شيء من ذلك أبدًا، وقد يحصل علىٰ شيء بحسب قدر اللَّه الأزلي، ولكن تكون عاقبته زيادة الحسرات عند الموت، والشقاء في الحياة بالقلق النفسي والهلع وغير ذلك، فإن المطلوب كلما كان أعز وألذ وأشهىٰ، وكان الإلف معه أدوم وأبقىٰ كانت مفارقته أشد إيلامًا وأعظم تأثيرًا في حصول الغم والحسرة، ومن أمانيه التسويف بالتوبة، والإطماع في رحمة اللَّه من غير عمل، والفرق بين وعده وتمنيته أنه يعد الباطل ويُمني المحال، والنفس المهينة التي لا قدر لها تتغذىٰ بوعده وترتاح لأمانيه كما قال الشاعر:

مُنَىٰ إن تكن حقًّا غدتْ أحسن المُنىٰ وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغَدَا

فالنفس المبطلة الخسيسة تلتذ بالأماني الباطلة، وترتاح للوعود الكاذبة، وتفرح بها كما يفرح بها الصبيان ويتحركون لها فكل مبطل بطال له نصيب من قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ فهو في باب الإنفاق والتصدق، يخوفهم من الحاجة والفاقة ويحسن لهم الاحتفاظ بالأموال لمستقبلهم ومستقبل ذراريهم، فيعدهم الفقر من هذا النوع، وهو من باب نيل الشهوات وملذات الدنيا يغريهم علىٰ ارتكاب الفواحش، فوعد الشيطان ينحصر بالأمر بالشر والتحذير من الخير، فإنه إذا خوفه من فعل الخير تركه، وإذا زين له فعل الشر بادر إليه، ولهذا جعل اللَّه للملك بقلب الإنسان لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمة الشيطان بعكس ذلك كما ورد به الحديث المشهور.

وهذا من لطف اللَّه ورعايته بمن خاف مقامه وراقبه مراقبة المحب

الخائف الراجي، فإنه ينتفع بلمة الملك بإذن اللَّه، ولا تضر لمة الشيطان إلا خطفة، ثم يتوب، وقد وصف اللَّه سبحانه مواعيد الشيطان بأنها غرور، أي باطل يغتر بها من يصدقه، ثم لا يجد فيها أدنىٰ خير أو منفعة، بل تنعكس عليه الأحوال، فيجد الضرر والخسران فيما يمنيه به من النفع والفائدة، ولولا وعود الشيطان لما اعتنىٰ أولياؤه بنشر مذاهبهم الفاسدة، وآرائهم الزائفة، وتضليلاتهم التي يبتغون بها الرفعة والجاه والمال، ثم لا يربحون إلا الشقاوة في الحياة ولعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، فإن من جملة مكايد الشيطان أنه يورد من يصدقه الموارد التي يخيل إليه أن فيها منفعته، ثم يصدره المصادر التي فيها عطبه وهلاكه، ويتخلىٰ عنه ويكون به من الشامتين، وهو بفتنته يسحر القلوب، فلا يكاد يسلم من سحره إلا من تحصن بذكر اللَّه والاستعاذة به، وقد أوضحنا في باب الاستعاذة أول التفسير حاله مع الدجاجلة والطواغيت، وسوء عاقبتهم، فليرجع إلىٰ ذلك.

وههنا فوائد:

إحداها: في قوله سبحانه: ﴿وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيه قيد لازم؛ لأنه لا يمكن أن يتخذ الشيطان وليًّا إلا إذا لم يتخذ اللَّه وليًّا، ولا يمكن أن يتخذ الشيطان وليًّا ويتخذ اللَّه وليًّا، لأنهما طريقان متباينان، إذا لا يجتمع الهدىٰ والضلالة أبدًا في القلب.

وثانيها: أن اللَّه سبحانه أتىٰ بترتيب هذه الجمل المقسم علىٰ كل واحدة منها علىٰ غاية من الفصاحة، حيث ابتدأ أولًا باستخلاص الشيطان نصيبًا له من بني آدم، واصطفائه إياهم علىٰ سبيل القطع، ثم ثَنَّىٰ بإضلالهم، وهو عبارة عما يحصل في عقائدهم من أنواع الكفر بسوء التصورات التي يقذفها في قلوبهم حتىٰ ينطبعوا بها، ثم ثَلَّثَ بتمنيتهم الأماني الكواذب، والإطماعات الفارغة كما أسلفنا بيانها، ثم رَبَّعَ بأمره إياهم بتبتيك آذان الأنعام الناشئ عن تحريمهم لبعض ما أحل

اللَّه لهم، وهو حكم لم يأذن اللَّه به، ثم أتىٰ بالخامس الذي جمع فأوعىٰ وهو تغيير خلق اللَّه الشامل لجميع مقاصد الشياطين الخبيثة.

وإنما بدأ بالأمر بالتبتيك وإن كان مندرجًا تحت عموم التغيير ليكون ذلك استدراجًا لما يكون بعده من التغيير العام، واستيضاحًا من الشيطان طواعيتهم في أول شيء يلقيه إليهم، فيعلم بذلك قبولهم له، فإذا قبلوا ذلك أمرهم بجميع التغييرات التي يريدها منهم، كما يفعل الإنسان بمن يقصد خداعه، فإنه يأمره أولًا بشيء سهل، فإذا رأىٰ قبوله استمر في خداعه.

ثالثها: إقسام الشيطان علىٰ هذه الأشياء ليفعلنها يقتضي علمه بذلك، وأنها ستتحقق، وذلك إما لمعرفة ذلك من قول اللَّه سبحانه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص]، وإما بإلهام آخر اقتضته حكمة اللَّه، أو بفراسة منه لما رأي آدم علىٰ حالة جسدية شهوانية مخالفة لحال الملائكة، والأقرب إلىٰ الصواب هو الأول والثالث.

وقد ذكر اللَّه عنه في سورة الأعراف أنه قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف]، وقال عنه في سورة الحجر: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾، وقريبًا من هذا في سورة ص، وقال في سورة الإسراء: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ثم ذكر اللَّه تسليطه إياه عليهم لاتباعهم طريقته، واختيارهم ولايته، فقال سبحانه: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء]، فلعل ما كرره من الإقسامات علىٰ أنواع تضليله مرتكز علىٰ معلوميته من قول اللَّه ذلك في سورة الإسراء، واللَّه أعلم.

رابعها: لا ينجو المسلم من شرور الشياطين وكيدهم إلا إذا نجح في مجاهدة نفسه للَّه رب العالمين، فمن انتصر في الجهاد النفسي علىٰ شهوات النفس وأطماعها وأنانيتها وجميع دخائلها فقد انتصر علىٰ شياطين الجن، وكان جديرًا بالانتصار علىٰ شياطين الإنس في الجهاد الخارجي، كما أوضحنا ذلك سابقًا، وملاك ذلك محاسبة النفس للَّه رب العالمين عند الإقدام علىٰ كل عمل وعند الفراغ منه، فكلما هَمَّ بعمل نظر فيه هل هو مباح لا حرج فيه؟ وهل هو جالب مرضاة اللَّه أم لا؟ فلا يعمل إلا ما ينفعه عند رب العالمين في الدنيا والآخرة، ولا يعمل إلا بإخلاص للَّه حتىٰ يثيبه اللَّه عليه ويسدد خطاه، وينظر - أيضًا - إلىٰ الباعث علىٰ العمل، هو ابتغاء وجه اللَّه؟ أو طلب شيء من حظوظ النفس والجاه عند الناس؟

فلا يفعل شيئًا لغير اللَّه حتىٰ لا يقع في الشرك وعبادة الشيطان، وأن يحاسب نفسه بعد العمل، حتىٰ يكون من التوابين الأوابين، ويستمسك بحقوق اللَّه الستة في الطاعة، وهي الإخلاص في العمل والنصح للَّه فيه، ومتابعة رسوله، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة اللَّه عليه، وشهود تقصيره فيه ليسلم من الإعجاب في العمل والإدلاء علىٰ اللَّه فيه، وليكن مستصغرًا عمله بجانب نعمة اللَّه عليه، فإن عبادته لا تساوي شيئًا مهما كثرت بالنسبة لنعمة واحدة، واللَّه ولي التوفيق.

وقوله سبحانه في الآيتين (١٢١، ١٢٢): ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾:

هذا بيان من اللَّه سبحانه لمصير الفريقين، أولياء الشيطان وأولياء الرحمن، وقوله: «أولئك» إشارة إلىٰ أولياء الشيطان الذين استجابوا

لتضليله وتسويله وأمانيه، وهو العدو المضل المبين لهم، فلم يستجيبوا لتحذير اللَّه منه، بل انزلقوا بسبب تفضيل شهواتهم ورغباتهم في أحابيله، واتبعوا سخط اللَّه، فكانت عاقبتهم الوخيمة أن ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي المكان الذي يأوون إليه ويستقرون فيه هو نار جهنم التي من دخلها فقد استحوذت عليه الشقاوة، وعاش في أخبث عيشة وأفظع عذاب وأشنعه والعياذ باللَّه، ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي مراوغًا يروغون إليه، وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣]، أي معدلًا ومكانًا ينصرفون إليه.

قالوا: وكلمة «عنها» لا تتعلق بقوله «يجدون»؛ لأنها لا تتعدىٰ بـ«من» ولا تتعدىٰ بقوله «محيصًا» لأنه إن كان اسم مكان فهو لا يعمل؛ لأنه ملحق بالجوامد، وإن كان مصدرًا فمعمول المصدر لا يقدم عليه. وجوزوا أن يكون حالًا من محيص فيتعلق بقوله «محيصًا».

فهذه العاقبة السيئة لمطيعي الشياطين وعلىٰ عكسهم الذين أطاعوا اللَّه وابتعدوا عن خطوات الشياطين فحققوا الإيمان باللَّه بصالح الأعمال المرضية لرب العالمين، فلهم العاقبة الطيبة والمصير الحسن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي آمنوا باللَّه إيمانًا يقينيًا، أكسبهم تعظيمه وإجلاله ومحبته، فعاملوه معاملة المحب لحبيبه، من موالاة أحبابه أهل دين الإسلام، وعادوا أعداءه من جميع أولياء الشيطان المنتقصين له أو المفترين عليه والرافضين لدينه وشريعته، المتبعين لخطوات الشياطين، ولو كانوا أقرب قريب، ثم تقربوا إلىٰ اللَّه بما يحبه من الأعمال الصالحات التي هي للإيمان كالماء للشجر والنبات، فهؤلاء لهم أحسن المقر بقوله سبحانه: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾.

فإنه سبحانه هو الذي يتولىٰ إدخالهم الجنة تشريفًا لهم، كما أسند الفعل في هذه الآية إلىٰ نون العظمة اعتناء منه سبحانه بهم لَمَّا خالفوا أعداءه وأطاعوا أوامره، وحققوا الإيمان به، ولما بالغ سبحانه

في وعدهم بِهذا الإكرام الجليل أكده بقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ والمقصود هنا معارضة مواعيد الشياطين الكاذبة لقرنائهم المغرورين بهم حتىٰ استحقوا الوعيد بسوء المصير، وكانوا أخس وأسوأ حالة ممن يركض وراء السراب، فوعد اللَّه الكريم صادق لأوليائه ولا أصدق منه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، ولهذا ختم وعده الكريم بقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾.

كل هذه التأكيدات لإيقاظ النفوس وإلهاب الضمائر للسلوك بالناس في صراط ربهم المستقيم والاطمئنان لوعده الذي هو أولىٰ بالقبول وأحق بالتصديق مما سواه، وعدم الاغترار بزخارف الأقوال الشيطانية المشغلة للناس في حياتهم، والقاطعة لهم عن الوصول إلىٰ ربهم.

وقد أكثر اللَّه في وحيه المبارك من ذكر الشيطان واستكباره علىٰ آدم، وانتصابه لعداوته وعداوة أولاده إلىٰ يوم القيامة، وأنه كما حاول إغواء أبينا الأول فهو جاد في إغوائنا، ليكثر من جنده وأتباعه الذين هم بعث النار، فكثرة التحذيرات الإلهية من الشياطين هي لطف من اللَّه بعباده ورحمة لهم، وإيقاظ لشعورهم، ليحذروا من همزات الشياطين جميعها علىٰ اختلاف أنواعها، فإن كل دعوة مخالفة لدين الإسلام الذي كان عليه محمد ﷺ فهي دعوة شيطانية، وكل عمل مخالف لسلوكهم فهو عمل شيطاني، وكل دعوة ضد الحكم الإسلامي أو التشريع الإسلامي فهي دعوة شيطانية طافية، وكل حكم يقام علىٰ غير أساس الإسلام فهو حكم شيطاني مهما تسمىٰ صاحبة أو ادعىٰ من المواربات، وكل طريقة لم يكن عليها رسول اللَّه ﷺ وخلفاؤه فهي من طرق الشيطان، ومردودة علىٰ صاحبها مهما صبغها بصبغة صوفية أو غيرها، وكل من رفض أقوال الفقهاء المعتمدة علىٰ مذاهب الأئمة السنية المرتكزة علىٰ أصول الشريعة ففيه نزعة شيطانية، قد انخدع بها بشبهة النفرة عن التقليد، والتقليد في الفروع ليس ممنوعًا ولا معيبًا، وكان الصحابة والتابعون يقلد بعضهم بعضًا لكثرة مذاهبهم

وصعوبة معرفة الدليل وصحته علىٰ كثير منهم؛ مع أن الأولىٰ هو الأخذ بما صح دليله بدون تعارض ولا التباس.

ولا شك أن أحابيل الشياطين كثيرة من إشغال المسلمين بعضهم ببعض، وجعل أواخرهم ينتقصون أوائلهم، ويبحثون عن هفواتهم في الفروع، والواجب علىٰ المسلم أن لا يعبأ بغير الأصول، ولا يشغل أوقاته في الفروع، أو يشوش علىٰ الناس فيها بل يشمخ برأسه إلىٰ التحفظ بالأصول والدفاع عنها، فإن شياطين الجن والإنس حريصون علىٰ إشغال العلماء وطلاب العلم بالمشاغبة في الفروع، وكثيرًا ما يحدثون عليهم الشغب بذلك، ليخلوا الجو للطواغيت والدجاجلة الذين يهدمون في الأصول، ويجدون من ينتشر الجدل علىٰ يديه، وينبري له من يناقشه ويرد عليه، فيربح الصفقة شياطين الإنس، كما حصل مثلًا في قضية التبرج التي سموها بالسفور ووجدوا من يفتي بإباحته، ويدافع عنه بأحاديث مرسلة أو مجملة غير واضحة المعنىٰ مما لا يجوز الاحتجاج به، ولو أن خصمهم احتج عليهم بمثل هذه الأحاديث لسفهوه.

والعجب أنهم يشاهدون السفور المعمول به والذي أقاموا عليه الضجة ليس السفور القديم سفور البادية، وإنما هو سفور التجميل المصنوع الفاتن سفور الأصباغ والمكياج ونحوه من تقاليد الإفرنج الخبيثة الفاتنة، فكيف غاب عن عقولهم هذا الفارق الكبير بين سفور البادية وسفور المتفرنجين؟ ولكنها الأهواء، تحب معاكسة الفقهاء في كل شيء، وعسىٰ اللَّه أن يعفو عن الجميع، وليس مقصودي النيل من أحد، وإنما التنبيه علىٰ مكر الشياطين الذين يشغلون رجال العلم والدعوة بالأشياء التافهة عن الأمور المهمة؛ لينفسح المجال لأعوانهم، ولتتوالىٰ الهزائم العلمية علىٰ قومنا فتلين قناتهم.

هذا وقد أخبرنا اللَّه في الآيات الماضية أن جميع ما يحدث من أنواع الانحرافات فهو من تضليل الشياطين وتسويلهم، وأن جميع ما يدعيه أصناف المشركين إنما هو من وحي الشيطان، مهما زعموا له

من الأسماء المختلفة، وتكلمنا علىٰ ذلك بما فتح اللَّه علينا؛ ليكون مدخلًا لغيره وقياسًا عليه.

وقد أرشدنا وحي اللَّه إلىٰ أمور عامة هامة في الدين، يجب أن نتمسك بها ولا ننفلت منها قيد شعرة، وأن نزن بها أعمالنا في الاتجاه والسلوك، فمنها قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»(١) وهذا كبعض تفسير قوله سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ففي هذه النصوص أعظم دلالة وأوضحها علىٰ أن من يعمل لغير ابتغاء وجه اللَّه، أو ينوي بعمله غير ذلك من رياء وسمعة، أو لأجل قومية أو وطنية أو أي مذهب مادي أو مسلك نفعي، فعمله مخالف للدين، بل مناقض للتوحيد، وفيه من الشرك باللَّه بحسب ما حل في قلبه من الاتجاه لغير اللَّه سبحانه وتعالى، ومنها قوله ﷺ: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢)، أي مردود عليه، وهذه قاعدة أخرىٰ عظيمة من قواعد الدين، فكل من خالف عمله ما عليه رسول اللَّه فهو مبتدع مرفوض العمل، سواء كان بنوع جديد من العبادة والسلوك، أو كان بتقديس قبور أو تمسح بأحجار أو حيطان، فكل ما لم يعمله الرسول ﷺ في حجة الوداع أو غيرها لا يجوز لأحد من المسلمين أن يعمله.

وقوله سبحانه في الآيتين (١٢٣، ١٢٤): ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾:

هاتان الآيتان لهما ارتباط بما قبلهما مما تمنيه الشياطين أصنافًا من الناس، تغشهم بالإدلاء علىٰ اللَّه لشرف آبائهم أو أنبيائهم أو أوطانهم، فهما تجتثان الأماني الشيطانية من الأساس، وترشدان

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.

جميع الناس إلىٰ القاعدة الأساسية الدينية التي قضاها اللَّه سبحانه في العمل والجزاء، وأن ميزان الثواب والعقاب لا يحركه سوىٰ المعايير الصحيحة للإيمان، تلك المعايير الروحية التي جعلها اللَّه سببًا معنويًا لخفة ميزان العبد وثقله، كما قال سبحانه في سورة القارعة: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة]، وقال في أوائل سورة الأعراف: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف]، وقال في الآية (٤٧) من سورة الأنبياء: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء].

فهذه القاعدة الدينية العادلة في ميزان اللَّه الذي لا يحابي أحدًا مهما كان، ولا يمت إليه أحد بنسب ولا صهر، ولا ينتفع أحد عنده بنسب ولا مال، كما قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾ [البقرة].

وفي هاتين الآيتين يقول سبحانه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ أي ليس الوعد بالجنة علىٰ حسب أمانيكم أيها المسلمون أو أيها العرب ونحوهم من المشركين، ﴿وَلَآ﴾ حسب ﴿أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وذلك أن الشياطين سولت لكل فريق من الناس أنهم الفائزون عند اللَّه، وسولت للعرب المشركين أنهم المقدسون للكعبة، وأنهم أهل اللَّه، وأن أصنامهم تقربهم إليه زلفىٰ، وسولت للمجوس ومن علىٰ شاكلتهم أن أنبياءهم أقدم الأنبياء، فهم الناجون، وأنهم يقدسون النار في الدنيا، فلا يعذبون بها في الآخرة، وسولت لأهل الكتاب أنهم أبناء اللَّه وأحباؤه، وسولت لبعض المسلمين أن نبيهم أشرف النبيين وخاتمهم وشفيعهم دون أن يربطوا شفاعته بإذن اللَّه، وهكذا تسول الشياطين لكل أمة ما يناسب

تغريرها من الأماني الباطلة.

فاللَّه سبحانه ينفي جميع ذلك في هذه الآيات، موضحًا للقاعدة العامة التي لا مبدل لها ولا محيص عنها، وأنه لا أحد من الناس تُخرق له هذه القاعدة، وتعطل من أجله سنة اللَّه مهما كان، وأنه لا ينتفع أي إنسان يوم القيامة، إلا بعمله مقرونًا برحمة اللَّه وفضله وعفوه كما قال ﷺ: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني اللَّه برحمته**»[1].

فالقاعدة الأساسية التي فيها قوام العدل والحكمه في الإسلام مبنية علىٰ أنَّ ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا**﴾ إن اللَّه عاقب بعض أنبيائه بعقوبات فظيعة علىٰ زلة واحدة كيونس عليه السلام، وتَهَدَّدَ أشرف أنبيائه وأصفيائه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأبشع تهديد حيث قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة]. وقال في الآية (٧٤ـ ٧٥) من سورة الإسراء: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ أيّ: ضاغفنا عليك العذاب في حياتك وبعد مماتك.

وقال في الآية (٦٥) من سورة الزمر: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ وفي هذه الآية وما قبلها إعلام صريح من اللَّه لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه لا ينتفع منه بثواب ولا ينجو من العقاب إلا بتحقيق الإخلاص المفضي لحسن العمل ورفض الشرك من أساسه، كما فيها التحذير الشديد والتهديد الفظيع الذي يدمغ أدمغة أصحاب الأماني.

وقد ورد في الحديث النبوي: «**أخسر الناس صفقة من أَخْلَقَ عمره في آماله، ولم تساعده الأيام علىٰ أمنيته، فخرج من الدنيا بغير زاد،**

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

وقدم علىٰ اللَّه بغير حجة»(١).

وقال الحسن: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن بما وقر في القلب وصدقته الأعمال، إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتىٰ خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا: نحسن الظن باللَّه كذبوا؛ لأنهم لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

وفي الحديث الصحيح: «**ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»(٢)، وجاء في الآيات (١٣ /١٥) من سورة الحديد في محاورة المنافقين للمؤمنين: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾، فهذه الآيات الكريمات واصفة لمزاعم أصحاب الأماني ومكذبة لدعاويهم، والأماني هي من أخس مطايا الشياطين قديمًا وحديثًا، فقد زعم اليهود أنهم شعب اللَّه المختار، ولا يزالون علىٰ هذا الزعم الباطل بالرغم من سوء ما أنزل اللَّه بهم من النكبات والمجازر، وزعموا ـ أيضًا ـ هم والنصارىٰ أنه لا يدخل الجنة سواهم كما أخبر اللَّه عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة].

وإنما سرىٰ هذا الغرور إلىٰ المبتدعين في دين اللَّه من اليهود والنصارىٰ وغيرهم من اتكالهم علىٰ الشفاعات، وزعمهم أن فضلهم علىٰ غيرهم من البشر بمن بُعث فيهم من الأنبياء لذاتهم، فهم بكرامتهم

---

(١) رواه ابن النجار في «تاريخه»، كما في «الجامع الصغير» (١٢٥٠).

(٢) تقدم تخريجه.

يدخلون الجنة وينجون من العذاب لا بأعمالهم، فحذرنا اللَّه سبحانه أن نكون مثلهم فقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وعمل سبحانه علىٰ انتشال ضعفاء المسلمين في عهد النبوة من دبيب هذه الأفكار فقال في الآية (١٦) من سورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد] فهذا انتشال روحي من اللَّه لهم.

نعم إن في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ انتشالًا روحيًّا من اللَّه لضعفاء الإيمان في عهد النبوة، وفي كل العصور لأمثالهم، واللَّه سبحانه عليم بما كانوا عليه عند إنزاله هذه الآية، وبما يئول إليه أمرُ مَنْ بَعْدَهم إلىٰ يوم القيامة، حتىٰ لا يغتروا بتسويلات الشياطين وأمانيهم، ولذا قال: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فقد حصل في هذه الأمة من تضليل الشياطين وتغريرهم ما حصل علىٰ الذين أوتوا الكتاب من قبل، فاعتمد بعضهم علىٰ الشفعاء وفرط في الأعمال، بل فرط حتىٰ في أصول الدين، واعتمد بعضهم علىٰ النسبة للأسرة الهاشمية، أو انتحال محنتها، أو المجاورة في الأماكن المقدسة الصحيحة أو المكذوبة، كالتي بجوار المقبورين المقدسين ممن أكثر نسبة القبور إليهم كاذبة، ولو كانت صدقًا لما نفعتهم من اللَّه شيئًا، وما قيمة السكنىٰ بجوار الصالحين ممن نخالفهم في العمل؟

ولو تدبروا هذه الآية حق التدبر لما كان لأمثال هذه الأماني عليهم من سلطان، فقد أوضح اللَّه في هذه الآية وما قبلها مما نحن بصدده طرق الغرور ومداخل الشيطان فيها، فأكثرُ المسلمين في هذا الزمان لا يَرُدُّونَ عن الإسلام عَادِيَةً، ولا يكشفون شبهات أهل الباطل ويزيفون مطاعنهم، وليس عندهم تخطيط لقمع أعداء اللَّه ورسوله ممن يؤذون اللَّه ورسوله، ويسعون في الأرض فسادًا، فالطاغون يتمادون في طغيانهم

والمبطلون في باطلهم، والمغرورون يسترسلون في غرورهم دون يقظة ولا وعي ولا حماس، حتىٰ أصبح الإسلام مجرد انتساب واتكال، وأغلبهم يتمسك بالقشور دون اللباب، أو ينشغل بتوافه الفروع تاركًا مهمات الأصول كما أسلفنا.

قال في «الكشاف»: وإذا أبطل اللَّه الأماني، وأثبت أن الأمر كله معقود بالعمل الصالح، وأن من أصلح عمله فهو الفائز، ومن أساء عمله فهو الهالك، تبين الأمر ووضح، ووجب قطع الأماني، وحسم المطامع والإقبال علىٰ العمل الصالح، ولكنه نصح لا تعيه الآذان ولا تلقىٰ إليه الأذهان انتهىٰ.

وفي قوله سبحانه: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ تهديد قاطع وإعلان صارخ بأن عقوبات اللَّه الجارية علىٰ الناس هي نتيجة حتمية للمعاصي التي ارتكبوها، قد قضت بها سنة اللَّه التي لا مبدل لها، وأن العصاة ينالون عقوبات اللَّه الشرعية والقدرية، فالعقوبات الشرعية هي ما نص اللَّه من الحدود التي فرض إقامتها في حكمه، والتعازير المنصوص علىٰ بعضها والمتروك بعضها لاجتهاد ولي أمر المسلمين أو قضاتهم.

وأما العقوبات القدرية فهي عقوبات كثيرة جليلة ودقيقة، لا تحصر ولا تحيط بها العقول؛ لأنها بحسب كثرة المعاصي وقلتها وكبرها وصغرها، وخفائها وانتشارها، وقد تكون فردية كما جرىٰ علىٰ صاحب الجنتين المذكور في سورة الكهف، وعلىٰ أصحاب الجنة في سورة: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ [القلم] ونحو ذلك مما يجريه علىٰ بعض الأفراد من العقوبات المتنوعة، وتكون جماعية كعقوبات الغناء والخسف والمسخ الذي جرىٰ علىٰ الأمم السالفة البائدة، والذي جرىٰ علىٰ بعض القرىٰ والمناطق من الخسف والزلزال والبراكين النارية، وفيه أنواع كثيرة من عقوبات اللَّه القدرية تحيق بأمم وشعوب كثيرة في أزمنة متفرقة أو متواصلة.

ففي سنن ابن ماجه عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: كنت عاشر عشرة من المهاجرين قعود فأقبل علينا رسول اللَّه ﷺ بوجهه فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمس خصال أعوذ باللَّه أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتىٰ أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولا خفر قوم العهد إلا سلط اللَّه عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل اللَّه في كتابه إلا جعل اللَّه بأسهم بينهم**»، وفي رواية أخرىٰ: «**وما لم تحكم أئمتهم بكتاب اللَّه إلا جعل اللَّه بأسهم بينهم**»(١) فهذه من بعض العقوبات القدرية.

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي: عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: «اللهم لا تشمت بي الأعداء، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو، قيل له وكيف ذلك؟ قال: يعصي اللَّه، فيشمت به في يوم القيامة»، وقال ذو النون: من خان في السر هتك اللَّه ستره في العلانية.

قلت: هذا لا يكون إلا مع الإصرار والوقاحة وعدم المبالاة، وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد قال: سمعت الأوزاعي يقول: سمعت هلال بن سعد يقول: لا تنظر إلىٰ صغر الخطيئة، ولكن انظر إلىٰ من عصيت.

وقال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند اللَّه، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند اللَّه.

قلت: وذلك لأنه لا يستصغر الذنب إلا من قسا قلبه وقلَّت هيبة اللَّه فيه، ولذا جاء الأثر بأن المؤمن من يرىٰ خطيئته كأنها جبل عظيم يريد أن يسقط عليه، والمنافق يراها كأنها ذباب وقع علىٰ أنفه فطار، وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي من حديث أبي صالح عن أبي

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩).

هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن العبد إذا أذنب ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتىٰ تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكره اللَّه** ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»[(١)]. صححه الترمذي.

ومن الجزاء السيئ علىٰ الأعمال السيئة ما يختص بصاحبها إذا خفيت، كحرمان الرزق، وتعسير الأمور، علىٰ خلاف المطيع للَّه المتدرع بتقواه، فإن اللَّه يجعل له من أمره يسرًا، ويجعل له من كل ضيق فرجًا، ومن كل هَمٍّ مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، فأما العاصي المتمادي في الفسوق فعلىٰ العكس من ذلك في غالب الأحوال، وقد يبسط لبعضهم الرزق بأسباب أخرىٰ ولحكمة ربانية، ولكن يساوره من الهم والغم والقلق النفسي ما يخفىٰ علىٰ الناس.

ومن العقوبات علىٰ السيئات ما يحصل في قلب العاصي من الوحشة بينه وبين اللَّه، وحشة لا يعادلها جميع ما يحظىٰ به من اللذة والنعيم، ولكنه لا يحس بها لعدم حياة قلبه، كما لا يحس الميت بألم الجروح، وكذلك يحصل في قلبه وحشة من الناس، خصوصًا أهل الصلاح، كما يحصل في قلبه ظلمة ينفقد بها التمييز بين الحق والباطل، وبين الناصح الصادق والدجال الشيطان.

ومن لاحظ اندفاع أكثر المسلمين لهمزات الشيطان ومحبتهم للدجاجلة بمجرد سماع الدعاية لهم والثناء عليهم، ورأىٰ قبولهم لما يلقونه، وتلهفهم علىٰ سماع خطبهم وتصريحاتهم بدون وزنها بموازين العقل والنقل، عرف أنها من تأثير ظلمة القلوب بسبب المعاصي والغفلة عن اللَّه، قال ابن عباس: إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورًا في القلب وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب والقبر، ووهنًا في

---

(١) رواه التِّرمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤).

البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق انتهىٰ.

قلت: ومن وهن القلب المحدث للضعف المعنوي ما حصل علىٰ المسلمين قاطبة من تسلط الأعداء الخارجين واستعبادهم لهم، ونَهبهم خيراتهم، ثم من الأعداء الداخليين أفراخ الماسونية اليهودية وتلاميذ الاستعمار الذين خلفوه شر خلف، وشقيت بهم المجتمعات الإسلامية بالثورات الدموية والأحكام المناقضة لشرع اللَّه، مما يرخص العِرض، ويهدم الشرف، ويقضي علىٰ الأخلاق.

ومن عقوبات السيئات حرمان صاحبها الطاعات؛ لانشغاله عنها بالمعاصي من جهة، وكونها تقطع صاحبها عن سلوك طريقها، فينقطع بالسيئة عن فعل طاعات كثيرة هي خير له من الدنيا وما فيها، وهذه عقوبة فظيعة لا يستهان بها.

ومن عقوباتها أنها تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضًا، فإن المعاصي يجر بعضها بعضًا حتىٰ تصعب مفارقتها علىٰ أصحابها، قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فيحصل بالحسنات مضاعفة الربح، وبالسيئات مضاعفة الخسران، حتىٰ يعتاد كل إنسان ما استمال إليه وانطبع به من فعل الحسنات والسيئات، فكل من هذا وهذا يصعب عليه مفارقة مألوفه.

ومن عقوباتها تقصير العمر قصرًا معنويًّا بمحق بركته، أو قصرًا حسيًّا بما يحدث عليه الأزمات النفسية والقلق القاضي علىٰ عمره، أو بما تجلب عليه المعاصي من الضرر عليه في قلبه ورئتيه، وهذا مشاهد محسوس بما يحصل من الانقهار والانزعاجات المتكررة علىٰ فوات مطلوبه من المعاصي، وبما يحدث من تناول المسكرات والمخدرات والمفتِّرات.

ومن عقوباتها أنها تضعف إرادة صاحبها عن فعل الخير، وقد تضعفه عن إرادة التوبة حتىٰ ينسلخ من قلبه إرادتها ولو في حالة

المرض والمصائب، إذ تكون توبته مجرد استغفار بلسانه، وقلبه معقود بالمعصية، متلهف إليها، عازم علىٰ مواقعتها عند الإمكان، وهذه توبة الكذابين الساخرين والعياذ بالله، وهذا الصنف من الناس محرومون من رحمة الله الخاصة، وبِهذا يكونون وبالًا علىٰ أنفسهم وعلىٰ غيرهم من الخليقة.

ومن عقوباتها، انسلاخ استقباحها من القلب، وعدم التأثر بكلام الناس، وهذا يورث الوقاحة وقلة الحياء والاستهتار، بحيث يكون صاحبها معلنًا مجاهرًا، فيكون محرومًا من معافاة الله كما قال ﷺ: **«كل أمتي معافىٰ إلا المجاهرون، وإن من الإجهار أن يستر الله علىٰ العبد، ثم يصبح يفضح نفسه ويقول: يا فلان عملت كذا وكذا، فيهتك نفسه وقد بات يستره ربه»**(١).

ومن عقوبات السيئات أن صاحبها لا يزال يرتكبها حتىٰ تهون عليه وتصغر في قلبه حتىٰ يمقته الله، فيكون بغيضًا لخلقه بإذنه، علىٰ عكس المطيع التقي الذي يحبه الله ويحببه إلىٰ الناس، وقد صح الحديث عن النبي ﷺ: **«إن الله إذا أحب شخصًا نادىٰ في الملأ الأعلىٰ أني أحب فلانًا فأحبوه»**، قال: **«فتحبه ملائكة السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»**، قال: **«وإذا أبغض شخصًا نادىٰ في السماء إني أبغض فلانًا فأبغضوه»**، قال: **«فتبغضه ملائكة السماء، ثم توضع له البغضاء في الأرض»**(٢).

فأي عقوبة قبل جهنم أفظع من هذه العقوبة للمسيئين؟ إن الرجل مهما حصل علىٰ غاية الثراء والنعيم في الحياة وهو محروم من حب الله وبغيض إليه، وإلىٰ عباده في السموات والأرض، فلا خير في ثرائه وبذخه، ولا خير في حياته قطعًا، ما دامت البهائم أحسن منه مصيرًا.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).
(٢) رواه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

ومن عقوبات السيئات أنها تورث الذل، وتزرع الخوف والجبن في غالب الأحوال والأحيان، ولا شك في ذلك، لأن العزة للّه ولرسوله وللمؤمنين الذين لا يصرون علىٰ المعاصي كما قال ﷻ، وقال ـ أيضًا ـ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] أي فليطلبها بطاعة اللّه، فإنه لا يحصل عليها حصولًا صحيحًا دائمًا إلا من طريق طاعته ونيل مرضاته، وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك، وقال بعضهم ما معناه: إن العصاة مهما ركبوا المراكب الضخمة، وظهروا بالمظاهر الفخمة فإن ذل المعصية جاثم علىٰ قلوبهم لا يفارقها، أبىٰ اللّه إلا أن يذل من عصاه.

ومن عقوبات السيئات أنها سبب لهوان العبد علىٰ ربه، وإذا هان عليه فإنه لا يبالي به في أي واد هلك، وإن هان العبد علىٰ اللّه فقد هان علىٰ الناس، وأسرع إليه الهلاك، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] وقال الحسن: هانوا علىٰ اللّه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم.

ومن عقوبات السيئات أن شؤمها لا يقتصر علىٰ صاحبها فقط، بل يتعدىٰ إلىٰ غيره من الناس والدواب وسائر الخلق ينالهم نصيب من شؤم الذنوب، فلا يكفيه عقاب ذنبه حتىٰ يبوء بلعنة غيره، قال أبو هريرة: إن الحبارىٰ لتموت في وكرها من ظلم الظالم.

وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر، وتقول هذا بشؤم ذنوب بني آدم، وقال عكرمة بقريب من هذا القول، وعلىٰ العكس فاعل الحسنات الكبار كتعليم الخير تستغفر له جميع الدواب، حتىٰ حيتان البحر كما صح الحديث بذلك، وقد أسلفنا ذكره.

ومن عقوبات السيئات أنها تفسد العقل وتذهب بالتفكير، وذلك أن المعصية تطفئ نور القلب والبصيرة، فيضعف التفكير أو ينعكس.

قال بعض السلف: ما عصىٰ اللَّه أحد حتىٰ يغيب عقله. قال ابن القيم: وهذا ظاهر، فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب وتحت قهره، وهو مطلع عليه في داره وعلىٰ بساط نعمته، وملائكته شهودٌ عليه ناظرون إليه، وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خيري الدنيا والآخرة أضعاف وأضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم علىٰ الاستهانة بذلك والاستخفاف به ذو عقل سليم؟ اهـ.

ومن عقوبات السيئات أنها إذا تكاثرت طبع علىٰ قلب صاحبها، فكان من الغافلين كما قال بعض السلف في تفسير «الران» إنه الذنب يكون بعد الذنب حتىٰ يعمىٰ القلب، وأصله أن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد، فإذا تراكمت المعاصي زاد الصدأ حتىٰ يصير «رانًا» ثم يغلب حتىٰ يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا كان هذا حاصلًا بعد الهدىٰ انتكس قلبه، فصار أعلاه أسفله، وحينئذ تستحوذ عليه الشياطين من الجن والإنس، فتسوقه حيث أرادت. ومن نظر إلىٰ حالة الناس اليوم، وقد لعبت بهم الدجاجلة والطواغيت فيما يبثونه من زخرف القول غرورًا عرف أن هذا بسبب معصية اللَّه.

ومن عقوباتها أنها تلحق صاحبها بما يشبهه من العصاة الظالمين الأوائل، وذلك أن كل معصية من الكبائر فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها اللَّه أو عاقبها عقابًا شديدًا، فاللواط ميراث عن قوم لوط، والعلو في الأرض والاستكبار ميراث للفراعنة الكفار، والزنىٰ والربا وإظهار المفاتن ميراث عن اليهود، والتطفيف ميراث عن قوم شعيب. وهكذا كل عاص، فهو علىٰ خطر من العقوبة التىٰ أصابت أسلافه في الدنيا، وهو محشور معهم يوم القيامة.

ومن عقوباتها أنها تدخل صاحبها تحت لعنة رسول اللَّه ﷺ بإذن ربه، فإنه نص علىٰ لعنة كثير من أصحاب السيئات فقال: «**لعن اللَّه السارق، لعن اللَّه من عمل عمل قوم لوط، لعن اللَّه آكل الربا وموكله وكاتبه**

وشاهديه»، «لعن اللَّه الخمر وشاربها، وعاصرها ومعتصرها، وبائعها ومبتاعها، وحاملها والمحمولة إليه، وساقيها وآكل ثمنها»، «لعن اللَّه من عق والديه»، «ولعن من لعن والديه، ومن غير منار الأرض، ولعن المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء، ولعن الواشمة والمتوشمة، والواصلة والموصولة، والنامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة، ولعن من اتخذ شيئًا فيه الروح هدفًا للرمي، ولعن من ذبح لغير اللَّه، ولعن المصورين، ولعن من أتىٰ بهيمة، ولعن من أفسد امرأة علىٰ زوجها أو مملوكًا علىٰ سيده، ولعن من انتسب إلىٰ غير أبيه، أو ضار مسلمًا أو مكر به، ولعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج[(١)]، إلىٰ غير ذلك مما يدخل العاصي به تحت لعنة رسول اللَّه ﷺ ولا يرضىٰ بذلك عاقل يريد تأمين مستقبله أبدًا.

ومن عقوبات السيئات أن المصر عليها يكون علىٰ خطر من الكفر، إما باستحلالها، أو بالسخرية من الدين، أو جحوده أو غير ذلك. كما قال سبحانه في الآية (١٠) من سورة الروم: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ١٠﴾.

ومن عقوباتها حرمان صاحبها من دعوة الرسول ﷺ واستغفاره، فإنه دعا للمؤمنين بأنواع الدعوات والمدح علىٰ الأعمال الصالحة التي يكون العاصي فيها محرومًا من ذلك الدعاء، وكذلك يكون محرومًا من استغفاره للمؤمنين حسب أمر اللَّه، وأن العاصي المصر قد أخرج نفسه من زمرة المؤمنين الذين ينالهم استغفار النبي ﷺ.

ومن عقوباتها الفظيعة أنها تحرم أصحابها من استغفار خيرة الملائكة ودعائهم؛ لأن اللَّه سبحانه سخرهم للدعاء والاستغفار للمؤمنين التائبين المستقيمين علىٰ سلوك صراط اللَّه، كما قال سبحانه في الآية (٩)

---

(١) ما سبق أحاديث صحيحة، ترىٰ تخريجها في كتاب: «الملعونون في الكتاب والسنة».

من سورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [غافر]، فمجترح السيئات محروم من هذا الاستغفار والدعاء المقبول عند اللَّه، وهذا خسران كبير ومصيبة فادحة.

ومن عقوباتها أنها تحدث في الأرض أنواعًا من الفساد الذي قد يعم جميع مرافق الحياة كما قال اللَّه ﷻ في الآية (٤١) من سورة الروم: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ فإن ظاهر المعنىٰ ـ واللَّه أعلم ـ أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها بدليل قوله سبحانه: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ فهذا تصوير لحالة أهل المعاصي والنتائج الشنيعة العاجلة لفعلهم، وقد نص علىٰ أن ما يحصل من الفساد هو بعض العقوبة لا كلها، لأنه سبحانه لو أراد أن يذيق العصاة جميع ما يستحقون من العقوبة لعمهم الهلاك كما قال في آخر سورة فاطر: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: ٤٥].

ومن التأثيرات السيئة للأعمال السيئة ما يحصل من القحط، ونقص الثمار وحلول الأمراض، والوباء وغلاء الأسعار، وما يحدث من الفتن التي يحصل فيها الفتك والإرهاب والهتك وجميع أنواع الإرهاصات، وما يحدث من الزلازل والبراكين وغيرها، وما يجري من ظلم الحاكمين والمقتصين وغير ذلك.

ومن عقوباتها أنها تضعف الحياء من صاحبها حتىٰ ينسلخ منه بالكلية، فلا يتأثر بعلم الناس عن سوء حاله، بل ولا يتأثر برؤيتهم له حين سعيه بتحصيل المعصية أو الفاحشة، بل يجاهر كما أسلفنا.

وقد نص الرسول ﷺ فيما صح عنه أن الحياء شعبة من الإيمان، وقال: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولىٰ: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[(١)].

وقال الشاعر في هذا المعنىٰ:

إذا لم تَصُنْ عرضًا ولم تخْشَ خالقًا وتستحيْ مخلوقًا فما شئتَ فاصنعِ

والمنسلخ من الحياء يصبح عديم الإيمان، تغلب عليه القحة والوقاحة، فلا يبالي برؤية ولا كلام ولا ملام، وإذا وصل العاصي إلىٰ هذه الحالة لم يبق مطمع في صلاحه والعياذ بالله، وكثيرًا ما رأينا تلاشي الحياء في البلاد التي تعلن فيها الحرية البهيمية التي عم شرها أغلب البلاد في الأرض، بسبب مساعي الماسونية اليهودية لإقامة الحكم العلماني الذي يرفض الدين ويستبعد أحكامه.

وقد فسر المحققون من العلماء قوله: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»: أنه علىٰ التهديد والوعيد، والمعنىٰ أنه إذا لم يكن عند المرء وازع من الحياء يزعه عن القبائح فإنه يواقعها ولا يبالي، فليس معناه إلا الوعيد كما قال سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠] فإنه للتهديد والوعيد.

والحياء مشتق من الحياة، فهو نابع من حياة القلب، وقوة الحياء ومنفعته إذا كان من الله ومن الناس لا من الناس فقط، فيستخفي منهم ولا يبالي باطلاع الله. قال بعض المحققين: من استحيا من الله عند معصيته استحيا الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستح منه نال عقوبته.

ومن عقوبات السيئات أنها تخرج العبد من الإحسان، وتحرمه ثواب المحسنين؛ لأن مداومة المعاصي ناشئة من قلة محبة الله وخشيته ورجاء الفوز بقربه، وقلة ذكره ومراقبته؛ لأن من أحب الله وخافه ورجاه وأكثر من ذكره ومراقبته امتنع من فعل ما يغضبه، وكانت معاملته له معاملة المحب لحبيبه، فكان في عبادته له كأنه يراه، وبذلك

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٣).

يكون في رتبة الإحسان، وأما العاصي فعلىٰ خلاف ذلك، يكون محرومًا من معية اللَّه التي يفوز بها المحسنون.

ومن عقوباتها أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه عكسها من أسماء الذل والصغار، فتسلبه اسم المؤمن والمحسن والبر والتقي والولي والمنيب والمطيع والورع والمصلح والعابد والخائف النزيه والعفيف والأواب، والطيب والرضي ونحوها، وتكسوه اسم الفاسق والفاجر والشقي والعاصي والمخالف والمسيء والمفسد والخبيث والمسخوط والخائن والزاني والكاذب والقادر واللوطي وقاطع الرحم وغير ذلك من المصطلحات العربية والعامية البشعة مما هي من أسماء الفسوق، وقد قال تعالىٰ: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات ١١] ولو لم يكن في هذه الأسماء الطيبة والخبيثة إلا الشرف أو المذمة في الدنيا لكفىٰ، فكيف بما يترتب عليها من سوء المصير في الدار الآخرة؟

ومن عقوباتها سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند اللَّه وعند خلقه، فإن أكرم الناس عند اللَّه أتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعهم، وعلىٰ قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده، فإذا عصاه سقط من عينه، وأسقطه من عيون الخلق كما أسلفنا ذكر الحديث في الحب والبغض، ووضع القبول في الأرض لمن يحبه اللَّه مع حب الملائكة له، وبغضهم لمن يبغضه اللَّه، ووضع البغضاء له عند أهل الأرض، ولم يبق له جاه عند اللَّه وعند خلقه، هان علىٰ عباد اللَّه وعاملوه معاملة الهوان.

ومن أعظم نعم اللَّه علىٰ العبد أن يرفع ذكره، ويعلي قدره بين العالمين، ولذلك خص أنبياءه بما ليس لغيرهم من ذلك، وخص محمدًا ﷺ بأعلىٰ نصيب، وجعل لمن أحسن التصرف في ميراثه نصيبًا من ذلك علىٰ قدر مجهوده وحسب طاقته، وعلىٰ العكس جعل البتر الحسي والمعنوي للشانئ لمحمد عليه الصلاة والسلام أو لشيء مما جاء به، والشانئ هو العائب ـ والعياذ باللَّه ـ.

ومن عقوباتها أنها تجعل صاحبها دائمًا في شجن شهواته وسجنها، وقيود هواه، بل تجعله في أسر شيطانه وعدوه اللدود، فيكون في أسر معنوي أشنع من كل أسر حسي، فيمتنع بذلك من السير إلىٰ اللَّه، وينقطع مما ينفعه، ويكون قلبه عرضة للآفات، تطرقه من كل جانب، فإن القلب كلما ابتعد عن اللَّه أسرعت إليه الشرور، وكلما قرب من اللَّه بعدت عنه.

هذا وإن البعد من اللَّه مراتب بعضها أشد من بعض، فالغفلة تبعد العبد من اللَّه، لكن بعد المعصية أعظم، وكذلك بعد البدعة وبعد النفاق أعظم، وأعظم من ذلك كله الشرك الذي تجددت أنواعه في هذا الزمان.

ومن عقوباتها أنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل، فتجد المطيع للَّه أقوىٰ عقلًا وأغزر تفكيرًا من العاصي، وكلما ازداد العصيان نقص من العقل بحسبه، وغالبًا تكون بعض عقول الكفار الذين لم تقم عليهم الحجة أقوىٰ من عقول المسلمين العصاة؛ لأن عدم التقوىٰ يحرمهم من نور البصيرة، فقد قال اللَّه: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقد قال كثير من المحققين عن الفروق العظيمة بين عقول المطيعين للَّه والعصاة له، فقالوا: كيف يكون عاقلًا وافر العقل من يعصي اللَّه وهو في قبضته، وساكن في ملكه، وراتع في فضله، ومستيقن باطلاعه عليه، فيعصيه وهو مشاهده، ويستعين بنعمه علىٰ مساخطه وغضبه والتعرض للعنته، وحرمان رضاه، والفوز بجواره في جنته برفقة أنبيائه وأوليائه، وتحصيل أسوأ المصير من عقابه ونيرانه، فهل هذا عنده عقل كعقول المتقين؟ وأي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ثم تنقضي كأنها حلم علىٰ النعيم المقيم، والفوز العظيم الذي هو السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة؟ فإن عقل من هذه حاله لا يزيد علىٰ العقل الذي تقوم به عليه الحجة، والذي لولاه لكان المجانين الخلص.

وأما تأثير المعاصي في نقصان العقل المعيشي فهو تأثير كبير ـ أيضًا ـ، ولكنه لا يظهر بسبب اشتراك الناس في هذا النقص، بحيث

أصبح أكثرهم أطفال العقول كما قاله ابن القيم، وإلا فإنه إذا حصل للقلب شيء من حب اللَّه وتعظيمه الصحيح لم يرض بالدنيا وما بها جميعًا عوضًا عن حب اللَّه والفوز بقربه، ثم اللَّه يجعله يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها دون أن يشوب تنعمه بحفظه اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والأحزان والغموم والمعارضات، بل يحصل علىٰ نعيم خالص من ذلك في الغالب، ولو كان قليلًا، لكنه مقرون إليه لذه النعيم القلبي الذي يفقده الماديون، ولن يجدوا إليه سبيلًا.

ثم هو ينتظر نعيمين آخرين لا يشبههما شيء في العظمة عند رحيله من الدنيا، وهما الفوز بجنان الفردوس، ولذة النظر إلىٰ وجه الحبيب الأكبر، هذا زيادة علىٰ نعيمه وفرحته في البرزخ، وعدم حزنه يوم الفزع الأكبر، فما أخسر صفقة من فضل النعيم المادي الزائل المحفوف بالمؤلمات والمزعجات علىٰ النعيم الروحي الذي لا تعدل الدنيا كلها أصغر جزء منه!

ومن عقوبات السيئات أنها تصغر النفس وتقمعها، وتدسيها وتحقرها حتىٰ تصير أصغر من كل شيء وأحقره، كما أن الطاعة تقويها وتنميها وتزكيها وتكبرها، قال اللَّه سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس]، أي قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة اللَّه وأظهرها بها، وقد خاب من حقرها وصغرها وأخفاها وجبنها بمعصية اللَّه، وأصل التدسية الإخفاء، كقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويختفي من الناس من سوء ما يأتي به، قد انقمع عنه نفسه، وانقمع عند اللَّه وعند خلقه، وبهذا الانقماع النفسي يخرس لسانه عن الأمر بالمعروف، وعن النطق بكلمة الحق عند الحكام والرؤساء لما في قلبه من الذلة والخوف، وبذلك يزداد جرمًا علىٰ جريمته.

ومنها حرمان العلم النافع الذي يوصله المقامات العالية عند اللَّه

بما يكسبه من خشية اللَّه والصدق في معاملته، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨] فإن العلم نور يقذفه اللَّه في القلب، والمعاصي تطفئ ذلك النور، ولذا قال الإمام الشافعي:

شكوتُ إلىٰ وكيعٍ سُوءَ حفظي ... فأرشدني إلىٰ تركِ المعاصي

وقال: اعلمْ بأن العلم نورٌ ... ونور اللَّه لا يؤتاهُ عاصي

ومن عقوباتها أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلىٰ مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضًا قليلًا لا ينتفع بالأغذية الروحية التي بها حياته وصلاحه وراحته، فإن الذنوب أمراض القلوب وأدواؤها، وإن تأثيرها السيئ في القلوب أفظع من تأثير الأمراض الحسية في الأجسام، فكما أن الأجسام المريضة بالمعاصي لا تنتفع بالغذاء الحسي، فكذلك القلوب المريضة بالمعاصي لا تنتفع بالأغذية الروحية، حتىٰ إن أكثرها لا يكون فيه قابلية لفهم شيء من وحي اللَّه، ولا تهزه موعظة، ولا يقبل نذيرًا، ومنهم من قالوا لرسول اللَّه ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

قال ابن القيم: وقد أجمع السائرون إلىٰ اللَّه علىٰ أن القلوب لا تعطي مناها حتىٰ تصل إلىٰ مولاها، ولا تصل إلىٰ مولاها حتىٰ تكون صحيحة سليمة، ولا يصح ذلك إلا بمخالفة هواها، وهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، وكما أن من نَهَىٰ نفسه عن هواها كانت الجنة مأواه، كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيم ألبتة، وهذا لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، ولا تحسب أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار] مقصور علىٰ نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك - أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار - وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم الحزن وضيق الصدر، وإعراضه عن اللَّه والدار الآخرة، وتعلقه

بغير اللَّه وانقطاعه عن اللَّه بكل واد منه شعبة.

وكل شيء تعلق به وأحبه من دون اللَّه فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحب شيئًا عُذِّبَ به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتىٰ يحصل، فإذا حصل له عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفراقه والتنغيص والتنكيد عليه بأنواع المعارضات، فإذا سلبه اشتد عذابه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار، وأما في البرزخ فعذابه أشد وأنكىٰ، وحسرته أفظع، لحصول الفراق الذي لا يرجىٰ عوده، وألمه علىٰ فوات النعيم المقيم، وألمه علىٰ الحجاب عن اللَّه، وألم حسرته التي تزيد في عذاب قلبه علىٰ عذاب بدنه. فيا عجبًا من مسلم قد بايعه اللَّه علىٰ نفسه بجنة الخلد والفردوس، وواسطة البيع رسوله ﷺ، ثم يأبىٰ ويبيعها لكل شيطان مريد، بل يزيدهم ثمنًا عليها من عنده وهو المال. انتهىٰ باختصار وتصرف.

ومن عقوباتها أنها تضعف سير القلب إلىٰ اللَّه والدار الآخرة، وتعوقه وتوقفه أو تعكس سيره إلىٰ الشياطين والنار؛ لأن الشياطين يتشفون من عدوهم المسلم بالمعاصي، فيغرونه علىٰ مداومتها حتىٰ يهلك.

ومن عقوباتها أنها تجلب علىٰ العبد الأشياء الثمانية التي استعاذ رسول اللَّه ﷺ منها، وهي الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وقهر الرجال، وكل اثنتين منها قرينتان، فالهم والحزن قرينان، فإن المكروه المستقبل يحدث في القلب الهم، والمكروه الحاصل يحدث الحزن، وكذلك العجز والكسل قرينان؛ لأن تخلف العبد عن الخير والفلاح إما لعدم قوته فهو العجز، وإما لعدم إرادته فهو الكسل، وكذلك الجبن والبخل قرينان؛ لأن العائق للعبد عن فعل الخير والعمل للعقيدة إما أن يكون بدنه فهو الجبن، وإما أن يكون الشح بماله فهو البخل، وكذلك ضلع الدين وقهر الرجال قرينان؛ لأن تسلط الرجال عليه إن كان بحق فهو ضلع الدين أي غلبته، وإن كان بباطل فهو من قهر الرجال، وسبب حصول هذه الأشياء أن الذنوب إما

أن تميت القلب، أو تمرضه مرضًا مخوفًا، أو تضعفه بتاتًا حتىٰ ينتهي ضعفه إلىٰ هذه الأشياء الثمانية فإنها من أقوىٰ الأشياء الجالبة لها كما أنها من أقوىٰ الأسباب الجالبة لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماته الأعداء، وهي ـ أيضًا ـ من أقوىٰ الأسباب الجالبة لزوال نعم اللَّه سبحانه، وتحول عافيته إلىٰ نقمة، وجلب أنواع سخطه، وكان رسول اللَّه ﷺ يعلم أمته الاستعاذة من جميع ما ذكرناه؛ لأنها من أشنع عقوبات اللَّه القدرية المصيبة لعباده بسبب المعاصي.

ومن عقوبات السيئات أنها تضعف في القلب تعظيم اللَّه سبحانه، حتىٰ يتلاشىٰ تعظيمه من قلب العبد إذا أصر عليها، وكذلك وقاره ـ سبحانه ـ من قلبه، حتىٰ يتلاشىٰ لا محالة، شاء العبد أم أبىٰ؛ لأنه لو تمكن وقار اللَّه وتعظيمه في قلب العبد لما أقدم علىٰ المعصية، أو تجرأ علىٰ مداومتها، وقد يغويه الشيطان بغروره، فيزعم أنه عمل ما عمل بدافع حسن الرجاء والطمع في عفو اللَّه، وهذا من مغالطة الشيطان للنفس، فإن عظمة اللَّه وجلاله في قلب العبد يقتضي تعظيم حرماته، وتعظيمها الصحيح يحول بينه وبين الذنوب. فالمتجرئون علىٰ معاصي اللَّه ما قدروه حق قدره ولا عظموه، وكيف يعظمه ويجله، ويخاف مقامه من يهون عليه أمره ونَهيه؟ هذا من أمحل المحال وأوضح الباطل، ولذا نجد المعظم للَّه والخائف منه يبادر بالتوبة، ويسعىٰ لتطهير جريمته بإقامة الحد عليه المزهق لنفسه، فكفىٰ بالمعاصي عقوبة أن يضمحل من قلب صاحبها تعظيم اللَّه وتعظيم حرماته.

وتنشأ من هذا عقوبة أخرىٰ، وهي أن اللَّه يرفع من قلب خلقه مهابة العاصي، فيهون عليهم ويستخفون به، كما هان عليه أمر اللَّه واستخف به، فعلىٰ قدر محبته للَّه يحبه الناس، وعلىٰ قدر تعظيمه للَّه ومهابته له يهابه الناس ويعظمونه جزاء وفاقًا، وكيف يستخف العبد بجناب اللَّه ولا يستخف الناس به؟

ومن عقوباتها، أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد

نعمة ولا حلت به نقمة إلا بسبب الذنوب، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة». وهذا القول منه مرتكز علىٰ قول اللَّه سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورىٰ]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] أي أنه لا يغير نعمته التي أنعمها علىٰ أحد حتىٰ يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة اللَّه بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب غضبه، فإذا غير فاللَّه يغير عليه جزاء وفاقًا. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، فإن هو عكس الأمر فغير المعصية بالطاعة غير اللَّه عليه العقوبة بالعافية منها، والذل بالعز، والفقر بالغنىٰ وهكذا.

ومن عقوباتها أنها تستدعي نسيان اللَّه للعاصي، بمعنىٰ أنه يتركه ويُخلي بينه وبين نفسه وشيطانه، فلا يعينه علىٰ نفسه، ولا يهديه ولا ينصره علىٰ شيطانه، ولا يعينه علىٰ شكره وذكره وحسن عبادته، كما يعين المؤمنين الصادقين باستقامتهم علىٰ طاعته، فإن من نسيه اللَّه بِهذا المعنىٰ فقد أسرع إليه الهلاك والدمار، وصار هدفًا لأعدائه من شياطين الإنس والجن وطعمة لهم. وهذه عقوبة لا يستهان بها، والمسترسل بالمعاصي مستحق لها؛ لأنه ضيع من لا غنىٰ له عنه طرفة عين، ولا يمكن أن يحصل علىٰ ما يعوضه عنه كما قيل:

مِـن كـلِّ شـيءٍ إذا ضيَّعتَه عِـوضٌ ... وليس في اللَّه إن ضيعتَ مِن عِوَضِ

فاللَّه سبحانه يعوض عن كل شيء سواه، ولا يعوض منه شيء أبدًا، ويغني سبحانه عن كل شيء، ولا يغني عنه أي شيء، ويمنع سبحانه من كل شيء، ولا يمنع عنه أي شيء، وهو يجير من كل شيء، ولا يجير منه شيء أبدًا، فكيف يستغني العبد عن اللَّه طرفة عين وكيف ينساه؟!

ومن عقوبات السيئات الفظيعة أنها توجب القطيعة بين العاصي وبين اللَّه، وإذا وقعت القطيعة بين العاصي وبين ربه انقطعت عنه

جميع أسباب الخير، واتصلت به أسباب الشر، فيصبح محرومًا من الفلاح الصحيح، لأنه بركونه إلىٰ المعاصي واطمئنانه إليها قطع ما بينه وبين وليه ومولاه الرحمن الرحيم اللطيف الخبير، الذي لا غنىٰ له عنه طرفة عين، ولا بدل له منه، ولا عوض له عنه، فكان عرضة للشر؛ لأنه بانقطاع صلته باللَّه انقلبت الصلة عنه إلىٰ أعداء اللَّه وأعدائه، ومن تولاه عدوه فهو في أسوأ الحالات لحرمانه من ولاية اللَّه.

وقد حذر سبحانه عباده من هذا المصير السيئ حيث قال في الآية (٥٠) من سورة الكهف: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾، فكأنه يقول: أنا أكرمت أباكم ورفعت قدره وفضلته علىٰ غيره، فأسجدت له ملائكتي، ولعنت إبليس وعاديته لمّا أبي السجود لأبيكم، فانتصب لعداوتكم من أجل ذلك، فكيف يحسن بكم مع هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعوه في معصيتي، وتوالوه في خلاف مرضاتي، وقد أمرتكم بمعاداته وأخبرتكم أنه عدوكم الأكبر مع ذريته، فمن واجبكم معاداته وذريته؛ لأن من أطاعه فقد عصاني وعاداني، هكذا المعنىٰ العظيم للآية.

ومن عقوباتها أنها تعمي بصر القلب وتطمس نوره، وتسد عنه طرق العلم، وتحجب موارد الهداية، وقد قال الإمام مالك للشافعي لما اجتمع به وتفرس فيه الذكاء: إني أرىٰ اللَّه قد ألقىٰ علىٰ قلبك نورًا فلا تطفئه بظلمة المعصية، وذلك أن السيئات تضعف نور القلب بما يحل فيه من ظلماتها حتىٰ يضمحل، ثم تقوىٰ تلك الظلمات وتفيض من القلب إلىٰ الجوارح، ومن لاحظ انحراف بعض العلماء في العقيدة أو في الأخلاق عرف أنها من نتيجة ظلمة القلب، فإن تعصبهم لعلم الكلام، وعدم اعتمادهم علىٰ النصوص هذا سببه، وإن ولوع بعضهم في القبور ومدافعتهم عنها، ومعاداتهم لأهل التوحيد سببه ذلك، وإن استرخاص بعضهم أنفسهم للحكام وإصدارهم الفتاوىٰ المرضية لهم علىٰ خلاف الشريعة بالتأويلات الفاسدة سببه ذلك، فاللَّه يرحم الجميع،

ويعيد إليهم بصائرهم بالصدق والإخلاص.

ومن عقوباتها أنها تمحق بركة العمر والرزق، وبركة العلم وبركة العمل والطاعة، حتىٰ تقضي علىٰ بركة الدين والدنيا، فما أقل بركة عمر العاصي ودينه ودنياه: وما محيت البركات من الأرض إلا بسبب المعاصي، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن].

وروىٰ الرازي عن حذيفة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**هذا رسول رب العالمين جبريل، نفث في روعي: أنه لا تموت نفس حتىٰ تستكمل رزقها وإن أبطأ عليها، فاتقوا اللَّه وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية اللَّه، فإن اللَّه لا ينال ما عنده إلا بطاعته**»(١)، وإنما كانت معصية اللَّه سببًا لمحق بركة الرزق والعمر والعمل، لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها، فسلطانه عليهم، وكل شيء يتصل به ويقارنه فبركته ممحوقة، ولهذا شرع ذكر اسم اللَّه عند الأكل والمشرب واللبس، والركوب وممارسة الجنس، والأخذ والعطاء لما في مقارنة اسم اللَّه من البركة، ولأن ذكره يطرد الشيطان، فتحصل البركة التي لا معارض لها، وكل شيء لا يكون للَّه فبركته منزوعة.

ومن عقوباتها ما يقذفه اللَّه في قلب العاصي من الرعب والخوف، فلا يعيش إلا خائفًا مرعوبًا؛ لأن الطاعة حصن اللَّه الأعظم الحصين الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف والإرهاصات من كل جانب، فمن أطاع اللَّه حصل علىٰ الأمان التام، ومن عصاه انعكس أمره، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

ومن عقوبات السيئات، أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب، فيجد

---

(١) رواه عبدالرزاق في «المصنَّف» (١١/ ١٢٥).

صاحبها نفسه مستوحشًا من كل ناحية، قد وقعت الوحشة بينه وبين اللَّه، وبينه وبين الناس، بل يستوحش حتىٰ من الحيوانات والأشباح، كلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة فيعيش في نكد ومرارة.

وأمرّ العيش عيش المستوحشين الخائفين، كما أن أطيبه عيش المستأنسين، فما أفظع غبن أهل السيئات الذين باعوا أنس الطاعات وأمنها وحلاوتها بوحشة المعاصي ومخاوفها! والسر في حصول الوحشة أن الطاعة مقربة من اللَّه، وكلما ازداد القرب منه قوي الأنس، بخلاف المعاصي، فإنها توجب البعد من اللَّه ومن أهل طاعته، وكلما ازدادت المعاصي قويت الوحشة، ولهذا يجد الإنسان وحشة بينه وبين عدوه، وإن كان ملابسًا له قريبًا منه، ويجد أنسًا قويًّا بينه وبين من يحبه وإن كان بعيدًا.

ومن عقوباتها أنها تجعل صاحبها من السفلة، بعد أن كان من العلية، أو مهيئًا لأن يكون من العلية، فإن اللَّه جعل أهل طاعته الأعلين في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا لهم المكانة العالية، وفي الآخرة مستقرهم في عليين، وجعلهم أكرم خلقه عليه، وكتب لهم العزة في الدارين.

وفي مسند الإمام أحمد عن عبداللَّه بن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتىٰ يعبد اللَّه وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار علىٰ من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**»(١) فالعبد إذ أساء نزلت درجته، لا يزال ما استمر علىٰ الإساءة ينزل إلىٰ أسفل فأسفل، وقد ينزل بالخطيئة الواحدة نزولًا عظيمًا، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللَّه ـ لا يلقي لها بالًا ـ، يهوي بها في النار أكثر مما بين المشرق والمغرب**»(٢)، وهذا نزول قل أن يجبره صعود إلا بالتوبة النصوح

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٦٧٤٤)، ومسلم (٢٩٨٨).

بشروطها، فإن التائب قد تكون حاله بعد التوبة أرفع من درجته قبل أن يذنب الذنب الذي أنزله إلىٰ أسفل سافلين حسب كمال توبته وتأثيرها في قلبه من الذل والخضوع وحسن الإنابة.

ومن عقوباتها أنها تجرئ علىٰ صاحبها ما لم يكن يجرؤ عليه قبل اقترافها من أنواع المخلوقات، فتجرؤ عليه الشياطين بالأذىٰ والإغواء والوسوسة بالتضليل المتنوع والتخويف والتغرير، وإنسائه ما مصلحته في ذكره، ومضرته في نسيانه، فتجرئ عليه حتىٰ تؤزه إلىٰ معصية اللَّه أزًّا، وكذلك تتجرأ عليه شياطين الإنس بالإغراء وسائر أنواع الفتنة والإيذاء، حتىٰ أهله وخدمه يتجرؤون عليه لسقوط هيبته عندهم. قال بعض السلف: إني لأعصي اللَّه فأعرف ذلك في خلق أهلي ودابتي.

وأكثر ما يتسلط عليه نفسه فلا تطاوعه علىٰ فعل الحسنات، ولا عن الارتداع عن السيئات، بل تسوقه إليها حيث كانت هي المألوفة لها، وعلىٰ حسب اجترائه علىٰ معاصي اللَّه يكون اجتراء ما ذكرنا عليه.

ومن عقوباتها أنها تسبب لصاحبها سوء الخاتمة لقوة الولوع بها والافتتان، فينسىٰ ذكر اللَّه عند الاحتضار، أو ينشغل عنه ولا ينفعه التلقين، وللناس مشاهدات كثيرة من هذا القبيل والعياذ باللَّه، أعرضنا عن ذكرها اختصارًا واستبشاعًا، ومنهم من يحمله الولوع والافتتان علىٰ الانتحار لشدة حسرته وغيظه، ومنهم من يرتد عن الإسلام رجاء نيل مطلوبه وهكذا.

ومن عقوبات السيئات أنها مدد من العاصي لأعدائه من شياطين الإنس والجن، فإنه بمعصية اللَّه يمد كل عدو له من إبليس وذريته وأعوانه من الإنس، ويجعل لهم عليه سلطانًا حيث أطاعهم وعصىٰ اللَّه، فإن اللَّه سبحانه لما ابتلىٰ الإنسان بأعدائه الشياطين الذين لا يغفلون عنه حيث يغفل، ولا ينامون حيث ينام، ولا يتركون شيئًا من الكيد والمكر يقدرون عليه إلا نفذوه به، ويستعينون عليه ـ أيضًا ـ ببني جنسه من

الإنس الذين يكسبونهم أعوانًا، ويحرصون علىٰ حرمانه الجنة وجعله معهم في النار.

فقد أَمَدَّ سبحانه الإنسان بمدد روحي وحسي، وذلك وحيه المبارك وملائكته الذين جعلهم معقبات من بين يديه ومن خلفه، ليقيم بحكمته سوق الجهاد في هذه الدار طيلة الأعمار بين بني الإنسان وأعدائهم، فأوضح لهم بوحيه النجدين طريق الهدىٰ والضلال، والرشاد والغي، وجعل عليهم حفظة وكرامًا كاتبين، وما أقام اللَّه سبحانه الشياطين وسلطهم علىٰ عباده إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله هم أرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم إليه وسيلة، فأقام سوق الحرب في أشرف الميادين عنده، وهي قلوب المؤمنين التي هي خلاصة مخلوقاته، ومحل معرفته ومحبته وعبوديته، والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه، فجعلها الميدان لهذه الحرب، وولاه قيادتها.

وأمد كل قلب بنوره الذي هو الوحي المرشد، وبملائكة لا يفارقونه، بل هم معقبات، يعقب بعضهم بعضًا لحفظه وتثبيته وأمره بالخير وحضه عليه، وتذكيره بوعد اللَّه الحسن، كما أمده بالعقل وزيرًا ومدبرًا ومشيرًا، وأمده باليقين كاشفًا له عن الحقيقة حتىٰ كأنه يراها، ولكن من لوازم الحرب الحتمية حفظ الثغور عن نفوذ العدو، وثغور الإنسان عيناه وأذناه وأنفه وفمه ولسانه، والترجمان علىٰ ذلك يداه ورجلاه وفرجه وتلك آلات التفنيذ، بعد عزيمة القيادة التي هي القلب كما ورد في الحديث معنىٰ ذلك، فإذا لم يحفظ العبد هذه الثغور من غزو الشياطين دخلوا قلبه منها ففتنوه بما يحبّه، ونصبوا له كلاليب الشهوة وخطاطيفها حتىٰ يجروه إلىٰ ما يريدون من هزيمته عن هدفه الرباني، وصرعه من عقله ومعرفته، فإن العبد بإهماله تلك الثغور يكون قد أعطاهم فرصة للهجوم، وبانصياعه للمحبوبات والشهوات الحيوانية يكون قد أمدهم بأخطر مدد علىٰ نفسه وسلطهم عليها ولم ينتفع بمدد اللَّه لانصرافه عنه وابتعاده منه، وهذا من عقوبة نسيانه للَّه وتفضيله

مرادات نفسه ومحبوباتها علىٰ مرادات اللَّه منه ومحبوباته، فلا تسأل عن حالة من أعطىٰ جميع أسلحته أعداءه ومكنه من نفسه والعياذ باللَّه، وهذا من أبدع التصويرات النافعة التي يجب حفظها، ولهذا كان الجهاد النفسي من أنفع الجهاد؛ لأن له أكبر التأثير وأحسن النتائج في الجهاد الخارجي لحصول النصر، والعكس بالعكس.

ومن عقوباتها أنها سبب الهلاك في الدنيا والآخرة؛ لأن مدار حياة الإنسان الحقيقية وسعادته علىٰ أصلين، معرفة الحق من الباطل، وإيثار الحق علىٰ الباطل، وما تفاوتت منازل الناس عند اللَّه في الدارين إلا بقدر تفاوت منازلهم وأحوالهم في هذين الأصلين، والمعاصي تحرم صاحبها من أن يكون كاملًا في إدراك الحق وتمام تنفيذه، بل إما أن يعكسه رأسًا علىٰ عقب، فيكون بدون بصيرة وبدون عمل، وإما أن تجعله ضعيفًا في العمل أو عديم بصيرة، فلا يصلح للإمامة في الدين، وهذه عقوبة فظيعة.

ومن عقوبات السيئات ما قاله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فإن الغيرة حرارته وناره التي تُخرج ما فيه من الخَبَث والصفات المذمومة كما يُخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد، وأشرف الناس وأعلاهم قدرًا وهمة أشدهم غيرة علىٰ نفسه وخاصته وعموم الناس، ولهذا كان ﷺ أغير الخلق علىٰ الأمة، واللَّه تعالىٰ أغير منه، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**أتعجبون من غيرة سعد، لأنا أغير منه واللَّه أغير**»(١).

وفي الصحيح ـ أيضًا ـ أنه قال في خطبة الكسوف: «**يا أمة محمد، ما أحد أغير من اللَّه أن يزني عبده أو تزني أمته**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).
(٢) رواه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

وفي الصحيح ـ أيضًا ـ أنه قال: «**لا أحد أغير من اللَّه، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحب إليه العذر من اللَّه، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من اللَّه، من أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه**»[١].

فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها، وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان.

واللَّه سبحانه مع شدة غيرته يحب أن يعتذر إليه عبده، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وأنه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتىٰ يعذر إليه، ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذارًا أو إنذارًا، وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال، فإن كثيرًا ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة علىٰ سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه ومن غير قبول العذر ممن اعتذر إليه، بل قد يكون له في نفس الأمر عذر فيرفضه لشدة الغيرة، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله علىٰ قبولها قلة الغيرة حتىٰ يتوسع في القبول، ويرىٰ عذرًا ما ليس بعذر، وكل منهما غير ممدوح علىٰ الإطلاق.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من الغيرة ما يحبها اللَّه، ومنها ما يبغضه اللَّه، فالتي يبغضها اللَّه الغيرة من غير ريبة..** »[٢]، وذكر الحديث، وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر، فيغار في محل الغيرة، ويعذر في محل العذر، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقًّا، ولما جمع سبحانه صفات الكمال كلها صار أحق بالمدح من كل أحد، ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسه وأثنىٰ علىٰ نفسه، فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافقه في صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها، وأدخلته علىٰ ربه وأدنته

(١) رواه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).
(٢) رواه أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٢٥٥٨).

منه، وقربته من رحمته، وصيرته محبوبًا له، فإنه سبحانه رحيم يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، قوي يحب المؤمن القوي، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف، وهو حيي يحب أهل الحياء.

ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي إلا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفىٰ بها عقوبة، فإن الخطرة تنقلب بها وسوسة، والوسوسة تنقلب إرادة، والإرادة تقوىٰ فتصير عزيمة، ثم تصير فعلًا، ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة، وحينئذ يتعذر الخروج منها كما يتعذر الخروج من صفاته القائمة به.

والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة علىٰ نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جدًّا حتىٰ لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلىٰ هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك، وكثير من هؤلاء لا يقتصر علىٰ عدم الاستقباح، بل يحسن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه له، ويدعوه إليه ويحثه عليه، ويسعىٰ له في تحصيله، ولهذا كان الديوث أخبث خلق اللَّه، والجنة عليه حرام، وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه لغيره، فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة؟

وهذا يدلك علىٰ أن أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له، فالغيرة تحمي القلب، فتحمي له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة يميت القلب، فتموت له الجوارح، فلا يبقىٰ عندها دفع ألبتة، ومثل الغيرة في القلب كمثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، وإذا ذهبت وجد الداء المحل قابلًا. انتهىٰ باختصار قليل.

وقد عملت المخططات اليهودية بجمعياتها المختلفة علىٰ تعميم التربية المادية البهيمية التي يتعلم فيها الجنسان العمل الجنسي في المدارس والتشجيع عليه باسم علم النفس ونحوه، وعلىٰ إشاعة التبرج وإظهار المفاتن وتحبيب الفواحش باسم المدنية والتطور، حتىٰ قلت

الغيرة في قوم، وزالت من قوم، وحتىٰ أعلنوا تبادل الزوجات وإظهار تصاوير المتبادلين لها في الصحف، كرمز للمدنية والتحرر فيما يزعمون، فقاتلهم اللَّه أنىٰ يؤفكون.

ومن عقوبات السيئات أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة، فتزيل الحاصل وتمنع الواصل، فإن نعم اللَّه سبحانه ما حفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته؛ لأن ما عند اللَّه لا ينال إلا برضاه، فقد جعل اللَّه طاعته سببًا لجلب نعمه، وجعل معاصيه أسبابًا وآفات لمنعها أو محقها وإزالتها، ومن العجب أن العبد يعلم بذلك مشاهدة في نفسه وفي غيره، وسماعًا لأخبار من غاب عنه ممن سلب اللَّه نعمته بالمعاصي، وهو مقيم علىٰ معصية اللَّه كأنه مستثنىٰ من عقوبة اللَّه، أو له خاصية دون غيره، وهذا من مكر الشيطان وتجهيله وتغفيله، والتسويل له بالأماني الباطلة.

ومن عقوباتها أنها تستجلب أنواعًا من مواد هلاك العبد في دنياه وآخرته، وذلك لأن الذنوب هي أمراض القلوب، متىٰ استحكمت قتلت لا محالة، فكما أن الجسم لا يكون صحيحًا إلا بالغذاء الذي يحفظ قوته، واستفراغ المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة التي متىٰ غلبت عليه أمرضته، والامتناع عما يؤذي ويخشىٰ ضرره، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بالأغذية الروحية من الإيمان ومستلزماته من حب اللَّه وتعظيمه، والإكثار من ذكر اللَّه وتلاوة وحيه، ومداومة الطاعة التي يأنس بها ويطمئن، وتنقية أدرانه وتنظيف صدأ قلبه بالتوبة النصوح والاستغفار الصادق، فإن هذا له كالاستفراغات للبدن.

وكذلك اجتناب ما يضاد ذلك مما يفسد صحته، إذ لا تستقيم صحة القلب إلا بالتقوىٰ وبعمارته بذكر اللَّه ومحبته ومستلزماتها، ولا شك أن الذنوب مضادة لذلك، فهي تستجلب المواد المؤذية للقلب والتخليط الذي يظلمه، وتمنع استفراغ ذلك بالتوبة النصوح، وهنا يحل المرض فيه، فتفسد تصورات صاحبه، ويسوء سلوكه، فيكون الهلاك إليه أسرع

من اليد للفم؛ لأن العاصي إذا استمر علىٰ إصراره ختم اللَّه علىٰ قلبه وسمعه، وجعل علىٰ بصره غشاوة فيفقد صاحبه الوعي الروحي النافع له في الدارين.

ومن عقوباتها ما يحصل بسببها من إغفال القلب عن ذكر اللَّه، فحرمان القلب من ذكر اللَّه كحرمان السمك من الماء، يفقده الحياة حتمًا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ومن عقوباتها حصول الحيلولة بين المرء وقلبه بسبب عدم الطاعة كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ومن عقوبات السيئات أنها تنسي العبد نفسه، فيهمل مصالحها الحقيقية ويفسدها ويهلكها، وكثيرًا ما يتساءلون: كيف ينسىٰ الإنسان نفسه، وإذا نسيها فأي شيء يذكر؟ وما معنىٰ نسيان العبد نفسه؟ والجواب أن نسيانه نفسه شيء محقق بالنقل والعقل، فقد قال اللَّه سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر]، فلما نسوا اللَّه بترك أوامره، واجتراح معاصيه، والإعراض عن وحيه عاقبهم بعقوبتين:

أحدهما: أنه نسيهم كما أسلفنا تفصيله.

ثانيهما: أنه أنساهم أنفسهم، أي أنساهم حظوظهم العالية، وأسباب سعادتهم وصلاحهم وفلاحهم، فينسيهم اللَّه ذلك، ولا يخطر ببالهم ولا يذكرونه، فلا تنصرف إليه همتهم، وكذلك ينسيهم علاج قضاياهم، وينكس تفكيرهم في حل مشاكلهم، فيسعون بحلول غير مجدية، بل تزيدها تعقيدًا كما هي الحال المشاهدة، وينسيهم أمراض قلوبهم وأرواحهم، فيجعلهم يعتنون بأبدانهم غاية الاعتناء، ولا يعتنون بأمراضهم الروحية ولا يلقون لها بالًا، ولهذا تجد اليوم أكثر العرب مشحونة أوقاتهم باللهو والمجون وسائر أنواع الطرب، كأنهم الفائزون في الدنيا والمستعلون علىٰ أهل الأرض، وهم مطعونون في جسمهم من

كل جانب، واليهود قد انتزعوا منهم أغلىٰ بقعة، وأقاموا دولة علىٰ حسابهم في قلب أرضهم ومقدساتهم، ويعملون ـ أيضًا ـ علىٰ التوسع في باقي أراضيهم، وهم في طغيانهم يعمهون.

فيا عجبًا كيف يطرب المحزون وينهمك باللهو والمجون؟! إن العقل يوجب علىٰ المطعون أن يهتم بتضميد طعناته ويهتم ببرئها، ثم يسعىٰ جاهدًا للانتقام ممن طعنه، لا أن يكون في مثل هذه الحال الموبوءة المضحكة التي يسخر منها الأعداء، بل هي قرة عيونهم. ولكن الذين نسوا اللَّه فأنساهم أنفسهم نجدهم في هذه الحالة السخيفة، لم يحزن أحد منهم علىٰ احتلال اليهود للقدس وغيره كما حزنوا علىٰ موت بعض المغنين والمغنيات والراقصات والممثلات، فقد أحدثوا ضجة الاستياء والحزن علىٰ موت بعض المغنين والمغنيات الذين لا نحب ذكر أسمائهم تنزيهًا لهذا التفسير منها، والبعض انتحر من شدة الأسف علىٰ موت فلان الفنان، ولم يساورهم أي حزن ولا مبالاة علىٰ احتلال القدس وبقية فلسطين، وأقوىٰ الثغور والحصون التي خسرناها وربحتها دولة اليهود غنيمة باردة.

بل فرحوا بسلامة وعودة بعض الزعماء الذين اتخذوهم أربابًا من دون اللَّه إلىٰ الحكم علىٰ حساب ذلك كله، مع أن أي زعيم تكون الهزيمة النكراء والعار الشنيع من أسبابه وعلىٰ يديه لا يستحق أي تقدير، وإنما يستحق البغض واللعنة والإعدام، ولكن هذا من أكبر الدلائل علىٰ نسيانهم لأنفسهم، وعدم أكتراثهم بالمصائب والهزائم المبغضة المخزية في سبيل محبوباتهم وشهواتهم، وذلك لأنهم لما نسوا اللَّه أنساهم أنفسهم، وأي نسيان للنفس أوضح وأفضح من حال الناس اليوم، حيث يبيعون أكثر أوقات أعمارهم النفيسة الغالية أو جميعها للشيطان بِهذا اللعب واللهو الذي لا يحصلون منه علىٰ ثمن لها إلا هذا؟

إنهم لم يبيعوا أنفسهم بيعًا رخيصًا فقط، ولكنهم اشتروا بها عذاب الخزي في الدنيا، والنار في الآخرة، بل اشتروا ذلك بأموالهم وأنفسهم، فماذا أبقوا علىٰ عقولهم أو دينهم أو صالح أنفسهم في الحقيقة؟ إن الذي يرفض نفسه وماله لربه الرحمن الرحيم، ويبيعها لعدوه الشيطان الرجيم، لم يقم لها وزنًا ولا مثقال ذرة، فهو من أقبح أنواع الذين نسوا اللَّه فأنساهم أنفسهم ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٩٥]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]، وكيف يتبجح الإنسان بالوعي والحضارة والإنسانية، وهو يسلك الأخلاق والطبائع الحيوانية؟ وكيف ينتهك حرمات اللَّه ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته؟ وكيف يهون عليه حق اللَّه ولا يرضىٰ من أحد أن يتهاون بحقه أو ينتقص منه؟ أم كيف يستخف بأوامر اللَّه ولا يستخف به الخلق.

إن الذين نسوا اللَّه فأنساهم أنفسهم رفضوا المتاجرة الرابحة مع اللَّه، وتاجروا مع الشياطين بصفقة الغبن الخاسرة التي كلها غش ومكر وتدليس وتغرير، ومن أشنع سفاهتهم وأقبح تدليس الشياطين عليهم قولهم، كيف نبيع نقدًا بنسيئة، ونترك حاضرًا لغائب؟ وبِهذا الفكر الخاطئ والتلبيس الزائف تمتعوا بخسائس الأعمال بالحياة، وأذهبوا أوقاتهم النفيسة الغالية في اللعب واللهو فصارت للشيطان، فيقال لهم: إذا تساوىٰ النقد والنسيئة فالنقد خير منها، وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكبر وأفضل فهي خير من النقد العاجل. فكيف إذا تفاوتا تفاوتًا عظيمًا؟ بل كيف والدنيا كلها من أولها إلىٰ آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبَعه في اليمِّ فلينظر بم يرجع؟.

فإيثار هذا النقد علىٰ تلك النسيئة الكبرىٰ من أعظم الغبن وأقبح الجهل، لأن الرابح الناجح هو من تاجر مع اللَّه لينال هذه النسيئة العظيمة غير المحدودة بعمره القصير المحدود المجهول أمده مع عصره، لأنه كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلىٰ الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلىٰ الآخرة، فأيها أولىٰ بالعقل السليم: إيثار العاجل في هذه

المدة اليسيرة وحرمان الخير الدائم في الآخرة، أم ترك الشيء اليسير المنقطع قريبًا لنيل ما لا تقدر قيمته، ولا نهاية له، ولا غاية لأمده ونعيمه، ولا يخطر على البال، مع سلامته من المنغصات والإزعاجات والإرهاصات التي في نعيم الدنيا؟ هذا مع أن اللَّه أباح تناول الطيبات في الدنيا، ونَهَىٰ عن حرمان النفس وتعذيبها، فلم يحرم شيئًا من الطيبات.

ولأولياء الشيطان تعليل فاسد آخر هو قول بعضهم: لا أترك متيقنًا لمشكوك فيه: فيقال له: إما أن تكون علىٰ شك من وعد اللَّه ووعيده وصدق رسله، أو تكون علىٰ يقين من ذلك، فإن كنت علىٰ يقين فإنك ما تترك إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قريب لأمر متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له، وإن كنت علىٰ شك فتأمل آيات اللَّه الدالة علىٰ وجوده وقدرته ومشيئته، ووحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا عنه، وتجرد وقم للَّه ناظرًا أو مناظرًا حتىٰ يتبين لك أنه الحق الذي لا ريب فيه، وأن خالق هذه العوالم هو اللَّه الذي يتعالىٰ ويتقدس ويتنزه عن خلاف ما جاءت به رسله عنه، ويكفي الإنسان أن يتأمل حاله من بدء كونه نطفة إلىٰ حين كماله واستوائه، ليتبين له أن من عني به هذه العناية، ونقله إلىٰ هذه الأحوال، وصرفه في هذه الأطوار لا يليق به أن يهمله ويتركه سدىٰ لا يأمره ولا ينهاه، ولا يعرفه بحقوقه عليه، ولا يثيبه ولا يعاقبه.

ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره دليلًا علىٰ التوحيد والنبوة والمعاد، إذ يستحيل خلاف ذلك، ومن اعتقد باللَّه علىٰ خلاف ما أخبرت به رسله عنه فقد شتمه وكذبه وأنكر ألوهيته وربوبيته وملكه، إذ من المحال الممتنع عند كل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزًا أو جاهلًا، لا يسمع شيئًا ولا يبصر ولا يتكلم، ولا يأمر ولا ينهىٰ، ولا يثيب ولا يعاقب، ولا يعز من يشاء ولا يذل من يشاء، ولا يرسل رسله إلىٰ أطراف مملكته ونواحيها، ولا يعتني بأحوال رعيته، بل يخليهم هملًا، فهذا شيء قادح في ملك آحاد البشر، ولا يليق به، فكيف يجوز نسبة الملك الحق إليه؟

ومن عقوبات السيئات أنها تخرج صاحبها من دائرة الإيمان، فتحرمه رفقة المؤمنين ونيل حظوظهم ودرجاتهم في الدنيا والآخرة، فيكون محرومًا من دفاع اللَّه سبحانه؛ لأن اللَّه ﴿يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، ويكون محرومًا مما يحصلون عليه من الأجر العظيم، والرزق الكريم والدرجات العالية عند ربهم، كما قال ﷻ: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦]، وقال في الآية الثانية وما بعدها من سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال]، فحصر اللَّه معنىٰ الإيمان ومادته الأساسية في هذه الأوصاف الرئيسية التي إذا امتلأ بها القلب توقىٰ عن المعاصي وابتعد عنها، وصار مجانبًا لها غاية المجانبة، لأن الوجل من اللَّه يمنعه من اقتراف المعاصي، وزيادة الإيمان التي يحصل عليها باستماع وحي اللَّه تحثه علىٰ طاعته، فينشغل بها عما سواها، ويتاجر مع اللَّه بالأعمال الصالحة المتنوعة، رافضًا متاجرته مع أعداء اللَّه بسلوك الهوىٰ.

ويقيه التوكل علىٰ اللَّه من الأزمات النفسية الموقعة في المعاصي والشرور، كما يدفعه إلىٰ بذل الزكاة وما عليه من حقوق المال الأخرىٰ، ويكون مقيمًا للصلاة بما اكتسبه من الصفات الثلاثة، وإقامة الصلاة المرتكزة علىٰ هذه الأوصاف تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، ولهذا كانت للمؤمنين هذه الدرجات والفوز العظيم في الدار الآخرة ولهم في الدنيا استغفار الملائكة والدعاء لهم، ومن استغفرت لهم الملائكة كانوا مقبولين مرفوعين عند اللَّه، وسيأتي الكلام المفصل علىٰ آيات الأنفال بحول اللَّه وقوته، كما يأتي الكلام علىٰ غيرها.

وأما في الدنيا فإنهم ينالون دفاع اللَّه الكامل، وقد مضىٰ نص الآية بذلك، وينالون ولاية اللَّه الذي لا يذل من والاه، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد]، ولهذا يأمر اللَّه

ملائكته بتثبيتهم وإمدادهم، فيمدهم بهم ويثبت أقدامهم كما قال في الآية (١٢) من سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ فهذا وأمثاله مما جلبته ولاية اللَّه للمؤمنين، وانحرم منه العصاة.

ومما للمؤمنين في الدنيا العزة ومعية اللَّه التي بسببها تحف بهم جميع أنواع السعادة، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال في الآية (١٩) من سورة الأنفال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومنها الرفعة المطلقة في الدنيا والآخرة، كما قال ﷻ في الآية (١١) من سورة المجادلة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ ومنها مضاعفة أجورهم ومغفرة ذنوبهم إذا غلبوا علىٰ معصية، ومنحهم نورًا يمشون به في مسيرة حياتهم، يفرقون به بين الحق والباطل، كما قال في الآية (٢٨) من سورة الحديد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

ومنها حصولهم علىٰ محبة اللَّه التي بسببها تحبهم ملائكته وعباده الصالحون في جميع بقاع الأرض، وهذا هو الود الذي يخصهم اللَّه به، وذلك بقوله في الآية (٩٦) من سورة مريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾، ومنها أمانهم من الخوف يوم الفزع الأكبر كما قال سبحانه: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ومنها أن القرآن هداية لهم وشفاء لصدورهم، بخلاف غيرهم فهو علىٰ العكس، ومنها أنهم في رفقة النبيين والشهداء في الجنة إلىٰ غير ذلك من الخصائص التي يكون العصاة محرومين منها، وإذا كان الإيمان سببًا جالبًا لكل خير، بل كل خير في الدنيا والآخرة سببه الإيمان، فكيف يهون علىٰ العبد أن يرتكب شيئًا يخرجه من دائرة الإيمان، ويحرمه هذه الخصائص العظيمة الكريمة؟ هذا من أكبر الدلائل علىٰ نقصان عقول أهل المعاصي.

وقد رتب اللَّه سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول

الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب. قال ابن القيم: وهذا يزيد في القرآن على ألف موضع، فتارة يرتب الحكم الخبري الكوني، والأمر الشرعي على الوصف المناسب له كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨]، وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله سبحانه: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقوله: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، ونظائرها كثيرة.

وتارة يأتي بلام التعليل كقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وتارة يأتي بأداة «كي» التي للتعليل، كقوله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، وتارة يأتي بباء السببية كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، وتارة يأتي بالمفعول لأجله ظاهرًا أو محذوفًا كقوله: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]، أي كراهة أن تقولوا ذلك، وتارة يأتي بفاء السببية كقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ [الشمس: ١٤]، وقوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة]، وتارة يأتي بأداة «لما» الدالة على الجزاء كقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي لما أغضبونا أهلكناهم، وتارة يأتي «بأن» وما حملت فيه كقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، وتارة يأتي بأداة «لولا» الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها كقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات]، وتارة يأتي بأداة «لو» الدالة على الشرط كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير

والشر، وترتيب الأحكام الكونية والأمرية علىٰ الأسباب، ومن تفقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع، ولم يتكل علىٰ القدر جهلًا منه وعجزًا وتفريطًا، فيكون توكله عجزًا، وعجزه توكلًا، بل الفقيه كل الفقيه من يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه اللَّه وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهذا هو القدر المخوف في الدنيا وما يضاده، فرب الدارين واحد، وحكمته واحدة لا يناقض بعضها بعضًا. اهـ باختصار.

وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم علىٰ اختلاف أجناسها ومللها علىٰ أن التقرب إلىٰ رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلىٰ خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأن أضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، لكن ينبغي للمسلم أن يعرف تفاصيل أسباب الخير والشر بكل بصيرة من العلم والمشاهدات والتجارب، وأن لا يغالط الإنسان نفسه في هذه الأسباب، فإنه يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في الدارين، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال علىٰ عفو اللَّه ومغفرته تارة، والتسويف بالتوبة تارة، وبمجرد الاستغفار فقط باللسان تارة، وبفعل المندوبات تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة وبالاحتجاج بالأشباه والنظائر تارة، والاهتداء بالأكابر تارة وهكذا، فكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: استغفر اللَّه زال الذنب وراح هذا بِهذا، وبعضهم يعتمد علىٰ التسبيح ونحوه مائة مرة، لغفران ذنوبه اغترارًا بظاهر الحديث وتركًا لنص القرآن، وبعضهم يعتمد علىٰ سكناه في مكة وطوافه بالبيت، وبعضهم يعتمد علىٰ سكناه المدينة المنورة وزيارته القبر الشريف، وبعضهم يعتمد علىٰ سكنىٰ بلد فيها مقبور مقدس عنده ونحو ذلك.

وقسم كبير منهم يعتمد علىٰ قوله ﷺ: «**أذنب عبد ذنبًا فقال: أي رب أصبت ذنبًا فاغفر لي فغفر اللَّه ذنبه، ثم مكث ما شاء اللَّه ثم أذنب ذنبًا آخر فقال: أي رب أصبت ذنبًا فاغفر لي فغفر اللَّه له، ثم مكث ما شاء اللَّه فأذنب وقال ما قال، فقال اللَّه ﷻ: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي وليصنع ما شاء**»(١) وهذا الحديث مع أنه من أوسع أحاديث في الرجاء، فإنه لا يدل علىٰ مقصوده من مواصلة الذنوب والإصرار عليها، فإن موقفه لا يعدو كونه استخفافًا برب العالمين واستهانة بحدوده، ووضعًا للرجاء في غير موضعه، فإن الحديث يقص خبر العبد المخلص للَّه، الخائف مقامه وشدة عذابه، فإذا غلبته نفسه وسَورة شهوته وتأثير قرناء السوء علىٰ فعل معصية ذكر اللَّه فاستغفره خوفًا من غضبه وعقوبته فيغفر اللَّه له.

ثم إنه يمكث زمنًا محتفظًا بالطاعة مبتعدًا عن المعصية، وتساوره ملابسات تحمله علىٰ المعصية فيؤوب إلىٰ اللَّه ويستغفره فيغفر اللَّه له، ويجعله في عداد الأوابين الذين إذا أذنبوا رجعوا إلىٰ اللَّه في الحال، واستغفروا لذنوبهم ولم يصروا علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون، كشأن المواصل للذنوب أمثال هؤلاء المجادلين بِهذا الحديث ونحوه، تعلقًا بنصوص الرجاء واتكالًا عليها، وتركًا لنصوص الوعيد من غير الإتيان بأسباب الرجاء، وللجهال والمغرورين بتلبيس الشياطين عجائب وغرائب، وبعضهم متعلق بمسألة الجبر، وأن العبد لا فعل له بتاتًا ولا اختيار، وإنما هو مجبور علىٰ فعل المعاصي، ولكنه لا يرضىٰ بِهذه المسألة علىٰ نفسه لو اعتدىٰ عليه أحد، أو احتال عليه أو طمع بعرضه أو ماله محتجًا بالجبر، وبعضهم يغتر بمسألة الإرجاء، وأن الإيمان مجرد التصديق والأعمال ليست من الإيمان، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان الملائكة، وهذا من مذهب جهم الذي هو من تركيز

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

طالوت اليهودي حفيد ابن الأعصم وهو مذهب فاسد؛ لأنه يقتضي إيمان فرعون وجميع أعداء الرسل من قوم نوح إلىٰ أبي جهل وشيعته، لأنهم يعرفون اللَّه ولو لم يطيعوا رسله ولم يعملوا بأوامره قط، إذا كان الإيمان علىٰ ما قرروه من أنه المعرفة المجردة بأن اللَّه هو الخالق المدبر فقط، وهذا يلزم منه إيمان إبليس ومساواته مع جبريل، ومساواة إيمان أكفر الكفار بإيمان الخلفاء والصحابة الكرام ما دامت أعمال القلوب والجوارح لا تدخل في مسمىٰ الإيمان وماهيته، ولا شك أن القرآن أثبت أن الكفار يعترفون بأن اللَّه الخالق الرازق المدبر.

فهذا المذهب مخالف لما دل عليه وحي اللَّه وأجمع عليه سلف الأمة من أن الإيمان اسم لعقائد القلوب وأعمالها، ومن محبة اللَّه وتعظيمه وخوفه ورجائه، والإنابة إليه والتوكل عليه، والوجل من ذكره، وحب المصطفىٰ ﷺ وتعظيمه، وجعل الأولوية له في كل شيء كما أوجب اللَّه، وأن الإيمان اسم لأعمال الجوارح - أيضًا -، فيدخل في مسمىٰ الإيمان أركان الإسلام وشعب الإيمان من جميع الأعمال الصالحة وأعمال البر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلىٰ اللَّه والزحف برسالته في مشارق الأرض ومغاربها، والصبر علىٰ ذلك، وإقامة علم الجهاد في هذا السبيل، بل إن من أعظم مراتب الإيمان الحب في اللَّه والبغض في اللَّه، والموالاة في اللَّه، والمعاداة في اللَّه، والجهاد في سبيل اللَّه لإعلاء كلمته وقمع المفتري عليه، ومعاملة اللَّه أكبر من معاملة المحب لحبيبه من الصدق والإخلاص قولًا وعملًا واعتقادًا.

فهذا هو الإيمان الذي يدفع أهله إلىٰ طاعة اللَّه وابتغاء مرضاته، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر، ويكفهم عن مواصلة الذنوب، فاعتقاد الإرجاء مخالف لما أنزل علىٰ محمد ﷺ وما كان عليه هو وأصحابه والتابعون، وموافق لأغراض اليهود.

وبما ذكرناه يتضح مذهب السلف الصالح أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وأن المؤمن الفاسق ناقص الإيمان، فهو مؤمن

بما معه من أعمال القلب والجوارح الصالحة، وفاسق بما معه من المعاصي، تتجاذبه أوصاف الخير والشر، وله من الثواب وعليه من العقاب بحسب ما قام به واتصف به من أمور الإيمان، وإذا استمر علىٰ مواصلة المعاصي، وأصر عليها، خرج من الإيمان وبقي في دائرة الإسلام، وقد يكون علىٰ خطر من دينه إذا استمر علىٰ الإصرار، ويدخل في الكفر إذا استحل شيئًا مما حرمه اللَّه، فهذا ما دل عليه النقل ويؤيده العقل بخلاف مذاهب الجهمية تلاميذ اليهود.

ومن العصاة من يغتر بمحبة الفقراء والصالحين والمشايخ وكثرة التردد إلىٰ قبورهم والضراعة عندهم والتوسل بهم، والاستشفاع بهم وبحرمتهم، وقد تكلمنا علىٰ هذا في مباحث الشرك بما عساه يكفي، ومنهم من يتعلل بكرم اللَّه وغناه، وأنه غني عن تعذيب خلقه، وأنه كريم يعامل بالجود والإحسان، وينسىٰ أو يتناسىٰ أنه شديد العقاب، وأنها يغار علىٰ نعمه، وأن كرمه مقرون بعدله، فلا يمكن أن يساوي المؤمنين بالمجرمين كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية].

ومنهم من يتكل اغترارًا بقوله سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحىٰ]، ويقول برأيه الفاسد: أنه لا يرضىٰ أن يكون في النار أحد من أمته، وهذا من أقبح الجهل وأفظع الكذب علىٰ اللَّه ورسوله، فإنه ﷺ يرضىٰ بما يرضىٰ به ربه سبحانه، واللَّه يرضيه تعذيب الظلمة والفساق والخونة والمصرين علىٰ الذنوب، فحاشا رسوله أن يعاكسه في مرضاته ويرضىٰ ما لا يرضاه ربه سبحانه، ومنهم من يتكل علىٰ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذا ـ أيضًا ـ من أقبح الجهل وتحريف النصوص عن معانيها كما قرره ابن القيم وجميع المحققين، فإن الشرك داخل في هذه الآية، وهو رأس الذنوب كما جاء في أحاديث الكبائر، ولا خلاف أن هذه الآية هي في حق التائبين، فإن اللَّه يغفر ذنب كل تائب من أي ذنب كان،

ولا يغفر لغير التائب، وإنما يزداد غضبه عليه.

ولو كانت هذه الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها، وبطلت ـ أيضًا ـ أحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة، وإخراج بعضهم كالفحم بين الأحياء والأموات، فيطرحون في بعض أنهار الجنة حتىٰ ينبتوا بحياة جديدة، كما تنبت الحبة في حميل السيل كما صح الحديث بذلك.

ولينظر إلىٰ أدب الملائكة مع اللَّه وسؤالهم له ما يليق بجنابه من قولهم: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾، أي علىٰ الطاعات ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧] ولم يقولوا: اغفر للمذنبين.

ومن الغرور الذي يغتر به المطمئنون إلىٰ المعاصي صوم يوم عرفة، أو صوم يوم عاشوراء، لما وردت الآثار بأن صوم يوم عرفة كفارة سنتين، وصوم عاشوراء كفارة سنة، حتىٰ يقول بعضهم إن صوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقىٰ صوم يوم عرفة زيادة في الأجر، وقد نسىٰ المغرورون أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأفضل بكثير من صوم يومي عرفة وعاشوراء، وهي إنما تكفر ما بينها إذا اجتنبت الكبائر، فرمضان إلىٰ رمضان والجمعة إلىٰ الجمعة والمكتوبة إلىٰ المكتوبة لا يقويان علىٰ تكفير الذنوب الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إلىٰ هذه الأعمال الجليلة، فيقوىٰ مجموع الأمرين علىٰ تكفير الصغائر، وهذا له شاهد من القرآن: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾ [النساء].

فكيف يكفر صوم تطوع جميع الكبائر التي عملها العبد، وهو مصر عليها، غير تائب منها وماحيها بالأعمال الصالحة؟ هذا محال لمخالفته النصوص، فقد قال ﷺ في وصيته لمعاذ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»(١)، ولا شك أن الإصرار وترك التوبة مانع من تكفير الذنوب

(١) تقدم تخريجه.

في مواسم الرحمة، فإذا لم يحصل الإصرار علىٰ الكبائر تساعد الصومُ وعدمُ الإصرار وتعاون علىٰ عموم التكفير، كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين علىٰ تكفير الصغائر، وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوىٰ وأتم وأشمل.

ومن غرورهم اتكال بعضهم علىٰ الحديث القدسي: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي؛ فليظن بي ما شاء**»(١). يعني: ما كان في ظنه فأنا فاعله، وهذا غلط فاحش وقلة عرفان؛ لأن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه علىٰ إحسانه، وأنه لا يخلف وعده، بل يقبل توبته وإنابته.

وأما المسيء المصر علىٰ الظلم والكبائر والمخالفات، فإنه لابد أن تمنعه وحشة المعاصي من حسن الظن بربه، إذ لا يمكن أن يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا، كالجندي أو الطيار الخائن المنحاز إلىٰ عدو زعيمه بسلاحه وعلمه، فإنه لا يخالجه حسن الظن بزعيمه مع التمتع بعقله أبدًا، لأنه من محالات العقول.

فالطامعون بحسن الجزاء مع إصرارهم المعاصي قد بلورت الشياطين أدمغتهم وصادرت عقولهم الفطرية، ولا ريب أن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وإن أحسن الناس ظنًّا بربه هو أطوعهم له وأقومهم بحقه، وكيف يكون حسن الظن بربه من هو شارد عنه راتع في مساخطه، مستخف بجنابه العظيم بمخالفة أوامره وفعل نواهيه، متعرض للعناته، محب لما يبغضه من الأشخاص والأعمال، ومبغض لما يحبه منهما؟ هذا محال، ولكن هذا من غرور النفوس وخداع الأماني الشيطانية.

فإن حسن الظن لا ينفع إلا التائبين المقلعين عن المعاصي والمبدلين لها بالحسنات، فإن حسن الظن لا يكون إلا مع انعقاد أسباب النجاة، لا مع انعقاد أسباب الهلاك، وكلما أحسن العبد الظن بربه أحسن العمل،

---

(١) تقدم تخريجه.

وما عدا هذا فغرور، والغرور والأماني هي رءوس أموال المفاليس، أخرجتها الشياطين لهم في قالب الرجاء، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنىٰ علىٰ اللَّه الأماني**»(١). رواه الترمذي وأحمد في المسند.

ولا شك أن الرجاء الصحيح مصدره العمل الصالح كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨].

ومما ينبغي معرفته أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبته لما يرجوه.

وثانيها: خوفه من فواته.

وثالثها: سعيه في تحصيله غاية الإمكان.

وأما الرجاء الذي لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والأماني شيء والرجاء شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر علىٰ طريق مأموله إذا خاف من فواته أسرع السير، كما في جامع الترمذي عنه ﷺ أنه قال: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة اللَّه غالية، ألا إن سلعة اللَّه الجنة**»(٢) واللَّه سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لهم كما قال سبحانه في الآيات (٥٧/٦١) من سورة المؤمنون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وقد روىٰ الترمذي عن عائشة قالت: سألت النبي ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «**لا يا ابنة**

---

(١) رواه التِّرمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠).

(٢) رواه التِّرمذي (٢٤٥٠).

الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات»[١]. وقد روي ـ أيضًا ـ من طريق غيرها.

فقد أوضحنا الفرق بين حسن الظن والغرور، وأن حسن الظن إذا حمل صاحبه علىٰ العمل وحثه عليه وساقه إليه فهو صحيح، وإذا دعاه إلىٰ البطالة والانهماك في المعاصي والتفريط فهو غرور، وأن حسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه جاذبًا له إلىٰ الطاعة، زاجرًا له عن المعصية فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاء ورجاؤه بطالة وتفريطًا فهو المغرور.

ولو أن رجلًا يملك أرضًا صالحة للاستغلال فيتركها بدون أي عمارة، ويرجو غلتها مع إهمالها معتمدًا علىٰ حسن ظنه فإنه يعتبر من المخبولين، كمن يرجو ولدًا أو رزقًا بدون فعل سبب، فحقيقة الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة اللَّه في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه أن لا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة له إلىٰ ما ينفعه، وأن يصرفه ويقيه من فعل ما يحبطها، وما عدا هذا فباطل.

قال ابن القيم: وأما الأماني فهي رءوس أموال المفاليس، أخرجوها في قالب الرجاء، وتلك أمانيهم، وهي تصدر من قلب منته نفسه حسن العاقبة والنجاة، وأحالته علىٰ العفو والمغفرة، وأن الكريم لا يستوفي حقه، ولا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة ويسمي ذلك رجاء، وإنما هو وسواس وأماني باطلة، تقذف بها النفس إلىٰ القلب الجاهل، فيستريح إليها حتىٰ يظلم قلبه فيستعمله في شهواتها غرورًا بذلك، ولذا قال اللَّه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾.

فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك اللَّه ولايته ونصرته، ولم

(١) رواه التِّرمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨).

يجد له من دونه نصيرًا، وإذا ترك اللَّه ولايته ونصرته تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له ووكله إلىٰ نفسه فصار انتصاره لها بدلًا من نصرة اللَّه ورسوله، فاستبدل بولاية اللَّه ولاية نفسه وشيطانه، وبنصرة اللَّه نصرة نفسه وهواه، فلم يدع للرجاء موضعًا، فإذا قالت له النفس: أنا في مقام التوحيد، أنا في مقام الرجاء، وجب عليه مطالبتها بالبرهان ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فإن الكيس يعمل أعمال البر علىٰ الطمع والرجاء، أما الأحمق العاجز فيعطلها ويتكل علىٰ الأماني التي يسميها رجاء. انتهىٰ بتصرف وباللَّه التوفيق.

وكثير من الناس يلعب بهم الشيطان، فيجعلهم يعتمدون علىٰ رحمة اللَّه وسعة عفوه وكرمه، فيضيعون أمره ونَهيه، وينسون أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، قال العلماء: من اعتمد علىٰ العفو مع الإصرار علىٰ الذنب فهو كالمعاند، وقال بعض السلف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه هو من الخذلان والحمق، وقال بعضهم: من أوجب قطع عضو منك بثلاثة دراهم فلا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة أفظع من هذا.

قلت: إن كلامه هذا مرتكز علىٰ ختام اللَّه آيات الأحكام والحدود بالوعيد الشديد في الدار الآخرة.

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا واللَّه يا رب، ويؤتىٰ بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا واللَّه يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط**»[1] فانظر إلىٰ بديع تصويره ﷺ لشدة عذاب النار وبؤسها، كيف ينسىٰ صاحبها جميع ما تمتع به من نعيم

---

(١) رواه مسلم (٢٨٠٧).

الدنيا وسرورها بغمسة واحدة تجعله لا يعرف سواها، وعلىٰ العكس من هو أشد الناس بؤسًا وشقاء في الدنيا، تحليه السعادة إلىٰ أن ينسىٰ جميع ما ناله في الدنيا من المتاعب والآلام والأحزان بغمسة واحدة يصبغه اللَّه بها في الجنة، وهذا كتفسير منه ﷺ لتفاهة جميع ما في الدنيا بالنسبة إلىٰ الآخرة، وبعض المغترين بوساوس الشياطين يتكل علىٰ ما يهمه اللَّه من نعمه في الدنيا يحسب أنها من حب اللَّه له واعتنائه به كما قال اللَّه عن بعضهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر].

يقول اللَّه: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أمتحن هذا بالنعم وأكرم هذا بالابتلاء. وفي مسند الإمام أحمد عن عقبة ابن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا رأيت اللَّه ﷻ يعطي العبد من الدنيا علىٰ معاصيه ما يحب؛ فإنما هو استدراج**»، ثم تلا قوله ﷻ في الآية (٤٤) من الأنعام: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1]، وفي جامع الترمذي عنه ﷺ: «**إن اللَّه يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب**»[2].

وأعظم الناس غرورًا من اغتر بزخارف الدنيا وملذاتها العاجلة، فآثرها علىٰ الآخرة ورضي بها بديلًا عنها، وأطاع تلبيس عدوه الشيطان بقوله: «ذرَّة منقودة ولا درة موعودة»، فإن البهائم العجم أعقل من هؤلاء وأهدىٰ سبيلًا، فإن الشيء العاجل إذا كان حقيرًا أو جليلًا وفيه مضرة مستوعبة للحياة الطويلة، ومشقية لها أبد الآبدين لا يجوز للعاقل تناوله حتىٰ ولو

(١) رواه أحمد (٤/ ١٤٥).
(٢) رواه أحمد (١/ ٣٨٧).

لم يكن له في تركه أجر، بل يغتنم السلامة من مغبة شروره الدائمة، وأن البهيمة إذا خافت مضرة شيء أعرضت عنه ولم تقبل أكله ولا السير إليه حتىٰ ولو ضُربت، وهؤلاء يبادرون إلىٰ ما فيه عطبهم وهلاكهم، ويتقبلون تسويل الشيطان، ويعطلون عقولهم، فباللَّه أيهم والبهائم أهدىٰ سبيلًا؟!

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وههنا نقطة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فينسىٰ، ويظن العبد أنه لا يغبر بعد ذلك وأن الأمر كما قال القائل:

إذا لم يُغبِّر حائطٌ في سقوطِهِ   فليس له بعدَ السقوطِ غُبارُ

وسبحان اللَّه ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق؟ وكم أزالت من نعمة؟ وكم جلبت من نقمة؟ وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلًا عن الجهال! ولم يعلم المغتر أن الذنب يُنقض ولو بعد حين، كما ينقض الهمُّ، وكما يُنقض الجرح المندمل علىٰ الغش والدغل.

وقد روىٰ الإمام أحمد عن أبي الدرداء: اعبدوا اللَّه كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في الموتىٰ، واعلموا أن قليلًا يكفيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلىٰ وأن الإثم لا ينسىٰ.

قلت: ويروىٰ عنه ﷺ أنه قال: «**البر لا يبلىٰ، والذنب لا ينسىٰ، والديان لا يموت، فكن كما شئت**»[1] وقد عقد البخاري في صحيحه «باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر»، وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه»، وقال إبراهيم التيمي: «ما عرضت قولي علىٰ عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا».

فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا شك أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان علىٰ اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شرور وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي من

---

(١) رواه عبدالرزاق في «المصنَّف» (١١/١٧٨).

عهد آدم وحواء إلىٰ أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها، وما ترادفت الفتن الدامية الفاتكة علىٰ المسلمين إلا بسبب اشتهار المعاصي وظهورها مع أن الإصرار عليها ينشأ منه أضرار علىٰ العقيدة، وفساد في التصور، وذل في النفوس يؤدي إلىٰ التسلط من الحاكم علىٰ المحكوم، فيتغير مجرىٰ الحياة سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وعسكريًّا.

وقد أسلفنا ذكر خمسة وخمسين نوعًا من عقوبات المعاصي علىٰ سبيل الاختصار، وآخرها يتشعب إلىٰ كمال الستين، وكل واحد منها خطير، فما أسفه من يستعجل عقوبات اللَّه ويستبعد وقوعها إذا حصلت، وقد اقتضىٰ حلم اللَّه وحكمه أن لا يعاجل عباده بالعقوبة حتىٰ يمهلهم للتوبة، وقد يعجل عقوبته علىٰ بعض أفراد لقسوة قلوبهم أو فظاعة ذنوبهم.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أم سلمة قالت سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم اللَّه بعقاب من عنده**»، فقلت: يا رسول اللَّه أما فيهم يومئذ أناس صالحون؟ قال: «**بلىٰ**»، قلت: كيف يصنع بأولئك؟ قال: «**يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلىٰ مغفرة من اللَّه ورضوانه**»(١).

وقد صح في حديث الخسف أن الصالحين يبعثون علىٰ نياتهم، وهذا من كمال عدل اللَّه ولطفه، وقد صحت الأحاديث ـ أيضًا ـ أنه يمسخ قوم يبيتون علىٰ الخمور والمعازف، ولعل هذا بسبب استباحتهم لها، وفي مراسيل الحسن عن النبي ﷺ: «**لا تزال هذه الأمة تحت يد اللَّه وفي كنفه ما لم يمالئ قراؤها أمراءها، وما لم يزكِّ صلحاؤها فُجارها، وما لم يُهن شرارها خيارها، فإذا هم فعلوا ذلك رفع اللَّه يده عنهم، ثم سلط عليهم جبابرتهم، فيسومونهم سوء العذاب، ثم ضربهم اللَّه بالفاقة والفقر**»(٢).

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٩٤).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٤).

وفي جامع الترمذي عنه ﷺ: «**يخرج في آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلىٰ من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول اللَّه ﷻ: أبي تغترون؟ أم عليَّ تجترئون؟ فبي حلفت لأبعثن علىٰ أولئك، فتنة تدع الحليم منهم حيرانًا**»[(١)].

وقال ابن القيم: متسائلًا: فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غدًا إلىٰ بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة ويبيت ساهيًا غافلًا لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أهبته، قيل: هذا ـ لعمر اللَّه سؤال صحيح وارد علىٰ أكثر هذا الخلق، واجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء، وهذا التخلف له عدة أسباب:

أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها، وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتىٰ عيانًا بعد علمه بقدرة الرب علىٰ ذلك ليزداد طمأنينة، ويصير المعلوم غيبًا شهادة، وقد روىٰ أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[(٢)]، فإذا اجتمع إلىٰ ضعف العلم عدم استحضاره، أو غيبته عن القلب كثيرًا من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلىٰ ذلك تقاضي الطبع، وغلبات الهوىٰ، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورخص التأويل، وإلف العوائد فهناك لا يمسك الإيمان في القلب إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا.

وبِهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال حتىٰ ينتهي إلىٰ أدنىٰ مثقال ذرة في القلب، وجماع هذه الأسباب يرجع إلىٰ ضعف

(١) رواه التِّرمذي (٢٤٠٤).
(٢) رواه أحمد (١/ ٢١٥).

البصيرة والصبر، ولهذا مدح اللَّه سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة في الدين، فقال في الآية (٢٤) من سورة السجدة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ انتهىٰ.

وأقول: إن السبب الأكبر في ذلك هو كون إيمان أكثر الناس بالغيب إيمانًا سطحيًّا لا يوقظهم من الغفلة، ولا يحرك مشاعرهم نحو الآخرة، ولا يردعهم عن المخالفات، لأن ذلك لا يحصل إلا باستشعار مشاهد يوم القيامة علىٰ الدوام، أو في كل مناسبة، إذ من واجب المسلم المؤمن بالغيب أن يستشعر مشاهد يوم القيامة وأهوالها في كل ركعة من ركعات صلاته، فكلما وقف واضعًا يديه علىٰ صدره وقفة ذل بين يدي عزيز، تذكر قيام الناس لرب العالمين حفاة عراة غُرلًا، وكلما سجد تذكَّر سجود سيد الخلق ﷺ للشفاعة في أهل الموقف، وكلما أصابه الحر تذكر العرق الذي يلجم أهل الموقف إلجامًا، وتذكر الحرور الذي يصيب أهل النار، وكلما أصابه البرد تذكر زمهرير جهنم عياذًا باللَّه منها، وكلما سار إلىٰ شيء حاسب نفسه علىٰ هذه المسيرة، هل هي تقربه إلىٰ اللَّه والجنة، أو تبعده من اللَّه وتقربه إلىٰ النار، وكلما عبر جسرًا من الجسور والقناطر تذكر جسر جهنم الممدود علىٰ متنها، والذي لا يعبر بالأرجل ولا بشيء من وسائل النقل، وإنما يعبر بالأعمال الصالحة والمقاصد الحسنة، لأنه أدقُّ من الشعر وأحدُّ من السيف، فيحرص علىٰ المزيد من الطاعة التي يعبر بها.

وإذا جلس يأكل تذكر مطاعم الجنة مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وطعام أهل النار من الضريع والزقوم طعام الأثيم، وإذا أراد الشرب تذكر مشروبات أهل الجنة من الأنهار الأربعة، وشراب أهل النار من الصديد والحميم الذي يشوي الوجوه، وإذا أوقد النار للحاجة تذكر نار جهنم التي تزيد علىٰ نار الدنيا بتسعة وستين ضعفًا، وهكذا يتذكر الدار الآخرة في كل مناسبة، ويستشعر أهوال يوم القيامة ومشاهدها العظام، ليحسن سلوكه بدوام اليقظة وعدم الغفلة، وأن يجعل الموت

علىٰ باله فيستعد لما يلاقيه بعده، فإنه لا يدري في أي لحظة يموت، وقد قال ﷺ: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات، ومفرق الجماعات**» الموت[١]، وبدون فعل ما ذكرناه يحصل ما قاله ابن القيم من الجواب علىٰ تساؤله رَحِمَهُ اللَّهُ ولا تسطيل ما ذكرناه أيها القارئ والسامع، فإنه من أعظم المهمات والفوائد التي لا تجدها مجموعة في كتاب واحد، فيسر اللَّه سبحانه لنا جمعها في هذا التفسير المبارك.

إن أكثر ما تغزو به الشياطين بني آدم من الجانب العاطفي، وتعمي قلوبهم ببريق الشهوة، وإلا فكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاق اللَّه، وأن اللَّه يسمع كلامه، ويرىٰ مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفىٰ عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه، ومسئول عن كل ما عمل، وهو مقيم علىٰ معاصيه ومساخطه، ومعطل لحقوقه، ومع هذا يحسن الظن به ويغالط برجاء رحمته، ورحمته قريب من المحسنين لا من الفاسقين، فهذه حالة لا تسلكها البهائم؛ لأنها إذا عرفت ما يضرها أعرضت عنه!

وفي «حلية الأولياء» عن ابن عباس أنه قال: يا صاحب الذنب لا تأمن فتنة الذنب وسوء عاقبته، ولتتبعك الذنب أعظم من الذنب إذا عملته، وقلة حيائك ممن علىٰ اليمين والشمال من الملائكة وأنت علىٰ الذنب أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لم تدر ما اللَّه صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم، وحزنك عليه إذا فاتك أعظم، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت علىٰ الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر اللَّه إليك أعظم من الذنب.

وقد سبق الكلام علىٰ السكر المعنوي في تفسير: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وأنه أفظع وأنكىٰ من السكر الحسي، لأن صاحبه يفيق، وصاحب السكر المعنوي لا يفيق منه، ولهذا يجري منه الإقدام علىٰ

---

(١) رواه التِّرمذي (٢٣٠٧).

معاصي اللَّه والإصرار عليها والافتتان بها، كأنه فاقد القلب والبصيرة والعقل والحياء وجميع الصفات الطيبة؛ لأن سكرات العشق والشهوات والهوىٰ، وحب الدنيا والرئاسة وجميع أنواع الأنانية مسيطرة علىٰ القلب، وقاضية علىٰ كل عقل وتفكير، وقد ينضم إلىٰ ذلك السكر الحسي فتزداد المصيبة تعقيدًا.

وبما ذكرناه يتضح مدلول الآية من أن المعاصي تحيق بصاحبها، وينال جزاءه من اللَّه عليها حسب سنته، فإن القاعدة الأساسية في ميزان اللَّه وعدله أن كل نفس بما كسبت رهينة، وأن اللَّه لا يحابي أحدًا علىٰ جريمة، ولا يأخذ أحدًا بجريمة غيره، ولا ينجو المسيء من عقوبات خطاياه إلا بالتوبة النصوح.

ففي هذه الآية التي نحن بصددها نص صريح علىٰ وحدة القاعدة في ميزان اللَّه، وأنه يجزي المسيء بالإساءة من العقوبات الشرعية أو القدرية التي أسلفنا قسمًا منها، وأنه لا يفلت أحد من جريرة إساءته: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ أي لا يجد قريبًا ينفعه من الجزاء المحتوم، ولا وليًّا من المقدسين عنده يحميه من ذلك بالشفاعة التي يتعلق بها المبطلون والمخدوعون؛ لأن الشفاعة لا تكون إلا بإذن اللَّه ورضاه، وكذلك لا يجد نصيرًا يقيه من عقوبة اللَّه أبدًا.

فختام الآية نكرة في سياق النفي، تَعُم قطع النفع والشفع، وتبطل جميع الأماني التي نفاها اللَّه، ويئس منها جميع الأمم والطبقات، وأن عدله سبحانه يرفض المحسوبيات جميعها، ولا يقيم الموازين عنده سوىٰ الإخلاص له والصدق معه، فإن بهما يحصل الفوز العظيم.

📖 وقوله سبحانه في الآية (١٢٤): ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾:

في هذه الآية الكريمة مزيد إيضاح للقاعدة الكلية في دين اللَّه

وحسابه وميزانه الذي لا يظلم أحدًا ولا يحابي أحدًا، وأن للجزاء سنة لا تتخلف، وأصلاً ثابتًا لا يتحول أبدًا من أجل شخص أو نوع أو لون، أو وصف خاص، كثروة أو شجاعة أو كرم أو سلطان ونحو ذلك، مما يتغير به الوزن والنظر عند البشر، بل القاعدة الأساسية في ميزان اللَّه وعدله الكامل الشامل أن جميع أقدام البشر متساوية في حكم اللَّه علىٰ الأعمال من خير وشر، فلا أحد يمت إلىٰ اللَّه بنسب ولا قرابة، وليس لأحد عنده ميزة خاصة يعطل من أجلها الميزان ميزان العدالة، بل كل من يعمل سوءًا يلق جزاءه العاجل والآجل حسبما اقتضته سنة اللَّه وحكمته كما أوضحنا ذلك بإسهاب ﴿و﴾ كل ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ يلق الجزاء عليه من اللَّه في الدنيا والآخرة جزاء، وإن تفاوتت درجاته في الدنيا، أما الآخرة فإن العاقبة الحسنىٰ لأولئك أنهم: ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ والنقير هو النقرة في ظهر نواة التمر تنبت فيه النخلة، وفي هذه الآية الكريمة مسائل:

أحدها: أنه قرأ عبداللَّه بن كثير وأبو بكر بن أبي عياش عن عاصم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء علىٰ الفعل الذي لم يُسم فاعله، وكذلك قرءوها في الآية (٦٠) من سورة مريم، والآية (٤٠) من سورة غافر، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء في هذه السور جميعًا، علىٰ أن الدخول مضاف إليهم، وكلاهما قراءة حسنة، ولكن الأولىٰ أحسن؛ لأنها أفخم وتدل علىٰ مثيب أدخلهم الجنة، وهو اللَّه سبحانه، كما هي موافقة لقوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾، وأما القراءة الثانية المثبتة في المصاحف علىٰ قراءة حفص فهي مطابقة لقوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖ﴾ [ق: ٣٤] ولا توافق نظم هذه الآية واللَّه أعلم.

ثانيها: في الفرق بين حرف «من» الأول، وحرف «من» الثاني، قالوا: الأول وهو قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنه للتبعيض،

والمراد من يعمل بعض الصالحات؛ لأنه لا يقدر أحد علىٰ عمل جميعها، بل المراد أنه إذا عمل بعضها، حال كونه مؤمنًا استحق الثواب، وذلك أنه حسب وسعه وطاقته وما يلزمه فعله، وكم من مكلف لا تلزمه زكاة ونحوها، ولا يلزمه حج ولا جهاد، وكم من مكلف تسقط عنه الصلاة في بعض المذاهب، أو تسقط عنه إقامتها علىٰ الوجه الكامل فتنقص أعدادها أو هيئاتها كما هو مقرر في موضعه عند العلماء، ويجب أن لا يلتفت إلىٰ قول من زعم أن حرف «من» هنا زائدة؛ لأن زيادة «من» في الشرط ضعيف، وخصوصًا إذا كان ما بعدها معرفًا بأداة التعريف كما كان هنا ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وأما «من» الثانية في قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ هي لتبيين الإبهام وإيضاح الإجمال، وعدم اختصاص الجزاء بنوع دون نوع.

ثالثها: النص علىٰ النساء في هذه الآية هو للتشجيع وتطييب الخواطر، فقد ورد الأثر في قوله سبحانه: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ [آل عمران: ١٩٥] أن سبب نزولها هو أن «أم سلمة» قالت: يا رسول اللَّه قد ذكر اللَّه الرجال في الهجرة ولم يذكر النساء في شيء من ذلك، فنزلت ونزل آيات في معناها فيها ذكر للنساء مما أزال اللَّه به الإشكال، خصوصًا في قوله: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، يعني أن مجمع ذكوركم وإناثكم أصل واحد، الإناث من الذكور والذكور من الإناث، فكما أنكم مشتركون في الأصل، فكذلك أنتم مشتركون في الأجر وقبول العمل، فإنه سبحانه يشير بذلك الاشتراك الأصلي إلىٰ الاشتراك في الأجر علىٰ حد واحد.

فالنساء تشترك مع الرجال فيما وعد اللَّه به عباده العاملين من الثواب، وفيما أوعدهم عليه من العقاب، ويشملهن معنىٰ العموم في جميع الأحكام، إلا ما ورد استثناؤهن منها كوجوب الهجرة الذي يسقط عنهن بالنص، وكسقوط الحج علىٰ عادمة المحرم ونحو ذلك، فعمومات النصوص يشملهن، وإنما جرىٰ التخصيص بذكر الإناث إكرامًا لشرف

الإيمان، وفيه إفادة، وهي رفعة شأن النساء المحتقرات في الجاهليات الأولىٰ، والتي عاصر بعضها المسلمون الأوائل، والتي لا تزال لها رواسب حتىٰ الآن مما قابلها ردود فعل قبيحة من المتفرنجين، فالمرأة أخت الرجل وقرينته وأم أولاده، لا يجوز حرمانها أي شيء من معاني الإنسانية، ولا النظرة إليها نظرة حيوانية، وأما الذي ورد في الأحاديث من نقص عقلها واعوجاجها، فإنما هو للوصية بها ورحمتها والاستعطاف عليها كما هو مشهور.

رابعها: أن هذه الآية الكريمة من أقوىٰ الدلائل علىٰ أن أصحاب الكبائر لا يبقون مخلدين في النار، بل يعذبون فيها تطهيرًا لهم من ذنوبهم التي لم يحصل لها تكفير ثم يخرجون منها إلىٰ الجنة كما صحت بذلك الأحاديث مما قدمنا بعضها؛ لأنه ينفعهم أصل الإيمان، فكيف إذا انضم إليه أعمال صالحة أخرىٰ؟ فقد صحت أحاديث الوعيد بدخول المسيئين النار ممن لم تَقو حسناتهم علىٰ تكفير سيئاتهم، وصرحت نصوص الوعد بدخول المؤمنين الجنة، وأن الإيمان سينفعهم يومًا ما، وهذا يدل علىٰ أنهم يخرجون من النار بعد تطهيرهم من خبث الذنوب، لا أنهم يدخلون الجنة ثم يخرجون منها إلىٰ النار، فهذا محال مخالف للقرآن القائل: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

خامسها: في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قاعدتان عظيمتان من قواعد الدين وأسس العقيدة الإسلامية التي هي ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أحدها: أن الإيمان شرط في الانتفاع بالعمل، فقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ جملة حالية قيد اللَّه فيها عمل الإنسان بالإيمان، فلا تنفعه الأعمال مهما كثرت وصلحت حتىٰ تكون منبعثة عن الإيمان ونابعة منه بصدق مع اللَّه وإخلاص للَّه، وإلا فليس لها جدوىٰ ولا منفعة، وعلىٰ هذا كانت فائدة الأعمال منحصرة بحسن النيات، وقصر المقاصد منها لرب العالمين، وهذا لا يحصل بدون الأساس الذي هو الإيمان، ومما روي في قصة نجاة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من النار المؤججة أن النمرود

جاء ينظر إلىٰ ما عملت النار بجسد إبراهيم عليه السلام، فلما رآه علىٰ أحسن حال وأبْهجها، واستعظم أمر نجاته وحسن مصيره قال له: إن ربك عظيم كريم وإني أريد أن أقرب إليه قربانًا، فقال له إبراهيم: لا ينفعك القربان إلا بعد الإيمان الصحيح به.

ثانيها: أن الأعمال من الإيمان، وهي مدد له روافد، وأنه يزيد بزيادة الطاعات والاستقامة عليها، وينقص بالمعاصي حتىٰ يتلاشىٰ بالإصرار عليها، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا لمذهب المرجئة الذي هو من فروع المذاهب الجهمية اليهودية كما أسلفنا ذلك، وقد تكاثرت النصوص من الكتاب والسنة علىٰ اقتران الأعمال الصالحة بالإيمان واستلزامه لها بما يصعب ذكره، ولكن أحيل القارئ علىٰ كتاب «الإيمان» للشيخ ابن تيمية ليجد فيه البراهين القاطعة.

هذا وإن أكثر الآيات يقدم فيها الإيمان علىٰ العمل، لورودها في سياق بيان أصل الدين ومحاجة الكافرين، والإيمان في هذا المقام هو الأصل المقدم، وأما الأعمال فهي أثره ومدده.

سادسها: قد يقال: كيف خص اللّه الصالحين بأنهم لا يظلمون فتيلًا، مع أنه لا يظلم غيرهم، كما قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]؟ والجواب من وجوه:

أحدها: أنه وإن كان الظاهر من قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أنه يعود إلىٰ أقرب مذكور وهم المؤمنون، لكنه يكون حكم الكفار كذلك؛ لأن ذكر أحد الفريقين يدل علىٰ الآخر، إذ كلاهما يجزىٰ بعمله.

وثانيها: أن كل ما لا ينقص في الثواب كان بأن لا يزيد في العقاب أولىٰ، فهذا شيء مستقر في العقول.

وثالثها: أن ظلم المسيء هو الزيادة في عقابه، ومعلوم أن اللّه سبحانه لا يزيد في عقاب المجرم ولا مثقال ذرة، فكان ذكره مستغنىٰ عنه هنا.

ورابعها: أن عامل الصالحات له ثواب وتوابع للثواب من المضاعفات

المتفاوتة بحسب مواقع الأعمال ومنفعتها تفضلًا من اللَّه، ليرفع المؤمنين إليه درجات، وبما أن فضل اللَّه هو في حكم ثوابه فإنه يجوز أن ينقص من الفضل، فلذلك نفىٰ اللَّه النقص ليدل علىٰ أنه لا يقع نقص علىٰ عاملي الصالحات حتىٰ في الفضل المزيد من اللَّه ﷻ.

هذا ويحتمل أن يعود الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ إلىٰ الفريق عامل السوء وعامل الصالحات، مع أن أحدهما يدل علىٰ الآخرة بطريق الأولىٰ كما ذكرناه.

سابعها: لا يعارض هذه الآية وما في معناها حديث: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**»، قيل: ولا أنت يا رسول اللَّه؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني اللَّه برحمته**»؛ لأن المقصود منه نفي الإدلاء علىٰ اللَّه بالعمل والاعتماد عليه كمعاوضة للجنة، فالعمل سبب، والسبب لا يحصل من وجوده وجود، ولا عدم لذاته كما هو معروف، فلا ينفع إلا بمؤثر خارجي وهو هنا رحمة اللَّه سبحانه، وأيضًا فإن العمل لا يصلح بنفسه ثمنًا للجنة؛ لأن الإنسان مهما عمل من الصالحات لا يستحق علىٰ عمله تلك الجنة العظيمة التي فيها جميع ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وفيها من صنوف البهجة والنعيم المقيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر إلا بفضل اللَّه ورحمته، وأيضًا فإن أعمال العبد مهما صلحت وكثرت لا تقابل نعمة واحدة من نعم اللَّه عليه، وقال ابن القيم: إن الباء المنفية هي باء التعويض لا باء السببية واللَّه أعلم.

ثامنها: قدم اللَّه ذكر العمل هنا علىٰ ذكر الإيمان، لأن السياق في خطاب قوم مؤمنين باللَّه وملائكته وكتبه ورسله، ولكنهم قصروا في الأعمال واغتروا بالأماني ظانين أن مجرد الانتساب إلىٰ أولئك الرسل والإيمان بهم هو الذي يجعلهم في جنة اللَّه وينجيهم من عذابه، وإلا فأكثر الآيات يقدم فيها ذكر الإيمان علىٰ ذكر الأعمال لورودها في سياق أصل الدين ومقارعة الكفار، فالإيمان هو الأصل الذي يبنىٰ عليه السلوك، وتنبثق منه التصورات، ولا ينفع بدونه عمل بتاتًا كما قال

سبحانه في الآيات [١٠٩، ١١٠] من سورة التوبة ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾، وقد أتىٰ اللَّه بِهذه الآيات بعد قصة مسجد الضرار والنهي عن الصلاة فيه.

وهذا وإن في هاتين الآيتين اللتين تكلمنا عليهما كلامًا طويلًا من الإيقاظ والتنبيه ما يدك صروح الأماني ومعاقل الغرور التي يأوي إليه الكسالىٰ والمخدوعون بالمذاهب الباطلة والآراء الزائفة، ممن جعل الإسلام مجرد انتساب، وهو سالك مسالك الكفر في معتقده وسلوكه ويفرض طريقته علىٰ اللَّه، فيريد أن يفضله علىٰ اليهود والنصارىٰ وغيرهم، كأن كفره محبوب للَّه دون كفر أولئك، ويستنكر إذا انتصر بعض الكفار أو تسلطوا علىٰ المحسوبين علىٰ الإسلام بشهادة الميلاد والأماني الفارغة. بل إن بعضهم يفرض علىٰ اللَّه أن ينصره علىٰ أولئك وهو يعلن التشكيك بوجود اللَّه، أو التشكيك ببعض صفاته وأسمائه، فمتىٰ ينتبه المسلمون من رقدتهم الشيطانية، ويرتفعون بأنفسهم عن مهاوي الشياطين و مزابلهم؟

بل إن الغرور والتصورات الباطلة جعلتهم في عصرنا يفرضون عروبتهم علىٰ اللَّه، تلك العروبة المتفرنجة المتمركسة التي يكمن فيها الخواء الروحي، وتكثر فيها أنواع من الإلحاد والفسق والفجور المباح من الرؤساء والمحمي منهم، بحيث أصبحت عروبتهم يرفضها أمثال أبي جهل وأبي لهب ونحوهم من العرب الأقحاح الصرحاء، ومع هذا يريدون أن يجعل اللَّه لهم ميزة علىٰ الإسرائيليين، كأن اللَّه يحابي ويفضل الكفر العربي أو الهندي أو الأعجمي ونحوه علىٰ الكفر الإسرائيلي، ولا يرون أن معاملتهم لوحي اللَّه أفظع وأشنع من معاملة الإسرائيليين للتوراة وأقوال أنبيائهم، وهم يبصرون الأمر علىٰ العكس، ويرون أن دولة إسرائيل قائمة علىٰ الدين وسائرة علىٰ بعض تعاليمه،

وعندهم من الاعتناء بتربية أولادهم الدينية ما ليس عند أدعياء العروبة والإسلام، فكيف يطلبون من اللَّه المخالف لقضائه الكوني والشرعي؟ أيريدون أن يبدل اللَّه سنته الكونية والشرعية ويخلف وعده ووعيده، ويبدل كلماته وينكس عدالته رأسًا علىٰ عقب من أجل سواد عيونهم أو مزاعمهم الكاذبة؟

إن القرآن الكريم بمواعظه الجليلة العظيمة لم يترك شيئًا مما يحتاج إليه البشر في حياتهم وسعادة بقائهم وضمانه إلا أرشد إليه وحث علىٰ التمسك به، وخصوصًا مطابقة القول للعمل وحدوده علىٰ أصلح وجه وأصدقه وأخلصه، كقوله سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف]، وقال في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات]، وذلك بعد قوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦﴾ [السجدة].

ومثل هذه الآيات الدالة علىٰ حصر معاني الإيمان بهذه الأوصاف قوله في الآية الثانية والثالثة والرابعة من سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأين المسلمون من هذا؟ وقد قص اللَّه علينا خبر من أهلكهم بذنوبهم للاعتبار، وتحدىٰ المعرضين بأن ليس لهم أمان من عذابه فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧﴾ [الصافات]، وقال: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠﴾ [القلم]، ولا نجاة للمسلمين حتىٰ يقيموا القرآن بالتطبيق العملي، وكفاهم ما أصابهم من أنواع الخزي والويلات وتسلط الأعداء، وإلا فليترقبوا المزيد، هذا وينبغي الرجوع إلىٰ ما قاله

الغزالي في الجزء الثالث من «الإحياء» عن أنواع الغرور، فإني لا أحب الإطالة بذكره فأشير إليه للانتفاع.

وقوله ﷻ في الآية (١٢٥): ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾:

هذا استفهام يُقصد منه النفي بجميع معانيه ومبانيه، أي: لا أحد أحسن دينًا يُدان به في الأرض ممن أسلم قلبه للَّه وجعله خالصًا للَّه طاهرًا مما سواه، متسلحًا بجميع مرادات اللَّه الشرعية، وباذلًا في سبيل تنفيذها نفسه وكل عزيز عليه، متبعًا بذلك ملة أبيه إبراهيم في الإسلام، إبراهيم الذي وصفه اللَّه بأنه حنيف واتخذه خليلًا لتحقيقه الحنيفية بانحرافه عن كل طريقة من الطرائق الوثنية، وانحرافه عن جميع مرادات نفسه ومحبوباتها في سبيل مرادات اللَّه ومحبوباته كما أسلفنا بعض التفصيل لذلك.

فملته هي أحسن الملل عند اللَّه وأرضاها للَّه، بل هي الملة الوحيدة المقبولة عند اللَّه لا يقبل سواها، فمن تنكب عنها خسر جميع أعماله وكل حياته كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، وعبر اللَّه عن توجه القلب بإسلام الوجه؛ لأنه أشرف الأعضاء؛ ولأن فيه أشرف الحواس وأهمها، ولأنه أعظم مظهر لما في النفس من الإقبال والإعراض، والخشوع والخضوع، والسرور والكآبة وغير ذلك، إذ قد يُظهر بعض الناس الخضوع أو الاحترام تصنعًا أو بإشارة إليه، ولكن هذا يكون تكلفًا وتعملًا ومداهنة، ولكن ما يظهر في الوجه من علامات المحبة والسرور وصدق الخضوع هو الشيء الفطري الذي يدل علىٰ السريرة، وهو يتمثل في كل جزء منه، كالجبهة والعينين والحاجبين والأنف والشفتين، وتغير رونق الوجه مما يعبر عنه بأسارير الوجه، ولا تكاد تخفىٰ سريرة

صاحبه للمتوسمين البارعين.

فلهذا عبر اللَّه بالوجه عن القلب؛ لأنه كالمرآة في غالب الأحوال، ويُراد بالوجه - أيضًا - جميع البدن كقول الرجل للرجل: «سلامة وجهك» أي سلامة ذاتك، وكقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وملة إبراهيم هي العروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها؛ لأنها تربط صاحبها باللَّه وبجميع عباده المؤمنين في جميع ربوع الأرض علىٰ أساس حب اللَّه ورسوله، وتقطع صلته بأعداء اللَّه المخالفين لدينه الإسلام ولو كانوا أقرب قريب في النسب، وتجعله ينابذهم ويخالفهم في كل ما يخالف الدين، ولا يلتقي معهم في أي اتجاه علىٰ حساب الدين، فضلًا عن أن يتلقىٰ منهم أو يشابههم في الأخلاق والتقاليد والعياذ باللَّه، كشأن العصريين الذين نسوا حظًا مما ذكروا به.

فقد أخبرنا اللَّه عن طريق خليله إبراهيم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف]. وكذلك في الآيات (٧٥، ٨٩) من سورة الشعراء، وقال في الآية (٤٨) من سورة مريم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم]، فأعلن برأته من الشرك واعتزال أهله، وبهذا حقق الملة الإسلامية الحنيفية في الولاء والبراء المرتكزين علىٰ الحب في اللَّه والبغض في اللَّه، والموالاة في اللَّه والمعاداة في اللَّه الذي هو قاعدة التوحيد وأساسه الرصين، فإنه لا مودة في دين اللَّه لأعدائه، ولا مخالطة لهم علىٰ حسابه بالمداهنة والتميع، فقد قال اللَّه سبحانه عن أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف].

وهذا ليس فيه تزمت ولا تحجر كما يزعمه المغرضون ضد الإسلام، وكما يزعمه المنخدعون بهم من المتميعين الذين خف عندهم وزن الدين، وتلاشىٰ تعظيم اللَّه وحبه من قلوبهم، فإن قوة المسلم المؤمن

في دينه، وصلابته في عقيدته، لا يجوز بأي حال من الأحوال أن تسمىٰ تزمتًا أو تحجرًا كما يزعمه الغشاشون العاملون علىٰ تميعه وإذابته وسط الكفر، ثم تضييعه في الحياة؛ لأن تلك القوة والصلابة للَّه لا شريك له، وليس للأغراض النفسية والمقاصد السياسية.

ولهذا لا تجد عند المسلم المؤمن تفريقًا بين ملة وملة من ملل الكفر أو نحلهم؛ لأن الكل منها لا يرضاه اللَّه، وجميع أهلها مفترون علىٰ اللَّه، ومنتقصون لجنابه العظيم بدعواهم أن له ولدًا، أو اعتقادهم حلوله في بعض خلقه أو كل خلقه، كقولهم باتحاد اللاهوت بالناسوت، أو تشبيههم للَّه بالظَّلمة الجهلة من خلقه، كاعتقاد الوثنيين وغلاة القبوريين في التوسل والوسيلة من جعلهم الوسائط شفعاء لهم عند اللَّه، كأنه جاهل بأحوال خلقه وأسرارهم، يحتاج إلىٰ معرف يعرفه بحقيقة المحسن والمسيئ ونواياه، أو ظالم ـ تعالىٰ اللَّه يحابي من له وسيط فيسقط عنه العقوبة أو يدخله الجنة بغير عمل وإخلاص، وينتقم ممن لا واسطة له فيدخله النار ويمنعه من الجنة، هؤلاء الذين يكون عفوهم وعقوبتهم مرتكزًا علىٰ الوسائط والمعرِّفين بالناس هم الظلمة الجهلة من حكامهم، يتعالىٰ اللَّه عنهم علوًّا كبيرًا، ومن الافتراء علىٰ اللَّه الابتداع في الدين بالزيادة فيه أو النقص منه، أو فعل ما لم يأمر به الرسول ﷺ ولم يفعله خلفاؤه الراشدون، أو التحريف لآيات اللَّه بالتأويلات الفاسدة الصارفة لها عن حقيقتها إلىٰ المجاز، أو المبطلة لظواهرها بتأويلات باطنية ما أنزل اللَّه بها من سلطان.

فجميع أهل هذه الملل والنحل مفترون علىٰ اللَّه، يجب علىٰ المسلم بغضهم والبراءة منهم واعتزالهم إذا لم يقدر علىٰ إقامة دينه إلا بالاعتزال، وكذلك المجاهرون بالمعاصي إذا لم يزل منكرهم إلا بالبراءة منهم ومقاطعتهم كما فعل النبي ﷺ وصحابته بالثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد وهم من خيار الصحابة، فهذا من واجب إقامة الدين لرب العالمين نصحًا للَّه، وغضبًا في ذات اللَّه، وحمَّية لدين اللَّه، وغيرة

لحرماته، وهو من مقتضيات ملة إبراهيم ولوازمها كما أوضحناه، ولا يسميه تزمتًا أو تحجرًا أو وحشية ونحو ذلك من الألقاب الكافرة إلا من ليس في قلبه مثقال ذرة من حب اللَّه وتعظيمه، ولا يحمل من الإسلام أكثر من الانتساب المجرد أو الاسم الصوري وشهادة الميلاد، فقلبه خال من حقيقة الإسلام كما صح عنه ﷺ في إنكار المنكر: «**ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»(١).

ولا ريب أن التزمت والتحجر والوحشية ونحوهما من الألقاب والأعمال الهمجية هي من سمات الكفرة الفجرة قديمًا وحديثًا، فقوم نوح: ﴿قَالُواْ﴾ له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، حتىٰ جاء دور كفار قريش، فقاسىٰ منهم المسلمون صنوف العذاب والإرهاق والضغط علىٰ حرياتهم، حتىٰ منعوهم الخروج من مكة، وحتىٰ جاء دور الصليبيين بتشجيع نصارىٰ العرب الخائنين مع الغزاة، وإقامتهم محاكم التفتيش والإبادة للمسلمين، ثم جرىٰ أضعاف هذا علىٰ المسلمين في الأندلس من النصارىٰ الذين لا يعرفون سوىٰ التزمت والتحجر والوحشية والهمجية، ثم لا يستحون من وصف المسلمين بذلك، وهم يعرفون حسن معاملة المسلمين لهم في حروبهم وسلمهم، بل يعملون بالمسلمين من أنواع الوحشية في هذا العصر المسمىٰ عصر النور وحقوق الإنسان ما يزيد علىٰ وحشية الغاب.

فينبغي لشبابنا أن لا ينخدعوا بدعايتهم الباطلة، ويتميعوا في عقيدتهم بمكرهم الخبيث، وأن يستيقنوا أن اليهود الذين يسمونهم صهاينة هم من وراء هذا المكر الملعون، وأن ينظروا في واقع النصارىٰ المستعمرين وما يفعلون من أنواع التزمت والتحجر والإرهاب، ليعلموا أن كلامهم في وادٍ وأفعالهم في وادٍ آخر، وألا يبعدوا نظرهم في الاستعمار البعيد، بل لينظروا ما فعلته دولة قبرص النصرانية بالمسلمين من أفظع

---

(١) تقدم تخريجه.

أنواع الوحشية علىٰ الرغم من أن رئيسها أسقف، وما فعلته غيرها من دول النصارىٰ في الحبشة وفي الهند و «تانزانيا» الزنجبار، وفي «الفلبين» التي هي قطعة من أمريكا، ليعرفوا أنهم أهل التزمت والتحجر والوحشية، وأن المسلمين المؤمنين بريئون من هذه الألقاب التي من قالها هو ألصق بها من الشيوعيين الخبثاء الذين يبررون لأنفسهم إهلاك ثلاثة أرباع الناس قتلًا وسحلًا في سبيل الربع الرابع الذي يتقبل مذهبهم الكاذب الملعون، كما نص علىٰ ذلك طواغيتهم في وصاياهم.

أما المسلمون أتباع ملة إبراهيم فليس عندهم شيء من التزمت والتحجر والوحشية أبدًا؛ لأن دينهم يأمرهم بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي، بل ينهاهم عن بذاءة الكلام وإطلاق اللسان نَهيًا شديدًا قاطعًا، ولكن المتفرنجين ونحوهم ممن لا يقيمون لدين اللَّه وزنًا يريدون من المسلمين المؤمنين أن يتميعوا مثلهم، ويتساهلوا في حقوق اللَّه أو يرفضوها من الأساس كما رفضوها، إنهم يريدون من المؤمنين أن لا يأمروا بالمعروف ولا ينهوا عن المنكر، ولا يتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ، فيرفضوا ما رتب اللَّه عليه خيريتهم بين الأمم، وجعلهم به قوامين بالقسط شهداء علىٰ الناس، بل يريدون منهم أن يعكسوا الأمر فيتعاونوا علىٰ الإثم والعدوان، ويشجعوا النساء علىٰ التبرج وإظهار المفاتن والمغازلات في الشوارع، وأن ينشروا الأغاني والمعازف، ويعمروا المغاني والمراقص والمسارح، ويبيحوا الفواحش ويتغاضوا عن أهلها، وعن أهل كل منكر وفسق وفجور، ويتركوا الإنسان حرًّا إن صلىٰ أو حارب المساجد، بل حرًّا في أن يطعن باللَّه وآياته ورسالته، ويُعلن عدم جدوىٰ الدين أمام تطور الإنسان، فإن هم فعلوا ذلك فهم المتحررون المتطورون المسايرون للحياة البهيمية الكافرة، وإن عملوا بمقتضىٰ مدلول الشهادتين من الحب في اللَّه والبغض في اللَّه، والموالاة في اللَّه والمعاداة فيه، والتزام طاعته بتنفيذ أوامره وشريعته، والغيرة علىٰ دينه والغضب لحرماته صاروا

متزمتين متحجرين، إلىٰ غير ذلك من الألقاب التي تلقوها من الماسونية.

إن هذا حكم جائر مخالف لحكم اللَّه، ومناقض لوصفه، ولا يقبله مسلم صادق ولا يتفوه به، فالشيوعي علىٰ ما فيه من حقد وبغض لغيره، وفظاعة فتك ووحشية بمخالفيه في المذهب، لا يرضىٰ أن يقال له: إنه متحجر أو متزمت، بل إن المتفرنجين من أبناء المسلمين لا يعتبرون الشيوعيين متزمتين أو متحجرين، ولا يصمونهم بذلك كما يصمون آباءهم المسلمين، وكذلك أفراخهم من البعثيين ونحوهم من ذوي المزاعم الكاذبة، ومن القوميين علىٰ ما عندهم من التزمت الإلحادي، والتحجر الفلسفي الضيق الذي اختاروه بدل سعة الإسلام وشموله العالمي، لا يرضون أن يقال لهم إنهم متحجرون متزمتون، وهم في الحقيقة حملة راية التزمت والتحجر، بل والوحشية كما اتضح ذلك من أعمالهم في الثوارت مع خصومهم وغير خصومهم مما تحدثه الفوضىٰ الثورية، فسحل الرجال علىٰ الأرض وهم أحياء، ووضع رجل الإنسان بسيارة والأخرىٰ بسيارة أخرىٰ وسحبها حتىٰ يتمزق وهو حي، هذه وحشية لم نعرفها إلا من القوميين الذين باركت جميع دولهم هذا العمل، ولم نسمع منها مستنكرًا لذلك، ولا مستبشعًا له إلا بعد معاداة بعضهم لبعض، فإنهم ينبزونهم لما سكتوا عنه بالأمس وأقروهم عليه واطمأنوا إليه، وهذا الشيء المشاهد هو غير ما يجري خلف أسوار المعتقلات والسجون من أنواع الفتك والتعذيب.

فعجبًا لمن هذه حاله كيف يرمي المسلمين بالتزمت والتحجر إذا غاروا علىٰ دين اللَّه وغضبوا لحرمته؟ أم يريدون أن يحتكروا الحق لهم ولمذاهبهم من دون اللَّه وعباده المؤمنين، فيغضبون من أجلها، ويعادون أولياء اللَّه ويلمزونهم بكل نقيصة من أجلها، ويفتكون بالمسلمين من أجلها، ويثيرون الحروب من أجلها، ولا يعتبرون أفكارهم متحجرة ولا أعمالهم القبيحة تزمتًا ووحشية، هذا شيء يسخر منه الحيوان لو أنطقه اللَّه.

إن أوثق عرىٰ الإيمان هو الحب في اللَّه والبغض في اللَّه، والموالاة في اللَّه والمعاداة فيه، لا في سبيل المذاهب المادية الشيطانية، وما أكفر من جعل الولاء والحب والبغض في سبيل هذه المبادئ والمذاهب لا في سبيل اللَّه! وما أكفر من جعل غضبه لها وعمله من أجلها، ويزداد كفره شناعة وغلاظة إذا تَهكم بالمسلمين ورماهم بالرجعية والتزمت والتحجر ونحو ذلك من ألقاب التشنيع والتنفير.

هذا وليس لمن يؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله أن يجعل لنفسه شيئًا من الاختيار فيما يعتقده أو يسلكه، فإن اللَّه سبحانه قضىٰ بحكمه وأمر اتباع ملة إبراهيم، كما قضىٰ بحكمه الذي لا معقب له أن لا أحسن دينًا ممن اتبع هذه الملة، فلم يبق لمن يؤمن باللَّه خيار في سلوك أي مبدأ أو مذهب أو اتجاه أو مخالف لهذه الملة الحنيفية، ومن جعل لنفسه الخيار في سلوك ما يريد فقد أخرج نفسه من الإيمان مهما حاول المواربة بالاعتراف اللفظي باللَّه ورسوله، قال تعالىٰ في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب] أي: واضحًا لا شبهة فيه.

وقال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورىٰ] ومعنىٰ «كبر» صعب وثقل، فاستضخموا وقعه علىٰ نفوسهم؛ لأنه يقضي علىٰ شهواتها وأنانيتها، ولأجل هذا قاموا بضده، وهوّلوا أمره، وعادوا أهله، وكذلك فعل ويفعل ورثتهم من كل مشرك قد انصرف قلبه عن اللَّه إلىٰ غيره في رغباته وأذواقه، وما انغرس تقديسه في قلبه من الأوطان والقوميات والنظريات المادية وسائر المحبوبات الدنيوية التي من تعلق بها فقد أشرك، ومن أحبها لذاتها فقد أشرك، ومن فضل محبتها والعمل لها علىٰ حساب اللَّه والعمل له فقد أشرك. وكل من

هذه الأصناف يشرق بالملة الحنيفية ويعادي أهلها ويلمزهم بالألقاب البشعة تحقيرًا لهم وتزهيدًا لهم فيما هم عليه من الحق.

ويظهر مما تقدم فوائد:

أحدها: أنه لا يجوز لأحد من البشر أن يخالف حكم اللَّه وقضاءه الشرعي باختيار غير ملة إبراهيم الإسلامية، وأن من اختار غيرها من المذاهب والمبادئ وسائر النظريات فهو محاد للَّه ورسوله، متبع غير سبيل المؤمنين، قد اتخذ إلهه هواه، ولم يتخذ اللَّه ربًّا ولا إلهًا ولا ملكًا مطاعًا؛ لأنه بجعله لنفسه الخيار قد رفض ألوهية اللَّه وملوكيته، ولم يبال بعزته وقهره وسلطانه، ولم يقم له وزنًا بالكلية مهما ادعىٰ من المواربة والتلبيس.

ثانيها: قد اتضح بدون إشكال بتاتًا أن مودة أي أحد من الكفار أو موالاته أو الاتحاد معه في النصرة أو التشجيع باسم وطنية أو قومية أو أي علاقة نسبية أو مادية هو كفر مخالف لملة إبراهيم الإسلامية، ومغضب لرب العالمين، حتىٰ ولو مودة أقرب قريب، كما قال اللَّه تعالىٰ في آخر سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] فكيف بمن يؤاخي النصارىٰ واليهود والمجوس، وكل أنواع الملاحدة في القومية ونحوها؟ فهذا من أبعد الناس عن الإيمان باللَّه ورسوله.

ثالثها: إن ملة إبراهيم الإسلامية ليست بمجرد الانتساب، وإنما هي بتحقيق حب اللَّه وتعظيمه، وحب المصطفىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وتعظيمه، وذلك لا يكون إلا بامتثال أوامر اللَّه والتزام حدوده، وإيثاره ورسوله بالحب علىٰ كل حبيب، والتضحية الكاملة بمرادات النفس ومحبوباتها في سبيل مراد اللَّه ومحبوبه، وجعل الأولوية لمحمد ﷺ في كل شيء، وأن يقول كلمة الحق، لا يخشىٰ في اللَّه لومة لائم، ولا سطوة ظالم،

وأن لا يداهن أحدًا من أهل الباطل أو يُمالئه علىٰ حساب دين اللَّه، وأن يجعل نفسه وماله وقاءً وفداء لرسالة محمد ﷺ ليدفع بها إلىٰ الأمام في جميع ربوع الأرض حسب استطاعته، ويكون متقيًا للَّه حق تقاته، ومجاهدًا في اللَّه حق جهاده، فلا يُطفف علىٰ اللَّه في حقوقه، فإن اللَّه سبحانه وتعالىٰ لا يرضىٰ بالتطفيف البسيط علىٰ خلقه كما توعد المطففين بأبشع الوعيد، فإن المطفف مع اللَّه لم يقم بواجب الربوبية ولا الألوهية، وإذن فهو مخل بالملة الإبراهيمية الواجب علىٰ المسلم تحقيقها.

رابعها: ملة الإسلام ـ التي هي ملة إبراهيم ـ هي الوسيلة الوحيدة والصحيحة لتحقيق الوحدة والاتحاد والتضامن والإيثار والتكافل الاجتماعي، لما تغرسه في قلوب أهلها من الحب الصادق في اللَّه والموالاة فيه، كما حصل في مجتمع الرعيل الأول قبل أن تعبث اليهود والفرس بقلوب أبنائهم وأتباعهم، وإذا التأم الصدع عاد خير كثير من ذلك، وبقوة الإيمان وكمال الإخلاص يتجدد ما حصل في الرعيل الأول؛ لأن الوصف لا يتخلف إلا بتخلف علته، فإذا تجددت العلة تجدد الوصف، وأما بدون تحقيق ملة إبراهيم فمحاولة الوحدة أو العزة الصحيحة عبث؛ لأن اللَّه سبحانه كتب الشقاق علىٰ من تنكب عن ملة إبراهيم بقوله في سورة البقرة: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧].

فحصر اللَّه سبحانه أحوالهم في الشقاق علىٰ وجه العموم، بحيث يتفقون علىٰ أن لا يتفقوا كما في المثل المشهور، وذلك لأنهم عصفوا بالأصول الموجبة للوحدة، وشردوا عنها بعيدًا، فكيف يتحدون؟ ولكنهم يغالطون لخداع الناس، فتجد زعماءهم ودجاجلتهم يتاجرون باسم الوحدة، ويلعبون بالعواطف بدعوىٰ العمل من أجلها، وكثيرًا ما يحدثون المشاكل لتلهية الناس وإقناعهم بصعوبة حصول الوحدة، ويكثرون سباب من يعادونه بحجة عرقلته لها، والقضية ليست في ذلك، وإنما هي في الشرود عن ملة إبراهيم التي لا تَهضمها أهواؤهم، بل ترفضها

أنانياتهم، وقد أسلفنا إيضاحًا لهذا الموضوع في عدة مواقع من هذا التفسير.

خامسها: إن من ضروريات بقاء ملة إبراهيم ورفعة رءوس أهلها أن تكون دينًا ودولة، بحيث تسير السياسة علىٰ ضوء تعاليمها الطيبة المشرِّفة النافعة للناس، والحافظة لكرامتهم، والحامية لدمائهم وأعراضهم وأموالهم، والضامنة لرفاهيتهم وسعادتهم بإذن اللَّه، ولا يجوز بأي حال من الأحوال العمل علىٰ فصل دين اللَّه عن الدولة، وإقصائه عن الحكم والسياسة، كما فعله أفراخ الماسونية اليهودية وتلاميذ الاستعمار، بتعليم وتركيز من آبائهم وأساتذتهم، وتشجيع وتحضيض من أشقيائهم الذين يريدون أن يسعوا في الأرض فسادًا، وهم لا ينالون مقاصدهم الخبيثة الأنانية إلا إذا جعلوا الدين تحت أقدام السياسة كما يريده كل كفَّار أثيم رقيق للماسونية رقًّا معنويًّا.

وإلا فما قيمة الدين الذي لا يحكم الناس في شئونهم السياسية والاقتصادية والثقافية، إنهم بذلك يقضون علىٰ شطري وجوده، فلا يبقىٰ له وجود إلا في الأذهان والمشاعر، بل يكون كالطير المقصوص جناحاه والمقطوع رجلاه، لا يطير ولا يمشي، بل يقبع في وكره حتىٰ يموت وفقًا للمخطط الماسوني.

والعجب أن أدعياء العروبة والإسلام لا يعتبرون بخداع أعدائهم الذين أقاموا حكمًا علمانيًّا إلحاديًّا قوميًّا، وحكمًا شيوعيًّا ونحوه، فيعرفون أنهم غشاشون في دعايتهم ضد الإسلام، بل ولا يعتبرون بإقامة الماسونية اليهودية دولة دينية في وسط بلاد المسلمين وعلىٰ حسابهم، كأن المحذور منحصر في إقامة دولة إسلامية فقط، وأن الدولة اليهودية تقدمية وإن كانت قائمة علىٰ أساس الدين، ولا تكون رجعية إلا إذا قامت علىٰ أساس الإسلام، فهل يقبل هذا ذو عقل يعتز بعقله، أو شرف يعتز به؟ بل لا يقبله إلا من صودر عقله وفقد تفكيره. وقد ذكرت فيما مضىٰ أنه لا

قيمة لأي نظرية أو مذهب حتىٰ يحكم أهله الناس به، لهذا يعمل الأعداء علىٰ احتلال الصدارة والحكم بكل مكر وقوة، فكيف يرضىٰ المسلمون بتنحية دينهم عن الحكم والسياسة، وهو الدين الحق الموجب لإقامة العدل وكل خير للبشرية؟!

سادسها: بناءً علىٰ ما قدمناه يكون من أقام حكمًا علمانيًّا مخالفًا لأصول ملة إبراهيم أو فروعها كافرًا خارجًا عن ملة الإسلام، لانتقاصه جناب رب العالمين، وتنديده بحكمته، ورفضه لدينه القويم، وكراهته ما يحبه، ومحبته لما يكرهه، وتفضيله حكم الجاهلية علىٰ حكمه ﷻ، ويكون ـ أيضًا ـ من أبغض الناس إلىٰ اللَّه كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن النبي ﷺ: «**أبغض الناس إلىٰ اللَّه ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الاسلام سنة الجاهلية، ومُطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه**»[(١)].

والذي يعمل في الإسلام سنة الجاهلية لابد له أن يجمع بين هذه الثلاثة إذا قدر عليها، ومن كانت هذه حالته فلا يجوز للمسلم حبه ولا الركون إليه، وهذا إذا كان متعمدًا قاصدًا راغبًا إقامة حكم الجاهلية، مفضلًا لها علىٰ حكم اللَّه ورسوله، أما إذا كان مغصوبًا علىٰ ذلك، مقهورًا من غالب له متسلط عليه، وهو كاره قد صمَّم العزم علىٰ الانتفاضة منه إذا قدر، فهذا قد تنجيه نيته وحالة ضعفه إذا كان عنده تأويل صحيح بعدم التخلي من ذلك؛ لأن الواجب عليه حينئذ التخلي والاعتزال، حتىٰ لا يكون أداة للمجرمين أو بوقا لهم، ولا ريب أن من صميم العقيدة الدفع بدين اللَّه إلىٰ الحكم لفرض حكم اللَّه علىٰ الناس، ولتكون كلمة اللَّه هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلىٰ، وحتىٰ لا تكون علىٰ المسلمين فتنة في دينهم من فتن التشكيك والتنديد بأحكام اللَّه، وقلب محاسن دينه إلىٰ مساوئ، مما يغري أولاد المسلمين علىٰ

---

(١) رواه البخاري (٦٨٨٢).

استهجان دين اللَّه والتمرد علىٰ أحكامه.

وقد حصل ذلك فعلًا تحت حماية الحكم العلماني بحجة حرية الأديان والرأي والنشر، أي حرية الافتراء علىٰ اللَّه وإعلان ما يقتضي شتمه، وإلا فحرية الرأي لا مكان لها فيما يتعلق بسياسة الحاكمين وقداسة أشخاصهم، ولا مكان لها في الطعن علىٰ مفتريات النصارىٰ علىٰ اللَّه وتفنيدها، وإنما فتنة العلمانية موجهة ضد الإسلام وتشريعاته، لإغواء شبابه بتدبير من الأصابع الخفية التي تعمل في الظلام، وتصطاد في الماء العكر.

فمشروعية الجهاد من اللَّه أعلم العالمين وأحكم الحاكمين، لئلَّا تكون فتنة ويكون الدين كله للَّه، كما نص علىٰ ذلك في الآيات الموجبة للجهاد، وأوضح أن الفتنة عن الدين أشد من القتل، وأكبر من القتل، ولا يخفىٰ علىٰ اللبيب ما حصل للأمة كهولًا وشبابًا من أنواع الفتنة، وشيوع الفواحش والمنكرات، ومخالطة الكفار ومصاهرتهم ومودتهم لهذا السبب، حتىٰ قلَّ الإحساس وعُدم استهجان الباطل، بل وُجد من يستمرئه أو يستحسن شيوعه، ووجد من يخالف حكم اللَّه في النصارىٰ، ويزعم أنهم ليسوا كفارًا، وأنه لا يُسمىٰ كافرًا إلا عابد الصنم، وقد حكم اللَّه بكفر اليهود والنصارىٰ علىٰ العموم لقولهم عزير ابن اللَّه، والمسيح ابن اللَّه، وطاعتهم للأحبار والرهبان فيما يحلونه ويحرمونه، وحكم علىٰ النصارىٰ خاصة بالكفر في آيات أخرىٰ فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، فمن لم يحكم بكفرهم فهو كافر لمخالفته حكم اللَّه عليهم، ولأن القاعدة الدينية: «من لم يُكفِّر الكافر فهو كافر»[(١)].

سابعها: أنه بإبعاد الإسلام الحنيف عن الحكم تعطيل حدود اللَّه،

---

(١) ليست هذه القاعدة علىٰ إطلاقها.

وتنفيذ شريعته، ويتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتعطل الجهاد الشرعي الذي هو أمانة في أعناق المسلمين يتعاقد اللَّه معهم علىٰ تحقيقه بالنفس والمال، وبذله الثمن العاجل في الدنيا لهم بالنصر، والتمكين في الأرض، والثمن الآجل الذي هو جنة اللَّه وسلعته الغالية، وإذا كان الحكم علمانيًّا لا دينيًّا، صار القتال في سبيل الأغراض والمطامع المادية ورفعة الأشخاص أو الوطن، ولا يكون شيء من ذلك في سبيل اللَّه ولإعلاء كلمة اللَّه وقمع المفتري عليه، ونشر حكم شريعته في الأرض، بل ينعكس الأمر، ويكون القتال في سبيل الطاغوت رجوعًا إلىٰ العادة الجاهلية، وبِهذا تضيع طاقات المسلمين، وينصهرون في بوتقات الباطل المختلفة.

ثامنها: أنه بإبعاد الإسلام عن السياسة تكون السياسة كجمل هائج حبله علىٰ غاربه، لا رادع لها إلا القوة القاصمة؛ لأنها لا تسير علىٰ تقوىٰ من اللَّه ورضوان، وليس لها قاعدة ربانية مرتكزة علىٰ العدل والإحسان، وردع الظلم وكف البغي، بل هي طائشة مع الأهواء والأنانيات التي تسيرها، وليس لوزنها معيار من الإنصاف والوجدان، ولا غاية ترسم أهدافًا صحيحة ثابتة علىٰ أساس العدل ومراعاة الأرحام أبدًا، وإنما هدفها إذلال العاجز، واستعباد الضعيف، واستغلال موارده، وطلب الاستعلاء في الأرض والفساد.

وبِهذا يعود الحكم الفرعوني والقيصري والكسروي تحت أسماء كاذبة برَّاقَة خادعة، أسماء مخالفة لمعانيها و مقاصدها وحقائقها، كالجمهوريات التي يتشدق بها أهلها، وخصوصًا أصحاب الثورات والمبادئ والمذاهب الشيوعية وذيولها، فإنهم يتبجحون باسم الجماهير وليس عندهم للجماهير سوىٰ الكبت والإرهاب الفظيع، واللعب علىٰ عقولهم، والعبث بمقدراتهم، ولم يُعرف الإحراق بالنار وإبادة الجموع الهائلة بسرعة فائقة وحالة وحشية في عصور الأكاسرة والقياصرة وسائر الملوك، وإنما عرف هذا عند الذين يتشدقون بدعوىٰ الجمهوريات،

ويخدعون الشعوب بأنهم يحكمون باسم الشعوب.

ولم يعرف التاريخ لهم مثيلًا في البطش والتنكيل والفتك بالشعوب حتىٰ عند أظلم الجبابرة؟ لأن جميع الحكام السابقين علىٰ ما فيهم من الظلم كان عندهم مداراة ومجاراة لشعوبهم ورحمة بهم، وملاحظة لمصالحهم، فأما هؤلاء الذين أبرزتهم الماسونية اليهودية بالثورات، وساعدتهم مخابرات الدول الماكرة علىٰ النجاح، فليس عندهم لشعوبهم شيء من المداراة ولا النصح، وإنما هم انتهازيون بجميع المعاني، وليس عندهم سوىٰ سحق من يخالفهم في أدنىٰ شيء أو يقف دون رغباتهم الأنانية وأهوائهم الطائشة، دون مبالاة بمن يُسمىٰ شعبًا أو جمهورًا، كأنهم لا يعتبرون لغيرهم حقًّا في الوجود إلا إذا كان خاضعًا لإرادتهم ومسبحًا بحمدهم، ومع ذلك يشتمون الملوك الذين سعدت الشعوب تحت حكمهم، ولم تعرف قدرهم حتىٰ جربت أولئك.

أما سياسة الإسلام التي يجب أن تسود فهي التي تسير علىٰ ميزان اللَّه بالقسطاس المستقيم، فيكون ولاؤها وارتباطاتها بغيرها، وحربها وسلمها لمصلحة ملة إبراهيم ورفعة شأنها وحماية عقيدة أهلها، وانتشارها بدون معاند يقف دونها ودون فتنة لأهلها أو إذلال، لا أن تكون الموالاة أو الارتباطات الخارجية للمصالح والمنافع الشخصية أو الوطنية علىٰ حساب العقيدة الدينية، فهذه سياسة يرفضها الإسلام من الأساس لما يحصل فيها علىٰ المسلمين من الأضرار في العقيدة والأخلاق، كما هو مشاهد في حالتنا الراهنة.

تاسعها: لا يجوز النداء بتاتًا بأي رابطة غير ملة إبراهيم الإسلامية من سائر القوميات والوطنيات وغيرها من الروابط الحزبية أو المذهبية المادية، فقد أجمع المسلمون علىٰ أنه لا يجوز للمسلم الدعاء بـ«يا لبني فلان» ونحوه، لما ثبت في الصحيحين من حديث جابر قال: كنا في غزوة فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال النبي ﷺ: «**دعوها فإنها**

منتنة»[١]، وجاء قوله ﷺ: «**أبدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم**»[٢]، وغضب غضبًا شديدًا.

فقول هذا الأنصاري: «يا للأنصار»، وقول المهاجري: «يا للمهاجرين» هو النداء بالدعوة القومية العصبية بعينه كما حققه الشراح والمفسرون، وقول النبي ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة**» يقتضي وجوب ترك النداء بها؛ لأن قوله: «**دعوها**» أمر صريح بتركها، والأمر المطلق يقتضي الوجوب علىٰ التحقيق كما هو مقرر في الأصول؛ لأن اللَّه يقول: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣].

وقد غضب علىٰ إبليس ولعنه وطرده من السموات لمخالفته أمرًا واحدًا، ويؤكد وجوب هذا الأمر تعليله لتركه «**إنها منتنة**»، وما صرح النبي ﷺ بالأمر بتركه وأنه منتن لا يجوز لأحد تعاطيه بتاتًا، وإنما الواجب علىٰ المسلمين النداء برابطة الإسلام التي هي من شدة قوتها تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد إنسان واحد، فهي تربطك بأخيك المسلم كربط أعضائك بعضها ببعض، قال ﷺ: «**إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ**»[٣].

وإذا تأملت قول اللَّه تعالىٰ: ﴿**لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)**﴾ [المجادلة] تحققت أن الروابط النسبية تتلاشىٰ مع روابط الأخوة الإسلامية؛ إذ لا رابطة نسبية أقرب من رابطة الآباء

---

(١) رواه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٢) انظر السابق.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٦).

والأبناء والإخوان والعشائر إلا الإسلام الذي هو رابطة الدين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، أي بِهذا الدين هو أعز علىٰ أهله من كل قرابة، بل من كل الدنيا وما فيها.

فهذه الآيات وأمثالها تدل علىٰ أن النداء برابطة أخرىٰ غير رابطة الإسلام كالعصبية المعروفة بالقومية لا يجوز، بل هي كفر بواح لمخالفته أوامر اللَّه ورسوله، والإقدام علىٰ ما وصفه النبي ﷺ بأنه منتن، ولا شك أن المنتن خبيث، واللَّه يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦]، ويقول: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقد اتضح أن القوميات من دعوىٰ الجاهلية، ومن سنَّ في الإسلام سنة الجاهلية فهو من أبغض الناس إلىٰ اللَّه كما أسلفنا نص الحديث الصحيح، وقد صح - أيضًا - عنه ﷺ أنه قال: «**ليس منا من دعا بدعوىٰ الجاهلية**»[1]، وهذا صريح في أن من دعا تلك الدعوىٰ ليس منا معشر المسلمين، فهو دليل واضح علىٰ المنع الشديد.

ومما يؤيده قوله ﷺ: «**من تعزىٰ عليكم بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا**»[2]، أي قولوا له: اعضض علىٰ فرج أبيك، بصراحة دون كنية، وهذا حديث صحيح رواه الإمام أحمد من طرق متعددة عن ابن ضمرة السعدي عن أبي بن كعب ﷺ، ورواه النسائي وابن حبان والطبراني في «المعجم الكبير» والضياء المقدسي، والترمذي كما في شرح «الجامع الصغير» وغيره، فانظروا كيف سمىٰ النبي ﷺ ذلك النداء عزاء الجاهلية وأمر بأن يقال للداعي به: «اعضض علىٰ فرج أبيك»، تصريحًا لا كناية، فهذا يدل علىٰ شدة قبح هذا التعزي بالقوميات الجاهلية،

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣).
(٢) رواه أحمد (٥/ ١٣٦).

وعلىٰ شدة بغض النبي ﷺ له، ومن أحب ما يبغضه رسول اللَّه ﷺ فليس من اللَّه في شيء.

واعلم أنه كما كان رؤساء الدعاة إلىٰ القومية العربية في الأولين في هذه الأمة أبا جهل وأبا لهب والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأشكالهم في رؤساء الكفر، فإن الدعاة إليها في الآخرين في عصرنا هم طغمة من الأعاجم والنصارىٰ المغرضين، وكلهم أفراخ الماسونية اليهودية، كساطع الحصري الأعجمي الأصل، وحكمت هاشم كذلك، واليازجي النصراني، ولفيف من كتاب النصارىٰ، والشعوبية الجديدة قلَّ أن تجد فيهم عربيًّا صريحًا، بل تجد أغلب المتحمسين للقومية الوثنية من النصارىٰ وأنواع الأعاجم، أو من الفرس المجوس كالنصيرية الذين استغلوا الشعارات القومية ضد الإسلام والمسلمين بمكر هائل من الجمعيات الماسونية التي ينتمون لها عن خبث طوية، وبعضهم منغش بها ومخدوع، وذلك بعد أن أدرك اليهود أنهم لا يقضون علىٰ المسلمين بالقوة العسكرية مهما تضخمت، فخططوا الخطوط العميقة للغزو الفكري الذي يمسح ملة إبراهيم عن عقول أبناء المسلمين، لزحزحتهم عن المنهج والنظام الذي يقوم عليه، ولا يبقىٰ في أفكارهم فهم للدين إلا إقامة العبادة الظاهرة دون العمل علىٰ إقامة حكم اللَّه الذي يتطلب حروبًا قد يتبجح بها من لا يطبق جميع الأحكام، هكذا خداعهم.

وقد جعلوا من الثورة الفرنسية قاعدة لتضليلهم، بأن الدين لا يصلح للحكم؛ لأنه يعادي العلم والصنائع وأن «أوروبا» لم تبلغ ما بلغت إلا بعد نبذها للدين وانتقاضها من حكمه، فلعبوا علىٰ الأغبياء الذين لا يفرقون بين حكم الإسلام والكنيسة كما أسلفنا تفصيل ذلك، وتربىٰ علىٰ تعاليمهم التي قاربت قرنًا من يعتقد أن الدين هو العبادة الشكلية من صلاة وشعائر، ولم يعلموا أن معناه أن يدين المسلمون بالولاء لأحكام الإسلام في كل صغيرة وكبيرة، وأن عبودية اللَّه هي

استسلام فعلي وكلي لمنهج اللَّه في الأرض، بمعنىٰ تطبيق القرآن لا مجرد النطق بالشهادتين وصلاة وحج وصيام، بل لابد أن يتجسد مدلول الشهادتين في جميع واقع الحياة، بحيث لا يهيمن عليها أي تشريع سوىٰ تشريع اللَّه فقط دون سواه من الأنظمة والأوضاع الأخرىٰ.

فإن صميم الدين هو اعتقاد أن اللَّه وحده مصدر التشريع، وحكام المسلمين منفذون له قائمون عليه ليس إلا، وأن الشرك والكفر ليس معناهما جحود اللَّه أو عبادة صنم، بل من معانيهما الخطيرة عزل وحي اللَّه عن التشريع، وإقصاؤه عن الحكم، واتخاذ أنداد وشركاء من دون اللَّه أو معه في وضع التشريعات والقوانين لمناهج الحياة.

واعلم أنه لا خلاف بين العلماء في منع المناداة برابطة غير الإسلام كالقوميات والمذاهب المادية لا سيما إذا كان يقصد بذلك القضاء علىٰ رابطة الإسلام؛ فإن النداء بمثل ذلك معناه التخلي عن دين الإسلام ورفض الرابطة السماوية، والاستعاضة عنها بروابط قومية أو مذاهب مادية من الرجعية الماركسية المزدكية ونحوها، وهذا هو غاية الكفر وقرة عيون اليهود الذين طالما عملوا لتحقيقه، خصوصًا وأن القوميين ليس لهم أي هدف سوىٰ التبعية للكفار من الشرق والغرب، وميلهم للشيوعية أكثر، وقد عملوا علىٰ تكوين الخواء الروحي في نفوس شعوبهم مما سهل لهم ما يريدون.

وقد علمت مما تقدم أن القوميات إنتاج يهودي من أصله، ابتدأ في «أوروبا» للإطاحة بحكم الكنيسة الغاشم المعادي للعلم والعقل والاختراع، ثم نشطوا بإقامة الحكم القومي الطوراني في «تركيا» للإطاحة بحكم السلطان المسلم بعدما عملوا أنواع الغش والتخريب والفوضىٰ الاقتصادية والسياسية، مما مهدوا به لمساورة الغضب أكثر نفوس الشعب، وقبولهم تبديل الحكم، حيث انخدعوا بالدعايات الماكرة، التي لم يحسوا بتضليلها حتىٰ ذاقوا أنواع الظلم والإرهاب من الحكم اليهودي المقنع الذي أقاموه بعد خلع السلطان، وفي الوقت

نفسه عملوا علىٰ غش العرب وإلهاب صدورهم بالقومية التي يستقلون بها عن حكم الأتراك.

وقد استعملوا التلبيس الذي جعلوا العلماء بسببه لا يعلمون ما تحمله التعاليم القومية من بغض الدين وأهله، ووجوب إقصاء تشريعاته إلا بعد فوات الأوان، ورؤيتهم موقفهم من الدين موقف أخطر كافر معاد من كل ناحية، ومن المؤسف أن بعض المشايعين لزعماء القومية يعتذر عنهم بأنهم لا يقدرون دفعة واحدة علىٰ تحكيم الإسلام لفساد الأوضاع التي خلفها الاستعمار، وأنه ينبغي إمهالهم وقتًا طويلًا مع التعاون بهم علىٰ الإصلاح، ولكن هؤلاء الزعماء الذين يعتذرون عنهم قد كذبوهم سريعًا ـ والحمد للَّه ـ بقوة تطبيقهم للماركسية البغيضة للشعب، والأجنبية عنه دون مبالاة بالروحانية الدينية المتأصلة في قلوب الشعب، ودون مبالاة بالاتعاظ والسخط في سبيل تطبيق ما يعتقدون، علىٰ الرغم من العقبات التي يرونها، مما يثبت سهولة قدرتهم علىٰ تطبيق حكم الشريعة بجرة قلم، حيث لا ينازعهم في ذلك سوىٰ من لا يؤبه له بتاتًا، لا سيما والحكم العسكري لا يقدر أحد علىٰ الوقوف بوجهه، ولكنه اعتذار مفضوح من مداهن شاء اللَّه تكذيبه علىٰ أيديهم، والحاصل أن ملة إبراهيم توجب علىٰ أهلها إقامة حكم اللَّه وتنفيذ شريعته، ومن لم يفعل ذلك فليس علىٰ ملة إبراهيم قطعًا.

عاشرها: إن فصل الدين عن الحكم والسياسة أعظم كافر وشرك باللَّه، وأكبر جناية عرفتها البشرية علىٰ دين اللَّه؛ لأن الدين يصبح لا قيمة له بتاتًا، بل يصبح كجعجعة بلا طحن؛ لأنه لا يبقىٰ له وجود إلا في بطون الكتب؛ لأن المناهج المدرسية والجامعية التي خططتها الماسونية اليهودية ونفذها أفراخها وعملاء الاستعمار قد طمست نظام الإسلام طمسًا كاملًا، وحالت بين الناس وبين فهم حقيقته، وعلىٰ الأخص الشباب الذين حشوا قلوبهم ـ زيادة علىٰ ذلك ـ بما يصدرونه في الصحف والمجلات والمصورات، وما يبثونه من

التلبيس المزخرف في الإذاعات والنوادي والمسارح وغيرها، ما جعلوهم لا يعرفون غير النظريات الأوربية المستقاة من اليهود في الحكم والاقتصاد، كالديموقراطية والقومية والرأسمالية والشيوعية الكاذبة وذيولها.

وقد لوثوا معنىٰ الجهاد بمفهوم فاسد لا يعرفه المسلمون، وفتنوا المرأة فأخرجوها من بيتها بأثواب التعري وحالة التبرج، لتمتهن كرامتها في خضم الحياة العاتية باسم التقدم والتطور الكاذب الممسوخ، وصوروا الحكم الديني غولًا مروعًا مخربًا يقضي علىٰ أمن الحياة ويجلب الوبال للإنسانية، وأي طعن باللَّه ورسالاته أعظم من هذا وأقبح.

إن موقفهم ردة صريحة من الدين، يكونون بها أكفر من اليهود والنصارىٰ والمجوس، ولا عبرة بقولهم أو قول من يعتذر عنهم: إنهم يحترمون الدين ولكنهم لا يتاجرون به، فإنهم يقصدون رضا حكام المسلمين بِهذا الاعتذار، ولو كان عندهم مقدار ذرة من احترام الدين لعملوا علىٰ تنفيذ تشريعاته بكل قوة، وسعوا للدفع به إلىٰ الأمام لنشره ونفع الناس بخيره وعدالته، وحرصوا علىٰ أن يغلبوا غيرهم بحسن العمل به وتطبيقه، ليتضح طيبهم ويتضح للناس صدقهم مع اللَّه وإخلاصهم له، بدلًا من أن ينفضوا أيديهم من الدين، ويبثوا الدعاية ضده، وأنه لا يصلح للحكم والسياسة لما يحمل من التعصب فيما يزعمون، ويكذبون علىٰ الواقع الذي ازدانت الدنيا بحكم الإسلام، وسعدت الشعوب كلها به، وارتاحت الطوائف غير المسلمة به كما شهد التاريخ بذلك.

فموقفهم بعيد من أي احترام لدين اللَّه، أو أي تعظيم للَّه وخشيته، ولو كان عندهم ذرة من الصدق مع اللَّه أو مع خلقه لعملوا علىٰ إصلاح ما أفسده المتاجرون بالدين ـ فيما يزعمون ـ لا أن يعصفوا بالدين وأهله بغير هوادة، ويغرسوا النفرة منه في القلوب، ويبعدوا الناشئة عن فهمه، ويزوروا التاريخ ويقلبوا الحقائق غشًّا للناس.

ثم إننا منذ أن عرفنا القوميات وأكثر زعمائها يتاجرون بها، وقد نصبوا أنفسهم عملاء لأحد المعسكرين، وخدموا دولة اليهود أعظم خدمة، فلأي شيء لم يكفروا بالقوميات، ويعلنوا إبعادها عن السياسة والحكم وكل شيء كما فعلوا بالإسلام؟ أو أن وظيفتهم مقصورة علىٰ معاداة الإسلام، وحياتهم موقوفة علىٰ ذلك، ولقد سلطهم اللَّه سبحانه علىٰ تكذيب المعتذرين عنهم، فأعلنوا فضيحة كفرهم وغشهم بتصريحهم أنهم عرب قبل أن يكونوا مسلمين، وأنه لا يمكن إقحام الدين بالسياسة، ولا إقامة الحكم علىٰ أساس ديني لأنه يسبب التعصب، فإن قيام القوميات علىٰ أساس ديني هو شيء مخالف للتاريخ، وأنه إذا كان فيهم من يؤمن بمحمد ففيهم من يؤمن بالمسيح، وبما أن المسيحيين لا يستطيعون الانضمام إلىٰ حلف مسيحي، ولا الارتباط بإخوانهم في الخارج دوننا، فإننا لا نستطيع الانضمام إلىٰ حلف إسلامي، ولا التحيز للإسلام أو الارتباط بأهله.

إنهم يكثرون الشناعة علىٰ الدول التي قامت علىٰ الإسلام قديمًا وحديثًا، ويعلنون المدح والولاء والتحيز الصريح للدول النصرانية التي قام حكمها ويقوم علىٰ النصرانية، وللدول العلمانية الكافرة الأخرىٰ ومناصرتها علىٰ المسلمين بكل صراحة ووقاحة كما هو واضح بدون التباس، فقد أراحونا عن جواب المعتذرين بتكذيبهم لهم أصرح تكذيب، وأراحونا ـ أيضًا ـ بتكذيب الخبثاء والغشاشين الذين يزعمون أن المقصود من القومية جمع الشمل في المناطق العربية كخطوة للاتحاد فيما بعد علىٰ أساس الدين، فقد أنطق اللَّه زعماءهم المحبوبين المقدسين عندهم والذين هم من كبارهم بما يكذبهم ويفضح غشهم ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

ويتضح من تصريحهم أمام العالم أنهم متقبلون للتعاليم الماسونية، ومنفذون لها تمامًا بلا مبالاة ولا حياء، وأنهم مهزومون عقليًّا حيث يصرحون بما لا يهضمه العقل، ولا ينطق به من يحترم نفسه، ذلك

أنهم يعطون الأقليات الصغيرة جدًّا حق التحكم في الأغلبيات الكثيرة الساحقة؛ لأن النصارىٰ الذين يسمونهم مسيحيين لا يتجاوزون الثلاثة في المائة من مجموع السكان في جميع البلاد العربية، وعلىٰ هذا فإن التأثير المطلق علىٰ شئون الدولة يجب أن يكون للسبعة والتسعين بالمائة حتمًا، كما يجب مراعاة هذا العدد شعوريًّا ودينيًّا وسياسيًّا، وأن يكون الحكم علىٰ أساس دين الأغلبية، حتىٰ لو كان مفترس الحكم كافرًا أصليًّا، فإن عقله وإنصافه يقضي عليه بذلك أمام الدنيا، حتىٰ لا يعتبر جاهلًا غاشمًا متحيزًا ضد دين الأغلبية.

إذ لا يقبل العقل بتاتًا أن تخضع الأكثرية الساحقة لرغبة الأقلية بأي حال، حتىٰ لو شاءت الأغلبية المسلمة الانضمام إلىٰ تكتل إسلامي من أي نوع، فلها الحق دون اعتبار برأي الأقلية القليلة التي هي ثلاثة بالمائة؛ لأنه لا يجوز الالتفات لمعارضتها بتاتًا، خصوصًا في الدين، فإن من واجب الحاكم الذي يحمل عقلًا استقلاليًّا مراعاة الأغلبية الساحقة في اتجاهها الديني والارتباط برباطه خلاف ما يصرحون به مما هو أضحوكة ونجاح للمستعمرين كافة، ولليهودية العالمية ـ أيضًا ـ.

والعجب أنهم يشتمون الاستعمار صباح مساء، فهل يريد الاستعمار أن يربح منهم أكثر من هذا الربح؟ إن أكبر غايات المستعمر وأعظم ربح يريده هو ما حصل عليه من الإطاحة بالحكم الإسلامي، وتكوين فئات مؤمنة بِهذا الهدف، وحاملة له، فهنيئًا له بوجود الزعماء القوميين الذين لم يكتفوا بإقصاء الحكم الإسلامي، بل عملوا علىٰ تشويهه وتنفير الناس منه، وقلب محاسنه والكذب علىٰ تاريخه، ولا شك أن موقفهم مخالف لتوحيد الربوبية والألوهية وتوحيد الصفات ـ أيضًا ـ، بإصرارهم علىٰ إبعاد الدين الإسلامي عن السياسة والتشريع، ووصفه بما هو طعن بذات اللَّه وأسمائه الحسنىٰ من العلم والحكمة والرحمة وغيرها.

والعجب أن التعاليم القومية التي ركَّزتها الماسونية اليهودية لم تؤثر إلا علىٰ أدمغة المسلمين وعقيدتهم، بخلاف غيرهم من طوائف

الكفر، فالمسلم إذا نجح في رئاسة دولة قومية إما أن يحمل جميع معاول الهدم والتخريب للإسلام التي لم يجرؤ عليها المستعمر قبله، وإما أن يكون فاقد الشخصية، لا قول له ولا عمل، كبعض المسلمين الذين يرأسون دولة علمانية غير ثورية، أما لو كان يرأسها يهودي أو نصراني أو وثني أو برهمي ونحوه، فإنه يكون أقوىٰ عامل لدينه وأكبر معاد للإسلام والمسلمين، كما شاهدناه حتىٰ من بعض النساء الوزيرات اللاتي لم ينلن رئاسة الدولة، فيا لها من تعاليم وتربية ملعونة هادفة لإفساد المسلمين علىٰ دينهم، وتضحيتهم بجميع المكاسب التي يحصلون عليها من طريق الدين.

وما أكثر الأعاجيب المضحكة من هرائهم ومهازلهم القولية والفعلية، فإنهم يصرحون بكل وقاحة وعدم حياء أن الدول التي قامت علىٰ الدين هي مخالفة لمنطق التاريخ في أن يبقىٰ الدين بعيدًا عن الحكم والسياسة، وأن قيام القوميات علىٰ أساس ديني مخالف للتاريخ، فلنتساءل معهم عن دولة رسول اللَّه ﷺ الذي شيد دعائمها بالمدينة المنورة، ودولة خلفائه الراشدين الذين سلمت إليهم من بعده قيادة المسلمين في كل مكان عن حب وولاء، هل هي دولة خالفت منطق الأشياء والتاريخ؛ لأنها تقوم علىٰ العصبية الدينية، والتعصب الديني ممقوت ومكروه وطيش ورعونة في نظر القوميين يجب القضاء عليه؟ وطبعًا جوابهم علىٰ وفق ما انطبعوا به من النظريات الماسونية وفق ما أعلنوه صراحة.

وكما أراحنا الزعماء السياسيون والعسكريون للقومية أنها مبتورة من الدين، وأنها ترفض الصلة به، والحكم علىٰ أساسه بتاتًا، فقد أراحنا القادة الفكريون من طواغيتها عملاء الاستعمار والماسونية أمثال ساطع الحصري والدكتور العريان وغيرهم ممن اتبعوا الماسونين والمستشرقين في تحريف العقيدة والنظام الإسلاميين، وإعلان فصل الدين عن الدولة، وعدم الاحتكام إليه بتاتًا.

وينصب «الحصري» نفسه حاكمًا مفتيًا لتحريف نصوص القرآن في أخوة المؤمنين، والحكم بما أنزل اللَّه، فيفتي بكل وقاحة أن نصوص الأوامر والنواهي شيء، وتفسير هذه الأوامر وتنفيذها بصورة فعلية شيء آخر، وأنها يجب أن تفسر وتنفذ حسب ظروف الزمان والمكان، فيترك لأهل كل قطر وأهل كل مصر، فما كان يصلح للناس في القرن الأول لا يصلح لغيرهم في القرن الرابع عشر، فهذا هو الحل الذي قدمه طاغوت القومية صنيعة الاستعمار ساطع الحصري الذي عينه الكافر المستعمر مديرًا للتعليم في الشام والعراق للمشكلة القائمة بين المفاهيم القومية والنصوص القرآنية الشديدة في الحكم بما أنزل اللَّه الذي منه الإجراءات السياسية مع الكفار، وهذا عين الاستدراك علىٰ اللَّه وانتقاص جنابه الكريم، والتنديد بعلمه وحكمته ورحمته، بل إنكار ذلك علىٰ حد قوله ـ والعياذ باللَّه ـ وهذا التصريح منه ومن أمثاله يقطع ألسنة المعتذرين عن القوميين المخادعين والمتاجرين بها، والمنخدعين بتلبيساتهم، ويوضح بعدهم عن دين اللَّه ومعاكسته له ومعاداتهم لحكمه.

وقد صرح الدكتور مجد العريان بما لا يدع مجالًا للشك في نفرة القوميين من الانتساب الصحيح للإسلام، فضلًا عن الاحتكام إليه، حيث قال: ليس صحيحًا أن يقال إن الإسلام هو المقصود من القومية العربية، ومثله أن يقال: إن المسيحية هي المقصودة بكلمة الصليبية، إلىٰ آخر كلامه الساقط الفاجر، الذي لا نحب نقله ومناقشته هنا، لكن أوردت هذه الجملة التي اعترف بها أن الإسلام ليس هو المقصود من القومية.

وهذه خدمة طيبة منه للإسلاميين، خصوصًا وبجانبها كذب مفضوح اضطره إليه قياس المسيحية والصليبية علىٰ الإسلام والقومية، فليس هناك تعارض بين المسيحية والصليبية كما تتعارض القومية مع الإسلام، بل الصليبية هي الشعار الصحيح الصادق للمسيحية،

والذي يحمله كل نصراني، خصوصًا في الحرب ضد المسلمين، عكس ما يخادع به الدكتور العريان في مفترياته، أما التعارض بين الإسلام وبين القومية أي قومية كانت فإنه تعارض بين عقيدة سماوية يجب أن يحكم أهلها بحكم اللَّه، وبين شعار لا ديني أحدثه اليهود لإقصاء دين اللَّه عن الحكم وقمع أهله.

وبالجملة فإن القومية التي هي وليدة الماسونية اليهودية وربيبة الاستعمار ليس عند أهلها سوىٰ الكذب المفضوح والمتناقضات، ومخادعة المسلمين للتغرير بهم، وإلهاب حماس الشباب بالكلمات البراقة نحو القومية والوطن، مما بعضه كفر قبيح كقولهم: «الدين للَّه والوطن للجميع»، ولا يعتبرون بخيانة النصارىٰ المتكررة لهم، وإهدارهم لجميع الشعارات القومية في سبيل العقيدة النصرانية.

والعجب ـ أيضًا ـ أنهما للآن لم يتفقوا علىٰ تحديد مفهوم القومية والعروبة كما هو ظاهر من تناقضهم المضحك في تحديدها مما لا أحب ذكره في هذا التفسير، بل جعلته في قسم المحاورات والمناظرات من مؤلفاتي، ولم أتعرض لها هنا إلا اضطرارًا للدفاع عن ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ التي هي مناقضة لها تمام المناقضة.

حادي عشرها: ليست ملة إبراهيم التي هي دين اللَّه لجميع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم الصادقين مجرد إرشادات وطقوس وعبارات شكلية، ولا علاقة خاصة مع اللَّه بِهذه العبادات كما يزعمه القوميون، ويؤكدون أنه لا علاقة له بشئون الحياة، بل دين اللَّه ملة إبراهيم علىٰ العكس مما وصفوها، فهي دين يوجب علىٰ أهله تحقيق عبادة اللَّه في جميع شئون الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وجميع أحوال السلم والحرب، ليس مقصورًا علىٰ مسجد ونحوه كما تريده له الماسونية وأفراخها، بل يوجب علىٰ أهله تسيير سياستهم الداخلية والخارجية علىٰ ما يحبه اللَّه ويرضاه، من موالاة المسلمين،

ومعاداة الكافرين مهما كانوا، وأن يلاحظوا في التعاقد معهم ما فيه نصرة الملة وانتشارها وحمايتها قبل كل مصلحة.

وأن يتعاملوا في التجارة والاقتصاد وفق شرع اللَّه، وترتكز ثقافتهم علىٰ وحي اللَّه، ويكيفوا الشئون الاجتماعية بتشريعات اللَّه دون سواها، وتحكيم سنة رسوله عليه الصلاة والسلام في جميع الشؤون بكل استسلام، ودون أي تحرج كما أسلفنا في تفسير الآية (٦٥) من هذه السورة.

ليكونوا: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، فإن من لم يتبرأ من الكفار والمشركين، ويتخذ منهم موقفًا حسب ما جاء في القرآن، لا يكون ممن أخلص الدين للَّه حنيفًا، وكذلك من يحصر التلقي للهداية والثقافة علىٰ وحي اللَّه، ولم يقصر الاحتكام علىٰ شرعه في جميع الشئون، لا يكون مخلصًا دينه للَّه، وقد أسلفنا تفاصيل ذلك في تفسير مدلولات: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

ثاني عشرها: ينبغي للمسلم المؤمن حماية الإخلاص للَّه في أعماله، وصيانته مما ينقصه أو يحبطه، وذلك بأن لا يرىٰ لنفسه فضلًا في العمل، يُدلي به علىٰ اللَّه، بل يرىٰ أن ما عمله بتوفيق اللَّه وفضله وهدايته، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وهذا لئلَّا يُعجب بعمله ويغتر بنفسه، وأن لا يطلب العوض من اللَّه علىٰ عمله اعتمادًا علىٰ العمل، بل يجزم أنه عبد محض للَّه، والعبد لا يستحق علىٰ خدمته لسيده شيئًا، بل يرجو فضله وكرمه وإحسانه، وأن يستشعر تقصيره دائمًا، فيخجل من اللَّه، ويجتهد في مواصلة الأعمال المرضية له، وأن يقارن ذلك بفضل اللَّه ونعمائه عليه، وجوده المتواصل، ليعرف حقارة عمله أمام أصغر نعمة من نعم اللَّه عليه، فإنه بِهذه الأمور يصون إخلاصه، ولهذا قالوا: من شهد في إخلاصه الإخلاص احتاج إخلاصه إلىٰ إخلاص، فنقصان كل مخلص في إخلاصه بقدر رؤيته لإخلاصه، فينبغي صيانة الإخلاص عن شوائب الرياء والإعجاب ونحو ذلك من الأمراض القلبية، فإذا سقط من نفسه

رؤيته للإخلاص صار مخلصًا مخلصًا.

ثالث عشرها: من لوازم الإخلاص: الاستقامة والاعتصام، فهما للإخلاص كالروح للجسد، فالاستقامة هي الثبات علىٰ طاعة اللَّه وتوحيده، وطلب مرضاته قولًا وقصدًا وعملًا، وإن لم يكن العمل كثيرًا كما قال ﷺ: «**أحب الأعمال إلىٰ اللَّه ما داوم عليه صاحبه وإن قل**»[1]، أما الاعتصام فهو تحري السنة وملازمتها، وقصر السلوك علىٰ متابعة وحي اللَّه والاقتداء بنبيه ﷺ، وفسرها المحققون بالثبات علىٰ عبادة اللَّه في جميع نواحي الحياة كما أسلفنا، وبذل المجهود في مرضاة اللَّه، والتزام الاقتصاد بدون إفراط ولا غلو ولا تفريط، والوقوف عند حدود اللَّه في جميع تشريعاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والثبات علىٰ الإخلاص للَّه والصدق معه، وذلك هو توحيد المراد والإرادة كما مضىٰ توضيحه في سورة الفاتحة، والثبات علىٰ متابعة وحي اللَّه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولأهل السلوك مصطلحات قد تخرج بأهلها عن حقيقة الاعتصام فلذلك أعرضنا عنها.

رابع عشرها: قيد اللَّه سبحانه وتعالى حسن الدين لمتبع ملة إبراهيم بالإحسان في قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ لأن الإحسان هو لباب الإيمان وروحه وكماله، وهو أعلىٰ مراتب العبودية والدين، وجميع معانيها مندرجة تحته، فهو جامع لكل أنواعها من أعمال القلب والجوارح، وقد فسره النبي ﷺ أعظم تفسير وأجمعه حيث قال: «**الإحسان أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2].

ففيه الإشارة إلىٰ كمال الحضور مع اللَّه سبحانه، ومراقبته التامة الجامعة لخشيته وكمال معرفته، ومحبته والإنابة إليه والإخلاص له قولًا وعملًا وقصدًا، والصدق غاية الصدق، وفي قوله ﷺ: «**فإن لم**

---

(١) رواه مسلم (٧٨٥).
(٢) تقدم تخريجه.

تكن تراه فإنه يراك»[١]، تنبيه للمؤمن من حصول أي غفلة عن اللَّه أو تقصير في حقه أو جراءة علىٰ فعل ما يغضبه، بسبب انحجاب عينه عن رؤيته؛ لأن العين إذا لم تشاهد ما يخشىٰ صاحبها من رؤيته أو يستحي فإنه يجري منه الإهمال والتقصير، أو الجراءة علىٰ المعصية بالدوافع النفسية والشيطانية، فلهذا أخبره الخبر الصريح الموقظ المفزع بأن لا يغتر بانحجاب عينه عن رؤية اللَّه.

فإن اللَّه سبحانه يراه ويطلع علىٰ جميع حركاته وسكناته لا يحجب عن رؤيته وعلمه جدار ولا سقف ولا باب ولا ستر، ولا أي نوع من الاختفاء، وبقوة استيقان العبد لهذا ينال منزلة المراقبة التي هي من أنفع مراتب العبودية، وهي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع اللَّه سبحانه علىٰ ظاهره وباطنه، وهي ثمرة علمه أن اللَّه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، مُطلع علىٰ عمله كل وقت وكل لحظة وكل طرفة عين. فمن راقب اللَّه في خواطره عصمه اللَّه في حركات جوارحه، فيؤثر ما أنزل اللَّه علىٰ غيره، ويُعظم ما عظم اللَّه، ويُصغر ما صغره اللَّه، فلا يكون في قلبه أدنىٰ حب أو تعظيم لأي طاغوت مهما كان، بل ولا لأي مخالف لملة إبراهيم أبدًا.

قال بعضهم: الرجاء يحرك إلىٰ الطاعة، والخوف يبعد عن المعاصي، والمراقبة يحصل بها الاستقامة علىٰ مرضاة اللَّه، وعلىٰ هذا فهي خلوص السر والعلانية للَّه؛ لأنها مراعاة القلب لملاحظة الرب ﷻ مع كل خطوة وخطرة، فمن راقب اللَّه في سره حفظه اللَّه في جميع حركاته السرية والعلنية.

ومحل المراقبة من أسماء اللَّه الحسنىٰ أنها التعبد باسمه الرقيب الحفيظ العليم السميع البصير المحيط، وبدوام المراقبة يكتسب صاحبها دنوًا وقربًا من اللَّه، يحمله علىٰ تعظيمه والذهول عن نفسه وعن غيره،

---

(١) تقدم تخريجه.

فيبذل مجهوده في طلب مرضاته، ويحمل سرورًا باعثًا له علىٰ ذلك.

قال ابن القيم: ومن لم يجد هذا السرور ولا شيئًا منه فليتهم إيمانه وأعماله، فإن للإيمان حلاوة من لم يذقها فليرجع ويقتبس نورًا يجد به حلاوة الإيمان، وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته فقال: «**ذاق طعم الإيمان من رضي باللَّهِ ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا**»(١). فذكر الذوق والوجد وعلقه بالإيمان وقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان: من كان اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا للَّهِ، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يلقىٰ في النار**»(٢).

قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس اللَّه روحه ـ يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا فاتْهمه، فإن الرب تعالىٰ شكور يعني أنه لابد أن يثيب العامل علىٰ عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول. اهـ.

وذلك أن للأعمال بوادر عاجلة من ثواب اللَّه لصاحبها في الدنيا من حسن عاقبتها عليه، واتصالها بحياته وجميع شئونه، فالصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر، وتهذب أخلاقه وتربيه أعلىٰ تربية يحبها اللَّه، وهكذا الصيام يقوي العزيمة، ويمكن للنفس اللوامة وللبصيرة أن تشرق، فيرىٰ صاحبها الصراط السوي، فيكون من المتقين، وهكذا كل الأعمال الصالحة فإن لها ثوابًا يصلح الشئون كلها في الدنيا، فتسعد به الحياة في الأسرة والمجتمع، كما أن أعمال السوء لها من التأثيرات السيئة في جميع نواحي الحياة، ولهذا لا ينجو من شرور الدنيا والآخرة إلا صاحب القلب السليم والإحسان والتقوىٰ.

خامس عشرها: مرتبة الإحسان تكسب أهلها شامات الحياء العشرة،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وهي: حياء الجناية، وحياء التقصير، وحياء الإجلال، وحياء الكرم، وحياء الخشية، وحياء استصغار النفس واحتقارها، وحياء المحبة، وحياء العبودية، وحياء الشرف والعزة، وحياء المستحي من نفسه.

فالأول: حياء الجناية، وهو أن يستحي من فعل المعصية لاستيقانه باطلاع اللَّه عليه، ثم يستحي بعدها فيبادر بالتوبة.

والثاني: حياء التقصير وهو أن يستصغر جميع ما يقوم به من العبادة والبذل والتضحية للخلاق العظيم واهب النعم ودافع النقم. وأهل هذا المقام فيهم شبه من الملائكة الراكعين الساجدين الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

والنوع الثالث: حياء الإجلال: وهو حياء المعرفة، حق المعرفة لرب العزة والجلال، وعلىٰ حسب معرفة العبد بعظمة ربه وقربه منه يكون حياؤه كذلك.

والرابع: حياء الكرم فإن كريم النفس يستحي حتىٰ ممن هو أدنىٰ منه، فكيف بمن هو أعلىٰ منه، بل كيف بحياء الكريم من الكبير المتعال، مسبغ الأفضال وواسع النوال، ومثلوا لهذا الحياء فيما بين الناس بحياء النبي ﷺ ممن دخلوا لوليمة زينب، فطولوا الجلوس حتىٰ قام واستحيا أن يأمرهم بالانصراف، وفي ذلك أنزل اللَّه آية الثقلاء (٥٣) من سورة الأحزاب التي منها قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. ومثله حياء الإمام علي رضي الله عنه أن يسأل رسول اللَّه ﷺ عن حكم المذي، فكلف المقداد بن الأسود أن يسأله عنه، وذلك لمكان ابنته منه.

والحياء الخامس: حياء الخشية وهو امتناع العبد عن التقصير في الطاعة أو مقاربة المعصية لقوة خشيته من اللَّه، وخوفه من سخطه، وهذا الحياء يكسب صاحبه مجاهدة النفس علىٰ مرضاة اللَّه وكثرة الاستغفار.

والحياء السادس: حياء الاستحقار واستصغار النفس كحياء العبد من اللَّه سبحانه حين يسأله حوائجه، احتقارًا لشأن نفسه، واستصغارًا لها، وخصوصًا ما يخالج بعضهم من الحياء عند دعائه المعتاد في صلاته، فإذا فاتته الجماعة يستحي من مواصلة دعائه لتقصيره في ذلك، ونحوه في كل ما يحصل منه من التقصير يستحي من سؤال اللَّه حتىٰ يجبر ما نقص منه، وسبب هذا هو استعظامه لتقصيره في جنب اللَّه واحتقار نفسه أن يسأله وهو علىٰ هذه الحال.

والحياء السابع: فهو حياء المحب من محبوبه، وناهيك بالمحبوب الأعظم ﷻ، فإن الصادق في محبته يمنعه الحياء منعًا باتًّا من مقاربة أي شيء يبعده عنه.

قال ابن القيم: ولا ريب أن للمحبة سلطانًا قاهرًا للقلب أعظم من سلطان من يقهر البدن، فأين من يقهر قلبك وروحك إلىٰ من يقهر بدنك؟ ولذلك تعجبت الملوك والجبابرة من قهرهم للخلق، وقهر المحبوب لهم وذلهم له.

فرحمه اللَّه علىٰ هذا التمثيل، والحمد للَّه الذي جعل الجبابرة يخضعون لأخس من يملكونه، ويكون في قلوبهم إجلال له وهم لا يرجون للَّه وقارًا وأما حياء المحبة بين الناس فلا نرىٰ لذكره مقامًا.

والحياء الثامن: حياء العبودية وهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة نقص عبادته لمعبوده، وأنه مهما قويت العبادة وكثرت فقدر المعبود سبحانه أعلىٰ وأجل منها، فكلما صدقت عبوديته للَّه ازداد حياؤه منه.

والحياء التاسع: حياء الشرف والعزة وهو حياء النفس العظيمة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء، أو إحسان أو تقصير في واجب، فإنه يستحي مع فعله حياء شرف وعزة نفس، ومثل هذا يرىٰ حق اللَّه عظيمًا أعظم مما يراه غيره، فيستحي من كل ما يعمله الكريم باعتباره تافهًا.

ولهذا النوع من الحياء بين المخلوقين وجود عند الشريف رفيع النفس، فإنه يستحي من الإعطاء ممن أعطاه، كأنه هو المستلم، حتىٰ إن بعضهم يدفع العطية أو الصدقة بواسطة دون مواجهة؛ لأنه يستحي من خجلة المستلم، ويدخل الحياء في حياء التلوم.

والنوع العاشر: حياء المرء من نفسه وهذا ـ أيضًا ـ حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون، فيجد نفسه مستحيًا من نفسه، حتىٰ كأن له نفسين يستحي بإحداهما من الأخرىٰ، وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحيا من نفسه كان أجدر بالحياء من غيره، وصاحب هذا الحياء يرتدع عن مخالفة أوامر اللَّه، ويسارع في مرضاته، ويمنعه الحياء من الاستخفاء من الناس، وهو لا يقدر علىٰ الاستخفاء من اللَّه، فيكون بذلك علىٰ أرفع المستويات في الأخلاق والسلوك، فافهم هذه المقامات من الحياء، فلعلك لا تظفر بذكرها كاملة في غير هذا التفسير.

سادس عشرها: تحقيق ملة إبراهيم يُكسب صاحبه جميع مراتب الجود والسخاء، بل يكسبه الإيثار الذي هو أعلىٰ المراتب، لأن المؤثر علىٰ نفسه، إما بفضل موتها في سبيل مرضاة محبوبه وهذا لا يجوز إلا للَّه، وإما يترك ما هو محتاج إليه ويفضل غيره به لمحبته له في اللَّه، وهذا هو المندوب إليه المشكور صاحبه، بخلاف من كانت دوافع محبته شهوة حيوانية، أو أغراضًا نفسية، وقد مدح اللَّه الأنصار بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] فالإيثار ضد الشح؛ لأن الشحيح حريص علىٰ ما ليس بيده، فإذا كان فيها شح عليه وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل ولهذا قال اللَّه سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقال ﷺ: «**إياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**».

وفي نص آخر: «**استباحوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**»[١].

فالبخيل من أجاب داعي الشح، والمؤثر من أجاب داعي الجود، والجود أحد عشر نوعًا: الجود بالنفس، والجود بالمال، والجود بالرئاسة، والجود بالراحة والرفاهية، والجود بالعلم، والجود بالنفع والجاه، والجود بنفع البدن علىٰ اختلاف أنواعه، والجود بالعرض بالصفح عن الشاتمين، والجود بالصبر واحتمال الأذىٰ، والجود بتركه بما في أيدي الناس عليهم، والجود بالبِشْر، وجميع هذه الأنواع يشملها معنىٰ الإيثار الذي اتسمت به ملة إبراهيم ﷺ، وأفضله الجود بالنفس في سبيل مراد اللَّه ومحبوبه، ثم أرخص حياة ابنه مستسلمًا لذبحه مفضلًا مراد اللَّه ومحبوبه منه علىٰ أعز محبوب، وكذلك المؤمنون، يرخصون أنفسهم وأموالهم فيما يحب اللَّه من الجهاد في سبيله، لإعلاء كلمته وقمع المفتري عليه، وإقامة حكمه، وإخراس أهل الباطل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلان كلمة الحق في وجه الظالم، وتفنيد شبهات الدجاجلة والطواغيت دون مبالاة، بحيث لا تأخذهم في اللَّه لومة لائم إرخاصًا لأنفسهم وأموالهم في ذات اللَّه سبحانه.

فأول أنواع الجود المحمود هو الجود بالنفس: وهو أعلىٰ مراتب الجود كما قال الشاعر:

يجُودُ بالنفس إذ ضَنَّ البخيلُ بها والجُودُ بالنفس أقصىٰ غايةِ الجودِ

وإنما قيدناه بالممدوح؛ لأن الجود بالنفس لا يجوز شرعًا إلا في ذات اللَّه كما أسلفناه.

ومن أنواع الجهاد في سبيل اللَّه ما يكون باللسان أو بالسنان والمخاطرة بالنفس لإعلاء كلمة الحق عند الكفار أو الظلمة أو الفساق، فأما بذلها في حال الشجاعة الجاهلية والمبادئ القومية والمذاهب المادية وتقديس الجنس والطين، أو الانتحار من أجل ذلك، أو من أجل

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨).

غضبة الجاهلية فهذا لا يجوز، ومن باع نفسه في هذه السبل الشيطانية فهو من أهل النار، كما صحت الأحاديث عنه ﷺ مما أسلفنا ذكره.

والثاني من أنواع الجود: الجود بالمال الذي هو أعز عزيز بعد النفس، بل يسلك الإنسان بنفسه المخاطر والأهوال من أجله، ولا يجود به إلا ذوو السماحة والفدىٰ، وأكرمهم من جاد به عن قلة مال كما قال الشاعر:

ليس العطاءُ من الفضول سماحةً حتىٰ تجودَ وما لديكَ قليلُ

والممدوح في الشرع من جاد بالمال في سبيل اللَّه لنصرة الدين وحمل رسالته، وفي طرق الخير النافعة للمسلمين، أو الحامية لعقيدتهم بصدق وإخلاص، أما المنفق له رياء فهو من الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، كما في الحديث الصحيح.

والثالث من أنواع الجود: هو الجود بالرئاسة، وهو أن يضحي برئاسته وسيادته في سبيل عقيدته، فلا تكون له مانعًا من قبول الحق ونصرته ونصرة أهله. وفي الغالب أن من خلصت نيته بالجود برئاسته في سبيل اللَّه أعزه اللَّه، فامتدت رئاسته وقويت أعظم مما كانت قبل، ومن رفض الحق أو أعرض عنه شحًّا بها سلبه اللَّه إياها ولو بعد حين، كما جرىٰ في تاريخ الإسلام، ومن الجود بالرئاسة أن يمتهنها في قضاء حاجات الملتمسين لوجه اللَّه، والجود بالرئاسة له شأنه الكبير.

والرابع: الجود بالراحة والرفاهية واستجمام النفس: فيجود بذلك تعبًا وكدحًا في سبيل العقيدة ومصلحة أهلها حتىٰ لا يطيب له النوم إلا بقوتها وانتصار أهلها، وهذا هو الجود بالراحة الممدوح، خلافًا لمن يجود براحته للأغراض الدنيوية والأخوة الشيطانية، ومن الممدوح - أيضًا - الجود بالراحة لقضاء حوائج المؤمنين وإنعاشهم.

والنوع الخامس: الجود بالعلم، وهو أعلىٰ من الجود بالمال

والراحة، وفيه أجر كبير بقدر منفعته، وقد يفوق أجره جميع الأجور مع الإخلاص، فأما مع الرياء والسمعة فإن صاحبه يكون من الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار، وقد اقتضت حكمة اللَّه أن لا ينفع به بخيلًا، وأن يزيد من بذله علمًا وحكمة، ويحرم البخيل من نفعه وزيادته بل ينقصه.

ومن أكبر أنواع الجود وأنفعها بذله بغير سؤال بأن ينشره علىٰ قدر استطاعته علىٰ الناس ليهتدوا ويقتدو به، فمنفعة الهداية بالدين وعظيم ثوابها لا يعدلها شيء أبدًا، ثم التوسع في بذله لمن سأله بذكر النظائر والفوائد المتعلقة بالسؤال، وذكر العلل والحكم، فقد أرشدنا النبي ﷺ إلىٰ ذلك لما سئل عن التوضؤ بماء البحر فقال: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»(١). فأجابهم علىٰ سؤالهم، وجاد عليهم بزيادة فائدة لعلهم أحوج إليها مما سألوه عنه، وكانوا إذا سألوه عن الحكم أرشدهم إلىٰ علته وحكمته ومبعث حكمه، فإنهم لما سألوه عن بيع الرطب بالتمر قال لهم: «**أينقص الرطب إذا جف؟**»، قالوا: نعم، قال: «**فلا إذن**»(٢). فهذا استفهام منه ﷺ علىٰ جهة التقرير وليس استعلامًا، إذ ليس يخفىٰ عليه ولا علىٰ عاقل أن الرطب ينقص إذا جف، ولكن نبههم علىٰ علة الحكم التي هي الجفاف، ومثل هذا كثير كقوله ﷺ لسائله عن التقبيل وهو صائم: «**أرأيت لو تمضمضت**»(٣). فهذا تنبيه علىٰ قياس العلة وهو من أنواع الجود بالعلم وهو ممدوح جدًّا، كما قال الشاعر في تهديد البخيل فيه:

يزيد بكثرة الانفاق منه ... وينقص إن به كفًّا شددنا

---

(١) رواه أبو داود (٨٣)، والتِّرمذي (٦٩)، والنسائي (٥٩)، وابن ماجه (٣٨٦).

(٢) رواه أبو داود (٣٣٥٩)، والتِّرمذي (١٢٢٥)، والنسائي (٤٥٤٥)، وابن ماجه (٢٢٦٤).

(٣) رواه أبو داود (٢٣٨٥).

والنوع السادس: من أنواع الجود هو الجود بالنفع والجاه، كالشفاعة وشد أزر الرجل بالمشي معه إلىٰ ذي سلطان أو نفوذ، ويسمون هذا زكاة الجاه، كما أن بذل العلم زكاته.

والسابع الجود بنفع البدن: علىٰ اختلاف أنواعه، كما فصله النبي ﷺ بقوله: «**يصبح علىٰ كل سُلامىٰ من الناس صدقة ـ أي علىٰ كل عرق منا ـ كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلىٰ الصلاة صدقة، ويميط الأذىٰ عن الطريق صدقة**»[1]. متفق عليه.

والنوع الثامن الجود بالعرض: والمقصود منه إباحته للشاتمين، وهذا ناشئ من سلامة الصدر عن الغيظ والحقد وراحة القلب، ويستفيد صاحبه التخلص من معاداة الناس، وهذا كقول أبي ضمضم الصحابي في جوده بعرضه إذا أصبح قال: اللهم لا مال لي أتصدق به علىٰ الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضي، ممن شتمني أو قذفني فهو في حلٍّ. فقال ﷺ: «**من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم**»[2].

والنوع التاسع الجود بالصبر والاحتمال: ويكون بالصبر علىٰ أذىٰ الناس والإغضاء عن مساويهم، والصفح عن جرائمهم، وهو جود الفتوة ومعدود من الصدقة في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]. وقوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: ٩٢].

والعاشر: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بلسان الحال أو المقال، وهذا هو الذي قال عنه عبداللّه بن المبارك: إنه أفضل من سخاء الناس

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أبو داود (٤٨٨٧).

بالبذل والمعنىٰ إن لم يعطك اللَّه ما تجود به علىٰ الناس، فجد عليهم بزهدك في أموالهم وما في أيديهم تفضل عليهم وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة وفي الحديث: «**ازهد فيما عند الناس يحبك الناس**»(١).

والنوع الحادي عشر: الجود بالبِشر وحسن الأخلاق والانبساط، وهو فوق الجود بالصبر واحتمال الأذىٰ؛ لأنه أثقل ما يوضع في الميزان، وقد ورد الحديث: «**بأن الرجل يدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار**»(٢). وقال ﷺ: «**إن من المعروف أن تلقىٰ أخاك بوجه طلق**»(٣). وما أكثر فوائد هذا النوع، وفي كل نوع من الجود فوائد وتأثيرات خاصة علىٰ صاحبها وعلىٰ المجتمع، نسأل اللَّه الذي وفقنا لجمعها أن ينفعنا بها.

سابع عشرها: ملة إبراهيم تحفظ لأهلها قيمتهم وكرامتهم بين الأمم؛ لأنهم بتميزهم العقائدي، واستقلالهم الثقافي، ومنهجهم الأخلاقي، ووحدتهم الدينية لا ينصهرون في بوتقة غيرهم، بل يعتزلونه اعتزالًا معنويًا لتباين ما بينهم وبينه في التصورات والسلوك، وقد يعتزلونه اعتزالًا حسيًا إذا اقتضىٰ صالح عقيدتهم وسلامة أفكارهم ذلك؛ لأن ملتهم الحنيفية لا تبيح لهم التنازل عن أدنىٰ شيء علىٰ حسابهم، فهم يخالطونهم مع التميز الفكري والتباين الأخلاقي مادام في المخالطة نفع وانتشار لعقيدتهم، أو تعريف وتحبيب بدون ضرر.

فأما إذا لم يحصل بالمخالطة إلا الضرر، اعتزلوهم للتوقي منه ولو بالهجرة، كما هو الواجب علىٰ المؤمنين لتبقىٰ عقيدتهم في أمان، ويكون لهم كيان مستقل، بحيث لا يطمع خصمهم، بل يذهبون غيظه

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٢).
(٢) رواه أبو داود (٤٧٩٨).
(٣) رواه مسلم (١٤٤).

بالجهاد، فإنهم بِهذا يكونون موفوري الكرامة، مرهوبي الكيان، قد انتظمت أحوالهم وصلحت بتحكيم شرع اللَّه، أما بدون ذلك فإنهم لم يحققوا ملة إبراهيم ﷺ، ولا يجوز لهم الاتحاد مع الكفر باسم الوطن أو المواطنة، فإن هذا مع حرمته وجنايته علىٰ العقيدة قد اتضح ضرره وفساده علىٰ المسلمين، لخيانة خصومهم لهم، فلم يبق إلا الاعتماد بالتخطيط لاستلام القيادة مع إخلاص المقاصد للَّه، والصدق مع اللَّه بالأعمال الصالحة، وقصر النوايا علىٰ إعزاز الدين ونشر رسالته، حتىٰ يفوزوا بنصر اللَّه ومدده، واللَّه غالب علىٰ أمره.

أما إذا ركنوا للمناهج الماسونية، وانضبعوا بالقوة المادية، واقتصروا من الإسلام علىٰ اسمه، فاندمجوا مع الكفر بدافع الوطنية والمصالح المشتركة، كما هو الحاصل الآن، فإنهم في حالة انتحار معنوي وسقوط حسي، قد يفضي بهم إلىٰ الإبادة حسب ما يريد خصومهم، وهم الجناة علىٰ أنفسهم بعدم اقتدائهم بنبيهم ﷺ وتحقيقهم نصرة الدين الحنيف.

ثامن عشرها: ملة إبراهيم ﷺ تحفظ لأهلها أوقاتهم، وتوفر أموالهم، وتفجر طاقاتهم، لأنها تحرم عليهم اللهو واللعب وتبذير المال، فضلًا عن إضاعته، وتوجب عليهم اليقظة وأخذ الحذر والاستعداد، وبكل المستطاع من القوة، حتىٰ يتحقق ما أوجبه اللَّه من كون الإسلام يعلو ولا يُعلىٰ عليه، قال ﷻ: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وهذا أمر عام أكيد من اللَّه بترك الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، وأن يعرض عنهم ولا يلتقي بهم أبدًا، ولا يعيرهم اهتمامًا، لأن الدين شرعه اللَّه لاتجاه البشرية إليه، والقيام بحقيقة شكره وذكره، وحصر الأعمال والأقوال والمقاصد لوجهه الكريم ﷻ.

فالذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا من كل أنواع المشركين الأصليين الذين عبدوا أهواءهم بأسماء وأحوال شتىٰ، أو المشركين المنتسبين للإسلام، ممن يعملون ببعض الكتاب ويتركون أكثره، سالكين ما تهوىٰ أنفسهم، أو المسلمين المفرطين الذين ليس معهم من الإسلام إلا اسمه،

وبعضهم لا يعمل بأوامره إلا الصلاة والصيام ونحوهما، وقد غزت قلوبهم حب الشهوات واللهو، فضيعوا أوقاتهم بالمعازف والمجون، وأموالهم بالملذات والأغراض النفسية، واستولت عليهم شبهات الغزو الفكري، حتىٰ أصبحت حياتهم ومجهوداتهم لغير صالح عقيدتهم وحقيقتهم، أو جعلوا الدين وسيلة لحطام الدنيا وشهواتها، فجميع أهل هذه الأصناف ليسوا من اللَّه في شيء، لأنهم اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا علىٰ اختلاف ممالكهم وأذواقهم وتقليداتهم.

فالمسلم المؤمن مأمور بتركهم، والإعراض والتخلي عنهم، وعدم المبالاة بهم، وأن يعمل لإقامة دين اللَّه ملة إبراهيم، فيحصر مجهوداته وأعماله وجهاده وبذله وتضحيته للَّه، لا يضيع شيئًا من وقته لغير اللَّه، فإن وقته ثمين يجب ألا يضيع منه طرفة عين في غير العمل لدين اللَّه، وأن يشح بماله في غير سبيل الدين والعقيدة فلا يصرف شيئًا لغير مصلحتها ولا يسيل من ثروة المسلمين شيئًا لأعدائهم أبدًا، بل يتقي اللَّه في حفظها وصرفها كما اتقاه في اكتسابها.

وعلىٰ المسلمين أن يسلكوا في شئونهم الاجتماعية مسلكًا ملائمًا لعقيدتهم ومنسجمًا معها، فلا يقلدوا أعداءهم الكفار بسلوك ما يخالف عقيدتهم الدينية، فإنهم متباينون عنهم في تصوراتهم ونظرتهم للحياة، وأن يتمسكوا بأهداف القوة والحزم، ولا يحسنوا الظن بالكفار أبدًا، ولا ينخدعوا بما يظهرونه من الموادعة والملق، فإن ما يحملونه في صدورهم من مخالفة الدين لا يمكن معه استدامة الموادعة ولا الإنصاف، وإنما هي خطة لاغتنام الفرص، ولم يؤت المسلمون في كل زمان ومكان إلا من الغفلة والسذاجة والميوعة وعدم الاهتمام بأمر الدين، وهذا معصية للَّه وإهمال لتعاليمه، يستحقون بها العقوبة منه علىٰ يد أعدائهم، فإن اللَّه لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم، فإذا أضاعوا أوقاتهم النفيسة وأموالهم الغالية في غير صالح العقيدة، بل في ضدها وضررها، وتميعوا في سلوكهم فقد تعرضوا للعقوبة.

تاسع عشرها: ملة إبراهيم توجب علىٰ أهلها أن يكونوا مسيرين لغيرهم لا مسايرين، ومصلحين لما فسد من أحوالهم، لا مقلدين لهم فيها، بل يكونون أمارين بالمعروف، نهائين عن المنكر، حافظين لحدود اللَّه، ناصحين للَّه ولرسوله ولكتابه وجميع المسلمين وعموم البشرية، بإدخال الهداية إلىٰ قلوبهم، وتطهير مجتمعاتهم من الفساد، ومقاومة الغزو الفكري الذي انغشوا به وسرىٰ إلىٰ أبناء المسلمين، فإنه لم يسر إلا بتفريط أهل الدين بواجب ملتهم وتقاعسهم وتخاذلهم عن مقابلة التخطيط بتخطيط أقوىٰ منه، والوقوف بوجه بوادر التيار قبل اندفاعه.

العشرون: علىٰ هذا فمن واجب أهل ملة إبراهيم الحنيفية الوقوف في وجه الباطل، ومصادمة كل واقع مخالف لعقيدتهم، فضلًا عن الهادف لهدمها، فإن أغلب النظريات والمذاهب يقصد بها تحطيم دين اللَّه، ومن الغلط الشنيع والهزيمة الفكرية النكراء الاستسلام لهذا الغزو المتنوع من الأفكار والتقاليد دون مقابلتها بالرفض والرد والتفنيد، وأطر أهلها علىٰ الحق أطرًا، فإن هذا أعظم جريمة من كل هزيمة حربية، رتب اللَّه عليها أفظع الوعيد وأشد العذاب.

ولا أسخف من عقول المتحذلقين المعاصرين الذين يزعمون أنهم يتمشون مع الواقع، أو لا يصادمون الواقع، وما قيمة من هذا موقفه من الأحداث؟ وهل لحياته ووجوده معنىٰ في معركة التقاليد؟ إنه منهزم لا خير في وجوده، ليس لحياته معنىٰ صحيح، سوىٰ أنه عول علىٰ غيره، فحياته ظل لغيره ونفع لغيره، ليس فيها نفع لدينه وأمة دينه، فالذي لا يصادم الواقع الفاسد، لا خير في وجوده بتاتًا، ولا يساوي قلامة ظفر، لأن الرجل العقائدي من واجبه الأصيل مصادمة كل واقع مخالف لعقيدته التي يدين بها، فالمتحذلقون الذين يتبجحون بعدم مصادمتهم للواقع، إما أن يكونوا منسلخين من دين اللَّه تمامًا، ولأجل ذلك تنشرح صدورهم بكل واقع، ويستحسنونه مهما كان قبيحًا

خبيثًا، وما دعواهم الإسلام إلا نفاق ولعب علىٰ العواطف، وإما أن يكونوا مائعين منهزمين، وعلىٰ كل حال فهنيئًا لدولة إسرائيل بوجودهم، وكل مستعمر شيوعي أو رأسمالي بوجودهم.

ومع الأسف إن الشيوعيين يصادمون كل واقع مصادم لعقيدتهم بكل عنف وضراوة، بل كل عاقل يصادم أول واقع مخالف لمذهبه، ولكن هذا يدل علىٰ أنهم مذبذبون ومستعدون لقبول التقاليد الغازية لهم، وأنهم يعتبرونها تطورًا وتقدمًا؛ لأنهم لا يقيمون للعقيدة والأخلاق المنبثقة منها وزنًا، واللَّه يسقطهم من عيون المعجبين بهم، فلا يقيمون لهم وزنًا، كما هي حالتهم الآن، فإن جميع الكفار لا يقيمون وزنًا ولا ينذعرون إلا من أهل ملة إبراهيم، ولذلك يضعون جميع العراقيل أمام انبعاثهم، ويسعون لتحطيمهم، ويشجعون أهل البدع الدينية والمادية ضدهم، فالذين يزعمون أنهم لا يصادمون الواقع هم العدو فاحذرهم، واعملوا علىٰ إصلاح تصوراتهم بكل وسيلة، فإن لم ينجح معهم الإصلاح، فهم أضر علىٰ المسلمين من كل عدو علىٰ الإطلاق.

الحادي والعشرون: في مدح اللَّه لنبيه إبراهيم واصطفائه أعظم الاصطفاء خير حافز وأكبر دافع للمسلمين إلىٰ الاقتداء به اقتداء صحيحًا، بصدق العبودية وقوة التنفيذ والإخلاص في التضحية، فإن اللَّه اتخذ إبراهيم خليلًا، وهذا أكبر منزلة وأعظم حظوة؛ لأن الخلة هي أعظم درجات الحب وأعلىٰ مقاماته كما فصَّل العلماء مقامات الحب، ومنهم الإمام ابن القيم في كتابه «الجواب الكافي» إلىٰ أن ذكر قول الشاعر في معنىٰ الخلة:

قد تخلَّلتَ مسلكَ القلبِ مني وبذا سُمي الخليلُ خليلًا

فهذا المنصب العظيم يجب أن يتنافس فيه المسلمون، لينالوا رضوان اللَّه والحظوة عنده، فيظفروا بنصره ومدده، فإنهم لن ينالوا مقام الخلة التي نالها إبراهيم، ولكنهم إذا اقتدوا به في معاملة اللَّه

معاملة الحب لحبيبه، فضحوا بمرادات أنفسهم ومحبوباتها في سبيل مراد اللَّه ومحبوبه كانوا من أوليائه المنصورين، وحزبه المفلحين الغالبين، فلم يتحكم بهم أعداؤهم كما هي حالتنا، بل يكونون مرهوبي الجانب، لا يطمع عدوهم بالنيل منهم، وإنما هم يسعون لإقامة حكم اللَّه عليهم قسرًا، فيصادمون الواقع السيئ حتىٰ يغيروه إلىٰ حسن وأحسن كما هي وظيفتهم التي أوجبها اللَّه عليهم في الحياة.

إن في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، ما يتحفز إليه الرجال أصحاب الهمم العالية، والمطالب الصحيحة العظيمة التي لا تنال إلا بتحقيق دين الإسلام من الإخلاص للَّه في جميع المقاصد، والصدق معه ببذل المجهود في عبادته والنصح له ولكتابه ولرسوله، وإن الذي يعتز بإنسانيته، فضلًا عن عروبته ونحوها، ليجندها ويسخرها في طاعة اللَّه وتنفيذ أمره مهما كان، ليلحق بالركب الإبراهيمي المنصور الذي لا يضره من خالفه ولا من عاداه أبدًا؛ لأن اللَّه الذي أنجىٰ خليله من النار العظيمة المؤججة من أعدائه الغائظين، سينجي بحوله وقوته وفضله وكرمه أتباع خليله علىٰ الملة الحنيفية من كيد أعدائهم وجحيمهم الحربي، وسيجعل صنائعهم المدمرة بردًا وسلامًا علىٰ المؤمنين الصادقين في الاقتداء بإبراهيم، فيجعلها تمر ولا تضر، حتىٰ ينصرهم ويستخلفهم في الأرض، ويمكنهم بدينهم الذي ارتضىٰ لهم كما وعدهم في الآية (٥٥) من سورة النور ووعده الحق: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

الثاني والعشرون: لا يجوز لمسلم يعرف حكم اللَّه فيما أنزل، أن يمدح الراغب عن ملة إبراهيم إلىٰ أي مبدأ من المبادئ القومية أو المذاهب المادية، ولا أن يعجب به أو يصفه بأي وصف من أوصاف الشرف والبطولة، مهما عمل أو جرىٰ عليه من الفتوح بتاتًا، فإن اللَّه يعاقب الأشرار والمقصرين بأشرار أمثالهم وأخبث منهم، كما عاقب

قتلة الحسين وأشياعهم بالمختار بن أبي عبيد الكذاب الدجال الأثيم، وكما عاقب المذنبين والمقصرين بالقرامطة والتتار وغيرهم، ثم انتقم منهم وأبادهم حسب حكمته الكونية.

فالراغب عن ملة إبراهيم قد ذمه اللَّه وحصر حاله في السفاهة والمذمة، فمن مدح من ذمه اللَّه، أو حمل بقلبه له شيئًا من المودة والإعجاب فقد كان من المحادين للَّه، الذين يختارون من يمقته، ويمدحون من يذمه، فهم في حد مجانب لما حده اللَّه، وهم علىٰ خطر عظيم، فينبغي للمسلم أن لا يحكم علىٰ شيء بالطيب والخبث حتىٰ يتمعن في طريقته وأفعاله، ليعرف حكم اللَّه ولا يغتر بمدح الناس له، أو ينخدع بدعايته ولا بشتمه الاستعمار أو محاربته له، وهو مرتبط بمن هو أكفر منه من نوع آخر، ويراه لم يطهر بلاده من رجس الاستعمار، بل زاد الطين بلة، بزيارته أوكار الفسق والفجور، وتشجيعه للفساق بإباحة ما حرم اللَّه.

فإن من لم ينظر إلىٰ ذلك ويجعله الميزان في الحب والبغض فليس علىٰ ملة إبراهيم، لأن ملة إبراهيم توجب علىٰ أهلها وجوبًا حتميًّا بغض كل من جعل أو يجعل لنفسه الخيرة في سلوك ما يهواه من المبادئ والمذاهب المخالفة لأمر اللَّه وحكمه، وتوجب معاداته والبراءة منه ولو كان أقرب قريب، وتحصر المحبة والبغض، والولاء والبراء علىٰ ما يحبه اللَّه ويكرهه، ويقصر الحكم والاحتكام علىٰ شريعته، وإباحة ما أباحه وتحريم ما حرمه، فإذا كان أغلب الذين أبررتهم الثقافة والانقلابات الماسونية، وناصرتهم المخابرات والمعسكرات الدولية الكافرة علىٰ هذه الشاكلة المخالفة لملة إبراهيم، كان المحب لهم أو الموالي لهم، أو المتعاون معهم والماشي في ركابهم مناقضًا لملة إبراهيم، بل محاربًا لها؛ لأن مساعيه ضرر علىٰ أهلها، فهو من المشركين، الذين اتخذوا من دون اللَّه أندادًا يحبونهم كحب اللَّه، بل لا يحظىٰ اللَّه منهم بالمحبة والعمل لدينه

كما يحظىٰ هؤلاء منهم بالحب والعمل النافع لهم والعياذ بالله، وكل هذا من جهل أكثر المسلمين بحقيقة الدين، وسيرهم وفق العواطف المخالفة له.

الثالث والعشرون: إن في حكم الله بالحسن التام بملة إبراهيم، ووعده لأهلها بالمدد والنصر والتمكين أعظم تنبيه يحمل الأمر المحتم علىٰ المسلمين بحصر أعمالهم وجميع مجهوداتهم لهذه الملة بكل إخلاص لله وصدق مع الله، بحيث يستقلون بعقيدتهم وشخصيتهم الإبراهيمية في الاتجاه والعمل، وتكوين القيادة المستقلة عن جميع المبادئ والمعسكرات، مستجيبين لنداءات الله سبحانه، ورافضين نداءات من سواه، ومعتمدين علىٰ وعده سبحانه، ورافضين وعد من سواه وملتزمين طاعته، ومنفذين أوامره التي منها الاستعداد بغاية المستطاع من القوة، معتمدين علىٰ الله في جبر ما ينقصهم منها مما لا يقدرون عليه، ومما يجبره طاعتهم لله بصدق وإخلاص، وتمحيص مقاصدهم لله فقط، لا لقومية ولا وطنية ونحوها من الأهداف الماسونية، فإنهم بصدق الطاعة وإخلاص المقاصد لله يستمطرون مدده ونصره الذي لا يغلبه غالب، وبِهذا يتحقق وجودهم ونفوذهم بين الأمم بحول الله وقوته.

ولهذا نجد أغلب القرآن فيه التركيز علىٰ التوحيد الذي لو تمسك به المسلمون لما كانوا ألعوبة للدجاجلة وضحايا للطواغيت، ولكن بانخداعهم بمكرهم، وتعاونهم مع بعض المتنازعين وثوقًا بوعوده، ونسيانًا لأمر الله ووعده الحق حصل عليهم ما حصل مع كثرتهم التي كانت ككثرة الأنعام، لعدم الوعي الديني الإبراهيمي المحمدي الحنيف، فارتكاز محبتهم وولائهم وجهودهم علىٰ العواطف دون الدين هو الذي جلب عليهم الكوارث، وأحل بهم سخط الله، حتىٰ لم يبق للمسلمين وزن عند جميع الكفار، وزالت الهيبة التي يحملها أجدادهم من المسلمين.

وخذ مثالًا واقعًا من مسلمي «روسيا» الذين يبلغون نصف السكان، قامت الثورة البلشفية علىٰ الدولة القيصرية، ولم تقدر القضاء عليها إلا بمعونة المسلمين المنخدعين بالكلام المعسول والوعود الكاذبة، فلو أنهم التفتوا إلىٰ أمر اللَّه ووعده الصادق، فأصلحوا أعمالهم، وأخلصوا مقاصدهم لإعلاء كلمة اللَّه وإقامة حكمه لقضوا علىٰ الثوريين بإذن اللَّه، ثم انقضوا علىٰ الأوائل المنهوكين المختلة صفوفهم ومعنوياتهم؛ لنصرهم اللَّه بمدد من عنده، وربحوا صفقة الجهاد في سبيل اللَّه بصدق مقاصدهم، فأقاموا دولتهم الإسلامية علىٰ أنقاض الجميع، وأعادوا معجزة التاريخ وعدالة القرآن، وكانوا مثلًا أعلىٰ للمسلمين، لكنهم مع الأسف استجابوا لنداءات الشيوعيين الفاجرة، وطمعوا بوعودهم الشيطانية، ونسوا أن ما يعدهم الشيطان إلا غرورًا، فتعاونوا معهم حتىٰ نجحت ثورتهم فقسموا بلادهم إلىٰ ولايات اعترفوا لها بالحكم الذاتي تحت النفوذ الشيوعي، ثم انقضوا عليهم بلدًا تلو الآخر بتهمة مختلقة لأهلها، ليحسب البلد الآخر أنه مبرأ منها لمعرفته بنفسه، وأنه سيسلم مما أصاب سواه، ولكنهم واصلوا اتهامهم لكل ولاية إسلامية حتىٰ أعدموا الكثير بأبشع أنواع الوحشية، وهكذا عاقبة المستنيم للأشرار، فلم يتعظ باقي المسلمين، بل انخدعوا كغيرهم بالوعود الشيطانية، حتىٰ نالوا سوء العاقبة لعدم تطبيقهم لملة إبراهيم.

الرابع والعشرون: في هذه الآية الكريمة رد وتكذيب لأهل الكتاب ومشركي العرب؛ لأن كلًّا منهم يزعم علاقته بإبراهيم، والجميع يكذب بانتسابه إليه، فاللَّه أخبرهم ببطلان، دينهم المكذوب عليه، وعدم قبوله، وأنه لا أحسن دينًا ممن حقق الإسلام الصحيح الذي هو إسلام القلب للَّه علىٰ ملة إبراهيم، وأن ملته الحنيفية التي من أجلها اتخذه اللَّه خليلًا هي الدين المقبول عند اللَّه، دون ما سواه من الأديان المزعومة، وأن المتفاخرين بِهذه الأديان المكذوبة الذين يتبجحون

بدعوىٰ اتباع إبراهيم هم علىٰ خلاف ملته، وليس عندهم سوىٰ الدعاوي الكاذبة، فالله ﷻ يسجل عليهم انحرافهم عن ملة إبراهيم، وعدم أهليتهم لهذا الانتساب.

وقد أسلفنا أن اللّه كرر تذكير المشركين وأهل الكتاب بإبراهيم لما لهم به صلة النسب والدين، ولكنهم انحرفوا عن الدين بما افتروا به علىٰ اللّه من الوسائط الشركية، ودعوىٰ النصارىٰ الحلول والاتحاد، ودعوىٰ النصارىٰ وبعض اليهود بنوة العزير وعيسىٰ مما اعتبره اللّه من أفظع أنواع الشرك والكفر كما سيأتي بيانه في آخر هذه السورة وفي سورة المائدة إن شاء اللّه، وكما نص اللّه علىٰ شناعته في الآيات (٨٨ ـ ٩٢) من سورة مريم، مما أسلفنا أنه لا يجوز للمسلم مؤاخاتهم بأي حجة، ولا الالتقاء معهم في أي مسلك، وأن موادتهم أو التعاون معهم مناقض لدين الإسلام.

الخامس والعشرون: الخلة التي اكتسبها إبراهيم من اللّه لا يجوز تفسيرها بالمعروف من خلة الحب بين البشر، فإن صفات اللّه لا تشبه صفات المخلوقين بتاتًا، فنوع الخلة التي حظي بها أبونا إبراهيم، مرغبة للمؤمنين في سلوك ملته والاقتداء بطريقته، وأن من صدق وأخلص باتباعه كان جديرًا بالفوز عند اللّه بالمناصب الجليلة والمنازل العالية.

وقال الرازي: فيه عندي وجه آخر وهو أن جوهر الروح إذا كان مضيئًا مشرقًا علويًا قليل التعلق بالذات الجسمانية، والأحوال الجسدية، ثم أضاف إلىٰ مثل هذا الجوهر المقدس الشريف أعمالًا تزيده صقالة عن الكدورات الجسمانية، وأفكارًا تزيده استنارة بالمعارف القدسية، صار مثل هذا الإنسان متوغلًا في عالم القدس والطهارة تبرءًا من علائق الجسم والحس، ثم لا يزال يتزايد في هذه الأحوال الشريفة إلىٰ أن يصير بحيث لا يرىٰ إلا باللّه، ولا يسمع إلا باللّه، ولا يتحرك إلا باللّه، ولا يسكن إلا باللّه، ولا يمشي إلا باللّه، فكأن نور جلال اللّه قد سرىٰ في

جميع قواه الجسمانية وتخلل فيها، وغاص في جواهرها، وتوغل في ماهيتها، فمثل هذا هو الموصوف حقًّا بأنه خليل لما أن تخللت محبة اللَّه في جميع قواه، وإليه الإشارة بقول النبي ﷺ في دعائه: «**اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا**»(١) اهـ. باختصار.

وأقول: لسنا بحاجة إلىٰ هذا التكلف، فإن هذه الأوصاف لا يجوز طردها في كل شخص يحصل عليها حتىٰ ينال خلة اللَّه، فهي مما اختصها اللَّه نبيه إبراهيم ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ومرتبة النبوة والعصمة والتوفيق لا تنال بالكسب، وإنما هي منة وكرامة من اللَّه، أكرم بها إبراهيم الذي وفىٰ كما وصفه اللَّه.

السادس والعشرون: قال الرازي: قال بعض النصارىٰ: لما جاز إطلاق اسم الخليل علىٰ إنسان معين علىٰ سبيل الإعزاز والتشريف فلم لا يجوز إطلاق اسم الابن في حق عيسىٰ عليه السلام علىٰ سبيل الجنسية؟ أما الابن فإنه مشعر بالجنسية، وجل الإله عن مجانسة الممكنات ومشابهة المحدثات انتهىٰ.

وأقول: إن الخلة وضعت تكريمًا من اللَّه لنبيه إبراهيم، لا تعدو الصفة المعنوية التشريفية، وأما الابن فلا يكون إلا بعضًا من الوالد، ولذا شدد اللَّه في التنكير علىٰ نسبة الولد إليه فقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③﴾ [الإخلاص] وأخبر عن استغنائه عن الولد بأن: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] فالذي له ملك السموات والأرض، ملك محض قد أوجده بنفسه لا شريك له ولا منافس، وجميع خلقه له قانتون مطيعون طاعة الإرادة والقهر التي هي فوق الأمر، ليس في حاجة أبدًا إلىٰ ولد، وهو مالك الجميع، والكل له مطيع، هذا مع أن الولد بعض من الوالد وبضع منه، فيتنزه الباري عنه سبحانه وتعالى ولهذا قال في الآيات (٨٨-٩٢) من سورة مريم:

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم]، أي: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ شيئًا فظيعًا منكرًا نكارته قبيحة، واستبشاعه شديد لما فيه من الجرأة علىٰ اللَّه، وتكاد الجمادات أن تفزع منه فتخر وتتزلزل ولا تبقىٰ علىٰ حالتها من فظاعة هذا الانتقاص للَّه.

وهذا استعظام منه سبحانه لهذا الافتراء الشنيع وتهويل لفظاعته، وتصوير لسوء أثره في الدين وهدمه لقواعده وأركانه، وأن مثل هذا الأثر السيئ في المحسوسات أن تصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق؛ فتخر منهدة لا يبقىٰ فيها شيء متماسك، بل ينخسف الأسفل ويخر الأعلىٰ، فهذا من نسبة الولد إلىٰ اللَّه سبحانه، إذ لا ينبغي له ذلك؛ لأن التوالد مستحيل قطعًا كما سبق، واتخاذ الابن بمعنىٰ التبني لا يكون إلا فيما هو من جنس المتبني وليس من جنس الابن، فهذا توضيح لما أجمله الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

السابع والعشرون: ملة إبراهيم التي أوجب اللَّه علىٰ عباده سلوكها محتم علىٰ أهلها أن يقوموا علىٰ مبدأ التعاقد بين أفرادهم، حسب الأصول الإلهية المقررة التي كررنا ذكرها عمومًا وخصوصًا، فالعموم هو علىٰ أساس وحدة الأرومة لجميع بني الإنسان، بدون تفريق بين أوطانهم وألوانهم أو أجناسهم لغاتهم أو حالاتهم المادية كما أوضحناه في أول هذه السورة.

وأما الخصوص فهو قيام أهلها علىٰ الحب والولاء والمناصرة، والرفد لجميع أتباع هذه الملة علىٰ اختلاف ألوانهم وأوطانهم وجنسياتهم، مع البغض والبراء من مخالفيها دون إهدار للحقوق الإنسانية المسماة في الملة الإبراهيمية بحقوق الرحم، والتي لا يعرفها ولا يرعاها سواهم لقوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]،

وبتكوين ملة إبراهيم لأهلها علىٰ هذا الأساس الرباني المتين، كانوا بنجوة علىٰ كل ما تلتاث به الجماعات الأخرىٰ من رعونات النفس، وجماحات الغرائز، وسطوات الأهواء التي تصحب دائمًا دور النشوء للجماعات البشرية، فنشأت ملة إبراهيم فاضلة، وشبت فاضلة، ولم تزل، روحها فتية فاضلة، علىٰ الرغم مما لحق بغيرها من الضعف، بسبب الانحراف علىٰ الصراط السوي لملل داخلية وخارجية ليس هذا محل بيانها، وذلك لأن الإسلام الحق يقوم علىٰ الأصول الإنسانية الثابتة الخالدة، والمبادئ الخلقية القويمة، والسمو الروحاني المطلق، غير معتد بالجنسيات والقوميات، ولا باختلاف البيئات واللغات، راميًا إلىٰ توحيد الإنسانية جمعاء في دائرة الحق المحض، والكمال البحت، والمدنية الصحيحة الفاضلة الضامنة للأمن والعدل والرحمة والرفاهية، وحفظ الكرامة وصيانة الأعراض والأموال، ليست مدنية الفسق والفجور والعهارة، والقمار والمراقص والتعري، وقلة الحياء ونحوه مما هو سلاح لليهود.

الثامن والعشرون: مما تقدم يتضح أن ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي دين الوحدة الكاملة الصحيحة، وأهلها هم دعاة الوحدة الصادقون، وعلىٰ رأسهم خاتم النبيين محمد ﷺ الذي يأمر المسلمين بإذن ربه أن يؤمنوا بجميع الأنبياء والمرسلين، وما أنزل إليهم من ربهم، حتىٰ لا تبرز الطائفة المفرقة بين الناس بأي شكل من الأشكال، وذلك أن أهل كل دين ونحلة يعتبرون دين غيرهم مكذوبًا ونحلتهم زورًا، فكيف تحصل الوحدة علىٰ هذه الحال؟

لا تحصل إلا عن طريق اللَّه العليم الحكيم الذي يوجب علىٰ المسلمين أن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، لا من طريق أفراخ اليهود الذين ينادون باسم الوحدة إلىٰ نبذ جميع الأديان غير دين اليهود طبعًا، بل أكثر

هدفهم نبذ دين اللَّه الإسلام الصحيح المحقق للوحدة الصحيحة، فهم خائنون للَّه ولرسوله وللإنسانية جمعاء، حيث نادوا بالقوميات المفرقة التي تكمن فيها عناصر الفرقة والشقاق، والتي هي وليدة اليهود وربيبة الاستعمار، وليس عند أهلها سوىٰ المكر والمغالطة وقلب الحقائق وتزييف التاريخ كما أوضحنا ذلك في موضعه.

فمحمد ﷺ هو الداعي إلىٰ الوحدة الإنسانية العامة، في محيط هو أعرق محيط في الفرقة والشقاق، قاصدًا بأمر اللَّه إذابة الصفة الإقليمية للعرب، حتىٰ يكونوا نواة الأمة الإسلامية، فمن أسلم فقد اكتسب صفة جديدة عالمية هي صفة «مسلم»، وذلك لترجع البشرية بملة إبراهيم إلىٰ حقيقتها التي تاهت عنها أجيالًا وقرونًا، وهي حقيقة الأصل الإنساني الواحد، ولذلك صار بلال الحبشي وعمار وصهيب الرومي وسلمان الفارسي في مصاف أشراف العرب وأكابرهم بعد الإسلام، حتىٰ قال ﷺ: **«سلمان منا أهل البيت»**(١).

ونزول القرآن باللغة العربية علىٰ الرسول ﷺ العريق في العروبة قد أزال عنهما الصفة الإقليمية، فأصبح محمد ﷺ رسول البشرية كلها، وأصبح لسان العرب لغة الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان، فقد اختار اللَّه اللغة العربية أن تكون هي اللغة الرسمية في جميع بقاع الأرض، وقد كرر اللَّه ذكر نزول القرآن بالعربية شحذًا لهمم العرب أن يؤمنوا بِهذا الوحي، ويعتزوا به فيحملوه إلىٰ أمم الأرض، ليحتلوا صدار الهداية والثقافة، وإنقاذ أهل الأرض من الضلال ولتكون لهم القيادة العالمية بِهذا السبب الوثيق.

ولا يجوز حمل هذا التكرار علىٰ غير هذا المعنىٰ أبدًا، فإن تعاليم القرآن ذات صبغة عالمية، لا يختص بها العرب دون غيرهم بتاتًا، فملة إبراهيم هي دين عالمي، يجمع الخلق كلهم، وتعاليمه شاملة لهم

(١) رواه الحاكم (٣/٦٩١).

فتسعهم جميعًا، وهي دين الفطرة الإنسانية التي هي عالمية بجميع أنواعها، ولهذا اكتسب صفة الخلود والقبول في كثير من الأمم حسب تعاليم اللَّه العليم الحكيم.

وقد مكرت اليهود بالعرب تحت شعارات القومية التي ولدتها حتىٰ أزاحتهم عن مكان الصدارة والثقافة، وجعلتهم يتصدرونها مع ألد أعدائهم الغربيين، ويزهدون ببضاعتهم السماوية النفيسة الواجب عليهم تصديرها، ويستوردون خسائس البضائع الأرضية الأوربية من الإلحاد والتقاليد والأخلاق الفاسدة التي مصدرها المكر اليهودي، مع أن القوميات لو انخدع بها جميع الأمم الزاهدة من بضاعة السماء؛ يجب أن لا ينخدع بها العرب الأغنياء ببضاعتهم الربانية التي شرفهم اللَّه بها، والتي يجب عليهم أن يتفانوا في سبيلها، وأن يتجدد حبهم لها، واعتزازهم بها واستعلاؤهم علىٰ غيرهم بسببها استعلاء عمل وتمسك وتثقيف، لا أن يحقروها ويتسفلوا إلىٰ المزابل اليهودية والعياذ باللَّه، لأن في بضاعتهم أعلىٰ ما يكون من الروابط التي تربط الإنسان بخالقه، وأكثرها انطباقًا علىٰ الطبيعة والمنطق.

التاسع والعشرون: ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي أرفع صلة لصاحبها بينه وبين قيوم السموات و الأرض، وذلك بعد سحق جميع القواطع الحائلة بينه وبين ربه، وذلك بأن يخلع علىٰ عتبة الإسلام جميع التقاليد والأوضاع والأفكار السائدة في مجتمعه الجاهلي قديمًا وحديثًا، بحيث إن الإنسان حينما يدخل في الدين أو يريد تصحيحه يتبرأ إلىٰ اللَّه من عمله حوله وقوته وموروثاته وتخيلاته وتصوراته غير المرتكزة علىٰ وحي اللَّه، مسلمًا نفسه إلىٰ اللَّه مجردًا روحه له، تاركًا معضلات العلوم والفلسفة والعادات المتناقضة والأديان المزعومة المتخالفة، والمذاهب المبتدعة والأمم المتناحرة والأهواء المخذلة والوجود المادي وما فيه وراء ظهره إلىٰ غير رجعة، متوجهًا إلىٰ اللَّه بقلب خالص من الشوائب، وضمير نقي من الأدناس، ونفس صافية من الرعونات، هاربًا

إليه من الأغيار، لاجئًا إليه من شرور الأنانية والأغراض النفسية، معتصمًا به من التلوثات البشرية، راغبًا إليه أن يهديه ويزيده من متطلبات الهداية في جميع شئونه.

فإن أساس الإسلام هو تخليص القلب وتطهيره من كل ما ران علىٰ صفحته من الأضاليل والأوهام والوراثات التقليدية، حتىٰ يكون فيه قابلية لنور اللَّه ومحبته، ليكون قلبًا سليمًا مما سوىٰ اللَّه، ولهذا تجد المسلمين الأوائل الذين طهرت قلوبهم للَّه، خلصت مقاصدهم له في الجهاد والفتح للقلوب والبلاد، فلم يبطرهم ما نالوه من الفتح بالتبسط والميوعة في الأرض، ولم يستغلوا أهالي الأقطار المفتوحة ليعيشوا عالة عليها في الترف والبذخ، كما فعلت و تفعله جميع القوىٰ الغالبة قبلهم وبعدهم بالمفتوحين، من كونهم يسعدون بشقائهم وينعمون ببؤسهم، بل كانت مهمتهم إقامة العدل والرحمة ونشر الإسلام بالقدوة الحسنة أولًا قبل الدعوة، متجردين عن حظوظ أنفسهم، حتىٰ إن الجزية التي يأخذونها علىٰ من لم يسلم لحمايته أقل مما يدفعه من بعض الأتاوات لدولته السابقة المقصاة، وكانوا ينشرون العلم النافع، والحرية الصحيحة، لا الزائفة القبيحة، كما شهد لهم التاريخ بذلك.

وهذا من هيمنة الدين الحنيف علىٰ ضمائرهم، وصدقهم مع اللَّه، فإن صلاح نفوسهم جعلهم رحمة لجميع الناس، بل وعلىٰ الحيوانات، أما فساد النفوس فهو مثار كل خطر علىٰ حياة الجماعات الإنسانية، ومصدر كل انقلاب يهدد كيانها بالانحلال والتلاشي.

الثلاثون: ليست العلوم المادية والفتوحات الصناعية مهما أطردت، والكنوز المالية مهما تضخمت، جالبة لصلاح الإنسانية وسعادتها وطمأنينتها، ولا واقية لها من الفساد والانحلال والانحطاط، ولا حامية لها من السقوط والتدهور المهلك، ولا من الحروب الفاجعة المدمرة الجالبة للشقاء والفناء، بل إنها علىٰ العكس، ينقلب فيها

الترقي الباهر إلىٰ انحطاط خسيس مدمر، كما أحس بذلك فلاسفة هذا الزمان، وأنذروا العالم من شروره، فلا نجاة للعالم إلا باتباع ما شرعه اللَّه من تحقيق ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فإن العلوم والمعارف لم تغن دولة اليونان شيئًا، بل تدمرت وهلكت علىٰ ما عندها من العلم والحكمة التي ملأت الأرض، وكذلك باد الرومان بعدها علىٰ ما عندهم من قوة العلم والسلطان، وتوفر وسائل البقاء في نظر السطحيين، بحيث كانت تلقب نفسها بالدولة الخالدة، فأصبحت كاسدة بائدة، وهاتان الدولتان لا تزال أكثر مدنيتهما ماثلة أمام أعين الناس، بل إن أصولهما العلمية ومبادئهما الغنية أصبحت أصولًا للمدنية الراهنة اليوم، ولكنها لم تنفع ولن تنفع الناس مادام طغيان نفوسهم يتمادىٰ دون شكيمة ترده عن غيه وطيشه، فإنه لابد للعلم والحضارة من عقيدة تسيرهما وتوقفهما عند حدودهما، ولا توجد عقيدة ملكة للقلوب مهيمنة علىٰ النفوس إلا ما اختاره اللَّه لبني آدم ووصاهم به من التمسك بملة إبراهيم أصولًا وفروعًا.

فإن حالة العالم اليوم تنذر بالوبال الفاتك المدمر، مادام الجو خاليًا لذوي القوىٰ الجامحة والأهواء المريضة، تجري إلىٰ حيث تدفعها إليه ميولها الخسيسة دون رادع ديني يردعها، أو مدد صالح من هداية السماء يمنع تَخَلُّلَها. وقد قال أحد الفلاسفة المرموقين في كتابه المسمىٰ «قدرة اللَّه في الطبيعة» إن هذه الفتوحات المتوالية التي تَمَّت للإنسان في الطبيعة بينما رفعت عقولنا إلىٰ الدرجات العالية، أهبطت إنسانيتنا إلىٰ أخس الدركات، ومن المحزن أن نُحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يومًا بعد يوم تنطفئ حرارة قلوبنا، وتتطوح زهرة نفوسنا بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية علينا.

ويوجد كثير من أمثاله قالوا بمثل قوله مما لا أرىٰ حاجة لذكرهم ونقل اعترافاتهم؛ لأن الشمس لا تحتاج إلىٰ دليل، ويكفينا قول اللَّه تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق].

فالنفس التي خلقها اللَّه علىٰ طبائع مختلفة لا يصلحها إلا تشريع خالقها العليم الحكيم، فهي إذا عَرَت عن الدين ونبذته ظهريًّا كانت كالحيوان، بل تكون أضل منه وأشد ضراوة في الشهوات البهيمية والميول الوحشية بما تستمده من حيل العقل الذي لم تستعمله في الهدف الذي ركبه اللَّه فيه من أجله، ولهذا عجز رجال التربية المادية في كل زمان ومكان عن تربية النفس تربية صالحة توصلها إلىٰ سموها الذي يوجب اللَّه عليها تحقيقه، واستعصىٰ علاجها حتىٰ علىٰ العلم نفسه، مع ما أوتي من وسائل التفهيم والتأديب وذرائع التأثير، لأنه علم يحمل الخواء الروحي، ولذلك ذهبت محاولتهم بالعلم سُدىٰ، وبقيت النفس وهي في أزهر البيئات مدنيه أشد ما تكون تهافتًا علىٰ ما يفسدها ويضر كيانها، ضاربة بالعلم والتوجيه عرض الحائط، حتىٰ صار العلم كأنه يزيدها تكالبًا علىٰ الشهوات وشغفًا بالخسائس.

وذلك لأن العلم لا يفيد دون وجود ضمير ديني يكون رقيبًا علىٰ النفس ومحاسبًا لها، ولا يتصور أن توجد صوة تعليمية في الأرض تستطيع هبة النفس هذا الضمير غير ملة إبراهيم الإسلامية الحنيفية، فهي المصلحة للنفوس، والمهذبة للأخلاق والغرائز، وقد قرر المصلحون الفاهمون أن كل مجتمع فإنه كما يحتاج إلىٰ المواد المعيشية حاجة ضرورية، فإنه يحتاج ضروريًا أكثر وأعظم في بقائه واستمراره قويًّا متماسكًا إلىٰ قوىٰ دينية تحفظ للنفوس معنويتها، وتزيدها ارتقاء في خصائص الكمال، وهذا لا يوجد إلا في دين الإسلام، فالأمم لا تصلح أجسادًا لا روح فيها، ولا تصلح أو تنتظم أحوالها أبدًا إذا ساسها من يحمل الخواء الروحي، ويتطفل علىٰ غيره في النظريات والمذاهب المادية، والتشريعات والتعاليم الوضعية قطعًا.

وقد اقتضت حكمة اللَّه العليم الحكيم جعل سعادة الإنسانية بسلامة نفوسها من الأمراض، وحسن طاعتها واستقامتها علىٰ أمر اللَّه وشريعته، وعلىٰ شكره الحقيقي العملي الذي جعله سياجًا وحفظًا لنعمه كما

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

الحادي والثلاثون: ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ توجب علىٰ أهلها أمام اللَّه أن يصدقوا أقوالهم بصالح الأعمال، وأن لا تتناقض أقوالهم ودعاويهم مع أفعالهم، فيستحقوا غضب اللَّه، ويتعرضوا لعقوباته القدرية، قال سبحانه في الآية الثانية والثالثة من سورة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف] ولا شك أن التباين بين العلم والعمل هو مصدر الشرور والأزمات، وأن التناقض بين الأقوال والأفعال مسقط للشخصيات، ومعدم للثقة، وناشر للفوضىٰ والفساد، ومنذر بالانحلال والانهيار.

وقد ارتكست بسبب ذلك مدنيات كثيرة إلىٰ وحشيات منكرة، حتىٰ لعبت أدوات الفتك والتدمير أبشع ما ينتظر من الفتك بالشعوب وإهدار كرامتها والعبث بمقدراتها، حتىٰ صارت المخترعات التي يتبجح أهلها بأنها خدمة للإنسانية وسائل تدمير لها علىٰ أيدي أهل العلم والثقافة والتربية المادية الحديثة فيما يزعمون، فأثخنوا في الأمم قتلًا ونَهبًا وحرقًا للبلاد وهدمًا، يعدون ذلك من علامات البطولة، غير مبالين بما يسوده التاريخ من سيرتهم، وغير مؤمنين بأن ثمرة عدوانهم هي عدوان مثله أو أشد منه، سيذوقونه ثمنًا لسوء تصرفهم بعلمهم الذي استعملوه لتدمير الإنسانية، وكل هذا من مساوئ التربية الماسونية التي أبرزت في العالم الثقافة والإصلاح حتىٰ يشطر الإنسان فيجعله جسدًا بلا روح.

والإنسان من ضروريات صلاحه وبقائه أن يكون جسمًا وروحًا وفق التربية الإسلامية، فأعظم جانٍ علىٰ الإنسانية من يفصل بين جسمها وروحها بالتربية المادية حسب ما تهواه «يهود» كي تشقىٰ الإنسانية لسعادتها، وتبؤس لنعيمها، وتحزن وتغتم لفرحها، وتطيل البكاء والعويل لضحكها، فقد فازت «يهود»، ونالت مرادها بما كسبته من المربين في أكثر المدارس والملاعب والمسارح ورياض الأطفال ودور التربية والموسيقىٰ وسائر الوسائل، وكل هذا نتيجة إقصاء الدين

الإسلامي عن الحكم والسياسة، ليتولىٰ ذلك من يعلن شتم الصهاينة مكرًا بالشعوب وخداعًا لها وهو ينفذ خططهم بسعي حثيث، تتحقق به مصالحهم من حيث يشعر أو لا يشعر، متخذًا من سوء سياسة الكهنة والكرادلة حكام الكنيسة الكاذبين وسيلة لإبعاد الدين الصحيح ملة إبراهيم بقياس فاسد أوهن من بيت العنكبوت، لا يستسيغه إلا من يحمل أقل من عقل الدجاجة والعياذ باللَّه.

والعجب أن أكثرهم يسمعون قوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾ [الطلاق]، ويسمع أن اللَّه بالمرصاد ينتقم من المخالفين المهدرين حرماته والساخرين بشريعته، ولكنهم مطمئنون لنصرة أصدقائهم من الدول الكبرىٰ، ناسين أنه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد]، فأمريكا أو روسيا ونحوهما لا يردان عقوبة اللَّه قطعًا.

الثاني والثلاثون: ملة إبراهيم دين اللَّه الحنيف توفر علىٰ أهلها أموالهم وأوقاتهم وطاقاتهم وقواتهم وجميع مواردهم ومصادرهم، فتحفظ أموالهم عن التبديد و التبذير، أو الملذات والشهوات الحيوانية، وتحفظ أوقاتهم عن اللعب والبطالة واللهو القاتل للأوقات، وتحفظ طاقاتهم عن الميوعة وسوء التصرف الجالب للخسران والهلاك، وتحفظ شخصيتهم عن التذبذب والتميع الذي يصهرهم في بوتقة غيرهم، وتحفظ رجولتهم عن الترهل والتأنث والخنفسة ونحوها من شرور التقليد القاضي علىٰ الرجولة والكرامة، وتحفظ قوتهم الحسية والمعنوية عن الخور والجبن والضعف والهزيمة النفسية، وعن استتراف القوىٰ الحسية بمفاسد الأخلاق والشهوة البهيمية، أو استنزاف القوة العسكرية بالثورات المحلية الناشئة من سوء التصرف بإقامة الجور والبغي بدل العدل والإحسان.

وكذلك تحفظ عقولها عن تعاطي المسكرات والمخدرات والمفترات وجميع أنواع السكر الحسي والمعنوي، مما هو ديدن أهل المدنية

الحاضرة والتربية المادية التي عملت اليهود علىٰ تركيزها، حتىٰ صار أكثر العالم يسير لصالحها، فبتحقيق التعاليم الإسلامية تنضبط الأخلاق، ويتوفر للأمم جميع مقومات الحياة بدون إفراط ولا تفريط، ولا بذخ ولا إسراف، فتحفظ أموالهم من التبذير والسيلان للخارج، حتىٰ تكون ثروتهم قوة لهم، بحيث لا يستوردون غير الضروري، تاركين ما عداه من وسائل الترف والميوعة، ويشمخون بأوقاتهم باستغراقها في الأعمال والحرف النافعة علىٰ حسب مواهبهم، مترفعين عن البطالة واللهو كما أسلفناه، وقد أسلفنا ـ أيضًا ـ أن من مزايا دين الإسلام حفظ النفوس بمشروعية القصاص، وحفظ الكرامة والأعراض والأنساب بحدود الزنىٰ والقذف، وحفظ المال بقطع يد السارق التي أرخصتها خيانتها.

ومن المؤسف أن ينفسح المجال في العالم الإسلامي لمن يتهكم بحدود اللَّه زاعمًا أنها وحشية، ومتسائلًا علىٰ سبيل السخرية: هل يقطع اليد طبيب أو جزار؟ وليس العبرة بالوسيلة، وإنما العبرة بحسن العاقبة والنتيجة، فمن كان يحترم عقله فليسأل عن عدد الأيدي التي قطعت في الحكم الإسلامي ليجدها في غاية القلة، وذلك لقوة الارتداع عن السرقة عند استيقان القطع، ثم لينظر ماذا توفر للأمم من الراحة والطمأنينة علىٰ الأموال، وكيف استراحت الدولة من تكاليف مطاردة الجريمة ماليًّا ودمويًّا ووسائط نقل ومباحث وغير ذلك، مما أقلق دول العالم ليعرف هذا الساخر المتهكم بالشريعة مدىٰ حكمة اللَّه في منافعها، وحسن عواقبها علىٰ جميع الناس من حاكم ومحكوم، فعليه تحكيم العقل ونبذ العواطف والميول الإلحادية، وإلا فما فائدة عقله الذي يسيره غيره من كل ملحد أثيم؟!

الثالث والثلاثون: ملة إبراهيم الإسلامية ترعىٰ الحقوق الجسدية لجميع البشر فلا تقبل تعذيبها وتجويعها علىٰ حساب الروح، فتشريعاتها مخالفة لتشريعات البراهمة في تكليف الجسم ما هو فوق طاقته من ضروب التعذيب، ومخالفة لليهود وما هم عليه من الشدة

والأغلال، مما لا نطيل المقام بشرح حالتها من إهزال البراهمة الهندوك أجسامهم، وتكليفها بحمل أثقال الحديد، والجلوس والنوم علىٰ المسامير، ومن إرهاق اليهود لأجسادهم حتىٰ اضطر أكثرهم إلىٰ عدم التقيد بدينهم في هذا المضمار، وما عند النصارىٰ من التزهد والتقشف والترهب الذي جعل الكثير منهم لا يتقيد بدينه، حتىٰ أصبح دين اليهود والنصارىٰ دين جنسية لا دين ملية.

أما الإسلام الإبراهيمي المحمدي فقد امتاز عن الأديان المكذوبة بالعدل بين مطالب الروح ومطالب الجسد، فهو لا يمنع أهله من المتعة المادية والملذات الجسدية، لكن من طرقها المشروعة وفي حدودها المعتدلة، بل لا يمنعهم أن يبلغوا أقصىٰ حد في الثراء ما داموا قد اتقوا اللَّه في اكتسابه، وقاموا بأداء حقوقه من أداء الزكاة والصدقات وبذل المعروف، وإغاثة الملهوف وتعميم الإحسان إلىٰ المستحقين، كما مضىٰ في الآية السياسية الاجتماعية الضمانية رقم (٣٦) من هذه السورة.

وذلك أن السمو الروحاني لا ينال بحرمان الجسم من حاجاته كما تصوره الجهال المتلاعبون بالدين، وقد أسلفنا تفنيد النبي ﷺ لخطة بعض أقوام أرادوا تجاوز الحدود، حيث قال: «**لكني أصوم وأفطر وأصلي وأنام وآكل وأتزوج النساء، فمن يرغب عن سنتي فليس مني**»[(١)]. كما أسلفنا في تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أن طلب المال واكتسابه مشروع بشرط أن يكون وسيلة لا غاية، وأن لا يطغىٰ حبه علىٰ حب اللَّه ورسوله والقيام بأوامرها بحيث لا يكون الإنسان عبدًا للمادة والعياذ باللَّه.

الرابع والثلاثون: أن ما ذكرناه في الوجه الخامس والعشرين من كون الصلة برب العالمين تقتضي سحق جميع العوائق والقواطع الحائلة بين العبد وبينه، وأن يخلع علىٰ عتبة الإسلام جميع التقاليد والأوضاع

---

(١) تقدم تخريجه.

هو لأجل إقامة الفطرة الصحيحة للأفكار والتصورات، وذلك بتطهير القلب وتنقيته من كل ما علق به من مفسداتها أو معوقات القيام بها، ولهذا يطالب الإسلام الداخل فيه أن يتخلىٰ بادئ ذي بدء عن جميع ما ورثه من التقاليد والأوهام، وأن يكون أمام الحقائق والتكاليف الإسلامية كيوم ولدته أمه سليم القلب والدماغ، خالي الذهن من كل صورة خيالية أو وراثة تقليدية.

ومتىٰ تم له إحداث هذه التخلية الذهنية والتطهير القلبي سهل عليه معرفة حقوق اللَّه ورسوله، والقيام بهما علىٰ الوجه الصحيح، وسهل عليه الانقياد لأوامر اللَّه والاقتداء برسوله ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ، وهان عليه بذل النفس والمال في حمل الرسالة والتضحية في سبيل الدفع بها إلىٰ الأمام، فحلول حب اللَّه ورسوله وتعظيمهما محل الخيالات والأوهام الأولىٰ والتقاليد الموروثة، وقبول العقل جميع ما يملىٰ عليه من عظمة شأن اللَّه وبديع آياته وتفرده بالخلق والإبداع، والأمر والاختيار، وتنزيهه من الشريك والوزير، والند والنظير، والولد والوالد، وجميع مشابهة المخلوقين.

فحصول التجرد الذهني الذي شرطه الإسلام علىٰ الداخل فيه أولًا هو الذي يسهل عليه قبول جميع ما ورد من اللَّه علىٰ لسان رسوله، والانقياد له والتسليم لحكمه بغاية الرضىٰ والاطمئنان جازمًا بأحقيته وصلاحيته علىٰ ما سواه، وبِهذا سهل علىٰ أهله رفض العصبيات القومية والمميزات الشخصية التي لولا التجرد الذهني من سوابقهم لما رفضوها علىٰ شدة عصبتهم، لكن لما عاد العقل إلىٰ فطرته بسبب التجرد الذهني الكامل أيقنوا أن الناس كلهم أولاد أب واحد وأم واحدة مهما اختلفت أسماؤهم أو ألقابهم أو ألوانهم أو لغاتهم أو أوطانهم، وأنه لا ميزة لأحد بغير العمل الصالح، ولا يجوز التفاوت بين أفراد البشرية إلا بالمواهب العلمية والخدمات الإنسانية، وأنه ليس لأحد ميزة ذاتية أو طبقية أبدًا، وهذا شيء استعصىٰ هضمه ـ

فضلًا عن قبوله وتنفيذه ـ علىٰ غير المسلمين، حتىٰ في العصور الحاضرة التي يتبجح أهلها بالمدنية والوعي والرقي والإنسانية لم يهضموا هذه القاعدة فضلًا عن تطبيقها فما أعظم خسارة العالم برفضهم ملة إبراهيم.

الخامس والثلاثون: ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الموحدة لأهداف بني الإنسان واتجاهاتهم بعبادة رب واحد، في طريق واحد، من مصدر واحد هو الرسول ﷺ فمن تنكب عن هذه الملة الحنيفية فأعرض عن عبادة اللَّه لابد أن ينحط ذهنه بتفكيره مهما كان في غاية العقل والتفكير؛ فيعبد آلهة شتىٰ وتتنوع انحرافاته واتجاهاته، كما نرىٰ العبادات والمعتقدات المختلفة لبني الإنسان، وتقديس بعضهم لبعض، وسلوكهم المتناقض وعقائدهم المتباينة المضحكة المسببة للتناحر والشقاق، وفساد أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية بسبب انحرافاتهم وأنانيتهم وانتهازياتهم، وذلك من آثار زيغ قلوبهم كما قال اللَّه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم].

فعقائد اليهود المنحرفة، وسلوكهم المتذبذب، وشيطنتهم بين الناس واضحة للعيان، ومع قلتهم فقد زادوا علىٰ الأبالسة في تجنيدهم نفوسهم لكل باطل، وخدمتهم لكل طاغوت في سبيل مآربهم الخبيثة، ويعتقدون أن جميع ما يفعلونه من المفاسد والإفساد لصالح عقيدتهم.

أما النصارىٰ علىٰ كثرتهم الكاثرة وبسط سلطانهم في الأرض، فإن تصوراتهم العقائدية القديمة من أفسد التصورات، وقد شقوا بها ردحًا من الزمن وبعد انتفاضتهم من بعضها عكفوا علىٰ تقديس البعض الآخر، ولا يزالون متخذين رجال الكنيسة والبابوات أربابًا من دون اللَّه، وقد ضلوا عدة سنين وهم في جدل عميق وشقاق بعيد من أجل خرافة لو تفوه بها بعض المسلمين فضلًا عن التحمس لها لصاحوا عليهم وشنعوا ورموهم بكل سفه ونقيصة، ألا وهي قضية

«الأفخاريستا» التي هي تحول الخبز والخمر إلىٰ لحم المسيح ودمه، فقد تفاقم خلافهم في استحالة لقمة الخبز وجرعة الخمر إلىٰ ذلك، هل هي حقيقة أو مجاز بمعنىٰ تبريك المسيح؟ وهل الاستحالة بمجرد الأكل أو بتبريك القس؟

فكيف يبقىٰ تفكيرهم الهزيل المضحك في زمان العلم والنور الذي يتبجحون به؟ وكيف تُعنىٰ به أكبر دولة من دولهم، وتَهتم به غاية الاهتمام كما أوضحناه سابقًا؟

ومن النواحي الأخرىٰ تقديس بعضهم للأشخاص المذهبيين والركوع عند قبورهم، ووضع أكاليل الزهور عليها وهم من أكابر المجرمين الجزارين للبشرية، وكذلك تقديسهم لما يُسمىٰ الجندي المجهول الذي يُعمل من أغلىٰ أنواع الذهب الإبريز المسمىٰ «برونز» بِهيكل عظيم فاخر، ويوضع في أحسن المواقع في البلاد، ويحرس بالجنود، وتقام له الاحتفالات الضخمة التي تخسر الدولة فيها أموالًا طائلة وتكاليف جمة من أجل قبر الجندي المجهول الذي تخشع أمامه عساكر الجاهلية الجديدة.

فالنابذون لملة إبراهيم قد دفعوا لنبذها ثمنًا غاليًا من عبادة الأشخاص الروحانيين والسياسيين والزعماء الثوريين فلاسفة المبادئ والمذاهب المادية، وقد عاد الناس إلىٰ جميع ضروب الجاهلية القديمة، بل طوروها وجددوا لها أنواعًا خطيرة مرتكزة علىٰ الحس البهيمي البشع الذي جعل الإنسان عبدًا لشهواته وهواه، بل يفرض نزواته الحيوانية علىٰ غيره؛ لأن مضمون هذه الجاهلية يملي علىٰ أهلها أنهم برزوا إلىٰ عالم الوجود سواء من خالق أو من غير خالق، وإن كان من خالق فلا علاقة له بهم ولا صلة، كما أنهم ليس لهم به علاقة، وهو ليس له علاقة بحياة البشر، ولا سلطان له عليهم.

وإنما خرجوا إلىٰ هذا الوجود مجبولين علىٰ مطالب ورغبات،

وعندهم الأرض مشحونة بجميع الأصناف والأنواع من النعم والمتاع، وهي ملك لهم يستخدمونها ويستثمرونها بما شاءوا ويفعلون علىٰ ظهرها ما يشاءون حسب نوازع طباعهم، وليس لهم من رادع أو زاجر يكونون مسئولين أمامه، وليس عندهم من هداية السماء ما يستنيرون به في ظلمات حياتهم اليومية، فهم يرون أنفسهم في غنىٰ عن ذلك، وهم الذين يتولون التشريع والتقنين بأنفسهم دون رجوع إلىٰ اللَّه في ذلك، إن كان فيهم من يعترف باللَّه، ومن كانت هذه حاله فالبهائم خير منه وأهدىٰ سبيلًا؛ لأن هذه النظرة للحياة يكون الرجل فيها جائرًا غشومًا شريرًا، لا يوثق به ولا يؤتمن علىٰ شيء؛ لأنه يكون منهومًا بحب الذات والأنانية والأثرة وعبادة الشهوات، نزَّاعًا إلىٰ قضاء مآربه وانتهاز الفرص السانحة لها، فلا يحلو في عينيه إلا ما ينفعه بشيء في العاجل، ولا يقيم وزنًا لما سواه.

وفي هذه الحال يكون بناء السياسة علىٰ أساس الحاكمية البشرية النفعية الاستغلالية، لا علىٰ أساس حكم اللَّه، والولاء والبراء في اللَّه، والتقيد بما فيه نصرة دين اللَّه، فهذا معدوم بتاتًا، بل تبقىٰ السياسة علىٰ وفق المصالح، ومراعاة المنافع، لا ترتفع الكلمة فيها إلا لمن بلغ الغاية في المكر والدهاء والغدر واختلاق الأكاذيب التي يُصور بها الباطل حقًّا والحق باطلًا، ويتفوق علىٰ غيره في الخداع والقسوة والبطش وخبث الطوية؛ فتتأثر الآداب والفنون بِهذه العقلية السياسية الماكرة، وتصطبغ بصفتها بدوافع المكر والقوة الفاحشة، حتىٰ تزداد فيها عناصر الخلاعة والفحشاء كل يوم، وتنبعث الحياة الاقتصادية تبعًا لأهواء هذه السياسة من رأسمالية أو إقطاعية أو طبقية جديدة باسم الاشتراكية الفوضوية المكذوبة، فتفلس الشعوب من العدالة الاجتماعية التي تصبو لها، وتكون الحياة الاجتماعية علىٰ أخس الأحوال من غلبة القِحَة وقلة الحياء ومفاسد الأخلاق.

والمصيبة الكبرىٰ ما ينشأ عليه الأولاد من هذه التربية الجاهلية

التي لا يعرفون فيها معروفًا ولا ينكرون منكرًا ولا يتقيدون بأي وازع سوىٰ نظام الدولة وسياستها المادية، فهذا أخطر الأمور لما فيه من الجناية علىٰ العقل والروح بفساد التصورات وانحراف السلوك.

قال العلامة المودودي: هذه هي الجاهلية المحضة، وصورته لا تختلف عن طريق الطفل الذي يثق بالمشاهدة الحسية فيحسب النار لعبة جميلة، وجَلَّ ما بينهما من الفرق إن خطأ الطفل يظهر سريعًا واضحًا بالتجربة؛ لأن النار التي يحسبها الطفل لعبة يتلهىٰ بها تكون ذات لهب فيعرفها إذا اكتوىٰ بها، ولكن نار الجاهلية التي يلعبون بها في حياتهم لا تظهر لهم حقيقتها؛ لأنها ليست حامية ولا كاوية، بل يصطلي البشر بها أزمانًا طويلة وهم لا يحسون بلظاها علىٰ أن من تأهب للاتعاظ والاعتبار بالحوادث والتجارب وجد العظات الكثيرة مما يشاهده دائمًا من خيانة الرجال، ومظالم الولاة، وانحراف القضاة، وأنانية الأغنياء وانتهاك العامة للمحرمات، وما حصل علىٰ سائر المعمورة من الوبال والنتائج الوخيمة للنزعات القومية والتسلطية، والحروب المدمرة والفساد في الأرض ومجازر الإفناء، كل هذا يدل علىٰ اعوجاج الطريق، فكيف لا يعتبرون؟ انتهىٰ بتصرف.

السادس والثلاثون: القائمون بملة إبراهيم علىٰ بصيرة، لا يسلكون مسلك الخمول والعجز والتواكل والأنانيات المختلفة التي يسلكها غيرهم؛ لأن عندهم من التعاليم السماوية والاقتداء بنبيهم ﷺ ما يجعلهم أحزم الناس وأقواهم وأصدقهم عزيمة، وأشجعهم إقدامًا، وأشدهم تضامنًا واتحادًا، فإن لديهم من المثل العليا ومقومات الحياة الصحيحة ما يحقق لهم ذلك، ولم ينعكس أمرهم حتىٰ خالفوها، فإن دينهم يأمرهم بالاستعداد بالقوة الكافية علىٰ اختلاف صورها لحماية الدين والذب عنه، والدفع بمده الخيري إلىٰ الأمام.

ويوجب عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون علىٰ

البر والتقوىٰ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، لصيانة العقيدة وغرس مكارم الأخلاق التي فقدها غيرهم، وليكونوا قوامين علىٰ الناس بذلك، ونبراسًا لهم وأئمة لهم في الحياة، وأن دينهم يأمرهم بالاتحاد الصحيح، والتآزر والتساند حول تلك القوة، وأن يكون اتحادهم مرتكزًا علىٰ المحبة والعطف والرحمة والعدل والإحسان والمواساة والاتفاق علىٰ منابذة الأعداء والنفرة منهم، والغلظة عليهم في ذات اللَّه، وحصر الموالاة والمودة فيما بينهم فقط، فإن التباغض والقسوة والجور والميل مع الكفار مفكك للوحدة وجالب للشقاق والنفرة، وقد أشار اللَّه في آخر سورة الفتح إلىٰ قوتهم الكافية بقوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]. أي: من شدة قوتهم.

وأشار إلىٰ اتحادهم وعدم الفشل بينهم بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] فكل من هو رحيم بالآخر يحب له كما يحب لنفسه، فأخوتهم صادقة، وكلمتهم مجتمعة، كقوله سبحانه في التضامن: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقد بين اللَّه أن سبب اختلاف القلوب ضعف العقول، وذلك في قوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، فهذا بيان للعلة الموجبة للتفرق، وهي عدم العقل أو ضعفه.

وقد أسلفنا أن من المثل العليا في دين الإسلام مراعاة الروح والجسم جميعًا مما يتضح به أن إهمال المسلمين للناحية الجسمية من عنصري الإنسان وتكاسلهم وتواكلهم وإخلادهم إلىٰ الأرض في عجز وضعف، حتىٰ احتقرهم عدوهم وأهانهم، وصار لا يحسب لهم حسابًا هو مثل سوء لا مثل أعلىٰ؛ لأنه مخالف لتشريع السماء، وأن إهمال الذين برعوا في خدمة الجسم للناحية الروحية مثل سوء ـ أيضًا ـ بل هو الويلة العظمىٰ والداهية الدهياء عليهم، ولذا تراهم في قلق دائم يعقدون المؤتمر بعد المؤتمر ليتخلصوا من شر تلك القوة التي بذلوا

في تكديسها كل إمكانياتهم، ولو كان كل من الطرفين يعلم أن مقابله سيدمر ما يدمره عليه أو أكثر لانقلبت سياستهم فيها رأسًا علىٰ عقب، ولكن الإعجاب والغرور يُعمي ويُصم، فلا تعود عليهم بصائرهم إلا بالرجوع إلىٰ وحي اللَّه وتطبيقه.

فإن القوة المادية إذا طغت ولم تدبرها الروح السماوية لم يتزن اتجاهها بل تتوجه إلىٰ ما فيه الويل والهلاك لبني الإنسان، وما أشبهها بأنياب الأسد وأظفاره! فإنها قوة جسمية حيوانية، والروح التي تدبرها روح بَهيمية حيوانية، طبيعتها الافتراس والابتزاز والغشم، فالطامع باستعمال الكفار لمخترعاتهم الذرية والهيدروجينية والصواريخ والمركبات الفضائية في الأغراض السلمية وقصرها علىٰ المنافع البشرية أجهل وأضل ممن يطمع باستعمال الأسود والسباع الضارية قوتها المفترسة في العطف والحنان علىٰ غيرها من الحيوان الضعيف.

فعلىٰ المسلمين أن لا ينخدعوا بمكر أعدائهم وأن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ويطيعوه بأخذ حذرهم وإعداد قوتهم المادية والروحية، وعدم الثقة بأعدائهم أو الاطمئنان إلىٰ نصرة بعضهم، فإن الكفر ملة واحدة، والكفار جميعًا يلتفون في عداوة المسلمين، ولا يخشون من ظهور أي مذهب غير الإسلام الذي أثنىٰ اللَّه علىٰ حسنه وضمن حسن العاقبة لأهله الصادقين المخلصين، وحمل لهم نصيبًا من عزة إبراهيم، وسيجعل اللَّه أعداءهم الأخسرين والأسفلين إذا عاملوه كمعاملة أبيهم إبراهيم.

وقوله سبحانه في الآية (١٢٦): ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾:

فيه فوائد جليلة:

إحداها: التدليل علىٰ أنه سبحانه المستحق للعبادة التامة وإسلام الوجه له إسلامًا كاملًا؛ لأن له ما في السموات والأرض خلقًا وملكًا

وهيمنة، فهو المالك لكل شيء، وما عداه ليس يملك لنفسه شيئًا، فكيف يتوجه العاقل إلىٰ من لا يملك شيئًا ويترك حصر التوجه إلىٰ اللَّه المالك لكل شيء؟ وكيف يشرك باللَّه من لا يملك شيئًا أو يتخذه واسطة؟ هذا خلل في العقل ونقص في العلم.

ثانيها: نفي ما قد يسبق إلىٰ الأذهان من اللوازم العادية والشبهات الشيطانية في اتخاذ اللَّه نبيه إبراهيم خليلًا كخلة الآدميين ودوافعها؛ لأنه عبد للَّه داخل في ملكه كسائر السموات والأرض، فاتخاذه خليلًا هو مجرد فضل منه لأنه سبحانه شكور، لا يضيع شيئًا من سعي عباده، ولما كان إبراهيم قد بلغ الذروة في عبادة اللَّه، وبذل التضحية التامة بمرادات نفسه ومحبوباتها في سبيل مرادات اللَّه ومحبوباته منحه اللَّه ذروة محبته التي هي الخلة، وهذه المرتبة العظيمة لم تخرجه عن عبادة اللَّه، بل زادته قوة وثباتًا وأن اللَّه الذي له ملك السموات والأرض ليس محتاجًا إلىٰ عبادة العابد مهما كان، حتىٰ يتخذه خليلًا، وإنما ذلك شكر منه للمطيع بحسب طاعته.

ثالثها: أنه سبحانه ذكر قبلها كثيرًا من الأوامر والنواهي والتشريعات التي هي من لوازم الألوهية، فناسبت هذه الآية تذكير المؤمنين بأن له ما في السموات والأرض مما يوجب الخضوع له وتنفيذ أوامره، وقوة الانقياد لتكاليفه، والاستسلام لحكمه، مع الرضىٰ الكامل بدون تحرج.

رابعها: أنه سبحانه لما ذكر الوعد والوعيد الذي لا يمكن الوفاء بهما علىٰ الوجه الأكمل إلا ممن له القدرة التامة والعلم الكامل، فلهذا صرح بأن له جميع ما في السموات وما في الأرض من كل صامت وناطق، ومن كل الكواكب والأجرام العلوية والسفلية، فهي جميعها ملك له وتحت قهره وتسخيره وهيمنته ونفاذ حكمه وألوهيته، فهو الذي له العزة جميعًا وبيده الخلق والتكوين، وله الأمر والتشريع.

فكل حاكمية تقوم علىٰ خلاف شريعته وحكمه فهي حاكمية باطلة

لا يقيمها إلا مشرك بالله، قد جعل لنفسه الخيرة من دون الله، فهو من أخبث أنواع المشركين، وقد ختم الله الآية بما يناسبها تمامًا وهو قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ والمراد من ذلك الإحاطة بالقدرة والهيمنة، والإحاطة بالعلم الشامل الذي لا يغيب عنه مثقال ذرة، وهذه كقوله سبحانه: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: ٢١]، وكقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، أي خالق كل شيء عليم به، ويستحيل عليه عدم العلم به، خصوصًا جنابه العظيم.

وفي قوله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ دليل علىٰ كونه قادرًا مهيمنًا علىٰ كل شيء داخل السموات والأرض وخارجهما مما بينهما ومما في غيرهما، ومحيط علمه بكل شيء داخل السموات والأرض وخارجهما مما بينهما ومما في غيرهما من الأكوان التي لم يخبرنا عنها أو التي سينشئها كيفما أراد، وفي هذا تقرير للتوحيد بجميع أنواعه، ونفي للشرك بجميع أنواعه، وتقرير لتنفيذ الوعد والوعيد، وبيان لقدرته الكاملة ونفوذ مشيئته في خلقه، وحكمه الكوني الذي قضاه، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (١٢٧):** ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾:

الاستفتاء ليس في ذوات النساء بل في أحوالهن وصفاتهن، والغرض من ذكر الكتاب تعظيم هذه الآية التي تتلىٰ عليهم، وأن العدل والإنصاف في حقوق اليتامىٰ هو من عظائم الأمور عند الله التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها، وأن المخل بها ظالم متهاون بما عظمه الله، وقد أشرنا سابقًا أن معنىٰ الإفتاء هو بيان دقائق الأمور وما يخفىٰ منها،

وسبب نزول هذه الآية أن قومًا من الصحابة سألوا رسول اللَّه ﷺ عن أمر النساء وأحكامهن في الميراث، وكان العرب كحالة الجاهليين حولهم وقبلهم لا يورثون النساء ولا اليتامىٰ لاستضعافهم واحتقارهم، ولا يورثون إلا الرجال الأقوياء الذين يحمون الدماء كما أسلفنا.

ومناسبة الآية ـ كما قال أبو حيان الرازي ـ أنها علىٰ تربيع العرب في كلامها أنها تكون في أمر ثم تخرج منه إلىٰ شيء، ثم تعود إلىٰ ما كانت فيه أولًا، وهكذا كتاب اللَّه يبين فيه أحكام تكليفه، ثم يعقب بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ثم يعقب ذلك بذكر المخالفين المعاندين الذين يتبعون تلك الأحكام، ثم يعقب ذلك بما يدل علىٰ كبرياء اللَّه وجلال قدرته وعظمة ألوهيته، ثم يعيد تبيين ما تعلق بتلك الأحكام السابقة، وهذا أحسن أنواع الترتيب وأقربها إلىٰ التأثير في القلوب؛ لأن التكليف بالأعمال الشاقة لا يقع موقع القبول إلا إذا كان مقرونًا بالوعد والوعيد، ثم إن الوعد والوعيد لا يؤثر في القلب إلا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد، فظهر أن هذا الترتيب هو أحسن الترتيبات اللائقة بالدعوة إلىٰ الدين الحنيف.

وقد عرض هنا في هذه السورة أن بدأ اللَّه بأحكام اليتامىٰ والنساء والمواريث، ثم الوعد والوعيد وتأكيد هذه الأحكام مع ذكر المهم من أحكام النكاح ومتعلقاته إلىٰ الآية (٣٦) ثم ذكر المخالفين والمعاندين من هذه الأمة ومن أهل الكتاب، ثم تطرق إلىٰ الجهاد والمثبطين عنه والمخذلين، ثم ذكر أحكام المنافقين وأحوالهم، ثم الهجرة وما يتعلق بالعبادة حال الخوف، وكرر بعض أحوال المنافقين لزيادة كشف أحوالهم، ثم كرر شناعة الشرك وسوء عاقبة أهله إلىٰ أن أعاد ذكر النساء اليتامىٰ ليؤكد استمرار حكمهم للسائلين، فتعالىٰ اللَّه ما أجمل هدايته، وأشمل رحمته فيها!

ولما كانت النساء محتقرًا شأنهن، ومطرحًا أمرهن عند الجاهلية في الميراث وغيره وكذلك اليتامىٰ، فقد أكد اللَّه سبحانه الحديث في

أحكامهم مرارًا ليرجع العرب عن أحكام الجاهلية المستحكمة في أدمغتهم، ومعنىٰ قوله: ﴿يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حال ما سألتم عنه وحكمه، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ هو إشارة إلىٰ ما مضىٰ في أول هذه السورة من قوله: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء]، إلىٰ قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]، وما تخلل من الآيات كقوله: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦] إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء] ثم آيات المواريث.

وقد وضع المضارع موضع الماضي في قوله: ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾؛ لأن الإفتاء والتلاوة قد سبقت، والإضافة في قوله: ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ من باب إضافة الخاص إلىٰ العام؛ لأن النساء ينقسمن إلىٰ يتامىٰ وغير يتامىٰ، وقد قدمنا حديث عائشة الذي رواه عنها الأئمة وعلىٰ رأسهم البخاري ومسلم واللفظ له عن عروة بن الزبير عنها في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، قالت: «ياابن أختي، هي اليتيمة تكون في حِجْر وليها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها، فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يُعطيها غيره، فنُهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلىٰ سنتهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن» وذكر تمام الحديث.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أي ويفتيكم في شأنهن ما يتلىٰ عليكم في القرآن مما نزل قبل استفتائكم الذي ترجون به تغيير شيء مما سبق من التنزيل، ومعنىٰ قوله سبحانه: ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أن من عادتهم الجاهلية أنهم لا يؤتون اليتيمات

إرثًا ولا صداقًا؛ فإن اليتيمة تكون عند وليها ولها مال، فإن كانت جميلة ورغب فيها تزوجها بلا صداق، واستحوذ علىٰ مالها وإن كانت دميمة عزف عن نكاحها ولم يزوجها للآخرين، بل يعضلها ليأكل مالها، فكشف اللَّه مقاصدهم وأمرهم بالإنصاف لمولياتهم.

وكان من عادتهم ـ أيضًا ـ أنهم يزوجون اليتامىٰ اللاتي في حجورهم ولا يعدلون في صدقاتهن، وبعضهم يأخذ الصداق ولا يعطي اليتيمة شيئًا، وكل هذا لاستضعافهن، فاللَّه سبحانه يذكرهم بتلك الآيات المفصلة في أول السورة إلىٰ ذكر المحرمات في النكاح، ليتدبروها ويتأملوا معانيها، ويعملوا بها لينصفوا اليتيمات والمستضعفين من الولدان، وذلك أن من طبائع البشر أن يغفلوا أو يتغافلوا عن الأحكام والعظات التي يراد بها إرجاعهم عن أهوائهم، خصوصًا إذا توهموا أن شيئًا منها غير قطعي، فإنهم يلجئون إلىٰ الاستفتاء عما يعلمونه رجاء نزول تخفيف أو تخصيص يوافق رغبتهم.

فاللَّه سبحانه أحالهم علىٰ ما سبق من تنزيله في شأن النساء واليتامىٰ، ليعلموا أن حكمه باق لم يتغير، وقد وضع المضارع موضع الماضي إعلامًا بتحقق حكمه ووجوب نفاذه، وأن أحكام النساء واليتامىٰ محكمة لا هوادة فيها، فلا يحل للمؤمنين بحال من الأحوال أن يظلموا النساء والمستضعفين لصغرهم، وقد جاء وضع الماضي موضع المضارع يعكس هذا إعلامًا بتحقق الوقوع، كما في قوله سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ الناس بالدرجة الفضلىٰ في هذا المعنىٰ، فكان إذا سأل الولي عن موليته فقيل: جميلة غنية، قال له: اطلب لها من هو خير منك وأعود عليها بالنفع، وإذا قيل: هي دميمة فقيرة قال له: أنت أولىٰ بها وبالستر عليها من غيرك، وقد أرشدهم اللَّه إلىٰ حالة فيها ترغيب عظيم بالدميمة، وقمع للأهواء الصارفة عنها بقوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

[النساء: ١٩]، وهذا من أعلىٰ أنواع الإرشاد الذي يحصل به اللطف بالنساء واستبقاء صحبتهن علىٰ ما فيهن من مكروه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ معطوف علىٰ يتامىٰ النساء والذي يتلىٰ فيهم قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٢] إلىٰ قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١] وقد كان العرب لا يورثون الصبية ولا الصبي الصغير، بل الكبير ينفرد بالمال، وكانوا يقولون: إنما يرث من يحمي الحوزة ويرد الغنيمة ويقاتل عن الحريم، ففرض اللَّه لكل واحد حقه في آيات المواريث بعد أحكام النساء واليتامىٰ وختمها بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣] إلىٰ قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ معطوف علىٰ ما قبله، أي ويفتيكم فيما يتلىٰ عليكم أول هذه السورة بالقيام بالقسط في حق اليتامىٰ.

والقسط: هو العدل علىٰ أتم الوجوه وأكملها فإن هذا هو معنىٰ القيام بالشيء، وذلك بأن تُعنوا عناية كاملة بتحري العدل في معاملتهم خاصة والإقساط إليهم والذي تُلي في حق اليتامىٰ هو من الآية الثانية إلىٰ العاشرة، وقد أسلفنا في تفسيرها ما يكفي ويشفي بإذن اللَّه، وهذا الخطاب يشمل أولياءهم المختصين بولايتهم حسب الوصية أو الأصالة الخاصة، ويشمل أولياء الأمر علىٰ العموم أن يهتموا بشأنهم ويستوفوا لهم حقوقهم، ولا يتركوا الأولياء والأوصياء يستبدون في أمور النساء اليتامىٰ والمستضعفين من الولدان، حيث لهم حق التدخل في الظلم والقوة علىٰ التنفيذ.

فائدة: تعلق أبو حنيفة بهذه الآية في تجويزه نكاح اليتيمة قبل البلوغ، وقال: إنما تكون يتيمة قبل البلوغ، فأما ما بعده فهي امرأة مطلقًا لا يتيمة، لدليل أنه لو أراد البالغة لما نَهَىٰ عن حطها عن صداق

مثلها؛ لأنها تختار ذلك فيجوز إجماعًا، وذهب مالك والشافعي وجمهور العلماء إلىٰ أن ذلك لا يجوز حتىٰ تبلغ وتستأمر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾، والنساء اسم يطلق علىٰ الكبار كالرجال في الذكور، واسم الرجل لا يتناول الصغير فكذلك اسم النساء والمرأة لا يتناول الصغيرة.

وقد قال: ﴿فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ والمراد به هناك اليتامىٰ، هذا كما قالت عائشة، فقد دخلت اليتيمة الكبيرة في الآية، فلا تزوج إلا بإذنها ولا تنكح الصغيرة لأنه لا إذن لها، فإذا بلغت جاز نكاحها لكن لا تزوج إلا بإذنها كما رواه الدارقطني من حديث محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال: زوجني خالي قدامة بن مظعون فدخل المغيرة بن شعبة علىٰ أمها فأرغبها في المال وخطبها إليه فرُفع شأنها إلىٰ النبي ﷺ فقال قدامة: يارسول اللَّه، ابنة أخي وأنا وصي أبيها ولم أقصر بها، زوجتها من قد علمت فضله وقرابته، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إنها يتيمة، واليتيمة أولىٰ بأمرها**»[1]، فنزعت مني وزوجها المغيرة بن شعبة. قال الدارقطني: لم يسمعه ابن إسحاق من نافع وإنما سمعه من عمر بن حسين عنه. ورواه ابن أبي ذئب عن عمر بن حسين عن نافع عن عبداللَّه بن عمر أنه تزوج بنت خاله عثمان بن مظعون قال: فذهبت أمها إلىٰ رسول اللَّه ﷺ فقالت: إن ابنتي تكره ذلك. فأمره النبي ﷺ أن يفارقها ففارقها، وقال: «**ولا تنكحوا اليتامىٰ حتىٰ تستأمروهن، فإذا سكتن فهو إذنها**»[2] فتزوجها بعد عبداللَّه المغيرة بن شعبة.

فهذا يرد ما قاله أبو حنيفة من أنها إذا بلغت لا تحتاج إلىٰ ولي بناء علىٰ أصله في عدم اشتراط الولي في صحة النكاح، فلا معنىٰ لقولهم: إن هذا الحديث محمول علىٰ غير البالغة لقوله: «**إلا بإذنها**»،

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٣٠).

(٢) انظر السابق.

فإنه كان لا يكون لذكر اليتيم معنىٰ، والله أعلم.

فائدة أخرى: في تفسير عائشة للآية من الفقه ما قال به المحققون من صداق المثل والرد إليه فيما فسد من الصداق أو وقع الغبن بمقداره لقولها: «بأدنىٰ من سنة صداقها» فوجب أن يكون صداق المثل معروفًا، فكل صنف من الناس علىٰ قدر أحوالهم، وقد قال الإمام مالك: للناس مناكح عُرفت لهم وعُرفوا بها، أي صدقات وأكفاء، وسئل عن رجل زوج ابنته وهي غنية من ابن أخ له فقير فاعترضت أمها فقال: إني لأرىٰ لها في ذلك متكلمًا، فسوغ لها في ذلك الكلام حتىٰ يظهر هو مما يظهره ما يسقط اعتراض الأم عليه.

قلت: مع احترامي لمالك رَحِمَهُ اللَّهُ وتقديري لاجتهاداته الطيبة فإن فعل هذا الرجل ليس من باب المحاباة حتىٰ يسوغ الكلام للمعترض عليه، بل فعله موافق لنص الله في الآية (٣٢) من سورة النور: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور]. قالوا: وجائز لغير اليتيمة أن تنكح بأقل من صداق مثلها؛ لأن الآية إنما خرجت في اليتامىٰ، هذا الواضح منها وغير اليتيمة بخلافها علىٰ المفهوم، ومعلوم ما في مفهوم المخالفة من الخلاف.

فائدة ثالثة: إذا بلغت اليتيمة وأقسط وليها في صداقها جاز له أن يتزوجها ويكون هو الناكح والمنكح علىٰ ما فسرته عائشة، وبه قال أبو حنيفة والأوزاعي وسفيان الثوري وأبو ثور والحسن وربيعة وهو قول الليث، لكن قال زفر والشافعي: لا يجوز ذلك إلا بإذن السلطان، أو يزوجها منه ولي لها هو أقرب منه إلىٰ الجد الأكبر أو مثله في قرابة النسب، ولا يجوز أن يتولىٰ طرفي العقد فيكون ناكحًا منكحًا؛ لأن الولاية شرط في عقد النكاح كما قال ﷺ: «**لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل**»[1]، وفي المسألة قول ثالث وجيه وهو أن توكل من

---

(١) رواه ابن حِبَّان (٤٠٧٥).

يزوجها منه، ذكر ابن المنذر أن الإمام أحمد قال به، ويروىٰ هذا ـ أيضًا ـ عن المغيرة بن شعبة.

فائدة رابعة: تساهل الناس في نكاح الشغار استنادًا إلىٰ صحته إذ كان بينهما صداق، وأهملوا معضلة خطيرة ماثلة بين الأعين، وهي حاجة نفوس الآباء والأولياء في الطرف الآخر، فإن الأب أو الولي يكون له رغبة وغرام في بنت فلان أو أخته أو موليته أو قريبته التي يكون له عليها التأثير بذاتها أو بواسطة أمها أو أختها ونحو ذلك، فإذا خطب فلان من ذلك الأب أو الولي انتهز الفرصة واشترط أن يزوجه بنته أو موليته، أو يسعىٰ بالتأثير علىٰ قريبته ويغريها بالمال من أجل نيل مقصوده.

وهناك تتشابك الأغراض وتتفاقم الأنانية، فلا يقبل هذا تزويج ذلك إلا بالتزامه تزويجه موليته أو قريبته التي يؤثر عليها مع ما يدفع من الصداق الضخم، فيضطر كل منهما إلىٰ خيانة موليته لتحصيل شهوته التي لا ينالها إلا بذلك مهما بالغ في زيادة الصداق، خصوصًا إذا كان فيهما أو في أحدهما عيب يجعله غير مرغوب فيه كالعمىٰ والعرج الشديد، والمريض والمسن والظاهر بياض اللحية، وكالذي سجيته الطلاق حبًّا للتذوق وقد اشتهر زواجه وطلاقه كل سنة مرة أو أكثر، فإن مثل هؤلاء غير مرغوب فيهم، إلا إذا عرضت حاجة نفسية عند ولي المرأة، فإنه يضحي بمستقبل موليته في سبيل نيل شهوته، ويحسب أن دفع الصداق كافٍ في الإباحة لظاهر الحديث، ويتعامىٰ عن غش موليته وخيانتها وتحطيم مستقبلها الذي يجعل هذا النكاح حرامًا مهما حصل فيه من كثرة الصداق.

وهذا رائج مشاهد في عصرنا ومغفول عنه، وقد لاحظه الشيخ ابن تيمية في زمنه وكتب فيه ما يزيد علىٰ مئة صحيفة، وجزم بتحريمه لوجود هذه الأغراض النفسية، ويصعب عليَّ الإطالة بنقل شيء منه فليرجع إليه المستزيد في كتابه «العقود» الذي سماه ناشره «نظرية

العقد» فأضاعه علىٰ الناس بتغيير اسمه.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ لما قدم اللّه سبحانه ذكر النساء ويتامىٰ النساء والمستضعفين من الولدان، والقيام لليتامىٰ بالقسط أعقب ذلك بأنه يعلم ما يفعله العباد من الخير بسبب أولئك وما يقومون به من التفضل عليهم والجود بحسن المعاملة لهم، فيجازيهم علىٰ ذلك بالثواب الجزيل علىٰ ترجيع منفعتهم والزيادة في قسطهم، فإنه سبحانه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة، ولا ينسىٰ الإثابة علىٰ شيء مهما كان يسيرًا، وقد اقتصر في ختام هذه الآية علىٰ ذكر علمه بفعل الخير، وهو يعلم جميع ما يفعله الناس من الخير والشر، ولكن هذا لأجل الترغيب في ترجيح مصلحة اليتامىٰ علىٰ كل شيء، ومصلحة النساء اللاتي تحت ولاية الرجال وتسلطهم حتىٰ لا يسلكوا الجانب النفعي في حقهن ولا حق الأيتام، وأن يتجرد الأولياء من حظوظ أنفسهم وشهواتها الخفية، بل يسلكوا جميع معاني الرحمة والإحسان؛ لأن المراتب في معاملة أولئك ثلاثة:

أحدها: هضم شيء من حقوقهم ومجاراة شهوات النفوس في معاملتهم، وهذا محرم عليهم، وتلك الدرجة هي المرتبة السفلىٰ الخسيسة.

وثانيها: القيام لهم بالقسط والعدل الكامل بأن لا يظلموهم من حقوقهم شيئًا أبدًا وهي المرتبة الوسطىٰ الواجب سلوكها ومراعاتها.

وثالثها: الزيادة في رزقهم وإكرامهم والإحسان إليهم بما ليس لهم من مال، ولا يجب عليهم من عمل، والتخلي عن جميع حظوظ النفس واحتساب الأجر عند اللّه وهذه المرتبة العليا.

📖 **وقوله ﷻ في الآية (١٢٨):** ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾:

الخوف يجب أن يفسر علىٰ بابه من توقع المكروه بظهور بعض أسبابه أو أماراته، ولا يجوز تفسيره بالعلم أو الظن كما فسره بعضهم. والنشوز هو الترفع والكبر وما يترتب عليه من سوء المعاملة كما مضىٰ تفسيره، والإعراض هو الميل والانحراف عن المرأة بدون أذىٰ، بل بقلة المحادثة والمؤانسة لكبر سنها أو دمامتها أو حصول خلل في خَلقها أو خُلُقها أو ملل أو طموح إلىٰ غيرها، ونحو ذلك من الحوادث التي أكثرها لا يحصل إلا عند التزوج بأخرىٰ لاختلاف الفراش، وهو أخف من النشوز؛ لأن النشوز يجر إلىٰ أنواع من الإيذاء.

وقد جاء تعبير القرآن بصريح الخوف مفسرًا لفعل محذوف، وذلك للاحتراس من بناء الحكم علىٰ أساس الوسوسة التي تكثر عند النساء، وهو من إيجاز القرآن البديع، وذلك أن المرأة قد ترىٰ الزوج مشغولًا بأزمات مالية أو سياسية، أو حل مسائل علمية عويصة أو غير ذلك من المشاكل الدنيوية أو المهمات الدينية، فلا تعتبر ذلك عذرًا يبيح له الإعراض عن مسامرتها أو مباشرتها، والواجب عليها أن تتثبت فيما تراه من أمارات النشوز والإعراض حتىٰ تتحقق من الأسباب، هل هي خارجة عنها أو ناشئة من كراهتها وعدم الرغبة في معاشرتها بالمعروف، فتعذر الرجل إذا حصل الإعراض منه لأسباب خارجية وتصبر عليه.

وإذا اتضح لها خلاف ذلك جاز لها التفاوض معه في إصلاح شأنها بنوع من الصلح، تستبقي به المودة والألفة، كأن تَهب يومها لغيرها من نسائه كما فعلت سودة ﵂ مع رسول اللَّه ﷺ، أو أن ترضىٰ بالقسم لها في مدة طويلة، أو تَهب له المهر أو بعضه، أو تعفيه عن النفقة علىٰ شرط تتفق معه عليه، أو تسقط عنه القسم شريطة أن لا يطلقها ونحو ذلك من أنواع الصلح النافع الذي يحصل به حل المشكلة ويندفع الطلاق، وقد مدح اللَّه الصلح بمدح جميل فقال: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾ وذلك لحسن عاقبته القاطعة للبغضاء والخصومة، والمانعة من الفرقة النهائية بالطلاق الذي يترتب عليه الآثار السيئة من تنافر القلوب، وعدم

إخلاص الأولاد لأبيهم بعد طلاق أمهم، وعدم وفاقهم مع إخوانهم الآخرين، خصوصًا بعد حرمان أمهم من الميراث، وقد يحصل تشريد لأولادها واحتقار، فتنشأ مفاسد لا يعلم غايتها إلا اللَّه الذي رغب في الصلح وأثنىٰ عليه.

وقد أطلق اللَّه الخيرية في الصلح إعلامًا بعموم خيريته حتىٰ علىٰ التسريح بإحسان في أداء المهر ودفع المتعة وحفظ الكرامة كما هو الواجب علىٰ المطلق، وحتىٰ مع إكرامها بالإسكان والنفقة كما هو المندوب لغير الحاضنة ونحوها ممن يجب إسكانها والإنفاق عليها، فالصلح خير في جميع الأحوال؛ لأن رابطة الزوجية من أعظم الروابط وأحقها بالحفظ، وميثاقها من أغلظ المواثيق وأجدرها بالوفاء، وأن عروض الخلاف وأسباب الكراهة وما يترتب عليها من النشوز والإعراض وسوء المعاشرة لمن لم يقف عند حدود اللَّه من الأمور الطبيعية التي لا يمكن انعدامها بين البشر.

ولكن الشريعة العادلة الرحيمة هي التي تراعي في ذلك السنن الطبيعية، فشرعت التحكيم الذي فصلناه في الآية (٣٥) وشرعت الصلح وأثنت عليه، ولا يتصور في ذلك أعدل ولا أكمل مما جاء به الإسلام الذي جعل القاعدة الأساسية هي المساواة بين الزوجين في كل شيء إلا القيام برئاسة الأسرة والقيام علىٰ مصالحها؛ لأنه أقوىٰ بدنًا وعقلًا، وأقدر علىٰ الكسب، وهو المكلف بالنفقة كما قال ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وهذه الدرجة هي القوامة علىٰ الأسرة بالإنفاق وإصلاح الأمور، كما قال سبحانه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤] وقد تكلمنا علىٰ هذا في موضعه.

فمن لم يتقبل ما شرعه اللَّه وينقد له برحابة صدر وانشراح خاطر، مُسلمًا لحكم اللَّه بين الرجال والنساء، راضيًا به وبغيره من الأحكام فهو كافر يجب أن تُجرىٰ عليه أحكام المرتدين، ولم نعرف انتقاص

الشريعة كهذا إلا بعد التربية الماسونية الاستعمارية، ويجب علىٰ الرجل وراء النفقة علىٰ امرأته أن يعاشرها بالمعروف، وأن يحصنها ويُعفها ويُحصن نفسه بها، ولا يجوز له أن يُضارها بأي شيء كما مضىٰ تفصيله.

هذا وإن الصلح الممدوح هو الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف، ويندرج تحته صلح الزوجين المنجي من الفرقة والاختلاف، وإلا فالصلح عام فضله ونفعه في جميع الشئون.

وقوله سبحانه: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ التحقيق أن الشح والحرص واحد في المعنىٰ؛ لكن أصل الوضع يجعل الشح للمنع والحرص للطلب، فلذا أطلق علىٰ الحرص الشح؛ لأن كل واحد منهما سبب لكون الآخر، فالشح هو أن يحرص كل واحد علىٰ حقه، يقال: هو شحيح بمودتك: أي حريص علىٰ بقائها، ولا يقال في هذا بخيل. ومع عموم المعنىٰ فالمقصود هنا شحُّ المرأة بنصيبها من زوجها، وشح الزوج بنصيبه من الشابة الجديدة، فالنساء الحريصات علىٰ حقوقهن من الرجال شحيحات بها، والرجال ـ أيضًا ـ حريصون علىٰ أموالهم وشحيحون بأوقاتهم مع من يحبون.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ قال المحققون: هذا من باب المبالغة، جعل اللَّه الشح كأنه شيء مُعَدٌّ في مكان، وأحضرت الأنفس له وسيقت إليه، ولم يقل اللَّه: «وأحضر الشح الأنفس» فيكون مسوقًا إلىٰ الأنفس، بل الأنفس سيقت إليه؛ لكون الإنسان مجبولًا علىٰ الشح ومركوزًا في طبيعته.

وقيل: معنىٰ إحضار الأنفس الشح أن الشح جُعل حاضرًا لها لا يغيب عنها، ولا تنفك عنه، وهذا القول من باب القلب وليس بجيِّد، بل إن التركيب القرآني يقتضي أن الأنفس جعلت حاضرة للشح لا تغيب عنه؛ لأن الأنفس هو المفعول الذي لم يسم فاعله، فالشح مجبول عليه الإنسان، وهو السبب الذي قد يحول بين الزوجين وبين الصلح الذي فيه الخير وحسم مادة الخلاف والشقاق.

فاللَّه سبحانه بين لنا هذا السبب المانع من الصلح، لكي نتقيه ونجاهد أنفسنا في ذلك وما أحسن قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾! فإنه يعترض المقاصد الحسنة، فإذا جاء مقتضىٰ البذل اعترض لها ونهاها أن تبذل ما ينبغي بذله لأجل الصلح وإقامة المصلحة، فينبغي لكل من الرجال والنساء أن يتذكروا أن هذا الشح الذي يعتريهما علىٰ التمسك بحقوقهما كاملة هو من ضعف النفس الذي يضر ولا ينفع، وأن يعالج كل منهما هذا الشح بما يتطلبه الأمر من التسامح، فإن من أقبح البخل أن يبخل أحد الزوجين في سبيل مرضاة الآخر بعد أن أفضىٰ بعضهما إلىٰ بعض، وارتبطا بذلك الميثاق العظيم، بل ينبغي أن يكون التسامح بينهما أوسع من ذلك، ليقضي علىٰ الشح قضاء لا يبقىٰ معه خلاف، وهذا ما يشير إليه ختام الآية بقوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

والمعنىٰ: إن تحسنوا المعاشرة فيما بينكم، فتتراحموا وتتعاطفوا ويعذر بعضكم بعضًا، وتتقوا اللَّه في ترك النشور والإعراض وما يترتب عليهما من منع الحقوق والإضرار وتفاقم الشقاق فإن اللَّه خبير بأعمالكم وبواعثها، لا يخفىٰ عليه خافية، وقد ربط اللَّه الإحسان بالتقوىٰ؛ لأن الزوج قد تحمله الكراهة للزوجة علىٰ أذيتها وخصومتها، لا سيما وقد ظهرت منه أمارات الكراهة من النشوز والإعراض، وقد وصىٰ النبي ﷺ بالنساء وقال: «**إنهن عَوَانٍ عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة**»(١)، وأول الحديث: «**استوصوا بالنساء خيرًا**». والعوان هو الأسر فقوله: «**عوان**» أي أسيرات، جمع عانية وهي الآسيرة، والعاني الأسير، فشبه رسول اللَّه ﷺ المرأة في دخولها تحت حكم الزوج بالأسير، وروىٰ مسلم عنه ﷺ أنه قال: «**لا يفرك مؤمن مؤمنةً؛ إن كره منها خلقًا رضي منها آخر**»(٢).

---

(١) رواه التِّرمذي (١١٦٣).
(٢) رواه مسلم (٦١).

وقوله: «**يفرك**» أي يبغض.

وقول اللَّه: ﴿فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي لا تطلبوا طريقًا تحتجون به عليهن وتؤذنهن به، ولكن ما أكثر المتجاوزين لحدود اللَّه ممن علىٰ هذه الشاكلة، ممن يفترون الكذب أو يحسبون أخطاءهن، ويتطاولون عليهن حتىٰ يتفاقم الشر!

وورد في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**استوصوا بالنساء خيرًا؛ فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء**»، وفي نهاية حديث آخر لمسلم: «**وكسرها طلاقها**»[1]، وقد أسلفنا مثل ذلك وقال بعض الشعراء في المرأة:

هي الضِّلعُ العوجاءُ لستَ تُقيمُها ... ألا إنَّ تقويمَ الضلوع انكسارُها
أتجمعُ ضعفًا واقْتدارًا علىٰ الفتىٰ ... أليس عجيبًا ضعفُها واقتدارُها

فنظمت أبياتًا في أسباب اقتدارها وهي ثلاثة:

الأول: ضعف الزوج أمام تسلطها لغرامه بها.

والثاني: سماحة الزوج وجوده لها ورحمته بها.

والثالث: وهي سجية الكريم الذي يقدر أخلاقها فيلين معها، أو يقدر وليها الذي أكرمه واصطفاه علىٰ غيره، أو يلين معها بسبب تملقها وانكسارها واستعطافها إياه، فبهذه الأسباب الثلاثة يحصل اقتدارها كما نظمته بقولي:

وذاكَ لضعف الزوج تَخْذُلْهُ شهوةٌ ... فيصبحُ صَلْبَ العُوْدِ رَهْنَ اختيارِهَا
وبعضُهمو ليستْ تُمَيِّعْهُ شهوةٌ ... بل الجودُ والرَّحْماتُ دَعْمُ اقتدَارِها
وتقديرُ أخلاقٍ لها مِنْ كريمهم ... وتقديرُ والىٰ العَقْدِ أو لانكِسَارِهَا

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

وقال الماتريدي في قوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا﴾ في أن تعطوهن أكثر من حقهن، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ في أن لا تنقصوا من حقهن شيئًا، أو أن تحسنوا في إبقاء حقهن والتسوية بينهن وتتقوا الجور والميل، وتفضيل بعضهم علىٰ بعض، أو أن تحسنوا في اتباع ما أمركم اللَّه به من طاعته، وتتقوا ما نهاكم عنه من معصيته. اهـ، وهو من بعض مدلول قوله تعالىٰ في ختام أحكام النكاح: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ولكن في العدل الباطني من الصعوبة ما يأتي قريبًا.

وهاهنا فوائد:

أحدها: ختام اللَّه للآية بصفة الخبير وهو علم ما يلطف إدراكه ويدق؛ لأنه قد يكون بين الزوجين من خفايا الأمور ما لا يطلع عليه إلا اللَّه سبحانه، ولا يُظْهِرَان ذلك لكل أحد، وقد تكتم بعض النساء الطيبات علىٰ أبويها ما يجري بينها وبين زوجها لقوة صبرها وثبات عقلها.

ثانيها: في خطاب اللَّه للأزواج بطريق الالتفات والتعبير عن رعاية حقوقهن والإحسان إليهن حض لهم علىٰ مكارم الأخلاق، وعدم مجاراة النساء في العاطفة، وأن يتذكروا الماضي ويتحملوا الحاضر، ولا يضيعوا بعض المساعي، ولا يهدروا الكرامة بالكلية، بل يصبروا ويحسنوا، فهم أقدر علىٰ الصبر والتحمل من النساء، فإن نقص القادر أشد عيبًا وأعظم خزيًا وإثمًا، وكذلك لفظ التقوىٰ المبني من كون النشوز والإعراض مما يجب التوقي منه، وأن الرجال أجدر بذلك من النساء، ولهم مزيد من الأجر في حسن المعاملة والتزام الصبر عن تقوىٰ اللَّه، كما هو ظاهر الآية.

و قيل: إن هذه الجملة خطاب للزوج والزوجة جميعًا، أن يُحسن كل منهما إلىٰ صاحبه ويحترزا من الظلم وتهويل الأمر، ويسلكا التسامح، واللَّه يثيبهما علىٰ حسب الصبر وصدق النية، ولكن القول الأول الراجح.

ثالثها: روىٰ الحاكم عن عروة عن عائشة أنها قالت له: يا بن أختي كان رسول اللَّه ﷺ لا يفضل بعضنا علىٰ بعض في القسم في مكثه عندنا، وكان قلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتىٰ يبلغ إلىٰ من هو يومها فيبيت عندها، وكفىٰ به قدوة.

رابعها: قول بعض المفسرين: إن النبي ﷺ كان عازمًا علىٰ طلاق إحدىٰ زوجاته وهي سودة بنت زمعة وهو قول باطل، وسوء فهم من القصة ناشئ عن اختيار سبب للنزول، وهو زعم لا صحة له، إذ لم يرو أحد من المعتمدين عزمه ﷺ علىٰ طلاقها، لا في الصحاح ولا في السنن ولا في المسانيد، بل غاية ما روي في السنن أن سودة خشيت الفراق لكبر سنها، وتوهمته كالعادة الجارية للنساء بسبب الغيرة من الأوهام المتنوعة، فتقدمت للنبي ﷺ بِهبة ليلتها لعائشة فقبل منها.

وما رواه ابن كثير عن بعض المعاجم من كون النبي ﷺ بعث إليها بطلاقها فناشدته المراجعة فراجعها هي رواية فيها نكارة كما لا يخفىٰ، وينبغي ملاحظة قول ابن كثير عن كون الحديث مرسلًا وغريبًا يكفي ذلك في رفضه، ورحم اللَّه ابنَ كثير لقد كان يشير إلىٰ درجة الحديث ولكن أين المتفهم؟

خامسها: يؤخذ من حديث عائشة في هبة سودة يومها لعائشة وقبول النبي ﷺ لذلك وكونه يقسم لعائشة يوم سودة أن تتأسىٰ به أمته في مشروعية ذلك وجوازه، وأنه لا عبرة بقول الجهال الذين يرون أن الرجل إذا أخذ شباب المرأة، لا ينبغي له أن يستبدل بها غيرها إذا كبرت؛ لأن القدوة برسول اللَّه ﷺ في قبوله التنازل من سودة عن يومها، ولأن هذا شيء لا تطيقه النفوس، ولأن وقاع الكبيرة مضر بالصحة، ومنهي عنه طبيًّا، لكن علىٰ صاحب المروءة أن يكرمها غاية الإكرام، تطييبًا لنفسها وتقديرًا لعشرتها الماضية، وأن يتناسىٰ ما يشوبها من كدر، ولها في الشرع حقوق مفصلة في كتبْ الفقه علىٰ حسب حالها.

سادسها: في إطلاق اللَّه الخيرية في أمر الصلح دليل علىٰ أفضلية سلوكه ووجوب قبوله في جميع الأحوال والشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية من سائر المعاملات، وقد يكون من عدم قبوله خلل بالدين؛ لأنه يجب علىٰ المسلم أن يقبل حكم اللَّه، وقد حكم بأن الصلح خير، فالرافض له يرىٰ عدم الخير فيه، وهذا مصادمة لحكم اللَّه في خيريته، ولهذا قل أن ينجح الرافض للصلح في نيل ما يريد، بل ينعكس أمره إلىٰ الشر والخيبة والإفلاس من الحق، زيادة علىٰ ما يناله من الإثم باعتقاده خلاف حكم اللَّه، فينبغي للمسلم أن لا يتجاوز حدود اللَّه، وإني طيلة عمري لم أجد من رفض الصلح فأفلح، بل يكون حظه الخسران، وقد ورد في السنة من أنواع الترغيب في الصلح آثار طيبة حسنة، منها ما روي عنه ﷺ: «**مَنْ أَصْلَحَ بين اثنين استَوْجَبَ ثوابَ شهيدٍ**»[(١)]. ولا يستبعد ذلك، فقد يكون في إصلاحه حقن للدماء فيستحق هذا الثواب، وعن الحسن: من أصلح بين اثنين أعطاه اللَّه بكل كلمة عتق رقبة. ولعله ينال ذلك لما ينتج من إصلاحه من سلامة الأرواح والصدور.

سابعها: في لطيفة مستحسنة ذكرها بعض المفسرين وهي أن عمران ابن حِطَّان الخارجي كان أدمَّ بني آدم، وامرأَتُهُ من أجملهم، فأجالت نظرها في وجهه يومًا ثم تابعت حمد اللَّه، فقال لها: ما لك؟ قالت: حمدت اللَّه علىٰ أني وإياك من أهل الجنة، قال: كيف؟ قالت: لأنك رُزِقْتَ مثلي فَشَكَرْتَ، ورُزِقْتُ مِثْلَكَ فَصَبَرْتُ، وقد وعد اللَّه الجنة عباده الشاكرين والصابرين. هذا وإن عمران المذكور ممن خرَّج له البخاري في صحيحه، ولما مات سئلت زوجته عن ترجمته بإيجاز فقالت: ما قدمت له طعامًا بنهار، ولا مهدت له فراشًا بليل. تعني أنه كان صوامًا قوامًا.

---

(١) لم أقف عليه.

ثامنها: الشح منه ما هو محمود ومذموم، فالمحمود هو الشح في الدين والمعتقدات، والشح في الأوقات والهمم عن الضياع، أما الشح بالأموال فله مراتب، ولهذا ورد في الحديث: «**برئ من الشح من أدىٰ الزكاة، وقرىٰ الضيف، وأعطىٰ في النائبة**»[1]، فالشح في الكماليات ووسائل الترف والميوعة محمدة؛ لأنه يُقَاوِمُ البذخ والإسراف والتبذير، وأما الشح في الحاجيات ودفع الصدقات وبذل المعروف وإغاثة الملهوف ونحو ذلك فهو مقبوح ومذموم، وما أدىٰ إلىٰ منع الحقوق الشرعية فهو محرم، وعلىٰ الحسبة الإسلامية معاقبة صاحبه مع أخذ الحقوق منه جبرًا، وإذا أودىٰ البخل بصاحبه إلىٰ هاتين الحالتين المذمومتين لم يبق مع صاحبه خير مرجو ولا صلاح مأمول، وقد روي أن النبي ﷺ قال للأنصار: «**من سيدكم؟**»، فقالوا: الجدُّ بن قيس علىٰ بخل فيه، فقال النبي ﷺ: «**وأي داء أدوىٰ من البخل؟**»[2]. وللحديث بقية أعرضنا عنها لبشاعتها، وقد ذكرها القرطبي في الجزء الرابع (ص ٢٩٢)، والخامس (ص ٤٠٦، ٤٠٧) فنكتفي بالإشارة إليها. واللّٰه الهادي إلىٰ الخير والفضيلة.

وقوله سبحانه في الآية (١٢٩): ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾:

في هذه الآية نوع مهم مما يفتي اللّٰه به المؤمنين في أحكام النساء غير الآيتين قبلها، والآيات التي في أول السورة، وهو اتقاء استطاعتهم للعدل بين النساء، والتسوية بينهم في الحظوظ القلبية، فإن عدم الميل فيها ممتنع بتاتًا، وإذا لم يستطيعوا العدل بينهن في الحب القلبي، فإنهم لا يستطيعون العدل في نتائجه من الأقوال والمعاشرة

---

(١) رواه الطبراني في «الصغير» (١٢٦).
(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٦).

والتعهد والنظر والتأنيس والمفاكهة والوقاع، فإن هذا مما يملكه اللَّه ولا يملكونه، ولهذا كان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «**اللهم هذه قسمتي فيما أَمْلِكَ، فلا تلمني فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ**»(١) يعني المحبة؛ لأن عائشة رضي الله عنها كانت أحب نسائه إليه، وكان عمر بن الخطاب يقول: اللهم قلبي فلا أملكه، وأما ما سوىٰ ذلك فأرجو أن أعدل فيه.

وفي هذه الآية عذر للرجال فيما يقع من التفاوت في الميل القلبي من التعهد وحسن المباشرة والإيناس وزيادة الاستمتاع؛ لأن التسوية في ذلك خارجة عن حد الاستطاعة مهما حرص الإنسان عليها، ولهذا علق انتفاء التسوية علىٰ تقدير وجود الحرص كما في هذه الآية.

ومع ذلك نَهَىٰ المؤمنين عن زيادة الميل عن المرغوب عنها بالجور عليها في منع قسمتها بغير رضاها، أو النقص من نفقتها، أو كسوتها، أو ما يدفع لغيرها من الدراهم والمصاغ ووسائل الزينة؛ لأن هذا داخل في الوسع والطاقة، ولهذا قال اللَّه سبحانه: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ يعني إنكم إذا سومحتم في الميل القلبي الذي لا تقدرون علىٰ ضبطه فاتقوا اللَّه فيما تقدرون عليه من العدل الظاهري، ولا تكسروا قلب من مالت قلوبكم عنها بالجور المحرم، فتجعلوها كالمعلقة، لا ذات زوج ولا مطلقة، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**من كانت عنده امرأتان لم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل**»(٢)، وهذا جوره الصريح.

وقد بعث عمر بن الخطاب إلىٰ أزواج رسول اللَّه ﷺ بمال فقالت عائشة: هل بعث إلىٰ كل أزواج النبي ﷺ بمثل هذا؟ فقالوا: لا، بعث إلىٰ القريشيات بمثل هذا، وإلىٰ غيرهن بغيره، فقالت لرسول عمر:

---

(١) رواه أبو داود (٢١٣٤)، والتِّرمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، وابن ماجه (١٩٧١).

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٣)، والتِّرمذي (١١٤١)، والنسائي (٣٩٤٢)، وابن ماجه (١٩٦٩).

ارفع رأسك وقل لعمر: إن رسول اللَّه ﷺ كان يعدل بيننا في القسمة بماله ونفسه، فرجع الرسول فأخبره فأتم لهن جميعًا، وكان لمعاذ امرأتان فإذا كان عند إحداهما لم يتوضأ عند الأخرىٰ، وذلك لملاحظته شعورهن في العدل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعني إن تصلحوا ما أفسدتم بسوء العشرة، وتلتزموا ما يلزمكم من العدل الذي تملكونه، أو تنفقوا معهن علىٰ طريقة تتراضون بها لتصلحوا ما مضىٰ من ميلكم، وتتقوا اللَّه في المستقبل عن العودة إليه غفر اللَّه لكم ورحم حالكم، بحسب صدق مقاصدكم وحسن إنابتكم، فهو الغفور للتائبين الرحيم بالمؤمنين.

وهاهنا فوائد:

إحداها: إن اللَّه سبحانه ختم هذه الآية بالإصلاح في قوله: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ وختم الآية قبلها بالإحسان في قوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾، لأن مضمون الآية الأولىٰ ليس بواجب علىٰ الأزواج، بل لهم أن يحسنوا وأن يشحوا، وأن يصالحوا النساء بما يرضيهم، وأما الآية الأخرىٰ التي ينهاهم اللَّه بها عن كل الميل القلبي، ويأمرهم بالعدل الظاهري، فمضمونها واجب لازم فعليهم أن يعدلوا فيما يملكون العدل به وجوبًا، فلهذا ختمت بالإصلاح الواجب في المقاصد والأعمال.

وقد قرن اللَّه سبحانه كلاًّ من الإحسان والإصلاح بالتقوىٰ؛ لأنها ملاك الأمر وعليها المدار في المغفرة والثواب؛ لأن من لوازم الإحسان والإصلاح والتزام العدل أن يكون منشؤه تقوىٰ اللَّه لا مراعاة المنافع الشخصية، ولا الضغوط الجاهلية أو القانونية.

ثانيها: يظن بعض الميالين إلىٰ منع تعدد الزوجات من المتفرنجين والمتأثرين بالدعايات الماسونية أنه يمكن أن يستنبط من هذه الآية ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ ومن الآية الثالثة أو السورة أن التعدد غير

جائز؛ لأن من خاف عدم العدل لا يجوز له الإقدام علىٰ ذلك، ولإخبار اللَّه بأن العدل غير مستطاع، وخبره يقيني كافٍ في التحريم، وقد عموا أو تعاموا عن قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فإن هذا يوضح المقصود من الآية، وهو أن المراد بعدم استطاعة العدل هو تحقيق العدل الكامل الذي يحرص عليه أهل الدين والتقوىٰ كما هو واضح من قوله ﷺ تشريعًا لأمته: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»[1].

فإن العدل من المعاني الدقيقة التي يشترك فيها القلب والبدن، والأمور القلبية أمرها عسير ولا يملكها إلا اللَّه، فعفا اللَّه عن الميل القلبي، ونَهَىٰ المسلمين عن الانهماك فيه انهماكًا تامًّا وقال: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ كما أوضحنا تفسير الآية بكاملها مما لا يدع مجالًا للشك بعفو اللَّه عن الميل القلبي؛ لعدم الاستطاعة علىٰ قمعه بالكلية وأمرهم بالحد من سورته، وتهذيبه ما استطاعوا، ليجبروا قلب المرغوب منها، ويراعوا بعض شعورها بمراقبة اللَّه في معاملتها وتوطين النفس علىٰ عدم استكمال الميل ومن عظيم رحمة اللَّه سبحانه أن لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

ثالثها: في تشديد اللَّه بإقامة العدل حسب الاستطاعة، والتزام التقوىٰ في الإحسان والإصلاح مراعاة لبناء الأسر الإسلامية علىٰ أساس التوادد والتراحم، وأن لا يخرجوا بالزوجية عن طبيعتها الأصلية التي قال اللَّه فيها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا تقلبوا ذلك إلىٰ شقاق ونقمة، بجلب التنافر والتباغض بين الأولاد، حتىٰ إن بعضهم يبغض أباه لسوء معاملته مع أمه وجوره عليه لميله مع ضرتها وأولاد ضرتها، فإن

---

(١) تقدم تخريجه.

هذا مما يقض دعائم المجتمع الذي يتألف من هذه البيوت القائمة علىٰ الظلم والجور، والتي تتحكم فيها الشهوات، وتخلو من تقوىٰ اللَّه، وكثيرًا ما يتسرب الإلحاد إلىٰ البيوت التي ينزرع فيها البغض والحسد، وكثيرًا ما تكسبها الشيوعية التي دينها إضرام نيران الحقد، ولا شك أن الإلحاد والشيوعية يجدان المراتع الخصبة في مواقع البؤس والجور، فتأكيد اللَّه لعباده بإقامة العدل غاية الاستطاعة هو لإقامة دعائم المجتمع الإسلامي علىٰ الحب والرحمة والتعاطف والتساند؛ لأن الإصرار علىٰ ترك العدل يزلزل تلك الدعائم بتفكيك أواصر القربىٰ ووشائج الرحم، فليتق اللَّه المسلمون بمراعاة ذلك.

رابعها: في هذه التعاليم والمواعظ القرآنية زجر للمتأمل من الشهوانيين المنهمكين بكثرة التزوج للنساء لمجرد الشهوة وتمتيع النفس باللذة الحيوانية، دون مراعاة حدود اللَّه في مشروعية الزواج وحكمته الإنسانية، فإنه يوجد من سفهاء الأحلام الذين يبددون ثروتهم، ويستنزفون قوتهم بكثرة التزوج الذي يدفعون به من الأموال والهدايا ما يغري الناس علىٰ تزويجهم، وهم لا هم لهم بالمرأة سوىٰ التمتع اليسير بها ثم استبدالها بغيرها دون مراعاة لحدود اللَّه في الطلاق وتكثير إنفاق الأموال بالاستبدال، وقد ينوي من أول الأمر أن يظلم الأولىٰ ويبخسها حقها ويجرح قلبها دون مراقبة للَّه، ودون مبالاة بمستقبل الذرية، بل دون مبالاة بحقوق اللَّه في هذا المال الذي أعطاهم إياه وأوجب عليهم بذله في طاعته ونصرة دينه والزحف برسالته، وبذل المعروف وفي وإغاثة الملهوف، ورفع البؤس عن البائسين بقدر المستطاع كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

وكثير من الناس إذا أنعم اللَّه عليه بادر بصرف هذه النعمة بزيادة التزوج من النساء متبجحًا بأن هذا من فعل الطيبات، وهو معرض عما يحبه اللَّه ونص عليه في آية البر من سورة البقرة، وآية المبايعة من سورة التوبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]

فهو يبيع نفسه وماله للشيطان بتحصيل امرأة يتمتع بها قليلًا ويطلقها من قريب، متعاميًا عن حديث: «**أبغض الحلال إلىٰ اللَّه الطلاق**»(١).

والعجب أن كثيرًا من الفلاحين في بعض المناطق النجدية من قساة القلوب يستخدم زوجته أو زوجاته، ويرهقهن أعظم الإرهاق في الفلاحة، حتىٰ إذا نجح الزرع أو فازت الثمرة وتوفر عنده شيء من المال تزوج به أخرىٰ كمجازاة سيئة للذي كدح معه وكان أكبر عون له في الزراعة، بحيث لو استخدم عددًا من أولاد الناس بغالي الثمن لا تساوي خدمتهم خدمة المرأة التي ضربها بالضرة الجديدة، وهذا غاية في اللؤم والشؤم، وسوء استعمال نعمة اللَّه الواجب استعمالها في الدين.

وقد قرر المحققون أن الذي يتزوج المرأة وهو مضمر طلاقها وعازم عليه بعد مدة ولو مجهولة أن فعله حرام شبيه بنكاح المتعة المحدد، فليحاسب المسلمون أنفسهم علىٰ مدىٰ تنفيذهم لقول اللَّه: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ليعلموا حقيقة أنفسهم، هل هم من المصلحين لأمر نسائهم ونظام بيوتهم أم هم من المفسدين؟ وهل هم من المتقين اللَّه في هذا الأمر، أم هم من المتساهلين الفاسقين والعياذ باللَّه.

خامسها: يؤخذ مما تقدم من تفسير الآيات النهائية في معاملة النساء أن مهمة التعالم الإسلامية اقتلاع جذور الجاهلية وطمسها من القلوب وتطهيرها من رواسبها، تلك الجاهلية التي أساءت إلىٰ النساء واليتامىٰ والمستضعفين من الولدان، ونظرت إليهم أقبح نظرة.

وأمر النساء والأسرة والضعفاء في المجتمع أمر كبير الخطر، لا يصلحه ولا يقضي علىٰ أخطاره إلا تعاليم السماء العامرة للضمائر والمنورة للبصائر، ولهذا أثارت الآيات الستة والثلاثون في أول هذه السورة هزة انتقالية عامة من تقاليد الجاهلية إلىٰ التعاليم الإسلامية

---

(١) رواه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨).

بشأن هؤلاء وغيرهم، حتىٰ أصبح المسلمون يشفقون من كل أمر يأتونه في الجاهلية أن يكون منسوخًا بالإسلام، وكان في بعضهم تطلع إلىٰ إيضاح كل شيء، وبعضهم يتطلع إلىٰ التعديل، فحصل منهم الاستفتاء كما أوضحناه، وكان الذي يغلب عليهم هو الانخلاع من الجاهلية بتاتًا مع ذلك.

والله سبحانه أرشدهم إلىٰ ما يتلىٰ عليهم إعلامًا بإحكامه وتحتيمه؛ لأنه مرتكز علىٰ الروحانية السماوية، لا علىٰ المادية الأرضية المفسدة للنفوس، وأنه يؤيد رصيد الفطرة المودع فيها، ويطهرها من لوثات الجاهلية، والمهم في هذه التعليمات هو تركيز السلطان الديني في النفوس لتنقاد لأمر الله وتخشىٰ عقوبته، وترجو ثوابه، وتستيقن أن الخير والمصلحة هما بتنفيذ تلك التعاليم، وأن الضرر والفساد بتعطيلها، كما أن المهم في هذه التعليمات ـ أيضًا ـ أن الإسلام لا يتجاهل الطبيعة الإنسانية الفطرية التي تجاهلها رجال الكهنوت المفترون علىٰ الله، فهو لا يقسر النفوس علىٰ ما في طاقتها ولا يكلفها إلا وسعها، ولا يتركها لأهوائها التي تنسفل بها إلىٰ مهاوي الأطماع والرذائل والشهوات البهيمية، بل يشرع لها ما يلائمها ويصلحها ويعمر ضمائرها، ويحسن أخلاقها ويرقي مجتمعها إلىٰ درجات الكمال كما هو متضح من سياق الآيات المفسرة والحمد لله رب العالمين.

وقوله ﷻ في الآية (١٣٠): ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾:

لما أرشد الله في الآيات السابقة إلىٰ فوائد التسامح والإحسان، وأوضح وجوب العدل الظاهري بين الأزواج، وحكم الميل القلبي الذي لا يملكه إلا الله، وأرشد إلىٰ التقليل منه بقدر المستطاع، وإلىٰ الصلح النافع القاطع للضغائن والشقاق أخبر أنه إذا رغب الزوجان أو أحدهما بالفراق فتفرقا بالطلاق فإنه سبحانه كفيل بإغناء كل

واحد منهما عن الآخر من سعة فضله، ويبدل التعب راحة، والبؤس نعيمًا، والشقاء سعادة، علىٰ حسب ما يقدره ويقضيه مما يعلمه صالحًا لهما، وهو العليم الخبير اللطيف البصير ﷻ.

وهذا وعد جميل صادق من اللَّه يطفئ لهب القلوب، ويداوي هلع النفوس، ويصلح كوامن الطباع، ويصحح التصورات والمشاعر، ويبعث جديد الأمل بتجديد السعادة، ويقطع جميع عوامل اليأس والتشاؤم الذي لا يزال بعض أهل الأمصار يعانونه، حتىٰ صار الطلاق يغضبهم ويتشاءمون منه ويستغربونه، إما لتأثرهم بالكفار المجاورين لهم، أو لقلة اتكالهم علىٰ اللَّه وثقتهم بوعده، فيجب علىٰ المطلقة وأهلها أن لا يكترثوا من الطلاق مادام علىٰ غير فاحشة، وأن يثقوا بوعد اللَّه الذي يغني كل واحد من الزوجين عن صاحبه بفضله ولطفه في المال والعشرة والسعة ووجود المراد.

ومعنىٰ «السعة» الغنىٰ والمقدرة، فهذا وعد كريم بالغنىٰ المطلق من الرحمن الرحيم الذي لا يخلف وعده لكل واحد إذا تفرقا، وهو معروف بمشيئة اللَّه، فيسخر للمرأة رجلًا خيرًا من الذي طلقها يقوم بحقوقها، ويسخر له من يحصنه ويرضيه، فيستقيم أمر كل واحد منهما، وإنما يكونان جديرين من اللَّه بِهذا الوعد الكريم إذا التزما في التفرق حدود اللَّه، وبالغا في الانقياد لأمره بأن يجتهد كل منهما في الاتفاق والصلح وإجالة الرأي والتروي في أسبابه، والمشورة والاستخارة حتىٰ يتفرقا بإحسان يحفظ كرامتهما، ولا يكذب أحدهما علىٰ الآخر أو يرميه بما يكونان به مضغة للأفواه، فإن بعض الناس يتقاربون بستر ولا يتفارقون إلا بفضيحة، فيتعرضون للحرمان من وعد اللَّه الحق الذي لا يناله إلا المتقون.

وقد يكون من الأسباب المرغبة للناس في كل من الزوجين المتفارقين ما يرونه من حسن معاملتهما في تفرقهما والتزامهما الحشمة والأدب في كتمان السوء ونشر الطيب من الأفعال، وأن الفراق سببه الشح

المحمود في الحدود الشرعية كما أسلفنا، فإن كل فاضل كريم إذا علم أن سبب طلاق المرأة الذي لم تقبل معه نشوزه أو إعراضه عنها بسبب ضرة أخرجته عن العدالة، ومع ذلك لم تخدش كرامته بقول ولا فعل، بل حاولت الاتفاق فلم تفلح فتفرقا بأدب وإحسان، حفظا به شرفهما، وحسنت به سمعتهما تكون مرغوبة عنده أي عند كل فاضل كريم يعرف معنىٰ الزوجية؛ فإن هذا من بعض أسباب السعة التي يفتحها اللَّه للزوجة فيخطبها كل فاضل وكذلك زوجها الشهم الحافظ لكرامته وسمعته يكون مرغوبًا في مصاهرته.

هذا وإن مشروعية الطلاق هي من محاسن دين اللَّه الإسلام الذي يتمشىٰ مع الفطرة الإنسانية السليمة، وذلك لوجود تمام الحكمة في مفارقة الزوجين المتباغضين حتىٰ لا يترتب علىٰ عدم مفارقتهما فساد عظيم، وإلاحصل ذلك وتفاقم الشر، ولكن إذا تفرقا يزول ذلك ويغني اللَّه كل واحد منهما بأن يجد زوجًا يوافقه في طبائعه فيحصل الائتلاف ويترتب علىٰ ذلك الخير العظيم من التناسل والراحة في المعيشة.

أما إذا لم يتفرقا بالطلاق مع وجود التنافر بينهما فإن كل واحد منهما يتطلب غير زوجه مما يوافق طبعه أو ذوقه ويترتب علىٰ ذلك من اختلاط الأنساب ما لا يخفىٰ كما تقاسيه الأمم الممنوعة من الطلاق من سوء الحياة الزوجية وأضرارها ومفاسدها البشعة الوخيمة.

هذا وإن المستبشعين للطلاق ليس عندهم أي حجة سوىٰ التقليد المحض للإفرنج عن إعجاب أعمىٰ، وقد شرعت بعض الدول الإفرنجية الطلاق فاستراحت من الخيانة الزوجية السافرة والدياثة السافرة، علىٰ أن دين اللَّه الإسلام وضع حدًّا للعبث بالطلاق المعمول به في الجاهلية لإهانة النساء وتنغيص حياتهن، والتحكم بمصيرهن، فشدد في تحريمه وإبطاله بأنصع عبارة وأشدها وقعًا علىٰ النفوس وقد ذكرت تفسير الآيات (٢٢٦/٢٣٢) ومن (٢٣٦/٢٤١) من سورة البقرة

ما منحه اللَّه للنساء من الكرامة وما رفعه عنهن من ظلم الجاهلية حتىٰ ارتفع بالعلاقات الزوجية إلىٰ أسمىٰ المقامات مما لم تحلم النساء به ولا تعرفه، ولم تطلب منه شيئًا، كما أن الرجال لا يتصورونه ولكن اللَّه قرعهم بسياط المواعظ حيث قال: ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾.

وقد كانت المرأة في الجاهليات الأولىٰ والجاهلية العربية تلاقي من العنت والإذلال شيئًا هائلًا فبعض النساء يوأد في حال الطفولة أو تعيش في هوان ومشقة، وكانت بعد الزوجية كقطعة من المتاع لا تحظىٰ بما يحظىٰ به الحيوان، وإذا مات زوجها تورث كالمتاع، ولا تعطىٰ حقًّا من الإرث، وكانت إذا طلقها زوجها عاودها وارتجعها مرارًا لينتقم منها ويعضلها من الأزواج حتىٰ تفتدىٰ منه بما تقدر عليه، أو تبقىٰ إلىٰ أن تموت كمدًا، فحررها الإسلام وأبرز كرامتها وأعلن أنها أخت الرجل، وأن كليهما خلقا من نفس واحدة، فجعل لها الحق في اختيار من تهواه في الزواج، وقيد الأزواج بالأحكام والميثاق الغليظ، كما قيد نزواتهم في الطلاق بما يحفظ للمرأة عزتها وكرامتها، بحيث جعل الطلاق مرتين فقط، فإما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

وما أسفه واضعي القوانين الذين لا يعترفون بالطلاق إلا بالمحكمة وعند اقتناع القاضي من مبرراته! كأنه يعلم السر وما يخفىٰ، ولا ينطلي عليه الدجل والتلبيس، وقد يقول قائل مدافع عن الباطل. ما ذنب المرأة تهدد حياتها واستقرارها بسبب كلمة نطق بها عابث؟ فنقول له: إننا نواجه حادثًا واقعًا في حياة البشر فكيف يا ترىٰ نعالجه؟ إن لم نعالجه بإدانته فيما قال لننصفه أو ننصف المرأة منه فكيف تكون الحال؟ هل نلغي طلاقه ونرغمه علىٰ معاشرة زوجة لا يحترم علاقته بها ولا يوقرها فنقول له: إنها امرأتك رغمًا عن أنفك لأننا لا نعترف بطلاقك؟ كلَّا، إن في هذا من المهانة للزوجة واللعب بحقوق الزوجية ما لا يقبله الإسلام الذي يحترم العلاقات الزوجية،

ويرفع المرأة عن الذلة والتسلط الطاغوتي، ولكن نعاقبه علىٰ النطق بالطلاق الذي استهان به، فنحرمه منها، ونعطل بيته، فإن فاء وراجع قبل انتهاء العدة قبلناه، لعله في هذه الفترة يعرف رشده وتهدأ شدته، ويستصغر السبب الذي دعاه إلىٰ الطلاق، ولعل أن تبرز في نفسه اعتبارات أخرىٰ ومعان جديدة تجعله يحن إلىٰ استئناف الحياة الزوجية.

فإذا طلقها أخرىٰ عزلناه عنها وهددناه بقرب الانفصال النهائي، فإذا راجعها ثانيًا سلكنا به اللطف وقبلنا منه باعتبار ما مضىٰ تجربة كافية، وإن كانت المراجعة بعد العدة كلفناه بمهر وعقد جديد، فإذا طلق الطلقة الثالثة سددنا عليه الطريق؛ لأن فعله يدل علىٰ فساد أصيل في القلوب، لا يصلحه إلا الفراق النهائي، فلا تحل له حتىٰ تنكح زوجًا غيره نكاحًا صحيحًا فينصرف كل منهما إلىٰ شريك جديد في حياته، وهذه حدود اللَّه لا يجوز التلاعب فيها، فالمرأة ليست لعبة للعابثين كالكرة يطلقها ويراجعها ثم يطلقها ثم يراجعها وهكذا كما شاء، بل تصان بقيود الشريعة ليذوق العابث وبال أمره من خسران المال وحرمان العشرة.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ معناه أنه سبحانه لما وعد كل واحد من الزوجين بأن يغنيه من سعته وصف نفسه بكونه واسعًا علىٰ الإطلاق واسع الرزق، واسع الفضل واسع العطاء واسع الرحمة، واسع العلم، واسع القدرة، فلم يقيد السعة بنوع ولا جهة حتىٰ لا تكون مختصة فيما قيده؛ لأنه اللَّه لا إله إلا هو الحي القيوم الذي قامت به جميع الكائنات، وكلها في أشد الحاجة إليه لا تستغني عن وجوده ورزقه وفضله طرفة عين، فيلزم هذا كونه واسع العلم والقدرة والحكمة والرحمة، والرزق والجود والفضل والكرم، وجميع الكمالات.

وقد ناسب ختام هذه الآية الكريمة بذكر السعة؛ لأنه وعد بإغناء كل من الزوجين إذا تفرقا من سعته حتىٰ لا يلتفت كل منهما إلىٰ غير

اللَّه، ولا تكون في قلبه هموم علىٰ مستقبله ولا حزن أو حسرة علىٰ ماضيه أبدًا، وناسب ـ أيضًا ـ ختامها بذكر وصف الحكمة الذي هو وضع الشيء فيما يناسبه؛ لأن السعة إذا لم يكن معها الحكمة كان الفساد أقرب إليها من الصلاح كما قاله الراغب، وصفات اللَّه منزهة عن مشابهة صفات المخلوقين، ولهذا كان يأتي سبحانه بذكر الصفات المزدوجة وما يشابِهها أو يناسبها في المعنىٰ.

وختام اللَّه سبحانه لهذه الآية بِهذا الوعد الكريم الجميل، وبعظائم أسمائه الحسنىٰ، كما أنه يدل علىٰ البشارة والتسلية لكل من الزوجين فإنه يوحي بتحديد همهما ـ أيضًا ـ، واقتلاع ما يساور صدورهما أو صدر أحدهما من الأوهام والوساوس الناتجة عن الغرور وقصر النظر، فإن أحدهما قد يتصور أن صاحبه لا يحظىٰ بمثله في الثروة والكرم أو العطف والدلال، أو أنه لا يحظىٰ بمثله في الخدمة والمعاشرة وحسن التبعل، فهذه الوساوس قد تخطر لكل من الزوجين، ولكن اللَّه سبحانه يقضي عليها بِهذا التعبير الجليل الذي هو من أعظم مظاهر التربية القرآنية.

وكما قلنا بعموم سعة اللَّه وحكمته وشمولهما لكل شيء، وعدم اختصاصهما بالزوجين المتفارقين، فينبغي أن ينطبع بهما المسلم المؤمن انطباعًا تامًا حتىٰ لا يتأثر ولا يتحسر علىٰ ما ناله من حرمان شباب أو قوة أو ثروة أو ولد أو صحة ونحو ذلك من متاع الدنيا، ويستيقن أن اللَّه سيعوضه من واسع فضله حسب حكمته من قريب أو بعيد، في الدنيا أو الآخرة، وأنه سبحانه واسع الاطلاع علىٰ ما ينفع العبد أو يضره، أو يصلحه أو يفسده، فكم من عقيم يتلهف علىٰ الأولاد ويتحسر علىٰ فقدهم، ويكثر من تزوج النساء والتطبب حرصًا علىٰ تحصيلهم وهو لا يدري لعل منفعته الصحيحة في فقدهم، وأن اللَّه أراحه من عقوقهم أو من فسقهم وفجورهم، أو من تبديدهم لماله، أو إحداث مشاكل عليه، إلىٰ غير ذلك مما لا يعلمه إلا اللَّه، أو أن حكمة اللَّه

تكمن بإعقامه في رفع الشح المذموم عنه؛ لأن الولد مبخلة كما في المثل أي: يدعو والده للشح ويزينه الشيطان في عينه بحجة الاحتفاظ بالمال للأولاد، فاللَّه أراحه من سبب البخل وهيأه للكرم والجود والبذل في سبيل اللَّه، ولكن الجهل بحكمة اللَّه وعدم الانطباع بأسمائه الحسنىٰ تجعله يسعىٰ فيما يخالف حكم اللَّه، فيقع في الإثم، وذلك بسعيه بحرمان الوارث ولو بتغيير دينه في الظاهر كما يفعله بعض العقماء الجاهلين، وإما سعيه بكثرة التزوج والتطبب فليس فيه إثم؛ لأنه من باب معالجة أقدار اللَّه، وهذا فعل مشروع ممدوح، لكن الإثم في تغيير الأحكام الشرعية واللَّه أعلم.

وقوله سبحانه في الآية (١٣١): ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾:

مناسبة هذه الآية والثلاث آيات بعدها ظاهرة، وهي أن اللَّه سبحانه لما ذكر أحكام اليتامىٰ والنساء وختمها بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ أتىٰ بما هو كالتفسير لكونه واسعًا حكيمًا بجميع المعاني السابقة، وهو كونه المالك لجميع ما في السموات والأرض، فكلها له خلقًا وتقديرًا وتصرفًا وحكمًا، فهو الخالق المالك الرازق المتصرف، والحاكم المدبر لجميع ذلك ومنها أنتم أيها البشر، ومن كان كذلك فهو واسع القدرة وواسع العلم وواسع العطاء والفضل والرحمة، فهو الذي له الخلق والأمر، وله التشريع والحكم والجزاء من ثواب أو عقاب، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وكما قال في آخر سورة هود: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وقد علمنا اللَّه سبحانه في وحيه المبارك أنه يعقب آيات الأحكام

والتشريع بما يدل علىٰ عظمته في ربوبيته وألوهيته وعظيم قدرته وسعة إحاطته بكل شيء، فلهذا جاءنا بِهذه الآيات بعد ذكره لبعض تشريعاته النافعة، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ معنىٰ ﴿وَصَّيْنَا﴾ أي أمرنا أو عهدنا إليكم ومن قبلكم.

والمعنىٰ أن الوصية بالتقوىٰ هي سنة اللَّه مع الأمم الماضية جميعها، فلستم مخصوصين بِهذه الوصية، وليس أهل الكتاب مخصوصين باليهود والنصارىٰ كما ذهب إليه بعض المفسرين؛ لأن وصية اللَّه بالتقوىٰ لم تزل مذ أوجد العالم، فليست مخصوصة باليهود والنصارىٰ، بل هي عامة في جميع أهل الكتب الإلهية مما لم يذكره اللَّه لنا ولم يقصه علينا، فالتقوىٰ هي وصية اللَّه علىٰ البشر أجمعين أن يستمسكوا بدينه سبحانه ويلتزموا طاعته، ويقيموا حدوده، وينفذوا أحكامه ولا يجعلوا لأنفسهم الخيار في ترك شيء منها أو تبديلها بتشريع من أنفسهم، فإن هذا مخالف لتقوىٰ اللَّه تمام المخالفة، وقد اعتبره اللَّه كفرًا بالجميع، كما قال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فكيف بمن رفض دين اللَّه في الأساس مدعيا أنه لا يصلح للحكم والسياسة، أو لا يصلح للعصر ولا يساير التطور؟! فإن هذا طعن باللَّه وإنكار لعلمه، وتنديد بحكمته، بل هو رفض لألوهيته بالكلية، ولا ينفع مع ذلك الإقرار باللفظ، فإن المعترف باللَّه دون الالتزام بدينه وتحكيم شريعته هو ممن وصفهم الرسول ﷺ بأن إيمانهم لا يجاوز حناجرهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ هذا التكرير يفيد التهديد وكمال القدرة علىٰ تنفيذه، كما يفيد الاستغناء الكامل عن خلقه سبحانه وتعالى، ويفيد ـ أيضًا ـ تسفيه أحلام الكفرة ووصفهم باللؤم والخسة، فمعناها: إن تكفروا فإن للَّه ما في

السموات والأرض من كل صامت وناطق، وإنكم أنتم من جملة من يملكه، وهو المتصرف فيكم، القاهر عليكم، إذ هو خالقكم والمهيمن عليكم، ثم إنه هو المنعم عليكم بجميع النعم التي لا تستغنون عنها، وأنتم مملوكون له، فلا يناسب أن تكفروا بخالقكم ومالككم ومعيشكم وتخالفوا أمره، بل حقه أن يطاع فلا يعصىٰ، وأن يشكر ولا يكفر، وأن يتقىٰ عقابه ويرجىٰ ثوابه، ويستمسك بدينه غاية الاستمساك.

وقد أسلفنا معنىٰ القوىٰ واشتقاقها من التوقي مما يضر ويؤلم، فهي أخذ وقاية من عذاب اللَّه وموجبات سخطه بالتزام طاعته وتنفيذ شريعته، علىٰ كل شيء، وأولها النفس، لا أن يريد تنفيذها علىٰ ما سوىٰ نفسه فإن ذلك مخالف للتقوىٰ. ومن معاني ملكه سبحانه لما في السموات والأرض استغناؤه عن عبادة الناس، وأنه غير محتاج إليهم، وأن تكليفه بما كلفهم به رحمة لهم، واختبار وإظهار لمعاني أسمائه وصفاته في الكون، وليملأ الجنة والنار من العصاة والمتقين، وأنه لا تنفعه طاعة الطائعين ولا كفر العاصين كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وكما قال في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا...**» إلخ(١).

ولهذا ختم اللَّه الآية بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ أي غنيًّا عن خلقه وعبادتهم، لا ينتفع بطاعتهم مهما قويت، ولا يتضرر بكفرهم مهما بلغوا من الكفر والعناد، وإنما هي أعمالهم يحصيها لهم وعليهم ثم يوفيهم جزاءها من خير وشر، كما قال في آخر الحديث القدسي: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا**

---

(١) تقدم تخريجه.

فليحمد اللَّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

فهذا بعض معاني كونه «حميدًا»، فمعناه أنه سبحانه مستحق للحمد لكثرة نعمه، وإن أنتم كفرتموه فإن له جميع المحامد الصادرة والواردة في الدنيا والآخرة، فما من حمد موجه إلىٰ أحد من الناس من المحسنين أو الحاكمين إلا وينصرف للَّه؟ لأن أصل النعمة منه وأساس الإحسان منه جَلَّوَعَلَا، فهو المعطف لذوي المعروف والإحسان ببذل الجود والمعروف والعفو عن مستحق العقوبة وغير ذلك، فإن جميع المحامد منصرفة إليه وهو أهلها، وله المن والفضل أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، فهو الحميد لكثرة صفاته الحميدة، ولأنه المستحق والأهل لجميع المحامد منذ أن خلق الأكوان إلىٰ أن يفنيها، فكل حمد حصل في الماضي، وكل حمد يحصل في المستقبل إلىٰ يوم القيامة فإنه ينصرف إليه، ولو كان موجهًا إلىٰ غيره، لأنه هو المحسن في الحقيقة، وهو مصدر كل جميل وإحسان والمقدر له، والمسخر بعض الناس لبذلهم لغيرهم وإياه.

وأما كونه غنيًّا فلأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، فلا يحتاج إلىٰ أحد من خلقه بأي وجه من الوجوه أبدًا، بل كل المخلوقات مفتقرة إليه في إيجادها وإعدادها وإمدادها في أمور دينها ودنياها، في جلب منافعها ودفع المضار عنها، وهو الذي أغناها وأقناها، وليس محتاجًا إلىٰ أكبرها بعمل أو مدد، ومن كمال غناه سبحانه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفوًا أحد.

ومن سعة غناه - جَلَّوَعَلَا - أن جميع الخيرات والنعم والهبات في الدنيا والآخرة مما لا حد له ولا وصف طيلة الدنيا، ومن نعيم الآخرة المقيم الذي لا يخطر علىٰ قلب البشر فضل من رؤيته أو سماعه، هو قطرة من بحر جوده وغناه، فهو الغني بذاته، المستغني عن جميع مخلوقاته، والمغني لهم بسوابغ نعمه وأفضاله التي لا تحصىٰ، وقد

قال في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**»[1].

ما قاله أبو حيان أن قوله سبحانه: «وإياكم» عطف علىٰ الموصول وقد تقدم الموصول؛ لأن وصيته هي السابقة علىٰ «وصينا» فهو تقدم بالزمان، ومثل هذا العطف أعني عطف الضمير المنصوب المنفصل علىٰ الظاهر فصيح جاء في القرآن وفي كلام العرب ولا يختص بالشعر، وقد وهم في ذلك بعض أصحابنا وشيوخنا فزعم أنه لا يجوز إلا في الشعر؛ لأنك تقدر علىٰ أن تأتي به متصلًا فتقول: آتيك وزيدًا ولا يجوز عندهم، رأيت زيدًا وإياك إلا في الشعر. وهذا وهم فاحش، بل موجب انفصال الضمير كونه يكون معطوفًا فيجوز: قام زيد وأنت، وخرج بكر وأنا، لا خلاف في جواز ذلك، فكذلك: ضربت زيدًا وإياك (٥١).

📖 **وقوله سبحانه في الآيتين (١٣٢، ١٣٣):** ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾:

الوكيل هو القائم بالأمور المنفذ فيها ما يراه، وقد قدمنا تفسير هذا الاسم الجليل في سورة آل عمران في آخر أحوال أهل «أحد». فمن معاني الوكيل في الآية الكريمة حفظه لخلقه بما شاء ومتىٰ شاء وكيف شاء، وإهلاك ما شاء بما يشاؤه من المهلكات لنفوذ قدرته وإرادته، ويقرب من هذا الاسم اسما «الحسيب» و«الحفيظ» وإن كان لهما معان مختصة بهما غير معنىٰ الوكيل.

وقد كرر اللَّه ﷻ بأن له ما في السموات وما في الأرض ثلاث مرات علىٰ حسب السياق، وذكر المفسرون الفوائد في هذا التكرار، ومن أحسنهم

---

(١) تقدم تخريجه.

تفصيلًا أبو عبداللَّه الرازي فإنه ذكر أن الفائدة من ذلك ثلاثة أمور.

أحدها: أنه ﷻ قال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ والمراد منه كونه جوادًا متفضلًا يجبر القلب الكسير، ويبدل البؤس إلىٰ نعيم والشقاء إلىٰ سعادة، ويخلف علىٰ من فارق زوجه بأحسن منه، وهو القادر علىٰ كل غوث، فلهذا أعقب الوعد بالسعة بذكر اسميه الكريمين الواسع الحكيم. ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتقرير كونه واسع الجود والكرم، ثم ذكر وصيته للناس أجمعين بالتقوىٰ التي هي ملاك الأمر ورصيد كل خير، وبها يحصل الإنسان علىٰ وعد اللَّه الحسن.

ثانيًا: ثم قال: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليقرر عدم انتفاعه بطاعة المطيعين، وعدم تضرره بمعصية العاصين كما أسلفنا، ولينزه ذاته العلية من ذلك، ويقرر غناه المطلق، وأنه غني لذاته عن جميع الخلق، وكل الخلق مفتقرون إليه، ولهذا ختمها بالاسمين الجليلين فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ وقد فسرناهما بما يليق بجلاله سبحانه وله الحمد والمنة علىٰ ذلك.

ثم قال في الثالثة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ أي أنه سبحانه قادر علىٰ الإفناء والإيجاد بالكلية، فإن عصيتموه وأغضبتموه فهو قادر علىٰ إعدامكم وإفنائكم بالكلية، بحيث لا يترك منكم علىٰ الأرض ديارًا، ثم هو قادر علىٰ أن يخلق سواكم ويوجدهم من العدم، ليعبدوه كما يريد، ويشتغلوا بتقديسه وتعظيمه، وهذا كقوله سبحانه في سورة فاطر الآيات (١٥، ١٦، ١٧): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾. أي عسير أو ممتنع، بل هو في غاية السهولة والسرعة، وكقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ آخر سورة محمد الآية (٣٨)، وكقوله في سورة الزخرف في الآية (٥٥، ٥٦) عن

فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦﴾ وإذا كان الدليل الواحد دليلًا علىٰ مدلولات كثيرة، فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل ليستدل به علىٰ أحد تلك المدلولات، ثم يذكره مرة أخرىٰ ليستدل به علىٰ الثاني، ثم يذكره ثالثًا ليستدل به علىٰ المدلول الثالث، وهذه الإعادة أحسن وأولىٰ من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة؛ لأنه بإعادة ذكر الدليل يتكون منه في الذهن ما يوجب العلم بالمدلول، فيكون العلم الحاصل بذلك المدلول أقوىٰ وأجلىٰ، خصوصًا فيما يتعلق بتركيز العقيدة والتوحيد، فإن التكرير يكون في غاية العمق والحسن والكمال، ولهذا نجد الحق سبحانه لما أعاد ذكر ملكه لما في السموات والأرض ثلاث مرات أثبت في كل مرة صفة من صفات جلاله وكماله، ليغرس في أذهاننا تعظيمه وإجلاله ومهابته والتعلق بجنابه الكريم، وليدلل علىٰ أن تكوينه السموات والأرض، وهيمنته عليها يدل علىٰ أسرار شريفة، ومطالب جليلة له ﷻ كي نجتهد في التفكر فيها والاستدلال بأحوالها وضخامتها وصفاتها علىٰ عظمة الخالق وصفاته ﷻ.

خصوصًا وأن المقصد الكلي من وجهه المبارك هو صرف العقول والأفهام عن الاشتغال بغير اللَّه إلىٰ الاستغراق في معرفته حق المعرفة، لنقوم بحقوقه القيام الذي يرضيه، فنحظىٰ بالفوز بوعده الحسن، وننجو من وعيده الذي لا يحول دونه حائل، فهذا توضيح ما أشار إليه الرازي مجملًا، فقد احتوت هذه الآيات علىٰ فوائد عظيمة من مهمات العقيدة.

وهنا نكتة ينبغي التفطن لها، وهو أنه سبحانه قال في تكريره ثلاث: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يقل: «وللَّه من في السموات»؛ لأن المقصود الجنس والتعميم، وفي السموات والأرض من يعقل ومن لا يعقل، ولا تستعمل «من» إلا فيما يعقل.

هذا وإن القدرة صفة أزلية لازمة لذاته، فهي من صفات الذات وتقتضيها أكثر صفات اللَّه وأسمائه الحسنىٰ بدلالة المطابقة أو الاقتضاء

أو الالتزام، وهي تشمل الماضي والمستقبل بلا نهاية، وإن جاء التعبير بها بلفظ الماضي فللمبالغة وتخليص الأفهام عن دجل أهل الكلام ممن يخيفون مهزومي العقول بالحدوث الكاذب الباطل، كما أن في هذا التعبير بيانًا لأهل الغلظة والجفاء بأن عدم إهلاكه لهم مع كفرهم ومجاهرتهم بالعصيان مع الإصرار هو لمجرد حلمه وتعلق مشيئته بحكمته الغيبية، وليس من إهمال ولا عجز ـ تعالىٰ وتقدس عن ذلك ـ بل هم في غاية الحقارة كما أسلفت الآيات، وكما قال في ختام سورة فاطر الآية (٤٥): ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

وقد أسلفنا في تفسير الآية (٦٣) من سورة البقرة أن اللَّه لا يغير سنته الكونية وحكمه القدري من أجل زعنفة المخلوقين وتحديات طواغيتهم الذين لا يساوون ذرة علىٰ جبل، وأن اللَّه أكرم بني الإنسان ويكرمهم علىٰ حسب شكرهم لنعمته، وقيامهم بحسن الخلافة في الأرض، ولكنهم يهونون علىٰ اللَّه حين يكفرون ويعتون عن أمره، ويتطاولون علىٰ ألوهيته بإباحة ما حرمه أو تحريم ما أحله، أو قيامهم بأي تشريع من تلقاء أنفسهم، فإن الذي له ما في السموات وما في الأرض هو صاحب السلطان، وهو صاحب الحكم والتشريع، وهو الذي دينه واحد يجب أن يتحد عليه الناس، وأن يستمسكوا به ويرفضوا سواه من الوطنيات والقوميات، لا أن يرفضوه ويعطلوا الحكم به من أجلها، فإن هذا شرك تعطيل يزيد علىٰ شرك عبادة الأصنام والعياذ باللَّه.

وقوله سبحانه في الآية (١٣٤): ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾:

في هذه الآية وعيد وتسفيه للمنافقين ومن علىٰ شاكلتهم من الماديين علىٰ اختلاف أنواعهم ومذاهبهم، فالمنافقون لا يقاتلون إلا من أجل الغنيمة، ولا يعملون سائر الأعمال إلا رياء وسمعة، وكذلك

من علىٰ شاكلتهم من القوميين وسائر الطوائف المادية، لا يقاتلون إلا من أجل القومية والوطنية لإقامة الحكم العلماني المحاد للَّه ورسوله، ولا يفعلون شيئًا من البر إلا من أجل قوميتهم ووطنيتهم ورفعة شأن زعمائهم وللرياء والسمعة ـ أيضًا ـ، فلا يعملون شيئًا للَّه؛ لأنهم مبتورو الصلة به، فلا يقاتلون في سبيله، ولا يعملون شيئًا من أجل وجهه الكريم.

وهذا من فساد عقيدتهم، وخسة مقاصدهم، ودناءة همتهم، وانحطاط تفكيرهم، واستجابتهم لدعاة الغي من طواغيت اليهود وأذنابهم النصارىٰ، ورفضهم لدعاة الرشد أتباع محمد ﷺ، وإلا فمن أسفه وأقبح ممن يطلب الشيء الخسيس من مزابل اليهودية وهو قادر علىٰ تحصيل النفيس إذا علت همته؟! ومعنىٰ الآية أن من ليس له رغبة إلا في منافع الدنيا ومصالحها فقد خسر جميع حياته وكان محرومًا من الصفقة الرابحة التي لا يمكن تعويضها لمن خسرها حتىٰ يصحح عقيدته واتجاهاته إلىٰ اللَّه؛ لأن من كانت غايته الدنيا ولم يرغب في سواها، ولم يعتقد بغيرها فليس من اللَّه في شيء، فيكون خاسرًا حظوظه العالية التي ينالها من اللَّه في الدنيا والآخرة؛ لأن عنده ثواب الدنيا والآخرة من كل نفع وخير وعز ورفعة ونعيم مقيم.

فمن أحب أن يكون موصولًا باللَّه وينال ثواب الدارين؛ فليحقق إيمانه باللَّه، وليقصر أهدافه علىٰ مرادات اللَّه ومحبوباته، ولتكن مقاصده في جميع حركاته وسكناته للَّه رب العالمين، كي ينال من اللَّه جميع حظوظه في الدنيا والآخرة من العز والنصر والغنيمة والسؤدد في الدنيا، ونيل الدرجات العالية في دار الخلود، نسأل اللَّه الجليل من فضله.

وأما القاصر همته ومقاصده علىٰ الدنيا الفانية وحظوظها الخسيسة، فإن اللَّه يعطيه من الدنيا ما كتب له وهو في بطن أمه، ويكون محرومًا من اللَّه في الدنيا والآخرة، فلا يمده اللَّه بالعز والتمكين الذي يريده، ولا يكون له أي نصيب في الآخرة سوىٰ العقاب، وإنما يعجل اللَّه له

في الدنيا ما كان مقدرًا له من نصر مؤقت مشوب، أو رزق محرم عاقبته سيئة، وهذا كما قال سبحانه في الآية (٢٠) من سورة الشورىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ وقوله في الآيات (١٥، ١٦) من سورة هود: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ وقال في الآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

فالآية التي نحن بصددها ظاهر معناها أن اللَّه بيده ثواب الدنيا والآخرة، فلا يجدر بالإنسان أن يكون قاصر النظر والهمة، فتكون غايته الدنيا فقط، كشأن عباد المادة والشهوات ممن أذهبوا طيباتهم، وأفنوا أعمارهم في حياتهم الدنيا كالبهائم، بل لتكن همة الإنسان سامية إلىٰ نيل حظوظه العالية من اللَّه في الدنيا والآخرة، وأن تكون مقاصده روحية لا مادية، ويجعل المادة وسيلة لمرضاة اللَّه من حمل رسالته وتوزيع هدايته والجهاد الصحيح لإقامة حكمه سبحانه وقمع المفتري عليه، وأن تكون قيمة المادة عنده دائمًا هابطة عن منزلة الروح ومسخرة لها، كي ينال ثواب الدارين ممن عنده ثوابهما جَلَّ وَعَلَا، لا أن يعكس الأمر فيجعل الدنيا غاية فيخسر الصفقة.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ يعني أن اللَّه سميع لأقوالهم وهمساتهم ووساوس صدورهم ومقاصدهم، بصير بأحوالهم وأعمالهم الدقيقة والجليلة، وبصير بنجواهم وخفايا نفوسهم وما يقصدونه من جهادهم وسائر أعمالهم، فلا يخفىٰ عليه حال الصادقين في نياتهم بالجهاد، هل هو لأجل الغنيمة والمدح بالشجاعة، أم هو لإعلاء كلمة اللَّه ورفع منارة دينه وجعل الحاكمية لشريعته، وكذلك لا يخفىٰ عليه

نياتهم بالبذل وسائر الأعمال، هل هي رياء وسمعة، أو هي لابتغاء وجهه الكريم ﷻ.

ففي هذا وعيد لغير المخلصين في جهادهم وسائر أعمالهم الأخرىٰ، إنهم يوم القيامة يكون حظهم الخسيس وعاقبتهم السيئة علىٰ وفق نياتهم ومقاصدهم النفسية الخبيثة، فيصيرون إلىٰ حكم اللَّه فيهم بقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]، وبقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ [هود: ١٦] أي في الدنيا ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وفي هذا ـ أيضًا ـ تحذير للمؤمنين من الرياء والسمعة، ومن الاستهانة بالشرك في الإرادات والنيات الذي يكمن فيه أعظم الحظر وأبلغ الضرر، والحرص علىٰ تطهير القلوب منه كما في ذلك حث للمؤمنين علىٰ قوة مراقبة اللَّه في السر والإعلان كي تزكوا نفوسهم، وتطهر قلوبهم، وتصلح أعمالهم وتطيب مآكلهم فيستقيم دينهم ومجتمعهم بالوقوف علىٰ حدود العدل والفضيلة، فإن هذه هي النتائج الطيبة للتقوىٰ، وبها يحصل الفوز الكامل والحياة الطيبة الصحيحة في الدنيا والآخرة.

ومن مباحث اللفظ في هذه الآية الكريمة أن حرف «من» يحتمل أن يكون موصولًا، والظاهر أنه شرط وجوابه الجملة المقرونة بفاء الجواب، وهي قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ ولابد في الجملة الواقعة جوابًا لاسم الشرط غير الظرف من ضمير عائد علىٰ اسم الشرط حتىٰ يتعلق الجزاء بالشرط، التقدير: ثواب الدنيا والآخرة له إن أراده، هكذا قدره الزمخشري وغيره أي: فعند اللَّه ثواب الدنيا والآخرة له إن أراده فلا يقتصر علىٰ إرادة ثواب الدنيا فقط، لكن قال أبو حيان ﵀: والذي يظهر أن جواب الشرط محذوف لدلالة المعنىٰ عليه، والتقدير: من كان يريد ثواب الدنيا فلا يقتصر عليه، وليطلب الثوابين، فعند اللَّه ثواب الدنيا والآخرة انتهىٰ، وكأني أرىٰ أن الفرق لفظي؛ لأنه لم يظهر فيه زيادة فائدة.

وقال الراغب: إن في قوله ﷻ: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ تبكيتًا للإنسان حيث اقتصر علىٰ أحد السؤالين مع كون المسئول مالكًا للثوابين، وحث علىٰ أن يطلب منه تعالىٰ ما هو أكمل وأفضل من مطلوبه، فمن طلب خسيسًا مع أنه يمكنه أن يطلب نفيسًا فهو دنيء الهمة. انتهىٰ.

📖 **وقوله سبحانه في الآية** (١٣٥): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾:

هذه الآية العظيمة الكريمة الجليلة القدر هي من مفاخر القرآن الخالدة، ومعجزات صاحب القرآن الخالدة ﷺ؛ لأنها من أكبر الشواهد علىٰ أن القرآن ليس من وضع البشر، ولا تبلغ البشرية مهما بلغت ما فيه من العدالة والإنصاف أبدًا، بل هو من اللَّه خالق البشر والخبير بطبائعهم وخبايا نفوسهم، فهو المشرع لهم ما يصلح ضمائرهم، ويقوِّم اعوجاجهم، ويستل سخائم صدورهم، ويطهر قلوبهم وأدمغتهم من رواسب الجاهلية، ويرتفع بنفوسهم من سفوحها الهابطة وعقليتها الضيقة إلىٰ أرفع المستويات في القمة السامقة والتفكير الواسع الرحيب.

حقًّا إن هذه الآية الاجتماعية العظيمة من الآيات الدالة دلالة كبيرة علىٰ صدق المصطفىٰ ﷺ فيما جاء به من اللَّه، إذ هي ترسم لخير أمة أخرجت للناس منهجًا صحيحًا قويًّا عديم المثال، يقويها ويثبتها علىٰ الحق الذي تمثله بكل ما يتطلب من مجاهدة النفوس والتضحيات الأخرىٰ التي تحقق صدق القوامة علىٰ الناس، وقد ورد بعده في الآية الثانية من سورة المائدة جملة فيها تعليم سياسي لإقامة العدل مع الأعداء، واجتناب العدوان، كما وردت الآية الثامنة كلها سياسية في هذا المعنىٰ النبيل الذي يعجز محترفو السياسة ودجاجلتها عن تحقيقه أبدًا.

إن اللَّه سبحانه يبدأ هذا التعليم القويم بندائهم الشريف، بصفتهم

الروحية الفريدة التي ولدت بها عقيدتهم، وصنعت بها أرواحهم وتجددت صفاتهم، وأرهفت بها مشاعرهم، وتحملوا بسببها الأمانة العظيمة التي وكلت إليهم، تلك الأمانة التي تجعلهم يتعاملون مع اللَّه في جميع شئونهم وأحوالهم الداخلية والخارجية، متخلصين من جميع العواطف والملابسات، ولهذا يبدأ اللَّه نداءه لهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، وقد أتىٰ بصيغة المبالغة في قوله: «قوامين» حتىٰ لا يكون منهم أي جور، والقسط هو كمال العدل، ومعنىٰ قوله: «شهداء للَّه» أي لوجه اللَّه سبحانه في الشهادة، لا يراعون فيها إلا وجه اللَّه، متجردين عن جميع العواطف والمصالح، وجميع الملابسات الصادة عن أداء الشهادة علىٰ الوجه الصحيح.

وقد خاطب اللَّه قلوب المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ لأن في إقامة الشهادة العادلة مجاهدة نفسية شاقة لما يعتري النفس البشرية من الضعف أمام ثقل الحق، وقوة العواطف تجاه الوالدين والأقارب والأصدقاء، زيادة علىٰ حاجات النفس التي تتطلب جهادًا عظيمًا، فلهذا أناط الشهادة بوجهه الكريم، ليسهل عليهم مجاهدة نفوسهم ومدافعة عواطفهم، وهذا توجيه في غاية الحسن والسمو الذي يناسب مقامهم الشريف ومكانتهم العالية في تلقي التعاليم والتشريعات من اللَّه بواسطة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليتحملوا هذه الأمانة العظيمة الموكولة إليهم، وهي أمانة القوامة علىٰ جميع البشرية، والحكم بين الناس بالعدل علىٰ السواء، بين القريب والبعيد، والصديق والعدو، بحيث لا يغير مجرىٰ العدالة وسيرها أقرب قريب. أو أبغض بغيض.

هكذا التعاليم الإسلامية التي توجب علىٰ أهلها القيام بالقسط في كل حال ومجال، حتىٰ لا يكون للظلم والبغي مرتع في البلاد المحكومة بالإسلام، بل يتحقق العدل بين جميع الطبقات حتىٰ الأعداء في الدين كما مرت بنا قصة طعيمة بن الأبيرق وطغمته الذين اتْهموا اليهودي

بجريمتهم ليلصقوها به حتىٰ برأه الحكم الإسلامي بوحي اللَّه، وهذه مرتبة في العدل لم يبلغها ـ ولن يبلغها ـ جميع أصحاب الحضارات قديمًا وحديثًا.

ولهذا نجد أمر اللَّه لنا بالقسط جاء بأبلغ العبارة وأكمل الوجوه، فإن من الأوامر ما نصه: اعدلوا أو اقسطوا، وفيها ما معناه: كونوا عادلين أو مقسطين وهذه أبلغ؛ لأن فيها الأمر بتحصيل الصفة، لا بمجرد الإتيان بالقسط الذي يصدق بفعله ولو مرة، وتقول: أقيموا القسط، وأبلغ منه: كونوا قائمين بالقسط، ثم أبلغ من هذا وذاك. كونوا قوامين بالقسط، أي لتكن المبالغة والعناية بإقامة القسط علىٰ وجهه الصحيح صفة من صفاتكم بأن تطبقوه بالدقة التامة، حتىٰ يكون ملكة راسخة في نفوسكم.

والقسط يكون بالعمل، كالقيام بالواجب من العدل بين الزوجات والأولاد، ويكون في الحكم بين الناس ممن يوليه السطان أو يحكمه الناس فيما بينهم، وقد كان الرعيل الأول من المسلمين أعدل الأمم وأحكمهم بالقسط، وكل من كان مهتديًا بالقرآن فهو علىٰ شاكلتهم حتىٰ خلف من بعدهم خلوف يعملون بما يوافقهم من القرآن، ويعدلون في ناحية دون ناحية وإن أقسطوا مع غيرهم لا يقسطون مع أنفسهم وذويهم، حتىٰ صار بعضهم سبة علىٰ الإسلام وحجة لأعدائه من كل كافر أو فاسق أو خائن أو ظالم، فينبغي للمسلمين أن لا يتشبهوا بمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

والظاهر المتبادر من معنىٰ الآية أن قوله سبحانه: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ هو الشهادة في الحقوق، ولذلك أتبعها اللَّه بقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي يجب عليكم أن تشهدوا علىٰ أنفسكم فتقروا بما يدينها من الحق، وتقيموا القسط عليها، فإن هذا أعلىٰ مراتب الصدق والعدل، ومجيء حرف «لو» هنا لاستقصاء جميع ما يمكن فيه الشهادة؛ لأن الإنسان لما كان مجبولًا علىٰ محاباة نفسه ومراعاة مصالحها كان

من الصعب عليه أن يشهد علىٰ نفسه أو يعترف بما يدينها، فابتدأ اللَّه إيجاب الشهادة علىٰ نفسه ليتحقق الصدق مع اللَّه بالانقياد لأوامره وتطبيقها علىٰ نفسه بادئ ذي بدء، فجاء هذا الترتيب في الاستقصاء علىٰ غاية من الحسن والفصاحة.

فبدأ بقوله: ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ لأنه لا شيء أعز علىٰ الإنسان من نفسه، ثم ذكر الوالدين؛ لأنهما أقرب أقارب الإنسان، وهما سبب نشأته، وهو مأمور ببرهما وتعظيمهما والحوطة لهما في جميع الشئون، ثم ذكر سائر الأقربين بعدهما من الأولاد والإخوان والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات ونسل أولئك؛ لأنهم مظنة المحبة والتعصب، ويدخل فيهم الأصهار؛ لأن من كان منهم محبوبًا فهو يوازي الأقارب فكيف بالأزواج؟ وإذا كان هؤلاء قد أمر اللَّه بالشهادة عليهم والحكم عليهم بالقسط فالأجنبي أحرىٰ بذلك.

ووجوب القسط في الشهادة يدل بطريق الأولىٰ علىٰ وجوب الحكم بالقسط، إذ في الشهادة تنبيه بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ، فلا يترك الحكم أو الشهادة عليهم لأجل ما يلحقهم بها من الضرر، بل تجب الشهادة دون مراعاة، فإن الحق حاكم علىٰ كل أحد والحق أحق أن يتبع.

واعلم أنه ليس من البر بالوالدين ترك الشهادة عليهما، ولا من صلة الأقارب والأرحام ترك الشهادة عليهم أو تزويرها والتحريف فيها، فإن هذا من المنكر المنهي عنه؛ لأن به إضاعة للحق والعدل، وإنما البر والصلة في إقامة الحق والأمر بالمعروف، فيجب علىٰ المسلمين أن يكونوا متعاونين علىٰ الحق متعاضدين متناصرين فيه، لا تأخذهم في اللَّه لومة لائم، بل يجب أداء الشهادة للَّه كما قال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ فيشهد المسلم بالحق ولو عاد ضرره عليه؛ لأن اللَّه قد وَعَدَهُ ـ وَوَعْدُهُ الحقُّ ـ أن يجعل له مخرجًا كما قال في الآية (٢، ٣) من سورة الطلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾.

ويشهد علىٰ والديه وأقاربه دون مبالاة بما ينالهم، فإن اللَّه وليهم وكفيلهم، وإن الذين يتعاونون علىٰ الظلم وهضم حقوق الناس سيتعاون الناس علىٰ ظلمهم وهضم حقوقهم، فتكون المحاباة في الشهادة من أسباب انتشار الظلم والعدوان، وذلك من المفاسد التي لا يأمن شرها أحد من الناس، فإن المحاباة في الشهادة والأحكام ضررها عام، وإن كانت لمصلحة يريد المحابي بها نفع أهله أو الشفقة علىٰ فقير، أو العصبية لغني، أو العطف علىٰ محسن ليقابله بمعروفه، فإن ما يظن الإنسان فيه نفع فاللَّه يقلبه إلىٰ ضرر.

أما إن اتقىٰ اللَّه في الشهادة فسيجعل اللَّه لكل هؤلاء من أمرهم يسرًا إذا لم يسعوا في معصية اللَّه، ولذا قال سبحانه: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي إن يكن المشهود عليه غنيًّا فلا تمتنعوا من الشهادة عليه لغناه، وإن يكن فقيرًا فلا تكتموا الشهادة رحمة به وإشفاقًا عليه، بل اشهدوا علىٰ الغني ولا تراعوه أو تخافوا منه لثرائه، واشهدوا علىٰ الفقير، ولا تراعوه لمسكنته وفقره، ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ منكم وأعلم بصالحهما وحسن عاقبتهما إذا لم تعينوهما علىٰ الظلم بكتمان الشهادة من أجلهما، فلولا أن في الشهادة مصلحة لهما لما شرعها وحتمها اللَّه؛ لأنه أنظر لعباده من كل ناظر، وألطف بهم من كل لطيف، فمرضاة الغني ليست خيرًا لكم من مرضاة اللَّه، وليست خيرًا له في دنياه وآخرته، ومنفعته لكاتم الشهادة ليست أحسن مما عند اللَّه، وكذلك رحمتكم بالفقير بالكتمان ليست خيرًا من رحمة اللَّه، ولستم أعلم بمصلحته من اللَّه.

وروىٰ عبد بن حُمَيْدٍ وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في هذه الآية أنه قال: - ونعم ما قال -: هذا في الشهادة فأقم الشهادة يا بن آدم ولو علىٰ نفسك أو الوالدين والأقربين، أو علىٰ ذي قرابتك وأشراف قومك، فإنما الشهادة للَّه وليست للناس، وإن اللَّه رضي بالعدل لنفسه والإقساط، والعدل ميزان اللَّه في الأرض، به يرد اللَّه من الشديد علىٰ الضعيف،

ومن الصادق علىٰ الكاذب، ومن المبطل علىٰ المحق، وبالعدل يُصَدِّقُ الصادقُ وَيُكَذِّبُ الكاذبُ، وَيُردُّ المعتدي ويوبخه ربنا ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ، وبالعدل يصلح الناس، يا ابن آدم إن يكن غنيًا أو فقيرًا فاللَّه أولىٰ بهما، يقول اللَّه: أنا أولىٰ بغنيكم وفقيركم، ولا يمنعك غنىٰ غني ولا فقر فقير أن تشهد عليه بما تعلم فإن ذلك من الحق. اهـ.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ يعني لا تتبعوا هوىٰ أنفسكم فيمنعكم أن تعدلوا في الحكم أو الشهادة، بل اتركوا الهوىٰ لتحققوا العدل، فإنه سبحانه لما أمر بالقيام بالعدل والشهادة لمرضاته جَلَّوَعَلَا نَهَىٰ عن اتباع الهوىٰ، وهو اتباع ما تميل إليه النفس مما لم يبحه اللَّه سبحانه خشية الجور، فيجب علىٰ المسلمين أن لا يحملهم الهوىٰ والعصبية وبغض الناس أو عداوة الكفار علىٰ ترك العدل في جميع الشئون، بل يلتزمون العدل مع جميع الناس كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨] أي لا يحملنكم بغض قوم علىٰ أن لا تعدلوا فيهم.

ولما أقر النبي ﷺ يهود خيبر علىٰ نخيلهم وبساتينهم مناصفة بينه وبينهم بعث عبداللَّه بن رواحة ليخرص ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: واللَّه لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم علىٰ أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بِهذا قامت السموات والأرض.

فبإيثار العدل علىٰ الهوىٰ يحصل القيام بالقسط وتستقيم الأمور، وكلام عبداللَّه بن رواحة الذي أيده بفعله قد انشرحت له صدور أخبث أعداء الإسلام والمسلمين، وقد شاهدت جميع الأمم المفتوحة عدل المسلمين المنقطع النظير وسجله التاريخ لهم والحق ما شهدت به الأعداء.

وقد منع اللَّه سبحانه من اتباع الهوىٰ علىٰ الإطلاق، والهوىٰ أصناف

كثيرة متجددة ماثلة أمام النفوس، فحب الذات هوىٰ، وحب الأقارب هوىٰ، والعطف علىٰ الفقير في موضع الشهادة والحكم هوىٰ، ورجاء الغني أو الخوف منه هوىٰ، والحقد عليه ومناصبته العداوة هوىٰ، والميل علىٰ الأعداء ضد العدل هوىٰ، والتعصب للعشيرة أو الأصحاب أو الأوطان هوىٰ، إلىٰ غير ذلك من كل ما يصرف عن الحق والعدل.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ليُّ الشهادة: هو الميل بها وتحريفها عن حقيقتها، بحيث يتبدل معناها الذي يستند عليه الحكم، أما الإعراض فهو رفض أدائها بالكلية لأغراض نفسية أو غيرها من أنواع الهوىٰ المذموم، وقد يكون الامتناع من أدائها أخف جريمة من تبديلها وتحريفها بما يغير معناها والعياذ باللَّه.

وفيها قراءة شاذة عن ابن عامر وحمزة ونحوهم هي «إن تلووا أو تعرضوا» وعلىٰ هذه الشاذة فمعنىٰ «تلووا» تقبلوا علىٰ أداء الشهادة، مأخوذ من الولاية وهي الإقبال علىٰ الشيء، يعني وإن وليتم إقامة الشهادة أو أعرضتم عن إقامتها، وكلا المعنيين مستقيمان علىٰ المقصود عن التهديد، ولكن القراءة الأولىٰ هي الصحيحة المشهورة المعول عليها عند الجمهور.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي إن تؤدوا الشهادة أو تمتنعوا من أدائها علىٰ القراءة الشاذة، أو إن تجنوا علىٰ حقيق معناها الأصيل بالتحريف والتبديل، أو تمتنعوا من أدائها بالكلية فإن اللَّه خبير بعملكم المنحرف عن العدل، فيجازيكم بما تستحقونه من العذاب في الدنيا والآخرة علىٰ حسب الملابسات التي أفضت بكم إلىٰ هذا العمل الشنيع. فقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يحمل الوعيد الشديد للمنحرف عن أداء الحق، وليلاحظ قوله: ﴿خَبِيرًا﴾ فإنه لم يقل: «عليمًا»؛ لأن الخبرة هي العلم بدقائق الأمور وخفاياها، فهي التي تناسب هذا المقام الذي تختلف فيه النيات، وتضطرب الأحوال، ويكثر فيه الغش والاحتيال، حتىٰ إن الإنسان

ليغش نفسه ويلتمس لها المعاذير في كتمان الشهادة أو تحريفها، كأن اللَّه تنطلي عليه التلبيسات، فيجب علىٰ المسلمين أن يتدبروا وحي اللَّه فيقيموا العدل والشهادة بالحق، ولا يتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، ولا آيات اللَّه هزوًا فيلجئوا إلىٰ الحيل وإلىٰ أهلها الذين يصدرون الفتاوي علىٰ وفقها، أو يتوسعون فيما يسمونه «المصالح المرسلة» دون ضوابط شرعية صحيحة، فإن حكم الحاكم أو فتوىٰ المفتي لا يغيران حكم اللَّه، ولا يخلصان من عقوبته، فإن اللَّه يحاسب علىٰ ما في الضمائر وهو العليم الخبير.

وقوله سبحانه في الآية (١٣٦): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾:

الظاهر أن الخطاب فيها للمؤمنين، وذلك أنه لا يكفيهم الإيمان باللَّه ورسوله والقرآن الذي أنزل علىٰ رسوله، بل يجب عليهم الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وما أنزل اللَّه إليهم من الكتب السماوية من عند اللَّه، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ باللَّه داوموا واثبتوا علىٰ إيمانكم في الحاضر والمستقبل، وليس في هذا تحصيل حاصل كما زعمه بعض الغافلين، بل هو شبيه بقوله سبحانه لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] مع أنه كان عالمًا بذلك، فهذا الأمر فيه تأكيد للمؤمنين أن يحققوا إيمانهم باللَّه سبحانه بإيمانهم برسوله محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن يؤمنوا بالكتاب الذي أنزل عليه وهو القرآن بلا خلاف وإن كانت السنة وحيًا آخر من اللَّه، للصحيح منها حجيته كالقرآن، لكن المقصود بذكر الكتاب الذي نزله علىٰ رسوله القرآن بإزاء ما أنزل علىٰ غيره، ثم أمرهم بالإيمان بالكتاب الذي أنزل من قبل، والمراد به جنس الكتب

الإلهية علىٰ الإجمال.

ولا يقتضي هذا معرفة أعيان تلك الكتب، والإيمان بها؛ إذ أكثرها غير موجود، والموجود منها فيه تحريف كما فضح اللَّه أهله، وإنما الواجب الإيمان بجنس الكتب إجمالًا، وذلك أن اللَّه قد بعث قبل محمد ﷺ رسلًا كثيرين، وأنزل عليهم كتبًا لهداية أقوامهم، ولم يترك الناس هملًا بدون هداية ولا حجة، فمن المفروض علىٰ المؤمنين الإيمان بجميع المرسلين وما أنزل إليهم من الكتب علىٰ الإطلاق؛ لأنه لا يصح إيمانه ببعضهم دون بعض، فطريق الإيمان بالجميع واحد، وهو الإيمان باللَّه، فمن آمن باللَّه كان مطالبًا بالإيمان بجميع رسله وكتبه كما سيأتينا في الآية (١٥٠، ١٥١) أن الإيمان ببعضهم دون البعض، والتفريق بينهم في الإيمان كفر صريح.

وقد أثنىٰ اللَّه علينا في آخر سورة البقرة بأننا لا نفرق بين أحد من رسله، وإيجاب الإيمان بجميع الرسل والكتب هو الذي يمحق الطائفية ويزيل الشقاق الذي أحدثه اليهود والنصارىٰ ـ قاتلهم اللَّه ـ بكونهم لا يؤمنون بغير أنبيائهم وكتبهم، ويكفرون بما وراءها من كتاب اللَّه الحق المصدق لما معهم، فقد جمعوا بكفرهم بين اللؤم والشؤم، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ وجواب الشرط ليس مترتبًا علىٰ الكفر بالمجموع بل المعنىٰ: ومن يكفر بشيء من ذلك فهو كافر بالجميع، وقد جمع الكتب عند ذكر الكفر ليفهم المقصود من الكتاب أنه الجنس كما أوضحنا.

ولما كانت أركان الإيمان المذكورة هنا خمسة غير الإيمان بالقضاء والقدر أتىٰ بها جميعًا عند ذكر الكفر والضلال، فالإيمان باللَّه هو الركن الأول ويقضي الإيمان بكل ما أوجب الإيمان به والانقياد لما أوجبه، ومن ذلك الركن الثاني الذي هو الإيمان بالملائكة الذين يحملون الوحي إلىٰ الرسل، فمن لم يؤمن بهم فهو كافر باللَّه وبجميع

ما ورد عن اللَّه ومهما ادعىٰ الإيمان باللَّه فلا تقبل منه دعواه، ومن ذلك الركن الثالث هنا وهو الإيمان بجنس الكتب التي تتنزل بها الملائكة علىٰ الرسل، فمن لم يؤمن بها لن يعتبر مؤمنًا باللَّه مهما أدعىٰ ذلك، ومنها الإيمان بجنس الرسل المبلغين عن اللَّه ما جاءتهم به الملائكة، فمن لم يؤمن بهم جميعًا علىٰ الإطلاق فهو كافر باللَّه المخبر عنهم ولا ينفعه الاعتراف باللَّه فقط، ومن ذلك الإيمان باليوم الآخر الذي يجزي اللَّه فيه المكلفين علىٰ إيمانهم وعملهم بتلك الرسل والكتب أو علىٰ رفضهم لها وكفرهم بها، فمن لم يؤمن به فهو كافر باللَّه؛ لأنه لم يقدره حق قدره ولا ينفعه مجرد الاعتراف باللَّه؛ لأن إنكاره للحشر تكذيب للَّه فيما نص عليه من كتبه وتكذيب لرسله - أيضًا -.

✍ **وهاهنا مسائل:**

أحدها: كيف ذكر اللَّه في مراتب الإيمان أمورًا ثلاثة:

الإيمان باللَّه والرسل والكتب وذكر في مراتب الكفر أمورًا خمسة: الكفر باللَّه وبالملائكة وبالكتب وبالرسل واليوم الآخر؟

وجوابه: أن كليات الإيمان ثلاثة: الإيمان باللَّه والرسل والكتب، فمن آمن بها فمن الضروري أن يؤمن بالملائكة الكرام البررة الذين منهم الوسائط بين اللَّه ورسله، ويؤمن باليوم الآخر كما أخبرت به الرسل، وقد بالغ اللَّه في أمرهما عند ذكره لمراتب الكفر؛ لأن الملائكة مغيبون عنا، وكذلك اليوم الآخر غيب لم يقع وهو منتظر، فنص عليهما علىٰ سبيل التوكيد، ولئلَّا يتأولهما متأول علىٰ خلاف ما هما عليه، فمن أنكر الملائكة والقيامة فهو كافر مهما سلك من التأويل.

ثانيها: كيف قدم في مراتب الإيمان ذكر الرسول علىٰ ذكر الكتاب، وفي مراتب الكفر قلب القضية؟ الجواب: قدم اللَّه في ذكر الإيمان الرسول علىٰ الكتاب؛ لأن الرسول أول ما يباشره المؤمن، ثم يتلقىٰ الكتاب منه؛ لأن مرتبة الإيمان كمرتبة العروج من الخلق إلىٰ الخالق،

فيكون الرسول مقدمًا، وأما تقديمه الكتب علىٰ الرسل عند ذكر الكفر فإنه علىٰ الترتيب الوجودي؛ لأن الملك ينزل بالكتب والرسل تتلقىٰ الكتب من الملك، فمرتبة الكفر مرتبة نزول لا عروج، فيكون الكتاب فيها مقدمًا.

ثالثها: كيف قيل لأهل الكتاب: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ مع أنهم ما كانوا كافرين بالتوراة والإنجيل بل مؤمنين بهما؟ والجواب عنه من وجهين:

أحدها: أنهم كانوا مؤمنين بهما فقط، ولم يكونوا مؤمنين بكل ما أنزل اللَّه من الكتب قبلهما، فأمروا أن يؤمنوا بجميع الكتب المنزلة.

وثانيهما: أن إيمانهم ببعض الكتب دون البعض لا يصح؛ لأن ترك الإيمان بالبعض طعن بالمعجزة، وأيضًا فإنهم لا يعتبرون مؤمنين بالتوراة والإنجيل، لأنهم لم يقيموها كما قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، ولأنهم عملوا ببعضهما وتركوا البعض الآخر، فحكم اللَّه عليهم بأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض كما في الآية (٨٥) من سورة البقرة، فينبغي للمسلمين أن يحذروا من سلوك مسلكهم، فلا يعملوا ببعض القرآن دون بعض.

رابعها: كيف قال اللَّه سبحانه: ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ ثم قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾. قال الزمخشري في وجه الفرق: لأن القرآن نزل منجمًا مفرقًا في عشرين سنة بخلاف الكتب قبله، وكذلك قال مثل هذا الجواب في أول سورة آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣ ٤]. ورد عليه أبو حيان في كلا الموضعين بأن هذه التفرقة بين نزل وأنزل لا تصح، ولو حصلت المغايرة؛ لأنهما بمعنىٰ واحد، ولأن التضعيف للتعدية، كما أن الهمزة للتعدية، وأن التعدية بالتضعيف لا تدل علىٰ التكثير ولا علىٰ التنجيم،

بل التضعيف في قوله «نزل» ليس للتكثير والتفريق، وإنما هو للتعدية وهو مرادف للهمزة. وأبو حيان من أكثر المفسرين معارضة للزمخشري في اللغة والنحو وكشف اعتزالياته، وقد أطال الرد عليه في أوائل سورة آل عمران بخصوص «نزل» فليرجع إليه.

وقوله سبحانه: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ إيضاح بأن الذي يكفر بهذه العناصر الإيمانية فإنه يحمل معنىٰ الإبعاد في الضلال الذي لا يرجىٰ معه هداية ولا يرتقب بعده رجوع وتوبة؛ فالذي يكفر بالله الذي ركزت الفطرة الإيمان به في أعماق القلوب، ويكفر بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر استمدادًا من كفره بالله الذي هو الحقيقة الكبرىٰ فقد فسدت فطرته فسادًا لا يرجىٰ معه صلاح، وخَرَّب ضميره لتعطيله عقله من التفكير الصحيح، فتكون جميع تصوراته فاسدة، ولا ينجح معه أي علاج سوىٰ علاج السيف والاستذلال في الدنيا جزاء علىٰ كفره بآيات الله وعدم شكره لنعمائه، وعلاج الجحيم والعذاب الأليم في الآخرة، لأنه ضل عن صراط الحق الذي ينجيه من ذلك.

وكذلك إذا كفر ببعض الأركان أو ببعض أنواعها فإنه يكون كافرًا بالجميع، ولا يحصل الكفر ببعضها إلا ممن لم يؤمن بشيء منها إيمانًا صحيحًا مرتكزًا علىٰ التوحيد الخالص وعلىٰ فهم معانيها، والبصيرة بحكمتها، وعلىٰ هذا يكون في الضلال البعيد الناشئ من عدم الإيمان بالكلية؛ لأن الذي يؤمن بوجود الشيء ويطلبه يبحث عنه إذا ضل طريقه حتىٰ يهتدي، فيكون ضلاله قريبًا، أما المنكر للحقائق عن عناد وفساد بصيرة فهذا لا يطلب الحق، بل يسخر منه عند ذكره، وهو الذي يعيش في ضلال بعيد.

فهذه الآية الكريمة فيها بيان من الله أن الإنسان لا يكون مؤمنًا به حتىٰ يؤمن برسوله الهادي إليه والمبلغ عنه ويصدقه في كل ما يقول، ويقتدي به في كل ما يفعل، ويؤمن بالكتاب الذي أنزل عليه؛ لأن فيه

توضيح منهج هداية اللَّه في جميع شئون الحياة، ويعمل جميع ما فيه، لأن مصدره واحد وهو اللَّه الذي أنزله بجميع ما فيه من التشريعات، ويؤمن بجميع الكتب التي أنزلها اللَّه من قبل علىٰ المرسلين الأوائل؛ لأن مصدرها كلها واحد، وهو اللَّه الكبير المتعال، وأساسها واحد وهو إسلام الوجه للَّه وإفراده بالعبودية الكاملة، فمن لم يؤمن بجميع الكتب علىٰ الإطلاق لم يكن مؤمنًا بكتابه الذي جاء بذكرها، وكذلك يؤمن بالملائكة الذين بعضهم سفراء بين اللَّه وبين رسله وأداة تنزيل الوحي عليهم، فمن لم يؤمن بهم فهو كافر بالكتب وبالرسل الذين أنزلت إليهم الكتب، وباللَّه مرسل الرسل ومنزل الكتب وخالق الملائكة والجن وكافة المخلوقات، من أعظم الكائنات إلىٰ أصغر الذرات.

وليعلم أن الذي لا يؤمن بالجن فهو كالكافر بالملائكة والكتب والمرسلين، لأنهم خلق غيبي يجب الإيمان به حتمًا، ويجب علىٰ من آمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله أن يؤمن باليوم الآخر الذي فيه البعث والنشور، ونشر الصحائف ووضع الموازين للحساب الذي يحصل به الجزاء الأوفىٰ لكل مؤمن وكافر، ولكل عامل من خير وشر، حتىٰ يملأ اللَّه الجنة والنار من الإنس والجن أجمعين، فمن لم يؤمن باليوم الآخر كان كافرًا بوعد اللَّه ووعيده فيه، وإخباره المتكرر عنه، فيكون كافرًا باللَّه وبما جاء عن اللَّه من كتاب ورسول.

فالإيمان باليوم الآخر من ضروريات الدين، وتتوقف عليه صحة الإيمان باللَّه وبما جاء منه، وهو الثمرة الثانية من ثمرة الإيمان بالغيب بعد الإيمان باللَّه، إذ به تتميز الطبائع الإنسانية عن الطبائع البهيمية، ويحصل قبول جميع الأوامر والنواهي الإلهية والانقياد لها خشية للَّه ورجاء لما عنده من الفوز العظيم، وبه تتخلص الإنسانية من عبادة الجبت والطاغوت، وعبادة الشهوات والأهواء، والتعلق بالأنانيات المسعورة الجالبة للحروب وأنواع الفوضىٰ، بل تتوقف هداية القرآن

علىٰ الإيمان بالغيب كما أسلفنا ذلك في تفسير أوائل سورة البقرة، وأما الإيمان بالقضاء والقدر فقد سبق الكلام عليه، ويأتي له مزيد في آخر سورة الأنعام إن شاء اللَّه.

وقوله سبحانه في الآية (١٣٧): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾:

لما ذكر اللَّه ﷻ حال الذين كفروا به وبملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر بعد الأمر المحتم بالإيمان بجميع هؤلاء، ذكر فساد طريقة من كفر بعد الإيمان من المذبذبين الذين يتكرر منهم وقوع الكفر بعد الإيمان لاستمرائهم الكفر وأنسهم به، وعدم مخالطة بشاشة الإيمان قلوبهم، وأنهم يكونون محرومين من مغفرة اللَّه وهدايته لهذا السبب.

والظاهر أنها نزلت في المنافقين، إذ هم الذين يتلاعبون بالدين، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا لقوا أصحابهم أو أكابرهم قالوا: إنا مستهزئون، ولهذا جاءت البشارة بعد هذه الآية للمنافقين بالعذاب الأليم وجاء ذكر القبيح من أوصافهم والمشهور منها بالمذمة، فهم الذين دائمًا مترددون بين إظهار الإيمان والكفر حسب مناسبة أحواله، ومعنىٰ ازدادوا كفرًا بأن بقوا علىٰ كفرهم حتىٰ ماتوا، أو أن ازدياد كفرهم هو اجتماعهم وإصرارهم علىٰ استخراج أنواع المكر والكيد للمسلمين، وطعنهم إياهم في الحروب بالتخلي عنهم، وإشاعة الإرجاف والأكاذيب، وإلىٰ هذا ذهب مجاهد وابن زيد.

ولعل هذه الآية مبينة لسنة اللَّه تعالىٰ في أمثالهم؛ لأن اللَّه الذي هو أرحم الراحمين وواسع المغفرة لم يكن ليحرم أحدًا من عباده المغفرة والهداية بمحض الخلق والمشيئة، وإنما مشيئته مقترنة بحكمته وعلمه الأزلي، وقد قضت حكمته الأزلية بأن يكون كسب البشر لعلومهم وأعمالهم مؤثرًا في نفوسهم، فمن طال عليه أمد التقليد لآبائه الكافرين

ممن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] حجب عقله عن نور الدليل حتىٰ لا يجد إليه سبيلًا، وخصوصًا من التهب صدره بالأغراض النفسية، والحقد علىٰ أساسها، وكذلك من طال عليه عهد الفسوق والعصيان، وتشرب في قلبه حب المعاصي والشهوات، بحيث لو تاب رجع سريعًا للانهماك فيها، فإنه يكون محجوبًا عن أسباب الغفران، لما ران علىٰ قلبه من الرغبة في الإثم، وقد بين اللَّه أسباب الغفران بقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه]، وقوله حكاية عن دعاء الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧] والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

وهذه الآية لا تقتضي أن هؤلاء الذين آمنوا إيمانًا صحيحًا وثبتوا علىٰ الأعمال الصالحة لا يقبل منهم، وإنما تدل بكل جلاء ووضوح علىٰ أن الذين تتكرر منهم الردة عن الإسلام حتىٰ يزدادوا كفرًا بالثبات عليه والرضىٰ به دون الإسلام أنهم قوم قد استغلقت قلوبهم عن الإيمان، حتىٰ صاروا محجوبين عن مغفرة اللَّه وهدايته، فهم كالذين ختم اللَّه علىٰ قلوبهم وعلىٰ سمعهم وعلىٰ أبصارهم غشاوة، وقد تقدم ذكر أمثال هؤلاء في تفسير الآية (٩٠) من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾.

وازديادهم في الكفر هو كون قلوبهم رضيت بالكفر واطمأنت إليه، ومرنت علىٰ الردة حتىٰ بلغوا إلىٰ حد الاستهزاء والسخرية بالإسلام والمسلمين، وهذا شيء قد شاهده الصحابة من المنافقين، وشاهدناه من منافقي زماننا ممن يحملون أسماء إسلامية وقلوبا وثنية لا تؤمن إلا بالمحسوس، وتسخر من نصوص الوحي، وهم يحتمون بالإسلام ويتفيئون من فضل أهله ظلاًّ ظليلاً، وهم أشد الناس عقوقًا لهم ونكاية بهم، ولكنهم بارعون بأساليب المكر والنفاق، يحتفلون بذكرىٰ الهجرة والمولد والمعراج، ويجعلون من تلك الأيام عطلة رسمية ليخدعوا الأمم والشعوب، وهم بعيدون عن تعاليم صاحب الهجرة والمعراج ﷺ.

ويزيد شرهم على المنافقين بكثير جدًّا؛ لأن عندهم من أساليب الدعاية الماكرة الكافرة ما يكسبون به أولاد المسلمين بالغش والتلبيس في الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وقد قفزهم أعداء اللَّه من عملاء اليهود إلىٰ احتلال الصدارة في هذه الميادين حتىٰ غشوهم بأن الإسلام لا يصلح للحكم والسياسة، ولا يساير تطورات العصر، وأن تشريعاته جامدة وقاسية لا تناسب الإنسانية، بل ذهبوا إلىٰ أكفر من ذلك فزعموا أن الدين طائفية، أي مدعاة للشقاق والفرقة، وأنه لا يصلح لإقامة الحكم إلا علىٰ أساس القومية والوطنية، فهدموا ملة إبراهيم بموالاة الكفار في القومية ولأجل الوطنية، وأحلوا ما حرم اللَّه من الخمور والفواحش لهذا السبب كما أوضحنا ذلك ورددنا عليه مرارًا وللَّه الحمد والمنة.

والحاصل أنه قد تفاقم شر المنافقين هذا الزمان بسبب احتلالهم الصدارة، بعد أن كانوا مقموعين في عصر السلف.

ومعنىٰ الآية الكريمة استبعاد إيمانهم لما استقر في قلوبهم من الكفر، وقد صرف بعض المفسرين أحوالهم في الآية إلىٰ أن الإيمان الأول هو إظهارهم الإسلام وكفرهم به بعد ذلك هو نفاقهم وكون باطنهم علىٰ خلاف ظاهرهم، والإيمان الثاني هو أنهم كلما لقوا المسلمين قالوا: إننا مؤمنون، والكفر الثالث هو أنهم إذا خلوا إلىٰ شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزئون، وازديادهم في الكفر هو جدهم واجتهادهم في استخراج أنواع المكر والكيد بالمسلمين، قال القفال: ليس المراد من الآية العدد، بل المراد بيان تذبذبهم كما قال اللَّه: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

قلت: لا شك أن الآية في المنافقين عمومًا في كل عصر؛ لأن اللَّه ذكر بعدها طرفًا من أحوالهم الخبيثة التي من أشهرها موالاة الكفار، كما هي حالة المعاصرين اليوم من القوميين والبعثيين ونحوهم، ولعل اللَّه سبحانه أجمل لنا طرائق المنافقين الأوائل ليبين لنا أنهم

أشباه اليهود؛ لأن اليهود أساتذتهم، كما أنهم أساتذة لكل منافق مدىٰ الدهر، فإن اليهود آمنوا بالتوراة وبموسىٰ، ثم كفروا بعبادتهم العجل، ثم آمنوا بعد عودة موسىٰ إليهم، ثم كفروا بعيسىٰ والإنجيل، وعيسىٰ وإنجيله مصدق لما بين يديه من التوراة، فأصبحوا كافرين بموسىٰ والتوراة لما كفروا بعيسىٰ، ثم ازدادوا كفرًا بكفرهم بمحمد ﷺ، أما تلاميذهم فلا يؤمنون إلا بالمادة، ولا يعملون إلا للقوميات والوطنيات، وما اعترافهم بالله والرسول إلا خداع للمؤمنين، وما قيمة الاعتراف برب مرفوض لا يعمل بأوامره، ولا يجتنب محارمه، ولا تنفذ شريعته، ولا ينتصر لدينه ويقمع أعداؤه.

وفي الآية فوائد غير ما تقدم:

إحداها: إن الذي تتكرر منه الردة لا تقبل توبته، ومثله الزنديق المتأرجح بين أنواع الإلحاد؛ وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء خصوصًا الحنابلة، وقد أسلفنا أنه لو أخلص في توبته وصلحت حاله في سيرته وأعماله فتوبته مقبولة.

ثانيها: دلت الآية علىٰ أن الكفر يقبل الزيادة والنقصان، فالإيمان من باب أولىٰ يقبل الزيادة والنقصان، لأنهما ضدان متناقضان زيادة علىٰ النصوص الكثيرة في زيادة الإيمان.

وقوله سبحانه في الآيتين (١٣٨ ـ ١٣٩): ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾:

لما ذكر الله سبحانه في الآية السابقة سوء مصير المنافقين المحتوم عليهم بانتفاء الغفران وهداية السبيل وتقريرهما عليهم في الدنيا لانتفاء حصول ما يقتضيهما منهم، أتىٰ بتقرير مصيرهم الثاني المحتوم في الدار الآخرة، فقال ﷻ مخاطبًا نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ والمقصود بالبشارة هنا الإخبار علىٰ طريق التهكم

بهم، وذلك مثل قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن القائم لهم مقام البشارة هو الإخبار بالعذاب الموجع كما قال الشاعر:

تحيةُ بَيْنِهِمْ ضربٌ وجيعُ

والعرب تقول: تحيتك الضرب وعتابك السيف، قال ابن عطية: جاءت البشارة هنا مصرحًا بقيدها فلذلك حسن استعمالها في المكروه، ومتىٰ جاءت مطلقة فإنما عُرْفُهَا في المحبوب، وفي هذه الآية دليل علىٰ أن التي قبلها إنما هي في المنافقين، وقد أخبر اللَّه عباده المؤمنين عن أخس صفات المنافقين الظاهرة وأحطها وهي موالاتهم لكل كافر ضد المؤمنين، وسخريتهم بآيات اللَّه، واطمئنانهم لمن يخوضون فيها بالباطل، وذلك من صفات المنافقين المطردة في كل زمان ومكان إلىٰ آخر الدهر، وقد قدمنا أن وحي اللَّه المبارك يعنىٰ بالأوصاف لا بالأسماء، لأن الأوصاف هي الدلائل التي تدين المنافقين ونحوهم مهما اختلفت أسماؤهم وألقابهم، ومهما برزوا بالمذاهب الخداعة فصفاتهم هي التي تسجل عليهم النفاق وتحكمهم به.

وها نحن نرىٰ المنافقين المتسترين بالمبادئ القومية والمذاهب المادية، مهمتهم موالاة الكفار وتفضيلهم باسم القومية والوطنية علىٰ المؤمن غير المواطن، والذي ليس في قوميتهم، كما أننا نرىٰ إعجابهم بالكفار وحبهم لتقاليدهم، وبثها ونصرتها والتهكم بنصوص الشريعة الناهية عنها، وسخريتهم بالمتمسكين بها، وعدم افتخارهم بالسلف الصالح الذين نجحوا في تطبيقها، وسلوك التأويلات الفاسدة لتحريف النصوص والجناية علىٰ معانيها بما يريدونه من تطبيق أباطيلهم، فهم مشابهون لليهود تمامًا، لأنهم أساتذتهم في خطوط النفاق والعياذ باللَّه.

وقد نص اللَّه في الآية (٢٨) من سورة آل عمران علىٰ النهي عن موالاة الكافرين دون المؤمنين، وأن موالاتهم بِهذه الحال كفر بغير

ضرورة ملجئة فمستعمل التقية باللسان وبعض الأفعال دون القلب فإنه يجب أن يكون مطمئنًا بالإيمان، فإنه إذا كان الكفار غالبين، أو كان فريق من المسلمين أقلية ضعيفة في مجتمع الكفر الزاخر الغالب، وكانوا يخافونهم ويخشون من نقمتهم العامة، فإنهم يحالفونهم ويدارونهم دفعًا لشرهم المفضي إلىٰ الإبادة، لكن مع الاحتفاظ بالعقيدة وعمارة القلب بها، وعدم الاستسلام المرخص لها، والمفضي إلىٰ ترك العمل من أجلها، وينبغي مراعاة إعزاز الدين في سلوك الرخصة، فإن كانت الفائدة عائدة للدين باستعمال التقية وجب استعمالها لمصلحة الدين، وإن كانت تعود عليه بالضرر الذي لا يرجىٰ زواله كان القتل في سبيل إعزاز الدين وظهوره أفضل من التقية وإعطاء الدنية، وهذا شيء متروك لسير الحوادث وأحوال السياسة.

ولما كان موالاة المنافقين للكفار وتقربهم وتحببهم إليهم لأجل الاعتزاز والانتصار بهم فند اللَّه طريقتهم وأبطلها بقوله: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ وهذا استفهام تقريع وتوبيخ، فالمعنىٰ إن تبتغوا العزة من هؤلاء الكفار فقد طلبتموها من غير أهلها، لقد طلبتموها من عادميها؛ لأنهم لا عزة لهم، فكيف تبتغىٰ منهم؟ ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ أي بجميع أنواعها من عزة الغلبة والقهر، وعلو الشأن والسلطان، فبعزته سبحانه يكثر القليل في عيون أعدائه، وبعزته ينتصر الضعيف علىٰ القوي برعب يقذفه اللَّه في قلوب الأقوياء الأكثرين أمام المؤمنين مهما كانوا أو بأي وسيلة من وسائل النصر، وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وكقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة]، وفي هذه الآية تنبيه علىٰ خبث مقصد المنافقين، وهو طلبهم العزة بالكفار والاستكثار بهم، وفيها ـ أيضًا ـ تنبيه علىٰ فساد هذه الخطة من الأساس، ليرفضها من عسىٰ أن يقع في نوع منها من المؤمنين عن غفلة أو جهالة أو مسامحة أو

انخداع بأنواع التضليلات، فإنها خطة فاسدة لا تؤدي إلىٰ خير أبدًا.

والعزة في اللغة أصلها الشدة، ومنه قيل للأرض الصلبة الشديدة: عزاز، ويقال: عزَّ الهم إذا اشتد، ويقال: عز الشيء إذا قل حتىٰ لا يكاد يوجد لأنه اشتد مطلبه، واعتز فلان بفلان إذا اشتد ظهره بقوته، والعزة هي القوة منقولة من الشدة لتقارب معانيهما، والعزيز هو القوي المنيع بخلاف الذليل، وقد أسلفنا بعض معاني اسمه العزيز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد كان المنافقون يركنون إلىٰ الكفار من اليهود والمشركين ويوالونهم من دون المؤمنين اعتزازًا بهم علىٰ المؤمنين وكيدًا واستكثارًا، فأوضح اللَّه فساد خطتهم لأوليائه علىٰ أعدائه، فما أسفه عقل من يخالف سنة اللَّه في قضائه الكوني والشرعي، لأن من يريد العزة وهو سليم العقيدة فليطلبها ممن هي في قبضته، لا ممن هو عادم لها ومحروم منها، فالذي يستعز بغير اللَّه ليس بمؤمن علىٰ الحقيقة إيمانًا ينفعه، وما يطلب العزة والقوة والنصر من أعداء اللَّه إلا غير مؤمن باللَّه إيمانًا صحيحًا.

وهذا التنصيص في آخر الآية علىٰ أن العزة للَّه جميعًا فيه السند الوحيد للنفس البشرية المؤمنة، إذا هي ارتكزت إليه استعلت علىٰ أعدائها وامتازت عنهم، وارتفعت عليهم فأصبحت متحررة من العبودية لغير اللَّه والخوف مما سواه، ورجاء ما سواه، وكانت متعلقة باللَّه سبحانه ومطمئنة إليه، وكل نفس لا تركن لهذا السند الوحيد العظيم فَسَتُسْتَعْبَدُ لأشخاص شتىٰ واتجاهات شتىٰ ومطامع شتىٰ ومخاوف شتىٰ، ولن يعصمها استنادها لغير اللَّه في ذل العبودية للمخلوق والمطامع والشهوات وسائر الأنانيات، بل تقع في عبودية من لو كان عبدًا لها لما انتفعت به، بل تضررت، ولما اعتزت به بل ذلت وصغرت، وذلك أن العبودية للَّه كلها عز واستعلاء وانطلاق، والعبودية لغيره ذل واستخذاء وأغلال، يرضىٰ بها ناقصو العقول، فيدخلون رقابهم في ذل الرق المعنوي من دون حبل نخاسة كما أسلفنا.

وقد دلت هذه الآية كما دلت الآية الثامنة والعشرون من سورة آل عمران علىٰ وجوب موالاة المؤمنين من أي جنس كانوا، وعلىٰ النهي عن موالاة الكفار مهما قرب نسبهم، وخصوصًا موالاتهم ضد المؤمنين أو علىٰ حساب العقيدة ولو شيئًا يسيرًا. وإذا كانت الموالاة بِهذه الحال من الخطر فإن توليهم أشد جرمًا وأفظع كفرًا، وأما المحبة فشأنها خطير، ولها تفصيل معروف، وسنذكره في سورة التوبة إن شاء اللَّه، لكن من أحب الكافر لأجل كفره فقد كفر، لأن محبته لأجل الكفر ترجع إلىٰ الرضىٰ بالكفر، وأما مجرد المخالطة فليست موالاة مع بغض الكفر وأهله، وقد جوز الشارع نكاح الكتابيات والفاسقات والتعامل مع الكفار علىٰ أساس العقيدة والاحتفاظ بها، ومدح اللَّه من أطعم الأسارىٰ، وأجاز بعض العلماء الوصية لكافر فيما لا يضر بالدين، وقال المحققون من العلماء: يجوز الاغتمام لاندحار الكفار الكتابيين أمام الوثنين والمجوس، ومن هو أغلظ كفرًا منهم، ولذلك اغتم المسلمون لانتصار فارس علىٰ الروم؛ لأن ذلك من تغليظ للبغض لبعض الكفر علىٰ بعض، ولا يدخل في باب الموالاة أو المودة قطعًا.

وقال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: والمقصود من هذا التهييج علىٰ طلب العزة في جناب اللَّه والإقبال علىٰ عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم ذكر الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي ريحانة أن النبي ﷺ قال: «**من انتسب إلىٰ تسعة آباء كفار يريد بهم عزًّا وكرمًا فهو عاشرهم في النار**»[1]. تفرد به أحمد.

قلت: وهو في الصفحة (٣٤) من الجزء الرابع في «المسند» طبعة الحلبي، وأبو ريحانة هو أزدي واسمه شمعون بالشين المعجمة فيما روىٰ البخاري، وقال غيره: بالسين المهملة.

---

(١) تقدم تخريجه، وهو في كتاب «الزهد» لأحمد.

ومما يلحق بفعل المنافقين من طلب العزة من الكافرين وولايتهم ما يتشدق به القوميون ومن علىٰ شاكلتهم من منافقي زماننا من الانتساب للكفرة الماضين في الزمان القديم، كالفراعنة والبابليين والإغريق والفينيقيين وعرب الجاهلية الأولىٰ اعتزازًا جاهليًّا وحمية باطلة، حتىٰ إنهم يحتقرون حضارة الإسلام ولا يقيمون لها وزنًا، ويشيدون بالحضارات الفرعونية وغيرها من حضارات الكفر المبنية علىٰ الظلم واستغلال الشعوب بالإتاوات الباهظة واستعبادهم في كافة الأعمال، وتسخيرهم بالقوة، وإلهاب ظهورهم بالسياط لحمل الأثقال والارتفاع بها إلىٰ ما يشاءون قهرًا وتسلطًا، كما يرىٰ السياح آثار طغيانهم في مقاطعة بَعْلَبِكَّ وأهرامات مصر وغيرها، مما يجزم الناظر بأن هذه الصخور العظيمة التي بنيت فيها تلك الأبراج القديمة والأسطوانات الضخمة الطويلة وما شاكلها قامت بالسخرة وإلهاب الظهور بحرارة السياط التي تضطر العامل علىٰ حمل ما لا يطيقه تخلصًا من وجع الضرب حتىٰ يتدرب عليه بالقهر والجور.

أما حضارة الإسلام التي لا تعرف الإتاوات والظلم والسخرة واستعباد الناس بالسياط فهم بها كافرون أو لها محتقرون، وما أقبح ما يكررونه من الإفك الماسوني اليهودي الذي روجه تلاميذ اليهود والنصارىٰ أساتذة القوميين من قولهم: نحن عرب قبل أن نكون مسلمين اعتزازًا منهم بالكفر وموالاة لأهله ضد الإسلام والمسلمين، وهو كذب صارخ علىٰ الحقيقة والتاريخ؛ لأنهم كانوا في الأصل مسلمين قبل أن يكونوا عربًا؛ لأن آدم وذريته الأولىٰ عاشوا مسلمين وماتوا مسلمين، ثم بعد إغراق قوم نوح أنجىٰ اللَّه المسلمين أصحاب السفينة الذين منهم جد العرب سام بن نوح فأصبح الإسلام أصيلًا فيهم، وأصبحوا مسلمين قبل أن يكونوا عربًا جاهليين، فما دعواهم إلا مغالطة وكذب علىٰ النص والتاريخ ليرضوا إخوانهم النصارىٰ في الإلحاد.

ومما ينبغي معرفته والتمسك به وعدم الحيدة عنه أبدًا أن آخرة

التجمع هي ملة إبراهيم لا سواها، فهي العقيدة التي جاء بها جميع الأنبياء والمرسلين، وأن الأمة في الإسلام هي الأمة السالكة لهذه الملة منذ فجر التاريخ في كل بقعة من بقاع الأرض، في كل جيل من الأجيال، وليست الأمة مجموعة من الأجيال القديمة الضالة مهما شغلوا موقعًا من التاريخ؛ لأن وجودهم كعدمهم، ولأنهم يسيئون أكثر مما يحسنون، ولا يمكن أن يصدر إحسانهم عن إخلاص، فهم أوباش يتسلط بعضهم علىٰ بعض، لا يعْتبر قَوِيُّهم لضعيفهم قيمة، بل ولا ينظر إليه إلا أحط من نظرته إلىٰ الحيوان، فما أسفه من يلتفت إلىٰ هؤلاء فضلًا عن تقديسهم أو ربط التاريخ بهم والإعراض عن تاريخ المسلمين: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ في الدنيا ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وهنا مسائل:

أحدها: قد يتوهم بعض المغفلين أو المتحذلقين أن قول اللَّه سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ مناقض لقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالجواب أن القوة والعزة الكاملة للَّه، وكل من سواه فبإقدار اللَّه له وتقويته صار قادرًا قويًّا، وبإعزاز اللَّه له صار عزيزًا، فالعزة الخاصة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وللمؤمنين لم تحصل إلا من اللَّه تعالىٰ، فكان الأمر عند التحقيق أن العزة للَّه جميعًا، وهو يكرم بها من يشاء من عباده بحسب رحمته وحكمته، وكل متطاول علىٰ عزة اللَّه فمصيره الدمار بإذن اللَّه، وليست العزة ما يغتر به أكثر السطحيين والماديين من مظاهر الحكم والدولة، فإن هذا يتلاشىٰ أمام عزة المؤمن التي يتدرع بها من اللَّه، كما تلاشت عزة النمرود وغيره أمام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكما تلاشت عزة فرعون أمام موسىٰ الذي عاش عنده وليدًا، وهرب منه قبل الرسالة شريدًا، فلما رجع إليه يحمل بضاعة السماء قابله بأعظم أنواع العزة، وخاطبه بمنطق التهديد، وكذلك العزة التي مع المؤمن الذي هو من آل فرعون صمد بها أمام جبروتهم وطغيانهم.

ثم ناهيك بالعزة المحمدية وما يحملها المحمديون الصادقون من

عزة تخرس السلاطين وتتحدىٰ إرادتهم حتىٰ تستعلي بالحق وإن نالوا منها ما نالوا، كما حصل للإمام أحمد وغيره، وكعزة يحيىٰ بن أكثم التي انهارت أمامها غطرسة المأمون يوم إباحته للمتعة ونيله من الخليفة الثاني لرسول اللَّه ﷺ، حتىٰ لجأ المبتدعة إلىٰ تُهمته بما هو بريء منه، ولو ارتكسن فيه لأخرسته المعصية أمام الطغيان، ولكان للطاغوت عليه سبيل يدمغه به، إلىٰ غير ذلك من عزة المؤمنين الذين يصمد أحدهم بكلمة الحق أمام الظلمة حتىٰ يستعلي الحق بفضل اللَّه.

ثانيها: دلت هذه الآية كآية السورة التي قبلها علىٰ أنه لا يجوز اتخاذ الكافرين أعوانًا في الأعمال المتعلقة بالدين، ولا في شئون الدولة المسلمة الدينية، وفي الصحيح أن رجلًا من المشركين لحق بالنبي ﷺ يقاتل معه، فقال له: «**ارجع فإنا لا نستعين بمشرك**».

📖 **وقوله سبحانه في الآيتين (١٤٠، ١٤١):** ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾:

الخوض هو الاقتحام في الشيء تقول: خضت الماء خوضًا وخياضًا، وخضت الغمرات: اقتحمتها، وخاضه بالسيف: حرك سيفه في المضروب، وتخاوضوا في الحديث: تفاوضوا فيه، والمخاضة: موضع الخوض، واختاض بمعنىٰ: خاض، وتخوض: تكلف الخوض، وأما الاستحواذ فهو الاستيلاء والتغلب، ويقال: حاذ يحوذ حوذًا وأحاذ بمعنىٰ: حاذ.

قال المفسرون: إن المشركين بمكة كانوا في مجالسهم يخوضون في ذكر القرآن ويستهزئون به، فنهىٰ اللَّه المسلمين عن القعود معهم

كيلا يتأثروا ولا تصيبهم معرة المداهنة والسكوت علىٰ الباطل، وأنزل عليهم الآية (٦٨) من سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ فامتنع المسلمون عن القعود معهم.

ولما قدموا المدينة مهاجرين تجددت هذه الحادثة مع اليهود والمنافقين، فكانوا يجلسون معهم اغترارًا بالمنافقين الذين لم ينكشف أمرهم تمام الانكشاف، وكان اليهود يستهزئون بالقرآن، فأنزل اللَّه سبحانه هذه الآية ليذكرهم بما أنزل عليهم في مكة من سورة الأنعام فقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ وفي هذه دلالة علىٰ أن المنزل علىٰ النبي ﷺ وإن خوطب به في الظاهر خطابًا خاصًا فهو منزل علىٰ الأمة جميعها وهو للعموم بلا شك.

ويتضح من نص الآيتين أن مدار الإعراض عنهم هو العلم بخوضهم في الآيات، ولذلك عبر عن ذلك بالرؤية في سورة الأنعام، وعبر في هذه الآية بالسماع، وكلاهما يقصد به العلم بما كانوا يخوضون به، كما يتضح من نص الآيتين أن المراد بالإعراض هو إظهار المخالفة والسخط بالقيام عن مجالسهم، لا الإعراض بالقلب أو الوجه، فهذا لا يظهر به الانتصار للعقيدة والتحمس لها، فإن من أول مراتب النفاق أن يجلس المسلم في مجلس يسمع فيه الكفر بآيات اللَّه والاستهزاء بها فيسكت ويتغاضىٰ مسميًا مداهنته تسامحًا أو دهاء أو سعة أفق أو مجاراة لحرية الرأي المزعوم الذي لا يستعمل ضد الهدم الماسوني، وإنما يستعمل لصالح الماسونية اليهودية في جميع الأحوال.

فإن ما يفعله من المداهنة والميوعة ما هو إلا هزيمة نفسية داخلية، وما تسميته لها بالتسامح وسعة الأفق ونحو ذلك إلا تمويه علىٰ نفسه وغش لهما وللعالمين بحالته الانهزامية المائعة تجاه أقدس مقدساته في العقيدة التي هي مناط عزه وسعادته في الدنيا والآخرة، فإن الحمية للَّه ولدينه وآياته هي علامة الإيمان وما تفتر هذه الحمية من

القلوب إلا وينهار بعدها كل سد وحاجز، ويتضاءل بعدها مقاومات التيار الإلحادي حتىٰ يجرف ما أمامه، فإن الحمية والغيرة الدينية يحصل بهما ثبات العقيدة وصيانتها والدفاع الصحيح عنها، فإذا فترتا حال الأمر إلىٰ خمودهما ثم موتهما.

فمن سمع الاستهزاء بآيات اللَّه وتشريعات دينه فالواجب يقضي عليه بالمدافعة أو بمقاطعة المجلس ومفارقة القوم المنافقين والكافرين، ولا يجوز له التغاضي والسكوت؛ لأن هذا أول مراحل الهزيمة والانهيار العقائدي، وقد سماه سيد قطب بالمعبر بين الإيمان والكفر علىٰ قنطرة النفاق، وهو أصدق تسمية مطابقة للواقع وموافقة للحقيقة ضد تحليلات المنهزمين بتسميتهم انهزاميتهم تسامحًا أو دهاءً أو سعة أفق أو حكمة، وطالما هدموا الدين بما يسمونه حكمة، وطالما قلبوا الحقيقة بتسميتهم الجبن والانهزام حكمة.

ومن مباحث اللفظ أن قول اللَّه سبحانه: ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾ في موضع نصب علىٰ الحال، والضمير في قوله: ﴿مَعَهُمْ﴾ عائد علىٰ المحذوف الذي دل عليه قوله: ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ﴾ أي فلا تقعدوا مع الكافرين المستهزئين، وحرف «حتىٰ» غاية لترك القعود معهم، ومفهوم الغاية أنهم إذا خاضوا في غير الكفر والاستهزاء انقطع النهي عن مجالستهم، وجاز القعود معهم، والضمير عائد علىٰ ما دل عليه المعنىٰ، أي حتىٰ يخوضوا في حديث غير حديثهم الذي هو كفر واستهزاء.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ فيه تعليل لنهيه المؤمنين عن الاستمرار في القعود بمجالس الكفار التي يكفر فيها بآيات اللَّه ويستهزأ بها، أي إنكم إن قعدتم معهم تكونوا مثلهم وشركاء لهم في الكفر؛ لأنكم أقررتموهم عليه ورضيتموه لهم، ولا يجتمع الإيمان بالشيء والاستهزاء به مع إقرار الكفر.

وهذا الحكم من اللَّه يدل علىٰ أن من رضي بالكفر فهو كافر، ومن

رضي بالمنكر يراه وخالط أهله وإن لم يباشره كان في الإثم بمنزلة المباشر، فإن إقرار الكفر بالاختيار كفر، وإقرار المنكر والسكوت عليه منكر، وهذا منصوص عليه ـ أيضًا ـ، فإن إنكار الشيء يمنع فشوه بين من ينكرونه حتمًا، فليعتبر بِهذا أهل زماننا ويتأملوا كيف يمكن الجمع بين الكفر والإيمان، أو بين الطاعة والعصيان، فإن كثيرًا من الملحدين في البلاد المتفرنجة يخوضون في آيات اللَّه ويستهزئون بها، ويقرهم علىٰ ذلك ويسكت علىٰ باطلهم من لم يصل إلىٰ درجة كفرهم لضعف إيمانه وانطفاء جمرة الحمية والغيرة الدينية من قلبه، فلا يهيج غضبه لهذا السبب.

هذا وإن اللَّه سبحانه لم يحكم علىٰ المسلمين الذين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين بمكة بأنهم مثل المشركين، وذلك لضعف المسلمين إذ ذاك وعجزهم عن الإنكار، وكونهم لم يرتاحوا للجلوس اختيارًا، بخلاف الحال في المدينة بعد الهجرة، فإن الإسلام كان هو الغالب فيها والأعلىٰ، إذ الحكم لرسول اللَّه ﷺ، فهم قادرون علىٰ الإنكار، والسامع للذم شريك للقائل إذا لم ينكر عليه بما يردعه وأمثاله، ويدخل في حكم مجالسة الخائضين في آيات اللَّه والمستهزئين بها من يعيش مع الصحف والمجلات الملحدة والخليعة، التي تنشر الإلحاد والرذيلة، فإن جميع المسلمين مسئولون أمام اللَّه عن هذه الصحف والمجلات، ولا يجوز لأحد منهم التخلي عن واجبه وتحميل المسئولية غيره من العلماء، بل يجب علىٰ الجميع إقامة الصيحات عليهم والضجات الموقفة لهم، وإرهاقهم بالتهديدات المخيفة، ومقاطعتهم عن شرائها، فإن في شرائها تشجيعًا لهم وإدخالًا لسمومهم في البيوت، وتيسير قراءتها للسفهاء والجهال مما يكون له الأثر السيئ في تربية الناشئة المسئول عنها أرباب البيوت والأسر الإسلامية، فهم بعدم مقاطعتها لم يصونوهم من شرور المنافقين عملاء اليهود الذين يسمونهم صهاينة، بل ساعدوهم علىٰ إفسادهم.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ تعليل لكونهم مثلهم في الكفر ببيان ما يستلزمه من شركتهم لهم في العذاب، والمراد بالمنافقين جنس المنافقين إلىٰ يوم القيامة، فالمخاطبون وقت النزول داخلون في هذا الوعيد دخولًا وأوليًّا، وتقديم ذكرهم لتشديد الوعيد علىٰ المخاطبين، وقد جمع اللَّه بين المنافقين والكافرين في الآخرة بالنار؛ لأنهم اتخذوهم أولياء في الدنيا محبة لهم، والمرء مع من أحب، ولخدمتهم لأعداء اللَّه ضد أولياء اللَّه، وهذا الوعيد من اللَّه يتأكد به التحذير من مجالستهم ومخالطتهم، ولا شك أن كثيرًا من الصحفيين والمذيعين قد خدموا جميع أنواع الكفار ضد الإسلام والمسلمين، وباعوا دينهم وضمائرهم لشياطين الإنس من الجمعيات الماسونية المختلفة التي تحمل أسماء وشعارات تسهل لها العمل في جميع الميادين.

فدعاة الإلحاد علىٰ اختلاف نزعاتهم، ودعاة التشكيك والسخرية بأحكام الشرع، ودعاة التبرج والتعري وإظهار مفاتن النساء والاختلاط وإخراج المرأة عن وظيفتها وأنوثتها، والعاملون علىٰ دغدغة الغرائز بالتصاوير الفاتنة والأقاصيص والمسارح الماجنة والبلاجات، ومروجو الأغاني المفسدة للقلوب، ومخرجو الأشرطة والأفلام المغرية علىٰ الفساد والمزيلة للحياء، كلهم أعوان لليهود أمة الفساد والإفساد، وكلهم ما بين ملحد كفره صريح، أو منافق مذبذب يعمل ضد ملة إبراهيم وأهلها، وإذن فالواجب علىٰ المسلمين العمل علىٰ قمعهم وإزالة نشاطهم أو التخفيف منه قدر الإمكان، وأن يبذلوا ما في وسعهم من الطاقات لإبعادهم عن تلك الأجهزة واستبدالهم بخير منهم، ولو باستعمال القوة التي يستعملها السياسيون ضد من يصادم سياستهم من هؤلاء.

فلا يجوز للمسلمين أن يغلبهم محترفو السياسة علىٰ القضاء علىٰ أعدائهم في الدين، وعليهم أن يأتوا البيوت من أبوابها حتىٰ يعجزوا ويعذروا، فإذا خابت مساعيهم اتجهوا إلىٰ العلاجات الأخرىٰ لينجحوا

في مهمتهم ويبرهنوا علىٰ وجودهم، فيقام لهم الوزن ويحسب لهم الحساب الصحيح حينئذ، وبدون هذا يتحملون مسئولية التقصير وتولية الأعداء الأدبار، وذلك أنهم مع هؤلاء في حرب فكرية خطيرة، تزيد خطورتها علىٰ الحرب العسكرية، فالواجب عليهم مقابلتهم بما يهزمهم ويردعهم ردعًا تامًّا، وبما أن النفير واجب علىٰ المسلمين إذا دهمهم العدو ليدافعوا عن بيضتهم ويحموا دينهم وحريمهم، فهؤلاء الغزاة بالأسلحة اليهودية الفكرية المخربة للضمائر، والهادمة للعقيدة والمفسدة للأخلاق، والمحدثة لتمرد النساء قد دهموهم في عقر دارهم، وغزوهم غزوًا يتغلغل إلىٰ أعماق الصدور والبيوت، فمن ينتشل العقيدة الإسلامية، ويحمي عقائد العائلات، ويصون أعراضهم من هذا الغزو الذي لم يقتصر علىٰ الثغور، بل تغلغل إلىٰ أعماق البيوت؟

إذن لابد من النفير العام للمسلمين لمقابلة هذا الغزو الخطير، وأن لا يقتصروا علىٰ دفاع فئات قليلة مبعثرة لا تقدر علىٰ الوصول إلىٰ الطليعة، فضلًا عن أن تحقق الغاية، فإنهم محرومون من الكتابة في الصحف الواسعة الانتشار لاحتكارها من أولئك المفسدين الذين جعلوا الحرية وقفًا عليهم فقط، كما أنه لا يجوز لهم الاتكال علىٰ دفاع بعض الشجعان من العلماء وطرح المسئولية عليهم فقط، بل يجب تشجيعهم بضم أصواتهم إليهم، ومقابلة الباطل وجهًا لوجه بصورة جماعية مخيفة، ورسم الخطوط الصالحة لردعهم وإيقافهم عند حدهم، والقيام بما يجبر أنصارهم علىٰ التخلي عنهم، وتشجيع المسئولين علىٰ ضربهم وإقصائهم؛ لأن المسئولين يقف أمامهم في الغالب عقبات مما يسمىٰ بالحرية التي سلطتها التعاليم الاستعمارية ضد الدين.

فإذا حصلت الانتفاضة العامة من المسلمين علىٰ معاول الهدم حمية لدينهم فقد تساعد الحاكم والمحكوم علىٰ ردع الباطل، وحصل منهم المقاومة الحربية الفكرية لدمغه وإزهاقه، كما يجب عليهم بذل أقصىٰ الجهود المالية والفكرية، واستعمال كل دهاء وقوة لتطهير

وسائل النشر وغيرها من عناصر السوء، ليحققوا المقاومة النافعة الناجحة المقصية للغزاة عن بلادهم، وإن لم يفعلوا ذلك، ولم يجودوا بالنفس والمال في تحقيقه، فجريمتهم أفظع وأشنع وأقبح من جريمة المتولىٰ عند الزحف؛ لأن المتولىٰ هناك قد أخافته الأسلحة الفاتكة المهلكة، وهو مع ذلك غير معذور من اللَّه إلا بالشروط المقيدة، وهؤلاء لم يخفهم سوىٰ رشق الأقلام وسلق الألسنة من المنافقين جنود الشياطين الذين قال اللَّه فيهم: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ولن يسلم لهم دينهم، ويأخذوا لأنفسهم وذويهم وقاية من عذاب اللَّه إلا بمقابلة الغزو الفكري بغزو أقوىٰ منه، وتخطيط قامع له تمامًا.

وهاهنا مسائل:

إحداها: قال الحاكم: دلت الآية علىٰ أن الراضي بالاستهزاء بالرسول والدين كافر؛ لأن اللَّه سبحانه قال: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾ ودلت علىٰ أن الرضىٰ بالكفر كفر، وقال السمرقندي: في هذه الآية دليل علىٰ أن من جلس في مجلس معصية، ولم ينكر عليهم يكون مثلهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية أو عملوا بها، فإن لم يقدر أن ينكر عليهم ينبغي أن يقوم عنهم حتىٰ لا يكون من أهل هذه الآية، وروىٰ ابن جرير عن الضحاك أنه قال: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين، وكل مبتدع إلىٰ يوم القيامة، وقال ابن الفراسي: استدل بعض العلماء بِهذه الآية علىٰ وجوب اجتناب أهل المعاصي والأهواء، وللمحققين في ذلك نصائح مشهورة.

ثانيها: من لم يقم عن مجالس أهل الكفر والنفاق المستهزئين بآيات اللَّه، أو مجالس الفسق والفجور فإنه يناله شرعًا مثل ما ينالهم من السلطة الحاكمة إذا أمسكتهم للعقاب، وقد روىٰ الحاكم أثرًا هو في تفسير الطبري رقم (١٠٧٠٩) مروي بسنده أن قومًا أخذوا علىٰ شراب في عهد عمر بن عبد العزيز فأمر بضربهم الحد، فقيل: فيهم

رجل صائم فتلا قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ وهذا ـ أيضًا ـ ظاهر حديث مروي عن النبي ﷺ: «**لا يحل لعين ترىٰ اللَّه يُعصىٰ فتطرف حتىٰ تغير أو تنتقل**»[1].

ثالثها: قال الحاكم: إن من له حق ملك في البقعة لا تتحتم عليه المفارقة وهذا ليس بصحيح، فإن من له حق في البقعة إما أن يخوله حقه علىٰ إخراسهم، وإلا فيجب عليه الخروج عنهم كغيره، إذ ليس في مفارقته إياهم ضياع لحقه، وعموم الآية تشمله، ولا يجوز التخصيص للنص إلا بمثله، ولا يجوز القياس مع النص، وقد حكىٰ الحاكم أقوالًا كلها ترجع إلىٰ تخصيص الآية بدون سند شرعي، وبما أنه لا يجوز التخصيص بالرأي والاحتمالات التخرصية أعرضنا عنها لأنها لا تستحق الذكر.

رابعها: هذه الآية محكمة ولا عبرة بقول من زعم نسخها بآية الأنعام (٦٩): ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ فإن هذه مؤكدة لها بالمعنىٰ، وليست ناسخة لها أبدًا، إذ معناها: إن الذين يتقون اللَّه لا يقعدون مع الكافرين والمنافقين الخائضين في آياته، فليس عليهم من حسابهم من شيء، أما الذين لا ينكرون عليهم، ولا يقومون من مجلسهم إعراضًا عنهم فإنهم لم يتقوا اللَّه، وسنذكر مزيد تفصيل لذلك في موضعه من سورة الأنعام إن شاء اللَّه.

خامسها: استشكل بعضهم كون الخطاب للمنافقين بأنهم مثل الكافرين في الكفر من غير سببية القعود معهم، فلا وجه لترتيب الجزاء علىٰ الشرط، والعدول عن كون المماثلة في الكفر إلىٰ المماثلة في المجاهرة به لا يحسن معه كون جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ تعليلًا لكونهم مثلهم بتلك المماثلة بالطريق الذي ذكر، وأيضًا فالمنهيون عن مجالسة الكافرين والمستهزئين بمكة هم

---

(١) لم أقف عليه.

المؤمنون المخلصون، لا المنافقون؛ لأن النفاق لم يظهر إلا بالمدينة، فكيف يذكر المنافقون فيما ينهىٰ عنه وقد نزل بمكة قبل أن يكونوا؟ والجواب واضح مما تقدم، وليس فيه إشكال أبدًا بحمد اللَّه، ولا يظنه إلا قليل التدبر.

فالمنافقون هم في الحقيقة كفار متسترون وخطرهم علىٰ المؤمنين أعظم من خطر الكافر الصريح.

وليس ترتيب الجزاء علىٰ الشرط يقصد به المنافقون في المثلية في قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ بل يقصد به من استمر علىٰ القعود عند قوم يكفرون بآيات اللَّه ويستهزئون بها من غير مناظرة ولا إنكار، فإنهم يكونون مثلهم مع كونهم قبل ذلك مؤمنين، وليس في الآية عدول عن كون المماثلة في الكفر إلىٰ المماثلة في المجاهرة به، بل إن المماثلة ثابتة بدون ذلك، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تأكيد لتعليل كونهم مثلهم في الكفر ببيان ما يستلزمه من اشتراكهم في العذاب، وتحذير للمؤمنين أن لا ينزلقوا في مبادئ النفاق باطمئنانهم للخوض والاستهزاء في آيات اللَّه دون إنكار ونفرة، وليس فيها ما يفهم منه العدول قطعًا، وأما قول المستشكل: «كيف يذكر المنافقون فيما ينهىٰ عنه وقد نزل بمكة قبل أن يكونوا» فهذا استشكال ليس في موضعه بتاتًا، وذلك أن المنزل علىٰ النبي ﷺ بمكة وإن خوطب به خاصة فإنه منزل علىٰ جميع الأمة، مخلصهم ومنافقهم إلىٰ قيام الساعة، فيصح دخول المنافقين وإن لم يكونوا موجودين وقت النزول، وجميع الأحكام متعلقة بالمؤمنين كيفما كانوا، ولم يكلفنا اللَّه أن نشق علىٰ قلوب العباد.

هذا وإن الآية التي نحن بصددها توضح لنا غاية الوضوح أن المنهيين عن مخالطة الخائضين هم المؤمنون، وإن توجه النص إلىٰ ذات النبي ﷺ؛ لأن اللَّه سبحانه يقول فيها: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ

غَيْرِهِۦٓ﴾ والإشارة كما أسلفنا إلىٰ الآية (٦٨) من سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ففيها أوضح دلالة علىٰ أن المنزل علىٰ محمد ﷺ منزل علىٰ جميع الأمة، وإن خوطب به فئة خاصة؛ لأن نص الآية التي نفسرها: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ فأي تفسير وأي توضيح أوضح من دلالتها بالنص علىٰ أنها منزلة علىٰ جميع الأمة؟ فلا يسوغ بعد هذا وقوع أي استشكال بفضل اللَّه ورحمته، وأما جمع المنافقين مع الكافرين فلأنهم لما شاركوهم في الكفر، واجتمعوا علىٰ الاستهزاء بوحي اللَّه في الدنيا جمعهم اللَّه في عذاب جهنم يوم القيامة.

سادسها: مدار الإعراض عن الخائضين في وحي اللَّه والمستهزئين بدينه وشريعته هو العلم بخوضهم، ولهذا عبر اللَّه عن ذلك بالرؤية تارة وتارة بالسماع كما مضىٰ، وقد أسلفنا أن جميع الأمة الإسلامية ترىٰ وتسمع ما يقوم به المنافقون هذا الزمان من أفراخ الماسونية وتلاميذ الاستعمار، مما هو مضر بالعقيدة ومفسد للأخلاق، وأنه يتحتم علىٰ جميع المسلمين معاملتهم بالقوة في أمر اللَّه والعمل الدائب علىٰ إصلاح الأوضاع بكل المستطاع مهما كلف الأمر، إما بإقصاء عناصر السوء عن وسائل البث والنشر، أو بتطويعهم حسبما تقتضيه الحال، وأن يجعلوا أموالهم وأرواحهم وقاء وفداء لدينهم بدون فتور أو قصور، وأن لا يغلبهم أهل المبادئ المادية والأغراض السياسية علىٰ نصرة وحماية ما يريدون.

قوله سبحانه في توضيح خبث طوية المنافقين وقبح مقاصدهم وأخلاقهم أنهم يترقبون الفرص للعب علىٰ الحبلين مكرًا وخداعًا بالمسلمين والكافرين، مبينًا سوء أغراضهم الدنيئة: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني أنهم ينتظرون ما يحل بكم ويتجدد لكم من نصر أو هزيمة ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بالظفر والغنيمة

﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ مظاهرين لكم ومتعاونين معكم، يريدون بذلك إسهامهم في النصيب، بحكم أنهم مؤمنون يستحقون نصيبهم مع المؤمنين، وأما ﴿وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ من اليهود أو غيرهم نصيب على المؤمنين فإنهم يدلون عليهم بأنهم هم السبب في ذلك قائلين لهم: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعني ألم نغلبكم ونتمكن من الاستيلاء عليكم بالقتل والأسر ولكنا أبقينا عليكم ومنعناكم من بطش المؤمنين؟ وذلك بأن ثبطناهم عنكم وهولنا عليهم أمركم، فأسهموا لنا بحكم أننا الموالون لكم المانعون من إيذائكم وأننا المخبرون لكم بأسرارهم.

وقيل: بل المعنى أن الكفار واليهود أرادوا أن يسلموا فحذرهم المنافقون من ذلك وبالغوا في تنفيرهم من الإسلام بأنه سيضعف أمر الرسول، ويختل شأنه، فمنوا عليهم عند حصول نصيب لهم مؤقت بأنهم قد أرشدوهم لهذه المصالح فيكون التقدير: ونمنعكم من اتباع المؤمنين والدخول في دينهم فأسهموا لنا، ويروى عن ابن عباس أن المعنى: ألم نحطكم من ورائكم فنمنعكم من تسلط المؤمنين، وهذه المعاني متقاربة أظهرها الأول ومحلها من الأعراب أن ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ أو تكون صفة للمنافقين أو نصبًا على الذم، وقال بعضهم: إن مفعوله مقدر والجار والمجرور متعلق به أي ينتظرون وقوع أمر بكم، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هي لترتيب مضمونه على ما قبلها، فإن حكاية تربصهم مستتبعة لحكاية ما يقع بعد ذلك.

وهاهنا فوائد:

أحدها: أن الله ﷻ سمى ظفر المؤمنين فتحًا عظيمًا لهم وجعله فتحًا منه سبحانه حيث قال: ﴿فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وسمى ظفر الكفار نصيبًا ولم ينسبه إليه ﷻ، تحقيرًا لهم وتخسيسًا لما نالوه من المؤمنين؛ لأن ظفر

المؤمنين أمر عظيم، تتفتح له أبواب السماء كما قال أبو تمام في فتح المعتصم (عمورية) في بلاد الروم:

فتحٌ تَفتَّحُ أبوابُ السماءِ له وتبرُزُ الأرض في أثوابها القُشُبُ

وأما ظفر الكافرين فهو حظ خسيس مؤقت، يصيبونه ثم يخسرونه.

قال في «الانتصاف»: وهذا من محاسن نكت القرآن فإن الذي كان يتفق للمسلمين فيه استئصال لشأفة الكفار واستيلاء علىٰ ديارهم وأموالهم وأرض لم يطئوها، وأما الذي يتفق الكفار فمثل الغلبة والقدرة التي تجري في بعض الحروب، لا يبلغ شأنها أن تسمىٰ فتحًا، فالتفريق بينهما ـ أيضًا ـ مطابق للواقع واللَّه أعلم. اهـ.

ولا شك أن النكتة في التعبير عن ظفر المؤمنين بالفتح وأنه من اللَّه، وعن ظفر الكافرين بالنصيب هي لإفادة أن العاقبة للمؤمنين مهما كانت الحرب سجالًا بينهم وبين أعدائهم، فهم الذين يكون لهم الفتح والاستيلاء علىٰ الأمم الكافرة، ولا يجوز تسمية ما يناله الكفار فتحًا، لأنه مؤقت، عاقبته الخزي والدمار والانهيار، فاللَّه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والفتح، ووعد الكافرين بالتعاسة التي هي الخسران والخيبة والذل والخزي والهلاك والانحطاط، قال ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾ [محمد].

فقيد اللَّه نصره المحقق للمؤمنين بحسن مقاصدهم في الجهاد للَّه، وهي أن يقصدوا بالحرب حماية الدين وتأييده ابتغاء مرضاة اللَّه، لتكون كلمته العليا، وتكون شريعته هي النافذة المحكوم بها مع مراعاة أوامره في أخذ الحذر بجميع معانيه، والاستعداد بكل المستطاع من أنواع القوة مهما تطورت، فالإيمان دائمًا هو من أسباب النصر؛ لأنه تحقيق لطاعة اللَّه، ولا يتخلف النصر الموعود إلا بتخلف عناصر الإيمان المنوط به، فلم يغلب المسلمون في هذه الأزمنة إلا

لتضييعهم المهمات من عناصر الإيمان، فقد والوا الكفار بشبهة القومية والوطنية، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحكيم الشريعة، وتركوا أخذ الحذر والاستعداد بالقوة لاعتماد بعض زعمائهم علىٰ أولياء من دول الكفر من دون اللَّه، وجاهروا بالمعاصي المخالفة للإيمان، وأكثرهم ترك الإخلاص ودعا غير اللَّه من المقبورين والمجذوبين، إلىٰ غير ذلك من أسباب الخذلان وحرمان النصر، وما ربك بظلام للعبيد.

ثانيها: في هذه الآية دليل علىٰ وجوب محبة انتصار المؤمنين، وتحريم حب خذلانهم فضلًا عن العمل عليه، فإن هذا من سمات المنافقين.

ثالثها: دلت هذه الآية علىٰ أن المنافق لا يسهم له؛ لأن في الآية إشارة إلىٰ أنهم طلبوا لما منعوا، فقالوا: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، لكن يجوز للإمام تأليف قلوبهم من الغنيمة ولو بالشيء الكثير، كما فعله الرسول ﷺ يوم حنين.

وقوله سبحانه: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي يحكم بينكم وبينهم وينصفكم منهم بحكمه العدل اللائق بإخلاصكم والفاضح لنفاقهم، ومعنىٰ ذلك أن لا يغتر المنافقون بحقن دمائهم في الدنيا لنطقهم بالشهادة وحكمة اللَّه في ذلك، فيوم القيامة لا تنفعهم ظواهرهم؛ لأن فيه تمحيص السرائر، فلا تروج دعاويهم التي يدعونها في الدنيا.

وفي تذكير اللَّه للمؤمنين بحكمه بينهم وبين المنافقين في الآخرة تسلية لهم، وتأنيس بما وعدهم به من حسن المصير وطيب المقيل، كما أن في تصوير اللَّه سبحانه لحالة المنافقين تلك الصورة المزرية المنفرة من تذبذبهم وخداعهم ولقائهم المسلمين بوجه والكافرين بوجه آخر، وتملقهم المشين، وتلونهم كالديدان ما يرفع رءوس المؤمنين ويشمخ بهم نحو الصدق والإخلاص إذا رأوا كيف يفضح اللَّه الكاذبين عادمي الإخلاص، كما أن في تنزيل اللَّه لفضائح المنافقين معجزة لنبيه عليه الصلاة والسلام.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ هذا نفي عام يشمل الحاضر والمستقبل لوروده علىٰ الإطلاق بأعم صيغ النفي أي: لن يجعل اللَّه لأعدائه الكافرين سبيلًا علىٰ أوليائه المؤمنين في الدنيا والآخرة، فلا وجه لتخصيصه في الآخرة مع عموم النص وشموله للدارين بدون تحديد، ولأن الأمر بالنسبة للآخرة لا يحتاج إلىٰ بيان أو توكيد، فتأويلها علىٰ العموم هو التأويل الصحيح؛ لأن فيه مراعاة لسابق الآية ولاحقها، ومراعاة لوعود اللَّه بنصر المؤمنين وتمكينهم في الأرض، وتبديل خوفهم أمنًا، وهذا ما دام المؤمنون عاملين بالحق، رافضين للباطل، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، محكمين لشريعة اللَّه حقًّا عاملين بالكتاب كله، كما قال سبحانه في الآية (٤٠، ٤١) من سورة الحج: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ أما إذا رضوا بالباطل، وتركوا النهي عن المنكر، وعملوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض فقد قطعوا الصلة بينهم وبين اللَّه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورىٰ].

وفي الآية رد علىٰ المنافقين وتأييس لهم فيما رجوه وأملوه وانتظروه من زوال دولة المسلمين، وفيما سلكوه من مصانعة الكافرين، وتعلقهم بهم خوفًا علىٰ أنفسهم منهم، إذا هم ظهروا علىٰ المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال سبحانه عنهم في الآية (٥٢) من سورة المائدة: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾. وقيل: إن اللَّه لا يمحو بالكفر دولة الإسلام، ولا يستبيح بيضتهم، كما جاء في صحيح مسلم من حديث ثوبان أن النبي ﷺ قال: «**سألت ربي أن لا يهلكهم بسنة عامة، ولا يسلط عليهم عدوًّا من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من أقطارها حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم**

بعضًا...»[١].

قال ابن العربي: وهذا واضح جدًّا، فإن حرف «حتىٰ» غاية، فيقتضي أنه لا يسلط عليهم عدوهم فيستبيحهم؛ إلا إذا كان منهم إهلاك بعضهم بعضًا، وقد وجد ذلك بالفتن التي وقعت بينهم فغلظت بسببها شوكة الكفار، واستولوا علىٰ أكثر بلادهم.

وأنا بحمد اللّه ممن يؤكد عموم النفي في هذه الآية وشمولها لكل شيء حسب سنة اللّه التي لا مبدل لها، فإنه سبحانه لن يجعل للكافرين سبيلًا علىٰ المؤمنين بحجة شرعية ولا عقلية يستظهرون بها إلا أبطلها ودحضها كما قال في الآية (٣٣) من سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ وأنه سبحانه لن يجعل لهم سبيلًا بحكم شرعي كما هو مفصل في كتب الأحكام، ولن يجعل لهم سبيلًا يستبيحون به بيضة الإسلام كما أسلفنا إلا إذا أخرج المسلمون أنفسهم من الإيمان بارتكاب المعاصي واللعب بشريعة اللّه، وانقلبت نياتهم من الجهاد لإعلاء كلمة اللّه وقمع المفتري عليه وتحكيم شريعته إلىٰ الجهاد للعصبية والمادية وإعزاز الكيان الفلاني علىٰ العلاني، ورفعة كرسي فلان علىٰ فلان، وتقديم مصلحة الوطن علىٰ دين اللّه وفق المخطط الماسوني اليهودي الذي من بعض قولهم: «بلادك قدمها علىٰ كل ملة...» فحينئذ تزول عنهم حصانة السماء، ويسلط عليهم من لا يرحمهم كما هي الحال، وإلا فوعد اللّه قاطع وسنته نافذة.

فمتىٰ استقر الإيمان في قلوب المؤمنين، وحققوا عبادة اللّه وتحكيم وحيه، وأخلصوا نياتهم لوجهه الكريم وتجردوا للّه في كل خطوة ونظرة، وجاهدوا أنفسهم وأعداءهم للّه؛ فلن يجعل اللّه للكافرين علىٰ المؤمنين سبيلًا.

هذا وإن العليم الحكيم حين يقرر بوحيه الكريم أنه لن يجعل

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩).

للكافرين علىٰ المؤمنين سبيلًا، فإنما يقرر حقيقة الإيمان، لا صورته ولا مجرد اسمه أو دعواه، إذ ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، فاللَّه سبحانه يخبرنا أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر، وأن حقيقة الإيمان هي التي تسود، وهي التي تعلو ولا يعلىٰ عليها، أما الصورة فليس لها قيمة ولا ثبات في مجالات الحياة، فإن الإيمان حين يتحول إلىٰ صورة ومظهر ودعاوىٰ لا حقيقة لها، فإن حقيقة الكفر تغلبه؛ لأن أكبر صورة يدحرجها أصغر طفل بحقيقة وجوده وقوته عليها، وبضعفها وعدم حقيقتها التي تجعلها ثابتة لا تتزعزع.

فهذه الجملة من ختام الآية فيها لنا تعليم عظيم من اللَّه، وبشارة كريمة يتكون منها الاطمئنان القوي الدائم، فالتعليم هو أن نسعىٰ بكل صدق وإخلاص لاستكمال حقيقة الإيمان في قلوبنا تصورًا وشعورًا، وفي جوارحنا عملًا بمقتضياته، ورفضًا باتًّا لما يخالفه أو ينقصه، وأن لا نعتمد علىٰ مجرد الانتساب والدعوىٰ، فنتمسك بالصورة والقشور دون اللباب، ولا نعتمد علىٰ قراءة أوراد ودعاء مقدسين فنفرط في جنب اللَّه تفريطًا لا يبقىٰ معه إيمان نافع، وأن لا نقتصر من ديننا علىٰ صوم وصلاة ونحوها، مع موالاة أعداء اللَّه والركون إليهم، والعمل لغير اللَّه في سائر مناهج الحياة، فنكون شاردين عن الإيمان الذي ينفعنا به رب العالمين.

بل نسعىٰ لكسب الإيمان الحقيقي بحصر الاتجاهات والأعمال للَّه في جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، حتىٰ لا يخالج شعورنا ما ينافي الإيمان، ولا يختلط معيننا الثقافي السماوي بالثقافات الأرضية الملتقطة من المزابل اليهودية، فننتكس بمركب نقص وهزيمة نفسية، ولا تشوب أهدافنا وأعمالنا أغراض نفسية، أو تقليد لأعداء اللَّه وأعدائنا فيكون إيماننا متصدعًا أو منهدمًا، فإذا كنا عرضة للنكبات تساءلنا: كيف يجعل اللَّه للكافرين علىٰ المؤمنين سبيلًا ونحن في شرود عن الإيمان، كلا ـ ومليون كلا ـ يجب أن نعرف

حقيقة الإيمان الذي إذا تدرعنا به كنا موصولين بالقوة الكبرىٰ التي لا يغلبها غالب، وإذا فرطنا به هوينا إلىٰ مكان سحيق، وأن نعرف حقيقة الكفر المبتور أهله من القوة الكبرىٰ، ونعرف مزالقه حتىٰ لا نخسر أنفسنا في هذه الحياة، ونكون بضعفنا طعمة للكافر القوي كما حصل علينا في هذه الأزمنة.

إن حقيقة الإيمان الصحيح يتكون منها قوة حقيقية روحية صائلة وثابة تسخر بما أمامها من العقبات، لا تبالي بالنهر الجارف وتياره، ولا بالجبل الشامخ وأخطاره، ولا بالبحر الزاخر وأهواله، ولا بضخامة الحديد والنار ومن يبطش بهما من كبار الدول، وذلك لارتباطها برب العرش العظيم ذي القوة القاهرة الذي أمره بين الكاف والنون، إذ يقول للشيء: كن فيكون، كما حصل لجيش سعد بن أبي وقاص يوم المدائن، ولخيل أبي العلاء في البحر، ولجيوش المسلمين عند صعود جبل المكبَّر.

فقوة الإيمان الصحيح قوة هائلة لها أكبر الأثر في نفوس أهلها وفيما يصدر عنهم من الحركات والأعمال، فهي قوة لا قبل للكفار بها مهما تضخمت قوتهم عليها وتفوقت، وهم يعرفون ذلك، ولمعرفتهم بها عملوا علىٰ تحطيم عقيدة المسلمين وإفساد تصوراتهم وإبعادهم عن وحي ربهم، حتىٰ لا تدب فيهم تلك القوة من جديد، وحتىٰ ينتشر باطلهم دون أن يجد من يزهقه، إذ لا بقاء له أمام قوة الحق وصولته مهما بلغ من القوة والضخامة، فأما إذا خلا الجو للكفر والباطل كما خططته الماسونية فإن حقيقة الكفر تغلب الإيمان الصوري الذي لا حقيقة له، وليس له وجود إلا باللفظ والكلام، فلعله اتضح لك أن تسلط الكافرين ليس علىٰ المؤمنين في الحقيقة، وإنما هو علىٰ غير المؤمنين ممن إيمانه صوري ودعواه لفظية.

إن من أوجب الواجب علىٰ المسلمين وقادتهم أصحاب الدعاوىٰ العريضة أن يتدبروا معاني قول اللّٰه سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ

عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ وينظروا في حالتهم، ويحاسبوا أنفسهم، هل هم مؤمنون ولم يتحقق وعد اللَّه وسنته فيهم ـ وهذا محال ـ أو هم ابتعدوا عن الإيمان من الأساس برفضهم ملة إبراهيم التي هي الحب في اللَّه والبغض في اللَّه، والموالاة في اللَّه والمعاداة فيه، فجعلوا الموالاة والمعاداة في سبيل الأقوام والأوطان لا في وجه اللَّه، وشردوا عن موجبات الإيمان ومقتضياته من طاعة اللَّه وتحكيم شريعته في جميع شئون الحياة واتباع ما تهواه أنفسهم، وما يشرعه الطواغيت من القوانين الوضعية الديوثية؟ بل أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وسخروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقضوا علىٰ جميع مقومات الإيمان، حتىٰ جعل اللَّه للكافرين عليهم السبيل في كثير من أوطانهم، وخصوصًا فلسطين التي تسلط اليهود عليها وما حولها من بعض حدود مصر والشام.

إن عليهم أن يصارحوا أنفسهم لينصحوها بالرجوع إلىٰ الإيمان ولا يغشوها بالتمادي في المبادئ والمذاهب العصبية المادية المستقاة من الماسونية، ثم يتساءلوا: كيف انتصرت إسرائيل؟! إن إسرائيل وغيرها انتصرت بذنوبهم التي أبعدتهم عن ولاية اللَّه، وحرمتهم من نصره، وإن تلك المبادئ والمذاهب جلبت عليهم من أبنائهم تسلط أكفر الكفرة من بلاشفة اليهود، ولا منجىٰ لهم ولا ملتجأ إلا الفرار إلىٰ قلاع الإيمان وحصنه الحصين، وقلاع الإيمان تبنىٰ في القلوب التي هي آنية اللَّه ولا تبنىٰ علىٰ الأرض والطين، لا تبنىٰ علىٰ أرض عروبة أو أرض كنانة أو الأراضي المقدسة ولا غير ذلك، مما جعلهم في هذه الحالة التي يقرر فيها مصيرهم ببلاد غيرهم وعلىٰ يد أعدائهم.

لقد جربوا النزعات والمبادئ المستقاة من الماسونية، فليعودوا إلىٰ معينهم الصافي الذي نِهل منه أجدادهم وصاروا هم المعسكر المرهوب في الأرض واللَّه سبحانه يتولىٰ الصالحين.

وقوله سبحانه في الآيتين (١٤٢، ١٤٣): ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾:

قال الراغب: الخداع إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه، والمنافقون يفعلون مثل ما يفعله المخادع تمامًا في معاملتهم للَّه ورسوله وعباده المؤمنين، وذلك لنقص عقولهم وقلة حيائهم، وعدم تعظيمهم للَّه وإجلاله وتقديره حق قدره، فهم يخادعون اللَّه كما يخادعون صبيانهم، كأن اللَّه لا يعلم سرهم ونجواهم، ولا يقدر على فضيحتهم أمام رسوله وعباده المؤمنين من الصحابة الكرام، وذلك أنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، خداعًا لرسول اللَّه ﷺ وأصحابه، فيلقون المسلمين بوجه، ويلقون الكفار بوجه، ويمسكون العصا من وسطها بِهذا التلون الخبيث.

وهم يظنون لقله عقلهم وعلمهم أن أمرهم كما راج عند الناس يروج عند اللَّه، وأن لعبهم يسري عليه، واللَّه سبحانه لا يخادع، فإنه العالم بالسرائر ومكنونات الضمائر، فهم يظنون باللَّه ظن السوء كما حكى عنهم أنهم يحلفون له يوم القيامة كما يحلفون للمؤمنين الذين خدعوهم حيث قال في الآية (١٨) من سورة المجادلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾، وقد نسب اللَّه خداعهم له تحقيرًا لشأنهم وتهوينا لأمرهم وتعظيمًا لفعلهم، وتنبيهًا على عظم الرسول والصحابة، وتفخيم شأنهم، وبيان قدرهم وعزتهم عنده ﷻ، حيث جعل معاملة المنافقين للرسول وأصحابه كمعاملتهم له سبحانه، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] فقد فسر المحققون مخادعة اللَّه بمخادعة الرسول ﷺ وأصحابه؛ لأن المعاملة كانت بين المنافقين وبينهم، وذلك لتقبيح خطتهم وتعظيم شأن الرسول والمؤمنين كما ذكرنا.

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ أي يقلب خداعهم عليهم فيعود سوء عاقبته عليهم لا علىٰ الرسول والمؤمنين، ويجوز التعبير عن سنة اللَّه في عاقبة أمرهم من حيث إنها تكون علىٰ خلاف ما يريدون وما يحبون بلفظ مشتق من الخديعة، كأنهم بخداعهم للرسول والمؤمنين يسيرون في طريق خادع يضلون فيه مطلبهم، وينتهون إلىٰ الخزي والنكال من حيث يطلبون السلامة والفلاح، وهذا يلتقي مع قول اللَّه سبحانه في أول سورة البقرة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة].

فخداعهم لأنفسهم بسوء اختيارهم لها هو عين خديعة اللَّه لهم، إذ كانت سنته تعالىٰ فيمن يعمل عملهم ما أشرنا إليه سابقًا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، فاللَّه تعالىٰ هو منزل الخداع بهم، لما أمر بقبول ما أظهروه كان هذا الأمر شرًّا عليهم، فإنهم وإن جعلهم اللَّه معصومي الدماء والأموال في الدنيا فقد أعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ولم يتركهم في العاجل من الفضيحة وإحلال البأس والنقمة والرعب الدائم الذي تكون حياتهم به دائمًا في إزعاج وإرهاص، وهو فاعل بهم يوم القيامة ما يفعله الغالب في الخداع كما جاء في الآيات (١٣-١٥) من سورة الحديد: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٥﴾.

فهكذا يفعل اللَّه بالمخادعين لرسوله وأوليائه المؤمنين؛ لأنه سبحانه هو الذي يتولىٰ الدفاع عنهم والانتقام ممن يخادعهم في الدنيا والآخرة ـ وكفىٰ باللَّه وليًّا وكفىٰ باللَّه نصيرًا ـ، فهذه الآيات وما قبلها وما بعدها شخصت لنا عددًا من سمات المنافقين البشعة الدنيئة، وهي سمات مطردة في منافقي كل زمان ومكان، يخادعون ويكذبون

ويكيدون ويغشون ويتولون أعداء المؤمنين ويتخذون لهم يدًا عندهم، يمتون بها إليهم إذا دالت الدولة لهم.

ومن معاني أن اللَّه خادعهم أنه سبحانه جعلهم يهدمون بناء الثقة بهم بأيديهم، وكأين من منافق كانت خيانته لملته ومساعدته لأعدائها عليها سببًا لهلاكه بأيدي أولئك الأعداء أنفسهم؛ لأنهم يستيقنون أنه لو كان فيه خير لكان قومه أولىٰ بخيره منهم، فإن كان قد خان أهل دينه فستكون خيانته لهم أشد، والناس يقرءون أخبار هؤلاء الأشرار في كتب التاريخ ولا يعتبرون، وهؤلاء المنافقون يكثرون وقت الفتنة، وفي حالة ضعف الأمة فيكشرون عن أنيابهم دون مبالاة؛ لأنهم انتهازيون طلاب منافع ولو علىٰ حساب دينهم وأمتهم والناس أجمعين، فيلتمسون مطامعهم وإن اقترن بها العار والذل والصغار.

ومن سمات المنافقين الواضحة أنهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ لعدم الرغبة الباعثة عليها حيث إنهم لا يرجون ثوابها في الآخرة، ولا يريدون منها تربية نفسية لزرع التقوىٰ في قلوبهم حتىٰ تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، ولا ينشدون منها الأنس بذكر اللَّه والراحة القلبية لعدم إيمانهم، فهم يتوانون عنها ولا يقومون إليها إلا متثاقلين في غاية الكسل والتكلف.

قال أبو حيان: ينبغي للمؤمن أن يتحرز من هذه الخصلة التي ذم اللَّه بها المنافقين، وأن يقبل إلىٰ صلاته بنشاط وفراغ قلب وتمهل في فعلها، ولا يتقاعس عنها فعل المنافق الذي يصلي علىٰ كره، لا عن طيب نفس ورغبة، وما زال في كل عصر منافقون يتسترون بالإسلام، ويحضرون الصلوات كالمتفلسفين الموجودين في عصرنا هذا، وقد أشار بعض علمائنا إليهم في شعر قاله، وضمنه بعض الآية فقال في أبي الوليد بن رشد الحفيد وأمثاله من متفلسفة الإسلام:

لأتباع الفلاسفة اعتقاد ... يرون به عن الشرع انحلالًا

أباحــوا كــل محظــور حــرام ... وردوه لأنفـــســهم حـــلالا
ومــا انتــسبوا إلــىٰ الإسـلام إلا ... لــصون دمــائهم أن لا تــسالا
فـــيأتون المناكـــر في نـــشاط ... ويأتــون الــصلاة وهــم كــسالىٰ

فهم لا يصلون قط في حالة غفلة الناس عنهم، وإنما يصلون علىٰ عيون الناس، ولهذا قال اللَّه سبحانه في تعداد سماتهم القبيحة الدنيئة: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة وأنهم مسلمون، فهم يتجملون للناس بأفعال الطاعة، والمراءاة فعل المشاركة من الرؤية، وهي أن يكون المرء الذي يرائيك بحيث تراه كما يراك، وروىٰ أبو زيد رأت المرأة المرآة إذا أمسكتها لترىٰ وجهها، وقرئ «يرءون» بِهمزة مشددة مضمومة قال ابن عطية: وهي أقوىٰ في المعنىٰ من ﴿يُرَآءُونَ﴾ لأن معناها يحملون الناس علىٰ أن يروهم، ويتظاهرون لهم بالصلاة وهم يبطنون النفاق.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذه الصفة الرابعة من صفات المنافقين الخسيسة المذكورة في هذه الآية، وهي علىٰ عكس صفة المؤمنين الذين يذكرون اللَّه كثيرًا، وغاية أنسهم مداومة ذكر ربهم، فيذكرونه قيامًا وقعودًا وعلىٰ جنوبهم، لا ينشغلون عن ذكره بشيء من المحبوبات الأخرىٰ؛ لأنه حبيبهم الأكبر، فالمنافقون علىٰ عكسهم، لا يذكرون اللَّه بالتسبيح والتهليل وقراءة وحيه المبارك إلا نادرًا، وذلك لاستغراقهم الأوقات في أحاديث الدنيا ولهوها ومجونها، وما أكثر أتباعهم في زماننا ممن انزرع النفاق في قلبه، فلا يألف إلا لهو الحديث من الأقاصيص والأغاني والمضحكات. وقيل: إن معناها أنهم لا يذكرون اللَّه في صلاتهم إلا قليلًا، ولكن التنصيص علىٰ كسلهم عن الصلاة يدل علىٰ ذلك، فلا حاجة إلىٰ تأويل ذكر الصفة الرابعة بذلك.

وقد احتوت هذه الآية الكريمة علىٰ كشف خبايا المنافقين وتكذيبهم في دعوىٰ الإيمان، وأن ظواهرهم تترجم للمؤمنين ما في بواطنهم من

الغش والنفاق، فابتدأت أولًا بكشف مخادعتهم للمؤمنين بإظهار الإسلام وإبطان الكفر وموالاة الكافرين في كل ما فيه ضرر علىٰ المؤمنين، ثم بذكر تثاقلهم عن الصلاة كالمكرهين عليها، فأخبرنا عن صفتهم في أشرف الأعمال وأفضلها وأنفعها وهي الصلاة التي لا يقومون إليها إلا وهم كسالىٰ عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها ولا إيمان لهم بها ولا يعقلون معناها، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: يكره أن يقوم الرجل إلىٰ الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجي اللَّه وأن اللَّه تجاهه يغفر له ويجيبه إذا دعاه، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.

قال الحاكم: وفي الآية دلالة علىٰ أن من علامات المنافق الكسل عن الصلاة، والكسل هو التثاقل عن الشيء لمشقته، فهذه العلامة في صفة ظواهرهم.

والصفة الثالثة: هي من صفات بواطنهم الفاسدة وهي أنهم يراءون الناس: أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة، ليحسبهم من رآهم مؤمنين، فليست صلاتهم عن إخلاص وطواعية للَّه واقتداء بنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن صدق ومحبة، ولهذا يتخلفون كثيرًا عن الصلاة التي لا يراهم فيها أحد، كما ثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أثقل صلاة علىٰ المنافقين صلاة الفجر وصلاة العشاء، ولو يعلمون ما فيهما من الأجر لأتوهما ولو حبوًا، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلًا فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلىٰ قوم لا يشهدون الصلاة فأحرِّق عليهم بيُوتَهم بالنار**»(١).

وفي نص آخر: «**لولا ما في بيوتهم من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١).

(٢) رواه أحمد (٢/٣٦٧).

وروىٰ الحافظ أبو يعلىٰ عن عبداللَّه قال: رسول اللَّه ﷺ: «**من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه ﷻ**»(١).

والصفة الرابعة: قلة ذكر اللَّه كما أوضحناه زيادة علىٰ الصفات الأولىٰ في الآيات قبلها، وصفاتهم التي في سورة البقرة وما يأتي من صفاتهم في سورة التوبة وغيرها.

وقد ألقت الماسونية بثقلها علىٰ العالم الإسلامي عامة والعربي بصورة خاصة؛ لتكثر في محيطهما من المنافقين الذين يستحسنون مبادئ الكفر ويستهجنون مبادئ الإسلام ويسخرون بالنصوص، ويجعلون أعمالهم لغير وجه اللَّه، ويظاهرون الكفار دون المؤمنين بشبهة القوميات والوطنيات، ويعطلون حكم الشريعة وحدود اللَّه باعتذارات أقبح من فعلهم الكافر، ويبيحون ما حرم اللَّه بشبهة التطور والتمدن، ويندّدون بالجهاد الشرعي وأهله، ويحشرون جميع الأوقات في اللهو واللعب، ويضيعون الطاقات بما يضر الدين ويهدمه، ويفسد الأخلاق، ويغشون المسلمين بالتظاهر بالصلاة يوم الجمعة فقط رياء وسمعة، وبإقامة الحفلات الشكلية للإسراء والمعراج خداعًا ومكرًا، ويعملون علىٰ تربية مادية إلىٰ غير ذلك مما هو خدمة للكفر عامة ولليهود خاصة.

فعلىٰ كل مسلم أن لا ينخدع بالمظاهر والدعاوىٰ، بل ينظر في الأعمال ويطبقها علىٰ أوصاف المنافقين التي لم يذكرها اللَّه إلا للمعرفة والاعتبار، والنظر إلىٰ الحقيقة لا إلىٰ الصورة، حتىٰ يتميز الخبيث من الطيب، فلا تجمعهم مصلحة مادية أو وطنية مع حصول العداوة الدينية، بل يتباعدون وتنبتر معهم كل علاقة منافية، وإلا فما الفائدة في تشخيص اللَّه للمؤمنين قبح صفات المنافقين وسوء طواياهم

(١) رواه أبو يعلىٰ (٥١١٧).

وخيانتهم له ولوجهه ودينه، ومظاهرتهم لأعدائه؟! إن المسلمين لا ينتفعون أبدًا في دينهم وسياستهم ممن يراءون الناس ولا يذكرون اللَّه إلا قليلًا، وإنهم لا ينتفعون أبدًا ممن لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالىٰ، وإنهم لا ينتفعون أبدًا في دينهم وسياستهم ممن يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ويصرحون علنًا أن المسيحي النصراني العربي خير وأفضل من المسلم غير العربي، وأنهم لا ينتفعون من المذبذبين أصحاب الوجهين حملة النفوس الضعيفة الخسيسة، فليس لهم سوىٰ منابذتهم منابذة صريحة كاملة صارمة لا تقبل دغدغة العواطف أبدًا، بل هي علىٰ حد قول الشاعر:

فإمَّا أن تكون أخي بصِدقٍ ... فأعرفُ منك غثِّي مِن سميني
وإلا فاطَّرِحْنِي واتَّخذني ... عدوًّا أتقيكَ وتتَّقيني

إن اللَّه العليم الحكيم الذي أكثر من وحيه المبارك من إنزال ما يفضح المنافقين في جميع الميادين مما لم ينزله في حق الكفار الصرحاء تحذيرًا لعباده المؤمنين من الوقوع في شراكهم المهلكة؛ لأنه سبحانه يعلم بعلمه الأزلي فظاعة أضرار المنافقين علىٰ المسلمين، فلا يجوز لهم التساهل في أمرهم أبدًا، بل يحرم عليهم توليتهم مركزًا سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو ثقافيًّا أو اجتماعيًّا لحملهم المؤهلات المادية أو الشهادات العلمية الصورية، فإن هذا تسليط لهم علىٰ المؤمنين، ولن يربح المقرب لهما والمحتضن لهم بسبب ذلك أبدًا كما قيل:

مَن استنامَ إلىٰ الأشرار نام وفي ... قميصه منهمو صِلٌّ وثعبانُ

وقوله سبحانه في الآية (١٤٣) عن المنافقين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ فيه إخبار عن تقلبهم وعدم صمود قلوبهم أو ثبوت أقدامهم، لأنه ليس لهم مبدأ ولا عقيدة فقوله سبحانه: ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ أي مقلقلين متحيرين فيما يعلنونه من مكنونات صدورهم الخبيثة، وقد ورد في الحديث عنه ﷺ: «مثل

المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلىٰ هذه مرة وإلىٰ هذه مرة، لا تدري أي الغنمين تتبع»[1] أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين، والمعنىٰ أنهم ليسوا مؤمنين مخلصين، ولا مشركين مصرحين، وقال مجاهد: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني إلىٰ أصحاب محمد ﴿وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اليهود. قال الراغب: الذبذبة حكاية صوت الحركة للشيء المعلق، ثم استعير لكل اضطراب وحركة.

وحقيقة المنافقين أنهم لا يخلصون في الانتساب إلىٰ واحد من الفريقين المؤمنين أو اليهود؛ لأنهم انتهازيون يطلبون المنفعة، ولا يدرون لمن تكون العاقبة، فهم يميلون إلىٰ اليمين تارة وإلىٰ الشمال تارة، فمتىٰ ظهرت الغلبة التامة لأحد الفريقين ادعوا أنهم منه كما أخبرنا اللَّه عنهم في الآية التي قبل هاتين الآيتين.

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أن السبب في ذلك أن الفعل يتوقف علىٰ الداعي، فإذا كان الداعي إلىٰ الفعل هو الأغراض المتعلقة بأحوال هذا العالم كثر التذبذب والاضطراب؛ لأن منافع هذا العالم وأسبابه متغيرة سريعة التبدل، وإذا كان الفعل تبعًا للداعي والداعي تبعًا للمقصود، ثم إن كان المقصود سريع التبدل والتغير لزم وقوع التغير في الميل والرغبة، وربما تعارضت الدواعي والصوارف فيبقىٰ الإنسان في الحيرة والتردد، أما من كان مطلوبه في فعله إنشاء الخيرات الباقية، واكتساب السعادات الروحانية، وعلم أن تلك المطالب أمور باقية بريئة من التغير والتبدل لا جرم كان هذا الإنسان ثابتًا راسخًا، فلهذا المعنىٰ وصف اللَّه تعالىٰ أهل الإيمان بالثبات فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ [الفجر] اهـ.

وعلىٰ كل حال فإن في إخبار اللَّه عن حالتهم بالذبذبة مذمة قبيحة

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨٤).

فظيعة شنيعة، يستحقون بها الرفض والإبعاد بكامل المذلة والانتقاص، بل الاحتقار من المؤمنين، لأن موقفهم يدل علىٰ ما تحمله نفوسهم من الضعف الذاتي الذي يجعلهم غير قادرين علىٰ اتخاذ موقف حاسم إلىٰ هؤلاء أو مع هؤلاء، بل غير قادرين علىٰ المصارحة برأيهم وعقيدتهم التي جرهم إليها ضعف نفوسهم؛ لأنهم مهزوزون من داخل نفوسهم، ومن كانت هذه حاله فمن العار والشنار أن يحتضنه أحد أو يثق به في أي حال من الأحوال، ولكن مع الأسف نجد شطرًا من المرشحين في الانتخابات والفائزين بأغلبية الأصوات قد التصقت بهم أوصاف المنافقين الذين أخبرنا اللَّه عنهم بأوصافهم، وقال لنا فيهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] ولكن الذين لا يلتفتون إلىٰ القرآن لا ينتفعون بهدايته، فيرشحون أعداءهم للقيام بمهماتهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ يعني أن الذي حقت عليه كلمة اللَّه بالضلالة، واستحق أن لا يعينه اللَّه بهداية، فلن تجد له سبيلًا موصلًا إلىٰ الحق والصواب، فضلًا عن أن تهديه إليه. والخطاب عام يشمل كل من ليس له استعداد لتلقي الهداية وقبولها لطغيان الأنانيات والأغراض النفسية، فإنها تعميه عن الحق، وتمنعه من قبوله، وتحرمه هداية اللَّه؛ لأن اللَّه لا يهدي الشارد المتكبر عنه، وإنما يهدي المنيب إليه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

إن من سنة اللَّه الكونية أنه قضىٰ أن تكون أخلاق البشر وأفعالهم باختيارهم؛ ليصح تكليفهم بالأوامر والنواهي ويكون جزاؤهم عليها، فخلق فيهم القدرة والإرادة علىٰ اختيار ما يريدون، وزودهم بالأحاسيس النافعة، وألهمهم معرفة الخير والشر، وأكرمهم بتوضيح الهداية فيما أنزله من وحيه، قال ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد] أي طريق الخير والشر وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس] فمن أناب إلىٰ اللَّه واختار سبيل الهداية - صراطه المستقيم - وفقه اللَّه لسلوكه ونور بصيرته وزاده رشدًا وهداية،

كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]، وقال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] ومن اتبع هواه وجنح إلىٰ مطامعه وشهواته وأعرض عن وحي اللَّه؛ فاللَّه يزيده غواية ويزيغ قلبه كما زاغ عن وحيه، فقد قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥] ويسلط اللَّه الشياطين علىٰ الهاربين عن صراطه والمعرضين عن وحيه كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم].

وقد أسلفنا ما يشبه ذلك، ولكن أعدناه ليتوضح أن الإنسان ليس مجبورًا علىٰ أفعاله، وأنه لا يجوز له الاحتجاج بذلك، وسيأتي مزيد التفصيل في آخر سورة الأنعام إن شاء اللَّه، وعند الكلام علىٰ قوله سبحانه في آخر سورة النحل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ [النحل: ١٠٤].

فالذي لا يؤمن بآيات اللَّه كيف يهديه اللَّه؟ ومن لم يهده اللَّه فلن تجد له هاديًا، ولا شك أن المنافقين هم من جملة الذين لا يؤمنون باللَّه، وقد سبق في أوائل سورة البقرة أن هداية القرآن هي للمؤمنين بالغيب المتدرعين بالتقوىٰ ويروىٰ عن رسول اللَّه ﷺ أنه كان يضرب مثلًا للمؤمن والمنافق والكافر كمثل ثلاثه ذهبوا إلىٰ نهر، فوقع المؤمن فقطع، ثم قطع المنافق حتىٰ إذا كاد يصل إلىٰ المؤمن ناداه الكافر أن هلم فإني أخشىٰ عليك، وناداه المؤمن أن هلم فإن عندي وعندي، فما زال يتردد بينهما حتىٰ غرق.

وتقدم في سورة البقرة ما ضربه اللَّه لهم من الأمثال العجيبة.

فإن قيل: إن قوله سبحانه: ﴿لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ يقتضي ذمهم علىٰ ترك طريقة المؤمنين وطريقة الكافرين، وذلك يقتضي أن اللَّه ما ذمهم علىٰ تركهم طريقة الكفار وأنه غير جائز.

فالجواب: أن اللَّه ﷻ ذمهم علىٰ ترك الطريقين؛ لأنهم لم يكونوا

مؤمنين صادقين، ولا كفارًا صريحين معروفين، وطريقة الكفار وإن كانت خبيثة ملعونة إلا أن طريقة المنافقين أخبث منها وألعن، لذلك نجد اللَّه ذم الكفار في أول سورة البقرة بآيتين فقط، وذم المنافقين في بضع عشرة آية، وأكثر من ذمهم وفضيحتهم في سور كثيرة، وما ذاك إلا أن طريقة النفاق أخبث وأخطر من طريقة الكفار، فهو ﷻ إنما ذمهم لا لأنهم تركوا الكفر، بل لأنهم عدلوا عنه إلىٰ ما هو أخبث منه وأخطر.

فائدة: قرأ أبو جعفر «مدبدبين» بالدال المهملة، كأن المعنىٰ أخذتهم تارة بدبة وتارة في دبة، فليسوا بماضين علىٰ دبة واحدة، والدبة هي الطريقة. ففي حديث ابن عباس ﵄: «اتبعوا دبَّة قريش ولا تفارقوا الجماعة»، ويقال: دعني ودبتي أي طريقتي وسجيتي، وهذه القراءة وإن كان معناها صحيحًا فالقراءة الأولىٰ هي المشهورة والجديرة بالتعويل.

ومن مباحث اللفظ أن انتصاب «مذبذبين» علىٰ الحال من فاعل «يراءون» أو فاعل «ولا يذكرون» وقيل: إنه منصوب علىٰ الذم بفعل مقدر.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (١٤٤):** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾:

لما كان هذا الوصف الشنيع الذي هو موالاة الكافرين من دون المؤمنين من أوصاف المنافقين البارزة، وتقدم ذم اللَّه لهم بذلك نَهَىٰ عباده المؤمنين عن مشابَهتهم في هذا الوصف الخطير الوَقْع، وقد كان للأنصار مع بني قريظة رضاع وحلف ومودة فقالوا للرسول ﷺ: يا رسول اللَّه من نحالف؟ فقال: «**حالفوا المهاجرين**»[(١)]، فنزلت هذه الآية لنهيهم عن موالاة الكفار عمومًا من دون المؤمنين، ويدخل فيهم

---

(١) لم أقف عليه.

المنافقون المعروف نفاقهم؛ لأن كفرهم يزيد علىٰ كفر الكافرين الأصليين بالردة والمراوغة الخطيرة.

ويدخل في معنىٰ التولي مصاحبتهم ومصادقتهم وإسرار المودة إليهم، ومناصحتهم وإفشاء أسرار المؤمنين إليهم، ومن أفظع وأشنع أنواع الموالاة والتولي تفضيل أنواع الكافرين بصلة قرابة أو رحم علىٰ المسلمين، وأشنع من ذلك وأفظع تفضيل أي نوع من أنواع الكفار علىٰ المؤمنين بصلة قومية عصبية أو وطنية نفعية ونحو ذلك من المذاهب الماسونية والقومية.

وقد أسلفنا الكلام علىٰ قوله سبحانه في الآية (٢٨) من سورة آل عمران ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي يحذركم بطشه وعقوبته في ارتكابكم نهيه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي حجة عليكم في عقوبته لكم بموالاتكم إياهم، وليس المراد في الموالاة مخالفتهم بالخلق الحسن الذي قد يكون تأليفًا لهم، وإنما المراد بالنهي موالاتهم في كل ما يضر بإخوانهم المؤمنين من الأنواع السالفة وغيرها، وعن صعصعة بن صوحان أنه قال لابن أخ له: «خالق المؤمن وخالق الكافر، فإن الفاجر يرضىٰ منك بالخلق الحسن، وإنه يحق عليك أن تخلص للمؤمن».

ومن أخطر أنواع موالاة الكفار ضد المؤمنين رفد الدول الكافرة وإسعافها بالمال والمعونة وهي تنكل بالمسلمين، وفتح الممرات المائية لها، وتسهيل الطرق وهي تحارب المسلمين، ونحو ذلك مما تفعله الدول التي تدعي الإسلام وهي لا تعمل له عقائديًا.

هذا وإن توجيه الاستفهام الإنكاري إلىٰ الإرادة دون تعلقها، حيث لم يقل «أتجعلون لله» بل قال: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ هو للمبالغة في إنكار ذلك وتهويل أمره ببيان أنه لا يصدر عن العاقل إرادته، فضلًا

عن صدور نفسه، كما في قوله تعالىٰ في الآية (١٠٨) من سورة البقرة: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

وقال ابن عطية: خطابه للمؤمنين يدخل فيه بحكم الظاهر المنافقون المظهرون للإيمان في اللفظ رفقًا بهم وهو المراد بقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ﴾، إن هذا التوفيق إنما هو لمن ألم بشيء من العمل المؤدي إلىٰ هذه الحال، والمؤمنون المخلصون ما ألموا بشيء من ذلك، ويقوي هذا المنزع قوله تعالىٰ: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: والمؤمنون العارفون المخلصون غُيَّب عن هذه الموالاة، وهذا لا يقال للمؤمنين المخلصين، بل المعنىٰ يا أيها الذين أظهروا الإيمان والتزموا لوازمه. اهـ.

وفي الآية دليل علىٰ أن الكافر لا يستحق علىٰ المسلم ولاية بأي وجه، حتىٰ ولو كان والدًا، وأن لا يستعان بذمي في أمر يتعلق به نصرة أو ولاية كما مضىٰ في قوله. ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً﴾ [آل عمران: ١١٨]، فكيف بمن ينتخبون الشيوعيين أكفر الكفرة لينوبوا عن الأمة في مجلس الحكم؟! إن هذا ردة عن دين الإسلام، وقوله سبحانه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ تقدم معناه التهديدي، والسلطان هو الحجة الواضحة الظاهرة، وقيل: هو القهر والقدرة ههنا.

وقال ابن عباس وغيره من أئمة التابعين. كل سلطان في القرآن حجة، وقيل: هو من السليط وهو دهن الزيت لإضاءته؛ لأن الحجة من شأنها أن تكون نيرة.

وفي «البصائر»: إنما سمىٰ الحجة سلطانًا لما يلحق من الهجوم علىٰ القلوب، لكن أكثر تسلطه علىٰ أهل العلم والحكمة.

قال الفراء: والسلطان أنث وذكر، وبعض العرب يقول: قضت به عليك السلطان، وقد أخذت فلانًا السلطان، والتأنيث عند الفصحاء أكثر. اهـ، قال أبو حيان فمن ذكَّر ذهب به إلىٰ البرهان والاحتجاج، ومن أنَّث ذهب به إلىٰ الحجة، وإنما اختير التذكير هنا في الصفة

وإن كان التأنيث أكثر؛ لأنه وقع الوصف فاصلة، فهذا هو المرجح للتذكير علىٰ التأنيث، وقال ابن عطية: والتذكير أشهر، وهي لغة القرآن حيث وقع، وهذا مخالف لقول الفراء.

ومما ينبغي تكرار التنبيه عليه موقف المسلمين من أهل هذه الردة الجديدة التي أحدثتها التعاليم الماسونية حتىٰ كونت ردة دخلت أكثر بيوت المسلمين وامتزجت بالمجتمعات الإسلامية، وأهلها بعيدون عن الإسلام بما تقمصوه من المبادئ والمذاهب الهادمة للعقيدة والأخلاق، كالقومية والبعثية وفروع الشيوعية مما يلتقي بعضهم مع بعض في شرك التعطيل ورفض حكم اللَّه وحدوده وإن اعترف بعضهم باللَّه اعترافًا لفظيًّا تخالفه أفعاله، فهؤلاء أخطر أنواع المنافقين والكافرين، ولا يجوز للمؤمنين أن يتخذوهم أولياء بجميع المعاني التي مرت، ولا أن يركزوهم في أي وظيفة أو يرشحوهم لأي قيادة فكرية أو عسكرية أو في المجالس النيابية وغيرها، فإن هذا مصادم للعقيدة ومخالف لدين اللَّه من الأساس.

وقوله سبحانه في الآيتين (١٤٥، ١٤٦): ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾

الدرك هو قعر الشيء كالبحر والحفرة وغيرهما، قال ابن عباس والضحاك: الدرك لأهل النار كالدرج لأهل الجنة، إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض، والدركات بعضها أسفل من بعض، وقال ابن مسعود وأبو هريرة: هي توابيت من حديد متعلقة في قعر جهنم، وقد أسلفنا أن النار سبع دركات أولها جهنم، ثم لظىٰ ثم الحطمة، ثم السعير ثم سقر، ثم الجحيم ثم الهاوية. وقال ابن عمر: أشد الناس عذابًا يوم القيامة المنافقون ثم من كفر من أهل المائدة وآل فرعون،

وتصديق ذلك في كتاب اللَّه هذه الآية في المنافقين وقوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، وقوله: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وإنما كان المنافق أشد عذابًا من غيره من الكفار؛ لأنه مثله في الكفر، وضم إلىٰ الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله، والمداجاة وإطلاع الكفار علىٰ أسرار المؤمنين، فهو أشد غوائل من الكفار وأشد تمكينًا من أذىٰ المسلمين، وإنما كانوا في الدرك الأسفل من النار؛ لأن أرواحهم وعقولهم أسفل الأرواح والعقول، ونفوسهم أخس الأنفس وأحطها، فلهذا كانوا جديرين بأسفل دركات النار، وهي منزلة لعينة متفقة مع مذهبهم المادي الانتهازي المنحط عن المعارج الروحية، والملتصق بالتراب، فإنهم لما أخلدوا إلىٰ المطامع الأرضية أثقلتهم حتىٰ هبطت بهم إلىٰ أسفل النار.

وروىٰ الترمذي في جامعه في باب ما جاء في صفة قعر جهنم عن الحسن قال: قال عتبة بن غزوان علىٰ منبر البصرة: إن النبي ﷺ قال: «**إن الصخرة العظيمة لتلقىٰ من شفير جهنم، فتهوي فيها سبعين عامًا وما تفضي إلىٰ قرارها**»(١).

وكان عمر يقول: أكثروا ذكر النار فإن حرها شديد، وقعرها بعيد، وإن مقامعها حديد.

روىٰ الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ويلٌ وادٍ في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يصل إلىٰ قعره**»(٢).

وروي عن أبي هريرة في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ قال: «الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم». وروىٰ ابن أبي حاتم عن ابن مسعود من عدة طرق

---

(١) رواه التِّرمذي (٢٥٧٥).
(٢) رواه التِّرمذي (٣١٦٤).

أنه قال: «هم في توابيت من حديد مغلقة عليهم» وهذا جزاؤهم عند اللَّه الذي يجزي كل نفس بما كسبت؛ لشدة ضررهم علىٰ الإسلام والمسلمين.

ومن نظر في أحوال أفراخ الماسونية وتلاميذ الاستعمار، وما جروه من الفتنة المزخرفة التي كسبوا بها أولاد المسلمين وأبعدوهم عن دينهم، وجعلوهم يستهزئون به ويسخرون من آبائهم، ويلصقون بالمؤمنين كل وصمة فاجرة، ويزعمون أن الدين لا يصلح للحياة ولا للسياسة، بل ولا يجوز له أن يتدخل في الحكم والسياسة، ويصرحون بأن أحكامه قاسية لا تناسب الإنسانية، ولا شك في أن خطة هؤلاء المنافقين أكفر من خطة سابقيهم من كل منافق، وقد سلطوا معاول الهدم علىٰ العقيدة باسم القوميات والتحمس لها، حتىٰ جعلوها الوشيجة الأولىٰ هي والنزعات الوطنية، وأخذوا يفخرون بقدمائهم من الفراعنة وغيرهم.

ومن المعلوم أن الإسلام قد قطع العلاقة بين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين أبيه كما قطع العلاقة قبله بين نوح وابنه وزوجته، وبين لوط وزوجته، وبين أصحاب محمد ﷺ وبين أقاربهم من أشراف العرب، فكيف لا يقطع ما بيننا وبين الكفار من الفراعنة سابقًا، ومن اليهود والنصارىٰ والدروز ونحوهم لاحقًا؟! فإن الفرعونية ليست دينًا ولا مذهبًا خلقيًا، وإنما هي عنصر تاريخي فيه الكفر والظلم والضلال، ثم إنه من أوجب الواجب علىٰ المؤمن المحمدي أن يجعل العمل لدينه هو الأساس المقدم والمفضل علىٰ كل شيء مهما كان، فمن جعل العمل للقوميات والأوطان، وزعم أن مصلحتها لا تتعارض مع الدين فهو مفتر علىٰ اللَّه وخارج من الإيمان مرتد عن الإسلام.

وكما سلطوا معاول الهدم علىٰ العقيدة فقد سلطوها علىٰ الأخلاق وجميع مقومات الإنسانية الصحيحة مرتكزين علىٰ خطة «لابارك» و «دارون» السخيفة المخالفة للعقول فضلًا عن النصوص، والتي يكذبها البحث العلمي والمشاهدات المحسوسة في الحفريات والآثار،

وعلىٰ نظرية اليهودي «فرويد» ومن علىٰ شاكلته من أصحاب الوهم الكبير الذي يسمىٰ «علم النفس» وما يحتوي عليه من الأفكار الخاطئة والمسلك الحيواني الداعي إلىٰ تعاطي الجنس حتىٰ بين الصغار بشبهة التنفيس عن الكبت، أو تهذيب الغريزة الجنسية مما هو جناية علىٰ فطرة اللَّه ودينه، وما يشاع ويذاع تحت هذه الشبهة الملعونة من أحاديث الغرام ووسائله، وتأوهات المغرمين والمغرمات، وتماوت المتهالكين والمتهالكات من الممثلين والممثلات، والسامعين والسامعات، وما يحدث ذلك من تفكك هدام في كيان الأسر حين يحل ضيفًا ثقيلًا في كل بيت عن طريق المذياع والتلفاز، ويفرض نفسه سلطة ثانية إلىٰ جانب سلطة الوالدين حتىٰ يقضي عليهما ويكسب أبناءهما وبناتهما، ويصور لهم أنهم ينتمون إلىٰ جيل رجعي لا يعرف الحياة والتقدم، حتىٰ يحصل من هذا السيل الجارف تحطيم القيم والأخلاق، وقلب الرذيلة إلىٰ فضيلة، والسخرية بالفضيلة وتسميتها جمودًا وتزمتًا ووحشية ورجعية، إلىٰ غير ذلك مما يهزم العقول الفاقدة للإيمان الصحيح.

وإلىٰ جانب ذلك الصحافة التي سمتها اليهود «صاحبة الجلالة» وحاطتها بهالة من القداسة، تسمح لأي مدسوس علىٰ قومه أو فاسق أو مارق مريض القلب واللسان أن يلفق من الأضاليل ما يريد وما يراد له، وأن يدسها علىٰ عقول السذج من الأحداث والأغرار والحمقىٰ من ضعاف العقول باسم العلم والثقافة والحرية والتمدن، لترويج الباطل بين الناس حتىٰ يصبح سوطًا يلهب ظهر كل حر، ومقراضًا يقطع عرض كل ذي خلق أو دين، ويجعله سخرية لذوي الأغراض الدنيئة، ويتمكن بذلك المفسدون والعابثون من الظهور في الأشرطة والإذاعة، حتىٰ يصبحوا ملء العيون والآذان، لا يرىٰ الناس إلا صورهم ولا يسمعون إلا أصواتهم.

وزد علىٰ ذلك ما يروجونه من أنه لا يمكن اقتباس صناعات الغرب

دون الانطباع بثقافته وأخلاقه، كأن التقدم الصناعي حرام علينا ما دمنا متمسكين بديننا حتىٰ ننقل مع العلم الصناعي فجور الغرب وإلحاده ودعارته وانحلاله، وقد نجح المنافقون المتفرنجون في ذلك، فمتىٰ نطهر مجتمعاتنا من النفاق الذي كشف اللَّه لنا أوصاف أهله منذ فجر الإسلام؟! ومتىٰ نعامل المنافقين بما أوجب اللَّه علينا؟!

وقوله سبحانه: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي لا يحصلون علىٰ أحد يمنعهم من عذاب اللَّه أو ينقذهم منه أو يشفع لهم في رفعه أو تخفيفه أو تبديله من الدرك الأسفل، فهم محرومون من كل ولاية أو شفاعة نافعة، وكما أنهم محرومون في الآخرة من الإنقاذ من العذاب أو تخفيفه فكذلك هم في الدنيا محرومون من كل نصير ومعين إذا قام المؤمنون بتطهير مجتمعهم منهم، ولم ينخدعوا بهم أو يتخاذلوا في قمعهم أو يختلفوا فيهم فيكونوا فئتين كما أسلفنا في تفسير الآية (٨٨) من هذه السورة، وقد قال اللَّه سبحانه في الآيات (٦٠ ٦٢) من سورة الأحزاب: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

فهي سنة اللَّه في نصر عباده المؤمنين المخلصين وخذلان أعدائهم إلىٰ الأبد، والخطاب ليس خاصًا بالرسول ﷺ، بل هو عام لكل من يصلح له إلىٰ يوم القيامة، ولكن المصيبة العظمىٰ والداهية الدهياء جمود بعض المسلمين وغفلتهم وتقصيرهم عن واجب دينهم في رفض المنافقين، وقمعهم واغترار بعضهم بملق المنافقين وانحياز البعض الآخر لهم، وتشجيعهم علىٰ التمركز بالانتخاب أو بالتأييد، وكل هذا من انطفاء الجمرة الدينية لعدم تدبر القرآن والتأثر بتعاليمه القويمة، قال اللَّه سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾.

وعن ابن عباس قال: من تعلم كتاب اللَّه ثم اتبع ما فيه، هداه اللَّه

من الضلالة في الدنيا، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وفي رواية قال: من اقتدىٰ بكتاب اللَّه لا يضل في الدنيا ولا يشقىٰ في الآخرة، ثم تلا هذه الآية ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]. رواه رزين.

وروىٰ مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من نبي بعثه اللَّه في أمته قبلي إلا كان له حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»(١).

وروىٰ البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء**»، قيل: يا رسول اللَّه وما جلاؤها؟ قال: «**كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن**»(٢).

ومن المعلوم أن الجهاد بالقلب لا يتصور إلا ببغضهم للَّه ومعاداتهم للَّه، ومقاطعتهم هجرًا في الكلام وهجرًا في المعاملة، وبدون هذا فلا يحصل الجهاد القلبي للمنحرفين عن دين اللَّه.

وروىٰ الترمذي والدارمي بإسناد فيه مقال عن الحارث الأعور عن علي أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ألا إنها ستكون فتنة**» قلت: ما المخرج منها يا رسول اللَّه؟ قال: «**كتاب اللَّه فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه اللَّه، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضله اللَّه، وهو حبل اللَّه المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق من كثرة الترداد،**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البيهقي في «الشُّعَب» (٢٠١٤).

ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتىٰ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢] **من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلىٰ صراط مستقيم»**(١) وهذا الحديث صحيح المعنىٰ، وله شواهد تقويه.

وأما المروي في الصحيحين من قوله ﷺ: **«أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتىٰ يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»**(٢)، فقد قال بعض الشراح عنه: أنه مخصوص بزمانه ﷺ لإطلاعه من اللَّه علىٰ بواطن المتصفين بِهذه الخصال، فأخبر عليه الصلاة والسلام أصحابه بأماراتهم ليحترزوا منهم ولم يعينهم بأشخاصهم حذرًا من الفتنة وارتدادهم جهرًا ولحوقهم بالكفار ـ.

وقال بعضهم: ليس بمخصوص ولكنه مؤوَّل بمن استحل ذلك، أو المراد أن من اتصف بِهذه الخصال فهو شبيه بالمنافقين الخلص، وقد أطلق عليه الصلاة والسلام النفاق علىٰ من اتصف بها تغليظًا وتهديدًا له، وقال بعضهم: إن هذا في حق من اعتاد ذلك، لا من ندر منه حصوله، أو هو منافق في أمور الدين عرفًا؛ لأن المنافق في العرف يطلق علىٰ كل من أظهر خلاف ما يبطن مما يتضرر به وإن لم يكن إيمانًا وكفرًا، وقد أسلفنا في تفسير الفاتحة أن الكذب في أمور الدين والعقيدة نفاق وفي أمور الدنيا خيانة واللَّه أعلم.

وقوله سبحانه في أمر عقوبة المنافقين: **﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٤٦﴾** الاستثناء من عقوبة المنافقين للذين تابوا من النفاق توبة صحيحة يعقبها صلاح أعمالهم والثبات علىٰ الصلاح، والاعتصام

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

باللَّه الذي هو الاستمساك به وبوحيه المبارك، وبحيث لا يكون لهم ملجأ ولا ملاذ إلا اللَّه سبحانه، ثم إخلاص دينهم للَّه بحيث لا يبتغون بعمل الطاعات إلا وجه اللَّه سبحانه، ولما كان المنافقون متصفين بنقائص الكفر وخسائس الصفات من الكفر الخفي غير الصريح وفساد الأعمال والموالاة للكفار، والاعتزاز بهم والاعتماد عليهم، ومراءاة المؤمنين ومخادعتهم شرط اللَّه سبحانه في توبتهم ما يناقض تلك الأوصاف القبيحة كلها، وهي التوبة الصادقة الخالصة من النفاق، المحتوية علىٰ بقية الأوصاف من حيث المعنىٰ.

ثم إنه سبحانه فصل ما أجمله فيها، وهو الإصلاح للعمل المستأنف المقابل لفساد أعمالهم الماضية، ثم الاعتصام باللَّه في المستقبل، وهو المقابل لموالاة الكافرين والاعتماد عليهم في الماضي، ثم الإخلاص لدين اللَّه المقابل للرياء الذي كان لهم في الماضي، ثم بعد تحصل هذه الأوصاف جميعًا أشار إليهم بأنهم مع المؤمنين، ولم يحكم عليهم بأنهم المؤمنون ولا من المؤمنين وإن كانوا قد صاروا مؤمنين؛ تنفيرًا مما كانوا عليه من عظم كفر النفاق وشناعته، وتفظيعًا لحال من كان متلبسًا به، ومعنىٰ جعلهم مع المؤمنين أن يكونوا رفقاءهم ومصاحبيهم في الدارين.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ مستثنىٰ من قوله: ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾ وقيل مستثنىٰ من قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾. وقيل: هو مرفوع علىٰ الابتداء والخبر قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ وقوله: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أتىٰ بحرف «سوف»؛ لأن ابتداء الأجر يوم القيامة وهو زمان مستقبل ليس قريبًا من الزمان الحاضر، وقد قالوا إن «سوف» أبلغ في التنفيس من السين فيما لو قال: «سيؤتي».

وهنا لطيفة وهي أن اللَّه لم يعد الضمير عليهم حيث لم يقل: «وسوف يؤتيهم» بل أخلص ذلك الأجر للمؤمنين وهم رفقاؤهم بتوبتهم

النصوح الصادقة، فيشاركونهم فيما يؤتيهم اللَّه من الأجر العظيم ويساهمونهم فيه، وفي هذا أعظم دليل علىٰ شرف أهل الإيمان الأصيل الذين لم تشبه شائبة، فمتىٰ يصفون إيمانهم؟

وعلم مما تقدم أن هذه الآية فيها تغليظات عظيمة علىٰ توبة المنافقين، مما يدل علىٰ شناعة حالتهم وشدتها عند اللَّه، كما فيها الإخبار بزيادة ثواب المؤمن الذي لم يسبق منه نفاق أصلًا.

❁ ❁ ❁

فهرس الموضوعات

خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾: . ١٧٩

قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾: ١٨٥

قوله ﷻ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾: ١٩٤

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾: ٢٠٤

قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾: ٢٢٣

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾: ٢٢٧

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾: ٢٣٣

قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾: ٢٤٣

قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾: ٢٥٢

قوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾: ٢٥٦

قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾: ٢٦٠

قوله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾: ٢٨٢

قوله ﷻ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾: ٢٨٦

قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ

عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾: ٥٨٤

قوله ﷻ: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾: ٥٩٢

قوله ﷻ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾: ٦٠١

قوله ﷻ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾: ٦٠٧

قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾: ٦١٣

قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾: ٦١٧

قوله ﷻ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾: ٦٢٠

قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾: ٦٢٤

قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ